بالكاد نجَوت

كيف ساعدَتْني ١٣ شخصيَّةً استثنائيَّة
على أن أنجوَ بإيماني



فيليب يانسي

بالكاد نجَوت

ستقرأ في هذا الكتاب عن ١٣ شخصيَّةً استثنائيَّة ساعدَت فيليپ يانسي على النجاة بإيمانه، وهذه الشخصيَّات هي:

مارتن لوثر كِنغ الابن

جي. كاي. تشيسترتون

د. پول براند

د. روبرت كولز

ليو تولستوي

فيودور دوستويڤسكي

المهاتما غاندي

د. سي. إيڤرت كوپ

جون دون

آني ديلارد

فريديريك بوشنر

شوساكو إندو

هنري نووين

بالكاد نجَوت

بالكاد نجَوت

كيف ساعدَتْني ١٣ شخصيَّةً استثنائيَّة على أن أنجوَ بإيماني

فيليپ يانسي

ترجمة

عصام داود خوري

ساعد في تحرير الاقتباسات

د. سهيل جوعانة

أوفير
ophir

Published in association with the literary agency of Alive Communications, Inc., 7680 Goddard Street Suite 200, Colorado Springs, CO 80920., USA. www.alivecommunications.com.

Originally published in English under the title: **Soul Survivor** by DOUBLEDAY a division of Random House, Inc. Copyright © 2001 by SCCT. All rights reserved.

Author Philip Yancey.

بالكاد نجّوت

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٢

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+

فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٢/٤٥٨٣

ISBN 978-90-5950-134-8

المحتويات

الفصل الأوّل

الشفاءُ من إساءة الكنيسة

في بعض الأحيان، بينما أكونُ جالسًا في غرفة الانتظار أو على متنِ إحدى الطائرات، أستَهلُّ حديثًا مع غرباء يعرفون من خلاله أنّي أكتُبُ كتبًا عن موضوعاتٍ روحيَّة. فتَتقوَّسُ الحواجب وتبرز الحواجز، وغالبًا ما أسمعُ قصَّةَ رعبٍ أخرى عنِ الكنيسة. لا بدَّ أنَّ الجالسين بقربي يتوقَّعون منّي الدفاع عنِ الكنيسة لأنَّهم يُفاجَأون دائمًا عندما أُجيب: "آه، إنَّ الأمرَ أسوأ من هذا. فلأروِ لكَ قصَّتي". لقد أمضَيتُ معظمَ حياتي وأنا أتعافى من الكنيسة.

إحدى الكنائس التي كنتُ أواظبُ على حضور اجتماعاتها في جورجيا، وذلك خلال سنوات نشأتي في ستّينيّات القرن الماضي- قدَّمَتْ نظرةً مُغلَقةً بإحكامٍ إلى العالَم. كانت هناك لوحةٌ تتصدَّرُ الواجهةَ تعلنُ بفخرٍ هُوِيَّتنا بكلمات تشعُّ من نجمٍ متعدِّدِ الزوايا:

"كنيسةُ العهد الجديد التي اشتُريَت بالدَّم، المولودةُ ثانيةً، والتي تؤمن بالحكم ما قبل الألفيّ، تدبيريَّة، أصوليَّة...". كانت مجموعتُنا المؤلَّفةُ من مئتَي شخصٍ تحتَكرُ الحقّ- الحقَّ المتعلّقَ بالله، وكان كلُّ شخصٍ يُخالفنا الرأي يقفُ بالتأكيد على حافَةِ الجحيم. ولمَّا كانت عائلتي تقيمُ في بيتٍ متنقّلٍ على أرض الكنيسة، لم أستَطع الإفلات البتَّة من الغيمة التي ألقَتْ

بظلالها عليَّ وحجبَتْ عنّي الرؤية ورسمَتْ حدودَ عالمي.

بدأتُ أدركُ في وقتٍ لاحقٍ أنَّ الكنيسةَ مزجَتِ الأكاذيبَ والحقائق معًا. مثلًا، كان القسُّ يكرزُ عنِ العنصريَّة بصورةٍ واضحةٍ قويَّةٍ من على منبر الكنيسة. كان يقولُ إنَّ العِرقَ الأسوَدَ ملعونٌ من الله، مقتَبِسًا فِقرةً مُلتَبسةً من سفر التكوين. إنَّهم يؤدُّون العملَ على نحوٍ جيِّد بصفتهم خَدَمًا، لا كَونَهم قادةً- "انظروا فقط كيف يتَمايَلُ النادلون الملوَّنون في المطاعم بين الطاولات، ويحرِّكون أردافهم بينما يحمِلون الأطباق". ذهبْتُ متَسلِّحًا بهذه العقائد لألتحقَ بوظيفتي الأولى عاملًا خلال فصل الصيف في مركَز الأمراض السارية المرموق قرب أتلانتا. وهناك قابَلتُ المشرفَ، وهو الدكتور جيمس تشيري (James Cherry)، الذي يحملُ شهادةَ الدكتوراه في الكيمياء الحيويَّة، وهو رجلٌ أسود. كان هذا أمرًا غير منطقيّ.

بعد التخرُّج في المدرسة الثانويَّة، التَحقتُ بكلِّيَّة اللاهوت في ولايةٍ مجاورة. كانت هذه الكلِّيَّةُ أكثرَ تقدُّميَّةً من كنيستي الأولى؛ لأنَّها قَبِلَتْ طالبًا أسودَ في صفوفها، ولكي يُبقوا على الأمور في وضعٍ آمن، وضَعوا معه في غرفته رفيقًا من بورتوريكو. كانت هذه الكلِّيَّةُ تؤمنُ بالكثير الكثير من القواعد، حتَّى إنَّها كانت مكتوبةً في ستٍّ وستِّين صفحة، وقد كانت قواعدَ قيِّمةً بالفعل، وكان علينا نحن الطلبةَ أن ندرسَها ونوافقَ على التقيُّد بها. كان أعضاءُ هيئة التدريس والموظَّفون يبذلون جَهدهم ليكونَ لكلِّ قاعدةٍ من هذه القواعد مبدأٌ في الكتاب المقدَّس. وكان هذا العمل يتطلَّب درجةً من الإبداع؛ لأنَّ بعضَ هذه القواعد (مثل تلك التي تشرِّع طولَ شعر الرجال وتنانير النساء) كانت تتغيَّر من سنةٍ إلى أُخرى. وحينما كنتُ في السنة الرابعة في الكلِّيَّة ومخطوبًا، لم أستَطع أن أُمضيَ وقتًا مع المرأة التي هي الآن زوجتي إلَّا خلال وقت العشاء، من الخامسة والنصف مساءً إلى السابعة. قُبِضَ علينا مرَّةً بينما كنَّا ممسكَين بيَدي بعضنا بعضًا، فوُضِعنا "تحت المراقبة"، أيْ مُنِعْنا من رؤية بعضنا أو التحدُّث مع بعضنا بعضًا لمدَّة أُسبوعين. في الخارج، في مكانٍ ما في العالم الكبير البعيد، كان طلَّابٌ آخرون يتَظاهَرون ضدَّ الحرب في ڤيتنام، وينظِّمون مسيراتٍ دفاعًا

عنِ الحقوق المدنيَّة فوق جسر سيلما في ولاية ألاباما. كما كانوا يتَجمَّعون للاحتفال بالحبِّ والسلام في وودستوك في نيويورك. في أثناء ذلك، كُنَّا نحن مُنشَغِلين بتعلُّم عقيدة الاختيار قبل السقوط، وبقياس التنانير وطول الشعر.

بعد وقتٍ قصير من بدء الألفيَّة الثالثة، وتحديدًا في ربيع عام ٢٠٠٠م، اختبَرتُ عَرضًا موجَزًا سريعًا لحياتي. في اليوم الأوَّل، كنتُ أحَدَ أفرادِ مجموعة المحاضرين في مؤتمر في ولاية كارولينا الجنوبيَّة نعالج موضوعَ "الإيمان والفيزياء". رُغمَ أنَّه لم تكنْ لديَّ أيَّةُ خبرةٍ عمليَّةٍ في الفيزياء، فقدْ وقعَ عليَّ الاختيارُ مع ممثِّلٍ من كلِّيَّة اللّاهوت في هارڤرد؛ لأنِّي كنتُ أكتبُ بشكلٍ صريح عن قضايا الإيمان. كانت مجموعةُ المحاضرين تميلُ إلى الجانب العلميّ، حيثُ إنَّها كانت مؤلَّفة من فيزيائيِّين حائزين جائزةَ نوبل، إضافةً إلى مدير المسرِّع النُّوويِّ فيرميلاب (Fermilab) الذي يقعُ بالقرب من شيكاغو.

بدأ أحَدُ الذين حازوا جائزةَ نوبل بالقَول إنَّه ليس في حاجةٍ إلى الدِّين. وفي الواقع، هو يحسبُ الدِّينَ أمرًا ضارًّا ومرتَبِطًا بالخُرافات. ثُمَّ قال: "يدَّعي ١٠٪ من الأميركيِّين أنَّهم اختُطِفوا من قِبَل مخلوقاتٍ من الفضاء الخارجيّ، ونصفهم يؤمنُ بالخليقة، والنصف الآخرُ يقرأ طالِعَه في الأبراج كلَّ يوم. لماذا نُدهَش إذا كانَتِ الأكثريَّة تؤمن بالله؟" لقد نشأ يهوديًّا متمسِّكًا بعقائده، لكنَّه الآن ملحدٌ متشدِّد.

كانت كلماتُ العلماء الآخرين أكثرَ تَعاطُفًا مع الدِّين، لكنَّهم قالوا إنَّهم يحصُرون مجالَ رؤيتهم بما يمكن ملاحظتُه وإثباتُ حقيقته، ممَّا يعني- بحكم التعريف- استبعادَ معظم مسائل الإيمان. عندما حان دَوري لأتحدَّث، اعترفْتُ بالأخطاء التي ارتكبَتْها الكنيسةُ وشكرتُهم على أنَّهم لم يُعدِمونا نحن المسيحيِّين حرقًا لمَّا كانَتِ الأحوالُ قد تغيَّرتْ لمصلحتهم. كما شكرتُهم أيضًا على شدَّة نزاهتهم في ما يتعلَّق بوجهة نظرهم التي لا تؤمن بإلهٍ واحد. ثُمَّ قرأتُ مقتطفات ممَّا كتبَه تشيت رايمو (Chet Raymo)، وهو عالِمٌ فلكيٌّ وكاتبٌ علميّ، والذي حَسَبَ الاحتمالات التي تواجِهُ عالَمَنا نتيجةَ الصدفة فقط، كما يعتقدُ هو:

> إذا كانت نسبةُ كثافة الكَون إلى معدَّل امتداده بعد ثانية واحدة من الانفجار الأعظم قد اختلَفَتْ عن قيمته الافتراضيَّة بجزءٍ واحدٍ فقط من ١٠^١٥ (أيْ ١ يتبعُه ١٥ صفرًا)، فإنَّ الكونَ يكونُ إمَّا قدِ انهارَ بسرعة على نفسه، وإمَّا أنَّه انتفَخَ بسرعةٍ حتَّى إنَّ النجومَ والمجرَّات لا يمكن أن تكونَ قد تكثَّفَتْ من المادَّة الأوَّليَّة... قُذِفَت قطعةٌ نقديَّةٌ في الهواء ١٠^١٥ مرَّة ولم تسقط على حرفِها (حافَتِها) إلَّا مرَّةً واحدة. لو كانت جميعُ حبَّات الرمل على شواطئ الأرض عوالِمَ محتَمَلةً- أيْ عوالِمَ متوافِقةً مع قوانين الفيزياء كما نعرفُها- ولو كانت حبَّةٌ واحدةٌ من حبوب الرمل هذه كونًا يسمَحُ بوجود حياةٍ عاقلة، عندئذٍ تكونُ حبَّة الرمل هذه هي الكون الذي نعيشُ فيه.

بعد انتهاء مجموعة المحاضرين من إلقاء كلماتِهم، انضمَّ إلى المناقشة شخصان يحوزان جائزةَ نوبل، أحَدُهما في الفيزياء والآخر في الكيمياء، بالإضافة إلى بعض المسيحيِّين من ذوي الفكر السَّديد. طلبَ أحَدُ علماء الفيزياء أن يرى الاقتباسَ الذي قرأتُه؛ حيث إنَّه كان صديقًا شخصيًّا لرايمو. فكَّرَ مليًّا للحظة ثُمَّ قال وهو يفكِّر بصوتٍ مسموع: "عشرةٌ إلى القوَّة خمسة عشر، عشرة إلى القوَّة خمسة عشر... ما دام هناك ١٠^٢٢ نجمًا في الكون- إذًا، أستطيع أن أتقبَّل ذلك. سأقبَلُ بهذه الاحتمالات". ثُمَّ انتَقَلْنا إلى انتقاد الدِّين. نعم، لقد ألحقَ الدِّين ضَرَرًا، لكنْ لنأخُذْ في الحسبان الأمورَ الجيِّدة التي أنجزَها أيضًا. إنَّ النَّهجَ العلميَّ ذاتَه انبثقَ من اليهوديَّة والمسيحيَّة، وهو ما قدَّم العالَمَ على أنَّه نتاجُ خالقٍ عاقل، لذا فهو قابلٌ لأنْ ندركَه وخاضعٌ للتحقُّق من صحَّته. وهكذا فعلَ الطبُّ والتربيةُ والديمقراطيَّة والأعمال الخيريَّة وقضايا العدالة (مثل إلغاء العبوديَّة). إنَّ علماءَ الفيزياء الملحِدين قد أقرُّوا صراحةً وبِحُرِّيَّةٍ أنَّه ليس لديهم أساسٌ حقيقيٌّ لأخلاقيَّاتِهم، وأنَّ كثيرًا من زملائهم قد خَدَموا في الأنظمة النازيَّة والشيوعيَّة دون أدنى تأنيبِ ضمير. تبادَلْنا الآراءَ على نحوٍ رائع، وقد كانت

تلك خبرةً فريدةً للحوار الحقيقيِّ الناتج عن وجهاتِ نظرٍ مختلفةٍ حول الكون.

نهَضْنا أنا وزوجتي باكرًا في اليوم التالي، وقُدْنا السيَّارة مئات الأميال إلى اللقاء الثالث عشر لصفِّ اللَّاهوت في كلِّيَّتنا. وهناك استَمعْنا إلى زملاء الصفِّ وهم يَصِفون العقودَ الثلاثةَ الأخيرة من حياتهم. ذكرَتْ إحداهنَّ أنَّها شُفيَتْ من مرض التهاب المفاصل بعدَ سنواتٍ عندما عالجَتْ موضوعَ خطيَّةٍ غير مُعتَرَفٍ بها في حياتها. وأثْنى آخرُ على ميِّزات النَّوم على المغناطيس الكهربائيّ. كان العديدُ منهم يعانون "مُتَلازمة الإنهاك المزمن"، وآخرون الاكتئابَ الشديد. وكان زوجان قد وَضَعا ابنتَهما المراهِقة في مؤسَّسةٍ للاضطرابات العقليَّة. لا يبدو أنَّ هؤلاء أشخاصٌ أصحَّاء، وشعرتُ بالحزن والتعاطُف عندما سمعتُ قِصَصَهم.

من المفارقات أنَّه عندما كان زملاءُ صفِّي يَرْوون قِصَصَ حياتِهم، ظلُّوا يستَعيدون عباراتٍ كنَّا قد تعلَّمْناها في كلِّيَّة اللَّاهوت: "الله يُعطيني الغَلَبة... أستطيعُ كلَّ شيءٍ في المسيح... كلُّ الأشياء تعملُ معًا للخير... أنا أَسيرُ منتَصِرًا". غادرْتُ ذلك اللقاءَ وأنا أشعرُ بِدوارٍ في رأسي. كنتُ أتساءَلُ باستمرارٍ كيف سيكون ردُّ فِعْل العلماء المَتشكِّكين لو أنَّهم حَضَروا لَمَّ شمل طلَّاب صفِّي. أتصوَّرُ أنَّ العُلَماءَ كانوا سيُشيرون إلى انفصالٍ ما بين حياةِ زملائي المرئيَّة، والغطاءِ الروحيِّ الموضوع على حياتِهم.

في صبيحة اليوم التالي، وكان يومَ أحَد، نهضْنا باكرًا مرَّةً أخرى وقُدْنا السيَّارة مسافةَ مئتي ميل (نحو ٣٢٠كم) إلى أتلانتا لحضور "دَفْنِ" الكنيسة الأصوليَّة التي نشأتُ فيها، كنيسة النجم متعدِّد الزوايا. بعد أن انتقلَتِ الكنيسةُ هَرَبًا من حيٍّ متغيِّر، وجدَتْ نفسَها مرَّةً أخرى محاطةً بأميركيِّين من أصلٍ أفريقيّ، وتَضاءَلَ كثيرًا عددُ الحضور. في مُفارَقةٍ حُلْوة، كانَتِ الكنيسةُ الآن تَبيعُ مَبْناها لرعيَّةٍ من الأميركيِّين من أصلٍ أفريقيّ. تسلَّلْتُ إلى الداخل لحضور خدمة الصلاة الأخيرة لتلك الكنيسة، التي كان قد أُعلِن عنها كلقاءٍ مفتوحٍ لجميع الذين كانوا يواظبون على حضورها.

عرَفْتُ بعضَ الأفراد من ماضيَّ الذين تغيَّروا بمرور الوقت ممَّا جعَلَني أشعرُ بعدم

الراحة. وجَدْتُ أصدقاء المراهقة الآن بِبطونٍ ضخمة ورؤوسٍ صلعاء وقد صاروا في منتصف العمر. شدَّد القسُّ الذي خدمَ الرعيَّةَ ذاتَها مدَّةَ أربعين سنة على شعار الكنيسة: "الكفاحُ لأجل الإيمان". قال القسّ: "جاهَدْتُ الجهادَ الحسن، أكملْتُ السَّعي". بدا لي أقصرَ ممَّا أتذكّر، وجسدُه أقلُّ انتصابًا، وشعرُه الأحمر قد صارَ باللَّون الأبيض. شكرَ الرَّعيَّة عدَّة مرَّات على سيَّارة "الأولدزموبيل" التي قدَّموها إليه بوصفها عطيَّة محبَّة، واستَمرَّ في القول: "ليسَتْ عطيَّةً سيِّئةً لقسٍّ صغيرٍ فقير". في أثناء الخدمة المطوَّلة، وقفَ موكبٌ من الأشخاص وشهدوا كيف تعرَّفوا إلى الله من خلال هذه الكنيسة. عندما كنتُ أستَمعُ إليهم، تخيَّلتُ موكبَ الأشخاص غير الموجودين- أشخاصٍ مثل أخي الذي كان ابتعاده عن الله، في جزءٍ كبيرٍ منه، بسبب هذه الكنيسة. نظرتُ الآن بشَفَقةٍ إلى روحها المثيرة للجدل، في حين أنَّها عصرَتِ الحيويَّة والإيمان واستخرجتهما من حياتي. ما عادَ للكنيسةِ الآن أيَّة سُلطةٍ عليَّ، ولم تَعُدْ لدغتُها تحملُ السُّمَّ. غير أنِّي كنتُ أُذكِّر نفسي باستمرار أنِّي تخلَّيتُ عنِ الإيمان المسيحيِّ تقريبًا كردِّ فعلٍ على هذه الكنيسة، وشعرْتُ بشَفَقةٍ على الذين تخلَّوا عن إيمانهم وتعاطَفتُ معهم.

إنَّ نهايةَ الأسبوع تلك، قدَّمت لقطةً متكرِّرةً لحياتي. تساءلت قائلًا: "إلى أين أنتمي الآن؟" رفضْتُ منذ مدَّة طويلةٍ الروحَ الطائفيَّة للكنيسة التي قد ساعدْتُ لتَوِّي على دَفنِها. لكنِّي لم أستطع أيضًا أن أتوافَقَ مع الشكوكيَّة المادِّيَّة للعلماء الذي كانوا ضمنَ مجموعة المحاضِرين. ومع أنَّهم قد يراهنون على حبَّةِ رملٍ رائعة في مواجَهة قوى العشوائيَّة، فإنِّي لا أستَطيعُ أنا أن أفعَلَ هذا. من الناحية اللَّاهوتيَّة، ربَّما أشعرُ بقَدْرٍ أكبرَ من الراحة في الانتماء إلى كلِّيَّة اللاهوت الإنجيليَّة، حيث إنَّ لدينا عاملًا مشتَركًا هو التعطُّش إلى الله، وتبجيل الكتاب المقدَّس، ومحبَّة يسوع. ومع ذلك، لم أجِدْ هناك توازُنًا كبيرًا أو وضعًا صحِّيًّا. في بعض الأحيان، أشعرُ كأنِّي الشخصُ الأكثرُ تحرُّرًا بين المحافظين، وفي أحيانٍ أخرى كأنِّي الشخصُ الأكثرُ محافَظةً بين المتحرِّرين. كيف يمكنُ لي أن أطابِقَ ما بين ماضيَّ الدينيِّ وحاضِري الروحيِّ؟

قابَلتُ أشخاصًا عديدين، وسمعتُ من كثيرين آخرين كانوا قد مرُّوا بعمليَّةٍ مُشابِهة لاستخراج الحقيقة من ماضيهم الدينيّ: الروم الكاثوليك الذين يجفلون عندما يَرَونَ كاهنًا أو راهبة، وأتباع الطائفة السبتيَّة الذين لا يستطيعون شُرْبَ فنجانِ قهوة دون إحساسٍ بالذّنب، وأتباع طائفة المينونايت (Mennonites) الذين يُقلقِهم ما إذا كانت خواتمُ الزواج تدلُّ على الاهتمام بالأمور الدنيويَّة أم لا. يرفضُ بعضُهم الآن الكنيسةَ كلِّيًا ويحسبون المسيحيِّين مصدرَ تهديدٍ وربَّما أشخاصًا مثيرين للاشمئزاز.

تُجسِّدُ إحدى شخصيَّات ووكر پيرسي (Walker Percy) في كتابه "**المجيء الثاني**" *(The Second Coming)* هذا الموقِفَ بشكلٍ جيِّد:

> أنا محاطٌ بالمسيحيِّين. إنَّهم بصورةٍ عامَّة جماعةٌ مَرِحةٌ ومُرضِية، ومن الملاحظ أنَّهم لا يختَلفون عنِ الأشخاص الآخرين. مع أنَّهم- مسيحيُّو الجنوب والولايات المتَّحدة الأميركيَّة والعالَم الغربيّ- قتلوا من الناس عددًا يفوقُ ما قتَلَه بقيَّةُ البشر مجتَمعين. لكنِّي لا يمكنُ أن أتأكَّدَ من أنَّهم لا يملكون الحقيقة. لكنْ إذا كانوا يملكون الحقيقة، فلماذا يوصَفون بأنَّهم بغيضون، تحديدًا لأنَّهم يتَبنَّون الحقيقةَ ويُعلنونها؟ يمكنُ للمرء حتَّى أن يصيرَ مسيحيًّا إذا وُجِدت قلَّةٌ من المسيحيِّين، أو حتَّى إنْ كان للمسيحيِّين وجودٌ أصلًا. هل عِشْتَ مرَّة وسط خمسةَ عشر مليون شخصٍ من الطائفة المعمدانيَّة؟ إنَّه لأمرٌ غامض: إنْ كانَتِ الأخبارُ السارَّةُ حقيقيَّةً، فَلِمَ لا يُسرُّ أحدٌ بسماعها؟

سؤاله الأخيرُ يدوِّي عاليًا. إذا كان الإنجيلُ قد جاءَ بوصفه "**نهايةً سعيدة**"، وهي الكلمة التي استخدمها جاي. آر. آر. تولكين (J. R. R. Tolkien) لوَصْفِ أمرٍ جيِّدٍ ومُذهِل يحدُثُ لأشخاصٍ سيِّئين بصورةٍ مُذهلة، لماذا يحسبُه عددٌ قليلٌ من الناس أخبارًا سارَّة؟

لقد صرتُ الآن كاتبًا، كما أعتقد، لأفرزَ الكلماتِ التي تستخدمُها كنيسةُ صِباي وتُسيء استخدامها. ومع أنّي سمعْتُ أنَّ "الله محبّة"، فإنَّ صورةَ الله التي وصلَتْني من العِظات كانت تُشبِهُ كثيرًا طاغيةً غاضبًا ومُنتقِمًا. كنّا نرنّم "حُمرٌ، صُفرٌ، سودٌ، بيضٌ- كلُّهم يحبُّهم..."، لكنِ انظُرْ إلى ما سيَحدُثُ إذا سمحْتَ لأحَدِ هؤلاء الحُمر أوِ الصُّفر أوِ السُّود بدخول كنيستنا؛ كان أساتذةُ الجامعات يصرُّون على القول: "نحن لا نعيشُ تحت الناموس بل تحت النعمة"، لكنّي لم أستَطع أن أميِّزَ تمامًا الفرقَ ما بين هاتَين الحالتَين. ومنذ ذلك الوقت إلى الآن، لا أزالُ مستمرًّا في عمليَّة بحثٍ لاكتِشاف حقيقةِ الأخبار السارَّة، وبحثٍ عن كلمات الإنجيل الأصليَّة واكتشاف ما يَعنيه الكتابُ المقدَّس باستخدامه كلماتٍ مثل "**محبَّة ونعمة ورأفة**" للتَّعبيرِ عن صفات الله. أحسَسْتُ بأنَّ هناك حقًّا في هذه الكلمات- الحقَّ الذي ينبغي البحث عنه بمثابرةٍ ومهارة، مثل تلك الروائع الجصِّيَّة الموضوعة تحت طبقاتٍ من الجصِّ والطلاء في المعابدِ العتيقة.

شعرتُ بأنَّ الكتابةَ تجتذبُني لأنَّها فتحَتْ أمامي شقوقًا من النور صارَتْ نافذةً تطلُّ على عالَمٍ آخر. أتذكَّرُ تأثيرَ كتابٍ معتَدلٍ مثل كتاب "**قَتْلُ الطائر المحاكي**" *(To Kill a Mockingbird)*، الذي ألقى الشكوكَ حول افتراضات الفصل العنصريِّ الخاصَّة بمَن هم حولي من أصدقاء وجيران. وعندما أخذْتُ أقرأُ كتابَ "**أسودُ مِثلي**" *(Black Like Me)*، و"**السيرةُ الذاتيَّةُ لمالكوم أكس**" *(The Autobiography of Malcolm X)*، ووثيقة "**رسالةٌ من سجن مدينة برمنغهام**" *(Letter from Birmingham City Jail)* التي كتَبَها مارتن لوثر كِنغ (Martyn Luther King)- حينما قرأتُها كلَّها تحطَّمَ عالَمي. شعرتُ بالقوَّة التي تسمَحُ لعَقلِ إنسانٍ واحدٍ أن ينفَذَ إلى عَقلِ إنسانٍ آخرَ دون وسيط، باستثناء هذه الورقة. وجدْتُ أنَّ الكتابةَ يمكنُ أن تتسرَّبَ إلى الشقوق وتجلبَ الأوكسجين إلى أشخاصٍ محاصَرين في صناديقَ مُحكمَةِ الإغلاق.

صرتُ أقدِّرُ بشكلٍ خاصٍّ قيمةَ نَوعيَّةِ الكلمة المكتوبة التي تعزِّز الحرِّيَّة. كان باستِطاعةِ المتكلِّمين في الكنائس التي كنتُ أرتادُها **رَفْعَ أصواتِهم** واللعب على أوتار

العواطف كأوتار آلاتٍ موسيقيَّة. لكنِّي بينما كنتُ وحيدًا في غرفتي أقلِّبُ الصفحات كما أريدُ، قابَلْتُ ممثِّلين آخرين للإيمان: سي. أس. لِويس (C. S. Lewis) وجي. كاي. تشيسترتون (G. K. Chesterton) وجون دون (John Donne)- هؤلاء الذين كانت أصواتُهم الأكثرَ هدوءًا تجتازُ الوقتَ لتُقنِعَني بأنَّه في مكانٍ ما، كان هناك مسيحيُّون يعرفونَ النعمة كما يعرفون الشريعة، والمحبَّة كما الدَّينونة، والمنطقَ كما العاطفة. صرتُ كاتبًا بسبب لقائي قُوَّةَ الكلمات، وكسبْتُ الرجاءَ بإمكانيَّة إصلاح الكلمات المشوَّهة التي انتُزِعَ منها معناها الأصليّ.

منذ ذلك الحين وحتَّى الآن، تمسَّكتُ بتَصميم قَويٍّ بموقف الرحَّالة؛ لأنَّ هذا هو كلُّ كِياني. ليسَتْ لديَّ صفةٌ دينيَّةٌ رسميَّة. أنا لستُ قسًّا أو معلِّمًا، لكنِّي رحَّالةٌ عاديّ، شخصٌ واحدٌ من بين كثيرين يقومون بعمليَّة بَحْثٍ روحيَّة. أنا أناقشُ إيماني وأُعيدُ تقييمَه في كلِّ مرَّةٍ بصورةٍ غريزيَّة لا يمكن تجنُّبُها. عندما عُدتُ من عطلة نهاية الأسبوع، التي أصابت رأسي بالدُّوار، بين علماء الفيزياء وزملاء كلِّيَّة اللَّاهوت والأصوليِّين الجنوبيِّين، سألْتُ نفسي ثانية: "لماذا أنا مسيحيّ؟" ما الذي يدفعُني للسَّعي وراء إنجيلٍ وصَلَني وسطَ الكثير من التَّشويه والتَّشويش والجمود، والذي يبدو في كثيرٍ من الأحيان مثل أخبارٍ سيِّئة وليست سارَّة.

لكلِّ كاتبٍ موضوعٌ رئيسيٌّ واحد، أثرٌ يتحقَّقُ منه ويقتَفيه ويتتبَّعُ مصدرَه. إذا أردْتُ أن أعرِّفَ موضوعي، فسيكون عن شخصٍ تشرَّبَ بعض أسوأ ما يمكن للكنيسة أن تقدِّمَه، ومع ذلك هبطَ في أحضان الله المُحِبَّة. أجل، واجَهْتُ فترةَ رَفْضٍ للكنيسة وله، واختبارَ تحوُّلٍ عكسيٍّ شعرتُ فيه بالتَّحرُّر بعضَ الوقت. لكنِ انتَهى بي المطاف، لا ملحدًا أو لاجئًا خارج الكنيسة، بل أحَد المدافعين عنها. ما الذي سمحَ لي بأنْ أحرِّرَ إيماني الشخصيَّ من الآثار المدمِّرة للدِّين؟

إنَّ الأشخاصَ الذين يرسُمُ هذا الكتاب شخصيَّتَهم، يبذلون جهودًا قلبيَّةً صادقةً للإجابة عن ذلك السؤال. في أثناء عملي صحفيًّا مدَّة ثلاثين عامًا، أُتيحَتْ لي حرِّيَّةُ

التحقُّق من جميع الأشخاص على مختلف أنواعهم. قابلْتُ شخصيَّاتٍ تَتَناسَبُ مع شخصيَّاتِ إحدى قِصَص فلانري أوكونور (Flannery O'Connor). وأجرَيتُ مقابلةً مع الكارز التلفزيونيِّ جيم باكر (Jim Bakker) وهو في أوج سيطرته الغريبة على الشقق باهظة الثمن، والأكواخ المكيَّفة، وذلك في الاستوديو المترف والمتنزَّه المسيحيّ، ثُمَّ شاهَدْته وهو ينكرُ علنًا عباراتٍ كان قد قالَها لي ضمنَ شريطٍ مسجَّل. واستمعْتُ إلى فتاةٍ من لاس ڤيغاس تذكُرُ كيف تعرَّفت إلى الله بينما كانت مستَلقِيةً على طاولة العمليَّات لتَكبير صدرها، وبينما هي تحت تأثير المخدِّر، شاهدَتْ حُلُمًا يدورُ حول قاطراتٍ تشبه الشاحنات مصنوعة من اللحم البشريّ، وقالتْ: "كان كلُّ شيءٍ مصنوعًا من اللحم حتَّى شرائح الطين"- وكانت القاطراتُ تُفرِغ شحنةً من مراهِقاتٍ أميركيَّاتٍ في بحيرةٍ من نار.

غير أنِّي كنتُ أحاولُ في معظم الأوقات أن أتجنَّبَ مثل هؤلاء الأشخاص، على الرُّغم من أنَّ رفقتهم ربَّما تكونُ مُسلِّية. لقد ذكَّروني كثيرًا بماضيَّ الذي كنتُ لا أزالُ أحاولُ الهربَ منه. بدلًا من ذلك، قرَّرتُ في مرحلةٍ مبكِّرةٍ من مهنتي الصحفيَّة أن أتعرَّف إلى أشخاصٍ وأستَكشفَ أشخاصًا يكون بإمكاني التعلُّم منهم. ووددتُ لقاء أشخاصٍ قد أرغب في محاكاتهم. وحيثُ إنِّي نشأتُ مع نماذج هي في غالبيَّتها سلبيَّة، فقد كنتُ أتوقُ لأنْ أوجَدَ مع نماذجَ إيجابيَّة. وقد وجدْتُ بعضًا منها.

اشتدَّتْ خَيبةُ أمل المليونير والرياديِّ ميلارد فولر (Millard Fuller) من التَّنافُس الشديد ما بين الشركات، وبعد أن تحدَّاه القسُّ المتطرِّفُ كلارنس جوردان (Clarence Jordan)، هَجَرَ حياةَ التَّرَف والرَّفاهِيَة وأسَّس منظَّمةً لبناء البيوت للذين لا يستطيعون تأمين ثمنها. احتفَلَتْ مؤسَّسة "هابيتات فور هيومانيتي" (Habitat for Humanity) مؤخَّرًا بالانتهاء من بناء البيت رقم مئة ألف. واخترَعَ شخصٌ إنجيليٌّ مشيَخيٌّ متديِّنٌ يُدعى جاك ماك كونيل (Jack McConnell) اختبارَ الناتىء أو السُّلِّين (Tine Test) لمرضى التدرُّن الرئويّ (السُّلّ)، كما ساعَدَ على تطوير مسكِّن التايلنول والتصوير بالرَّنين المغناطيسيّ، ثُمَّ قرَّر أن يعملَ ثانيةً بعد تقاعُده لكي يستَقطبَ أطبَّاءَ متَقاعدين

للعمل في مستَوصَفاتٍ طبِّيَّة مجَّانيَّة للفقراء. والتحقَتْ ديم سيسيلي سوندرز (Dame Cicely Saunders) بكلِّيَّة الطبِّ وهي في منتصف العمر؛ لأنَّ السلطات قالت لها: "في هذه المهنة، لا يستمعُ الناس إلَّا إلى الأطبَّاء"؛ لم تمارِسِ الطبَّ قطّ، لكنَّها بدلًا من ذلك، أشعلَتْ شرارةَ حركة المشافي الحديثة وأطلقَتْ أسلوبَ رعايةٍ جديدًا للأشخاص المشرفين على الموت. وأسَّس السير غيليان پرانس (Ghillean Prance)، عندما كان مديرَ الحدائق النباتيَّة في نيويورك، والحدائق النباتيَّة الملكيَّة في كيو بإنكلترا- مَعهَدًا يتألَّفُ اسمُه من كلمتَين متناقِضتَين، علم النبات الاقتصاديّ، يوضِحُ لمالكي الغابات المطيرة في العالم كيف يكونُ بإمكانهم جنيُ المزيد من المال بإعادة الغَرس وحَصاد المنتجات انتقائيًّا، بدلًا من قَطْع الأشجار كلِّيًّا. بعدما أجرَيتُ مُقابَلاتٍ مُطوَّلةً مع كلِّ واحدٍ من هؤلاء الأشخاص، عدْتُ وأنا متأثِّرٌ ومعجبٌ كثيرًا بالدَّور الذي يستطيعُ أن يقوم به مواطِنون عاديُّون يغذِّيهم الإيمانُ في تعزيز قضايا العدالة والرحمة وتقدُّمها.

قال اللَّاهوتيُّ إيرينايوس (Irenaeus) الذي عاش في القرن الثاني: "إنَّ مجدَ الله هو شخصٌ حيٌّ تمامًا". ممَّا يدعو للحزن أنَّ هذا الوصف لا يعكسُ الصورةَ المنطَبعةَ في ذِهْن العديد من الناس عنِ المسيحيِّين العصريِّين. سواءٌ كان ذلك صوابًا أم خطأً، فهم يرَون المسيحيِّين أشخاصًا متعصِّبين ومتَوتِّرين ومَكبوتين، يهزُّون أصابعَهم استنكارًا أكثر من احتفائهم بالحياة. لكنْ لكَوني صحفيًّا، فقد قابلتُ أشخاصًا تعزَّزتْ حياتُهم فعلًا في كلِّ شيءٍ بواسطة إيمانهم. لديهم حياةٌ فُضلى وافرة، ولأنِّي أمضَيتُ وقتًا مع أشخاصٍ كهؤلاء، أردْتُ الاستفادة من ذلك المصدر للحياة لنَفسي، ومن ثَمَّ أنقلُه إلى بقيَّة العالَم.

شخصيَّاتُ هذا الكتاب هم ممثِّلون مختارون لأولئك الذين تعلَّمتُ منهم والذين يتَحدَّونني. يتَقاطَرون من اليابان وهولندا وروسيا والهند وإنكلترا، بالإضافة إلى أميركا الشماليَّة. ليسوا جميعًا مسيحيِّين متمسِّكين بعقائدهم، وأحدهم- وهو المهاتما غاندي- اتَّخذ موقفًا ضدَّ الدِّين المسيحيّ. غير أنَّهم جميعًا تغيَّروا بصورةٍ دائمة نتيجة اتِّصالهم بيسوع. قابلْتُ نصفَهم شخصيًّا وأجرَيتُ مُقابَلاتٍ معهم، وفي بعض الحالات، تكوَّنَتْ

صداقةٌ دامَتْ مدى الحياة. والنصف الآخر أعرفُه فقط بطريقةٍ غير مباشرة من خلال الكتابات التي تركوها وراءهم. ومن الغريب أنَّ الأكثرَ بُعدًا بينهم من المسيحيَّة القويمة- غاندي، وتولستوي، ودوستويفسكي، وإندو- هم أفضلُ مَن ساعَدَني على فَهم إيماني بتَسليطِ الضَّوء عليه من زاوية لم أكُنْ قد فكَّرت فيها من قبل.

الكُتَّابُ كائناتٌ طُفَيليَّة يمتصُّون الحياةَ من أُناسٍ آخرين، وأنا شاكرٌ بأن أكون مشاركًا بعضَ الشيء في حياة أولئك الأشخاص الاستثنائيِّين. قليلون منهم ساعَدوا على تغيير التاريخ وكوكب الأرض. لبَّى آخرون دعوةً داخليَّة للعمل في الحياة العامَّة. وبعضُهم جَلَسوا فقط في بيوتهم مع مجموعة أوراقٍ يتأمَّلون حياتَهم وأفكارَهم ويصنِّفونها ويسجِّلونها لأجيال المستقبل. وها أنا أفعَلُ الأمرَ ذاتَه الآن، أقدِّم مُرشِدِيَّ هؤلاء كما لو أنَّهم في معرضِ صُوَر، على أمل أن أنقلَ ميراثَهم إلى الآخرين.

لدى الأشخاص الثلاثةَ عشر الذين ستُقابلُهم هنا عاملٌ واحدٌ مشترك: تأثيرهم فيَّ. لهذا السبب كنتُ أسألُ نفسي في كلِّ فصلٍ من فصول هذا الكتاب عنِ التأثير الذي أحدَثوه في حياتي. كيف تغيَّرتُ بسبب اتِّصالي المباشر أو غير المباشر بهؤلاء الثلاثة عشر؟ بمرور الوقت، صار الأشخاصُ الذين وصفتُهم هم الذين شكَّلوا إيماني، أيْ أنَّهم صاروا "سحابةَ شهودي". لو دُعيت إلى مؤتمر ملآنٍ بالمشكِّكين أو بممثِّلين عن دينٍ آخر، وطُلِب منِّي أن أشرحَ عقيدتي، فهؤلاء هم رفقائي الذين أودُّ اصطحابهم معي. أستَطيعُ أن أدلَّ عليهم فقط وأقول: "المسيحيُّون ليسوا كاملين بأيَّة صورةٍ كانت، لكنَّ بإمكانهم أن يكونوا أشخاصًا جرى إحياؤهم بالكامل. هكذا يبدون". كلُّ واحدٍ منهم هو في قمَّة مجاله ويُرجع الفضل للإيمان الشخصيِّ بوصفه أحد أسباب وجوده في تلك القمَّة.

لا بدَّ لي من القول إنَّ كتابةَ هذه الإشادات بهؤلاء الأشخاص كانت أشبَهَ بتمرينٍ صحِّيٍّ، أو بالأحرى هي فرحٌ بالنِّسبة إليَّ. لم أبدأ الكتابة وفْقًا لبرنامَج محدَّدٍ بهدفِ تحويلِ أيِّ شخصٍ عن معتقداته للدِّفاع عن الكنيسة أو حتَّى لانتقادها. أريدُ فقط أن أجعلَ

الآخرين يعرفون غرفةً زاخرةً بأشخاصٍ مميَّزين لا أستطيعُ نسيانَهم ولا أرغبُ في ذلك.

يستخدمُ فريد روجرز (Fred Rogers)، وهو مُضيفُ برنامَج تلفزيونيٍّ للأطفال اسمه "حيُّ السيِّد روجرز" (Mister Rogers' Neighorhood)، تقليدًا في كلِّ مرَّةٍ يتحدَّث فيها. فهو يطلبُ من جمهور المشاهدين أن يتوقَّفوا دقيقةَ صمتٍ ويفكِّروا في جميع الذين ساعَدوهم على أن يصيروا ما هُم عليه. في تجمُّع مَهيب جرى ذاتَ مرَّةٍ في البيت الأبيض، مُنحَ روجرز ثمانيَ دقائق فقط ليتطرَّق إلى قضايا الأطفال، ولكنَّه مع ذلك كرَّس إحدى هذه الدقائق لتكونَ دقيقةَ صمت. قال: "هذا ما سيَتذكَّره الناس على الدوام، ذلك الصمت". عادةً ما يخطرُ في بالي شخصٌ من الماضي- جدٌّ، أو معلِّمٌ من المدرسة الابتدائيَّة، أو عمٌّ غريبُ الأطوار. لقد أمضَيتُ عدَّة دقائقَ وأنا أتأمَّل بِصَمتٍ في سؤال السيِّد روجرز. هذا الكتابُ يمثِّلُ جوابي. هؤلاء هم الأشخاصُ الذين ساعَدوا على استِعادَتي كنوزَ الله الموضوعةَ في غير مكانِها.

الفصل الثاني

مارتن لوثر كِنغ

(Martyn Luther King Jr.)

رحلةُ لَيلٍ طويلةٌ خلالَ النَّهار

يوم تخرَّجتُ في المدرسة الثانويَّة قُربَ أتلانتا، بدأتُ العملَ في حَفْر الخنادق لأدَّخرَ بعضَ المالَ لدراستي الجامعيَّة. كان طاقَمُ عملنا يتألَّفُ من أربعة رجالٍ سود ذوي عضلاتٍ قويَّة، وصبيٍّ نحيفٍ أبيضَ، هو أنا. أوصَلَنا رئيسُ العمَّال الأبيضُ إلى مكان العمل وأوقَفَ مركبتَه تحت ظلِّ شجرةٍ قريبة ثُمَّ أشعَلَ سيجارة وبدأ يقرأ الصفحاتِ الرياضيَّة. مع أنَّنا بدأنا العملَ مباشرةً بعد شروق الشمس، فإنَّ الهواءَ كان ساخنًا ورَطِبًا.

بدأتُ الحفرَ بحيويَّةٍ بالغة وأنا أدفعُ مجرفتي في الأرض بإيقاع، وأضغَطُ بقدميَّ على الحافَة المعدِنيَّة بذبذبةٍ معيَّنةٍ تجعَلُ التراب يتَراخى، ثُمَّ أرميه على كَومةٍ تبعُدُ بضعةَ أقدام. صوتٌ قويٌّ، حفيفٌ، صوتٌ قويّ. وقفَ الرجالُ السُّود الأربعةُ في مكانٍ قريبٍ يشاهدون هذه الحركات الكثيرة المتعاقِبة باستِغرابٍ وكأنِّي قدِ اخترعْتُ رياضةً غريبةً جديدة. أخيرًا قال لي أحَدُهم: "يا بُنَيّ، ستَقتلُ نفسَك بوَتيرة العمل هذه. لن تستطيعَ الاستمرارَ حتَّى استراحة شُربِ الماء. راقِبْني". دفعَ الرجلُ نَصْلَ المجرفة في الأرض ووقفَ عليها ثُمَّ توقَّفَ ليَسحَبَ نَفَسًا من سيجارة وهو يتَّكئ على يد المجرفة. وبعد دقيقة أو دقيقتَين، قذفَ بالتُّراب دون مبالاةٍ على الكومة التي صنعتُها أنا، ثُمَّ وضعَ المجرفةَ أرضًا وسحبَ نَفَسًا من

السيجارة عدَّة مرَّات. وتبعَه الرجال الثلاثة الآخرون في ما كان يقومُ به.

لأنِّي كنتُ حَريصًا على كَسْبِ إعجاب رئيس العمَّال في يوم عملي الأوَّل، حدَّدتُ وتيرةَ العمل بحلٍّ وسطٍ ما بين سرعتِهم وسُرعتي. وبحلول استراحة شُرْبِ الماء في الساعة العاشرة، عرفتُ دون أدنى شكٍّ أنَّ ذاك الرجلَ كان على صَواب. كان الـ "تي-شيرت" الذي أرتَديه مبلَّلًا بالعرق ومخطَّطًا بطينِ جورجيا الأحمر. كانت مفاصِلُ قدميَّ تؤلمني. شعرتُ وكأنَّ مُصارعين محترفين كانوا يقفِزون صعودًا وهبوطًا فوق ذراعيَّ. كان ظهري أيضًا يؤلمني مثل ظَهْر رجلٍ مُسنّ، وسِرتُ بظهرٍ مُنْحَنٍ إلى مركبة رئيس العمَّال للحصول على الماء.

وقَفْنا في صفٍّ عند الجزء الخلفيِّ من الشاحنة، وأخَذَ كلُّ واحدٍ منَّا بِدَوره يشربُ من وعاءٍ مَعدِنيٍّ كان موضوعًا في الشمس الحارَّة طوال النهار، ممَّا جعلَ الماءَ أكثرَ سخونةً من درجة حرارة الهواء. كان هناك كوبٌ واحدٌ تالفٌ من الصفيح معلَّقٌ بسلسلةٍ بجانب وعاء الماء، فشربَ منه الرجالُ كلٌّ بِدَوره. وفجأةً لَمَحَني رئيسُ العمَّال في مرآته الخلفيَّة، فقال: "ماذا تفعلُ يا فتى؟ تعالَ إلى هنا". فذهبْتُ مُطيعًا إلى قُمرة القيادة في المركَبة. قال لي: "ادخُلْ، ينبغي ألَّا تشربَ من هذا الماء. إنَّه ماءٌ للسُّود. خُذْ، جلبْتُ بعضَ الماء لنا". ثُمَّ حلَّ غطاءَ زجاجةٍ مبطَّنةٍ حافظة للحرارة، وصبَّ لي ماءً باردًا جدًّا في كوبٍ وَرَقيّ.

وُلِدتُ في أتلانتا، جورجيا في عام ١٩٤٩م، قبل خمس سنوات من صدور قرار المحكمة العُلْيا الخاصّ بالسَّماح بالمدارس المختلطة الأعراق، وقبل خمسةَ عشرَ عامًا من فَرض قانونِ الحقوق المدنيَّة للمطاعم والفنادق الصغيرة يوجب تقديم الخدمة لجميع الأعراق، وستَّة عشر عامًا قبل أن يضمنَ مجلسُ الشيوخ في الولايات المتَّحدة حقَّ الأقلِّيَّات في التَّصويت في الانتخابات. في تلك الأيَّام، كان يوجَدُ في محطَّات الوُقود ثلاثُ دوراتِ مياهٍ مختلفة مكتوبٌ فوقَها: النساء البيض، الرجال البيض، الملوَّنون. وكان يوجَد في المتاجر الكبيرة صنبورا ماءٍ للشرب، أحدُهما للبيض والآخر للملوَّنين. كما كان هناك

في كثيرٍ من المتاحف يومٌ واحدٌ خُصِّص للملوَّنين، وفي ما عدا ذلك، كان محظورًا عليهم الدخول إليها. عندما كنتُ أركَبُ الحافلات في أتلانتا، كان العمَّال والخادمات يجلسون بانصياع في الجزء الخلفيّ، وكان لِزامًا عليهم بموجب القانون أن يتخلَّوا عن مقاعدهم إذا أرادَ الركَّاب البيض الجلوس فيها. في ولاية ألاباما المجاورة، كان على السود أن يدخلوا من الباب الأماميّ ليَدفعوا للسائق ثمنَ التذكرة، ثُمَّ يخرجون من الحافلة ويتوجَّهون إلى الوراء ليَدخلوا من الباب الخلفيّ. في بعض الأحيان، كان السائقون الحاقدون يقفلون الباب الخلفي مبكِّرًا وينطلقون بالحافلة تاركين الزَّبائن السود تتقطَّعُ بهم السُّبُل رُغمَ أنّهم كانوا قد دَفَعوا ثمنَ التذاكر.

كان جدِّي يروي لنا قصَصًا عنِ الأيَّام الخوالي عندما كان جدُّه يملكُ مزرعةً كبيرةً ملآنةً بالعبيد الذين اتَّخذَ العديدُ منهم اسم "يانسي" بعد التحرُّر من العبوديَّة. كنَّا نحاولُ في بعض الأحيان أن نتعرَّف إلى السود الذين يحملون اسمَ يانسي من خلال أسمائهم الأولى في دليل الهاتف. عندما كان جدِّي مُراهِقًا، شاهَدَ الأجسادَ معلَّقة تتمايَل من أعمدة الإنارة خلال أعمال الشَّغَب العرقيِّ في عام ١٩٠٦م عندما أعدَمَ البيض الغاضبون خمسين رجلًا أسودَ تقريبًا دون محاكمة بعد إشاعاتٍ عن اعتداءٍ جنسيّ. كان جدِّي يصطحبُ أبي وعمومتي لزيارة مركَز اتِّحاد المحاربين القدامى حيث كانوا يستَمعون إلى الرجال المسنِّين وهم يسردون ذكرياتهم عن "الحرب العدوانيَّة الشماليَّة"، كما كانوا يُطلقون على الحرب الأهليّة (حزمَ أحَدُ هؤلاء الأعمام أمتعتَه وانتقل مع عائلته إلى أستراليا بعدما أرغمَتِ المحاكمُ المدارسَ على دَمْج البيض والسُّود معًا). في كلِّ عيد ميلاد، عندما كنَّا نجلسُ إلى طاولة وليمة جدَّتي الجنوبيَّة المؤلَّفة من الخُضَر والبطاطا المهروسة والبسكويت واللحم والديك الرومي، كان يَظهَرُ عند الباب الخلفيِّ موظَّفون سُود من ورشةِ جدِّي لتَصليح هياكل الشاحنات، يقرَعون الباب ثُمَّ يقفون هناك بارتباك إلى أن يأتي ويُسقِطَ بعض الدولارات الفضِّيَّة في أيديهم إكراميَّة عيد الميلاد.

كنَّا نعيشُ في أوضاع الفَصْل العنصريّ. رُغمَ أنَّ عددَ السود في أتلانتا يوازي تقريبًا عدد البيض، فإنَّنا كنَّا نأكلُ في مطاعمَ مختلفة، ونلعَبُ في حدائقَ عامَّةٍ مختَلفة،

ونلتحقُ بمدارسَ مختلفة، ونذهَبُ إلى كنائسَ مختلفة. كنتُ أرى في بعض الأحيان لَوحاتٍ تقول: "ممنوع دخول الكلاب أوِ الملوَّنين". وبموجب القانون، كان يُحظَرُ على السُّود أن يكونوا ضمنَ هيئة المحلَّفين في القضاء، أو أن يرسلوا أولادَهم إلى مدارس البيض العامَّة، أو أن يستَخدموا دوراتِ المياه المخَصصة للبيض فقط، أو أن يناموا في فندقٍ صغيرٍ للبيض على الطريق العامّ، أو أن يجلسوا في المقاعد الرئيسيَّة في دُور السينما، أو أن يسبَحوا في بركةِ سباحةٍ مخصَّصةٍ للبيض (لأنَّ المنتجعات في ألاباما لم تسمَحْ بِدُخول السُّود، أمضى مارتن لوثر كِنغ الابن ليلةَ زفافه في مكانٍ هو أقربُ ما يكون إلى أمكنة المبيت العامَّة المتوافِرة، ألا وهو قاعة الاستقبال في المكان الذي تُحفَظ فيه الجثث قبل دفنها، والذي كان يملكُه أصدقاءُ العائلة). دعا حاكمُ ولايتنا فريقَ جورجيا تك (Georgia Tech) لكرة القدم الأميركيَّة للتَّخلّي عن دعوتِهم للاشتراك في مباراة الموسم النهائيَّة (Sugar Bowl) في عام ١٩٥٥م عندما عَلِم أنَّ الفريقَ المنافس، فريق پيتسبرغ (Pittsburgh)، يضمُّ لاعبًا أسودَ ضمنَ الفريق الاحتياطيّ. وعندما قدَّم أستاذٌ جامعيٌّ طلبًا ليصيرَ أوَّل شخصٍ من العرق الأسود يلتحق بجامعة مسيسيپي، أحالَتْه السلطاتُ إلى مؤسَّسة الولاية للأمراض العقليَّة، فقط على أساس أنَّ شخصًا أسودَ مختلَّ العقل يرغبُ في الالتحاق بجامعة مسيسيپي.

عندما كنتُ طفلًا، لم أكُنْ أشكِّكُ في النِّظام الذي كنَّا نعيشُ في ظلّه لأنْ لا أحَدَ حَولي كان يشكِّك فيه. وعلى الرُّغم من كلِّ ذلك، كان الشخصَ الأكثرَ شهرةً في كنيستنا زائرٌ غيرُ عاديٍّ اسمه لَستر مادوكس (Lester Maddox) وقد كان يتحدَّث أحيانًا في اجتماعاتِ أخويَّة الرِّجال. تركَ مادوكس الدراسة في المرحلة الثانويَّة، وكان يملكُ مطعمًا للدَّجاج المقليّ اسمه پيكريك (Pickrick)، وكان يضعُ أُسبوعيًّا في صحف أتلانتنا إعلاناتٍ يشجبُ فيها الحكومةَ الفيدراليَّة لمحاولتها انتزاع حقوق الملكيَّة الخاصَّة به. عندما أصرَّتِ الحكومةُ أنَّ عليه تقديم خدماته للزّبائن السود؛ وجاءَتْ مجموعةٌ من أولئك السُّود لاختبار امتيازاتِهم الجديدة، قام زبائنه المعتادون بمطاردتهم وهم يُمسِكون بمقابض الفؤوس، بينما كان مادوكس يلوِّح بمسدَّسٍ من عيار ٣٢م، وبعدها أقفَلَ

مطعمَه احتجاجًا، وكتبَ إعلاناتٍ أشدَّ حدَّةً في الصحف، وافتتحَ مكانًا تذكاريًّا بارزًا يرمزُ إلى وفاة المشاريع الحرَّة، وقد زرتُ بنفسي هذا المكان. كانت موسيقى جنائزيَّة ناعمة تعزفُ في الخلفيّة، بينما نمرُّ نحن المعزِّين بجانب تابوتٍ مغطًّى بقماشٍ أسودَ وُضِعَت فيه نسخةٌ من التعديلات العشرة الأولى على الدستور الأميركيّ.

كان متحف مادوكس يبيع مقابض فؤوسٍ كهدايا تذكاريَّة تُشبه تلك التي استخدمَها رجال الشرطة لضَرْب المتظاهرين لأجل الحقوق المدنيَّة. وكان يعرضُ ثلاثةَ أحجام: للأب، للأمّ، للأولاد، فاشتريتُ الحجمَ المناسبَ للأولاد بالدَّراهم التي كسبتُها من توزيع الصُّحف. كان المقبضُ يبدو كالعصا التي يحملُها رجلُ الشرطة ليلًا، واحتفظْتُ به في خِزانتي (كان مادوكس بطلًا شعبيًّا بالنِّسبة إلى الجنوبيِّين البيض، وصارَ حاكمَ ولاية جورجيا في عام ١٩٦٧م. ولأنَّه لم يكن يستطيعُ الترشُّح لفترةٍ ثانية، انتُخِبَ نائبَ حاكم الولاية، ومن ذلك المنصب، أطلقَ حملتَه بصفتة مرشَّحًا لرئاسة الولايات المتَّحدة عنِ الحزب الأميركيِّ المستقلِّ في عام ١٩٧٢م).

كان السُّودُ بالنسبة إلينا أشخاصًا ننظرُ إليهم نظرةً دونيَّة ونستهزئ بهم- أشخاصًا نشعرُ بأنَّنا أرفَعُ منهم مَقامًا. كانت عائلتي تنتقلُ من مكانٍ إلى آخر عندما يرتفع إيجار السكن، وكنَّا نسكنُ في بعض الأحيان في مَساكنَ حكوميَّة، وفي مواقف الشاحنات المقطورة أحيانًا أُخرى. بحسب علم الاجتماع، كنَّا مؤهَّلين لنكونَ "قمامةً بيضاءَ فقيرة". لكنْ على الأقلّ كنَّا أشخاصًا من العِرق الأبيض.

في الوقت الحاضر، عندما ينظرُ المؤرِّخون إلى الوراء إلى خمسينيَّات وستِّينيَّات القرن الماضي في الجنوب، يُعلِنون أنَّ الوقتَ كان قد حانَ للتَّغيير الاجتماعيّ. يعتمدُ هذا على المنظور الشخصيّ. بالنِّسبة إلى عائلتي وأصدقائي وجيراني وأعضاء كنيستي، فإنَّ الوقتَ لم يكُنْ قد حان بعدُ. كنَّا نرى أنفسَنا وكأنَّنا تحت الحصار، يهدِّدُ أسلوبَ حياتنا بأكملها المحرِّضون مثيرو الاضطرابات من الخارج.

عندما أعلَنَ مديرُ المدرسة عبرَ نظام الاتِّصال الداخليِّ أنَّه جرى إطلاق النار على

الرئيس جون أف. كنيدي (John F. Kennedy)، وقفَ بعضُ الطلّاب في مدرستي الثانويَّة وهَتَفوا مهلّلين فرحًا. ولمّا كان هو الرئيسَ الذي طرحَ اقتراحَ تَشريع الحقوق المدنيَّة، ثُمَّ دعمَ ذلك التشريع بإرسال ضبَّاطٍ فدراليِّين لإرغام جامعة مسيسيبي على قبول أوَّل تلميذٍ أسودَ فيها، وهو جيمس مَريديث (James Meredith)، فإنَّ كنيدي كان يمثِّل تهديدًا لا يُطاق للعنصريَّة التي كنَّا نشعرُ بالراحة وهي تطوِّقنا. حتَّى ذلك الوقت، كان الجمهوريُّون أمثال أيزنهاور (Eisenhower) ونيكسون (Nixon) لا يزالون أعداء للحقوق المدنيَّة؛ وكان الديمقراطيُّون يدينون بالفَضْل "للمنشقِّين" الجنوبيِّين الذين كانوا يُسيطرون على ثلاثة أرباع رؤساء اللِّجان التشريعيَّة في الكونغرس، ويحكُمون في مجلس الشيوخ من خلال تَعطيلِ الجلسات. بوجود كنيدي، فإنَّ عدوَّ الجنوب كان يسكنُ في البيت الأبيض.

أُطلِقَ على مدرستي اسمَ جنرالٍ كونفدراليٍّ اسمه جون بي. غوردون (John B. Gordon). في عام ١٩٦٦م عند تخرُّجي في تلك المدرسة، لم يكن أيُّ طالبٍ أسودَ قد وطأت قدماه حرَمَها. كانت عائلاتٌ من السود قدِ انتقلَتْ إلى الحيّ، وكان البيضُ من كلِّ الأطراف يهربون إلى ستون ماونتن (Stone Mountain) وإلى أماكن في الشرق، ومع ذلك لم يجرؤ أحَدٌ من الآباء السود على تسجيل أولاده في مدرستنا. كنَّا نعتقد يقينًا، وليس لديَّ أيُّ سببٍ لئلَّا أعتقد ذلك الآن، أنَّ مالكوم، وهو صبيٌّ قصيرُ القامة بقصَّة شعرٍ قصيرة، ينتعل حذاءً عليه صفيحة معدنية ويحبُّ بدءَ المشاجرات، هو وحده الذي أبعَدَهم؛ ولأنَّه كان معروفًا بكونه حفيد التنِّين الأكبر وهي رتبة رفيعة في جمعيَّة كو كلاكس كلان (Ku Klux Klan)، فقد نشرَ خبرًا مَفادُه أنَّ أوَّل تلميذٍ أسودَ يدخلُ مدرستَنا سيُرسَل إلى بيته في نعش.

كان لجمعيَّة كو كلاكس كلان سيطرةٌ شِبه روحيَّةٍ على مخيِّلَتِنا. كتبْتُ مَقالاتٍ عنها في المدرسة. كانت جيشًا غير منظور، كما علَّمونا، وخطَّ دفاعٍ أخيرًا للمحافظة على نقاء الجنوب المسيحيّ. أتذكَّرُ حينما كنتُ طفلًا أنِّي شاهَدْتُ موكبَ جنازة التنِّين أو شخصٍ مرموق أو شخصٍ عظيم الشأن في جماعة كو كلاكس كلان. كنَّا على وشك محاولة الانعطاف نحو اليسار عبر حركة مرور السيَّارات، لكنَّنا اضطُرِرْنا

إلى الانتظار حتَّى عبر موكبُ السيَّارات كلُّه. عشرات، مئات، أعدادٌ كبيرةٌ جدًّا من السيَّارات مرَّت بجانبنا، وكان يقودُ كلَّ سيَّارةٍ شخصٌ يلبسُ رداءً حريريًّا أبيضَ أو قرمزيَّ اللون، وقلنسوة مدبَّبةً من الأمام فيها شقَّان للعينَين. كان الجوُّ حارًّا، وكان مِرْفَقُ السائقين الذي سفعَتْه أشعَّة الشمس يبرزُ من نوافذ السيَّارات المفتوحة في زاوية حادَّة. مَن كان هؤلاء السَّحَرة المتقمِّصون؟ كان يمكن أن يكونوا أيَّ شخص- العامل في محطَّة الوُقود عند الزاوية، شمَّاس في الكنيسة، عمِّي- لم يكن أحَدٌ يعرفُ على وجه اليقين. في اليوم التالي، نشرَتْ صحيفةُ "**أتلانتا جورنال**" (Atlanta Journal) خَبَرًا يقولُ إنَّ طولَ مَوكب الجنازة بلغَ خمسة أميال (نحو ٨كم).

وأتذكَّرُ أيضًا تجمُّعًا حاشدًا عُقِدَ بمناسبة الرابع من تمُّوز في ميدان السباق في مدينة المعارض. وكان الراعون قد حَضَروا برفقة شخصيَّاتٍ بارزة مثل جورج والاس (George Wallace) وأحَدِ الضبَّاط الوطنيِّين من جمعيَّة جون بيرتش (John Birch Society) المحافِظة المتطرِّفة، بالإضافة إلى لَستر مادوكس من أتلانتا. لوَّحنا بأعلام الثوَّار الصغيرة مُهلِّلين، بينما كان المتكلِّمون يشجبون ما فعله جورج واشنطن (أوَّل رئيسٍ للولايات المتَّحدة) حين داسَ على حقوق الولايات. حضرَ التجمُّعَ عشرون شخصًا من الرجال السود كانت تبدو عليهم شجاعةٌ لم أرَ مثيلًا لها من قبل، وجلسوا في شكل مجموعة داكنة اللون ظاهرةٍ للعِيان في المدرَّج المكشوف يراقبون دون أن يشاركوا.

لم أرَ أحَدًا يعطي إشارة، لكن بعد فترةٍ قصيرة من أداءِ ديكسي الحماسيّ، نهضَ رجالُ الكلان ورؤوسهم مغطَّاة من بين الجمهور وبدأوا بنزول المدرَّجات بطريقة تُنذرُ بالسوء وأحاطوا بمجموعةِ الرجال السُّود. نهضَ السُّودُ وتجمَّعوا معًا وهم ينظرون حولَهم بيأس، لكن لم يكنْ هناك سبيلٌ للفرار. وأخيرًا، بدأ بعضُهم يتسلَّقُ بطريقةٍ محمومةٍ سياجًا حديديًّا يبلغُ ارتفاعُه ثلاثين قدمًا (نحو ٩م) مصمَّمًا لحماية المشاهدين من سيَّارات السباق، وأخَذَ رجالُ الكلان يتسلَّقون بسرعة للقَبْض عليهم. صمتَ المتحدِّث في مكبِّر الصوت، والتفَتْنا جميعًا لمشاهدة رجال الكلان وهم يجذبون الأجساد المتشبِّثة بالسياج وكأنَّهم ينزعون فريسة من الفخّ. بدأوا يضربونَهم بقبضات أيديهم وبمقابض

الفؤوس التي تُشبِهُ تلك التي كان لَستر مادوكس يَبيعُها. بعد مرور بعض الوقت، شقَّ بعضُ ضبَّاط دوريَّة الولاية طريقَهم نحوهم بتَكاسلٍ وأرغَموا رجال الكلان على التوقُّف.

على الرُّغم من مرور أربعة عقودٍ تقريبًا على هذه الحادثة، فإنّي أستَطيعُ سماعَ صيحات جمهور المتمرِّدين الخشنة وتَوَسُّلات الضحايا، وصوت قَبضاتِ رجال الكلان العارية وهي تتهاوى على أجساد السُّود. ما زلتُ أذكر، بإحساسٍ شديدٍ بالخجل، إثارةَ المراهَقة التي شعرْتُ بها- تجرِبَتي الأولى مع غريزة الغَوغاء- ممتزجةً بالرُّعب عندما شاهَدْتُ ذلك يجري أمامي.

أشعرُ اليوم بالخجل والندم والتوبة أيضًا. احتاجَ الله إلى سنواتٍ ليَكسرَ قبضةَ العنصريَّة الخانقة عليَّ- أتساءلُ ما إذا كان أيُّ واحدٍ منَّا يستطيعُ أن يتحرَّرَ من أشكالها المخيفة- وأرى الآن أنَّ تلك الخطيَّة هي إحدى الآثار المجتمعيَّة الأكثر ضَرَرًا وربَّما الأكثر سمِّيَّةً. عندما يناقشُ الخبراءُ الطبقةَ الاجتماعيَّة الدُّنيا في المناطق الحَضَريَّة في أميركا، فإنَّهم يلومون بالتَّسلسُل الصحيح، المخدِّرات والقيم المتغيِّرة والفقر وانهيار الأُسرة النُّواة. أتساءَلُ في بعض الأحيان عمَّا إذا كانَتْ هذه المشكلات هي النتائجَ المترتِّبةَ على قضيَّةٍ جوهريَّةٍ أعمق: خطيَّة قرونٍ من العنصريَّة فينا.

تدفَّقتْ ذكرياتُ العنصريَّة هذه من مرحلة شبابي بينما كنتُ أقرأ سيرةَ حياة مارتن لوثر كِنغ الابن، مواطنِ أتلانتا الذي أطلقَ عليه لَستر مادوكس لقبَ "عدوّ دولتنا". في سنين متتالية، فازت قصَّتان طويلتان وحادَّتان حول حياة كِنغ بجائزتي پوليتزر (Pulitzer Prizes)، وهما: كتاب ديڤيد غارو (David Garrow) **"محتَمِلًا الصَّليب"** *(Bearing the Cross)* في عام ١٩٨٧م، وكتاب تايلر برانتش (Taylor Branch) **"فَصْلُ المياه"** *(Parting the Waters)* في عام ١٩٨٩م. يتألَّف كتاب غارو من ٧٢٣ صفحة، وكتاب برانتش من ١٠٠٤ صفحات، ومنحَتْني الساعاتُ التي أمضيتُها وأنا منكبٌّ على قراءتِهما إحساسًا غريبًا يُشبِهُ الشعورَ بأمرٍ ما قدِ اختبرتُه سابقًا، لكنْ ليس مثله تمامًا.

مع أنّي كنتُ أعبرُ مناطقَ مألوفةً للأميركيِّين- سيلما، مونتغمري، ألباني، أتلانتا، بيرمنغهام، سان أُغسطينوس، جاكسون- فإنَّ المشهدَ كلَّه من حَولي قد تغيَّر. وصفَ المؤرِّخون هذه الأسماء بأنَّها كَساحاتِ معاركَ لصراعٍ أخلاقيٍّ شجاع، وأنا الآن أنظرُ إليها على هذا النحو. لكنْ عندما نشأتُ في الجنوب في ستِّينيَّات القرن الماضي، كانت هذه الأماكن تمثِّل جَغرافيا الحصار. كان مثيرو المتاعب من الشمال، والطلَّاب الشماليُّون الذين نَزَحوا إلى الجنوب، وحاخاماتٌ يهودٌ ورعاةُ كنائسَ يحميهم عُمَلاءُ فدراليُّون- كانوا جميعًا يَغزون منطقتنا. وكان الشخصُ الذي يقودُ المسيرةَ في كلِّ واحدةٍ من هذه المدن عدوَّ الشعب رقم واحد بالنسبة إلينا، مواطنٌ من مدينتي أتلانتا الذي كانت صحيفة "**أتلانتا جورنال**" تتَّهمُه بانتظام بتُهمة "إثارة الشَّغب باِسْم العدالة". أطلَقَ عليه أعضاء كنيستي اسمًا خاصًّا بهم: مارتن لوسيفر كوون (Martin Lucifer Coon) أيْ مارتن الشيطان الراكون.

إنَّ استيعابَ كِنغ للإنجيل المسيحيِّ والاستفادة منه كان أكثرَ ما أغاظَنا. قبل كلِّ شيء، كان هو راعيَ كنيسةٍ مرسومًا، وحتَّى إنَّ كنيستي الأصوليَّة اضطُرَّت إلى الاعتراف بنزاهة والده، كِنغ الأب، الذي كان قسًّا محترمًا لكنيسة إيبنزر (Ebenezer) المعمدانيَّة. كانت لدينا بالتَّأكيد طُرُقُنا لتَسوية ذلك التَّنافُر المعرفيِّ. لقد قُلْنا إنَّ كِنغ الشابَّ كان مُنتَميًا إلى الحزب الشيوعيِّ، فهو عميلٌ ماركسيٌّ يتَظاهَرُ بأنَّه راعي كنيسة (ألم يحفظ خروشوف الأناجيل الأربعة غَيبًا وهو شابّ؟ أوَلَم يلتَحقْ ستالين بكلِّيَّة لاهوت؟) استَشْهَدَ جورج والاس بمصادر مكتب التحقيقات الفدراليِّ (FBI) لاتِّهام كِنغ بالانتماء إلى منظَّماتٍ لها واجهةٌ شيوعيَّةٌ أكثر من أيِّ شخصٍ في الولايات المتَّحدة.

قلنا حينها إنَّ كِنغ الأب قد ربَّى مارتن نشأةً مستقيمة، لكنَّ كلِّيَّة لاهوت كروزر (Crozer) الليبراليَّة في الشمال قد أفسَدَتْ عقلَه. اتَّبعَ الإنجيلَ الاجتماعيَّ، إنْ جازَ أنْ يُقالُ إنَّه اتَّبعَ إنجيلًا ما. لم نسألْ أنفسَنا قطُّ هذا السؤال: "أيُّ كلِّيَّة لاهوتٍ محافِظة كان من الممكن أن تقبَلَ طَلَبَ مارتن في ذلك الوقت؟" وعندما برَزَتْ إلى العَلَن شائعاتُ مُداعَباتِ كِنغ الجنسيَّة، أُقفلَتِ القضيَّةُ ضدَّه. كان

مارتن لوثر كِنغ الابن محتالًا متصنّعًا وليس مسيحيًّا حقيقيًّا.

تتطرّقُ سيرة كِنغ الذاتيّة إلى هذه الاتّهامات بتفصيلٍ شامل. تعود معظمُ الشائعات إلى تسريباتٍ من عملاء مكتب التحقيقات الفدراليّ، حيث كان جاي. إدغار هوفر (J. Edgar Hoover) يبيّت عداءً شخصيًّا لكِنغ، فوَضَعَ بتَفويضٍ من روبرت كنيدي أدواتٍ لاستراق السمع على كِنغ وزملائه. وأمرَ الرئيس جون كينيدي شخصيًّا كِنغ بِقَطْع اتّصالاته باثنين من مستشاريه المقرَّبين بسبب ارتباطاتِهما الشيوعيّة المزعومة. لم يكُنْ لدى كِنغ نفسه أيُّ تَعاطُفٍ مع الشيوعيّة البتّة، على الرُّغم من أنّه كان أحيانًا يشعرُ بإرهاقٍ من المظالِم في ظلّ النظام الرأسماليّ الديمقراطيّ. صحيحٌ أنّ بعضَ مُستَشاريه الموثوقين كانوا ينتَمون إلى الحزب الشيوعيّ قبل سنوات، لكنْ كان لكِنغ أصدقاءُ من مختلف الانتماءات السياسيّة. كان يميلُ إلى الحكم على الناس على أساس التزامهم بالحقوق المدنيّة، وبحسب هذا المقياس، كان لدى اليساريّين ما يقدّمونه أكثر بكثيرٍ ممّا لدى رجال الدّين الجنوبيّين.

في زمن كِنغ، كان مكتبُ التحقيقات الفدراليُّ ينظرُ بارتيابٍ إلى الأشخاص البيض الذين كانوا يختَلطون بسهولةٍ مع أصدقاء من مختلف الأعراق والمجموعات الاقتصاديّة. كان هؤلاء شيوعيّين محتَمَلين. لو أنّ مواصَفاتِ مكتب التحقيقاتِ الفدراليّ كانت تنطبقُ على المسيحيّين فقط وليس على الشيوعيّين، لكنتُ الآن أتحسّر. بدلًا من هذا، كنّا نحن المسيحيّين الجنوبيّين على العموم أعداءَ العدالة، وكانَتِ الصحافةُ الشيوعيّة الحقيقيّة ما وراء البحار تُعلِنُ بصوتٍ مرتفع قصّة الفَصْلِ العنصريّ في "أميركا المسيحيّة".

أمّا بالنّسبة إلى الهجوم الآخر، فإنّ الاتّهامات المتعلّقة بممارسات كِنغ الجنسيّة اللّاأخلاقيّة تعكسُ حقيقةً تاريخيّةً وليس شائعات. سجّلَ مكتبُ التحقيقات الفدراليُّ العديدَ من الحلقات ممّا كان يحدُثُ في غرف الفنادق التي كان ينزل فيها كِنغ، وبفضل قانون حرّيّة المعلومات، يستطيع المؤرّخون دراسةَ التّسجيلات الحقيقيّة المدوّنة. أعلن رالف أبيرناثي (Ralph Abernathy) أنّه كانَتْ لكِنغ علاقاتٌ خارجَ إطار

الزواج استمرَّت حتَّى ليلة وفاته. وأرسَلَ أحَدُ عُمَلاء مكتب التحقيقات الفدراليِّ، وهو وليم سوليڤان (William Sullivan) الذي ترفَّعَ ليصيرَ المديرَ المساعدَ لمكتب التحقيقات، إلى كِنغ بعضَ تسجيلاتِهم ورسالةً قصيرةً تحثُّه على الانتحار: "لقدِ انتهَيت. لا يوجَدُ أمامك سوى مخرجٍ واحد، من الأفضل لك أن تتَّبعَه قبل أن تنكشفَ أمامَ الأمَّة نفسُكَ القَذِرةُ والمختلَّة والمحتالة".

بالإضافة إلى ممارساته الجنسيَّة اللَّاأخلاقيَّة، اتُّهِم كِنغ أيضًا بالانتحال (السرقة الأدبيَّة). في رسالة التخرُّج في الكلِّيَّة وفي كتاباته، وفي بعض الأحيان في خطاباته، مقاطعُ طويلةٌ منقولةٌ دون أن يذكُرَ المصادرَ الأخرى التي استَقى منها أقوالَه. بصراحة، أنا أجِدُ أنَّ من الأسهل بالنِّسبة إليَّ فَهْم مَواطن الخلل الجنسيَّة لدى كِنغ، التي هي خطيَّة يشاركُه فيها كثيرون، من أن أفهَمَ مسألةَ سرقاته الأدبيَّة. لقد كان سيِّدَ النَّثرِ الذي يستَحوِذُ كلَّ الانتباه، فلماذا كان يرى حاجةً ليَسرقَ نثرَ شخصٍ آخر؟

ضغوطاتٌ لا هوادة فيها طالَتْ كِنغ من كلِّ جانب. تعرَّضَ إلى تهديداتٍ بالموت من الانفصاليِّين ومن مكتب التحقيقات الفدراليِّ أيضًا. وانفجرَتْ قنبلةٌ في منزله. كانت كنائسُ السُّود تُحرَقُ كلَّ أسبوعٍ في الجنوب. وكان المتطوِّعون الذين يعمَلون معه يُهَدَّدون ويُضرَبون ويُسجَنون، وكان بعضُهم يموت. وغالبًا ما كان مؤتمرُ القيادة المسيحيَّة الجنوبيُّ الذي ينتَمي إليه يتَغاضى عن دَفْع الرواتب، وكان الشخصُ الأكثرُ فاعليَّةً في جَمْع التبرُّعات هو أحَدَ المستَشارين الذي أصرَّ الرئيس كنيدي على طَرْده. وكانَتِ الصحف، من صحيفة "**أتلانتا جورنال**" إلى صحيفة "**نيويورك تايمز**"، تَدينُ أساليبَه. انتقدَتْه "الرابطةُ الوطنيَّة لتقدُّم الملوَّنين" (National Association for the Advancement of Colored People)، وتُختَصَر بالحروف (NAACP)؛ لأنَّه كان راديكاليًّا متطرِّفًا، في حين اتَّهمته بالخجل لجنةُ التنسيق الطلَّابيَّة السِّلميَّة (Student Nonviolent Coordinating Committee) أو اختصارًا (SNCC).

وتوسَّلَ إليه المتَظاهِرون الطلَّاب في اثنتَي عشرةَ مدينة ليُرافِقَهم إلى السجن،

وحثّه المتطوّعون في مسيسيبي على المخاطرة بحياته معهم. هل ينبغي أن يركّزَ على حقوق التّصويت أم على الفصل العنصريّ في المطاعم؟ ما القَوانين الظالمة التي ينبغي أن يخالِفَها؟ وماذا بشأن تحدّي أوامر المحكمة؟ هل ينبغي أن يتشبَّثَ بالحقوق المدنيَّة أم أن يوسِّعَ تركيزَه ليَشمَلَ الفَقْر؟ وماذا بشأن الحرب في ڤيتنام؟

أفهَمُ الآن بصورةٍ أفضلَ الضغوطاتِ التي واجَهَها كِنغ في مرحلة الرُّشد كلّها- ضُغوطاتٍ ساهمَتْ بكلّ تأكيد بإخفاقاته. قدَّمَتْ نقاطُ الضّعفِ الأخلاقيَّة لدى كِنغ عُذرًا مُلائمًا لكلّ مَن يريدُ تجنُّبَ رسالته. وبسبب نقاط الضعف هذه، لا يزالُ بعضُ المسيحيّين يشكّون في أصالة إيمانه (قد يرغبُ بعض المسيحيّين في مراجعةِ قائمةِ الأشخاص البارزين المعروفين بإيمانهم في عبرانيّين ١١، وهي قائمةٌ تتضمَّنُ أشخاصًا منحرفين أخلاقيًّا، مثل نوح وإبراهيم ويعقوب وراحاب وشمشون وداود). لقد رفَضْتُه في ما مضى بكلّ تأكيد. لكنّي الآن لا أكادُ اقرأ صفحةً من حياة كِنغ أو فِقرةً من خُطَبه دون أن أشعرَ بمركزيَّة إيمانه المسيحيّ. لديَّ مجموعةٌ من أشرطة عِظاته، وفي كلّ مرَّةٍ أستَمعُ إليها، تستَحوِذُ عليَّ قوَّةُ رسالته المبنيَّة على الإنجيل، والتي كان يُلقيها ببَلاغةٍ لم تماثِلْها بلاغةٌ أُخرى على الإطلاق.

يَبني ديڤيد غارو كتابَه حول مشهد دعوة كِنغ الخارقة في وقتٍ مبكّر من حياته المِهْنيَّة. كتبَ غارو يقول: "كانَتِ الليلةَ الأهمَّ في حياته، الليلةَ التي كان سيَرجعُ دائمًا إليها في تفكيره في السنوات المقبلة عندما تبدو الضغوطاتُ كبيرةً جدًّا. دُفعَ كِنغ إلى قيادة الحقوق المدنيَّة في مونتغمري بولاية ألاباما بعدما اتَّخذَتْ روزا باركس (Rosa Parks) قرارَها الشجاع بِعَدم الانتقال إلى مؤخَّر الحافلة ليجلسَ رجلٌ أبيض. شكّلتِ الجماعاتُ السوداءُ منظَّمةً جديدةً لقيادة حركة مقاطَعة الحافلات. ولعدم وجود مرشَّحين آخرين، اختارَتْ مرشَّحًا وسطًا لقيادتها هو راعي الكنيسة الجديد في البلدة، كِنغ، الذي كان يبدو وهو في السادسة والعشرين من عمره "أقرَبَ إلى صبيٍّ منه إلى رجل". بنشأته في محيط الطبقة المتوسِّطة، وبديانةٍ وَرِثَها من أبيه الواعظ، شعرَ بالكاد أنَّه مؤهَّلٌ لقيادة حملةٍ أخلاقيَّةٍ كُبرى.

ما إنْ أُعلِنَت قيادة كِنغ للحركة حتَّى بدأت تهديداتُ الكلان. وليس الكلان فقط! فبعد أيَّام قليلة اعتُقِل كِنغ لأنَّه كان يقودُ سيَّارته بسرعة ٣٠ ميلًا في الساعة (نحو ٤٨كم/ساعة) في منطقة حدود السرعة فيها ٢٥ ميلًا في الساعة (نحو ٤٠كم/ساعة)، وأُلقِيَ في سجن مدينة مونتغمري. في الليلة التالية، جلسَ كِنغ في مطبخه وقد هزَّته تجرِبة سجنه الأولى يتَساءَلُ إنْ كان في استِطاعَتِه تحمُّلُ المزيد. هل ينبغي أن يستَقيل؟ كان الوقت نحو منتصف الليل. شعرَ بقلقٍ وضيقٍ وكان الخوفُ يملأُه. قبل بضع دقائق، كان الهاتف قد رنَّ. "أيُّها الزنجيّ، تَعبْنا منك ومن الفَوضى التي تحدِثُها الآن. إنْ لم تغادِرْ هذه البلدة في غضون ثلاثة أيَّام، فسنفجِّر دماغَك ونفجِّر بيتَك"".

جلسَ كِنغ يحدِّقُ بكوب القهوة الذي لم يلمسه، وحاوَلَ أن يفكِّرَ بطريقةٍ للخروج من هذا المأزق- طريقةٍ لتَسليم القيادة بسَلاسةٍ واستِئنافِ حياة الدراسة الهادئة التي كان قد خطَّطَ لها. في الغرفة المجاوِرة، كانت زوجتُه كوريتا (Coretta) مستَلقيَةً، وكانت قد أخلدَتْ إلى النوم مع ابنتهما يولاندا (Yolanda) المولودة حديثًا. ها هي الطريقةُ التي استَعادَ بها كِنغ ذكرى ما حصلَ في إحدى عظاته:

"جلستُ إلى تلك الطاولة أُفكِّرُ في تلك الفتاة الصغيرة وفي حقيقة أنَّها يمكنُ أن تُنتزَع منِّي في أيَّة لحظة. ورحتُ أفكِّرُ في زَوجةٍ متَفانيةٍ ومخلِصةٍ وملتَزمةٍ كانت نائمةً هناك... ووصلتُ إلى درجةٍ لم أعُدْ أستَطيعُ معها الاحتمال. كنتُ ضعيفًا...

واكتشَفْتُ عندئذٍ أنَّ الدِّين يجبُ أن يصيرَ أمرًا حقيقيًّا بالنِّسبة إليَّ، وأنَّ عليَّ أن أعرفَ الله بنفسي. حَنيتُ رأسي فوق كوب القهوة. لن أنسى أبدًا ما حدث... تلوتُ صلاةً، صلَّيتُ بصوتٍ مسموعٍ في تلك الليلة. قلت: "يا ربّ، هأنذا هنا أحاولُ أن أفعلَ ما هو صواب. أعتقدُ أنِّي على صواب، وأنَّ القضيَّة التي نمثِّلُها محقَّة. لكنْ يا ربّ، عليَّ الاعتراف بأنِّي ضعيفٌ

الآن. خطواتي متعثِّرةٌ، وشَجاعَتي قد فُقِدَت".

...وبدا لي في تلك اللحظة أنّي كنتُ أسمَعُ صَوتًا من الأعماق يقول لي: "مارتن لوثر، دافعْ عنِ البرّ. دافعْ عن العدالة. دافعْ عنِ الحقّ. وها أنا معك إلى انقضاء الدهر"... سمعتُ صوتَ يسوع يقول لي أنْ أستمرَّ في النضال. لقد وعد بألّا يتركَني وحيدًا أبدًا، ليس وحيدًا أبدًا. ليس وحيدًا أبدًا. لقد وعد بألّا يتركني، ألّا يتركَني وحيدًا أبدًا".

(من شريط إحدى عظاته)

بعد ثلاث ليالٍ، كما توعَّد الكلان، انفجرَتْ قنبلةٌ على الشرفة الأماميَّة لبَيت كِنغ وملأتِ البيتَ بالدُّخان والزجاج المحطَّم، لكنَّها لم تُلحِقِ الأذى بأحَد. تقبَّل كِنغ الوضعَ بهدوء: "منحَني اختباري الدينيُّ قبل بِضْع ليالٍ القوَّة لمواجَهة الوَضْع".

نسجَ ديڤيد غارو قصَّته حول تلك "الزيارة" عند طاولة المطبخ، مستَشهدًا بها مرَّةً تلو الأُخرى؛ لأنَّ كِنغ كان يستمدُّ قوَّةً من تلك الذكرى في كلِّ لحظةٍ حاسمةٍ في حياته. لقد صارتْ بالنِّسبة إليه قاعدةَ إيمانٍ شخصيّ، مسحةً من الله لمَهمَّةٍ خاصَّة. بينما كنتُ أقرأ سجلَّاتٍ عن حياة كِنغ وإشاراته المتعدِّدة إلى تلك الليلة، أذهلَتْني بساطةُ الرسالة التي تلقَّاها: "ها أنا معك". تنقلُ هذه الكلمات مَوضوعًا جَوهريًّا في الكتاب المقدَّس: **عِمَّانوئيل** ("الله معنا")، حضورَ الله.

خلال الأعوام الثلاثةَ عشرَ التالية من مهنته، نالَ كِنغ اختباراتٍ دينيَّةً أُخرى وأزماتٍ كثيرة، لكنْ لم تُماثِلْ أيَّة واحدةٍ منها ما حدثَ في تلك الليلة عند طاوِلة المطبخ. كانت تلك الكلمةُ كافية.

في أثناء ذلك، كنَّا نحن في الجنوب ننظرُ إلى مارتن لوثر كِنغ الابن من خلال عدساتٍ دينيَّةٍ مختلفة. خلال سنوات مراهَقَتي، كنتُ أرتادُ كنيستَين مختلفتَين. كانَتِ الأولى

كنيسةً معمدانيَّةً يبلُغُ عددُ أعضائها أكثرَ من ألف، وكانت تفتخرُ بهُويَّتها كونَها كنيسةً "تحبُّ الكتاب المقدَّس حيثُ الناسُ عمومًا ودودون"، وبِدَعمها مئةً وخمسة مُرسَلين أجنبيِّين أُلصِقَتْ بطاقاتُ صلواتِهم على خريطة للعالم بمساحة الجدار في الجزء الخلفيِّ من الكنيسة. كانت تلك الكنيسةُ إحدى أمكنة التجمُّع الرئيسة لوُعَّاظ إنجيليِّين مشهورين. درستُ أنا الكتابَ المقدَّس هناك. وكان للكنيسة ارتباطٌ ضعيفٌ بطائفة المعمدانيِّين الجنوبيِّين، وهي طائفة تشكَّلت في عام ١٨٤٥م عندما قرَّر المؤيِّدون الشماليُّون لإلغاء العبوديَّة بأنَّ مالكي العبيد كانوا غير مؤهَّلين ليَكونوا مُرسَلين، فانفصَلَ الجنوبيُّون احتِجاجًا على ذلك. لكنْ حتَّى المعمدانيُّون الجنوبيُّون كانوا متحرِّرين جدًّا بالنسبة إلى معظمنا، ولهذا بَقِيَ انتِماؤنا إليهم ضعيفًا. كان بعضُهم يدخِّنون التبغ، وفي وجه اعتراضاتٍ عنيفة، صدَّقَ المؤتمر مؤخَّرًا على تشريعٍ للحقوق المدنيَّة.

في ستِّينيَّات القرن الماضي، بينما كان الطلَّابُ السُّود يسعَون إلى دَمْج الأعراق في كنائس أتلانتا، جنَّدَ مجلسُ الشَّمامسة في كنيستنا فرقَ مراقَبةٍ كانت تتناوَبُ على مراقبة المداخل خِشية دخول أيٍّ من "مسبِّبي المشكلات" السُّود. لا أزالُ أحتفظُ بإحدى البطاقات التي طبعَها الشَّمامسة لإعطائها لأيِّ متَظاهرٍ من المتظاهرين يمكن أن يظهرَ دفاعًا عنِ الحقوق المدنيَّة:

> "إيمانًا منَّا بأنَّ دوافعَ مجموعتكَ خفيَّةٌ وغريبةٌ عن تعليم كلمة الله، فإنَّنا **لا نستَطيعُ أن نرحِّبَ بك**، ونطلب منك باحترام أن تغادرَ المكانَ بهدوء. لا يعلِّم الكتاب المقدَّس "أُخوَّة الإنسان وأُبوَّة الله". إنَّه خالقُ الجميع، لكنَّه أبٌ للذين وُلِدوا من جديدٍ فقط.
>
> إذا كان أحَدٌ منكم هنا يرغبُ بصدقٍ أن يعرفَ يسوعَ المسيحَ مخلِّصًا وربًّا، يسرُّنا أن نتعامَلَ معه بشكلٍ فرديٍّ بما يتوافَقُ مع كلمة الله".
>
> (بيانُ القسِّ والشمامسة بالإجماع، آب/أُغسطس ١٩٦٠م)

بعدَ الحكم الصادر في قضيَّة **براون ضدَّ مجلس التعليم**، أسَّسَتْ كنيستُنا مدرسةً خاصَّةً تكونُ ملاذًا للبيض، وحَظَرَتْ صراحةً على جميع الطلبة السود الالتحاق بها. غادَرَ بعضُ أعضاءُ الكنيسةِ احتِجاجًا عندما رفضَ قِسْمُ روضة الأطفال قبولَ ابنةِ أستاذٍ جامعيٍّ أسودَ يدرِّسُ الكتاب المقدَّس، لكنَّ معظمهم وافقَ على القرار. وبعد سنة، رفضَ مجلس الكنيسة قبولَ عضويَّة طالبٍ في معهد كارڤر للكتاب المقدَّس (Carver Bible Institute)، واسمه توني إيڤانز (Tony Evans)، وقد صارَ في ما بعد قسًّا وواعظًا بارزًا مقرُّه في دالاس بولاية تكساس.

الكنيسةُ التالية التي واظبْتُ على حضور الخدمة فيها كانت أصغرَ حجمًا، وأكثرَ أصوليَّةً وعنصريَّةً بصورةٍ علنيَّة (الكنيسة التي حضرتُ مؤخَّرًا دفنَها). تعلَّمتُ هناك الأساسَ اللَّاهوتيَّ للعنصريَّة. كان القسُّ يعلِّمُ أنّ الكلمة العبريَّة "حام" (Ham) تعني "أسود محروق"، ممَّا جعلَ حام بن نوح أبًا للأعراق الزنجيَّة، وأنَّه بواسطة لعنة، خصَّصه نوح لحياة عبدٍ متَواضع (تكوين ٩). ذلك كان الوقتَ الذي سمعتُ فيه راعي كنيستي يشرحُ السببَ الذي يجعَلُ من السود نادلين جيِّدين وخَدَمًا في البيوت. كان يقوم بحركاتِهم نفسها على المنبر ويحرِّك ردفَيه كأنَّه يريدُ أن يتجنَّبَ طاولةً ما، ويتَظاهَرُ بأنَّه يحافظُ على توازنِ أطباق الطعام فوق رأسه، وكنَّا جميعًا نضحكُ من سلوكه الغريب. قال: "إنَّ النادلَ الأسودَ يؤدِّي هذا العملَ بصورةٍ جيِّدة لأنَّه العمل الذي عيَّنَه الله له عند لعنة حام". لم يهتَمَّ أحَدٌ بالإشارة إلى أنَّ هذه اللعنة قد أُطلِقَتْ في الواقع على حَفيد نوح، كَنعان، وليس على حام.

حول تلك الفترة نفسها، أصدرَتْ **نشرةُ المعمدانيِّين** في ولاية مسيسيبي مَقالةً تناقشُ فيها أنَّ الله أرادَ للبيض أن يحكموا السود لأنَّ من الواضح أنَّ "عِرقًا بهذه الدرجة من الغَباء هو محرومٌ من أيَّة بركةٍ إلهيَّة". وإذا ما شكَّك أحَدٌ ما بعقيدةٍ عنصريَّةٍ كهذه، كان القسُسُ يسوقون الذريعة الأساسيَّة، وهي القول بعدم امتزاج الأعراق أوِ اختلاط الأجناس الذي فكَّر البعض بأنَّه الخطيَّةُ التي دفعَتِ الله ليُدمِّر

العالَم في أيَّام نوح. كان سؤالٌ واحدٌ، "هل ترغب في أن تُحضِر ابنتك صديقَها الأسود إلى البيت؟" يُنهي كلَّ نقاشٍ حولَ العِرق.

بإمكان المرء أن يقرأ عن هذا اللّاهوت الملتَوي اليوم على مواقع الإنترنت التي يَرْعاها المنادون بتفوُّق شعبٍ على آخر. لكنَّ عددًا أقلَّ جدًّا من الأشخاص يقبلُه الآن، وأحَدُ الأسباب الرئيسة- بالنسبة إليَّ بشكلٍ خاصّ- هو الدور النبويُّ لمارتن لوثر كِنغ الابن. تطلَّبَ الأمرُ رجُلًا بقوَّته الأخلاقيَّة ليوقظَ الكنائسَ ممَّا دَعاه راينولد نيبور (Reinhold Niebuhr) "خطيَّة التفاهة" لمواجهة مطالب الإنجيل الأوسع.

تَحضُرني كلمةُ نَبِيّ لأنَّ كِنغ، مثلُه مثلُ شخصيَّاتِ العهد القديم، حاوَلَ أن يغيِّرَ أمَّةً بكاملها من خلال نداءٍ أخلاقيٍّ مباشرٍ وصريح. إنَّ عاطفةَ أنبياء الكتاب المقدَّس وقوَّتهم قد فتَنَتني لمدَّةٍ طويلة؛ لأنَّ معظمَهم واجَهوا جمهورًا عنيدًا ومتَحامِلًا ومحبًّا للخصام في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة كما كنت أنا في أثناء سنوات مراهَقَتي. بأيِّ وسيلةٍ أخلاقيَّة يمكن لأيِّ شخصٍ أن يحرِّك أمَّةً بأكملها؟ عندما درستُ الأنبياء، لاحظْتُ أنَّهم جميعًا تقريبًا اتَّبعوا أسلوبًا من شقَّين.

أوَّلًا، قدَّموا وجهةَ نظرٍ قصيرةَ المدى لما يتطلَّبه الله الآن. في العهد القديم، كانت وجهة النظر هذه تشملُ حضًّا على القيام بأعمال بسيطةٍ تدلُّ على الإخلاص: إعادة بناء الهيكل، وتنقية العلاقات الزوجيَّة، ومساعدة الفقراء، وتحطيم الأصنام، ووضع الله في المقام الأوَّل. لكنَّ الأنبياء لم يتوقَّفوا عند هذا الحدّ. لقد قدَّموا أيضًا نظرةً بعيدةَ المدى للردِّ على أسئلةِ الشعب الأعمق. كيف نقدرُ أن نؤمنَ بأنَّ الله يحبُّنا في وَجهِ معاناةٍ وآلامٍ كهذه؟ كيف نقدرُ أن نؤمنَ بإلهٍ عادلٍ عندما يبدو العالَم محكومًا بمؤامرة من الشرِّير؟ أجابَ الأنبياءُ عن أسئلةٍ كهذه بأن ذكَّروا جمهورَهم بماهيَّة الله وبِرَسْم صورةٍ مضيئةٍ لملكوتِ البرِّ المستقبليّ.

بتقليدٍ نبويٍّ حقيقيّ، استخدمَ مارتن لوثر كِنغ الابن أسلوبَ الشقَّين ذاته. بالنسبة إليه، كانَتِ النظرةُ قصيرةُ المدى تدعو إلى شيءٍ واحدٍ قبل كلِّ شيء: الحراك

السلميّ. قُبِلَ كِنغ في كلّيَّةِ لاهوتٍ في السنة التي تُوفِّيَ فيها المهاتما غاندي، ومن غاندي وليس من المسيحيّين في الولايات المتّحدة اكتَسَبَ رؤيةً لكيفيَّة تغيير أُمَّة. قال كِنغ إنَّ غاندي كان "أوَّلَ شخصٍ في التاريخ عاشَ أخلاقيَّاتِ المحبَّة التي علَّمَها يسوع أكثر من مجرَّد التَّفاعُل بين الأفراد". بطريقةٍ ما، وجدَ غاندي وسيلةً لتَجنيدِ حركةٍ حول مبادئ يسوع النبيلة المتعلِّقة بالرَّجاء والمحبَّة والتعامل السلميّ.

مثلُه مثلُ غاندي، لجأ كِنغ إلى الموعظة على الجبل لتكونَ كتابًا دراسيًّا عن سياسة الحملات المعارضة والمناهِضة:

> "عندما ذهبتُ إلى مونتغمري بصفتي قِسًّا، لم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ أنّي سأُسهِمُ في أزمة تُطبِّق فيها المقاوَمة السِّلميَّة. لم أبدأ الاحتجاجَ ولا أنا اقترحتُه. تجاوَبْتُ فقط مع دعوة الناس إلى وجود متحدِّث بِاسْمهم. عندما ابتدأ الاحتجاج، عدتُ بفكري، شعوريًّا أو لاشعوريًّا، إلى الموعظة على الجبل بتعاليمها السامية عنِ المحبَّة، وإلى أسلوب غاندي في المقاوَمة السِّلميَّة".
>
> (من كتاب "خطوةٌ واسعةٌ نحو الحرِّيَّة" [*Stride Toward Freedom*])

سافرَ كِنغ وزوجتُه إلى الهند في عام ١٩٥٩م ليراقبَ مباشرةً تأثيرَ الثورة السِّلميَّة. ذكرَ قائلًا: "غادرتُ الهندَ وأنا مقتنعٌ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى أنَّ المقاوَمةَ السِّلميَّة هي أقوى سلاح متوافرٍ لشعبٍ مَقموع في صراعه من أجل الحرِّيَّة". وللحصول على نماذج أُخرى، عادَ إلى النبيِّ دانيال وأصدقائه الثلاثة الذين عَصوا قوانين نبوخذنصَّر، وعادَ أيضًا إلى المسيحيّين الأوائل الذين واجَهوا أُسودًا جائعةً بدلًا من الخضوع لقوانين الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الظالِمة. وكما أعرَبَ لاحقًا بالقَول: "يجبُ على كلِّ مَن يخالفُ قانونًا ظالِمًا، أن يفعلَ هذا عَلَنًا وبمحبَّةٍ وبرغبةٍ في قبولِ العقاب".

أعطَتْ حركةُ الحقوق المدنيَّة كِنغ العديدَ من الفرص لاختبار فلسفته السلميَّة. طعَنَتْه امرأةٌ مختَلَّةٌ في نيويورك، وكان سلاحُها مَغروزًا على بُعدِ مسافةٍ ضئيلةٍ من

الشريان الأبْهَر. وهرعَ رجلٌ أبيضُ من برمنغهام عَبْرَ المنصَّة، وأخَذَ يضربُ كِنغ بقبضةِ يدَيه. عندها صرخَ كِنغ بمؤيِّديه الذين أحاطوا بالمهاجم قائلًا: "لا تلمسوه! علينا أن نصلِّيَ لأجله". وكان رؤساءُ أقسام الشرطة في الجنوب يُسَرُّون بمعاملة خَصمِهم المشهور بخشونةٍ بينما كانوا يقيِّدون يدَيه بالأغلال وينقلونه في شاحناتِ المساجين. كانوا يَضرِبون من يَتَظاهَرُ معه بالهراوات، وكانوا يحرِّضون الكلابَ الضخمةَ على مهاجمتهم، كما كانوا يُهاجِمونَهم بخراطيم المياه (ذات الضغط المرتفع) التي كانَت تحطِّم الأضلع وترمي بالأجساد في الشوارع.

بعد مرور نصف قرن، قد نفشل في إدراك كم كان من الصعب والمؤلم بالنسبة إلى كِنغ الاحتفاظ بموقفه السِّلميّ. بعد أن يُضرَبَ المرءُ على الرأس بهراوة شرطيٍّ للمرَّة الثانية عشرة، ويتلقَّى صدمةً أخرى من القضيب الكهربائيِّ الذي يستَخدمُه السجَّان، دون أن يستَطيعَ أن يُشيرَ إلى أيِّ تقدُّمٍ على الإطلاق ناجمٍ عن معاناته، فإنَّه يبدأ في التَّشكيك في فعَّاليَّة الخضوع الخانع. تخلَّى العديدُ من السُّود عن كِنغ بسبب هذه القضيَّة. وانحازَ عددٌ من الطلَّاب الأبطال البواسل، الذين كانوا يجوبون ألاباما ومسيسيبي دفاعًا عنِ الحرِّيَّة- إلى بلاغةِ "القوَّة السوداء" بعد أنِ استمرَّ اغتِيالُ زملائهم. وانتقلَتْ لجنةُ التنسيق الطلَّابيَّة السِّلميَّة، وهي منظَّمةٌ يكمنُ الحراكُ السِّلميُّ في اسمها- انتقلَتْ باتِّجاه التمرُّد المسلَّح، وسَخِروا من كِنغ ونَعتوه بلَقب "دي لود" (De Lawd)[١]. أنزلَ المدافعون عنِ القوَّة السوداء في شيكاغو كِنغ من على المنصَّة في أثناء تجمُّعٍ جماهيريٍّ كبير بينما كانوا يَصيحون باستِهجان.

عندما اندلعَتْ أعمالُ الشَّغب في أمكنة مثل لوس أنجلوس وشيكاغو وهارلم، انتقلَ كِنغ من مدينةٍ إلى أخرى محاوِلًا أن يُهدِّئ نَوبات الغضب والاهتياج، ومذكِّرًا

---

١) دي لود شخصيَّة من مسرحيَّة "المراعي الخُضر" (The Green Pastures) للكاتب مارك كونلي (Marc Connelly)، عام ١٩٣٠م. وتتحدَّث المسرحيَّة بشأن معاناة الأميركيِّين الأفارقة في الولايات الجنوبيَّة، وقد جسَّدَتْ شخصيَّة دي لود الله في تلك المسرحيَّة. وهنا لُقِّب مارتن لوثر كِنغ بهذا الاسم كأنَّه الله، من باب السُّخرية (الناشر).

المتظاهرين أنَّ التغييرَ الأخلاقيَّ لا يتحقَّقُ من خلال وسائلَ لاأخلاقيَّة. كان قد تعلَّمَ ذلك المبدأ من الموعظة على الجبل، وتكرَّرَتْ تلك الرسالة في معظم خطاباته. قال: "أصرَّتِ المسيحيَّةُ دائمًا على أنَّ الصليبَ الذي نحملُه يسبقُ التاجَ الذي نلبسُه. لتكونَ مسيحيًّا، عليك أن تحملَ صليبَك بكلِّ صعوباته وآلامه ومحتواه الحافل بالتوتُّر، وأن تحملَه حتَّى يتركَ ذلك الصليبُ أثَرَه فيك ويفديَك وينقلَك إلى ذلك الطريق الأسمى الذي لا يَتحقَّقُ إلَّا من خلال المعاناة فحسب".

تشبَّثَ كِنغ بالخِيار السِّلميِّ لأنَّه كان يعتقدُ اعتقادًا عميقًا أنَّ حركةً قائمةً على المحبَّة هي فقط التي تستطيعُ مَنْع المُضطَهَدين من أن يصيروا صورةً طِبقَ الأصل عن مُضطَهِديهم. نعم، أرادَ كِنغ أن يغيِّر قلوبَ البيض، لكنْ بطريقةٍ لا تقسِّي قلوبَ السُّود الذين كان يقودُهم نحو الحرِّيَّة في أثناء عمليَّة التَّغيير. كان يؤمنُ بأنَّ الخِيارَ السِّلميَّ "سيُخلِّص الزنجيَّ من السَّعي لأن يستَبدلَ استبدادًا بآخر".

عندما قَبِل كِنغ جائزة نوبل للسلام في عام ١٩٦٤، أشارَ مرَّةً أُخرى إلى المبادئ التي كان قد تعلَّمها من الموعظة على الجبل: "عندما تمضي السنوات، ويَترَكَّزُ نورُ الحقِّ المشعُّ على هذا العصر الرائع الذي نعيشُ فيه، سيَعرفُ الرجالُ والنساء، وسيَتعلَّم الأطفال، أنَّ لدينا أرضًا أفضلَ وشعبًا أفضلَ وحضارة أنبَلَ؛ لأنَّ أولادَ الله المتواضِعين هؤلاء كانوا راغِبين في "أن يتألَّموا من أجل البرّ"".

يذكُرُ المؤرِّخون مواجَهةَ كِنغ المتوتِّرة مع عمدة شيكاغو المتشدِّد ريتشارد جاي. ديلي (Richard J. Daley). كان الذين يدعَمون الحركةَ يشعُرون بالخيانة معتَقدين أنَّهم كانوا قد توصَّلوا إلى تفاهُم مع ديلي يسمحَ لهم بالقيام بمسيرةٍ تجتاز شوارعَ مدينة شيكاغو تحت حماية رجال الشرطة مقابل وَقْف المقاطَعة. لكنَّ ديلي أخلَّ باتِّفاقه معهم وحصلَ على أمرٍ من المحكمة يحظرُ مسيراتٍ أُخرى. وكعادته، جلس كِنغ صامتًا معظم فترة الاجتماع المثير للجَدَل وسمَحَ للآخرين بالتَّعبير عن آرائهم. كانَتِ الأجواءُ عدائيَّةً، وبدا كما لو أنَّ الاجتماعَ سيَنفضُّ بشعورٍ بالمرارة. أخيرًا، تكلَّمَ كِنغ

بأسلوبٍ وصفَه أحَدُ المشاهدين بأنَّه "عظيمٌ وهادئ ودقيق، وبِبلاغةٍ رصينة".

> "أقولُ لكم إنَّكم إنْ كنتُم قد تعبتُم من المظاهَرات، فأنا تعبتُ من التَّظاهُر. لقد تعبتُ من التَّهديد بالموت، وأريدُ أن أعيش. لا أريدُ أن أكونَ شَهيدًا. وهناك لحظاتٌ أشكُّ خلالها إنْ كنتُ سأستَمرُّ إلى النهاية. أنا مُرهَقٌ من ضَرْبِ الآخرين لي ومن دخول السجن. إنَّ ما يُهِمُّ ليس مِقدار تعبي؛ بل أن نتخلَّصَ من الأوضاع التي تقودُنا إلى الخروج في المسيرات.
>
> والآن أيُّها السادة، أنتم تعلَمون أنَّنا لا نملكُ الكثير. نحن لا نملكُ الكثيرَ من المال. وليس لدينا في الواقع الكثيرُ من الثقافة، ولا نملك سلطةً سياسيَّة. لدينا أجسادُنا فقط، وأنتم تَطلُبون منَّا أن نتخلَّى عنِ الشيء الوحيد الذي نملكُه عندما تقولون لنا "لا تتظاهروا""."
>
> (من كتاب "محتَمِلًا الصَّليب")

غيَّر خطابُ كِنغ أجواءَ الاجتماع، وأدَّى في نهاية المطاف إلى اتِّفاقٍ جديدٍ مع العمدة ديلي.

قال كِنغ **إنَّ لدينا أجسادَنا فقط**، وهذا ما أعطى حركةَ الحقوق المدنيَّة، في نهاية المطاف، النصرَ الذي كانَتْ تَسعى إلى تحقيقه منذ وقتٍ طويل. كان الطلَّاب الذين هلَّلوا عند سماع خَبَرِ اغتيال الرئيس كنيدي عندما كنتُ في المدرسة الثانويَّة، هم أنفسهم الذي هَتَفوا أيضًا ابتهاجًا بمواجهات كِنغ المتَلفَزة مع رجال الشرطة الجنوبيِّين وكلاب الشرطة وخراطيم المياه. لم نكن ندركُ أنَّنا بهذا العمل إنَّما كنَّا نُسهِمُ بشكلٍ مباشر في تحقيق إستراتيجيَّة كِنغ. لقد كان يَسعى عن عمدٍ إلى مواجَهةِ أفرادٍ مثل الضابط بُل كونور (Bull Connor) وتنظيم مَشاهِد المواجهات وإدارتها من خلال القبول بالذَّهاب

إلى السجن، والضَّرب وأعمالٍ وحشيَّة أُخرى لأنَّه كان يؤمنُ بأنَّ أمَّةً مَغرورة راضيةً عن ذاتِها ستَلتفُّ حول قضيَّته، فقط عندما يرى أفرادُها شرَّ العنصريَّة وهي تبدو في أبشع صُوَرِ تطرُّفها.

نجحَ كِنغ في تحقيق ذلك الهدف بشكلٍ مُذهل. في مقاطعة ديكالب (DeKalb) حيثُ كنتُ أسكن، أمرَ أحَدُ القُضاة كِنغ ليس فقط بِوَضْع الأصفاد، بل أيضًا بِوَضع أصفادٍ حديديَّةٍ في يدَيه وساقَيه في قاعة المحكمة عندما أصدرَ قرارًا بالحكم عليه بالأشغال الشاقَّة لمدَّة أربعة أشهر مع مجموعة من العمَّال على أحَد طرقات الولاية؛ لأنَّه كان يقودُ سيَّارةً مسجَّلةً في ألاباما وليس في ولاية جورجيا. وأصدرَتْ هيئةُ المحلَّفين في هيوستن حُكْمًا على أحَدِ متَطوِّعي لجنة التنسيق الطلَّابيَّة السِّلميَّة بالسجن مدَّة ثلاثين سنةً لأنَّه أعطى سيجارة ماريغوانا لأحَدِ رجال الشرطة السرِّيِّين. وأمرَتْ محاكمُ مسيسيبي بسَجْن المتطوِّعين لتَسجيل الناخبين لأنَّهم "أثاروا الشغب" عندما أُقفِلَت بيوتُهم وكنائسُهم وأُلقيَت القنابل عليها من قِبَل جماعة الكلان. قتلَتْ إحدى القنابل أربعَ فتياتٍ صغيرات في مدرسة الأحد في إحدى الكنائس في برمنغهام.

"عليَّ أن أفعل هذا: أن أكشفَ نفسي- أن أُظهِر هذه الكراهِيَة عَلَنًا"، شرحَ كِنغ ما حدثَ بعدَما أصابَه حجرٌ كبيرٌ في صدغه الأيمن ورماه أرضًا. كانت أُسرتُه تَشكُّ أحيانًا في حِكمَته. قال كِنغ الأبُ عندما واجَه ابنَه عمليَّةَ اعتقالٍ أُخرى في برمنغهام: "حسنًا، إنَّك لم تأخُذْ هذا الخِيارَ السلميَّ منِّي. لا شكَّ أنَّك أخذتَه من والدتك".

من خلال فَضْح الشرِّ عَلَنًا، كان كِنغ يحاولُ إثارةَ ردِّ فعلٍ وطنيٍّ على شكل ثَورةِ غَضَبٍ أخلاقيَّة- وهذا مفهومٌ لم نكُنْ أنا وأصدقائي مؤهَّلين لِفَهْمه. يشيرُ العديدُ من المؤرِّخين إلى حادثةٍ واحدةٍ بأنَّها اللحظةُ الوحيدةُ التي حصَلَتْ فيها الحركةُ أخيرًا على مقدارٍ كافٍ من الدَّعم لقضيَّة الحقوق المدنيَّة. حدثَ ذلك فوق جسر سيلما في أتلانتا عندما أطلقَ ضابطُ الشرطة رجالَه للانقضاض على المتَظاهِرين السُّود غير

المسلَّحين. نخسَ شرطةُ الخيَّالة أحصِنَتَهم فانطلَقَتْ تعدو بين جمهور المتظاهرين، وبدأ أفرادُ الشرطة يضربونَهم بهراواتِهم ويحطِّمون الرؤوسَ ويلقون بالأجساد أرضًا. وبينما كان البيضُ على الرصيف يهتِفون ويُطلِقون صَيحاتِ الابتهاج، أطلَقَ الخيَّالةُ قنابلَ مُسيِّلة للدموع على الجمهور المذعور. حصلَ معظمُ الأميركيِّين على لمحةٍ من المشهد للمرَّة الأولى عندما بثَّتْ محطَّة إيه بي سي (ABC) أخبارًا عاجلةً في أثناء عَرْضِ فِلم "**محاكمة نورمبرغ**" (Judgment at Nuremberg) الذي تعرضُه يومَ الأحَد، فرأى الناسُ جزءًا من المشهد. إنَّ ما رآه المشاهدون يُبَثُّ من ألاباما كان يماثِلُ بصورةٍ مُرعِبةٍ ما كانوا يشاهِدونه عن ألمانيا النازيَّة (التي كان يروي الفِلمُ بعضًا منها). بعد ثمانية أيَّام، أحالَ الرئيس ليندون جونسون (Lyndon Johnson) مسوَّدة قانون حقوق الاقتراع لعام ١٩٦٥م إلى مجلس الشيوخ الأميركيّ.

قال كنغ: "**لدينا أجسادُنا فقط**". خلال حياته المِهْنيَّة، لم يستَجِبْ أيُّ موظَّفٍ قطُّ لتَوسُّلات كِنغ في سيلما أو جاكسون أو ألباني أو سيسيرو بالقول: "أَتَعلَمُ يا دكتور كِنغ؟ إنَّك على صواب. نحن عُنصريُّون، وهذه القوانين المتحيِّزة ظالمةٌ وغير دستوريَّة وليست من الكتاب المقدَّس، وبكلِّ بساطةٍ هي خاطئة. نحن نأسف لذلك، وسنَتوبُ ونبدأ من جديد". لم تحصُلْ هذه الاستجابةُ من قبلُ. كان الأمرُ يحتاجُ إلى أكثر من كلمات كِنغ النبويَّة لاختراق الجوانب المتصلِّبة لمتعصِّبين مثلي. تطلَّبَ الأمرُ أجسادَ المتَظاهِرين في سيلما وجميع الأمكنة الأُخرى- وتطلَّبَ الأمرُ جسدَ كِنغ نفسه في ممفيس- فعل مارتن لوثر كِنغ الكثيرَ من الأمور الخاطئة، لكنَّه فعلَ أمرًا واحدًا صائبًا. على الرُّغم من كلِّ الصعاب، وفي وجه جميع غرائز الحفاظ على الذات، بقيَ أمينًا للنَّظرة القصيرة المدى، ولم يردَّ الكَيل؛ فحيثُ دعا الآخرون للانتقام، دعا هو للمَحبَّة والمسامَحة.

سَجَّلَ كِنغ صراعَه مع المسامحة في "**رسالة من سجن مدينة برمنغهام**"، وهي وثيقةٌ مذهلةٌ كُتِبَت على عَجَلٍ وبخطٍّ رديء على هوامش الصحف وورق المرحاض، ثم هُرِّبَتْ خارج زنزانته من قِبَل أصدقائه. خارج السجن، كان القساوسةُ الجنوبيُّون يصفونه بأنَّه شيوعيّ، وكان الغَوغاءُ يصرُخون "اشنُقوا الزنجيّ!"، وكان رجالُ الشرطة

يهدِّدون أنصارَه غير المسلَّحين. في أحوالٍ كهذه، كان على كِنغ أن يصومَ بضعةَ أيَّام ليُحقِّقَ الانضباط الروحيَّ الضروريَّ لمسامحة أعدائه. وقد شرحَ هذا الأمرَ بالقَول: "نحبُّ البشرَ ليس لأنَّنا معجَبون بهم، وليس لأنَّ طرقَهم تروقُنا، ولا حتَّى لأنَّهم يملكون نَوعًا من البريق الإلهيّ. نحن نحبُّ كلَّ إنسانٍ لأنَّ الله يحبُّه".

غير أنَّ العاملين في مجال الحقوق المدنيَّة كانوا يحتاجون إلى أكثر من مواعِظَ ونصائحَ قصيرةِ المدى عنِ المحبَّة ونَبْذِ العُنف. كانوا يحتاجون إلى نظرةِ الإيمان، طويلة المدى، بأنَّ الإساءة التي كانوا يتحمَّلونها، ستُسهمُ في تحقيق الانتصار النهائيّ. وحيث إنَّهم كانوا مقتَنِعين بعدالةِ قضيَّتهم، فقد كانوا يحتاجون إلى شخصٍ يرفعُ أنظارَهم إلى أبعدَ من سلسلةِ الفشل التي توهن العزيمة. ننظر الآن إلى الوراء إلى حركة الحقوق المدنيَّة كأنَّها اندفاعٌ للمدِّ ثابتٌ نحو النصر. في ذلك الوقت، لم يكن لدى العاملين في مجال الحقوق المدنيَّة أيَّة تأكيداتٍ على النصر بسبب المواجَهات اليوميَّة مع كِيان السُّلطة، وكَونهم تحت تهديدٍ مستمرٍّ من قِبَل رجال الشرطة والقُضاة، وحتَّى عملاء مكتب التحقيقات الفدراليّ. إنَّنا ننسى كم من ليالٍ أمضوها في سجون الجنوب الخاصَّة بالزُّنوج. كان الحاضرُ في معظم الأحيان يبدو قاتمًا إلى درجةِ الاستحالة، والمستقبلُ حتَّى أكثر قتامةً.

لهذه الحشود ذات الروح المعنويَّة الضعيفة، قدَّم كِنغ رؤيةً للعالَم في يدِ إلهٍ عادل. في عام ١٩٦١م، كان يؤدِّي الدورَ ذاتَه الذي قام به أنبياء العهد القديم في عام ٥٠٠ قبل الميلاد: كان يرفعُ أنظارَ شعب الله إلى الأمور الأبديَّة. في ذلك التاريخ المبكِّر، كان الطلَّاب قد صاروا متَمَلمِلين، وإليكم ما قاله كِنغ لهؤلاء الطلَّاب:

> "هناك أمرٌ في هذه الحركة الطلَّابيَّة يقولُ لنا إنَّنا سننتصر. قبل تحقيق النصر، قد يتضرَّرُ البعضُ ويُصاب بتَشوُّهٍ، لكنَّنا سننتصر. وقبل أن يَتحقَّق انتصارُ الأُخوَّة، قد يواجِهُ بعضُ الأشخاص الموتَ، لكنَّنا سننتصر. وقبل أن يتحقَّقَ الانتصار، سيخسرُ بعض

الأشخاص وظائفهم، وسيُطلَق على آخرين لقبَ شيوعيِّين ونُشطاء ثوريِّين لمجرَّد أنَّهم يؤمنون بالأُخوَّة، وسيُعامَل بعض الأفراد على أنَّهم مثيرو فِتنةٍ ومحرِّضون خَطِرون لمجرَّد أنَّهم يدافِعون عمَّا هو صواب، لكنَّنا سننتصر. هذا هو أساسُ هذه الحركة، وكما أحبُّ أن أقول، هناك شيءٌ في هذا الكون يبرِّر ما قاله كارلايل (Carlyle) إنَّ الكذبَ لا يدومُ إلى الأبد. سننتصرُ لأنَّ هناك شيئًا في هذا الكون يبرِّر ما قاله وليم كولان براينت (William Cullan Bryant) إنَّ الحقَّ الذي سُحِقَ على الأرض سينهَضُ من جديد. سننتصرُ لأنَّ هناك أمرًا في هذا الكون يبرِّرُ ما قاله جيمس راسل لويل (James Russel Lowell): "لا يأخذُ الحقَّ إلَّا مِنصَّة الإعدام، ولا يتربَّعُ الخطأ إلَّا على العرش". غير أنَّ مِنَصَّةَ الإعدام تلك تَهزُّ المستقبل، ووراء المجهول المظلِم يقفُ الله في الظلِّ ساهرًا على خاصَّته".

(من مجلَّة النيويوركر [The New Yorker]،
عدد ٦ نيسان/أبريل ١٩٨٧م)

بالنسبة إلى كِنغ، كانَتِ النظرةُ طويلةُ المدى تعني أن يتذكَّرَ المرءُ أنَّه مهما كان شكلُ الأمور في أيَّة لحظةٍ، فإنَّ الله يسود. في وقتٍ لاحق، عندما نجحَتِ المسيرة من سيلما في الوصول إلى مبنى الكابيتول، المبنى الذي كان ذات مرَّةٍ برلمان الولايات الإحدى عشرة التي انفصلَتْ عن أميركا، وحيث كان علمُ الثوَّار لا يزال يُرفرِف، خاطَبَ كِنغ المتَظاهِرين المنهَكين والذين يحمِلون آثارَ النُّدوب من على درج المبنى:

"أعلمُ أنَّكم تتساءلون اليوم: "حتَّى متى؟" أتيتُ لأقولَ لكم في هذا المساء: إنَّه مهما كانت اللحظةُ عصيبة؛ ومهما كانَتِ الساعةُ مخيِّبةً للأمل، فإنَّ الوضعَ لن يدومَ طويلًا؛ لأنَّ الحقَّ المسحوقَ على الأرض سيَقومُ ثانيةً.

إلى متى؟ ليس طويلًا، لأنَّه ما مِن كذبةٍ تدومُ إلى الأبد.

إلى متى؟ ليس طويلًا، لأنَّ ما تزرعُه إيَّاه تحصد.

إلى متى؟ ليس طويلًا، لأنَّ ذراعَ الكَون الأخلاقيَّة طويلةٌ لكنَّها تنحَني نحو العدالة.

إلى متى؟ ليس طويلًا، لأنَّ عينَيَّ رأتا مجدَ مجيء الرَّبِّ وهو يدوسُ محصولَ العنب حيثُ تخزَّنُ عناقيدُ الغضب. أطلقَ البريقَ المشؤوم من سيفه السريع الرهيب. إنَّ حقَّه يتقدَّم إلى الأمام.

نفخَ في الأبواق التي لن تدعوَ أبدًا إلى التَّراجُع. إنَّه يرفعُ قلوبَ الناس أمام كرسيِّ دينونته. سارعي يا نفسي بالرَّدِّ عليه. وابتَهِجا يا قدميَّ. إنَّ إلهنا يسيرُ نحو الأمام".

(من مجلَّة ذا نيويوركر [The New Yorker]، ٦ نيسان/أبريل ١٩٨٧م)

ملأتْ خطاباتٌ مثل هذه الحركةَ بالأمل عندما لم يكن هناك أيُّ أمرٍ يدعو إلى التعلُّق به. إنَّها هي التي ألهمَتْ متطوِّعةً في الثانية والسبعين من عمرها لتَقولَ بابتسامةٍ مُرهَقة: "إنَّ قدمَيَّ متعبَتان لكنَّ نفسي مطمئنَّة".

إنَّ النبيَّ يدعونا إلى القيام بأعمالِ طاعةٍ يوميَّة على الرُّغم من الكلفة البشريَّة الشخصيَّة، وإنْ كنَّا نشعرُ بأنَّنا نجَحْنا أو نِلْنا مكافأتَنا. ويذكِّرنا النبيُّ أيضًا بأنَّ الفشلَ والمعاناةَ والخذلانَ هي ليسَتْ أمورًا حاسمةً ونهائيَّةً بالنسبة إلى الله الحاضرِ في الظِّلال يراقبُ خاصَّتَه. إنَّ النبيَّ الذي يستطيعُ أن ينقلَ هاتَين الرسالتَين بقوَّةٍ قد يغيِّرُ العالَم. ومع أنَّ مارتن لوثر كِنغ الابن عاشَ على الأرض، فإنِّي، مع كَوني قريبًا منه، لم أُصغِ إلى ما كان يقوله. كنتُ متسرِّعًا في الانقضاض على زلَّاته ومُتَباطئًا في إدراكِ خطيَّتي. لكنْ، لأنَّه ظلَّ أمينًا للنَّظرة قصيرة المدى بتَقديم جسده ليكونَ هدفًا وليس سلاحًا البتَّة؛ وللنَّظرة طويلة المدى بتَمسُّكه أمامنا بحُلُمه بملكوتٍ جديدٍ للسَّلام والعدالة والمحبَّة، فإنَّه صارَ نبيًّا بالنسبة إليَّ، أنا الأبعدَ احتمالًا في أن أكونَ من أتباعه.

في عام ١٩٧٤م، بعد مرور عشر سنواتٍ على صدور قانون الحقوق المدنيَّة الذي تسبَّبَ في نزاعٍ كهذا، أجرَيتُ أوَّل زيارةٍ لي إلى مسيسيپي، قلبِ المقاوَمة الجنوبيَّة. كنتُ قدِ انتقلتُ بعيدًا من الجنوب، وكنتُ أحاولُ أن أضعَ ماضيَّ ورائي. عندما كنتُ أُقيمُ في شيكاغو، عملتُ محرِّرًا في مجلَّة "كامپَس لايف" (Campus Life)، وهي مجلَّةٌ مسيحيَّةٌ للشَّباب تتبنَّى موقفًا تقدُّميًّا من القضايا الاجتماعيَّة. بِفَضل أشخاصٍ مثل الدكتور كِنغ، استَطعتُ أن أرى أنَّ كنيسةَ البيض الجنوبيّة، كنيستي، قد دافعَتْ بعنادٍ عنِ الشرِّ وليس عنِ الصَّلاح. لفترةٍ من الوقت، كنتُ أضَعُ اللَّومَ على الله وليس على الكنيسة، لكنَّ قراءتي لأنبياء العهد القديم وليَسوع أقنعَتْني بأنَّ الله كان دائمًا يقفُ إلى جانب المضطهَدين والمظلومين، ويدافعُ عنِ العدالة. تعهَّدتُ بصفتي كاتبًا أن أحاوِلَ القيامَ ببعض التَّعديلات.

كنتُ قد سمعتُ عن حدوث حالاتِ شفاءٍ بين الأعراق، ولا سيَّما في مدينتي الأمِّ أتلانتا، لكنَّني تساءلتُ إلى أيِّ مدى قد تغيَّرتِ الأمورُ حقًّا منذ طفولتي. ولكي أعرفَ الحقيقة، قَبلتُ دعوةً من جون پيركنز (John Perkins) لزيارة بلدةِ مندِنْهول الصغيرة (عدد سكَّانها ثلاثة آلاف نسمة) وتقعُ على بعد اثنين وثلاثين ميلًا (نحو ٥١كم) جنوب جاكسون.

عاش پيركنز، وهو قسٌّ أَسوَدُ، أسوأ كوابيس حركة الحقوق المدنيَّة. كان يعرفُ معظمَ اللَّاعبين الرئيسيِّين على مسرح الأحداث في مسيسيپي: روبرت موزز (Robert Moses) وهو طالبٌ لطيف يدرسُ الفلسفةَ في جامعة هارڤرد، ومن أوائل المتطوِّعين مع كِنغ الذين قادوا حركةَ تسجيل الناخبين التابعة لِلَجنة التنسيق الطلَّابيَّة السلميَّة في مسيسيپي، حصلَ على مكانةٍ تكادُ أن تكونَ أُسطوريَّة لإصراره الهادئ في مواجَهة الضرب والسَّجن والهجمات بالديناميت والبندقيَّات؛ فاني لو هامر (Fannie Lou Hamer)، "السيِّدة التي تعرفُ كيف تغنِّي"، وهي ابنة من عشرين مولودًا لقاطف قطنٍ أُمِّيّ، والتي تطوَّعَتْ لتَسجيل الناخبين السُّود في

مقاطَعة سانفلَور (Sunflower) في مسيسيپي. وبسبب جهودها، تعرَّضَت للضَّرب من قِبَل رجال الشرطة المحلِّيِّين حتَّى فقدَتِ الوعي، وأُصيبَتْ بجروحٍ توفِّيَت على أثرها، لكن ليس قبل أن تقودَ وفدًا بديلًا من مسيسيپي إلى مؤتمر الديمقراطيِّين لعام ١٩٦٤م؛ مدغار إيڤرز (Medgar Evers) أمينُ سرِّ "الرابطة الوطنيَّة لتقدُّم الملوَّنين"، وهو الذي دعا كِنغ أوَّلًا إلى مسيسيپي وقُتِل بالرَّصاص على يدِ قاتلٍ مأجورٍ في الممرِّ المؤدِّي إلى بيته بينما كانت زوجتُه وبناتُه يركُضْن لتَحيَّته.

سمعتُ هذه القصصَ وكثيرًا غيرَها من جون پيركنز خلال الأسبوع الذي أمضيتُه في مسيسيپي. نِمتُ على مقعدٍ قابلٍ للطيِّ في غرفة الجلوس في منزله، ممَّا كان يعني أنِّي لم أحصُلْ إلَّا على قِسطٍ ضئيلٍ من النوم؛ لأنَّ پيركنز كان ينامُ متأخِّرًا ويستَيقظُ باكرًا قبل شروق الشمس ليَقرأ كتابَه المقدَّس، ويستَغرقَ في قراءة الصُّحف والدوريَّات المكوَّمة على طاولة مطبخه. لكنَّ هذا عَنى أيضًا أنَّه كان لدينا الكثيرُ من الوقت لنَتحدَّثَ بينما نجلس إلى الطاولة نشربُ القَهوة، وحينما نكون في سيَّارته على الطرقات بجوار حقول القطن، وفي مكتبه في نهاية الشارع. أخبرني بالفترة التي كان فيها صبيًّا صغيرًا، وبشأن الليلة التي قُتِل فيها أخوه الأكبر من قِبَل أحَد أفراد الشرطة لأنَّه كان يُحدِثُ ضجَّةً كبيرةً وهو واقفٌ في الصفِّ أمام مَدخل إحدى دور السينما الخاصَّة بالملوَّنين، وبشأن كفاحِه لتَثقيف نفسه، وبشأن الفترة التي أمضاها في السجن، وتحدَّث لي أيضًا بشأن تَعهُّده بعدم العودة إلى مسيسيپي ثانيةً.

حافَظَ پيركنز على ذلك التعهُّد لفترةٍ من الوقت، وبدأ مهنةً ناجحةً بصفته موظَّفًا باتِّحاد العمَّال في مدينة لوس أنجلوس الكُبرى. إنَّ تحوُّله غير المتوقَّع إلى المسيحيَّة، التي كان دائمًا يحسبُها "ديانة الرجل الأبيض"، جعلَه يخرجُ عن مسار تلك المهنة. ولأنَّه لم يستَطعْ أن يمحوَ من ذاكرته جيرانَه المحرومين الذين تركَهم في مسيسيپي، فقد راحَ يشعُرُ بالتَّدريج بدعوةٍ من الله للعَودة، وذلك في حَزيران/يونيو ١٩٦٠م.

في ذلك الوقت، التزمَ معظمُ رعاة الكنائس المحلِّيِّين في طائفة پيركنز الإنجيليَّة

أن يكرزوا بالإنجيل، وتَركوا الاحتياجات الإنسانيَّة للعاملين الاجتماعيِّين والهيئات الحكوميَّة. أسَّس پيركنز كنيسةً ومعهدًا للكتاب المقدَّس، وأطلَقَ بَرنامَجًا إذاعيًّا بِاسْم "صوت الجلجثة" (Voice of Calvary). لكنَّه قَبِلَ أيضًا الرِّسالةَ الأوسعَ نِطاقًا التي نادى بها يسوع:

لأُبشِّر المساكين،

لأشفيَ المنكسري القلوب،

لأنادي للمأسورين بالإطلاق

وللعمي بالبصر،

وأُرسل المنسحقين في الحرِّيَّة،

وأكرزُ بسنَّة الربِّ المقبولة.

عندما تبنَّى پيركنز هذه الرِّسالة، أسَّسَ مستَوصَفًا صحِّيًّا في الرِّيف، ومتجرًا تعاونيًّا، ومركَزَ تدريبٍ مِهْنيّ، ومركَزًا ترفيهيًّا لشباب منطقة مندِنْهول، ومدرسةً للتَّعليم الخصوصيّ، وبَرنامَجًا للتَّعليم في البيت. سرعان ما صارت بِضعُ مساحاتٍ من الأرض في الشوارع غير المعبَّدة التي تقع على الجانب الخطأ من الطريق، مركَز خِدْماتٍ يضجُّ بالحركة لأُسَر السُّود الفقيرة في مقاطعة سيمپسون. كان پيركنز يسافرُ في أنحاء البلاد دون كَللٍ يسعى إلى طَلَبِ الدَّعم الماليِّ من الإنجيليِّين البِيض- وهو يقول: "لربَّما كنتُ أوَّلَ مَن يدمجُ ويجمعُ مئاتٍ من البيوت التي أقمتُ فيها"- ويحثُّ في طَلَبِ متَطوِّعين من الممرِّضين والأطبَّاء والمعلِّمين ليخدموا مدَّةً محدَّدةً في مندِنْهول. وبسبب قصَّته الشخصيَّة التي تُحرِّك المشاعر، وأسلوبِه الصريح والتزامه تُجاهَ العدالة، جذبَ پيركنز انتباهَ الإنجيليِّين في أنحاء البلاد، وجذبَ أيضًا انتباهَ السُّلطات المحلِّيَّة.

لم يعتَرِضْ أهلُ مسيسيپي البِيض على الخِدْمات الاجتماعيَّة، لكنَّهم استاءوا من تدفُّقِ الشماليِّين المستمرِّ إلى منطقتهم، لا سيَّما عندما بدأ پيركنز في قيادة حملةٍ لتسجيل النَّاخبين. في ذلك الوقت، كان هناك خمسون ناخبًا أَسودَ مسجَّلين في

مقاطعة سيمپسون رُغمَ أنَّ السُّود كانوا يشكِّلون ٤٠٪ من عدد السكَّان. كانت تلك النسبة نموذجيَّةً: لم يُسجَّل إلَّا ٧٠٠٠ شخصٍ من سكَّان مسيسيپي السُّود البالغ عددهم ٤٥٠,٠٠٠ نسمةً بسبب العوائق القانونيَّة الكثيرة. كان على الناخبين أن يدفعوا ضريبةَ الاقتراع التي كانت تفوقُ إمكانيَّةَ مُعظم السُّود، كما كان عليهم أن يفسِّروا الأجزاءَ المبهَمةَ من دستور ميسيسيپي لإرضاء مسجِّلي المقاطَعة من البِيض. عندما بدأتِ المحاكمُ الفدراليَّة تزيلُ هذه العوائق، أقامَتِ الولاية عوائقَ جديدة: ينبغي أن تُطبَع أسماءُ مقدِّمي الطَّلبات وعناوينهم في الصُّحِفِ المحلِّيَّة (ممَّا يسهِّلُ على جماعة كو كلاكس كلان وأرباب العمل والجيران البِيض أن يُضايقوهم)، إضافةً إلى بندٍ يسمَحُ لأيِّ ناخبٍ مسجَّلٍ في المقاطعة بطَعْنِ الطَّلَب المقدَّم على أساس الشخصيَّة.

استمرَّ پيركنز ومتطوِّعوه في العمل بجدٍّ وسجَّلوا في نهاية المطاف ٢٣٠٠ ناخب في مقاطعتهم. لكنْ عندما قادَ مُقاطعةً اقتصاديَّةً لمركَز بلدة مندِنْهول احتجاجًا على وحشيَّة رجال الشرطة، كان بذلك قد تجاوَزَ خطًّا أحمرَ. بعد مُظاهرةٍ في الشوارع في شباط/فبراير ١٩٧٠م، أوقفَتْ إحدى دوريَّات شرطةِ مسيسيپي على الطريق الرئيسيِّ أحَدَ العاملين البِيض، ويُدعى دوغ هيومَر (Doug Huemmer)، وتسعة عشر متظاهرًا من الطلَّاب السُّود واقتادَتْهم إلى السجن في بلدة براندون القريبة، وهي منطقةُ نفوذِ ضابطِ شرطةٍ سيِّئ السُّمعة. اتَّصَلَ هيومَر بپيركنز، الذي انطلَقَ بسيَّارته إلى براندون، فوقَعَ مباشرةً في الفخّ.

قرَّر اثنا عشر شرطيًّا في دوريَّة الطريق السريع ورجالُ الشرطة المحلِّيُّون، أن يلقِّنوا پيركنز وهيومَر درسًا. صرخَ أحَدُ رجال الشرطة: "أنتم لم تعودوا في مقاطعة سيمپسون. أنتم في مقاطعة رانكِن حيث نعرفُ كيف نعاملُ الزُّنوجَ الأذكياء". ثُمَّ بدأوا يركلون پيركنز بأقدامهم، ويضربونه بقبضات أيديهم- على الرأس وفي الكُليتَين وفي الفخذ- كما راحوا يدوسون على ساقَيه. غابَ پيركنز عنِ الوعي، وعندما استَعادَ وَعْيَه في وسط بركةٍ من الدِّماء صبُّوا مشروب الويسكي على الجراح النازفة في رأسه وضربوه بقوَّةٍ مرَّةً أُخرى. جعلوه يمسَحُ دمَه، ووضعوا شوكةً في أنفه وثقبوه حتَّى سالَ منه الدَّم، ثُمَّ فعلوا الشيء ذاتَه بحَلْقِه. ثُمَّ احتَجَزوه بِتُهمة المساهَمة في جنوح

القاصرين. وبينما كانوا يأخذون بصماتِ أصابعه، وجَّه أحَدُ رجال الشرطة مسدَّسًا إلى رأس پيركنز وسَحَبَ الزِّناد. طقطقَتْ حجرةُ الذَّخيرة وضحكَ الجميعُ من هذه النكتة القاسية، ثُمَّ ضربوه حتَّى فقدَ الوعي مرَّةً ثانية.

نجا پيركنز في تلك الليلة، لكن بعد فترةٍ قصيرة اضطُرَّ الأطبَّاء إلى إزالة ثلثَي معدته نتيجةَ الإصابات. على مدى الشهور الثمانية عشر التالية التي استغرقَتْها استِعادةُ صحَّته، فكَّرَ في دعوة الله له للعودة إلى مسيسيپي. هل كان يأتي فعلًا بأخبارٍ سارَّةٍ إلى سكَّان مندِنْهول؟ من المؤكَّد أنَّ السكَّانَ السُّود كانت لديهم فرصٌ أكبر الآن، لكنَّ جهودَه جعلَتْ مواقِفَ البِيض أكثر تصلُّبًا. بدَتِ المصالحةُ أبعد من أيِّ وقتٍ مضى. في أثناء استعادته صحَّتَه، قرأ كتابًا لمالكولم إكس، وراپ براون (Rap Brown) وأُلدرِج كليڤر (Aldridge Cleaver) الذين تخلَّوا جميعُهم عنِ الإنجيل ورسالة المصالحَة فيه. غير أنَّه لم يستَطِعْ أن يُنكِرَ أنَّ خدمتَه قد جذبَتْ بعضَ المتطوِّعين البِيض المتعاطفين: دوغ هيومَر، الذي عانى المعامَلة القاسية نفسها في سجن براندون، وآل أوثينغر (Al Oethinger) الذي أتى من ألمانيا ليُقدِّم المساعَدة بعد أن قرأ كتابًا للدكتور كِنغ؛ وڤيرا شوارتز (Vera Schwartz) وهي ممرِّضة مُرسَلةٌ كانت قدِ انضمَّتْ إلى المركَز الصحِّيِّ في مندِنْهول بدلًا من العودة إلى أفريقيا.

"كانت تلك فترةً، دون أدنى شكٍّ، أحلك ساعاتِ إيماني"، قال لي پيركنز هذا بينما كُنَّا نقودُ السيَّارةَ في الطرقات الخلفيَّة لمقاطعتَي سيمپسون ورانكِن، مرورًا بالسجن وقاعة المحكمة السيِّئي الذِّكر بعد أربع سنواتٍ من الحادثة، وتابع قائلًا: "كان الوقتُ قد حان لأقرِّرَ ما إذا كنتُ أومن حقًّا بما كنتُ أُجاهر به، وهو أنَّه في محبَّة السيِّد المسيح فقط، وليس في قوَّة العنف، يكمنُ رجاءٌ لي وللعالَم. بدأتُ أرى كيف يمكن للكَراهِيَة أن تحطِّمَني. في النهاية، كان عليَّ أن أوافقَ الدكتور كِنغ على أنَّ الله يريدُنا أن نُجازِيَ الشرَّ بالخير وليس الشرَّ بالشَّرّ. قال يسوع: "أحبُّوا أعداءكم". وهذا ما صمَّمتُ أن أفعَلَه. إنَّه حقيقةٌ عميقةٌ وغامضة، مفهومُ يسوع عنِ المحبَّة التي تتغلَّبُ على الكراهِيَة. قد لا أرى تحقيقَه خلال حياتي، لكنِّي أعرفُ أنَّه حقيقة؛ لأنَّ الله

جعَلَه حقيقةً في حياتي، بينما كنتُ مستَلقيًا على الفراش وجسدي ملآنٌ بالكَدمات والغُرَز. ما حدثَ لي هو عمليَّةُ "نقل" رجاءٍ جديدٍ في حياتي. لم أستَطعْ أن أستَسلِم. كنَّا قد بدأنا لتَوِّنا في التحرُّك في مندِنْهول".

في لحظة الأَزَمة تلك، بدأ بيركنز يؤمن كما آمنَ كِنغ بأنَّ "الكراهِيَة والمرارةَ لن تستَطيعا البتَّة شفاءَ داء الخوف؛ المحبَّة فقط تستَطيعُ أن تفعَلَ ذلك. الكراهِيَة تشلُّ الحياة؛ والمحبَّة تحرِّرها. الكراهِيَة تشوِّشُ الحياة؛ والمحبَّة تمنحُها الانسجام. الكراهِيَة تجعَلُ الحياةَ مُظلِمةً؛ والمحبَّة تُضيئُها".

خلال العقود التالية، انتقلَ بيركنز إلى لوس أنجلوس حيثُ أسَّس منظَّمةً وطنيَّةً لتَنمِيَة المجتمع، قائمةً على ما تعلَّمَه في مندِنْهول، ثُمَّ عاد إلى مسيسيبي ليقودَ حركةً للمُصالَحة العِرْقيَّة. ويظهَرُ أحيانًا مع توماس تارنتس (Thomas Tarrants)، وهو أحَدُ نشطاء كو كلاكس كلان الذي أمضى فترةً في السجن لارتكابه جريمةَ قَتْلٍ، وتحوَّلَ إلى الإيمان المسيحيِّ بينما كان في السجن، وهو الآن يرعى كنيسةً متعدِّدةَ الأعراق في العاصمة واشنطن (.Washington, D. C).

عندما زرتُ مندِنْهول في عام ١٩٧٤م، رحَّبَ بي في المدينة إعلانٌ يقول: "اتَّحدوا أيُّها البِيض واهزموا اليهودَ والشيوعيِّين الذين يُنادون بِدَمج الأعراق". طلبتُ من جون بيركنز أن يُريَني مثلًا على العنصريَّة في واقع الحياة. قلت له: "عندما أكتبُ قصَّتك، سيَقولُ لي الناسُ إنَّ كلَّ شيءٍ قد تغيَّر. كان قانونُ الحقوق المدنيَّة مَوجودًا منذ عشر سنوات، أفَلا يزالُ هناك تمييزٌ عَلَنيّ؟".

فكَّرَ بيركنز لحظةً، وفجأةً أشرقَ وجهُه: "أنا أعرف- فَلْنُحاوِلِ الاختلاطَ بالموجودين في مطعم "ريڤولڤنغ تيبل" [الطاولة الدوَّارة]!" ذهَبْنا بالسيَّارة إلى مطعمٍ أنيقٍ مشهور بطبقه الذي يدورُ في وسط طاولةٍ كبيرةٍ جدًّا عليها أطباقٌ من اللّوبيا والكوسا والملفوف والبطاطا الحُلوة والدجاج وكرات العجين المطهوَّة بالحساء، ومأكولاتٍ جنوبيَّةٍ أُخرى

مفضَّلة. عندما جلَسْنا، حدَّق فينا البِيضُ الذين كانوا يتَناوَلون الطعام، ثُمَّ فجأةً، وكأنَّ الأمرَ حدثَ إثرَ إشارةٍ سبقَ الاتِّفاق عليها، نهضوا وانتَقَلوا إلى طاولاتٍ أصغر. لم يتكلَّم أحَدٌ في المطعم خلال الساعة التالية إلَّا أنا وپيركنز. تناولْتُ طعامي بصعوبةٍ بينما كنتُ أنظرُ إلى ظهري في انتظار ضربةِ عصا. عندما سدَّدتُ الفاتورةَ وعلَّقت على أنَّ الطعامَ كان لذيذًا، أخذَتِ المضيفةُ النقودَ دون أن تَردَّ ولا حتَّى نظرَتْ مباشرةً إليّ. نلتُ لمحةً صغيرةً جدًّا للعِداء الذي تعايَشَ معه پيركنز طوال حياته.

بعد شهرَين، عندما نُشرَتْ مقالتي عن پيركنز، اتَّخذَ فرعُ مسيسيپي للمنظَّمة المسيحيَّة التي كنتُ أعمَلُ فيها قرارًا يطالبُ فيه بِطَردي من العمل لإثارتي ذكرياتٍ سيِّئة. قالوا: "لقد تغيَّرَتِ الأوضاعُ الآن. لماذا تَنبشُ الماضي؟".

بالفعل، لماذا؟ لقد مضى ثلاثةُ عقودٍ تقريبًا على زيارتي إلى مسيسيپي، وقد مضى على انتصارات الحقوق المدنيَّة العظيمة التي شكَّلتْ علامةً فارقةً نحو نصف قرن. نحن نعيشُ في قرنٍ جديد الآن، بل في ألفيَّةٍ جديدة، وقد تغيَّرتْ بالفعل أمورٌ كثيرة. في هذه الأيَّام، يستَطيعُ السُّود في مسيسيپي أن يأكلوا حيثُما يريدون، ويشربوا من أيِّ صنبور ماء، وينامُوا في أيِّ فندقٍ يريدونه. إنَّ الانتصارات التي حارَبَ من أجلها مارتن لوثر كِنغ الابن، ومدغار إيڤرز وبوب موزز وجون پيركنز وآخرون كثيرون، قد تحقَّقت– على الأقلِّ قانونيًّا– مع أنَّهم انتظروا قرنًا كاملًا بعد إعلان تحرير العبيد. شغلَ جنوبيُّون تقدميُّون من جورجيا وأركنسا وتكساس منصبَ رؤساء الولايات المتَّحدة. يستَطيعُ الزائرون السُّود دخولَ كنائس البِيض متى أرادوا، رغم أنَّهم نادرًا ما يرغبون في ذلك. إنَّ جميعَ هذه الأحلام كانت تبدو لمارتن لوثر كِنغ، منذ أربعة عقودٍ فقط، بعيدةَ المنال. وكتذكارٍ للتَّغييرات المهمَّة جدًّا، تتوقَّفُ الأمَّة الآن كلَّ سنةٍ في يوم عطلةٍ وطنيَّة إكرامًا لكِنغ نفسه، الذي كان مثارَ جدلٍ كبيرٍ خلال حياته. إنَّه الأميركيُّ من أصلٍ أفريقيٍّ والقسُّ الوحيد، بل أيضًا الأميركيُّ الوحيد، الذي حَظِيَ بمثل هذا التكريم.

لم تتحقَّقِ الانتصاراتُ بسهولة، ولم يتحقَّقْ معظمُها خلال حياته. في عام ١٩٦٣م، قال له روي ويلكنز (Roy Wilkins) من الرابطة الوطنيَّة لتقدُّم الملوَّنين، وهو منافسٌ صَعبٌ للدُّكتور كِنغ- قال ساخرًا: إنَّ أساليبَه لم تحقِّقْ أيَّ انتصارٍ في دَمْج الأعراق في ألباني وبرمنغهام. "في الحقيقة يا مارتن، إذا كنتَ قد أزلتَ التمييز في أيِّ شيءٍ بجهودك الشخصيَّة، فأرجو أن تُعلِمَني".

أجاب كِنغ قائلًا: "حسنًا، أعتقدُ أنَّ الأمرَ الوحيدَ الذي أزلتُ التمييز فيه حتَّى الآن هو بعضُ القلوب البشريَّة". كان يعلَمُ أنَّ النصرَ النهائيَّ يجب أن يتحقَّقَ هناك. إنَّ بإمكان القوانين مَنْعَ البِيض من إعدام السُّود دون محاكَمة، لكنْ لا يمكنُ لقانونٍ أن يطلُبَ من الأعراق أن تغفرَ بعضها لبعضٍ أو أن تُحبَّ بعضُها بعضًا. كان القلبُ البشريُّ، وليس قاعة المحكمة، أرضَ معركته الأبرز. ولأنِّي أنا أحَدُ هذه القلوب المتغيِّرة، فأنا أتَّفقُ معه.

كان كِنغ قد وضعَ استراتيجيَّةً متطوِّرةً للحرب يقاتل فيها بالنِّعمة وليس بالبندقيَّات. كان يواجِهُ العنفَ بالسِّلْم، والكراهِيَة بالمحبَّة. يتذكَّرُ أندرو يونغ (Andrew Young) زميلُ كِنغ تلك الأيَّام المضطربة بأنَّها أوقاتٌ كانوا يسعَون فيها إلى إنقاذ "أجساد الرِّجال السُّود وأرواح الرِّجال البِيض". قال كِنغ إنَّ هدفَهم الحقيقيَّ لم يكن هزيمةَ الرَّجل الأبيَض بل "إيقاظ الشعور بالعار في المُضطهِد، وتحدِّي شعورَه الزائف بالتفوُّق... الهدفُ هو المصالَحة؛ الهدفُ هو الفداء؛ الهدفُ هو خَلْقُ المجتمع المحبوب". وهذا ما بدأ مارتن لوثر كِنغ الابن أخيرًا في فِعْله، حتَّى في أشخاصٍ وُلِدوا عنصريِّين مِثْلي.

على الرُّغم من التَّداعِيات الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة الناتجة عنِ العنصريَّة، ظلَّتِ الأمَّةُ مُتَماسكةً بطريقةٍ ما. وانضمَّ الناسُ من جميع الألوان في نهاية المطاف إلى العمليَّة الديمقراطيَّة في أميركا، حتَّى في الجنوب. وقد انتخبَتْ أتلانتا لعدَّة سنوات محافظين أميركيِّين من أصلٍ أفريقيّ، بِمَن فيهم زعيم الحقوق المدنيَّة أندرو يونغ. حتَّى إنَّ بلدةَ سيلما في ولاية ألاباما لديها عُمَدة أسوَدُ هو مَن هزمَ في عام ٢٠٠٠م العمدةَ الذي

كان قدِ احتفَظَ بمنصبه منذ المسيرة سيِّئة السُّمعة. وظهر جورج والاس المسنّ، مُطلِقُ شعار "فصلٌ عرقيٌّ إلى الأبد" في كرسيِّه المتحرِّك أمام قادة ألاباما السُّود ليَعتذرَ عن سلوكه الماضي، وهو اعتذارٌ كرَّره على شاشة التلفاز الذي يَبثُّ عبر الولاية كلِّها. عندما ذهبَ والاس ليَعتذرَ من الكنيسة المعمدانيَّة في مونتغمري حيثُ كان كِنغ قد أطلقَ حركتَه، كان من بين القادة الذين أتوا ليَمنَحوه الغفران، كوريتا سكوت كِنغ (Coretta Scott King) وجسي جاكسون (Jesse Jackson) وشقيق ميدغار إيڤرز الذي سبقَ أنِ اغتيل.

أعلنت طائفةُ المعمدانيِّين الجنوبيِّين في عام ١٩٩٥م رسميًّا أسَفَها عن دعمِها طويلِ المدى للعنصريَّة بعد مرور ١٥٠ عامًا على بروز قضيَّة العبوديَّة (ردَّ أحَدُ القساوسة من الكنيسة المعمدانيَّة الإثيوبيَّة بقوله: "أخيرًا لدينا ردٌّ على "رسالة من سجن مدينة برمنغهام" التي كتبها مارتن لوثر كِنغ في عام ١٩٦٣م. نأسفُ أنَّنا تأخَّرنا اثنتَين وثلاثين سنة").

حتَّى الكنيسةُ المعمدانيَّةُ الكبيرةُ التي كنتُ أنتمي إليها في طفولتي تعلَّمَتْ أن تتوب. عندما حضرتُ إحدى خِدْمات الصلاة فيها منذ عدَّة سنوات، صُدِمْتُ عندما وجَدْتُ بضع مئاتٍ فقط من المصلِّين المنتشرين في حَرَم الكنيسة الذي كان يمتلئ في أيَّام طفولتي بألفٍ وخمس مئة مُصَلٍّ. بدَتِ الكنيسةُ وكأنَّ لعنةً أصابَتْها. وأخيرًا اتَّخذَ القسُّ- وهو زميلُ دراسةٍ من أيَّام الطفولة- خطوةً غير معتادة، وعيَّن مَوعدًا لخدمة التوبة في برنامَج الكنيسة. وقبل الخدمة، كتب إلى توني إيڤانز، وإلى أستاذ الكتاب المقدَّس الذي جرى استبعاده، يطلُبُ منهما أن يُسامحاه. ثُمَّ بدأ يروي علنًا وبألم أمام القادة الأميركيِّين من أصل أفريقيٍّ الحاضرين خطيَّة العنصريَّة كما مارسَتْها الكنيسةُ في الماضي. أعلنَ توبتَه ونالَ غفرانَهم. ومع أنَّ عِبْئًا بدا أنَّه أُزيحَ عن كاهل المصلِّين بعد تلك الخدمة، فإنَّ ذلك لم يكُنْ كافيًا لإنقاذ الكنيسة. بعد بِضْع سنوات، انتقَلَ رعايا الكنيسة البِيضُ إلى ضواحي البلدة، فيما اليومُ تملأُ المبنى وتهزُّ نوافِذَه مرَّةً أُخرى رعيَّةٌ نَشِطةٌ من الأميركيِّين من أصلٍ أفريقيّ.

يتحدَّثُ مراقبو الجنوب بأنَّ هذه الكنيسة "مسكونةٌ بالسيِّد المسيح". ربَّما ينبغي أن يتحدَّثوا بأنَّها "مسكونةٌ بالأعراق" أيضًا. إنَّنا جميعًا، البِيض والسُّود، الذين نشأنا في تلك الأيَّام نحمِلُ نُدوبًا. يحملُ بعضُ الأشخاص السُّود، مثل جون پيركنز وبوب موزز، نُدوبًا جسديَّة، ونحمل نحن البِيض نُدوبًا روحيَّة. رُغمَ أنِّي لم أعِشْ في الجنوب مذُ ثلاثين عامًا، فإنِّي أعيشُ مع ذكرياته مثل القَتَلة في العصور الوُسطى الذين كانوا يُرغَمون على حَمْل جُثَثِ ضحاياهم وهي مربوطةٌ على ظهورهم. الأمَّةُ كلُّها تحملُ النُّدوب. مَن الذي يقول إنَّنا حقَّقْنا ما يُشبِهُ "المجتمع المحبوب" الذي كان كِنغ يتوق إليه؟

زرتُ كنيسةَ كِنغ القديمة في أتلانتا، كنيسة أبينيزر المعمدانيَّة، وجلستُ والدَّمعُ يتَرقرَقُ في عينَيَّ عندما رأيتُ من خلال عينَين جديدتَين المركَزَ المعنويَّ للمجتمع الأَسوَد الذي أعطاه القوَّة لمحاربة المتعصِّبين أمثالي. لقد كنتُ في الخارج في تلك الأيَّام، أُطلِقُ النكات وأنشرُ الشائعات وأُساعد على تعزيز نظام الشَّرّ. وداخل الكنيسة، وقفَ أفرادُ المجتمع الأَسوَد بفخرٍ وكرامة، بعد فترةٍ لم يستطيعوا فيها أن يفعلوا ذلك إلَّا داخل الكنيسة.

قبل مَوته ببضع سنوات، سُئِل كِنغ عنِ الأخطاء التي ارتكبَها. أجاب: "حسنًا، الخطأ الأكثر تفشِّيًا الذي ارتكبتُه كان اعتقاد أنَّ القَساوسةَ البِيض في الجنوب- نظرًا إلى عدالة قضيَّتنا- سيَهبُّون لمساعدتنا عندما نتحدَّى ضمائرَهم المسيحيَّة. كنت أشعرُ بأنَّ القَساوسةَ البِيض سينقلون قضيَّتنا إلى مَن هم في السُّلطة من البيض. وهكذا انتهى بي المطاف مُعاقَبًا وخائبَ الأمل. عندما انكشفَتْ حركتُنا ووجَّهنا التِماساتٍ إلى القَساوسةَ البِيض، انسحبَ معظمُهم- حتَّى إنَّ بعضَهم اتَّخذ مَوقفًا ضدَّنا".

كتبتُ ذاتَ مرَّةٍ مقالةً أُشيدُ فيها بمارتن لوثر كِنغ الابن في المجلَّة المحافِظة "المسيحيَّة اليوم" *(Christianity Today)*. تحدَّثتُ بشأنه على أنَّه نبيّ، واستخدمْتُ بعضًا من الكلمات نفسها التي استخدمتُها هنا. تسلَّمتُ ردودًا من بعض القرَّاء، بعضها يدعَمُني وبعضها غاضبٌ منِّي.

تلقَّيتُ رسالتَين من أكثر الرسائل التي تسلَّمتُها رصانةً وعمقَ تفكير، وكانتا من رئيسَي جامعتَين سابقَين، أحدُهما هو رئيس جامعة ويتون (Wheaton) حيثُ كنتُ أدرس، والثانية من رئيس كلِّيَّة اللّاهوت التي درستُ فيها أيضًا. سألَ كلاهما: "كيف يمكنكَ أن تدعوَ الدكتور كِنغ نبيًّا؟" قائدٌ أخلاقيٌّ عظيم، نعم! مُساهمٌ مهمٌّ في التغيير الاجتماعيّ، بالتَّأكيد! لكنْ هل يمكنُ لسارقِ أعمالٍ أدبيَّة وزيرِ نساءٍ أن يكون نبيًّا مسيحيًّا؟ لقد رَفَضا بعِنادٍ إطلاقَ تلك التَّسمِيَة على رجلٍ ذي عيوبٍ واضحةٍ كهذه.

كتبتُ جوابَين مفصَّلَين بعثتُ بهما إلى كلا الرَّجُلَين، وذكرتُ بعضَ القادة ذوي العيوب الذين استخدمَهم الله بِوُضوح في أزمنة الكتاب المقدَّس. يقدِّم لنا سليمان مثلًا جيِّدًا: نحن نكرِّم الأمثال التي كتَبَها، لا نمطَ حياته. ونحن جميعًا في الواقع في خَطَرٍ إذا ما ناقضَ حاملُ الرسالة رسالتَه. واستَشهَدْتُ أيضًا بعِظات كِنغ القويَّة، وذكرتُ أنَّ كِنغ كان يطلبُ من متَطوِّعيه أن يوقِّعوا تعهُّدًا قاسيًا يُلزِمهم أن يتأمَّلوا يوميًّا في تعاليم يسوع، ويُصلُّوا بانتظام، ويَسلُكوا بالمحبَّة ويتحدَّثوا بها. ومن ثَمَّ فوجِئتُ بالمفارقة. كنت قد وضعْتُ عنوانًا لمقالتي "اعترافاتُ عنصريّ"، ولكنَّ جميع الرسائل تقريبًا التي تلقَّيتُها ركَّزت على أخطاء كِنغ وليس على أخطائي. كيف يحقُّ لهم أن يشكُّوا في حقِّ كِنغ في التكلُّم نيابةً عنِ الله وليس في حقِّي أنا بماضيَّ الملطَّخ؟

إنَّ العديدَ من المسيحيِّين الذين لا يزالون يرفضون بعنادٍ رؤيةَ أنَّ مارتن لوثر كِنغ الابن هو أداةُ الله، لا يواجِهون أيَّةَ مشكلةٍ في الصلاة في كنائسَ كانت في ما مضى تصوِّره على أنَّه عدوٌّ، وتُعارِضُ أفكارَه المُثلى، وتُخلِّد- إمَّا مباشرةً وإمَّا بطريقةٍ غير مباشرة- خطيَّةَ العنصريَّة التي حارَبَها بجسده. لقد رأينا القذى في عَينه، لكنَّنا لم نَرَ الخشبةَ في أعيُنِنا.

هناك شيءٌ واحدٌ يُطارِدُني أكثرَ من خطايا ماضيَّ: ما الخطايا التي يَعمى بصري عن رؤيتها الآن؟ تطلَّبَ إيقاظُ ضميرِ الأمَّة في القرن الماضي عَظَمةَ مارتن لوثر كِنغ

الابن. ما الذي يمنَعُنا في هذا القرن الجديد من تحقيق مجتَمعِ العدالة والسلام والمحبَّة الذي حارَبَ كِنغ ومات من أجله؟ ما القضايا اليوم التي تثبّتُ الكنيسةُ فيها قدَمَيها بعنادٍ على الجانب الخطأ؟ كما كان يقول كِنغ: إنَّ وجودَ الظُّلم في أيِّ مكانٍ هو تهديدٌ للعَدالة في كلِّ مكان.

في بعض الأحيان، تحلُّ النعمة والقوَّة على قادةٍ عُظماءَ ذوي عيوبٍ لتُبكِّتَنا وتَقودَنا إلى الأمام. في النهاية، لم تكُنْ إنسانيَّةُ كِنغ هي التي أثَّرَتْ فيَّ؛ ولا مثال غاندي في المقاومة السِّلميَّة الذي اتَّخذَه كِنغ قدوةً له، ولا تَضحِياته الشخصيَّة، مهما كانت مُلهِمَة. إنَّ جَعْله الإنجيلَ المسيحيَّ القاعدةَ الأساسيَّةَ لحياته، هو ما جَعَلَني واعِيًا للخَشَبة التي في عيني وأرغَمَني على التَّركيز على الرِّسالة التي كان يكرزُ بها. أصغَيتُ إليه في نهاية المطاف لأنَّه كان يقتبسُ باستمرارٍ من أقوال يسوع المسيح. قد لا تكونُ الكنيسةُ دائمًا على صواب؛ وقد يتطلَّبُ الأمرُ قرونًا بل حتَّى ألفِيَّاتٍ لتَفتحَ عينَيها، لكنْ عندما تكونُ محقَّة، تتدفَّقُ منها محبَّةُ الله وغفرانه مثل جدولِ ماءٍ حيّ. وللأسف، في الوقت الذي تذوَّقتُ فيه مياهَ ذلك الجدول، كان كِنغ قد تُوفِّي.

> مثلي مثلُ أيِّ شخصٍ آخر، أودُّ أن أعيشَ حياةً طويلة. إنَّ لِطولِ العمر دَورَه. لكنِّي غير مُهتَمٍّ بهذا الأمر الآن. أريدُ فقط أن أعملَ إرادةَ الله، وقد سمحَ هو لي بِصُعود الجبل. فنظرتُ ورأيتُ أرضَ الميعاد.
>
> قد لا أصِلُ إلى هناك معك، لكنْ أريدُكَ أن تعرفَ هذه اللَّيلة أنَّنا نحن الشعبَ سنَصِلُ إلى أرض الميعاد.
>
> لذلك أنا سعيدٌ اللَّيلة. لستُ قلقًا بشأن أيِّ شيء. ولا أخافُ أيَّ رجل. "عيناي قد رأتا مجدَ مجيء الرَّبّ".
>
> (من خطاب كِنغ الأخير في ممفيس،
> في اللَّيلة التي سبَقَتِ اغتيالَه)

لنبدأ مع مارتن لوثر كِنغ الابن

من أجل مقدِّمةٍ إلى حياة كِنغ، أُوصِي بكتاب "**السيرةُ الذاتيَّة لحياة مارتن لوثر كِنغ الابن**" *(The Autobiography of Martin Luther King, Jr.)*، وهو كتابٌ مسموعٌ أصدَرَته مؤسَّسة "تايم وورنر" (Time Warner). سيرة الحياة هذه مأخوذةٌ من مقتَطَفاتٍ من كتابات كِنغ. تحتوي الأشرطة على عظات واقعيَّة وخطابات ألقاها كِنغ بنفسه بأسلوبه الفذِّ الذي يحرِّك المشاعر.

"**عهد الأمل: كتابات مارتن لوثر كينغ الابن وخطاباته الأساسيَّة**" *(The Testament of Hope: The Essential Writings and Speeches of Martin Luther King, Jr.)* يجمَعُ خطابات كِنغ المشهورة كلَّها، بالإضافة إلى مقتطفاتٍ من معظم كتاباته.

كتاب ديفيد غارو، "**محتملًا الصليب**"، هو أفضل مجلَّد من جزءٍ واحد حول سيرة حياة كِنغ؛ وكتابا تايلور برانتش الشاملان، "**فَصْلُ المياه**"، و"**عمودٌ من نار**" *(Pillar of Fire)* يوسِّعان الرؤية لتَشمَلَ أحداثًا أُخرى جرَتْ في حركة الحقوق المدنيَّة (حتَّى في دولٍ أُخرى، يمكنُ شراء الكُتُب عبر شبكة الإنترنت من مواقع مثل www.amazon.com للكتب الجديدة والمستعملة، وwww.abebooks.com للكتب المستعملة).

الفصل الثالث

جي. كاي. تشيسترتون

(G. K. Chesterton)

بقايا على طول شاطئ البحر

لو سألتني في أثناء سنوات دراستي الجامعيَّة عنِ المهنة التي سأُزاولها، لكانت مهنةُ "كاتب مسيحيّ" في آخر قائمة خِياراتي، ولكنتُ سأروي الأكاذيب التي أخبرَتْني بها كنيستي عنِ العِرْق ومسائلَ أُخرى، وكنتُ سأسهزأ بتقيُّدها الخانق بالنَّاموس. ولكنتُ أيضًا سأصفُ الإنجيليَّ بأنَّه شخصٌ يتمنَّى القيام بدَورٍ جريء في المجتمع- أصوليٌّ بدخلٍ أفضل وبذهنٍ أكثر انفتاحًا بقليل، وجبينٍ أقلَّ تجعُّدًا. ولكنتُ سأتذمَّر من شخصٍ مُجازٍ من الخدمة بشكلٍ مؤقَّت، كان يعمل في كلِّيَّة اللَّاهوت التي كنتُ مُنتَسبًا إليها بصفته مدرِّسًا لمادَّتَي العلوم والفلسفة، في حين كان إلمامُه بهذين الموضوعَين أقلَّ من إلمام أساتذتي في المدرسة الثانويَّة. كانت تلك الكلِّيَّة تميلُ إلى معاقبة حبِّ الاستطلاع الفكريِّ بدلًا من مكافأته: اعترفَ أحَدُ المعلِّمين أنَّه خفَّضَ درجاتي لكي يعلِّمَني التَّواضُع. كان يحذِّرُ طلَّاب صفوفه قائلًا: "إنَّ أعظمَ حاجزٍ أمام الرُّوح القدس هو التكلُّف الثقافيّ (فقدان بساطة المعرفة)".

لكنْ في كلِّيَّة اللَّاهوت تلك نفسِها، قابلْتُ للمرَّة الأولى سي. أس. لِويس وجي. كاي. تشيسترتون. على الرُّغم من أنَّ رقعةً شاسعةً من البحر والثقافة تفصلُهما عنِّي، فإنَّهما أجَّجا فيَّ الرجاء أنَّه في مكانٍ ما يوجَدُ مسيحيُّون حرَّروا

عقولَهم بدلَ أن يقيِّدوها- مسيحيُّون جمعوا ما بين الذَّوق المعرفيِّ المتطوِّر، والتَّواضُع الذي لا يحطُّ من قَدْرِ الآخرين، وفَوق كلِّ شيء، هم أشخاصٌ اختَبروا الحياةَ مع الله كونَها مصدرًا للفرح وليسَتْ مصدرَ قَمْع. بعد أن طلبتُ نُسَخًا مستَعمَلة عبر المكتَبات في إنكلترا، التَهمتُ كلَّ ما وجدتُه منشورًا من قِبَل هذين الرجلَين، أحَدُهما يعملُ أستاذًا في جامعة أُكسفورد، فيما يعمَلُ الآخرُ صحفيًّا في صحيفة "فليت ستريت" (Fleet Street). وكما كتبَ لويس بنفسه بعد اكتشافه تشيسترتون بينما كان يتَعافى في أحَد المشافي خلال الحرب العالميَّة الأولى بالقول: "لا يمكنُ لرجلٍ شابٍّ يرغب في البقاء متَمسِّكًا بقوَّةٍ بإلحاده، أن يكون حريصًا جدًّا في قراءته".

ساندَتْني كلماتُهم، هي مثل حبل من الإيمان للنجاةِ في بحرٍ من الاضطراب والهيَجان والشَّكّ. صرتُ كاتبًا، كما قلتُ، لأنِّي أدركتُ إلى حدٍّ كبير قوَّة الكلمات في حياتي- كلماتٍ يمكنُها أن تُبحِرَ عبر الزَّمن والمحيط وتُحدِثَ بهدوءٍ ورِقَّةٍ تغييرًا للشِّفاء والرجاء. مضى وقتٌ طويلٌ قبل أن أعودَ إلى الإيمان بشكلٍ كامل، لكنْ على الأقلِّ كان لديَّ نماذجُ لِما يمكن أن يكون عليه شكلُ الإيمان الذي يعزِّز الحياة. لقد لمسَ مارتن لوثر كِنغ الابن فيَّ وترَ إيمانٍ أخلاقيّ؛ أمَّا هذان الرجلان، فقد لمسا وترًا جماليًّا.

في قصَّته عن الابن الضالّ، لا يركِّز يسوع على دافع الابن الضالِّ للعودة. لم يشعُرِ الابنُ الأصغرُ بالنَّدم المفاجئ أو بِفَورةِ محبَّةٍ نحو أبيه الذي أهانَه، بل هو في الواقع تَعِبٌ من حياةِ البؤس وعادَ بدَوافعَ أنانيَّة. من الواضح أنَّ الله لا يهتمُّ كثيرًا إذا ما كان اقترابُنا منه بدافع اليأس أو بدافع تَوقِنا إليه. لماذا عدتُ أنا؟ أسأل نفسي بالقول: "**لماذا عدْتُ أنا؟**".

وضَّح لي أخي الأكبر، الذي أدَّى دَورَ الابن الضالِّ بشكلٍ أكثر دراميَّةً، ما يمكنُ أن يحدُثَ لو قرَّرتُ أن أتركَ كلَّ شيءٍ ورائي. وفي محاولةٍ منه لكَسْرِ قيود تنشئةٍ مُقيِّدة، انطلقَ في رحلةِ بحثٍ كبيرةٍ يجرِّب فيها وجهات نظرٍ عالميَّة كأنَّه يغيِّر ملابسه: الخمسينيَّة، الإلحاد الوجوديّ، البوذيَّة، روحانيَّة حركة العصر الجديد،

العقلانيَّة التومانيَّة. انضمَّ إلى الذين رَفَضوا التقاليد والعادات في ستينيَّات القرن الماضي وأطالَ شعرَه، وكان يضعُ نظَّاراتٍ دائريَّةً بإطارٍ معدنيّ، ويُقيم مع جماعاتٍ أُخرى يجرِّبُ فيها الجنسَ والمخدِّرات. لفترةٍ من الوقت، كان يرسلُ إليَّ تقاريرَ وافرةً وحيويَّةً عن حياته الجديدة. غير أنَّ جانبًا أشدَّ قتامةً تسلَّلَ إلى حياته في نهاية المطاف. كان عليَّ أن أُخرِجَه من السجن بكفالة عندما تناوَلَ عقارًا يسبِّبُ الهلوَسة. قطَعَ علاقاته بجميع أفراد العائلة وحطَّم عدَّة زيجات. كنتُ أتلقَّى اتِّصالاتٍ هاتفيَّةً متأخِّرة في اللَّيل عن محاولات انتحار. عند مراقبة أخي، تعلَّمتُ أنَّ الحرِّيَّة في الظاهر يمكن أن تحجبَ في الواقع عبوديَّةً عميقة- أنَّ الحرِّيَّةَ هي صرخةٌ من الأعماق لاحتياجاتٍ لم تُلبَّ. لقدِ انتهى الأمرُ بصاحب أفضل مَوهبةٍ موسيقيَّة عرفتُه يومًا- إلى دَوزَنة البيانو بدلًا من العزف عليه في المسارح والحفلات. رأيتُ من قربٍ القوَّةَ المدمِّرةَ لطَرْح الإيمان جانبًا دون أن يحلَّ مكانَه أيُّ شيء.

وفي الوقت ذاته، وبصورةٍ أكثر إيجابيَّة، منحَتْني مِهنَتي بصفتي صحفيًّا الفرصةَ لأتحقَّقَ من الناس، مثل هؤلاء الذين جمعتُهم في هذا الكتاب، والذين برهَنوا على أنَّ العلاقةَ بالله يمكنُ أن توسِّعَ الحياة بدلَ أن تقلِّصَها. بدأتُ عمليَّةً مستمرَّةً مدى الحياة لفَصْل الكنيسة عن الله. مع أنِّي خرجتُ من كنائسِ مرحلةِ الطُّفولة بأضرارٍ بالغة، فإنِّي عندما بدأتُ أتفحَّصُ يسوعَ من خلال عينَي صحفيٍّ ناقدتَين، اكتشفْتُ أنَّ الصِّفاتِ التي ضايَقَتْني كثيرًا- التقيُّد الحرفيَّ بالنَّاموس، والبرَّ الذاتيّ، والعِرْقيَّة، والتعصُّب وضِيق الأُفُق، والرِّياء- هي الأمور التي حاربَها يسوع، وربَّما كانت هي الصفاتِ نفسَها التي أدَّت إلى صَلْبه. إنَّ معرفتي بالله المُعلَن في يسوع، جعلَتْني أُدرك أنَّ عليَّ أن أتغيَّر في نواحٍ عديدة- أجل، عليَّ حتَّى أن أتوب عن تشرُّبي الرِّياء والعنصريَّة والبرَّ الذاتيَّ من تنشِئَتي، وعن مشاركتي كذلك في العديد من المعاصي التي اقترفتُها بنفسي. بدأتُ أتصوَّرُ الله في منصبِ قاضٍ قاسٍ يهزُّ إصبعه تُجاهَ تمرُّدي، أكثر من كَونه طبيبًا يكتبُ وصفةً لسلوكٍ يصبُّ في مصلحتي من أجل الحفاظ على صحَّتي.

أعلن جي. كاي. تشيسترتون بانتصار: "أنا هو الرَّجلُ الذي اكتشفَ بجرأةٍ بالغة ما قدِ اكتُشِفَ من قبل. حاولتُ تأسيس بِدعةٍ لنفسي، وعندما وضعتُ اللمساتِ الأخيرة عليها، اكتشفتُ أنَّها كانت عقيدةً مستقيمةَ الرأي". بتَوجيهٍ جزئيٍّ من تشيسترتون، وصلتُ إلى مكانٍ مُشابهٍ بعدَ رحلةٍ طويلةٍ من اللفِّ والدوران.

عندما سأل أحَدُ الأشخاص تشيسترتون عن الكتاب الذي يريدُ أن يكونَ بحوزته لو وجَدَ نفسَه وحيدًا وقد تقطَّعت به السُّبُل على جزيرةٍ مهجورة، صمت لبرهةٍ فقط قبل أن يجيب: "دون شكّ، كتاب "**دليلٌ عمليٌّ لِبناء السُّفن**"". لو كنتُ أنا وحيدًا لا حِيلة لي في مكانٍ ما واستَطعتُ أن أختار كتابًا واحدًا باستثناء الكتاب المقدّس، لكنتُ اخترتُ كتابَ سيرة حياة تشيسترتون الروحيَّة الشخصيَّة هو بعنوان: "**العقيدة المستقيمة**" *(Orthodoxy)*. ما الذي يدفعُ شخصًا لأنْ يختارَ كتابًا بعنوانٍ يُثير الرَّهبة بهذا الشكل؟ لكنِّي فعلتُ هذا في أحَدِ الأيَّام ولم يتَعافَ إيماني قطُّ منذ ذلك الوقت. أنعشَ كتاب "**العقيدة المستقيمة**" إيماني وأضفى عليه روحًا جديدةً للمغامرة عندما وجدتُ مُقارَناتٍ غريبةً بين رحلتي الروحيَّة والرحلة التي قامَ بها المؤلِّف، الصحفيُّ المشتَّتُ الذِّهنِ من العصر الڤيكتوريِّ الذي يَزِنُ ثلاث مئة رطلٍ (نحو ١٣٥كغم).

كان يُطلَق على تشيسترتون في بعض الأحيان "الفنَّان الذي لم يترك وراءه عملًا فنيًّا مميَّزًا"، ربَّما كانت هذه لعنةَ مهنته التي اختارَها. عملَ معظم حياته (١٨٧٤-١٩٣٦م) محرِّرًا في صحيفة أسبوعيَّة تُعنى بالشأن الفكريِّ، وكتب خلالَها أربعة آلاف مقالة تقريبًا حول مواضيعَ قليلة الأهمِّيَّة وأخرى مُهمَّة. عايَنَ انتهاء قرنٍ وبداية قرنٍ آخر، من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين عندما وصَلَت إلى الصدارة حركاتٌ مثل حركة الحداثة، والشيوعيَّة، والفاشيَّة، والسَّلاميَّة، والحتميَّة، والداروينيَّة، واليوجينيَّة. عندما درسَ كلَّ حركةٍ بدقَّة، وجَدَ نفسَه مَدفوعًا أكثر وأكثر إلى المسيحيَّة التي حسبَها الحصنَ الدفاعيَّ الوحيدَ في مواجَهة هذه القوى القادرة. أخيرًا قَبلَ الايمانَ المسيحيّ، ليس لمجرَّد أنَّه حصنٌ للحَضارة، لكن بالأحرى لكَونه تعبيرًا عن أعمق الحقائق عنِ العالَم. اتَّخذَ خطوةً علنيَّةً عندما تعمَّدَ في الكنيسة الكاثوليكيَّة في أمَّةٍ غالبيَّتها من الپروتستانت.

بدأ تشيسترتون حياتَه بصفته مفكِّرًا ببطءٍ. كان في سنِّ التاسعة لا يكادُ يعرفُ القراءة، واستَشارَ والداه اختصاصيَّ دماغ بخصوص قدرته العقليَّة. تركَ مدرسةَ الفنِّ ولم يلتَحقْ بالجامعة قطّ. لكنْ كما ظهرَ لاحقًا، كانت لديه ذاكرةٌ مُذهلة حتَّى إنَّه كان يستَطيع، في مرحلةٍ متأخِّرة من حياته، أن يسرُدَ الحبكةَ الرئيسةَ لجميع القصص العشرة آلاف التي قرأها وراجَعَها. ألَّف خمسَ رواياتٍ بالإضافة إلى مئتَي قصَّةٍ قصيرة، بما في ذلك مجموعةٌ من القصص البوليسيَّة التي تركِّزُ على "الأب براون"؛ وكتبَ مسرحيَّاتٍ وشِعْرًا وقصائدَ شعبيَّة؛ وكتب سِيَر حياةٍ أدبيَّةً لشخصيَّاتٍ مثل روبرت براوننغ (Robert Browning)، وتشارلز ديكنز (Charles Dickens)؛ وكتبَ تاريخ إنكلترا بسلالةٍ فريدة؛ وتَناوَلَ حياةَ فرنسيس الأسيزيّ (Francis of Assisi)، وتوما الأكوينيّ (Thomas Aquinas) ويسوعَ نفسه. وعلى الرُّغم من سرعته الكبيرة في الكتابة ووقوعه في الخطأ لدى سَرْدِ بعض الحقائق، فإنَّه قارَبَ كلَّ شخصيَّةٍ من هذه الشخصيَّات بفِطنةٍ وحَماسٍ وطرافة، حتَّى إنَّ أشدَّ منتَقِديه اضطُرُّوا إلى الوقوف احترامًا وإعجابًا.

كان تشيسترتون يسافرُ بينَ حين وآخر إلى أوروبا، وعبر المحيط الأطلسيِّ لزيارة الولايات المتَّحدة (وقد حفَزَه هذا على تأليف كتاب "**ما رأيته في أميركا**" [*What I Saw in America*]) لكنَّه كان في معظم الأحيان يمكثُ في بيته ويقرأ على نطاقٍ واسع ويكتبُ عن كلِّ ما كان يخطرُ في ذهنه. كانَتِ المغامراتُ الممتعةُ تجري داخل رأسه العظيم الأشعث. لكنْ بالكاد يمكنُ للمرء أن يبالغَ في تقدير تأثيره في الآخرين. أخذَ المهاتما غاندي كثيرًا من الأفكار حول الاستقلال الهنديِّ من تشيسترتون؛ وألهَمَتْ إحدى قصصه حركة مايكل كولن (Michael Collin) من أجل الاستقلال الإيرلنديّ؛ وكان سي. أس. لويس يحسبُ تشيسترتون والدَه الرُّوحيّ.

كان قد مضى على وفاة تشيسترتون أكثر من ثلاثين سنة عندما اكتشفتُه، لكنَّه أنعشَ إيماني المحتَضَر. عندما أنظرُ الآنَ إلى الوراء وأتساءل بأيَّة طريقةٍ أثَّر فيَّ، أرى أنَّه ساعَدَني على إيقاظ شعورٍ بالفَرح كان مكبوتًا في داخلي مدَّةً طويلة.

ألقى ألبرت أينشتاين (Albert Einstein) مرَّةً بأهمِّ سؤالٍ على الإطلاق: "هلِ الكونُ مكانٌ وُدِّيٌ؟" كان أفضلَ ما حصلتُ عليه في طفولتي ومراهقتي هو رسائلُ مختلفة ومثلي مثلُ أولاد المدمنين على الكحول- لا تتكلَّم! لا تثِق! لا تشعُرْ- كانَتِ استجابتي العاطفيَّةُ بمستوًى منخفضٍ جدًّا. حتَّى عندما رحلَ أخي إلى الخارج مُستَهلًّا رحلته الكُبرى نحو الحرِّيَّة، اتَّجهْتُ أنا إلى الداخل مُغلِقًا الطرقَ واحدًا تلوَ الآخر أمام الناس الذي استَطاعوا الاقترابَ منِّي إمَّا للتَّلاعُب بي وإمَّا للتَّسبُّب في الألَم. قرأتُ قصص سارتر (Sartre) وكامو (Camus) حيثُ يطعَنُ أبطالُهما أنفسَهم بأيديهم، أو يقتلون شخصًا على شاطئ البحر لمجرَّد تجربة هذا الأمر. وقرأت خاصَّةً لنيتشه (Nietzsche) الذي صوَّر رجلًا خارقًا لا يتأثَّرُ بالألَم. تعلَّمتُ ألَّا أضحكَ وألَّا أبتسمَ وألَّا أبكي. حاولتُ ألَّا أهتمَّ أو أن يكونَ لديَّ ردُّ فعل في مواجهةِ أمورٍ عدَّة: البرد أوِ الحرارة، الروائح الطيِّبة أوِ الروائح الكريهة، الجمال أوِ القُبح، المحبَّة أو الكراهِيَة. وفي تجربةٍ مُلتَوية، كسرْتُ ذراعَيَّ مستعينًا بالإطارِ المعدنيِّ لسَريرٍ ذي طابَقين لأمتَحنَ سَيطَرَتي على الألَم.

أرى الآنَ ما لم أكُنْ أستَطيعُ أن أراه في ذلك الحين: أنِّي كنتُ أبني حِصْنًا حجريًّا منيعًا لصَدِّ المحبَّة؛ لأنِّي اعتَقَدْتُ أنِّي غير محبوب. ابتدأ ذلك الحصنُ الداخلي ينهارُ في المكان الأبعد احتمالًا- في كلِّيَّة اللَّاهوت التي كنتُ أنظرُ إليها على أنَّها نوعٌ من الملجأ الآمن. لم أكُنْ أجِدُ المواساةَ في الدِّين حيث كان يدَّعي جميعُ الذين كانوا حولي أنَّهم يَجِدونَها، بل كنتُ أجِدُها في الموسيقى. كنتُ أهربُ خلسةً من أماكن نَوم الطلَّاب في وقتٍ متأخِّر من الليل وأنطلقُ إلى الكنيسة الصغيرة وإلى بيانو "شتاين واي" (Steinway) ذي التسعة أقدام (نحو ٢,٧٥م) الموجود فيها. لأنِّي كنتُ أعيشُ في ظلِّ أخٍ لديه مَوهبةٌ موسيقيَّةٌ خارقة، لم أعزِفِ الموسيقى قَطُّ على مَشهدٍ من الناس، لكنِّي كنتُ أستَطيعُ أن أقرأ بالنَّظر بصورةٍ مقبولةٍ موزار وشوبان وبيتهوفن وشوبَرت، وهكذا كنتُ أُمضي ليالِيَ عديدةً محاوِلًا إدخالَ بعض النِّظام إلى عالمي الفَوضَويّ. كنتُ أخلقُ شيئًا ما، وعلى الرغم منِّي، وقد بدا ذلك الشيءُ جميلًا عندما تردَّدَ صداه في الكنيسة الصغيرة المظلِمة والفارغة.

ثُمَّ وقعتُ في الحبّ. اجتُذِبْنا إلى بعضنا أنا وجانيت (Janet) للأسباب الخاطئة- في الأساس، كُنَّا نجلسُ معًا ونشكو من أجواء الكلِّيَّة القَمعيَّة- لكنْ في النهاية ربحتُ أقوى قوَّة في الكون، ألا وهي الحبّ. لقد وجدْتُ شخصًا يُشير إلى كلِّ شيءٍ صائبٍ فيَّ وليس إلى كلِّ شيءٍ خاطئ، فانتعَشَ الرجاء. أردتُ أن أُخضِعَ عوالمَ وأضَعَها عند قدميها. بمناسبة عيد ميلادها، تعلَّمتُ أن أعزف مقطوعةَ بيتهوڤن (Pathetique Sonata)، ودعوتُها بينما كنتُ أرتجفُ لتَكونَ أوَّلَ شخصٍ يسمَعُني وأنا أعزف. كانت تقدمةً لحياةٍ جديدة، وتقدمةً لها وهي التي اجتذبَتْ هذه الحياة.

كتبَ تشيسترتون قائلًا: "إنَّ أسوأ لحظةٍ يمرُّ بها الملحِدُ هي عندما ينتابُه روح الشُّكر، ولا يكونُ لديه أحَدٌ ليَشكُرَه". وكتب أيضًا: "إنَّ الفرحَ الذي يُشبهُ دعايةً صغيرةً للوثنيّ، هو سرٌّ عظيمٌ بالنِّسبة إلى المسيحيّ". أنا أعرفُ جيِّدًا تلك اللحظة الأسوأ، وأعرفُ أيضًا رعشات الفرح الأولى التي أدخلَتْ هواءً نقيًّا في شقوقٍ كان قد أُحكِمَ إغلاقها منذ فترةٍ طويلة. يحملُ الفرحُ العظيم في طيَّاته تَنويهاتٍ بالخلود. فجأةً رغبتُ في العَيش، بل أن أعيشَ إلى الأبد.

لا أجرؤ أيضًا على نسيان الطبيعة. في أثناء فترة طفولتي، كانَتِ الطبيعةُ مَلاذي. كُنَّا نُقيمُ في مَقطورةٍ من الألمنيوم بطول ثمانية وأربعين قدمًا (نحو ١٤,٥م)، وعرض اثني عشر قدمًا (نحو ٣,٥م) مُتَوقِّفةً على أرضٍ تملكُها الكنيسة، وكان التوتُّرُ يسودُ البيتَ أكثرَ ممَّا يسودُه السَّلام، لكنِّي كنتُ دائمًا أجِدُ غابةً قريبةً حيثُ كنتُ فيها أستكشفَ أعشاشَ السَّناجب وأسرابَ النَّحل؛ وكانت قطع الخشب العفنة زاخرةً بالخَنافس الغريبة، والمستَنقعاتُ تعجُّ بأصواتِ اليَعاسيب والضَّفادع الصغيرة. كنتُ أجمعُ الفَراشاتِ والخنافسَ والسَّلاحف، وعملتُ في أحَد فصول الصَّيف في دراسة البَعوض والقُراد في مركز الأمراض السارية.

وفي كليَّة اللَّاهوت، وحتَّى بعد تلك الفترة، أثَّرَتْ فيَّ الطبيعةُ كالقطعة الموسيقيَّة التي تستمرُّ في العزف سواء توقَّفتُ للاستماع إليها أم لم أتوقَّف. إذا كُنَّا لا نستَطيعُ

بشكلٍ مؤكّد أن نحكمَ على الكَون بأنَّه وُدّي، فعلى الأقلّ نستَطيعُ أن نحكم عليه بأنَّه ينبوعُ جمالٍ لا محدود. إذا تسلَّقتَ أعلى الجبال حيثُ أعيشُ الآن في كولورادو، فإنَّك ستَجدُ التُّربة الرَّقيقة وهي مُغطَّاةٌ بالزُّهور البرِّيَّة الصغيرة الناعمة التي تنمو دون أن يعتَني بها أحَد، أو يمرَّ أحَدٌ بجانبها. وإذا غُصْتَ في الحَيد المرجانيِّ العظيم، فستَرى المرجانَ والسمكَ الاستوائيَّ بألوانٍ وتَصاميم أكثرَ تألُّقًا من تلك المعروضة في أيِّ مُتحفٍ للفنِّ في العالم، ناهيك بِقاع البحر المفروش بالأصداف، والإفرازات اللؤلؤيَّة لأحياءٍ بحريَّةٍ بَدائيَّة.

وقفْتُ في وَسط الضَّباب الرَّقيق لشلّالات إغواسو (Iguaçù) في البرازيل حيث غَطَّت ذراعَيَّ حشراتٌ فائقةُ الجمال لتَلعَقَ الرُّطوبة حملَتْ على أجنحتها فنًّا تجريديًّا. جثمتُ قُربَ أحَد الخلجان في ألاسكا حيث شكَّلَتِ الحيتانُ البيضاء أهِلَّة لامعة من الفضَّة تتحرَّكُ في انسجامٍ تامٍّ فوق المياه الخضراء الداكنة. وجلسْتُ تحت شجرة الباوباب الاستوائيَّة في كينيا بينما كانت الزَّرافات تركضُ من غير جَهدٍ تحت غيوم الشَّمس الغاربة، وصفٌّ من نصف مليون من حيوان النَّوِّ الأفريقيّ (شبيهٌ بالجاموس) يتقدَّم بانتظامٍ عبر السُّهول. وفوق الدائرة القطبيَّة الشماليَّة، راقبْتُ قَطيعًا من ثيران المسك تتجمَّع في دائرة- مثل عربات كونيستوغا (Conestoga) المغطَّاة التي كانت تستعملُ في الغرب الأميركيّ- لتَحمِيَ الأمَّهات وصغارهنَّ (الذين ينبغي أن يتأقلَموا في فصل الشتاء مع هبوط في الحرارة يصل إلى ١٣٠ درجة فهرنهايتيَّة [نحو ٥٤ درجة سيلسيوس] عند الولادة). وجلستُ أيضًا في غرفِ صفٍّ حارَّة أستمعُ إلى أساتذة اللّاهوت وهم يتكلَّمون بنبرةٍ مملَّة رتيبة عنِ الصفات التي تحدِّدُ الأُلوهيَّة- المعرفة الكلِّيَّة، الحضور الكلِّيّ، القدرة الكلِّيَّة...إلخ. هل يمكن أن يُختَزَلَ خالقُ هذا العالَم المجيد الرائع بعباراتٍ تجريديَّة كهذه؟ ألا يجبُ أن نبدأ من حقيقة الوجود الأكثر وضوحًا، بعبارة أُخرى، أيًّا كان المسؤولُ عن خَلْق الكَون فهو فنَّانٌ رهيبٌ لا يُضاهى، تتضاءَلُ أمامَه كلُّ إنجازاتِ البشر وإبداعاتِهم لتصيرَ مثل ألعاب أطفال؟

سبَقَ وذكرتُ أنِّي كنتُ أحَد أفراد حلقة مناقشة مع ثلاثة علماء، نال اثنان منهم جائزةَ نوبل، ويجاهِران بإلحادهما. كُنَّا ننظرُ إلى العالم بطرقٍ مختلفة، لكنَّنا اتَّفقنا على

أنَّ الدِّين، وليس العِلْم، يقدِّمُ على الأقلِّ جوابًا عن سؤالَين: (١) لماذا يوجَدُ شيءٌ بدلًا من لا شيء؟ (أو كما صاغ ستيفن هوكِنغ [Stephen Hawking] السؤال، لماذا "يُزعجُ الكَونُ نفسَه بأن يكونَ موجودًا"؟) (٢) ولماذا ذلك الشيءُ هو بهذا الجمال والتَّنظيم؟ ليس من قبيل الصُّدفة أنَّ العهدَ القديم كان أوَّلَ عملٍ أدبيٍّ قديم يحتَفي بأمجادِ الطبيعة؛ لأنَّ الذين كتبوه عَرَفوا عملَ يَدَيِ الخالق.

أجل، **ولكنْ هلِ الطبيعةُ وُدِّيَّة؟** يروي عالمُ الطبيعة لورين إيزلي (Loren Eiseley)، حادثةً يُسمِّيها خبرةَ التعلُّم الأهمَّ في حياته الطويلة. فاجَأته على شاطئ البحر عاصفةٌ مُطرةٌ مفاجئة، فبحثَ عن مأوًى تحت قطعةِ خشبٍ ضخمة جرفَتْها المياه، ووجَدَ هناك ثعلبًا صغيرًا، ربَّما كان عمره عشرة أسابيع، ولم يكُن لديه حتَّى ذلك الحين أيُّ خَوفٍ من البشر. في غضون بضع دقائق، جعلَ الثعلبُ إيزلي يشتركُ معه في لعبةِ المنافَسة على الشَّدّ، حيث أمسَكَ إيزلي بطرفِ عَظْم دجاجةٍ في فمه بينما كان الثعلبُ الصغيرُ يشدُّ الطرفَ الآخر. قال إيزلي إنَّ الدَّرسَ الذي تعلَّمَه هو أنَّه في قلب الكَون الواسع توجَدُ ابتسامةٌ ترتسمُ على وجه الله.

كانت لي أنا أيضًا مواجَهاتٌ مع الثَّعالب حيثُ أقيمُ في كولورادو الآن. عندما وُلِد ثلاثةٌ من صِغار الثَّعالب في أحَد الأوجرة عبر الوديان المحيطة، تخيَّلتُ نفسي القدِّيس فرنسيس في العصر الحديث وقرَّرتُ إقامةَ علاقةِ صَداقةٍ بهم. جلستُ قُرْبَهم على وسادة، وهناك كتبتُ مقالاتي وكُتُبي، إلى أنِ اعتادَتْ صِغارُ الثَّعالب وجودي بسُرعة (في المرَّة الأولى، أعلَنْتُ حُضوري غير الملاحَظ بقولي: "مرحبًا!" فقفَزوا في الهواء وكأنَّ صاعقةً ضربَتهم). حدَّقوا بي بِفُضول وأعيُنُهم الذهبيَّة متيقِّظة، وآذانُهم ترتعشُ لأيِّ صَوت، وجلدُهم الأحمر الذي يحوي القليل من الخُدوش والعلامات يتَلألأ تحتَ أشعَّة الشمس. في النهاية، بدأ الصِّغارُ الثلاثةُ يتبَعونني فشعرتُ وكأنِّي قائدٌ يُعطي وُعودًا خادعة. إذا توقَّفتُ كانوا يتَوقَّفون ويختَبِئون وراء صخرةٍ أو شُجَيرة، وإذا ركضتُ كانوا يركضون. وإذا جلسْتُ لأتَناوَلَ طعامَ النُّزهة، أحاطوا بي وراقَبوني بينما أتَناوَلُه.

بينما كان فصلُ الصَّيف يمضي، كنتُ أقِفُ في الطريق المؤدّي إلى البيت وأُطلِقُ صَفيرًا. عند إصدار هذا الأمر، كانَتِ الثَّعالبُ الصغيرةُ الجميلةُ الثلاثة تأتي وهي تقفِزُ عبر الوادي. كانت تُطاردُ مجموعةً من الأزهار البرِّيَّة وتضربُها كالهِرَرة. كانت تطاردُ بِغَباءٍ سناجِبَ ماكرة. وكانت تقفزُ مُتَفاديةً من الرَّذاذ الصادر من رشَّاشات المياه التي تَروي المسطَّحَ العُشبيَّ الأخضر حول بَيتنا. وكانت تَقِفُ على قوائمها الخلفيَّة وتلعَقُ الماءَ من حَوضِ ماءِ الطُّيور– قفزَتْ مرَّة إلى الوراء في هَلَعٍ عندما رأتِ الثَّعالبُ الصغيرةُ وجوهَها منعكسةً على طبقةٍ من الجليد كانت تطفو على السَّطح. وإذا قذفْتُ كرةَ التِّنس، كان أحَدُها يُطارِدُها ويُمسِكُها ويركضُ بعيدًا، فيما الثعلبان الآخران يُطاردانه.

كان لديَّ ثلاثة رفقاء طوال الصَّيف. عندما كنتُ أعشِّبُ الحديقةَ أو أقصُّ مسطَّح العشب الأخضر أو أقرأ رسائلي وأنا مستَلقٍ على الأُرجوحة الشبكيَّة، كانوا يتبَعون كلَّ حركةٍ من حركاتي. وإذا تناوَلتُ الغَداءَ على الشرفة الخشبيَّة، كانوا يَتسلَّقون الدَّرجات للانضمام إليَّ. وإذا جلسْتُ في الخارج لأكتُب، كانوا يراقِبونَني لفترةٍ قصيرة ثُمَّ يتكوَّرون على أنفسهم وأطرافُ أذيالهم البيضاء مُطويَّة أمام عيونهم، ثُمَّ يخلدون إلى النوم. شعرتُ بما كانت عليه الأمور في جنَّة عَدن، عندما لم يكُنِ الخوفُ قد نشأ بعدُ بين الكائنات الحيَّة، كما شعرتُ بوَمضةٍ مستَقبليَّةً نحو الفِرْدَوس، حين كان الأسدُ يستَلقي مع الحمل، ويتكوَّرُ الثَّعلب بجانب الكاتب. تعلَّمتُ مثل إيزلي أنَّه في صميم الكَون توجَدُ ابتسامة. قالت سيمون ويل (Simone Weil): "إنَّ جمالَ العالَم هو ابتسامةُ السيِّد المسيح الرَّقيقةُ معبَّرٌ عنها من خلال المادَّة". إنَّنا نلمحُها بصورةٍ نادرةٍ فقط على هذا الكوكب المشوَّه، لكنَّ تلك اللَّمحة تكشفُ من الواقع بِقَدرِ ما تُعلِنُه جميعُ كُتُبِ اللَّاهوت المكدَّسة فوقَ بعضها بعضًا.

خفَّفَتِ الموسيقى والحبُّ الرومانسيّ والطبيعة أيضًا، بالتَّدريج رتابةَ اليأس المتواصِل في داخلي والذي ضايَقَني بِكَونه ألمًا غيرَ مَحسوس. بدأتُ أرى اليأسَ عَرَضًا من الأعراض الطبيعيَّة للإنسانيَّة الساقطة والمنفَصِلة عن خالقها. لا بدَّ لي بطريقةٍ ما من إعادة الارتباط بالخالق.

أشارَ تشيسترتون إلى القدِّيس فرنسيس الذي أدرَكَ وضعَه الصحيحَ من "الأخت الشمس" و "الأخ القمر"، ورأى جمالًا لا ينضَبُ في أكثر الأعشاب الضارَّة تواضُعًا، كالهندباء البرِّيَّة. في فِقرةٍ جديرةٍ بأن تُذكَر، يُظهرُ تشيسترتون التَّبايُنَ ما بين حالنا وحال الله، "الذي يملكُ من القوَّة حدًّا يجعَلُه يبتهجُ بالرَّتابة. من الممكن أن يقولَ الله للشَّمس في كلِّ صباح: "أَشرِقي ثانيةً"؛ وفي كلِّ مساء يقول للقمر: "افعل ذلك ثانية". قد لا تكونُ زُهورُ الأُقحوان المتَماثِلة مصنوعةً بطريقةٍ تلقائيَّةٍ واحدة، بل قد يكونُ الله صنعَ كلَّ أُقحوانةٍ على حِدَة، لكنَّه حتمًا لم يتعَبْ البتَّة من صنعها. قد تكونُ لديه الرغبة في الطفولة إلى الأبد؛ لأنَّنا أخطأنا وتقدَّمنا في السِّنّ، لكنَّ أبانا السماويَّ أصغرُ منَّا سنًّا". ساعَدَتْني الطبيعةُ بالتَّدريج على تجديد رغبة الطفولة تلك فيَّ.

غير أنِّي لسْتُ فرنسيس الأسيزيّ، وبخلاف هذا القدِّيس، أجِدُ باستِمرارٍ رسائلَ مختَلَطةً في الطبيعة. أيُّ لمحةٍ عنِ الخالق يمكنُ الحصولُ عليها من ذبابة "سيسيدومِيا" (Cecidomiya) التي تفقِسُ بيوضَها داخل الأمِّ ثُمَّ يشقُّ الصغارُ طريقَهم إلى الخارج عبرَ التِهام الأمِّ في أثناء خروجهم منها؟ أو من حشرة زينون پَكي (Xenon Peckii) التي لا ترى ولا تطيرُ وتُمضي حياتَها كلَّها داخل دَبُور الأوراق وهي تتغذَّى عليه؟ أو سمكة السلُّور الأمازونيَّة البالغة الصِّغَر التي تسبَحُ في طريقها إلى المسالك البوليَّة لمستَحمٍّ مطمئن، ثُمَّ تنشرُ أشواكَها الحادَّة متَسبِّبةً بآلامٍ مبرِّحة لا يخفِّفُها سوى الاستئصالِ الجراحيّ؟ حتَّى ثعالبي المحبوبة: رأيتُهم ثماني مرَّاتٍ وهم يمسِكون سنجابًا في حديقتي الخلفيَّة، وقد كانت عمليَّةَ صياح دمويَّةً لا يستَطيعُ المرءُ أن يُزيلَها من ذهنه. رأيتُ يومَ أمس ظبيةً وهي في حالة شَبَق، تشخَرُ وتبوِّلُ وتتصبَّبُ عَرَقًا وتُحدِثُ صَخَبًا، وكان قرناها منخفضان ومتَّجهان نحو جميع الذكور الموجودين على مرأى البَصَر. من المستَبعد أن تكونَ هذه صورةً فاتِنةً للحبِّ الرومانسيّ.

في هذا المجال، برهَنَ تشيسترتون على أنَّه مرشِدٌ مفيد. لقد واجَهَ مذهبَ الحلوليَّة والديانة الكونيَّة الحديثة بإصرارٍ قويٍّ في كتابه "**العقيدة المستقيمة**" على أنَّ "الطبيعة

ليسَتْ أمَّنا؛ الطبيعةُ هي أختُنا". لقد خلقَ الله كلًّا من العالم الطبيعيّ والمخلوقات البشريَّة مثلُها مثل أيِّ فنَّانٍ يشكِّلُ شيئًا منفصِلًا عن نفسه ثُمَّ يُطلقُه حرًّا. "لم يكتُبِ الله قصيدةً، بل كتبَ مسرحيَّة، وخطَّطَ لها لتَكونَ كاملةً ومثاليَّة، لكنَّه تركَها للممثِّلين البشرَ ومديري المسارح الذين جَعَلوها في فَوضى منذ ذلك الحين".

نظرَ تشيسترتون إلى العالَم على أنَّه نوعٌ من حُطام سفينةٍ كَونيّ. إنَّ الشخصَ الذي يبحَثُ عنِ المعنى يُشبِهُ بحَّارًا يستَيقظُ من نومٍ عميقٍ ليَكتشفَ كنزًا مُبعثَرًا حولَه بقايا حضارةٍ بالكاد يستطيعُ أن يتذكَّرها. يلتَقطُ البقايا واحدةً تلو الأخرى- عملات ذهبيَّة، بوصلة، ثيابًا رائعة- ويحاوِلُ أن يتبيَّنَ معناها. إنَّ البشريَّةَ الساقطةَ تعيشُ في حالٍ كهذه. لا تزالُ الأشياءُ الصالحةُ مَوجودةً على الأرض- العالم الطبيعيّ، والجمال والمحبَّة، والفرح- تحملُ آثارَ هدفِها الأصليّ، لكنَّ فقدان الذاكرة يشوِّه صورةَ الله فينا.

بعد قراءة كتاب "**العقيدة المستقيمة**"، قرأتُ العديد من أعمال تشيسترتون الأُخرى. (كتبَ أكثرَ من مئة كتاب، وبصفتي كاتبًا، أُصِبْتُ بالكآبة لعدَّة أسابيع عندما علمتُ أنَّه كان يُملي معظمَ كتبه مباشرةً على سكرتيرته ويُجري بعض التغييرات على المسوَّدات الأولى). كنت أكتبُ في تلك الفترة عن مشكلة الألَم، ووجدتُ الكثيرَ من التبصُّر في معالجته الخياليَّة لذلك الموضوع المظلم في كتاب، "**الرجل الذي كان رمزُه يوم الخميس**" (The Man Who Was Thursday). إنَّ ما يُثير الاستغراب، نظرًا إلى اختلاف الأسلوب بين هذا الكتاب وكتاب "**العقيدة المستقيمة**"، أنَّ الكتابَين وُضِعا خلال العام نفسه. قال لاحقًا وهو يشرحُ الأمرَ إنَّه كان يصارعُ اليأسَ والشرَّ ومعنى الحياة، حتَّى قاربَ على الانهيار العقليّ. عندما خرجَ من تلك الكآبة والحزن، سعى إلى الدِّفاع عنِ التفاؤل وسطَ ظلمةِ عالَم كهذا. كان يدرسُ سفرَ أيُّوب في الكتاب المقدَّس، فكانَتِ النتيجةُ أنَّ أحَدَ الكتابَين كانَ كتابَ "دفاعيَّاتٍ" عنِ المسيحيَّة حافلًا بالتغييرات وبالتَّقلُّبات غير المتوقَّعة، أمَّا أفضلُ وصفٍ للكتاب الثاني فهو أنَّه مزيجٌ من كابوسٍ وجاسوسيَّةٍ مثيرة.

في كتاب "**الرجل الذي كان رمزُه يوم الخميس**"، لا يقلِّلُ تشيسترتون من شأن

أسرار الألَم والإرادة الحرَّة التي لا تُحصى. بدلًا من ذلك، فإنَّه يُصيِّرُها حُجَّةً معتَدلةً دفاعًا عنِ الإيمان. إنَّ الكَونَ في أسوأ حالاته وفي أدنى درجات صَلاحه، حيثُ تعلنُ الطبيعةُ الجانبَ الخلفيَّ فقط من الله، يقدِّم إلينا أسبابًا للإيمان. في كلامه إلى أيُّوب، يشيرُ الله إلى ضَراوةِ الطبيعة- فرس النهر والتمساح؛ العواصف الرعديَّة والعواصف الثلجيَّة؛ اللبؤة والماعز الجبليّ؛ الثيران الجامحة والنَّعام- ولا يُشير إلى جانبها الودود. إنْ لم تعلُنِ الطبيعة أيَّ شيءٍ آخر، فإنَّها تُبيِّنَ الله غامضًا لا يُحصى الكاملَ المستحقَّ العبادة. قد تكونُ لدينا أدلَّةٌ محدودةٌ لمعرفة أسرار الواقع، لكنَّها أدلَّةٌ رائعة. أعلن تشيسترتون في وقتٍ لاحق، "حتَّى مجرَّد الوجود، في حدوده الأوَّليَّة، كان غير عاديٍّ بما يكفي ليَكونَ مثيرًا. إنَّ أيَّ شيءٍ يمكنُ أن يكونَ رائعًا مقارنةً بالعَدَم". وفي حياته أيضًا، بدا صَوتُ الطبيعةِ والحبِّ الرومانسيِّ كنَغَماتِ النعمة التي يتردَّد صداها عاليًا.

بالنِّسبة إلى تشيسترتون، وإليَّ أيضًا، أثبتَتِ الألغازُ المتعلِّقة بالله أنَّها أكثرُ إقناعًا من الأجوبة المقترَحة من دون الله. بدأتُ أومن أنا أيضًا بالأشياء الصالحة في هذا العالَم، حيث أُعلِنَتْ لي أوَّلًا في الموسيقى والحبِّ الرومانسيِّ والطبيعة، مثل بقايا حطامٍ ومثل أدلَّةٍ ساطعةٍ على طبيعة الواقع الذي يحجبُه الظَّلام. أجابَ الله على أسئلة أيُّوب بِطَرْح المزيد من الأسئلة، كما لو أنَّه يقولُ إنَّ حقيقةَ الوجود تكمنُ في ما هو أبعد بكثيرٍ من نطاق إدراكنا. ما بَقِيَ لنا هو بقايا من تصميم الله الأصليِّ مع الحرِّيَّة الدائمة، لنسلِّمَ مصائرَنا إلى إلهٍ مثله، أو نختارَ أن نكونَ ضدَّه.

وصَفَ تشيسترتون استجابتَه الشخصيَّة، بروحِ شكرٍ خالصٍ، في قصيدةٍ قصيرة:

هنا يومٌ آخر يموت
كان لي فيه عينان وأُذنان ويدان
والعالم العظيم من حولي؛
وبحلول الغد يبدأ يومٌ آخر
لماذا سُمح لي بيومَين؟

بالإضافة إلى مشكلة الألم، بدا جي. كاي. تشيسترتون مَفتونًا، على حدٍّ سواء، بنَقيض معضلة الألم، وهو مسألة المتعة. اكتشفَ أنَّ المادِّيَّة هي أضعَفُ من أن تفسِّرَ شعورَ العَجَب والبهجة الذي يعطي بُعدًا يكادُ يكون سحريًّا لأعمالٍ إنسانيَّةٍ أساسيَّة، كالجنس والولادة واللَّعِبِ والإبداع الفنِّيّ.

ما سببُ كَون الجنس ممتعًا؟ التَّناسُل بكلِّ تأكيد لا يتطلَّبُ المتعة: بعض الحيوانات تتكاثرُ ببساطة بالانقسام، وحتَّى البشر يستَخدمون طرقًا للتَّلقيح الاصطناعيِّ الذي لا يشمَلُ المتعة. لماذا يُعدُّ الأكلُ ممتعًا؟ تستطيعُ النباتات والحيوانات الدُّنيا أن تحصُلَ على حصَّتها من الموادِّ الغذائيَّة دون وُجود ذلك العدد الهائل من حُلَيمات التذوُّق في اللِّسان. ولماذا توجَدُ الألوان؟ يُديرُ بعضُ الناس شؤونَ حياتِهم بصورةٍ جيِّدةٍ دون أن تكونَ لديهم القدرةُ على تمييز الألوان. لماذا نعملُ على تعقيد الرؤية بالنِّسبة إلينا جميعًا؟

بعد قراءتي الكتاب الألف حول مشكلة الألم، أثارَ عَجَبي أنِّي لم أرَ قَطُّ ولو كتابًا واحدًا عن "مسألة المتعة". ولا قابلتُ فَيلسوفًا يسيرُ هنا وهناك وهو يهزُّ رأسَه في حَيرةٍ حول سؤال عن سبب اختبارنا المتعة. ومع ذلك فهو يلوحُ كسؤالٍ كبير. إنَّه بالنِّسبة إلى الملحِدين، مساوٍ فلسفيًّا لمشكلة الألم بالنِّسبة إلى المسيحيِّين. حول قضيَّة المتعة، يستطيعُ تشيسترتون أن يتنفَّسَ بسهولةٍ أكبر. إنَّ الله الصالح والمحبَّ يريدُ بشكلٍ طبيعيٍّ لخلائقه أن يختبروا المتعةَ والفرحَ والاكتفاء الذاتيّ. يبدأ المسيحيُّون من افتراضٍ ما، ومن ثَمَّ يبحثون عن طرقٍ لتَفسير مَصدَرِ الألم. لكن، ألا يجبُ أن يكونَ لدى الملحدين التزامٌ مساوٍ لتَفسير مَصدر المتعة في عالمٍ عشوائيٍّ خالٍ من المعنى؟

بعد رحلةِ بحثه الطويلة، عادَ تشيسترتون إلى الإيمان لأنَّ المسيحيَّة فقط هي التي تقدِّمُ مفاتيحَ حلِّ لغز المتعة. "شعرتُ في عظامي، أوَّلًا، أنَّ هذا العالم لا يفسِّر نفسه... ثانيًا، بدأتُ أشعرُ كما لو أنَّه يجب أن يكونَ للسِّحْر معنى، وأن يكونَ شخصٌ ما يُعطيه المعنى. كان هناك شيءٌ شخصيٌّ في العالم كما هي الحالُ في أيِّ عَمَلٍ فنِّيّ... ثالثًا، اعتَقدتُ أنَّ هذا القصدَ جميلٌ في تصميمه القديم على الرُّغم من

عيوبه، مثل التنّين[٢]. رابعًا، إنَّ التَّواضُعَ وضَبْطَ النَّفس هما شكلٌ صحيحٌ من أشكال تقديم الشُّكر إلى الله: علينا أن نشكرَ الله من أجل بعض المشروبات (كالنَّبيذ الأحمر) وذلك بعدم الإفراط في شربها... وأخيرًا، والأغرب من ذلك كلِّه، خطرَتْ في ذهني فكرةٌ غامضةٌ وكبيرة، وهي أنَّ الصَّلاحَ كلَّه، بطريقةٍ ما، هو أشبَهُ بِبَقايا ينبغي أن نختزِّنَها ونحافظَ عليها لتكونَ مقدَّسةً مُفرَزةً من التَّلفِ الأساسيّ. خبَّأ الإنسانُ صلاحَه مثلما خبَّأ [روبنسون] كروزو أغراضه التي كان قد أنقذَها من الحطام".

من أين تأتي المتعة؟ بعد البحث عنِ البدائل، استقرَّ تشيسترتون على الرأي القائل إنَّ المسيحيَّةَ هي التفسيرُ العقلانيُّ الوحيدُ لوُجود المتعة في العالم. إنَّ لحظاتِ المتعة هي بقايا جَرَفَتْها المياه إلى الشاطئ من حُطام السفينة، أجزاء من الفِردَوس امتدَّتْ عبر الزمن. علينا أن نُمسِكَ بهذه البقايا بِرِفقٍ ونستخدمها بعرفانٍ وضَبْطِ نفس، ولا نتمسَّك بها على أنَّها أشياءُ يحقُّ لنا امتلاكُها.

وكما نظرَ تشيسترتون إليها، فإنَّ الإباحيَّةَ الجنسيَّة ليسَتِ المبالَغةَ في قيمة الجنس، بقَدْرِ ما هي في الحطِّ من قيمته. "إنَّ الشكوى من أنّي لا يمكنُ أن أتزوَّجَ إلَّا مرَّةً واحدة، هي كالشَّكوى من أنِّي قد وُلِدتُ مرَّةً واحدة فقط. إنَّ هذا غير مُتَكافئ مع الإثارة المخيفة التي تحدَّثْنا بشأنها. كما أنَّه لا يُظهِرُ إدراكًا مبالَغًا به للجنس، بل عدم إدراكٍ غريبٍ له... إنَّ تعدُّدَ الزَّوجات هو عدم فَهْمِ الجنس- إنَّه مثل رجلٍ يقطفُ خمسَ ثمراتٍ وهو شاردُ الذِّهن".

إنَّ الكنائسَ التي واظبْتُ على حضور خدمتها شدَّدتْ على مخاطر المتعة بصورةٍ كبيرة حتَّى إنِّي لم أتلقَّ أيَّةَ رسالةٍ إيجابيَّة بشأنها. مُستَرشِدًا بتشيسترتون، بدأت أرى الجنسَ والمالَ والقوَّةَ والمتع الحسِّيَّة بصفتها عطايا الله الصالحة. في كلِّ يومِ أحد، أستطيعُ أن أفتحَ المذياع أوِ التلفاز وأسمعَ الوُعَّاظَ وهم يَدينون علنًا المخدِّرات

---

٢) على الرُّغم من أنَّ التنِّين كائنٌ جميلُ التكوين، فإنَّ له عيوبًا عديدة، منها أنَّه ينفثُ النارَ مثلًا. ربَّما هذا ما قَصَدَه الكاتب بهذا التشبيه (الناشر).

والانحلال الجنسيّ والطَّمع والجريمة التي تفشَّت في شوارع أميركا. بدلاً من هزِّ أصابعنا فقط في وجه هذه الإساءات الواضحة لعطايا الله الصالحة، ربَّما علينا أن نبيِّن للعالم من أين تأتي العطايا الصالحة ولماذا هي صالحة. ربَّما يكونُ أعظمُ انتصارٍ للشَّرِّ هو نجاحَه في إظهار عداوة الدِّينَ للمتعة، بينما الدِّين في الحقيقة هو الذي يشرحُ مَصدَرَها: كلُّ شيءٍ صالحٍ وممتع هو من صُنْع الخالق الذي أغدقَ عطاياه على العالم.

دون شكّ، في عالمٍ بعيدٍ عن الله، حتَّى الأشياء الصالحة يجبُ التَّعامُلُ معها بحَذَر، مثل المتفجِّرات. لقد فقدنا براءةَ جَنَّة عدن غير الملوَّثة، وصار كلُّ صلاحٍ يحملُ في داخله إمكانيَّةَ الإساءة، أي أنَّه صارَ خَطَرًا أيضًا. تناوُلُ الطعام يصيرُ شراهةً، والحبُّ شهوةً، ويغيبُ عن بالنا خلال هذا كلِّه ذاك الذي مَنَحَنا المتعة. لقد جعلَ القدماءُ الأشياء الصالحة أوثانًا؛ نحن أبناء هذا العصر ندعوها الإدمان. في كلتا الحالتَين، عندما يتوقَّفُ الشيء عن أن يكون عَبدًا لك فهو يستَعبدُك- رأيتُ هذا المبدأ بوضوح في أخي وأصدقائه الذين رفضوا تقاليدَ المجتمع.

قال تشيسترتون: "أنا إنسانٌ عاديٌّ بالمعنى الصحيح للكلمة، ممَّا يعني قبولَ نظامٍ ما: الخالق والخليقة؛ الشعور العامُّ بالعرفان من أجل الخليقة؛ الحياةُ والحبُّ كونَها عطايا صالحة دائمًا؛ الزَّواج والأخلاق النبيلة كونَها قوانينَ تَضبطُ الحياة والحبَّ بشكلٍ صحيح..." أدركتُ أنا أيضًا بتأثيرٍ منه، الحاجةَ لأنْ أصيرَ إنسانًا "عاديًّا" بصورةٍ أفضل. كنتُ قد تصوَّرتُ بأنَّ الإيمانَ هو أشبَه بممارسةٍ سرِّيَّةٍ صارمة من الانضباط الروحيّ- أنَّه مزيجٌ من الزُّهد والعقلانيَّة طارَ منه الفرح. أعادَ إليَّ تشيسترتون عَطَشًا للحيويَّة الوافرة التي تنبعُ من الاتِّصال بالله الذي خطَّطَ لجميع الأشياء التي تمنحني المتعة.

قال تشيسترتون: "هناك عددٌ لا محدودٌ من الزَّوايا التي يسقُطُ فيها الفَرد، ولكنَّه لا يقِفُ إلَّا عند واحدة" لكنَّه سقطَ في النهاية من الإفراط من دون أن يحقِّقَ التوازنَ الذي وعظَ به بشكلٍ مقنع جدًّا. ليس أنَّه فقط قَطفَ خمسَ ثمراتٍ وهو في حالة شرودٍ، بل إنَّه أكلَها أيضًا. تَراوَحَ وزنُه ما بين ثلاث مئة إلى أربع مئة رطل (نحو ١٣٥

إلى ١٨٠كغم)، وبالإضافة إلى صحَّته العامَّة السيِّئة، لم يتأهَّلْ للخدمة العسكريَّة، وهي حقيقةٌ قادَتْ إلى مواجهةٍ فَظَّة مع شخصٍ وطنيٍّ خلال الحرب العالميَّة الأولى. "لماذا لستَ مَوجودًا في الجبهة الأماميَّة؟" سألَتِ السيِّدةُ العجوزُ السَّاخطةُ عندما لمحَتْ تشيسترتون في شوارع لندن. أجاب ببرود: "يا سيِّدتي العزيزة، إذا خَطَوْتِ قليلًا حولي بهذا الاتِّجاه ستَرَين كيف أنَّ بطني متقدِّمٌ إلى الجهة الأماميَّة".

إنَّ شكلَ تشيسترتون المميَّز جعلَه من أفضل الشخصيَّات لرسَّامي الكاريكاتير في لندن. لم يكن رسَّامُ الكاريكاتير الماهر يحتاجُ إلَّا إلى بِضْع ضربات بفرشاته أو قلمه ليصوِّر جوهَرَه: كان يبدو من الجانب كحرف "پي" (P) عملاق. أكمل تشيسترتون شهرتَه بأمورٍ شاذَّةٍ وغريبةٍ أخرى كان معظمها يلائمُ الصورةَ النمطيَّةَ لبروفسور مُهمِلٍ لمظهره وشارد الذِّهن. حضرَ أحَدَ الأعراس دون ربطة عنق وبطاقة السعر لا تزالُ على حذائه. وكان يستخدمُ أيَّة أوراق متوافرة، بما فيها ورق الجدران، ليكتبَ بسرعةٍ الأفكار التي تردِ إلى ذهنه، وهو يفعلُ ذلك أحيانًا حيث يَقِفُ غافِلًا ما يحدُثُ حولَه، في وسط حركة مرور السيَّارات. أرسل ذات مرَّة هذه البرقيَّة إلى زوجته: "أنا في سوق هاربورو. أين ينبغي أن أكون؟" فأرسلت إليه برقيَّةً جوابيَّة: "في البيت".

كان تشيسترتون ينهمِكُ بسرورٍ في مناظراتٍ عامَّة مع اللَّاأدريِّين والمشكِّكين في زمانه، وكان أشهرَهم جورج برنارد شو (George Bernard Shaw)- حدث ذلك في وقتٍ كان فيه النِّقاش حول الإيمان يمكنُ أن يجعَلَ قاعةَ محاضراتٍ تمتلئ بالمستَمعين. كان تشيسترتون يَصِلُ عادةً متأخِّرًا ويحدِّقُ من خلال نظَّارته في قصاصاتِ الورق غير المرتَّبة، ويشرعُ بالتَّرفيه عن جمهور المستَمعين وهو يقومُ بحركاتٍ عصبيَّةٍ ويتحسَّسُ جيوبَه ويضحَكُ من كلِّ قلبه بصوتٍ عالٍ بصورة مُصطَنَعة. كان عادةً يسحرُ الجمهور ويجذبُه إلى صفِّه، ثُمَّ يحتفلُ بِدَعوة غريمه المهزوم إلى أقرب حانة. كان يشربُ نخبَ صديقه شو بمودَّةٍ قائلًا: "شو هو مثلُ تمثال الإلاهة ڤينوس دي ميلو (Vensu De Milo)؛ فكلُّ ما فيه يبعَثُ على الإعجاب".

وصفَ كوزمو هاميلتون (Cosmo Hamilton)، وهو أحَدُ خصومه في المناظرات، التجرِبةَ على النَّحو التالي:

> "إنَّ سماعَ تشيسترتون وهو يصرخُ فَرَحًا... ورؤيتَه وهو يتلوَّى من شدَّة الضَّحك على إهاناتي الشخصيَّة له؛ ومشاهدة تأثير روحه الرياضيَّة في الجمهور المشدوه الذي غلبَ عليه الفرح بسبب أصوات البهجة والمرح الصادرة عنه، والتي تُشبِهُ صَوتَ أنثى الطاووس- لَهُو مَشهَدٌ تراه وتسمعُه الآلهة... وحملتُ معي من تلك الغرفة احترامًا وإعجابًا متزايدَين لتشيسترتون الذي يُشبه الفتاة الغلاميَّة (التي تتصرَّفُ كالصِّبيان)، وبيتر بان (Peter Pan) المتفلسف، ود. جونسون المضحِك، والطفل البريء المؤدَّب، والتلميذ المتعمِّق في علمه، والمعلِّم الحكيم... كان أمرًا هائلًا ومُذهِلًا وقاتلًا ولذيذًا. لم يحدُثْ نظيرُ هذا قَطُّ ولن يحدُثَ مثله، ولن يراه أحدٌ أو يسمَع به أو يشعرَ بمثله".

في أيَّام تشيسترتون كان الحداثيُّون (أو العصريُّون) ذوو العقول الواعية يسعَون لأن يجدوا نظريَّةً جديدةً مُوحِّدة لشَرْح الماضي ومَنْح الرَّجاء بالمستقبل. اقترَحَ شو الذي كان يحسبُ التاريخَ صراعًا بين الطبقات، علاجًا هو الاشتراكيّة الطُّوباويَّة أو المثاليَّة. وفسَّر إتش. جي. وَلس (H. J. Wells) الماضي باعتباره مسيرةً تطوُّريَّةً نحو التقدُّم والتَّنوير، وهو رأيٌ سيَفعلون الكثيرَ على مدى نصف قرنٍ لدَحْضه. وقدَّمَ سيغموند فرويد (Sigmund Freud) رؤيةً للبشريَّةِ الخاليةِ من القَمْع وعبوديَّة اللَّاوَعي. ومن المفارَقات، أنَّه كان لدى كلٍّ هذه النظريَّات التقدُّميَّة الثلاث عاملٌ مشتَرَكٌ وهو المظهر المتشدِّد الصارم. بجبينها المتغضِّن وعينَيها السوداوَين اللَّتين يلازمُهما الوسواس، كانت هذه النظريَّاتُ تقدِّمُ الحُجَجَ للدِّفاع عن رؤاها التفاؤليَّة للمستقبل. في هذه الأثناء، كان تشيسترتون وهو ينفثُ الدُّخان من خلال شاربه الأشقر المتنافر، وبوجهه الورديِّ المشعِّ والوميض في عينَيه- يدافعُ بسرورٍ

عن هذه المفاهيم التي وُصِفَت بأنَّها رجعيَّة كأنَّها الخطيَّة الأصليَّة والدَّينونة الأخيرة. شعرَ تشيسترتون غريزيًّا بأنَّ نبيًّا صارمًا متشدِّدًا سيكونُ من النادر عليه أن يَقتَحمَ مجتمعًا زاخرًا بأشخاصٍ من "محتَقِري الدِّين المثقَّفين"؛ لذا فضَّلَ دَورَ المهرِّج.

ادَّعى تشيسترتون أنَّه لا يثقُ "بالأشخاص الذين يتَّصفون بالقَسوة والبرود والضَّعف"، وربَّما لهذا السبب ازدادَ إعجابي بهذا المرِح البدين المدافع عنِ العقيدة. في تلك الأيَّام، ربحَتْ صَحوةُ العقل في الكنيسة. الإنجيليُّون هم مواطنون مسؤولون يقدِّرهم معظمُ الناس بصفتهم جيرانًا، لكنَّهم لا يرغبون في تمضِيَة وقتٍ طويلٍ معهم. ويحاضِرُ اللَّاهوتيُّون ذوو الوجوه الطويلة عن "مقتضيات الايمان"، والكارزون على التلفاز بِشُعورهم المسرَّحة (وغالبًا ما تكونُ مَصبوغةً) يذكُرون بكلِّ ثقةٍ ضدَّ المسيح ويتوقَّعون نهايةَ العالم، ويُعلِنون كيفيَّة نَيلِ حياةٍ مُزدَهرةٍ صحِّيَّة في هذه الأثناء. ويدعو اليمين الدينيُّ إلى التَّجديد الأخلاقيّ، ويدعو المسيحيُّون العاديُّون إلى الاعتدال والاجتهاد والإنجاز بصفتها براهين أساسيَّةً على إيمانهم. أَمِنَ الممكن أن يُهمِلَ المسيحيُّون، وهم الذين يتلهَّفون إلى إظهار مقدارِ صلاحنا، الحقيقةَ الأساسيَّة بأنَّ الإنجيل يبدو أخبارًا سارَّةً فقط بالنِّسبة إلى الأشخاص السيِّئين؟

كان عليَّ أن أسامحَ الكنيسةَ مثلَما يُسامحُ شخصٌ من عائلة تعاني خللًا وظيفيًّا أخطاءً ارتكبَها الوالدان والإخوة. برهن جي. كاي. تشيسترتون، الذي لا يستَطيعُ أن يكبتَ تفاؤلَه، أنَّه مفيدٌ في تلك العمليَّة أيضًا. قال: "المثالُ المسيحيُّ الأعلى لم يُجرَّبْ ووُجِدَ ناقصًا. لقد وُجِدَ أنَّه صعبٌ، وظلَّ دون أن يُجرَّب". إنَّ السؤالَ الحقيقيَّ ليس هو "لماذا تكونُ المسيحيَّة بهذا السُّوء بينما تدَّعي أنَّها صالحة؟"، بل هو "لماذا جميعُ الكائنات البشريَّة سيِّئةٌ بينما تدَّعي أنَّها غايةٌ في الصَّلاح؟" أقرَّ تشيسترتون بسرعة بأنَّ الكنيسةَ قد خَذَلَتِ الإنجيلَ على نحوٍ سيِّئ. وقد قال إنَّ إحدى أقوى الحجج لصلحة المسيحيَّة هي في الواقع فَشَلُ المسيحيِّين الذين يثبِّتون بذلك ما يعلِّمُه الكتابُ المقدَّس عنِ السقوط في الخطيَّة وعن الخطيَّة الأصليَّة. بينما يُخطئ العالمُ السبيلَ المستقيم، فإنَّه يبرهنُ على أنَّ الكنيسةَ محقَّةٌ في تلك العقيدة الأساسيَّة.

عندما طلبَتْ صحيفةُ "لندن تايمز" من عَددٍ من الكُتَّاب أن يُرسلوا مَقالاتٍ عن موضوع "ما الخطأ في العالم؟"، أرسَلَ تشيسترتون أقصرَ جوابٍ والأكثر صِلةً بالموضوع:

أيُّها السادة:

إنَّه أنا.

المخلِص

جي. كاي. تشيسترتون

لهذا السبب، عندما يروي لي الناسُ قصصَ الرُّعب التي مرُّوا بها في أثناء نشأتهم في أجواءِ كنيسةٍ قَمعيَّة، لا أشعر بحاجةٍ إلى الدِّفاع عن أفعال الكنيسة. إنَّ كنيسةَ طفولتي، فضلًا عن كنيسة حاضري ومستقبلي، تضمُّ كائناتٍ بشريَّةً بنَقائصَ عميقةٍ تكافحُ نحو تحقيق مثالٍ أعلى لا يمكنُ الوصول إليه. إنَّنا نعترفُ بأنَّنا لن نحقِّقَ مثالَنا الأعلى في هذه الحياة، وهذا أمرٌ مميَّزٌ تتبنَّاه الكنيسة بينما تحاوِلُ المؤسَّساتُ البشريَّةُ الأُخرى إنكارَه. تضامُنًا مع تشيسترتون، وجدْتُ نفسي مُضطرًا إلى الانضمام إلى الذين يعتَرفون بأنَّنا نحن الخطأ الذي في العالم. إنَّ شعورَ التكبُّر تُجاهَ كنيسة طفولتي مثلًا، ما هو إلَّا شكلٌ معكوسٌ من أشكال الإدانة القاسية التي أظهَرَتْها نحوي. عندما يبدو الإيمانُ كأنَّه حقٌّ أطالِبُ به أو عصا للقِياس، فإنَّنا نَلقى مَصيرَنا مع الفرِّيسيين، وتَهرُبُ النِّعمة بهدوءٍ بعيدًا عنَّا.

في النهاية، عُدْتُ إلى بيتي مثل ضالٍّ مُتَواضع، إلى المؤسَّسة ذاتها التي هربتُ منها بشعورٍ بالألم والتمرُّد.

ونهاية جميع استِكشافاتنا
هي في الوصول إلى حيثُ بدأنا
ومعرفة المكان للمرَّة الأولى.

ــ تي. أس. إليوت (T. S. Elliot)

أعتقدُ أنَّ بإمكاننا اليوم استخدام تشيسترتون آخر. في وقتٍ جنحَتْ فيه الثقافة بعيدًا عن الإيمان، نستَطيعُ أن نستخدمَ تألُّقه وأسلوبَه الممتع، وفوق كلِّ شيء، روحَه السخيَّة والمرِحة. عندما يصيرُ المجتمعُ مُستَقطَبًا، كما هي حالُ مجتمعنا الآن، يبدو الأمرُ كما لو كان الطَّرفان يَقِفان على جانبَي فجوةٍ ضخمة ويناديان بعضهما على بعضٍ. بين حينٍ وآخر، يظهرُ نبيٌّ مثل مارتن لوثر كِنغ الابن مع قوّةٍ وبلاغةٍ كافيتَين للتَّصدِّي لكِلا الطرفَين في آنٍ واحد. اعتمَدَ تشيسترتون نهجًا آخر: كان يسيرُ إلى وسط جسرٍ مترجِّح، ويتحدَّى بصوتٍ مدوٍّ أيَّ محاربٍ في المعركة، ثُمَّ يجعَلُ الطرفَين يضحكان بصوتٍ مرتفع.

على الرُّغم من غرابة شخصيَّته، فقدِ استَطاعَ أن يعرضَ الإيمانَ المسيحيَّ بالقَدر نفسه من الطَّرافة وروح الدُّعابة والقوَّة الفكريَّة المحضة التي لدى أيِّ شخصٍ آخر في الأزمنة الحديثة. وبحماسِ الفارس الذي يدافعُ عنِ الحصن الأخير، كان يتحدَّى ويُجابِه، شخصيًّا وفي كتاباته، أيَّ شخصٍ تجرَّأ على تفسير العالم دون الله أو دون التجسُّد.

قال تشيسترتون نفسُه إنَّ العصرَ الحديثَ يتميَّزُ بالحزن، الأمر الذي يستَدعي وجودَ نَوع جديدٍ من الأنبياء، ليس مثل أنبياء العصور القديمة الذي كانوا يذكِّرون الناس بأنَّهم سيَموتون، بل أنبياء يذكِّرونهم بأنَّهم لم يموتوا بَعدُ. إنَّ نبيًّا كبيرَ الحجم وكثيرَ المرح قام بهذا الدَّور بشكلٍ رائع. أصدر تي. أس. إليوت حُكمَه قائلًا: "أعتَقدُ أنّه فعلَ أكثرَ من أيِّ رجلٍ في عصره... للمحافظة على وجود الأقلِّيَّة المهمَّة في العالم الحديث". أنا أعلَمُ أنَّه فعلَ ذلك لأجلي. كلَّما شعرتُ بأنَّ إيماني قد صارَ جافًّا مرَّةً أُخرى، أسيرُ باتِّجاه رفِّ الكُتُب وألتقطُ كتابًا لتشيسترتون، فتبدأ المغامرةُ من جديدٍ.

فلنبدأ مع جي. كاي. تشيسترتون

أقترحُ أن تبدأ بكتاب "**العقيدة المستقيمة**". إذا استمتعت بذلك الكتاب، يمكنك أن تتابعَ وتقرأ "**الرجل الأبديّ**"، وهو الملخَّص الذي كتبَه تشيسترتون عن حياة

يسوع، والسِّير الحياتيَّة لكلٍّ من: "**القدِّيس فرنسيس الأسيزيّ**" و"**توما الأكوينيّ: الثور الأخرس**".

بالنسبة إلى القارئ المتعطِّش، يمكن البحث عن أعمال تشيسترتون الكاملة (Collected Works) من دار نشر إغناطيوس پرس (Ignatius Press)، وجاءَت في خمسةٍ وأربعين مجلَّدًا، معظمُها متوافرٌ الآن. وسيُقدِّر هواةُ قراءة القصص الخياليَّة كتابَه "**الرجل الذي كان رمزه يوم الخميس**"، وقصص "**الأب براون**". وهناك أيضًا كتاب "**السِّيرة الذاتيَّة**" *(Autobiography)*، وهو الأكثر إمتاعًا بين جميع السِّير الذاتيَّة التي كتبَها. وللحصول على مقالات ومراجع متعدِّدة كتبَها تشيسترتون أو آخرون عنه، راجع الدوريَّة الربعيَّة التثقيفيَّة "ذا تشيسترتون ريڤيو" *(The Chesterton Review)* التي تصدرُها جامعة سيتون هول (Seton Hall University).

الفصل الرابع

الدكتور پول براند

(Dr. Paul Brand)

انعطافاتٌ نحوَ السعادة

أمضيتُ السنواتِ الأربعَ الأخيرة من ستِّينيَّات القرن الماضي وأنا على مقاعد الدراسة الجامعيَّة. وقتَها، بدا كلُّ شيءٍ في أميركا وكأنَّه يتَهاوى: كانت حربُ ڤيتنام تقطعُ أوصال مُثُلِنا الوطنيَّة العُلْيا، وإعلاناتُ الإساءة إلى البيئة تتحدَّى أخلاقيَّات التَّصنيع التي بَنَتْ دَولتَنا، وفضحَتْ ثقافةُ الشَّباب المعادِيةُ للثَّقافة القديمة مادِّيَّةَ مجالِي الأعمال والإعلام الجوفاء. صارَتِ القضايا منذ ذلك الحين مألوفة، بل مُبتَذَلةً أيضًا، لكنْ بالنِّسبة إلينا نحن الذين كنَّا نشكِّلُ نظرةً إلى العالم في ذلك الوقت، فإنَّ الستِّينيَّات تركَتْ بَصماتِها العميقةَ والدائمةَ فينا.

أذكرُ أنَّ مشاعري في السنوات اللَّاحقة كانت بشكلٍ رئيسيٍّ مشاعرَ غَضبٍ ووَحدةٍ ويأس. رأيتُ أصدقاء لامِعين وموهوبين يتَخلَّون عنِ المجتمع ويبحثون عن طريقٍ جديدٍ من خلال مخدِّر (LSD)، وعقارٍ آخرَ يسبِّبُ الهلوَسة. وآخرون لم يعودوا قَطُّ من أدغال ڤيتنام. تفحَّصتُ ببطء رواياتِ الوجوديِّين الكئيبة، بالإضافة إلى قِصَص المحرَقة غير الخياليَّة ومُعسكَرات العمل القسريِّ السوڤييتيَّة. وبالنظر إلى الكنيسة من خلال عينَين مستَهجِنتَين، رأيتُ بشكلٍ رئيسيٍّ نفاقَها وعدمَ اتِّصالها بما يحدُثُ في العالم الخارجيّ. مع أنَّ أشخاصًا مثل جي. كاي. تشيسترتون قد

أرجَعوني إلى الله، فإنّي كنتُ لا أزال أواجهُ صعوبةً في التَّمييز بين الله والكنيسة، وفي تَنمِيَة إيمانٍ شخصيٍّ ثابت. كانَتِ الأسئلةُ تتحرَّكُ أمامي في دوَّامة. وحتَّى عندما كنتُ أحرِّرُ مجلَّةً مسيحيَّة، وضعتُ كُتُبًا تحملُ عناوين مثل، "**أين الله عندما أتألَّم**" *(Where is God When It Hurts)*، "**الأسرارُ غير المفرِحة للحياة المسيحيَّة**" *(Unhappy Secrets of the Christian Life)*، و"**عندما لا تُمطرُ السماء**"[٣] *(Disappointment with God)*– كانت جميعُها أشبه بتَوجُّهاتٍ خارجيَّةٍ لمجالات صراعي مع الإيمان.

أستَطيع أن أتبيَّن الآن أنَّ شراكتي في الكتابة مع الدكتور پول براند قد أعانَتني على اجتياز تلك الفترة المتقلِّبة. أمضَيتُ مئاتِ الساعات وأنا أحادثه حول قضايا كونيَّة وحول الحياة والله. في أثناء رحلاتي إلى الهند وإنكلترا، اقتَفيتُ آثار حياته وأجرَيتُ مُقابَلاتٍ مع مرضى وزملاء سابقين (اكتشفتُ أنَّ لدى الممرِّضات المسؤولات عن تنظيف غرفةِ العمليَّات نظرةً ثاقبةً إلى شخصيَّة الجرَّاح). كنتُ فخورًا بامتلاكي أوَّلَ حاسوبٍ محمول- حاسوبٍ مخيفٍ يزن أربعة عشر رطلًا (ما يزيد على ٦كغم)، فكنتُ أُجري مقابَلاتٍ مع براند نفسه في أثناء تنقُّلنا عبر إبقاء أصابعي على لوحة المفاتيح لكي أستطيعَ الاستمرار في الطباعة بينما كانت سيَّارة الجيب تقفزُ وترتَدُّ على طول طرق الهند الريفيَّة الملأَنة بالحُفَر، أو في أثناء جلوسنا في إحدى مَقطورات مترو الأنفاق في لندن التي كانت تهتَزُّ برِفْق.

سمعتُ عنِ الدكتور براند أوَّلَ مرَّةٍ في أثناء تأليفي كتاب "**أين الله عندما أتألَّم**"، بينما كنتُ أعتزلُ في المكتبات أقرأ كُتُبًا عن مشكلة الألم، وجَدَتْ زوجتي مَقالةً مثيرةً للاهتمام كان قد كتبَها عن "عطيَّة الألم"، وذلك في أثناء تنظيفها خزانةَ الأدوية والمستَلزَمات الطبِّيَّة في البيت. كان لأسلوب تَناوُل براند للموضوع الذي ينطوي عليه العنوان نفسه، الصفة التَّناقُضيَّة التي جذبَتْني إلى تشيسترتون. كان مفهومُه عنِ المتعة والألَم مختَلفًا عن مفهوم أيِّ شخصٍ آخر سبقَ أنْ قابَلتُه. أجريتُ مُقابَلاتٍ مع أعداد

٣) فيليپ يانسي، عندما لا تمطر السماء، أوفير للطباعة والنشر (عمّان: ٢٠٠٩م).

كبيرةٍ من الناس الذين كانوا يُريدون بشدَّةٍ التخلُّص من الألم؛ لكنَّ براند أخبرَني عن إنفاقه ملايين الدُّولارات في محاوَلةِ خَلْقِ نظامِ ألَمٍ لِمَرْضاه.

عندما أجريتُ المزيدَ من الاستِفسارات وتحدَّثت إلى أشخاصٍ كانوا يعرِفون براند شخصيًّا، صرتُ مَفتونًا به حتَّى إنِّي اتَّصلتُ به فجأةً من شيكاغو وطلبتُ إجراءَ مُقابَلةٍ معه. أجابَ وهو مَرتَبكٌ بعض الشيء: "حسنًا، إنَّهم يُبقونني منشغلًا جدًّا هنا. لكنِّي أستطيعُ أن أجدَ بعض الوقت ما بين الاجتماعات والمستَوصَفات. يمكنُك المجيء إذا كنتَ ترغبُ في ذلك".

اجتَمَعْنا في موقع المستَشفى الوحيد لمعالجة مرض الجذام (البَرَص) في القارَّة الأميركيَّة. بعدَ ركوب الطائرة إلى نيو أورليانز واستئجار سيَّارة، قُدْتُ مدَّة ساعتَين على ضفاف نهر مسيسيپي مرورًا بمزارعَ قديمةٍ قد تَدَهوَرَت حالُها، ومَقاهيَ سرطان البحر، ومصانع البتروكيماويَّات الجديدة المتوهِّجة. كانت عيناي تحتَرقان من ملوِّثاتِ المصانع عندما وجدتُ الطريقَ المؤدِّي إلى بلدة كارڤيل (Carville) بجانب مياهٍ راكدة، ثُمَّ طريقًا آخرَ أصغرَ منه ينتهي عند مستَشفى هانسين الوطنيّ للأمراض ومركز البحوث.

وضعَتْ سُلطاتُ لويزيانا المستَشفى في موقع بعيدٍ من المراكز السكنيَّة (بسبب الخرافات حول المرض، كان شعورُ الناس بِرَفض إنشاءِ مثل هذه المراكز بالقُرب من مكان سُكناهم يُثيرُ نقاشًا حادًّا عند اقتراح إنشائها). كانت كارڤيل المبنيَّة على الطراز الاستعماريّ تنبسطُ مُتَرامِيَةَ الأطراف تحت أشجار البلُّوط الضخمة، تُشبهُ مزرعةً فيليبينيَّةً كالتي نراها في الأفلام السينمائيَّة. كنتُ أرى المرضى على عكَّازات وفي كراسيَّ متحرِّكة يتنقَّلون ببطءٍ على طول الممرَّات المقوَّسة ذات الطابَقَين التي كانت تَصِلُ بين المباني الرئيسة. وكان يُحيطُ بالمستَشفى من ثلاثة جوانب ملعبٌ للغولف والبايسبول، وحديقةُ خُضَرٍ، ومنطقةٌ مُحاطةٌ بِسورٍ لسَكَن الموظَّفين. وإلى الغرب يَقَعُ نهرُ المسيسيپي الجبَّار الذي يحجبُه عنِ الأنظار سدٌّ يبلغُ ارتفاعه عشرين قدمًا (نحو ٦ م). فتحتُ بابَ السيَّارة ودخلتُ في ضبابٍ من رطوبة الدِّلتا.

كنتُ أعرفُ مَكانةَ براند في المجتمع الطبّيّ العالميّ مسبَّقًا قبل زيارتي: عروضٌ لرئاسة مراكز طبّيّة رئيسة في إنكلترا والولايات المتّحدة، ومحاضَراتٌ متَميِّزةٌ في كلِّ أنحاء العالم، وإجراءاتُ الجراحة اليدويّة التي دُعيت بِاسْمه تكريمًا له، ونيلُه جائزةَ ألبرت لاسكر (Albert Lasker) المشهورة، وتَقلُّدُه وسامَ الإمبراطوريّة البريطانيّة من قِبَل الملكة إليزابيث الثانية، واختيارُه بصفته المواطن الغربيّ الوحيد للخدمة في مؤسَّسة المهاتما غاندي. ومع ذلك، انتظرتُ مَوعدَ المقابَلة في حجرةٍ صغيرةٍ مُنعزلة في مكتبٍ بالكاد يوحي بشُهرةٍ كهذه. كانَتِ المجلّات الدوريّة الطبّيّة والشرائح التصويريّة والرسائل التي لم يُردَّ عليها تُغطّي كلَّ إنشٍ مربَّع من مكتبٍ مَعدِنيٍّ قبيح أخضرَ اللّون من مكاتب المؤسَّسات الحكوميّة. وكان مكيِّفُ هواءٍ قديمٌ جدًّا في النافذة يهتزُّ بشدّة تُعادِلُ الضجّة الصادرةَ عن درّاجةٍ ناريّةٍ خاليةٍ من كاتم الصوت.

أخيرًا دخل الغرفةَ رجلٌ ضَعيفٌ طولُه أقلُّ من المتوسّط وقوامُه متين. كان شعرُه رماديًّا وحاجباه كثيفَين، ويتَغضَّنُ وجهُه بشدّةٍ عندما كان يبتسم. بلهجةٍ بريطانيّة- هي النَّقيض تمامًا لِلَهجة سكّان الأراضي المنخفضة التي تُسمَع في أروقة المستَشفى- اعتَذَرَ عن وجود بُقَعٍ من الدَّم على المريول الأبيض الذي كان يرتَديه، وشرحَ قائلًا إنّه قدِ انتَهى لتوِّه من تشريح حيواناتِ المدرَّع (Armadillos)، وهي الأنواعُ الوحيدةُ غير البشريّة المعروفة باستقبالها عصيّات داء الجُذام.

دامت تلك الزِّيارةُ مدَّة أسبوع. رافقتُ براند في جَولات المستَشفى حيث كنّا نلتَصقُ بجدران الأروقة لتَجنُّب الكراسيّ المتحرِّكة الكهربائيّة والدرّاجات الهوائيّة المعدَّلة بإضافةِ مركبة ذاتِ عجلةٍ واحدة. جلستُ في غرفة فَحْصِ المرضى بينما كان يفحَصُ أقدامَ المرضى وأيديهم الملتَهبة والمتقرِّحة، ويستَجوِبُهم كأنّه محقّقٌ بوليسيٌّ في محاوَلة تحديد سبب الإصابات. كنّا نجري بعضَ الأحاديث القصيرة في مكتبه يقاطِعُها في بعض الأحيان اتّصالٌ هاتفيٌّ من بلدان أُخرى: جرّاحٌ من ڤنزويلا أوِ الهند أو تركيا وهو يَصيحُ عبر اللّاسلكيّ يطلبُ مشورةً حول عمليّةٍ صعبة.

وفي الليل، وفي بيتهما الصغير المقام على أرض المستشفى، كنتُ أشاركُ براند وزوجتَه مرغريت (Margaret)– وهي طبيبةُ عيونٍ تحظى بالاحترام– في تَناوُلِ وجبةٍ من الأرزِّ والكاري. ثُمَّ كان براند يسندُ نفسَه بقَدمَيه العاريتَين (وهي علامةٌ دائمةٌ تميِّزُه)، وأُديرُ أنا الجهازَ لتَسجيل المناقشات التي كانت تتراوحُ ما بين مرض الجذام واللّاهوت، لتصلَ إلى المجاعة والحفاظ على التربة. كلُّ مَوضوعٍ طرحتُه، كان هو قد فكَّرَ فيه بِعُمق، ومنحه سفره منظورًا عالميًّا حقيقيًّا: أمضى ثلثَ حياتِه في إنكلترا وثلثَها في الهند، والآن الثلث تقريبًا في الولايات المتَّحدة. خلال فترات الاستراحة، كان يعلِّمُني أمورًا مثل كيفيَّة اختيار التِّين الناضج (مراقبة التِّين الذي تحطُّ عليه الفراشاتُ عدَّة مرَّات لامتحانه)، وكيفيَّة ضَرْبِ الجِلْد بفرشاة شعر قاسية لإثارة الخلايا العصبيَّة وإزالة الألم، وكيفيَّة صُنْع مخفوق الحليب والمانجو.

كنتُ والدكتور براند رفيقَين غير متوافقَين. كنتُ شابًّا أَهوَجَ في منتصف العشرينيَّات بشعرٍ كثيف على نمط شَعْر آرت غارفَنكل (Art Garfunkel)، وكان هو جرَّاحًا مبجَّلًا بشعرٍ فضيٍّ يتميَّز بالتحفُّظ البريطانيِّ الأصيل. كنتُ قد أجرَيتُ مُقابَلاتٍ مع أشخاصٍ كثيرين بحُكْم عملي الصحفيّ: ممثِّلين وموسيقيِّين وسياسيِّين، ومديري أعمال تنفيذيِّين ناجحين، ورياضيِّين محتَرفين وأولمپيِّين، كما أجريتُ مقابَلاتٍ مع حاملي جائزة نوبل وجائزة پوليتزر. لكنَّ شيئًا ما جَذَبَني إلى براند على مستوًى أعمقَ من شعوري مع أيِّ شخصٍ آخر سبَقَ أنْ قابلتُه. ربَّما أكونُ قد قابلْتُ للمرَّة الأولى التواضُعَ الحقيقيّ.

كان براند لا يزالُ يتأقلَمُ مع الحياة في الولايات المتَّحدة. كان قلقًا بشأن تأثير التلفاز وثقافة الموسيقى الشعبيَّة في أولاده. وجعلَتْه الكماليَّاتُ عصبيًّا على الدَّوام، وكان يتوقُ إلى الحياة البسيطة المتواضعة في قرى الهند. عندما أقنعتُه بالذَّهاب إلى مطعمٍ في المساء، بالكاد استَطاعَ تحمُّلَ رؤية بقايا الطعام التي لم تؤكَل وهي تُمسَحُ من على صحون الزبائن. كان يعرفُ رؤساء وملوكًا وأشخاصًا مشهورين كثيرين، لكنَّه نادرًا ما كان يذكُرُهم، مفضِّلًا بدلًا من ذلك أن يحكيَ ذكرياته مع مرضى الجذام. كان يتحدَّثُ علنًا وبصراحةٍ بشأن إخفاقاته ويحاوِلُ دائمًا أن ينسبَ الفَضل

في نجاحاته إلى زملائه في العمل. كان ينهضُ في صباح كلّ يوم باكرًا ليَدرُسَ الكتابَ المقدَّس ويصلّي. كان التواضُعَ والعرفان يَنْسابان منه بشكلٍ طبيعيّ، وفي الأوقات التي أمضَيناها معًا، شعرتُ بنَقْصٍ باعثٍ على اليأس في هاتَين الصفتَين في نفسي.

كان معظمُ الخُطَباء والمؤلِّفين يكتُبون عن جميع المواضيع ويُعيدون خَطَّ الأفكارَ من جديدٍ في كُتُبٍ مختلفة، ويُلقون المحاضراتِ ذاتها لمستَمعين مختَلفين. في حين كان براند، الذي يملكُ عمقًا عقليًّا وروحيًّا أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخر قابلتُه، يُلقي العديدَ من محاضراته على مجموعة من مرضى الجذام في كنيسة المستشفى البروتستانتيَّة. بناءً على إلحاح براند، حضرتُ خدمةَ الصلاة المسائيَّة يوم الأربعاء خلال الأسبوع الذي أمضيتُه في كارڤيل. إنْ لم تَخُنّي ذاكرتي، كُنَّا خمسةَ أشخاصٍ في جَوقة الترنيم وثمانيةً من المستَمعين. كانت مارغريت براند قد سحَبَتني إلى جَوقة الترنيم متوسِّلة: "لم يكن معنا صوتُ رجل منذ مدَّةٍ طويلة. سيُلقي پول العِظة، لذا لن يكونَ مَوجودًا معنا. يجب أن ترنِّمَ أنت معنا". ثُمَّ وضعَتْ جانبًا اعتراضاتي المعتدلة. "لا تكُنْ سخيفًا! إنَّ نصفَ الذين يحضرون هم صمٌّ بسبب ردِّ فعلهم على عقار نستخدمُه لمعالجة الجذام. لكنَّ ضَيفًا في جَوقة الترنيم سيكونُ مُفاجأةً ممتعة- سيَستَمتِعون بمجرَّد مشاهدتك". لهذه الجماعة المؤلَّفة من عناصر مختلفة، تَقدَّمَ براند ليُلقي محاضرةً جديرةً بأن تُلقى في كنيسة وستمنستر. من الواضح أنَّه أمضى ساعاتٍ في التأمُّل والصلاة لأجل تلك العِظة. لم يكن مهمًّا بالنِّسبة إليه حقيقة أنَّنا كنَّا مجموعةً صغيرةً من أشخاصٍ صمٍّ جزئيًّا لا قيمة لهم في كنيسةٍ نائمةٍ على ضفَّة نهرٍ صغير. تكلَّم ممارِسًا عَمَلَ عبادة، بصفته شخصًا كان يؤمن حقًّا بأنَّ الله مَوجودٌ عندما يجتمعُ اثنان أو ثلاثةٌ باِسْمه.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك الأسبوع، اعترفَ لي براند بشيءٍ من الخجل أنَّه حاوَلَ مرَّةً أن يكتُبَ كتابًا. قبل بضع سنوات، بعد أن ألقى سلسلةً من المحاضرات في كلِّيَّة الطِّبِّ في ڤيلور (Vellore) بالهند، شجَّعَه أعضاءُ هيئة التَّدريس الآخرون على كتابة تلك المحاضَرات بِهدف النشر. بذلَ مجهودًا لكتابتها لكنَّ المادَّةَ لم تملأْ سوى تسعين صفحة، فلم تكُنْ كافيةً لتُنشَر في كتاب. مَضَتْ عشرون سنةً ولم يلمسِ النصَّ المبدئيَّ

منذ ذلك الحين. شجَّعتُه على البحث في الخزانات وأدراج المكتب، حتَّى وجدَ نسخةً ثالثةً من محاضرات الكنيسة مُلطَّخة بشدَّة. وفي تلك الليلة بَقيتُ مستَيقظًا إلى ما بعد منتصف الليل أقرأ تأمُّلاتِه الرائعةَ في الجسد البشريّ. كنتُ أُقيمُ في المستشفى في غرفة الضيوف التي تعودُ إلى ما قبل الحرب، وكانت مروحةٌ في السقف تُبعثرُ باستمرارٍ صفحات الورق الشفَّاف حول الغرفة. لكنِّي كنتُ أجمعُها وأُعيد ترتيبها مرَّةً تلو الأخرى لأنِّي أدركتُ أنِّي عثرتُ على كنز. في اليوم التالي سألتُ براند إذا كُنَّا نستَطيعُ أن نتَعاونَ معًا، فصارَتِ الصفحاتُ التسعون تلك كتابَين كاملَين.

بعد فترةٍ من الزمن عملنا معًا على مجلَّدٍ ثالث بعنوان "**عطيَّة الألم**" *(The Gift of Pain)*. أمضيتُ ما مجموعُه عشرَ سنوات وأنا أتتبَّعُ تفاصيلَ حياة الدكتور براند. شعرتُ مثل جيمس بوزوِل (James Boswell) الذي تابعَ حياةَ الرجل العظيم صموئيل جونسون (Samuel Johnson) وسَجَّلَ بإخلاصٍ كلَّ حكمةٍ خرجَتْ من فمه صغيرةً كانت أم كبيرة. شكرَتْني ابنةُ براند، پولين (Pauline) ذات مرَّة لإدخالي بعضَ النظام في "الفوضى السعيدة لحياة والدي وأفكاره". غير أنَّها لم تعرفْ إلَّا القليلَ عنِ الدَّور الذي لعبَه والدُها في إدخال بعض النظام في الفوضى غير السعيدة في حياتي. يعرفُ الأصدقاءُ الحقيقيُّون أهمِّيَّتَهم بمرور الوقت من خلال تأثيرهم فيك. عندما أُقارنُ ما بين الشخص الذي كُنتُه في لقائنا الأوَّل عام ١٩٧٥م، وما أنا عليه الآن، أُدركُ أنَّ تغييراتٍ جوهريَّةً قد حدثَتْ في داخلي، وقد كان براند مسؤولًا عن كثيرٍ من تلك الهزَّات.

پول براند رجلٌ صالحٌ وعظيم في آنٍ معًا، وأنا شاكرٌ على الدَّوام للوقت الذي أمضَيناه معًا. في مرحلةٍ ما، عندما لم يكُنْ لديَّ سوى القليلِ من الثِّقة لأكتُبَ عن إيماني الناشئ، كانت لديَّ ثقةٌ عمياءُ لأكتُبَ عن إيمانه هو. لقد نما إيماني بينما كنتُ أراقبُ بِعَين الصحفيِّ الناقدة شخصًا يزدادُ قوَّةً في كلِّ شيء من خلال علاقته بالله. لقد صرتُ أعرفُه بوصفه نموذجًا حيًّا حقيقيًّا أستَطيعُ أن أراقبَه بينما يعمل: في كارڤيل مع مرضاه؛ في قرى الهند؛ بصفته زوجًا وأبًا؛ بصفته متكلِّمًا في مؤتمراتٍ طبِّيَّةٍ وروحيَّةٍ على حدٍّ سواء.

بعد أن تَقاعَدَ الدكتور براند من ممارسة الطِّبّ، انتَقلَ إلى منزلٍ صغيرٍ يُطلُّ على مياه مَضيق پوجت ساوند (Puget Sound) في سياتل (Seattle)، وهو المنزلُ الوحيدُ الذي امتَلكَه طوال حياته. خدمَ عدَّةَ دَوراتٍ بصفته رئيسًا للجمعيَّة الدوليَّة المسيحيَّة للطِّبِّ وطبِّ الأسنان، وعمل مستَشارًا مع منظَّمة الصحَّة العالميَّة، وفي الثمانينيَّات من عمره استمرَّ في إلقاء المحاضَرات في جميع أنحاء العالم. وبمرور السنين، انعكسَتْ أدوارُنا بشكلٍ حَتْميّ. بدأ يتَّصلُ بي للحصول على المشورة حول مسائل مثل برنامج الحاسوب الأنسب استخدامًا في التعامل مع النصوص، وكيفيَّة تنظيم الملاحظات، والتَّعامُل مع النَّاشرين. أُصيبَ بسكتةٍ دماغيَّة خلال رحلة إلى تركيا، وبنوبةٍ قلبيَّةٍ بسيطةٍ في لندن (وهي ردُّ فعلٍ تعاطفيٌّ مع نَوبة زوجته القلبيَّة التي كانت أخطرَ). ولفترةٍ من الوقت، كان من الملاحَظ أنَّه يلفظُ الكلامَ بشكلٍ غير واضح، كما ضعفَتْ قدرتُه على تذكُّر الأسماء والأحداث. انتقلَتْ أحاديثُنا إلى مسائل تقدُّم العمر وكَونِ الإنسان فانيًا.

بينما يتقدَّمُ العمر بي في مراحل الحياة، وقد اقتربتُ من عمر براند في وقت اجتماعنا الأوَّل، توجَدُ أمامي صورتُه النحيلة لكنِ القويَّة وهي تَدلُّني على الطريق. وحيث إنِّي كنتُ محرومًا من أبي الجسديِّ في أثناء طفولتي، حصلتُ وأنا بالغٌ من براند على الكثير ممَّا فقدتُه. مثلُه مثلُ أيِّ شخصٍ آخر، ساعدَني على تحديد مساري في ما يتعلَّق بنظرتي إلى الأمور وإلى الروح والمثُلُ العُليا. أنا أنظرُ إلى العالم الطبيعيِّ وقضايا البيئة إلى حدٍّ كبير من خلال عَينَيه. ومنه اكتسبْتُ أيضًا تأكيدًا بأنَّ الحياةَ المسيحيَّة التي كنتُ قد سمعتُ عنها نظريًّا، يمكنُ أن تُطبَّقَ في الواقع عمليًّا. من الممكن بالفعل أن نعيشَ في مجتمعٍ عصريٍّ ونحقِّقَ النَّجاح دون التخلِّي عنِ التواضع والتَّضحية في خدمة الآخرين، وفي الوقت نفسه نختبرُ الفرحَ والقناعة. حتَّى يومنا هذا، وكلَّما شَكَكْتُ في هذا الأمر، أنظرُ إلى الوراء، إلى الوقت الذي أمضَيتُه مع پول براند.

هلِ الكَونُ مكانٌ وَدود؟ سأل أينشتاين. وبصفته عالمًا، بحثَ عنِ الجواب في امتدادات الكَون الشاسعة. إنَّ أيَّ شخصٍ تَعافى من جروح عائلةٍ أو تغلَّبَ على مأساةِ كنيسة

تعاني اختلالًا وظيفيًّا يعرفُ الجانبَ الشخصيَّ من ذلك السؤال. العمُّ، أو ربَّما رجل الدِّين، يُسيء جنسيًّا إلى ولدٍ صغير؛ أمٌّ تنفجرُ غضبًا تحت تأثير إدمان الكحول؛ أخٌ في السادسة من العمر يُصابُ بسرطان الدَّم. بالنِّسبة إلى الشخص الذي ينمو في بيئة كهذه، فإنَّ الأسئلةَ لن تختَفي. هلِ العالمُ مكانٌ وَدود؟ هل يمكنُ أن نَثِقَ بالنَّاس؟ هل يمكنُ أن نثقَ بالله؟

لا أحتاجُ إلى تفكيرٍ طويل في طفولتي لأتبيَّن أنَّ هذه الأسئلة الأساسيَّة تنخرُ في نفسي. في مرحلة المراهَقة، عندما كنتُ أقرأ كُتُبًا مثل كتاب "**الغثَيان**" *(Nausea)* للفيلسوف الوجوديِّ سارتر، و"**الطاعون**" *(The Plague)* للفرنسيِّ كامو، و"**الليل**" *(Night)* للمؤلِّف ويزل (Wiesel)، لم يكن لديَّ سببٌ وجيهٌ يدعوني إلى التفاؤل. ثُمَّ وجدتُ نفسي وأنا أتعاوَنُ مع رجلٍ كان قد أمضى معظم حياته بين المخلوقات البشريَّة التي تعرَّضَتْ إلى المعاملة الأكثر سوءًا على الكوكب. بشكلٍ غير متوقَّع، بدلًا من التشديد على هذه الأسئلة، وجَّه الدكتور براند انتباهي إلى جوابٍ تقريبيّ.

حقَّق براند شهرةً في عالم الطبِّ بشكلٍ رئيسيٍّ من خلال بحوثه الرَّائدة في مجال أقدم الأمراض في العالم وأكثرها رُعْبًا. قبل انتقاله إلى مستَشفى كارڤيل، كان قد تولَّى إدارة كليَّة الطبِّ ومستشفى في ڤيلور بالهند، وأسَّسَ مركَزًا لمرض الجذام يُعرَف بِاسْم "كاريغيري" (Karigiri). يُصيبُ الجذامُ الفقراءَ فيُلحِقُ الضَّررَ بطرقٍ مُتَفاوتة. وإذا تُرِك دون علاج، يمكنُ أن يتطوَّرَ فيُصابُ ضحاياه بالتَّشويه والعَمى وفقدان الأطراف، ممَّا يُخيفُ النَّاسَ الذين يستَجيبون بِدَورهم بالإساءة إلى المصابين. وفي مكانٍ مثل الهند، يُنبَذُ الأشخاصُ المصابون بالجذام من المجتمع، وغالبًا ما يكون نَبْذُهم مُضاعَفًا في حال انتمائهم إلى طائفة المنبوذين (Untouchable Caste).

في أزمنة الكتاب المقدَّس، كان ضحايا الجُذام يُقيمون في أماكنَ واسعةٍ على مسافةٍ كافيةٍ من الناس ويَصرُخون "نجس!" إذا ما اقتربَ منهم أحَد. وفي القرون الوسطى، كانوا يعيشون خارجَ جدران المدينة ويَضَعون أجراسًا للتَّحذير. وحتَّى اليوم

في الهند الحديثة، حيث يوجَدُ أربعةُ ملايين شخص من ضحايا الجذام، يمكن أن يُركَلَ الشخصُ الذي تبدو عليه علامات المرض- يُركَلُ حرفيًّا- ويُطرَدَ من العائلة والقرية ليَعيشَ حياة المتَسوِّلين. عند إجراء مُقابَلاتٍ مع مَرضى براند السابقين، سمعْتُ قصصًا عنِ القسوة البشريَّة تكادُ أن تُجاوِزَ الخيال. إذا كان لأيِّ شخصٍ الحقُّ في الشعور بالمرارة واليأس، فهو الشخصُ الذي يعمَلُ مع هؤلاء التُّعَساء. بدلًا من ذلك، فإنَّ الصِّفة الفريدة التي أكثرَ ما أثارَتْ إعجابي ببول براند، هي إحساسُه القويُّ بالشُّكر والعرفان. بالنِّسبة إليه، الكونُ هو بكلِّ تأكيدٍ مكانٌ وَدود.

أذكُرُ جيِّدًا حديثَنا الأوَّل، حيثُ إنِّي نسيتُ لسببٍ ما أن أضغَطَ زرَّ "التسجيل" في الآلة التي كنتُ أستَخدمُها. في ذلك المساء، وبعد أنِ اكتَشفتُ هذا الخطأ، ركبتُ عبَّارةً عبر نهر مسيسيبي وجلستُ في مقهى سرطان البحر وحاولتُ جاهدًا أن أتذكَّرَ حديثَنا. كانت لديَّ قائمةٌ بجميع أسئلتي، وكانت أجوبته قد أثَّرتْ فيَّ حتَّى إنِّي اكتشفْتُ ضرورةَ إعادة تركيبها حرفيًّا. بينما كنتُ أضَعُ إحدى يديَّ في سلَّةٍ من الكائنات القشريَّة الحمراء اللَّامعة، كنتُ باليَدِ الأُخرى أكتُبُ بشكلٍ محموم كلَّ شيءٍ تذكَّرتُه، ساكِبًا قطراتٍ من الزُّبد بين الفترة والأخرى على صفحاتِ دفتر ملاحظاتي.

كيف يمكنُ لإلهٍ صالح أن يسمَحَ بوجود مثل هذا العالم الملطَّخ؟ أجاب براند على هذه الشكاوى من قِبَلي واحدةً تلو الأُخرى. المرض؟ هل كنتُ أعرفُ أنَّه من الأربعة والعشرين ألف صنفٍ من البكتيريا، بضعُ مئاتٍ فقط هي ضارَّة والباقي كلُّه مفيد؟ لا تستَطيعُ النباتات أن تُنتجَ الأُكسجين ولا تستطيعُ الحيواناتُ أن تهضمَ الطعامَ دون مساعَدة البكتيريا، وبالفعل فإنَّ البكتيريا تشكِّلُ نصفَ المادَّة الحيَّة كلِّها. إنَّ معظمَ عَوامل المرض، كما شرحَ لي، تختلفُ عن هذه الكائنات الحيَّة الضروريَّة بتَحوُّلاتٍ طفيفة فقط.

وماذا نقول عن تشوُّهات الولادة؟ انطلق في وَصْفِ عمليَّات الكيمياء الحيويَّة المعقَّدة التي تشاركُ في ولادة طفلٍ ذي صحَّةٍ جيِّدة. إنَّ المعجزةَ الكُبرى ليسَتْ في حدوث تشوُّهاتِ ولادة، بل في كَون ملايين الولادات ليست مشوَّهة. هل كان من

الممكن خَلْقُ عالم خالٍ من الأخطاء لكي لا تُخطئ البتَّة العواملُ الوراثيَّة بتغيُّراتها البليونيَّة في أثناء عمليَّة انتقالها؟ لا يمكنُ لأيِّ عالمٍ أن يتصوَّرَ نظامًا خاليًا من الأخطاء كهذا في عالمنا ذي القوانين المادِّيَّة الثابتة.

قال لي براند: "وجدتُ أنَّ من المفيد أن أحاولَ التفكيرَ مثل الخالق. هذا تمامًا ما فعلَه فريقُ المهندسين التابعُ لي في كارڤيل. عملَ فريقُنا لسنواتٍ عديدة على معالجة اليد البشريَّة. يا لكمال الهندسة التي وجدناها هناك! لديَّ خِزانةٌ ملآنةٌ بكُتبِ الجراحة التي تَصِفُ العمليَّات التي ابتَدعَها الناسُ لليَد المُصابة- أساليبُ مختلفة لإعادة ترتيب الأوتار والعضلات والمفاصل، وطرق لاستبدال أجزاءٍ من العظام والمفاصل الآليَّة، وآلاف الأساليب الجراحيَّة. غير أنِّي لا أعرفُ أيَّ إجراءٍ نجحَ في تحسين اليَد العاديَّة. مثلًا، أفضَلُ موادَّ نستخدمُها في عمليَّات استبدال المفصل الاصطناعيِّ تولِّد احتكاكًا أكثرَ بخمس مرَّات ممَّا تولِّدُه مَفاصلُ الجسم الطبيعيَّة، ولا تدومُ هذه القِطَعُ المستبدَلة إلَّا سنواتٍ قليلةً. إنَّ المفاصلَ الوَحيدةَ التي ينبغي أن تُستبدَلَ هي المفاصلُ القليلة التي تأذَّتْ على نحوٍ بالغ أو تلك التي تعرَّضَتْ للكَسْر، أو المفصل الذي كان يعمَلُ بشكلٍ جيِّد لعدَّة سنوات،كما صمَّمه الله، ثُمَّ أُصيبَ بداءِ التهاب المفاصل وتهالَكَ في سنِّ الشَّيخوخة. بعد أن أَجريَتُ عمليَّاتٍ على آلاف الأيدي، عليَّ أن أتَّفقَ مع ما قاله إسحاق نيوتن (Isaac Newton): "لو غابَت كلُّ الأدلَّة على وجود الله، فإنَّ الإبهامَ وحدَه كافٍ لإقناعي"".

تابعْتُ طَرْحَ الاستثناءات، وكان براند يعالجُ كلَّ واحدٍ منها. ثُمَّ تابعَ قائلًا إنَّ جسَدنا في أسوأ حالاته يُظهِرُ دليلًا على وجود تصميم دقيق. ومثل الدَّليل السياحيِّ في متحف الفنّ، وصفَ لي بحماسٍ الطريقةَ الجميلةَ الَّتي تُعيدُ العَضَلة الممزَّقة بواسطتها ارتباطَها من جديدٍ بعد الإصابة "مثل أسنان مشطَين متَشابكَين". "أتعرفُ شيئًا عن القناة الشريانيَّة؟ وعاءٌ دمويٌّ محوَّلٌ ينقلُ الدَّمَ مباشرةً إلى أطراف الجنين النامية بدلًا من نقلِها إلى الرئتين. وعند لحظةِ الولادة، يجبُ أن يمرَّ الدَّمُ كلُّه خلال الرِّئتَين ليَحصُلَ على الأكسجين؛ لأنَّ الطفلَ الآن يتنفَّس الهواء. وفي ومضة عَين، تنزل شريحةٌ تُشبهُ

الستارة وتحرفُ مجرى الدَّم وتضغَطُ عضلةً على القناة الشريانيَّة. بعد أداء هذا العمل الواحد، تنحلُّ العضلة ويمتصُّها الجسم. من دون هذا التَّعديل الذي يدومُ أقلَّ من ثانية، لا يمكنُ للطِّفل أن يبقى على قَيد الحياة خارج الرَّحِم".

كان حديثُنا أوَّلَ دَرْسٍ من دروس التَّشريح التي حصلْتُ عليها من الدكتور براند. إنَّ قدرتَه على تذكُّر ما درسَه في كلِّيَّة الطِّبّ قبل ثلاثين سنةً أثارَتْ إعجابي بكلِّ تأكيد، لكنَّ شيئًا آخرَ برز- حماسةٌ مثلُ حماسةِ الأطفال، وشعورٌ حماسيٌّ من الإعجاب بخليقةِ الله الصالحة. عند إصغائي إليه، استَيقَظَ فيَّ من جديد إحساسُ تشيسترتون بالعَجَب. كنتُ أركِّزُ على عيوب الخليقة الواضحة، لكنَّ هذا الطبيبَ الذي كان يُمضي اليومَ كلَّه وهو يعمل مع هذه العيوب، تبنَّى موقفَ التقدير، بل التَّوقير. تعلَّمتُ أنَّ ذلك الموقفَ يعودُ إلى مرحلة طفولته التي أمضاها قريبًا من الطبيعة.

لكَونه ابن والدَين مرسَلَين في ريف الهند المرتفع البعيد، نشأ براند في عالمٍ من أشجار الفاكهة الاستوائيَّة والفراشات والطيور إضافةً إلى حيواناتٍ أُخرى. حاوَلَتْ والدتُه الفنَّانة أن تصوِّرَ هذا الجمالَ برسوماتها. كان والدُه جسي عالمَ طبيعةٍ علَّمَ نفسَه بنفسه، وكان يرى بصماتِ الخالق في كلِّ مكانٍ في الطبيعة. كان يقودُ ابنَه إلى كومةٍ مرتفعةٍ لمستعمرة النَّمل الأبيض ويشرحُ له عجائبَ مجتَمع النمل الأبيض التعاونيّ: "عشرةُ آلاف رِجلٍ تعمل معًا، كما أنَّها تعمل بإمرةِ دماغٍ واحد، جميعها تعمل بنشاط بالغ ما عدا الملكة التي هي كبيرة ومستَديرة مثل قطعة سجق، وتستَلقي غافلةً عمَّا حولها تضعُ البيوض". وكان يُشيرُ إلى قُمْعٍ رمليٍّ صنعُه نملُ اليرقان الكبير كشركٍ، أو إلى عشِّ الحبَّاك (طائر استوائيّ) أو إلى سِربٍ من النَّحل مدلًّى من غصن شجرة. كان پول يقومُ بواجباته المدرسيَّة في بيتٍ فوقَ شجرةِ الكاكايا، وفي بعض الأحيان، كان يدرسُ في الليل على نور الضَّوء النابض الصادر عن يراعاتٍ مضيئةٍ.

قاطَعَ التعليمُ جنَّةَ پول براند عندما أُرسِلَ إلى إنكلترا في سنِّ التاسعة. بعد خمس سنوات، تسلَّمَ المراهقُ البعيد من العائلة والبيت برقيَّةً تعلنُ وفاةَ والده من حمَّى

البول الأَسود (Blackwater Fever). وصَلَتْه بعد فترةٍ قصيرة رسالةٌ كانت قد أُرسِلَت بواسطةِ سفينةٍ قبل أسابيع من وفاه والده، والتي صارت بالنِّسبة إليه الإرثَ الأخير. وصفَ جسي براند الهضابَ المحيطة بمنزلهم وختمَ قائلًا: "يريدُنا الله أن نتمتَّع بعالمه. ليس بالضَّرورة أن يعرفَ المرءُ علمَ النبات أو الحيوان أو التشريح لكي يستمتعَ بحياة الطبيعة المتعدِّدة الجوانب. راقِبْ فقط، وتذكَّرْ، وقارِنْ. وانظرْ دائمًا إلى الله بالشكر والعبادة لأنَّه وضعَك في هذه البُقعة المبهِجة من الكَون: الأرض".

حافظ پول براند على نصيحة والدهِ ولا يزال يحافظُ عليها إلى يومنا هذا، سواء كان يسيرُ على الأقدام في شبه جزيرة أولمپيا، أم يُطاردُ خلسةً الطيورَ في مستَنقعات لويزيانا، أم يحاضِرُ أمام طلَّابِ الطِّبِّ عن عجائب جسم الإنسان الذي سيَعالجونَه. أوَّلًا في هِضاب الهند، ثُمَّ بعد ذلك خلال دراسته للجسم البشريِّ، بدأ يدركُ أنَّ العالمَ الطبيعيَّ يخفي آثارَ الله، وأنَّ الإلهَ الذي وجدَه هناك صالحٌ. رسالةٌ كنتُ محتاجًا إليها من رسولٍ تعلَّمتُ أن أثِقَ به.

تركَّزَتْ حياةُ براند المِهْنيَّة على ما قد يكونُ جانبَ الخليقة الأكثر إثارة للجَدَل، وهو وجودُ الألم. كنتُ أضَعُ كتابَ "**أين الله عندما أتألَّم**"؛ فدعاني للنَّظر في عالم بديلٍ دون ألم. كان يصرُّ على قيمة الألم العظيمة، مقدِّمًا دليلَه عبر النَّتائج الرَّهيبة لمرض الجذام- الوجوه المشوَّهة، والعمى، وفقدان أصابع اليدَين والقدمين والأطراف- التي تحدُثُ جميعُها بوصفها أعراضًا جانبيَّةً لعَدم الإحساس بالألم. وبصفته طبيبًا شابًّا في الهند، حقَّقَ براند اكتشافًا طبِّيًّا رائدًا: أنَّ الجذامَ يُلحِقُ الضَّررَ بكلِّ بساطة، من خلال تدمير النهايات العصبيَّة. يُلحِقُ الأشخاصُ الذي يفتَقِدون إلى الإحساس بالألم الأذى بأنفسهم بأعمالٍ بسيطةٍ مثل إمساك قطعةٍ محطَّمةٍ من محراك الجمر بإحكام أو لبسِ حذاءٍ ضيِّق. عندئذٍ تتشكَّلُ الدَّمامل نتيجةَ الضَّغط، ويتَفشَّى الالتهاب، ولا توجَدُ علاماتُ ألمٍ تحذِّرُهم أن يهتمُّوا بالمناطق المصابة. رأيتُ أضرارًا كهذه من كَثَبٍ في مستَوصفات براند.

قال براند بإخلاص شديد: "أشكرُ الله لأجل الألم. لا أستَطيعُ التَّفكيرَ بعَطيَّةٍ

أعظمُ منها لأمنحَها لمرضاي المصابين بالجذام". ثُمَّ تابعَ وَصْفَ تعقيدات نظام الألم الذي يحمي جسمَ الإنسان. لكي تشعرَ القدمُ بالألم، فإنَّ الأمرَ يتطلَّبُ ضغطًا شديدًا على إبرةٍ حادَّةٍ جدًّا، بينما تشعرُ قرنيَّةُ العين بواحِدٍ على ألف من ضغطٍ كهذا نتيجة طرفةَ عينٍ لاإراديَّة عندما يلامسُ رمشُ العَين أو ذرَّةُ غبارٍ سطحَ العَين. ولا تشعرُ الأمعاءُ بالألم من قَطْعِها أو حَرْقِها- هذه المخاطر لا تواجِهُها الأعضاءُ الداخليَّة في الأحوال العاديَّة- لكنَّها ترسِلُ إشارةَ ألمٍ ملحَّةً بوجودِ مَغْصٍ عندما تنتَفخ.

تابعَ براند حديثَه قائلًا: "نختبرُ نحن الأطبَّاءَ يقظةً فَظَّة بعد الانتهاء من كلِّيَّة الطّبّ. بعد أن درسْتُ عجائبَ الجسم البشريّ، وجدتُ نفسي فجأةً في وَضْعٍ يُشبِهُ مكتبَ الشَّكاوى في متجرٍ كبير. لم يأتِ أيُّ شخصٍ إلى مكتبي ليُعبِّرَ عن تقديره لأنَّ كُليَتَيه أو رئتَيه تعملان بشكلٍ جميلٍ وجيِّد. كانوا يأتون ليَشكوا من أنَّ شيئًا لم يكن يعمَلُ بشكلٍ طبيعيّ. لم أُدرِكْ إلَّا في وقتٍ لاحقٍ أنَّ هذه الأُمورَ ذاتَها التي يشكون منها هي أعظَمُ حلفائهم. ينظرُ معظمُ الناس إلى الألم بِوَصفه عدوًّا. لكنْ، كما يبرهنُ مَرضايَ المصابون بالجذام، يدفَعُنا الألمُ لأنْ نُولِيَ اهتمامًا بالتَّهديداتِ التي تواجِهُها أجسادُنا. ودون الألم ستَحدُثُ النَّوباتُ القلبيَّةُ والسَّكتاتُ الدماغيَّة، وتنفجرُ الزائدةُ الدوديَّة وتتفتَّحُ القُرْحاتُ المعويَّة دون أيِّ سابقِ إنذار. مَن الذي سيَذهبُ لرؤية طبيبٍ دون إنذاراتِ الألم؟

"لاحظْتُ أنَّ أعراض المرض التي يشتَكي منها مرضاي كانت في الواقع مؤشِّرًا إلى عمليَّة الشفاء الجسديّ. إنَّ كلَّ استجابة تقريبًا تقومُ بها أجسادنا، والتي ننظر إليها بضيقٍ واشمئزاز- مثل الانتفاخ الجلديّ، الجُسْأة (تشقُّقٌ ما بين أصابع القدمَين)، والتورُّم، والحمَّى، والعطس، والسعال، والتقيُّؤ، وخاصَّةً الألم- تشير بوضوح إلى ردِّ فعلٍ نحو الصِّحَّة. في جميع هذه الأشياء التي نحسبُها عادةً عدوَّةً لنا، يمكنُنا أن نجدَ سببًا للتعبير عن عرفاننا".

غالبًا ما كنتُ أُصابُ بالحَيرة من المشهد الدراميّ في الكتاب المقدَّس عندما واجَهَ أيُّوبُ- الذي هو أنموذجٌ للمُعانين الأبرياء- الله بشكواه حول المعاناة والألم. ويُعدُّ

جوابُ الله عن سؤال أيُّوب أحَدَ أهمِّ الفِقرات في أدب الطبيعة. احتفالٌ رائعٌ للطبيعة البرِّيَّة. لكنْ بالنِّسبة إلى مشكلة الألم ذاتها، لم يُعطِ الله جوابًا مباشرًا، إنَّما أعطى فقط هذا التحدِّي لأيُّوب: إذا كنتُ أنا الخالقَ قد صنعتُ عالمًا رائعًا كهذا، وتستطيع أن تشاهدَه بوضوح، ألا تستطيعُ أن تثقَ بي في المجالات التي لا تستطيعُ أن تُدركَها؟

عندما كنتُ أُصغي إلى براند، أدركتُ أنِّي كنتُ آتي إلى الله مثل شخصٍ مريض- كما لو أنَّ الخالقَ يُدير مكتبًا للشَّكاوى. كنتُ أتألَّمُ وأعاني المآسيَ والأمراضَ والمظالم، بينما كنتُ أتَغاضى طوال الوقت عنِ الأمور الصالحة الكثيرة التي تُحيطُ بي في العالم. تساءلتُ عمَّا إذا كان من الممكن أن أحتفظَ بحماسٍ تشيسترتون تجاه عجائب العالم الطبيعيِّ على الرُّغم من نقائصه وعيوبه الواضحة للعِيان؟ مثل ناظم المزامير، هل أستَطيعُ أن أتعلَّمَ أنْ أحمدَ وأرثِيَ في الوقت نفسه دون أن يحجبَ أحَدُهما صوتَ الآخر؟

تجاوَبَ براند مع هذه المعضلة نفسِها بروح الشكر والثِّقة- الشكر لأجل الأشياء التي يستَطيعُ رؤيتَها وتقديرَها، والثقة من جهة الأمور التي لا يستَطيعُ أن يراها. تذكَّرتُ وَصْفَ تشيسترتون للإنسان "العاديّ" الذي يقبَلُ العالَم على أنَّه عطيَّة، والذي يكونُ ردُّ فعله الصحيحُ على هذه العطيَّة هو الشكر والعرفان. ولدهشة براند، تعمَّقَ لديه الإيمانُ بموثوقيَّة الله حتَّى عندما كان يعمَلُ بين أشخاصٍ قليلًا ما يشعرون بالشكر والعرفان، أيْ ضحايا الجذام في الهند؛ لأنَّه رأى تغييراتٍ في أدنى الأدنياء نتيجةَ الرَّأفة ولمسةِ الشفاء.

عندما بدأتُ أعملُ مع براند وأتبَعُه حول العالم، قابلتُ بكثرةٍ مسيحيِّين آخرين مكرَّسين وهبوا حياتَهم لشِفاء جِراح البشريَّة. مثلًا، في الهند حيثُ يدَّعي أقلُّ من ٣٪ من السكَّان أنَّهم مسيحيُّون، فإنَّ خُمْس جميع الأعمال الطبِّيَّة تقريبًا يقومُ به أطبَّاء وممرِّضون مسيحيُّون، عددٌ كبيرٌ منهم تدرَّب في مستشفى براند القديم في ڤيلور. رافقتُهم في زيارات ميدانيَّةٍ إلى القرى حيث كانوا يعالجون التهاباتٍ استوائيَّة، ويجبِّرون العظام ويُجرون عمليَّاتٍ جراحيَّةً ثانويَّة، غالبًا ما تكونُ في الخارج تحت شجرة التمر الهنديّ. كانوا يقدِّمون الخِدمات للهندوس والمسلمين والسِّيخ واليانيِّين والزرداشتيِّين والشيوعيِّين على

حدٍّ سواء. إذا ذكرتَ كلمةَ "مسيحيّ" لمزارعٍ هنديّ- ربّما لم يسمَع قَطُّ بيسوع المسيح- فإنَّ أوّلَ صورةٍ تقفزُ إلى ذهنه قد تكون صورةَ مستَشفى، أوِ العربة الطبّيَّة التي كانت تتوقّفُ في قريته مرّةً في الشهر لتُقدِّمَ الرعاية الشخصيَّة المجّانيَّة.

إنَّ مشاهَدةَ هؤلاء الأشخاص يخدمون في أحوالٍ صعبة وبأجرٍ متدنٍّ ومنافعَ قليلة، جعلَتْني أرى المفارَقةَ الحادَّةَ ما بين أسلوبهم وأسلوبي. كنتُ أجلسُ في شيكاغو وأكتبُ الكُتُبَ مُطالبًا الله أن يُعطيَني إجاباتٍ عن مشكلات هذا العالم. لكنَّهم هم تطوَّعوا في الخطوط الأماميَّة في استجابةٍ تجسيديَّةٍ حقيقيَّة. مثلُهم مثلُ براند وزوجته، أظهَروا مستوًى من الاكتفاء الذاتيّ، وحتّى السعادة، لم أجِدْهما بين العديد من الأشخاص المشهورين الذين كنتُ قد أجرَيتُ مُقابَلاتٍ معهم.

تعلّمتُ أنَّ جزءًا من الجواب عن سؤالي "أين الله عندما أتألَّم؟" هو سؤالٌ مرتَبطٌ بالسؤال الأوّل، "أين الكنيسةُ عندما أتألَّم؟" وكما كتبَ اللّاهوتيُّ اليهوديُّ أبراهام هيشيل (Abraham Heschel): "القضيَّةُ الأساسيَّةُ القائلة: "لماذا يسمَحُ إلهُ العدالة والرأفة باستمرار الشَّرّ؟" مرتَبطةٌ بمشكلة كيف ينبغي للإنسان أن يساعدَ الله لكي تسودَ عدالتُه ورأفته". من اللَّمسة الرقيقة للعاملين في مجال الصِّحَّة، مثل بول ومارغريت براند، تعلَّمَ مرضى الجذام في الهند أنَّ نظامَ الطبقات الاجتماعيَّة ليس قضاءً وقَدَرًا، وأنَّ المرضَ ليس مَصيرًا محتَّمًا، وفي تلك اللمسة يشعرُ كثيرون للوهلة الأولى بالواقع الملموس لمحبَّة الله.

على الرُّغم من الاحترام الكبير الذي أُكِنُّه للدُّكتور براند وخدمته لله، فإنّي أعترفُ أيضًا أنّي شعرتُ بالرّاحة لأنّه ليس "قدّيسًا" على طراز فرنسيس الأسيزيّ أوِ الأمّ تريزا (Mother Teresa). كنتُ أحتاجُ إلى أنموذجٍ قريبٍ منّي لشخصٍ أستَطيعُ أن أتواصَلَ معه بشكلٍ طبيعيٍّ أكثر.

كان براند يتَشاوَرُ مع الأمّ تريزا، وقد كان عضوًا في لجان تلاميذ غاندي، وعرفَ

بعضًا من رجال الهند التقليديِّين "الأتقياء". لكنْ في حياته الخاصَّة، اختارَ طريقًا وسطًا لموازنة الجوانب الماديَّة والروحيَّة غير المحسوسة من جهة، والجوانب النبويَّة والعمليَّة الواقعيَّة من جهةٍ أُخرى. ويتذكَّرُ معارفُه القدامى في المستَشفى في ڤيلور ليس فقط عُمقَه الروحيَّ وخدمتَه المضحِّية، بل أيضًا فُكاهاته العمليَّة ومحبَّته لمربَّى البرتقال والمانجو، وقيادته السريعة للسيَّارات. بينما كنتُ أخرجُ من فترةِ ستِّينيَّات القرن الماضي، وهو عقدٌ لم يوصَفْ قَطُّ بحسِّ التَّوازُن، كنتُ محتاجًا إلى مثلٍ على شخصٍ عاشَ حياةً كاملةً من جميع الوجوه في وسط مجتمعٍ حديث، لا شخصًا بعيدًا في دَيرٍ أو مكان خلوةٍ دينيَّةٍ في الهند.

كان براند في صراعٍ مع التوتُّرات التي واجَهتْها الحضارةُ الحديثة لكنَّه لم يستَسلم لأيِّ جانبٍ منها. من ناحية، عاشَ نمطَ حياةٍ "مخالفًا للثَّقافة السائدة" قبل وقتٍ طويل من دخولِ هذه العبارة قائمة المفردات. في الهند، كان يُصِرُّ على تَقاضي أجورٍ هنديَّة، وعدم تَقاضي مبالغَ طائلةٍ على شاكلةِ الأطبَّاء الأجانب. كانت عائلة براند تتناوَلُ الأطعمةَ البسيطةَ دائمًا، معتَمدةً على الخبز المصنوع في البيت والخُضَر المزروعة في حديقتهم العضويَّة. يُسلِّمُ الدكتور براند بِوُجود بعض الأسباب للتَّخلُّص من الثِّياب- كالأماكن الممزَّقة غير القابلة للتَّرقيع- غير أنَّ افتقاد الثِّياب إلى الأناقة لم يكن أحَدَها. وإذا أردْتُ وَصْفَ أثاث بيته على نحوٍ مؤدَّب، أقولُ إنَّه بسيطٌ ومتَواضعٌ. وهو يقاومُ إهدار الأشياء بجميع أشكاله، ويعترفُ براند بأنَّه شخصيًّا، لن يذرفَ دمعةً واحدةً إذا ما اختفَتْ فجأةً جميعُ مظاهر التطوُّر التي أحدثَتْها الثورةُ الصناعيَّة. إنَّه يُفضِّلُ حياةَ القرية في الهند، حيثُ الهواء الطَّلق.

من ناحيةٍ أُخرى، تعلَّمَ استِخدامَ الأدوات التي توفِّرُها التكنولوجيا الحديثة. نَمَا تحت قيادته أحَدُ المستَشفيات في بلدة ڤيلور المتربة ليصيرَ المرفقَ الأكثر حداثةً وتقدُّمًا في جنوب غرب آسِيا كلِّها. حضرَ براند إلى كارڤيل في الولايات المتَّحدة لأنَّ مركزَ البحوث ذاك، كان يقدِّمُ الدَّعم التكنولوجيَّ الضروريَّ لمصلحة الملايين من مرضى الجذام في كلِّ أنحاء العالم. وعندما استُخدِمَتِ الحواسيبُ الشخصيَّة في ثمانينيَّات

القرن الماضي، سجَّلَ اسمَه للحصول على أحَد أوائل الحواسيب من شركة "آي بي أم" (IBM) بحماسٍ صبيانيّ. وهو يستَخدمُ شاكرًا المجاهرَ الإلكترونيَّة وآلات التصوير الحراريّ والطائرات النفَّاثة، مؤمنًا بأنَّ أدوات التكنولوجيا المستَخدَمة بحكمةٍ وليس للهَدم، يمكنُها أن تحقِّقَ الهدفَ الأسمى للتَّعاطُف الإنسانيّ.

غالبًا ما كانت محادَثاتي مع براند تتَّجه في نهاية المطاف إلى مسألة نَمَط الحياة؛ لأنَّ خبراتِه في الهند وإنكلترا وأميركا قد وفَّرتْ له منظورًا فريدًا. لقد عاشَ في إحدى أفقر دُوَل العالم، وفي دولتَين من أغناها. التَّرف في الغرب- كما يُقرُّ هو- يقدِّمُ تجرِبةً مميتة. إنَّ الفجوةَ الهائلةَ في الثَّروة يمكن أن توسِّعَ الخندقَ الذي يفصلُ الغربَ عن سائر العالم، مِمَّا يجعلُنا لا نحسُّ بصرخات المحتاجين الذين يطلُبون العدالة.

إنَّ التوتُّر طويلَ الأمد الذي يعودُ إلى نمط الحياة يرجعُ إلى طفولة براند في الهند. بعد وفاة زوجها بحمَّى البول الأسود، اتَّبعَتْ والدة پول أسلوبَ حياةٍ مقدَّسةٍ بالمعنى التقليديِّ للكلمة. عاشت على علاوة ماليَّةٍ صغيرة مكرِّسةً حياتها لتوفير الشفاء الجسديِّ والروحيِّ للقرويِّين في خمس سلاسل جبليَّة. لم تكُنْ تهتمُّ البتَّة بمظهرها الشخصيِّ حتَّى إنَّها حظرَتْ وُجودَ جميع المرايا في بيتها. واستَمرَّتْ في السَّفر برحلاتٍ محفوفةٍ بالمخاطر على مُهرِها حتَّى بعد إصابتها بارتجاجات دماغيَّة وكسور نتيجةَ السُّقوط. ومع أنَّ الأمراض الاستوائيَّة كانت تنهشُ جسدَها، فإنَّها وهبَتْ جميعَ طاقاتها لمعالجة أمراض الناس من حولها وإصاباتهم. كانَتِ "الجدَّةُ براند" تسبِّبُ الإحراج لپول بطريقةٍ جنونيَّة في بعض الأحيان. مثلًا، في أثناء عشاءٍ رسميٍّ في ڤيلور، سألتْ وهي في حالة اشمئزاز: "كيف يمكنُكم تَناوُلِ هذا الطعام الرائع في الوقت الذي يوجَدُ فيه أشخاصٌ في التِّلال يموتون جُوعًا في هذه الليلة؟" تُوفِّيَتْ في سنِّ الخامسة والتسعين، وسارَ في جنازتها آلاف القرويين لأميالٍ لتَكريمها في الكنيسة الصغيرة التي بناها زوجُها بيديه.

تعلَّمَ پول من والدَيه الدرسَ الدائم: أنَّ المحبَّة لا يمكنُ تطبيقُها إلَّا من شخصٍ

إلى آخر. لقد تَرَكا وراءَهما قلَّةً من المؤسَّسات الباقية، ولم تَبقَ إلَّا بصماتُهما الدائمةُ على حياةِ آلافِ الأشخاص الذين كانوا قد علَّموهم مبادئَ الصحَّة العامَّة والزِّراعة والإنجيل المسيحيّ. عملَتِ الجدَّةُ براند بمفردها على تَنظيف مناطقَ شاسعةٍ من إصابات الدُّود الطُّفَيليّ الذي بقي هناك مدَّةَ قرون. ونالَتْ ثقةً كبيرةً حتَّى إنَّ القرويّين كانوا يُطيعون تعليماتِها بخصوص بناء جدران حجريَّة حول الآبار المفتوحة حيث كانَتِ اليرقات تفقس؛ ما من برنامجٍ حكوميٍّ كان بهذه الفاعليَّة.

لكنَّ ابنَها پول براند قدَّمَ تأثيرَه الأكثرَ ديمومةً من خلال ممارساته العلميَّة المتينة. كان ينازعُ زوجتَه مرغريت في ڤيلور للحصول على مكانٍ في الثَّلاجة لحِفْظ يدَيْ إحدى الجثث ليتمكَّنَ من أن يجرِّبَ عليها التِّقنيَّات الجراحيَّة على ضَوء مصباح. ظلَّ براند لسنواتٍ عديدة حائرًا بشأن أعراض مرض الجذام: ما الخلايا التي يهاجمُها الجذام ولماذا؟ جاءَ الجواب، الذي يُعدُّ اكتشافَه الطبِّيَّ الأهمّ، في أثناء تشريح إحدى الجثث، عندما خَلُصَ إلى أنَّ عُصيَّاتِ الجذام تهاجمُ الأنسجةَ العصبيَّة فقط. تطلَّبَ إثباتُ هذه النظريَّة مزيدًا من سنوات البحث التي كان عليه خلالها تحديدُ السبب الدَّقيق لإصابات كلِّ مريض. إنَّ نتائجَ بحوثٍ كهذه كانت لها تأثيراتٌ دراميَّةٌ في معالجة الجذام وأمراضٍ أُخرى تتسبَّبُ بِفُقدان الإحساس في كلِّ أنحاء العالم. نالَ خمس عشرة مليون ضحيَّةٍ من ضحايا الجذام الرَّجاء بأنَّهم قادرون، من خلال العناية الصحِّيَّة الصحيحة، على المحافَظة على نظرهم وأصابع أقدامهم وأيديهم. وقد طبَّقَ في وقتٍ لاحقٍ المبادئَ ذاتَها على أقدام مرضى السكَّريِّ التي فقدَتِ الإحساس، ممَّا ساعدَ على تجنُّب سبعين ألفَ حالةِ بَتْرٍ سنويًّا في الولايات المتَّحدة وحدَها، بحسب أحَد التقديرات.

أخبرَني براند بشأن ملاحظة أبدَتْها الأمّ تريزا عندما كان يَتَشاوَرُ معها حول مستَوصَفِ مرض الجذام الذي كانت تفتحُه في كالكوتا. قالت: "لدينا أدويةٌ للأشخاص المصابين بأمراضٍ مثل مرض الجذام. لكنَّ هذه الأدوِيَة لا تعالجُ المشكلةَ الرئيسة، وهي مرض عدم تقبُّل الناس لهؤلاء المرضى. هذا ما ترجو أخواتي أن يقدِّمنَه".

في إحدى مناقشاتِنا، فكَّر براند مَليًّا بسبب وجود إرساليَّاتٍ مسيحيَّة مكرَّسة حَصرًا لمرض الجذام. كان معظمُ عمله في الهند مدعومًا ماليًّا من قِبَل إرساليَّة الجذام في إنكلترا، وهي المنظَّمة الشريكةُ لإرساليَّة الجذام الأميركيَّة. قال: "لستُ على عِلْم بوُجود إرساليَّةٍ لمرض المفاصل أو لمرض السكَّريّ. الجوابُ بحسب اعتقادي يرتَبِطُ بوصمة العار الهائلة التي أحاطت بمرض الجذام قرونًا عديدة. يتطلَّبُ العملُ مع الجذام أكثرَ من غريزة التَّعاطُف الطبيعيَّة؛ إذ إنَّه يتطلَّبُ نَوعًا من الدَّعوة فوق الطبيعيَّة. إنَّ أشخاصًا مثل الأب دامْيِن (Damien) الذي خدمَ مرضى الجذام في هاواي ومن ثَمَّ أُصيبَ بالمرض ذاته، كانوا يعتقدون أنَّ المخلوقاتِ البشريَّة، مهما كانت معاناتُها وآلامُها، يجب ألَّا تُنبَذَ البتَّة. إنَّ الكنيسةَ هي التي يجبُ أن تقدِّمَ الرِّعاية إلى المرضى وغير المرغوب فيهم وغير المحبوبين".

عندما درسْتُ تاريخَ الجذام في مراسَلاتي مع براند، تعرَّفت إلى القليل من القدِّيسين الذي تحدَّوا وصمةَ عارِ المجتمع ونظروا إلى ما بعد الأعراض القبيحة، وقدَّموا خدماتِهم لضَحايا الجذام. وعندما دمَّر المرض أوروبا في العصور الوسطى، أسَّستْ أَخويَّة الراهبات اللَّعازريَّات، نسبةً إلى لِعازر، أبي مرضى الجذام، بيوتًا للمرضى. لم تَستَطِعْ تلك النِّسوة الباسلات أن يعمَلْن إلَّا القليل، مثل تضميد الجروح وتغيير الضمادات، لكنَّ البيوتَ ذاتَها والتي كانت تُدعى لازَريتوس "Lazarettos"، ربَّما تكونُ قد ساعدَتْ على كفِّ قَبضة المرض في أوروبا عبر عزل مرضى الجذام وتحسين أوضاع حياتهم. وفي القرنَين التاسع عشر والعشرين، أسَّسَ المرسَلون المسيحيُّون الذين انتَشَروا عبر الكرة الأرضيَّة، مستَوطَناتٍ لمرضى الجذام، ونتيجة لذلك، جاءَتْ معظمُ التطوُّرات العلميَّة الرئيسة في مجال معالجة مرضِ الجذام من المرسَلين.

إنَّ لمستَشفى كارڤيل ذاته (الذي أُغلِقَ حديثًا في إجراءٍ اتَّخذته الحكومة لتَوفير التكلفة) تاريخًا نموذجيًّا في العمل مع مرضى الجذام في جميع أنحاء العالم. وأوَّل سبعة مرضى طُرِدوا من نيو أورليانز هرَّبتهم السلطات على طول نهر المسيسيبي على ظهر سفينةٍ كبيرة للفحم؛ لأنَّ قوانين القرن التاسع عشر كانت تمنعُ المصابين بالجذام

من السفر بواسطة أيِّ شكلٍ من أشكال المواصَلات العامَّة. انتهى بهم المطاف في مزرعةٍ مهجورة وخَربة حصلَتْ عليها ولاية لويزيانا دون ضجَّةٍ إعلاميَّة. كانت لا تزالُ هناك بعض أكواخ العبيد تسكنُها بشكلٍ رئيسيٍّ الفئران والوطاويط والأفاعي. انتقلَ المرضى السبعة إلى "بيت الجذام في لويزيانا"، لكنَّ الولاية واجهتْ صعوبةً في استقطاب عمَّال لمستشفى مرضى الجذام حتَّى تطوَّعَتْ أخيرًا "بنات المحبَّة" (Daughters of Charity)، وهي أخويَّة راهباتٍ كاثوليكيَّات. كان يُطلَق على هؤلاء النِّسوة "القبَّعات البيضاء" وقد قُمْنَ بالكثير في بداية العمل. كُنَّ ينهَضْنَ قبل الفجر بساعتَين ليُصلِّين ويلبسنَ أثوابًا بيضاءَ منشَّاة في أجواء المستنقَعات الحارَّة. وكنَّ يُصرِّفنَ ماء المستنقعات ويمهِّدْنَ الطُّرُقَ ويُصلِحن أبنيةَ مستَشفى الجذام الجديد. كانت اللواتي أتَينَ بعدَهنَّ لا يَزَلْنَ يقدِّمنَ الخدمةَ في كارڤيل عندما زرتُ براند هناك.

في الهند، بَوتَقة الدِّيانات، كان براند يراقبُ كيف تستَجيبُ الأديانُ الأُخرى لمشكلة الألم. علَّمَتِ الديانةُ البوذيَّة القبولَ الهادئَ للألم، وهو موقفٌ نستَطيعُ نحن في الغرب المُصاب بالوَسْواس المرضي بكلِّ تأكيدٍ أن نتعلَّمَ منه. وكان الهندوسُ والمسلمون يواجِهون المعاناةَ والألمَ في معظم الأحيان بروح الإيمان بالقَضاء والقَدَر؛ إذ يؤمنُ الهندوسُ بأنَّ الألمَ هو نتيجةُ خطايا ارتُكبَت في حياةٍ سابقة، وبالنِّسبة إلى المسلم، فالألمُ هو إرادةُ الله. في المقابل، تجاوَبَ المسيحيُّون تقليديًّا مع النَّقيض على غرار يسوع: علينا أن نَثِقَ بصَلاح الله على الرُّغم من الألم والظُّلم اللَّذَين نراهما حولنا، لكنْ علينا أن نعمَلَ كلَّ ما في وُسعِنا لتَخفيفه خلال حياتنا على الأرض. أعطاني پول براند مثالًا حيًّا على تلك الاستجابة.

في أواخر حياته، كان الدكتور براند يَقبَلُ دعواتٍ كثيرةً من كلِّيَّات الطِّبِّ التي كانت تريدُ منه أن يحاضرَ عن تجريد الطِّبِّ من الإنسانيَّة. اليوم، تتآمر التكنولوجيا الفائقة في مجال الطِّبّ، وسياسات التأمين لمنظَّمات المحافَظَة على الصِّحَّة (HMO)، والتخصُّص المتزايد- تتآمرُ كلُّها في سَحْقِ الغرائز نفسها التي تجذبُ الكثيرَ من أفضل

الطلّاب إلى هذا الحقل. يعبّر براند عن المبدأ الذي يوجّه مهنته الطبّيّة على النحو التالي: "إنَّ أثمنَ ممتلكات الإنسان هي روحُه- إرادته، وشخصيّته، وشعوره بالكرامة. ومع أنَّ اهتمامَنا من الناحية التّقنيَّة قد يكونُ مُنصَبًّا على الأوتار والعِظام والنهايات العصبيَّة، فإنَّ علينا ألَّا نفقدَ الاهتمامَ بالشَّخص الذي نعالجه".

على الرُّغم من أنَّ حواراتِنا معًا كانت تشمَلُ مجموعةً واسعةً من المواضيع، فإنَّها كانت تنجرفُ لا محالة مرَّةً أُخرى إلى قصص الأفراد من مرضى براند السابقين. في معظم الأوقات، يكونُ هؤلاء المرضى الأشخاص المنسيّين والمنبوذين من العائلة والقرية بسبب مرضهم. يمكنُ للعاملين في الحقل الطبّيّ أن يُصلِحوا الكثيرَ من الضَّرر الجسديّ. ويمكنهم أيضًا أن يُلبُّوا الحاجةَ البشريَّة الأهمّ، وهي اللَّمسة البشريَّة. لكنْ ماذا يستَطيعون أن يفعلوا في ما يتعلَّقُ بروح المريض وصورة ذاته المتآكلة؟ في بعض الأوقات، كنتُ أجلسُ مدَّةَ ساعاتٍ أُصغي إلى براند وهو يُخبِرُني بقصص هؤلاء المرضى وعائلاتهم والمعالجة الفائقة التي حَصَلوا عليها في مستَشفى الجذام في كاريغيري. أنا أشعرُ بالدَّهشة من حقيقةِ أنَّ اختِصاصيًّا في الجراحة العَظْميَّة يعرفُ الكثيرَ عن مرضى كان قد عالَجهم قبل عقود، وأُصابُ بدهشةٍ أكبرَ من مرأى الدُّموع الغزيرة التي كان يذرفُها لدى روايَته قِصَصهم. كان من الواضح أنَّهم تَركوا أثرًا كبيرًا في نفسه كما أثَّر هو فيهم.

لا يُكلِّفُ إيقافُ تَقدُّم الجذام باستخدام أدويةٍ كبريتيَّة (Sulfone drugs) إلَّا بضعة قروش في اليوم. لكنَّ الأمرَ يتطلَّبُ آلافَ الدُّولارات ورعاية مضنية من قِبل اختصاصيِّين ماهرين لإعادة العافية بشكلٍ كاملٍ للمريض الذي انتشرَ فيه المرضُ دون رادع. بدأ براند بالأيدي الصلبة التي تشبه المخالب، وبتجارب على نَقْل الأوتار والعضلات، حتَّى وجدَ أفضل طريقةٍ لجمعها معًا لاستعادة نطاق الحركة الكلّيّ. امتَدَّتِ العمليّاتُ وإعادة التأهيل مدَّة شهور، وفي بعض الأحيان، عدَّة سنين. وطبَّقَ الإجراءاتِ ذاتَها على الأقدام، مصحِّحًا التشوُّه الذي سبَّبه السَّير لسنوات من دون الشعور بالألم، وذلك لتَوجيه الجسد في توزيع الثِّقل والضَّغط.

إنَّ إعادةَ الأقدام والأيدي إلى وَضْعِها الصَّحيح منحَ مرضى الجذام القدرةَ على العمل وكَسْبِ معيشتهم، لكنْ مَن يوظِّفُ شخصًا يحملُ علاماتِ هذا المرض المخيف؟ عادَ مرضى براند الأوائل إليه وهم في حالة اضطرابٍ وقلقٍ وسألوه أن يعكسَ تأثيرَ الجراحة لكي يعودوا إلى التسوُّل، المهنة التي استَغلَّتِ التشوُّهاتِ الواضحة. عمل پول ومرغريت براند معًا على تصحيح ذلك الضَّرر التَّجميليّ. تعلَّما إعادةَ تشكيل الأنف البشريِّ بالدُّخول إليه من خلال الحيِّز الواقع ما بين اللِّثَة والشَّفَة العُليا من خلال مدِّ الجلد والغشاء البطانيِّ الرَّطِب، ثُمَّ بناء هيكلٍ أنفيٍّ من الداخل بزَرْع العَظْم. وسعيا إلى الحيلولة دون الإصابة بالعَمى بإعادة القدرة على إغلاق العَين وفَتْحِها. يُميت الجذام خلايا الألم الصغيرة جدًّا التي تدفع الشخصَ ذا الصحَّة الجيِّدة لأنْ يرمشَ بعينه عدَّةَ مرَّاتٍ في الدقيقة الواحدة، ويؤدِّي جفافُ العين في النهاية إلى العمى. تعلَّمَتْ مرغريت أن تحفرَ نفقًا عبر عضلةٍ تقعُ تحت الخدِّ وتُستَخدَمُ عادةً للمَضْغ، وتُوصلَها بجفن العين الأعلى. وعندما كان مرضاها يمضغون العلكة طوال اليوم، كانوا في الوقت نفسه يحرِّكون أجفانَهم إلى الأعلى وإلى الأسفل مما يجعَلُ عيونَهم رَطِبةً، وهكذا يتجنَّبون العَمى. أخيرًا، كان پول وزوجتُه يُعيدون الحواجبَ المفقودةَ إلى وُجوه مَرْضاهم بحفرِ نفقٍ عبر فَرْوة الرأس مع العصب وإمداد الدم، بِوَضعِها تحت جلد الجبهة وخياطتها في مكانها فوق العَينين. نمتْ حواجبُ المرضى الأوائل الجديدة بكلِّ فخرٍ لتَصيرَ طويلةً وكثيفة. توجَّهَتْ كلُّ هذه الرعاية الطبِّيَّة المستَفيضة نحو ضَحايا الجذام "النكرة" الذين كانوا يكسبون عيشَهم من التسوُّل. كان الكثيرُ من الذين وَصَلوا إلى المستَشفى بالكاد يشبهون البَشَر. كانت أكتافُهم مترهِّلةً، وينكَمِشون مرتَعدين لدى اقتراب الناس منهم، وتلاشى النُّور من عيونهم. لكنَّ شهورًا من العلاج الرؤوف من قِبَل الموظَّفين في كاريغيري استَطاعَتْ أن تُعيد النُّور إلى عيونهم. ظلَّ الناسُ لسنواتٍ عديدة يجفلون منهم برعب، بينما كان الممرِّضون والممرِّضاتُ والأطبَّاءُ في كاريغيري يُمسِكون أيديهم ويتحدَّثون إليهم. كان الموظَّفون يستَمعون إلى قِصَص المرضى الجُدُدِ من دون اشمئزازٍ أو خَوفٍ ويستَخدِمون

سحرَ اللَّمسة البشريَّة. وبعد سنةٍ أو أكثر كان هؤلاء المرضى، مثل لعازر، يخرجون من المستَشفى وينطلقون بكلِّ فخرٍ لتَعلُّم مهنةٍ ما.

كما يفكِّرُ براند الآن، فإنَّ عمليَّةَ مُتابَعةِ المرضى خلال دَورة إعادة التأهيل الكاملة، تحدَّتْ في النهاية أسلوبَه كلّه بالنِّسبة إلى الطِّبّ. في مكانٍ ما، ربَّما في كلِّيَّة الطِّبّ، يكتسبُ الأطبَّاء مَوقفًا يبدو مثيرًا للرِّيبة مثل الغطرسة: "آه، أنت أتيتَ في الوقت المناسب. اعتَمِدْ عليّ. بإمكاني أن أُنقذَك". لكنَّ العملَ في كاريغيري أزالَ تلك الغَطْرَسة. لم يكُنْ بإمكان أحَدٍ أن "يُنقِذَ" مرضى الجذام. يُمكنُ للعاملين في حَقْل الطِّبِّ أن يوقِفوا المرض، أجل! ويمكنُهم أن يُصلِحوا بعضَ الضَّرَر. لكن في نهاية المطاف، على كلِّ مريضٍ بالجذام أن يعودَ ويحاوِلَ بناءَ حياةٍ جديدةٍ على الرُّغم من الصعوبات الجمَّة التي تواجِهُه. بدأ براند يرى أنَّ مُساهمتَه الرئيسة هي عَمَلٌ لم يدرسْه في كلِّيَّة الطِّبّ: الانضمام إلى مريضه بوصفه شريكًا له في عمليَّة استِعادة الكرامة لروح محطَّمة. قال: "إنَّنا نعالجُ الشخصَ لا المرض. هذا هو المعنى الصحيح لإعادة التأهيل".

كانت مجتَمعاتُ الغرب الكبرى تبتعدُ عن الاعتقاد الضمنيِّ بقيمة الرُّوح البشريَّة الواحدة. إنَّنا نميلُ إلى النَّظر إلى التاريخ على أنَّه مجموعاتٌ من الناس: طبقات، أو أحزاب سياسيَّة، أو أعراق، أو مجموعاتٌ اجتماعيَّة. ونَضَعُ تَسمِيات بعضُنا لبَعضٍ، ثُمَّ نفسِّرُ السُّلوكَ وننسبُ القيمةَ بناءً على هذه التَّسمِيات. بعدَ مدَّةٍ طويلة من تعرُّفي إلى الدكتور براند وارتباطي به، أدركْتُ أنِّي كنتُ أنظرُ إلى المشكلات البشريَّة الكبرى بأنموذج حسابيّ: النِّسبُ المئويَّة للناتج القوميِّ الإجماليّ، أو متوسِّط الدَّخل السنويّ، أو معدَّل الوفَيات، أو نسبةُ الأطبَّاء إلى عدد السكَّان، لكنَّ المحبَّة ليسَتْ عمليَّةً حسابيَّة؛ حيثُ إنَّنا لا نستَطيعُ البتَّة أن نحسبَ بدقَّةٍ أعظمَ قَدْرٍ ممكنٍ من الصَّلاح كي ما يوزَّعَ بالتَّساوي على فقراء العالم والمحتاجين فيه. نستَطيعُ فقط أن نبحَثَ عن شخصٍ واحد، ثُمَّ شخصٍ آخر، ثُمَّ آخر ليكونوا أهدافًا لمحبَّة الله.

كنتُ في صراعٍ مع قضايا تُواجِهُ البشريَّة. ومع ذلك، لم أتعلَّم أن أُحِبَّ الأفراد-الأشخاصَ المخلوقينَ على صورة الله. لم أتوقَّعْ أن يكونَ مستَشفى الجذام في الهند هو المكانَ الأكثر احتمالًا لمعرفة القيمة اللَّامُتَناهِية للكائنات البشريَّة، لكنَّ زيارةً واحدةً إلى ذلك المكان تجعَلُ تعلُّمَ الدَّرسِ أمرًا حتميًّا.

خلال زيارتي الأخيرة إلى الهند برِفقة پول براند في عام ۱۹۹۰م، أراني بيتَ طفولته في جبال كولي مالاي (Kolli Malai). صعدَتْ سيَّارتُنا الجيپ (Jeep) طريقًا سريعًا لافتًا للنَّظر، يَضمُّ سبعين منعرجًا (وُضِعَ عند كلِّ منعرَج، بشكلٍ منظَّم، مُلصَقٌ يشيرُ إلى رقمه: ۳۸/۷۰، ۳۹/۷۰، ٤۰/۷۰). مرَّت بنا درَّاجةٌ ناريَّة، كانَتِ الراكبةُ امرأةً تتشبَّثُ بظَهْرِ السائق وثوبُ "الساري" التقليديُّ الذي ترتَديه يطيرُ وراءَها مثل العلم. وقد أثارَتِ منحنياتُ الطريق التي تُشبِهُ دبُّوس الشَّعرِ ذكرياتِ براند. قال: "لم يكن هناك طريقٌ سريعٌ في ذلك الوقت. كنت وأنا طفلٌ أركَبُ آلةً غريبةَ الشكل مغطَّاةً بقماشٍ من نسيجٍ سميكٍ ومدلَّاة بحبلٍ من كتفَي حمَّال على عمودَين من خشبِ الخَيزران. عندما صرتُ في سنٍّ أستَطيعُ فيه السَّير، كنتُ أمشي وأنا أتمايل على مستوى نظر ساقَي الحمَّال. وأراقبُ العَلَقَ المائيَّ الذي كان يقفزُ من الشُّجَيرات ويتمسَّكُ بهاتَين الساقَين وينتفخُ من الدِّماء التي امتَصَّها.

غير أنَّنا كنَّا شعَرْنا بالقَلق خلال الرِّحلة حِيالَ ارتفاع سخونة رادييتر السيَّارة (المشعّ الحراريّ) بشكلٍ زائدٍ أكثرَ من قلقنا بشأن ديدان العَلَق. أخيرًا صارَ الطَّريقُ مستَويًا ملتفًّا حول أرضٍ مرتفعة، ممَّا منَحنا مناظرَ خلَّابةً لحقول الأرزِّ الخضراء المغطَّاة بالأعشاب في الأسفل، ولخطوطٍ شاحبةٍ متعرِّجةٍ عبر الأفق تحدِّدُ سلاسل جبليَّة أُخرى على بعدٍ منَّا. ثُمَّ انتهى طريق الأسفَلت وانحدرَ ما تبقَّى من الطريق إلى وادٍ صغير. وبعدها صارَ الطريقُ المغطَّى بالحصى ترابيًّا، ثُمَّ أُخدودَين على طول خطٍّ من أشجار الكينا. تَبِعْنا الأخدودَين مدَّةَ نصف ساعة دون أن نرى شخصًا واحدًا، فبدأتُ أتساءَلُ عمَّا إذا كان سائقُنا قد ضلَّ طريقَه.

فجأةً، وصلَتْ سيَّارةُ الجيپ إلى قمَّةِ هضبةٍ صغيرة، فأطلَّ علينا منظرٌ مدهش. كان هناك مئةٌ وخمسون شخصًا ينتظرون على طول الطريق- كانوا ينتظرون، كما عَلِمْنا بعد قليل، منذ أربع ساعات. أحاطوا بسيَّارتنا وألقَوا علينا التحيَّة بالطريقة الهنديَّة التقليديَّة حيثُ راحتا اليدَين مضمومتان إلى بعضهما ورؤوسهم مُطأطَأة. وكان بين الحضور نساءٌ بَدَتْ أشكالُهنَّ مثل طيورٍ استوائيَّة في أثواب الساري الحريريِّ الزاهي والغنيِّ بالألوان، وقد علَّقْنَ أكاليلَ من الزُّهور حول أعناقِنا، ثُمَّ انتقلْنا إلى وَليمةٍ وُضِعَتْ فوقَ أوراق الموز. بعد الوجبة، تجمَّعَ النَّاس في الكنيسة ذات الجدران الطينيَّة التي بناها والد پول براند، وقدَّموا إكرامًا لنا برنامَجًا مدَّته ساعةٌ من التَّرانيم وإشارات العرفان بالجميل والرَّقصات الشَّعائريَّة.

أذكرُ كلمةً ألقَتْها إحدى النِّساء تحدَّثت فيها بشأن والدة پول. قالت: "قبائلُ الهضاب لم تمارِسِ الإجهاض. كانوا يتَخلَّصون من الأولاد غير المرغوب فيهم بإلقائهم على قارعة الطريق. كانَتِ الجدَّةُ براند تأخُذُ هؤلاء الأطفال وتَرعاهم إلى أن يكتَسِبوا الصحَّةَ وتحاوِلُ أن تعلِّمَهم. أنا كنتُ أحَدَ هؤلاء غير المرغوب فيهم الذين تُرِكوا ليَموتوا. كان هناكَ العشراتُ منَّا، ولكنَّها كانت تتعامَلُ مع المكان بصفته مركزَ تبنِّي أكثرَ منه كونه مَيتَمًا. كُنَّا ندعوها أمَّ الهضاب. عندما أحرزْتُ نتائجَ جيِّدةً في دراستي، دفعَتْ عنِّي تكلفة التحاقي بمدرسةٍ رسميَّة، ونلتُ في نهاية المطاف شهادةَ الماجستير. أنا أدرِّسُ الآن التمريض في جامعة مِدراس، وقد قطعْتُ عدَّة مئاتٍ من الأميال لتَكريم عائلة براند لِما فعلوه لأجلي ولأجل كثيرين".

بعد أن ألقى الدكتور براند خطابًا قصيرًا ومسحَ الدمعَ من عينَيه، قادَني إلى الخارج لأرى التُّراثَ الذي تركَه والدُه. أشارَ إلى البيت ذي الأخشاب المنشورة باليَد والذي كان والدُه قد بناه بدَعائمَ خشبيَّةٍ ذات أساساتٍ مَعدِنيَّة مثل المقلاة المقلوبة لصَدِّ النَّمل الأبيض. كان هناك مستَوصفٌ لا يزالُ يعمَلُ جَنبًا إلى جَنْبٍ مع مدرسة- أسَّس والداه تسعَ مدارسَ في التِّلال- ودكَّانًا للنِّجارة. انتشرَتْ بيَّاراتُ الحمضيَّات عبرَ التلال، وهي أحَدُ المشاريع الزراعيَّة المحبَّبة إلى نفس الجدَّة براند. كان زوجُها جسي

قد بنى ستَّ مَزارعَ من أشجار التوت والموز وقصب السكَّر والبُنِّ والتابيوكا. كان پول يُبدي ملاحَظاتِه باستمرارٍ عن مدى نموِّ أشجار الجاكرندا منذ أن زرعَها والدُه قبل سبعة عقود. غطَّتِ الأرضَ أزهارها ذات اللون البنفسجيّ. عندما حانَ وقتُ الرَّحيل، أخذَني إلى مَوقع قَبْرَي والدَيه في أسفل المنحدَر الذي يطلُّ عليه الكُوخ الذي نشأ فيه. قال: "إنَّ جسدَيهما يرقدان هنا، لكنَّ روحَيهما تعيشانِ فوق. فقط انظر حولك".

اختار پول طريقًا في الحياة يختلفُ عن طريق والدَيه المرسَلَين عندما صارَ جرَّاح عِظام. لكي أرى إرثه، زرتُ مَرضاه السابقين. علَّق أحَدُ الرِّجالُ واسمه نامو (Namo) على الجدار صورةً لبراند عندما كان في العشرين من عمره وتحتها عبارة "لتسكن فيَّ الرُّوح التي كانت فيه". عندما روى نامو قصَّته، استَطعتُ أن أدركَ بسهولةٍ المحبَّة التي يشعرُ بها نحو جرَّاحه السابق.

عندما كان نامو شابًّا، اضطُرَّ إلى تَرْكِ الجامعة في منتصف سنته الأخيرة. ظهرَتْ على جلده بقعٌ تؤشِّرُ إلى مرض الجذام، وكانت يدُه تنجذبُ إلى الخلف كالمخلب. عندما نُبِذَ في جامعته وقريته، وأخيرًا من عائلته، شقَّ نامو طريقه إلى مستشفى الجذام في جنوب الهند حيثُ كان هناك طبيبٌ شابٌّ يجرِّبُ بعضَ أساليب جِراحة اليَد. كان يوجَدُ أربعةُ ملايين شخصٍ تعرَّضوا للإصابة بمرض الجذام في الهند، وخمسة عشر مليون شخصٍ في جميع أنحاء العالم، لكنَّ براند كان جرَّاحَ العِظام الوَحيدَ الذي حاوَلَ مُعالجَةَ التَّشوُّهات.

تذكَّرَ نامو ذلك اليوم الكئيب: "كنتُ حانقًا على حالتي حتَّى إنِّي لم أستَطِعْ معها الكلامَ إلَّا بصعوبة. كنتُ أتلعثَم. قلتُ للدُّكتور براند إنَّ يَدِي عديمةُ الفائدة. وسرعان ما ستَصيرُ قدمايَ كذلك. بإمكانه أن يبتُرَهما". قام نامو بحركةٍ بإحدى يَدَيه وكأنَّه يقطَعُ مِعصَمَه الآخر. "على أيَّة حال، كان بإمكانه أن يفعَلَ أيَّ شيءٍ يريدُه إذا ما اعتقدَ أنَّه قد يتَعلَّمُ شيئًا من ذلك".

لحسن الحظّ، كان نامو مخطِئًا بخصوص أعراض مَرَضه. أوقفَتِ الأدويةُ انتشارَ المرض. وبعد خضوعه لسِلسلةٍ مُضنِيةٍ من العمليَّاتِ الجراحيَّة على مدى خمس

سنوات، استَعادَ القُدرةَ على استخدام يدَيه وقدمَيه. تلقَّى تدريبًا في مجال العلاج الطبيعيّ وبدأ يعمَلُ مع مرضى الجذام الآخرين، ثُمَّ صارَ رئيسَ قسم العلاج الطبيعيّ في معهد "أُول إنديا" (All-India).

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم زرتُ سادان وهو مريضٌ سابقٌ آخر. بدا مَظهَرُه نسخةً مصغَّرةً عن غاندي: ضعيفٌ وأصَلَعُ بنظّاراتٍ سميكةٍ وهو يجلس القرفصاء على طرف الفراش. كان باب شقّته المتواضِعة مفتوحًا والطُّيورُ تدخُلُ وتخرُجُ منه. وكان هناك كلبٌ أجرَبُ مستَرخِيًا على درجةِ الشقّة. أراني سادان قدمَيه الاصطناعيَّتَين دون أصابع القدمَين. قال: "لم أقابِلْ عائلةَ براند إلّا في وقتٍ متأخّرٍ لأنقِذَ هاتَين. لكنَّهما أعطَياني حذاءً سمحَ لي بأن أمشي".

بصوتٍ رخيمٍ ذي نبرةٍ عالية، روى سادان قصصًا حزينة جدًّا عنِ الرَّفْض الذي واجَهَه في الماضي: زملاءُ صفِّه الذين كانوا يستَهزئون به في المدرسة، والسائق الذي رماه بقوَّة خارج حافلةٍ عموميَّة، وأرباب العمل الكثيرون الذين رفضوا أن يوظِّفوه على الرُّغم من تدريبه وموهبته، والمستَشفَيات التي رفضَتْه بعباراتٍ فظَّة "لا نعالج مرضى الجذام هنا".

قال سادان: "عندما وصلتُ إلى ڤيلور، أمضَيتُ اللَّيلَ على شُرفةِ عائلةِ براند لأنَّه لم يكن لديَّ أيُّ مكانٍ آخرَ أذهَبُ إليه. كان ذلك حَدَثًا لا سابقة له في ذلك الوقت بالنِّسبة إلى شخصٍ مُصابٍ بالجذام. لا أزالُ أذكُرُ حين أَمسَكَ الدكتور براند بيَدَيه قدميَّ المصابتَين النازفتَين. كنتُ قد راجَعْتُ أطبَّاء كثيرين. قليلون جدًّا فحَصوا يديَّ وقدميَّ من بُعد، لكنَّ الدكتور پول والدكتورة مرغريت كانا أوَّل عاملَين في الطبّ تجرَّأا على لَمْسي. كنتُ قد نسيتُ تَقريبًا كيفيَّةَ الشُّعور باللَّمسة الإنسانيَّة. لكنَّ الأكثرَ إثارةً للإعجاب هو أنَّهما سمحا لي بتَمضِية اللَّيل في منزلهما، في وقتٍ كان فيه العاملون في مجال الصحَّة يرتَعِدون خَوفًا من المصابين بالجذام".

ثُمَّ سَرَدَ سادان التَّسلسُلَ المعقَّد للإجراءات الطبِّيَّة- من نَقْلِ الأوتار، وتجريدِ

الأعصاب، وبَتْرِ أصابع القدم، وإزالة إعتام عَدَسةِ العَين- التي قام بها براند وزوجته. لقد سمَحا له بأنْ يكتُبَ مرّةً أُخرى من خلال نَقْلِ الأوتار إلى أصابعه، وهو الآن يمسكُ حساباتِ برنامَج يقدِّمُ الرِّعاية المجَّانيَّة لمرضى الجذام من خلال ثلاثةٍ وخمسين مستَوصَفًا متنَقِّلًا. تحدَّثَ مدَّة نصف ساعة. كانت حياتُه السابقة أشبَهَ بفهرس للمُعاناة الإنسانيَّة. ولا تزالُ وصمةُ العار باقيةً إلى هذا اليوم. مؤخَّرًا فقط، جلسَ في سيَّارةٍ وحدَه وشاهَدَ زفاف ابنته من بعدٍ حيثُ كان خائفًا من أن يُزعجَ وجودُه الضُّيوفَ.

عندما شَرِبْنا أنا وعائلةُ براند آخِرَ فنجانِ شاي في بيته قبل أن نغادرَه لنَركبَ طائرةً متوجِّهةً إلى إنكلترا، قال ساداں العبارةَ التاليةَ المدهِشة: "على الرُّغم من كلِّ شيء، يجب أن أقولَ إنّي الآن سعيدٌ لأنّي أُصِبتُ بهذا المرض".

سألتُه بعَدم تَصديق: "سعيد؟"

أجاب ساداں: "أجل! فَدُون مرض الجذام كان يمكن أن أكونَ رجلًا عاديًا في عائلةٍ عاديَّة، ساعيًا وراءَ المناصب العُليا والغنى في المجتمع. ولّما تعرَّفتُ إلى أشخاصٍ رائعين مثل الدكتور براند والدكتورة مرغريت، ولّما كنتُ قد عرفْتُ الإلهَ الذي يسكنُ فيهما".

بعد يَومَين، كان استقبالُنا في إنكلترا مختَلفًا إلى حدٍّ بعيدٍ عنِ التَّرحيب الملوكيِّ الذي استُقبِلْنا به في الهند. وهناك أيضًا تتبَّعْنا أنا وبراند خَطوات ماضيه. زُرْنا بيتَ أسلافه حيثُ كان والداه المرسَلان يُمضِيان إجازتَهما من العمل. كانت عائلةُ والدِته ثريَّةً، تملكُ بيتًا يَقعُ في واحدٍ من أفضل الأحياء السكنيَّة في لندن، يساوي على الأقلِّ مليون دولار. خرجَتْ نزيلةُ البيت التي تنتمي إلى الطبقة الراقية لتَرى ما كُنَّا نحدِّق فيه، فأخذَها براند في جَولةٍ من غرفةٍ إلى غرفة واصِفًا كيف كان يبدو البيتُ قبل ستِّين سنة.

بعد ظُهر ذلك اليوم، وقَفْنا على سَطح المستَشفى حيثُ كان يشاهِدُ النِّيران في أثناء القَصْف الألمانيِّ عندما كان طبيبًا مُقيمًا. لم يزيِّنَّا أحَدٌ بالأكاليل، ولم يجتَمعْ حَولنا أيُّ شخصٍ ليُرتِّل ويقدِّم الشهادات. بالنِّسبة إلى الحرَّاس والعمَّال في المستشفى، كان

براند رجلًا مُسِنًّا مشوَّشًا يتدخَّلُ في عملهم. كانَتِ المكاتبُ قدِ انتقلَتْ والأجنحة هُدِمَت، ووُضِعَتِ الإجراءاتُ الأمنيَّة في مكانِها. في إطار مهنته الطبِّيَّة الأولى، بدا براند وكأنَّه مُفارَقةٌ زمنيَّة. تجوَّلْنا ونحن ننتَقلُ من موظَّفة استقبال إلى أُخرى في مستَشفى الكلِّيَّة الجامعيَّة نستَفهمُ منهم عن زملاء هيئة التَّدريس السابقين. كان الجوابُ النموذجيّ، "مَنْ؟ هل بالإمكان تهجِئةُ ذلك الاسم؟" أخيرًا وجَدْنا في رواقٍ مُظلم صفًّا من صُوَرِ بعض أساتذة براند- أطبَّاء كانوا مَشهورين في زمانهم كَشُهْرَة كريستيان برنارد (Christian Barnard) أو سي. إيڤرت كوپ (C. Everett Coop) في أيَّامنا.

وجدْتُ نفسي أتساءَلُ عن المكان الذي كانت مهنةُ براند ستَؤولُ إليه لو أنَّه بقي في لندن. حتَّى عندما كان يعمَلُ في قريةٍ هنديَّةٍ نائية بين مرضى الجذام المنبوذين، فقد حقَّقَ شُهرةً عالميَّة. لو أنَّه بَقِيَ في مجال البحوث في مختبرٍ مُجهَّزٍ تجهيزًا جيِّدًا، مَن يعرفُ درجاتِ الشَّرف والامتياز التي كان سيَحصُلُ عليها؟ ربَّما جائزة نوبل؟

لكنْ وإنْ حدثَ ذلك؟ ستَنضمُّ صورتُه إلى صُوَر الآخرين في الرِّواق المظلم التي يَعلوها الغُبار وقد بدأت تميلُ إلى الاصفرار. وسيَظهَرُ اسمُه، مثل أسماء الآخرين، ضمن حاشِيةٍ في كُتُبِ الطِّبِّ الدراسيَّة. نادرًا ما تَدومُ الشُّهرة في السِّجلَّات الطبِّيَّة لوقتٍ طويل؛ وقد جعلَتْ تِقنيَّات الجراحة المجهريَّة معظمَ الإجراءات التي كانت تُعدُّ إنجازاتٍ باهرةً في شباب براند، إجراءاتٍ غيرَ نافعة. في المقابل، لا يزالُ عملُه بصفته جرَّاحًا مُرسَلًا في الهند يؤتي ثمارَه في التحوُّل الذي حصلَ في حياة نامو وسادان ومئاتٍ مثلهما.

بعدما صارَتْ علاقتُنا وثيقةً بهذا الشكل، صارَتِ اللقاءاتُ في الهند وإنكلترا بالنِّسبة إليَّ نَوعًا من الأمثلة الرمزيَّة التي تقارنُ زَوال الشُّهرة بدَيمومة الاستثمار في خدمة الآخرين. سواءٌ أَعِشْنا أيَّامَنا في الهند أم في إنكلترا أم في كلاركستن في جورجيا، فإنَّ المقياسَ الحقيقيَّ لقيمتِنا سيَعتَمدُ ليسَ على السيرة الذاتيَّة أوِ الإرث الذي نملكُه، بل على الرُّوح التي ننقلُها إلى الآخرين. قال يسوعُ في المثل الذي غالبًا ما يتكرَّرُ في الأناجيل: "مَن وجدَ حياتَه يُضيعُها، ومَن أضاعَ حياتَه من أجلي

يجِدُها". إنَّ كلَّ مَسارٍ وظيفيٍّ يُعطي مكافأته. لكنْ بعدَ جلوسي مع براند في بيت نامو وبيت سادان، ومن ثَمَّ تَجوالي في قاعة المشاهير في الكلِّيَّة الملكيَّة للجرَّاحين، لم يبقَ لديَّ أيُّ شكٍّ في ما يتعلَّقُ بالمكافآت التي تَدومُ حقًّا.

في واحدٍ من أحاديثنا الأخيرة، بدأ الدكتور براند في التَّفكير والتأمُّل. "نظرًا إلى المكان الذي مارسْتُ فيه الطِّبّ، لم أكسبِ المالَ الكثير. لكنِّي أقولُ لكَ إنِّي عندما أعودُ بذاكرتي إلى الوراء إلى عمرٍ من ممارسة الجراحة، فإنَّ الجمعَ الكبيرَ من الأصدقاء الذين كانوا في ما مضى مرضى، يمَنَحُني نَوعًا من الفَرح الذي يمنحُه الغنى. قابلتُهم للمرَّة الأولى عندما كانوا متألِّمين وخائفين. وبصفتي طبيبَهم، شاركتُهم آلامَهم. وحيثُ إنِّي قد تقدَّمتُ في السنِّ الآن، فإنَّ محبَّتَهم وعرفانَهم هما اللَّذان يُنيران السَّبيلَ المستَمرَّ لِحياتي. يا لَه من أمرٍ غريب! نحن الذين نعملُ في أمكنة يوجَدُ فيها أقسى أنواع المعاناة، ننظرُ إلى الوراء بدَهشةٍ لِنَجِدَ أنَّنا في تلك الأمكنة اكتَشَفْنا حقيقةَ الفَرَح". ثُمَّ اقتبسَ قَولًا آخرَ للسيِّد المسيح: "طوبى للَّذين يحتملون نصيبَهم من آلام العالم. في النهاية سيَعرفون سعادةً أكبر من أولئك الذين يتَجنَّبونها" (ترجمة جاي. بي. فيلپس [J. B. Phillips]).

لنبدأ مع پول براند

كتبتُ أنا والدكتور براند معًا ثلاثةَ كتب: "**قد امتزتُ عَجَبًا**" *(Fearfully and Wonderfully Made)*، وكتاب "**على صورته ومثاله**" *(In His Image)*، ومنذ فترة قصيرة فقط، كتاب "**عطيَّة الألم**" *(The Gift of Pain)*، الذي ينسجُ قصَّةَ حياته مع نظريَّاتٍ عن الألم. وهناك سيرة حياة مرسل تقليديَّة بقلم دوروثي ويلسون (Dorothy Wilson)، "**أصابع الله العشر**" *(Ten Fingers of God)* التي تركِّزُ على حياة براند في الهند، وكتاب "**الجدَّة براند**" *(Granny Brand)*، وهو أيضًا بقلم ويلسون ويسردُ قصَّة عمل والدته. نشرَ براند أيضًا أفكارًا أُخرى في كتاب "**وليمة الله الأبديَّة**" *(God's Forever Feast)*.

الفصل الخامس

الدكتور روبرت كولز

(Robert Coles)

حياةٌ رقيقة واعتداءاتُ الكَون

عندما كنتُ أعملُ محرِّرًا لمجلَّة "كامپس لايف" في سبعينيَّات القرن الماضي، كانت تمرُّ بمكتبي بشكلٍ منتظم أكثر من مئتَي مجلَّة. كنتُ أدَعُها تتكوَّمُ لتَصيرَ أبراجًا طويلةً مائلة، ثُمَّ أُمضي نهايةَ أسبوعٍ كاملة وأنا أتصفَّحُها في محاولةٍ لأكشفَ عن أثاثَ مكتبي تحتها.

كان نصفُ المجلَّات تقريبًا يمثِّلُ منظَّماتٍ مسيحيَّة، بما فيها الإرساليَّات، وجمعيَّات الشباب، والجامعات، وجمعيَّات العلم والمشورة، أمَّا النصفُ الآخرُ فهو مَصادر عَلمانيَّة، مثل تلك المجلَّات التي تجدُها على الحاملات في أكشاكِ بَيع الصُّحُف. شعرتُ بالدَّهشة بسبب الفَجوة الكبيرة التي بينهما. سمعَ محرِّرو نيويورك بكلِّ تأكيد أنَّ ثلاثين أو أربعين مليون مسيحيٍّ مولودين ثانية يسكنون في مناطق حيويَّة في مكانٍ ما، لكن مَنْ منهم قابَلَ مسيحيًّا واحدًا؟ يمكن أيضًا ألَّا يكونَ لهم وُجودٌ مع كلِّ ما قد ذُكِر عنهم. في أثناء ذلك، كان المسيحيُّون منشَغلين ببِناء مجتَمع معاكس كامل، بالمدارس والمكتبات والمحطَّات التلفزيونيَّة والإذاعيَّة، حتَّى إنَّه كانت هناك إعلاناتٌ تجاريَّةٌ مسيحيَّة في "الصفحات الصفراء المسيحيَّة"؛ وذلك ليَحْموا أنفسَهم من العَلمانيِّين الذين يؤمنون بالإنسانيَّة والذين صَمَّموا أن يَقضوا عليهم.

عند تَصَفُّحي كَومةً من المجلّات بعدَ ظُهْرِ أحَدِ الأيَّام، قابَلْتُ اسمَ روبرت كولز في أسفل مقالة قصيرة عنوانها "لماذا لا تزال تؤمن بالله في وعد الصليب؟"، في مجلّة هارپر (Harper) من بين جميع المجلّات الأخرى. ما نوع هذا الشخص الذي يستطيعُ أن يجسرَ الهوَّة عبر مقالةٍ عن الإيمان الشخصيِّ في مطبوعة نيويورك المشهورة؟ بمرور السنين، لاحظتُ اسم كولز يحتلُّ فجأةً رؤوس مقالاتٍ في سياقاتٍ غير متوقَّعة: نقدُ الكاتب الكاثوليكيِّ جورج برنانوس (George Bernanos) في قسم نقدِ الكتب في صحيفة "**نيويورك تايمز**"، ومناقشة حول كيركيغارد (Kierkegaard) وپاسكال (Pascal) في مجلَّة "**نيو إنغلاند الطبِّيَّة**" (New England Journal of Medicine)، وتحيَّة إجلالٍ لدوروثي داي (Dorothy Day) وحركتها التي تُدعى العاملَ الكاثوليكيَّ في "نيو ريپَبلك" (New Republic)، ونقدُ فلانري أوكونور في **مجلَّة الجمعيَّة الطبِّيَّة الأميركيَّة** (The Journal of the American Medical Association).

في الوقت الذي كان فيه مسيحيُّون آخرون يندبون انحيازَ الصحافة العَلمانيَّة ووقوفَها ضدَّ المقالات التي تركِّز على قضايا الإيمان، كان روبرت كولز، وهو اسمٌ غير معروف لدى معظمهم، يكتبُ عن أيِّ موضوعٍ يريدُه وحيثما كان، من وجهة نظرٍ مسيحيَّة دون ارتباك أو خجل. بدأتُ أنظرُ إليه بصفته بانِيَ جسور وكاتبًا مفكِّرًا أستطيعُ أن أثق به لتَوجيهي إلى آخرين، صارَ كثيرون منهم "قساوستي الظاهريِّين". قدَّم البروفسور كولز إلى جيلٍ كاملٍ من طلّاب جامعة هارڤرد العقيدة المسيحيَّة لتكونَ بديلًا مَوثوقًا به في العالم الحديث، وفعلَ الشيءَ نفسَه لي من خلال كتاباته.

في عدد عام ١٩٧٢م، وفي قصَّة الغلاف الرئيسة، منحَتْ "مجلَّة تايم" البروفسور كولز لقبَ "العالم النفسيِّ الحيِّ الأكثر تأثيرًا في الولايات المتَّحدة". كنتُ أتساءل، متى كان يجدُ الوقتَ ليُمارسَ الطبَّ النفسيّ؟ نعم، كان يُدرِّسُ موادَّ في كلِّيَّة الطِّبِّ في جامعة هارڤرد، وهذا مقبول، لكنَّها موادُّ في "أدب التَّسامي" بينما دعا قائمتَه المفضَّلة للقصص بأسماء روحيَّة! كان يبدو رجلًا ذا ألف اهتمام، وفي كلِّ مرَّةٍ كان

يكتشفُ اهتمامًا جديدًا، كتب كتابًا عنه: كتاب حوارٍ مع الكاهن الراديكالي دانيال بيريغان (Daniel Berrigan)؛ نقدٌ أدبيٌّ للرِّوائيِّ ووكر پيرسي، وكتبٌ أخرى عن جيمس آجي (James Agee) وجورج إيليوت (George Eliot)؛ وسِيَر حياة إريك إريكسون (Erik Erikson)، وآنا فرويد (Anna Freud) وسيمون ويل ودوروثي داي؛ وكتاب عن "جنوب فلانري أوكونور" (Flannery O'Connor's South)، وهو مجموعة حواراتٍ مع أشخاصٍ فقراء، وحوارات أُخرى مع العاملين في مجال الحقوق المدنيَّة، والطبقة العاملة، والإسكيمو، وأولاد الأثرياء- ما مجموعه ستُّون كتابًا، ناهيك بأكثر من ألف مقالة.

إنَّ عمله الأكثر إثارةً للإعجاب هو كتاب "**أولاد الأزمة**" *(Children of Crisis)*، وهو سلسلة من خمسة مجلَّدات وأكثر من مليون كلمة، أدَّى إلى نَيله جائزةَ پوليتزر في عام ١٩٧٣م. اختيرَ في وقتٍ لاحقٍ للحصول على "جائزة العبقريّ" من مؤسَّسة ماك آرثر، التي تتضمَّن منحةً معفاة من الضرائب، مِمَّا أتاحَ له أن يتفرَّغ للقيام بمزيدٍ من البحوث والكتابة. بحلول عام ١٩٩٩م، وهو في السبعين في عمره، كان لا يزال يُصدِر كُتُبًا ومقالات، وأقرَّ الرئيس كلينتون بإنجازاته بمنحه وسام الحرِّيَّة، وهو أعلى وسام شرفٍ مدنيٍّ في الدولة.

إنَّ متابعتي لمهنة كولز ساعَدَتني على فَهْم إحدى الخواصِّ الغريبة لمهنة الكتابة: متلازمة المراقب. الكتابةُ هي عملٌ يُنجَز في عزلة. يُغريني أن أسمِّيَها فعلًا ذهانيًّا (غير متوازنٍ عقليًّا)، حيث إنَّنا نحن الكُتَّابَ نبني واقعًا اصطناعيًّا لا يسكنُه إلَّانا، وهو يبدو في أغلب الأحيان بالنِّسبة إلينا أكثرَ واقعيَّةً من العالم الآخر "الموجود هناك خارجًا". بعد أن اعتزلتُ في خلوةٍ مدَّة أسبوع وأنا أعمل على مشروع كتابة مكثَّف، وجدتُ ضَرورةَ أن أجرِّبَ شيئًا مثل العودة إلى الواقع، حيث إنِّي نسيتُ كيفيَّةَ إجراء حديث عاديٍّ ومفاوضاتٍ بارعةٍ تحتوي على الاتِّصال البشريّ. كنت عادةً ما أُقلِّبُ الكلمات والأفكار، وعلى الرُّغم من صعوبتها، فإنَّ هذه العمليَّةَ هي

أكثرُ ضَبْطًا وانتظامًا من التَّفاعُل مع الكائنات البشريَّة الحيَّة. ونتيجةً لذلك، نميلُ نحن الكُتَّابَ إلى الانسحاب وعَزْل أنفسنا حيثُ نراقب الحياةَ دون أن نشاركَ فعلًا فيها.

بسبب خلفيَّتي الصحفيَّة، أعيشُ حياةً حافلةً بالأحداث أكثرَ من كثيرٍ من الكُتَّاب. سافرتُ إلى أماكن مثل الصومال وروسيا وتشيلي وميانمار- بالتَّأكيد لجَمْع مَوادَّ للكتابة- ومع ذلك لا تختفي متلازمة المراقب بتاتًا. زرتُ مخيَّم لاجئين في الصومال في ذروة أزمة المجاعة. كان ثلاثون ألف نسمة يعيشون في خِيَم مؤقَّتةٍ في ذلك المخيَّم الصحراويّ، وكان ما بين أربعين وخمسين طفلًا يموتون كلَّ يوم. لم أشعُرْ بمثل ذلك العجز من قبل. كانت الممرِّضات تحقِنَّ الأدوية والسوائل عبر الأوردة، والأطبَّاء يقدِّمون المضادَّات الحيويَّة، ورجال الدِّين يدفنون الموتى- فيما كنتُ أنا، الصحفيَّ الذي طارَ آلاف الكيلومترات للانضمام إليهم، واقفًا بجانبهم أُدوِّن بسرعةٍ الملاحظات وألتقطُ الصُّوَر. لم يسبق أن بدا دَوري نيابيًّا في تحمُّل تجربة الآخرين أكثر من ذلك، أو بدا وجودي أكثر هامشيَّة.

إنَّ تحمُّلَ تجربة الآخرين هو أيضًا جزءٌ من عَمَلِ الكاتب. على الرُّغم من أنَّه ليس باستطاعة كلِّ شخصٍ أن يزورَ مخيَّم اللَّاجئين في الصومال، فإنِّي إنْ قمتُ بعملي بصورةٍ جيِّدة بما فيه الكفاية، سيَتكوَّن لدى القرَّاء بعض الإحساس بما هي عليه الحال هناك، بل ربَّما يصيرُ لديهم حافزٌ لتَقديم المساعدة. عندما أزورُ جون پيركنز في مسيسيپي، أو الدكتور پول براند في الهند، وحتَّى عندما أدخلُ حياتَهم لأيَّامٍ أو أسابيع قليلة، فإنِّي أفتحُ ثقبًا في الباب يسمحُ للآخرين بالتَّحديق إلى الداخل في عالمٍ كان يمكنُ أن تَفوتَهم فرصةُ رؤيته.

في عنوانه الجدير "**تخميناتُ متفرِّج مُذْنب**" *(Conjectures of a Guilty Bystander)*، يَروي توماس ميرتون (Thomas Merton) قصَّةَ رحلةٍ من دَيرٍ إلى مدينةٍ قريبة: "في لويزڤيل، عند زاوية الشارع الرابع وشارع وولنات، في وسط ضاحية التسوُّق، غمرَني فجأةً إدراكُ بأنِّي كنتُ أحبُّ جميعَ هؤلاء الناس وأنَّهم كانوا لي وأنا لهم، وأنَّنا لا

يمكن أن نكونَ غُرَباء بعضنا عن بعضٍ مع أنّنا كنّا تمامًا غرباء... على الرُّغم من أنّهم "خارج العالم" [الرهبان]، فإنّهم في العالم نفسه كما الجميع- عالم القنبلة، وعالم الكراهِيَة العرقيَّة، وعالم التكنولوجيا، وعالم الإعلام، وعالم المشاريع الكبرى والثورة، وما إلى ذلك". أصبحت تلك اللحظة الغريبة تجلّيًا بالنِّسبة إلى ميرتون الذي تابعَ يقول إنَّ وظيفةَ العزلة هي إدراكُ بعض الأُمور- وحدة الجنس البشريّ، ورَوعة الحياة، ورَوعة عدم إمكانيَّة استِنساخ أيِّ شخص- بوضوحٍ سيَكون مستَحيلًا على أيِّ شخصٍ منغَمِسٍ تمامًا في العالم بدلًا من أن يكونَ جاثمًا على الحافَة يراقب. قال: "ليس ثَمَّة وسيلةٌ لإخبار الناس بأنَّهم جميعًا يسيرونَ وهم يشعُّون كالشمس".

في الواقع لا توجَدُ وسيلة. لكنْ نادرًا ما يمكنُ للكاتب، وفي بعض الأحيان دون إدراك، أن يعكسَ شيئًا من ذلك الإشعاع بعَرضه تفاصيلَ حياةِ أشخاصٍ عاديِّين. فعلَ روبرت كولز هذا الشيء لي. بأسلوبه المميَّز في العمل، أزالَ الحواجز بين المراقب والمشارك ودخل حياةَ الآخرين ثُمَّ انسحَبَ إلى عزلةٍ سمحَتْ له بتقديمهم إلينا.

على الرُّغم من جذوره في جامعة هارفرد، فهو بالكاد يلائمُ قالبَ الأكاديميِّ المتعالي ذي البرج العاجيّ. لقد مارسَ أسلوبًا غير اعتياديٍّ في البحوث الميدانيَّة، وكان يتبعُ الأولادَ من مكانٍ إلى آخر، ويجلسُ على الأرض في بيوتهم، ويطرحُ أسئلةً قليلةً ويكسب ثقتهم. كان يركبُ الحافلةَ إلى المدرسة مع هؤلاء الأولاد، ويجلس على مقاعدَ غير مبطَّنةٍ أصغرَ من الحجم العاديّ، ويتمسَّكُ بالقضبان الصدئة على المقعد أمامه عندما يهتزُّ الباص في أثناء ذهابه من المدرسة وإليها.

صارَ يُعرَف بِاسْم "رَجُل قلم التلوين"؛ لأنَّه كان يُخرِجُ أوراقًا وأقلامَ التلوين ويطلبُ من الأولاد أن يرسموا صُوَرًا. غالبًا ما كانت صُوَرُ الأولاد تكشفُ أكثرَ من كلماتهم: رسَمَت فتاةٌ سوداءُ صغيرةٌ أشخاصًا بيضَ البشرة أطولَ منها بملامحَ دقيقةٍ وبعددٍ صحيحٍ من أصابع اليدَين والقدمَين، بينما رسمَتْ نفسَها دون عين أو أُذن أو ربَّما دون ذراع.

بطريقةٍ ما، كان روبرت كولز ينجَحُ دائمًا في حياته في الحضور في المكان المناسب. وهو يحسبُ السنوات الأولى مسؤولةً عن حَظّه. الحظُّ في أنَّ الموادَّ التي درسَها في الجامعة قبل التخرُّج أثارَتْ فيه حبَّه للأدب. والحظُّ في أنَّ مقالةً كان يكتبُها عن الطبيب المؤلِّف وليم كارلوس وليَمز (William Carlos Williams) قادَتْه إلى مقابلة وليَمز، ونتيجةً لذلك، اختار مهنةَ الطِّبّ. الحظُّ في أنَّه عندما كان طبيبًا مُقيمًا في المستشفى، استَطاعَ أن يعالجَ العالِمَ الفيزيائيَّ أنريكو فيرمي (Enrico Fermi) ويتحدَّثَ معه. الحظُّ في أنَّه بدأ يرافقُ دوروثي داي وأعضاء منظَّمة "العامل الكاثوليكيّ". الحظُّ في أنَّه صادق المعالجَين النفسيَّين آنا فرويد وإيريك إريكسون، وفي أنَّه درسَ تحت إشراف اللّاهوتيَّين رينولد نيبور وپول تيليك (Paul Tillich)، وأنَّه شاركَ في عمل مارتن لوثر كِنغ الابن وحركة الحقوق المدنيَّة.

لكنَّه لم يستطع إلقاء المسؤوليَّة على الحظّ في ما يتعلَّق بقراراته الحديثة بعد أن صار مشهورًا. لقد اتَّخذَ قراراتٍ واعيةً لدخول أمكنة العالم الأكثر سخونة، متسلِّلًا إلى مدينة سويتو خلال فترة الفَصْل العنصريّ في جنوب أفريقيا، وزيارة عائلات البِيض الغاضبين خلال أيَّام الشَّغب الذي اندلعَ على خلفيَّةِ قضيَّةِ الحافلات المدرسيَّة في مدينة بوسطن، والإصغاء إلى الپروتستانت والكاثوليك وهم يشتمون بعضُهم بعضًا في إيرلندا الشماليَّة، وإجراء مقابلات مع عائلات في منطقة الأكواخ الصغيرة في مدينة ريو دي جانيرو البرازيليَّة، وفي أقبية المنشقِّين في پولندا.

يُحبُّ كولز أن يقتبسَ من قصَّة "**مدام بوڤاري**" *(Madame Bovary)* للمؤلِّف فلوبير (Flaubert): "كلامُ الإنسان كالإبريق المتصدِّع، نقرَعُ عليه إيقاعات غير مُتقَنَة لتَرقُصَ الدببة عليها، في حين نتوقُ إلى تأليفِ موسيقى تُذيب النجوم". في بعض الأحيان، كان الكلامُ الذي جمعَه من أولادِ العالم يقرَعُ إيقاعاتٍ غير مُتقَنَة، وفي أحيانٍ أخرى كان يُذيبُ النجوم. بطريقتهم الخاصَّة، يتعاملُ الأولاد مع أسئلةٍ عميقةٍ أربكَتِ البشريَّة على مدى التاريخ. عندما قابلتُ كولز أوَّل مرَّة، كنتُ أُؤلِّفُ كُتُبًا عن مشكلة الألم، مقتبسًا بشكلٍ رئيسيٍّ من الفلاسفة واللّاهوتيِّين. وقد وجدتُ في المقابلات التي أجريتُها مع

الطبيب النفسيّ أبسطَ أشكال التعبير عن المشكلة وأكثرها تأثيرًا.

"عندما أنظرُ إلى يسوع هناك في الأعلى [في التمثال الضخم الذي يُطلُّ على ريو دي جانيرو]، أتساءل عمَّا يفكِّر فيه"، هكذا قالت مرغريتا الشابَّة متأمِّلةً من منطقتها الفقيرة القذرة. تعملُ والدتُها المريضةُ التي تعاني السُّعالَ والنَّزفَ في فندقٍ في كوپاكابانا حيثُ يلعبُ الأغنياء. من موقعه في أعلى التلِّ وهو يطفو فوق الضباب، لا شكَّ أنَّ يسوع قادرٌ على رؤية المنطقةِ الفقيرة القذرة والفنادق الفاخرة، كما أنَّه قادرٌ على رؤية الكاهن الذي يقودُ سيَّارةً فارهةً ويسكنُ في بيتٍ كبير. لماذا يبقى صامتًا؟

أو مرَّةً أُخرى في ماساشوسِتس، ليس بعيدًا عن بيت كولز، اصطدمَ هناك صبيٌّ يهوديٌّ في التاسعة من عمره بعدالة الله. كان في بيت الصبيِّ ضيفٌ، وهو محامٍ، وقد أراه الضيفُ الأرقامَ من معسكر الاعتقال وهي على شكل وشم على ذراعه. قال الرجل إنَّه توقَّفَ عن الإيمان بالله منذ ذلك الوقت؛ لأنَّ هتلر كاد أن يربحَ الحرب، وقد أقلقَ هذا الولد ذا التسع سنوات منذ ذلك الحين. "أعتقد أنَّه لا يتدخَّل، هذا ما يقوله مدرِّس اللغة العبريَّة. إنَّ الله لا يحاول البتَّة أن يوقِفَ أمرًا أو يبدأ آخر. لا أستطيعُ أن أفهمَ كيف أمكَنَه أن يجلسَ هناك في الأعلى دون أن يوقِفَ هتلر! إذا كان اليهودُ شعب الله، إذًا لكان من الممكن أن يخسرَنا. سألتُ والدي، "هل كان الله سيبكي لو أنَّ جميعَ اليهود لاقَوا حتفَهم في معسكرات الاعتقال هذه؟" قال أبي إنَّه لا يعلم- لا يعلمُ إذا ما كان الله يبكي أو يبتسم. إنَّه لا يعلم ما يفعله".

إنَّه السؤال ذاته على نطاقٍ أوسع ذاك الذي طرحَه في إحدى مقابلاته الأولى عندما كان يعملُ طبيبًا مقيمًا في قسم الأطفال في ذروة تفشِّي وباء شلل الأطفال. سأل طوني ذا الأحد عشر عامًا إذا ما كان بالإمكان أن يسجِّل حديثهما، فأجاب طوني بعاطفة فجائيَّة: "الرجاء أن تسجِّلَ كلَّ كلمةٍ أقولها. قد أكون مَيْتًا غدًا، وستكونُ هذه فرصةً لتَعيش كلماتي من بعدي". بهذا التسجيل ذي التكنولوجيا المتدنِّية، تستطيع بالكاد سماع كلمات طوني بوُجود النبض الآليِّ للرئة الحديديَّة التي

تغمره. "عندما سمعتُ بوجود وباء شلل الأطفال قلت: "من المؤسف أنَّ أحدَهم سيُصابُ بالمرض". ليس أنتَ! هكذا يفكِّر المرء: شخصٌ آخر! هذه المرَّة أُصِبْتُ أنا. أنا هو "الشخص الآخر"... ينبغي أن تجرِّبوا وجودَ هذه الرئة الحديديَّة لتَعرفوا الشعورَ الذي سيُراودُكم! إنَّها مثل السجن، لكنْ دون أن تستطيعَ السَّير ذهابًا وإيابًا في زنزانتك، كما أنَّك لا تستطيع التنفُّس دون أن تقومَ الآلة بهذا العمل! هذا ما أسأله: حسنًا يا الله، لا بدَّ أنّي فعلتُ شيئًا ما لأستحقَّ هذا! أخبرني به!".

في متحفٍ ليس ببعيدٍ عن مكتب كولز في كامبردج، تتدلّى لوحةٌ ثلاثيَّةٌ رسمَها غوغا (Gauguin) في نهاية حياته في تاهيتي، وهي خلاصةُ فنّه العظيم. بكلماتٍ فرنسيَّة واقعيَّة، خربشَ غوغا على اللوحة المعنى الذي أراد تبليغَه في ثلاثة أسئلة: "من أين أتينا؟ مَن نحن؟ إلى أين نحن ذاهبون؟" لم يَعُدِ الفنَّانون يعبِّرون عن أنفسهم بهذه الطريقة المباشرة، وهجرَ الفلاسفةُ الأسئلةَ التي تحملُ معنًى منذ سنوات، ويقدِّمُ العلماءُ أجوبةً تفشلُ في إرضاء النفس، والجامعات الحديثة تتجنَّبُها كلّيًّا. وحدَه تقريبًا في المجتمع الأكاديميِّ الحديث، يعمل الطبيبُ روبرت كولز عكسَ التيَّار ويطرح الأسئلة والأجوبة معًا- لسخرية القدر، من خلال أصوات الأولاد. من الواضح أنَّ الجوعَ لا يزال موجودًا: ظلَّت حصصُه الدراسيَّة لسنواتٍ هي الموادَّ الاختياريَّةَ الأكثر شعبيَّةً في جامعة هارڤرد حيثُ يزدحم ستُّ مئة طالبٍ في غرفٍ دراسيَّة معدَّةٍ ليقفَ فيها الطلّاب.

من خلال هذا كلِّه، شقَّ كولز طريقَه الخاصَّ بتحطيم الرموز وبالتَّناقض. بوصفه طبيبًا نفسيًّا، فضحَ أوهام فرويد، وأكرمَ من حُسبوا "غير متَّزنين" مثل: الشهداء والقدِّيس فرنسيس، وسيمون ويل، والأنبياء العبرانيِّين. وبِوَصفه أكاديميًّا، احتقرَ الكلامَ الفصيحَ وكسبَ المديح لسجلّاته بالعامِّيَّة للمحادثات مع الأولاد. ومع كونه أستاذًا جامعيًّا في هارڤرد، كان يركبُ الحافلات ويجلسُ القرفصاء على الأرض مع الأولاد الذين كان يعلِّمهم في مدارس الأحياء الفقيرة. وبوصفه طبيبًا شديدَ الحسَّاسيَّة ليُمارس الطِّبّ، انتهى به الأمر إلى تدريس موادَّ في الأدب. وبصفته رمزًا ثقافيًّا مكرَّمًا من رئيس جمهوريَّةٍ مؤيِّدٍ لخيار الإجهاض ولزواج المثليِّين جنسيًّا، تحدَّثَ عَلَنًا ضدَّ

الإجهاض باعتباره (''إهانة للرَّبّ'') وضدَّ حركة تحرير المثليِّين جنسيًّا.

في تفسيره لجدليَّة الإيمان الخاصَّة به، يستَشهدُ كولز بعبارة پاسكال: ''الطبيعةُ تفنِّدُ المتشكِّكين، والعقل يدحَضُ المتمسِّكين بعقيدتهم''. إنَّه ملخَّصٌ جيِّدٌ لرَجلِ قلم التَّلوين نفسه.

باعترافه الشخصيّ، ليس لحياة روبرت كولز معنًى إلَّا حين يُنظَر إليها بتَسَلسُل. جاء والدُه من إنكلترا، من أصلٍ نصف يهوديٍّ ونصف كاثوليكيّ. وبصفته فيزيائيًّا درسَ في معهد ماساشوسِتس للتكنولوجيا، كان ينظرُ إلى جميع المسائل الدينيَّة بريبةٍ وشَكّ. إذا اقتبسَ روبرت الصغير من شكسپير حول السماء، كان والدُه يقول: ''أيُّ سماء؟ أرِني!'' وإذا ما ذكرَ أحَدُهم الرُّوح القدس، كان يسأل للمرَّة المليون عمَّن يكون الروح القدس. في المقابل، كان لدى والدة روبرت الأسقفيَّة من أيوا مَيلٌ دينيٌّ بل حتَّى صوفيّ. كانت تأخُذُ ولدَيها إلى الكنيسة بينما كان والدُهما ينتظرُ خارجًا في السيَّارة وهو يقرأ الصَّحيفة. كانت تعرفُ الكتابَ المقدَّس وكتاب الصلاة العامَّة وتقتبسُ منهما بمهارةٍ لولدَيها.

لَمَّا صارَ في سنِّ المراهَقة، شعرَ روبرت كولز بأنَّه مشدودٌ في اتِّجاهين متعاكسَين: واقعيَّة والده العنيد من جهة، وتقوى والدته الدافئة من جهةٍ أُخرى. لم يعرفْ قطُّ ما كان عليه أن يؤمن به بشأن الله. لكنَّ والداه جَمَعهما حبُّهما للأدب. كانا يقرأان من جورج إيليوت بصوتٍ مسموع لروبرت وأخيه، وقد غرسا في نفسيهما حبَّ تولستوي وديكنز. وعندما كان الأمرُ يتعلَّقُ بالقضايا الأخلاقيَّة، تعلَّم روبرت التفكير بموجب القصص بدلًا من المفاهيم المجرَّدة. وعلى الرُّغم من اختلافاتِهما الدينيَّة، كان والداه يعبِّران عن المحبَّة والتعاطف بطرقٍ ملموسة. كانت والدته تكرِّس الوقتَ للمستَوصفات التي يزورُها الفقراء، ولمطابخ الحساء، وللأولاد الذين يُعانون داءَ السرطان. أمَّا والدُه فكان يزورُ الفقراءَ والمسنِّين في المستَشفَيات ودُور رعاية المسنِّين.

كان أداءُ روبرت جيِّدًا في المدرسة إلى درجةٍ سمحَتْ له بالالتحاق بجامعة

هارڤرد حيثُ تخصَّص في الأدب الإنكليزيّ. وهناك سقطَ تحت التأثير السحريّ لوليم كارلوس وليَمز الذي جمع ما بين مهنتَين: الطبُّ والشعر. راق هذا الجمعَ كولز الشابُّ باعتباره طريقةً لمساعدة الناس من خلال الطِّبّ، ومن ثَمَّ عكسَ هذه الخبرات في الكتابة. بتأثيرٍ من وليَمز بالدرجة الأولى، قرَّر الالتحاق بكلِّيَّة الطِّبّ.

تخبَّط كولز في عمله في أثناء فترة التدريب الطبِّيّ وصار أكثرَ قلقًا وحَيرةً. كان يُمضي وقتًا أكثرَ من اللّازم يتحدَّثُ مع المرضى، ووقتًا قليلًا جدًّا في عمل المختبرات. كان ينفرُ من تشريح الجثث، ولم يستَطعْ غَرْزَ الإبر في الأطفال دون أن تتوتَّرَ أعصابُه لصراخهم. في إحدى المرَّات، عندما طُلِبَ منه أن يسحَبَ عينةَ دم من وريد رقبةِ طفل، تراجَعَ إلى الخلف. كانت التمارينُ الطبِّيَّة القاسية تدفعُه إلى الإنهاك الكامل، وكثيرًا ما وجدَ نفسَه وهو يحدِّقُ في النجوم والأشجار. كان يقرأ قصائدَ توماس ميرتون، والتجأ إلى دَير ميرتون ترابِست (Merton Trappist) في ولاية كنتاكي لفترةٍ من التأمُّل الهادئ. أكان ينبغي أن يعودَ إلى هارڤَرد ويدرسَ الأدب؟ أكان عليه أن يتطوَّع للعمل في مستشفى ألبرت شڤايتزر (Albert Schweitzer) في أفريقيا؟ أوصى معلِّموه بالمعالجة النفسيَّة كطريقة لمساعدته على إعادة التفكير بمستقبله في مجال الطِّبّ.

ساعَدَه التحليلُ بطريقةٍ غير متوقَّعة. كان كولز يعرفُ القليلَ عن الطبِّ النفسيّ- لم يقرأ شيئًا ممَّا كتبَه فرويد- لكنَّ فكرةَ ممارسة الطِّبِّ بالتحدُّث إلى الناس جذبَتْه. قرَّرَ أن يصيرَ طبيبًا نفسيًّا. رجعَ كولز من تلك الإقامة بأسئلةٍ أكثر من الأجوبة. إنَّ ما كان يحيِّره هو أنَّ بعضَ الناس صاروا "مرضى" في حين بقيَ آخرون من خلفيَّاتٍ مماثلة حافلة بالمشكلات أصحَّاء بشكلٍ معقول. كما أنَّ غَطرسةَ مهنته أزعجَتْه أيضًا. كان لدى أساتذته الجامعيِّين الميل إلى تفسير السلوك بفَرْضِ تَسمِيَةٍ عليه، في حين كان أيُّ شخصٍ يبدو بالنِّسبة إلى كولز معقَّدًا وغامضًا على نحوٍ يصعُب إدراكه. تذكَّرَ زياراته البيتيَّة مع وليَمز، والاحترام الذي كان ذلك الطبيبُ يُبديه تُجاهَ الناس الذين عاشوا في عالم قذرٍ مكتظّ، والذي يختلفُ كلِّيًّا عن عالمه. بالنِّسبة إلى كولز، كان يبدو له وهو يستَمعُ إلى مرضاه بينما يَروون قصَصَهم، أنَّ تكريمَ حياتِهم يساوي أهمِّيَّةَ محاوَلةِ إيجاد علاجٍ لهم.

وحتَّى عندما كان يدرسُ الطبَّ النفسيّ، شعرَ بانجذابٍ متَزايدٍ نحو الرِّوائيِّين. كان پول تيليك قد أوصاه بقراءة كتب ووكر پيرسي، وهو طبيبٌ صار روائيًّا. قرأ كولز كُتُبَه بشغفٍ ووَجَدَ فيها وصفًا للبشريَّة أكثر دقَّةً ممَّا كان يجدُه في كتبه الدراسيَّة عن موضوع السلوك. وعندما توسَّعَ أكثر في قراءاته، فوجئ بأنَّ روائيًّا مثل فيودور دوستويڤسكي كان لديه تبصُّرٌ في النفس البشريَّة أكثر من أيِّ طبيبٍ نفسيٍّ سبقَ أنْ قابَلَه.

بدأ كولز يرتابُ بطرق العلاج النفسيِّ التقليديِّ الخاصَّة بالخبير الجالس وراء مكتبه يستمع إلى أحد المرضى ثُمَّ يختارُ العلاجَ الملائم. كان يريدُ الوُلوجَ في حياة مرضاه وفَهْمَ أُسَرهم الممتدَّة وبيوتهم وثقافاتهم ووضعهم الاقتصاديّ. كان يرغبُ في عبور الجسر ما بين الشخص المراقِب والشخص المُراقَب؛ ما بين الطبيب والمريض. وكما عبَّر لاحقًا، كان يرغبُ في "إحياء دواخل هؤلاء" بما في ذلك أحلامهم ومعتقداتهم وأحكامهم المُسبَّقة وفكاهاتهم الارتجاليَّة وملاحظاتهم العفويَّة. وكما قالت له دوروثي داي ذات مرَّة: "لديَّ أفكارٌ ونظريَّاتٌ عظيمةٌ في رأسي، لكنَّها غالبًا ما تسقطُ جانبًا عندما أجلسُ إلى الطاولة أتحدَّث مع شخصٍ ما، وأستمعُ إلى كلِّ ما كان يحدُثُ في حياة ذلك الشخص".

باختصار، تعلَّمَ أن يُصغيَ بفاعليَّةٍ وقوَّة. لكلِّ حياةٍ غموضٌ خاصٌّ بها وقصَّةٌ ترويها. وهو صمَّم على اكتشاف تلك القصَّة في محاولةٍ "لترجمتها" إلى أفكار وتقديمها إلى الآخرين. ابتعدَ أسلوبُه كثيرًا عن التقاليد. قال فرويد إنَّك عندما تبدأ في السؤال عن "معنى الحياة" فإنَّك تكونُ فعلًا مريضًا. ولم يكن روبرت كولز مهتمًّا بالسؤال عن أيِّ شيءٍ آخر.

في بداية ستِّينيَّات القرن الماضي ظهرَتْ لحظتان رئيسيَّتان في حياة كولز بدَتا في ذلك الوقت كأنَّهما مجرَّد "حادثتَين" قطَعَتا روتين حياته دون موعد. لكنَّهما تبرزان الآن بصفتهما حَدثَين منفصلَين غيَّرا حياته إلى الأبد.

كان كولز يخدمُ في سلاح الجوّ، يديرُ وحدةً للأمراض النفسيَّة قرب بيلوكسي في

ولاية مسيسيپي، عندما انطلق من بعد ظهر يوم أحدٍ على درَّاجته الهوائيَّة في رحلة على طول شاطئ خليج المكسيك. عندما وصلَ إلى أحد المنعطفات، سمع أصوات شجار. هزَّ رأسَه بازدراء متسائلًا عمَّن يمكن أن يكونَ عدوانيًّا في هذا اليوم الربيعيّ الجميل، وتوقَّف ليُراقب.

كانت تجري هناك أعمال شغبٍ عرقيَّة مصغَّرة. حاولَ بعض السُّود أن يسبحوا عند شاطئٍ مخصَّصٍ للبِيض فقط، فأحاط بهم جمعٌ من البيض. كان كلا الطرفَين يصرخان بعضهما على بعضٍ. رأى أحَدَ الرِّجالِ البِيض يدوسُ نظَّاراتِ امرأةٍ سَوداء ويحطِّمُ ساعتَها. صارَ الجوُّ بشعًا، وخافَ كولز من أن يبدأ العنفُ الجسديُّ في أيَّة لحظة. ولكَونه مواطنًا شماليًّا هزيلًا وخائفًا، وعلى بعد ألف ميل (نحو ١٦٠٠كم) من بيته، أخمدَ أيَّ غضبٍ أخلاقيٍّ وركبَ درَّاجته وانطلقَ بعيدًا.

في تلك الليلة وفي أثناء فترة عمله في مستشفى القاعدة، سمعَ كولز رَجُلَي شرطة يتحدَّثان بشأن الحادثة التي وقعَتْ على الشاطئ. كانا صديقَين له يتمتَّعان باللُّطف ودماثة الأخلاق، وكان يكنُّ لهما الاحترام. لكن في تلك الليلة تحدَّثا بلهجة التهديد، فقال أحَدُهما: "كانوا سيَموتون لو لم يحصُلوا على كلِّ هذا الاهتمام الإعلاميّ"، قال الآخرُ بنَبراتٍ غير واضحة: "سيُلاقون حَتفَهم إنْ حاولوا ذلك ثانيةً".

لم يقُلْ كولز أيَّ شيء، لكنَّه شعرَ كأنَّه أُرغِمَ على نحوٍ لا يُقاوَم على المشاركة في هذه الدراما التي كانت تجري في الجنوب. ما المبدأ الأخلاقيُّ الذي جعلَ هؤلاء السُّود يُخاطِرون بحياتهم، لمجرَّد أن يكونوا أوَّل النازلين من العرق الأسود في مياه المحيط على أحَدِ شواطئ المسيسيپي عديمة الأهمِّيَّة؟ وأيَّ قوَّةٍ تستَدعي كراهِيَةً كهذه في أعيُن رَجُلَين من البِيض دَمِثَي الأخلاق؟ لكنَّه وضعَ هذين السؤالَين جانبًا.

في هذه الأثناء، كانت حياةُ كولز تسيرُ على غير هدى. عند التحاقه بسلاح الجوّ كان يأملُ أن يُعيَّن في مكانٍ غريبٍ مختلفٍ يزرعُ فيه الشُّوفانَ البرِّيَّ الخاصَّ به: ربَّما سان فرانسيسكو أو هاواي أو اليابان. بدلًا من هذا، عُيِّنَ في مسيسيپي حيثُ غالبًا

ما كان على خلافٍ مع هذا النمط الحربيّ. كان يشربُ المُسكِرات بكثرة ويصارع نَوباتٍ من الاكتئاب. كان يبدو في معظم الأحيان متجهِّمًا ومنعزلًا، يحتاجُ مَن يُجري له التَّحليل بدلًا من أن يقوم هو به. ولأنَّه كان قَلِقًا، وجدَ طبيبًا نفسيًّا في نيو أورليانز وحجزَ موعدًا لديه، وكان يقود سيَّارته البورش البيضاء بسرعةٍ كبيرةٍ أسبوعيًّا من القاعدة في مسيسيبي إلى الجزء الراقي من نيو أورليانز.

لكنَّه واجَهَ ذات يوم صعوبةً في عبور المنطقة الصناعيَّة في مدينة جينتلي حيثُ تسكنُ الطبقةُ الدُّنيا. كانت شرطةُ الولاية قد ضربت طَوقًا حول الشوارع الرئيسة بسبب شغبٍ عرقيّ. قاد كولز سيَّارته إلى مَوقع الصَّخَب، وهو مدرسة ابتدائيَّة. وهناك رأى للمرَّة الأولى روبي بريدجز (Ruby Bridges)، وهي فتاةٌ سَوداءُ صغيرةٌ في السادسة في عمرها. كانت روبي الفتاةَ السَّوداءَ الأولى التي تلتَحقُ بمدرسة فرانتز (Frantz)، وكان جميعُ الطلَّاب الآخرين يُقاطِعون المدرسةَ احتِجاجًا. اصطحبها الضُّبَّاطُ الفيدراليُّون (حيثُ رفضَ رجالُ شرطة المدينة والولاية تقديم الحماية لها) وسارت في وسط حشدٍ من الأشخاص البِيض الذين كانوا يصيحون بكلماتٍ بذيئة ويوجِّهون التَّهديدات ويلوِّحون بقبضاتهم نحوها. عندما استَعلَمَ عن الأمر، عرفَ أنَّه كان عليها المرور بهذه المحنة كلَّ يوم، وأن تحضرَ إلى مدرسة فارغةٍ لتَجلسَ وَحدَها في غرفةِ الصفِّ طوال اليوم.

عندما راقَبَ كولز الفتاةَ الصغيرةَ الشجاعة، خَطرَ له أنَّها ستَكونُ موضوعًا مثاليًّا لدراسة تأثيرات الضغوط في الأطفال الصغار. تطلَّبَ الأمرُ بعضَ الوقت لكَسْب ثقة عائلتها؛ لأنَّه لم يسبِقْ لإنسانٍ أبيضَ أن دخلَ بيتَهم من قبلُ. لكنَّ روبي وافقَتْ على التعاون معه، وعندما كان الحديثُ ينفدُ بينهما، كان كولز يطلبُ منها أن ترسُمَ صُوَرًا.

حدثَ شيءٌ مُدهشٌ خلال الأشهر التالية. تدخَّلَ الدكتور روبرت كولز في الوضع بوصفه خبيرًا، وطبيبَ أطفالٍ وطبيبًا نفسيًّا، مَدعومًا بكلِّ ما لجامعات هارفرد وكولومبيا وشيكاغو من شهرةٍ ومَهابة. لقد أتى ليُعالج طفلةً سوداءَ غير متعلِّمة ومحرومة في أحياء نيو أورليانز الفقيرة المكتَظَّة. لكنْ بمرور الوقت، شعرَ بحدوثِ

انعكاسٍ للأدوار. صارَ هو التلميذَ بينما كانت روبي تعلِّمه دُروسًا متقدِّمةً في الأخلاق.

كان كولز يناقشُ مع زوجته جين ليلًا كيف يمكنُ أن يكونَ ردُّ فعله في أحوالٍ مماثلة. ماذا سيَحدثُ إذا اصطفَّت مجموعةٌ من الرجال والنساء الغاضبين الذين يستَخدمون العصيَّ ببراعة أمام نادي هارڤرد ليَسدُّوا مدخلَه؟ ماذا سيفعل؟ سيتَّصلُ بالشرطة بالتَّأكيد. لكن في نيو أورليانز، استُدعيَ الضُّبَّاط الفيدراليُّون لأنَّ رجال الشُّرطة لم يكونوا إلى جانب روبي- تذكَّرَ حديث رجُلَي الشرطة الذي سمعه صِدفةً في القاعدة. قد يتَّصلُ بمحاميه ويحصلُ على أمرٍ من المحكمة. لم تكن عائلة روبي تعرفُ أيَّ محامٍ، وعلى أيَّة حال لا تستطيعُ دَفْعَ أتعابه. على الأقلِّ قد يستَطيعُ الوقوف في مواجهة ذلك الحشد من الناس عبر شرح أسباب سلوكهم بلغةِ علم النفس المرَضيّ، وربَّما حتَّى كتابةَ مَقالةٍ يتَعالى فيها عليهم. لم تعرفْ روبي كلماتٍ كهذه؛ حيثُ إنَّها كانت في صَدَدِ تعلُّمُ القراءة والكتابة.

إذًا، ماذا فعلَتْ روبي بريدجز في أحوالٍ مروِّعةٍ كهذه؟ لقد صلَّتْ- صلَّتْ لأجل نفسها لكي تكون قويَّةً وغير خائفة، ولأجل أعدائها لكي يغفرَ الله لهم. قالت لكولز كما لو أنَّ ذلك يضَعُ حدًّا للمسألة: "لقد صلَّى يسوع هذه الصلاة على الصليب: "اغفرْ لهم لأنَّهم لا يعرفون ماذا يفعلون"".

كانت ثلاثُ فتياتٍ أُخرَياتٍ من العرق الأسوَد في سنِّ السادسة يذهَبْنَ إلى مدرسةٍ أُخرى ويواجِهْنَ معارضةً مماثلة. بدأ كولز بالاجتماع بهنَّ أيضًا مرَّتَين في الأسبوع. تعرَّفَ بشكلٍ خاصٍّ إلى تيسي وجدَّتِها لأمِّها التي كانت تُلقي التَّحيَّة على الضُّبَّاط الفيدراليِّين في الساعة الثامنة من كلِّ صباح بهذه الكلمات، "الربُّ القدير، عطيَّة أُخرى!" ثُمَّ كانت تسلِّمُ الصغيرةَ تيسي وهي حاملةٌ صندوقَ غدائها إلى المدرسة بين الرِّجال ذوي البدلات السوداء ومسدَّساتهم معلَّقة فوق أحزمتهم. بعد شهرَين من مواجهة الحشد المُسيء، اقترحَتْ تيسي أنَّه ربَّما يجب عليها أن تبقى في البيت. ألقَتْ جدَّتُها محاضرةً عليها: "أتعرفين يا فتاتي، عليكِ أن تساعدي الربَّ الصالح على

عالمه! إنَّه يَضَعُنا هنا- وهو يدعونا لمساعدته... أنتِ تنتَمين إلى مدرسةِ ماكدونو تلك، وسيأتي يومٌ يعرفُ فيه الجميعُ ذلك، حتَّى هؤلاء الناس المساكين- يا ربّ، أنا أُصلّي لأجلهم!- هؤلاء الناس المساكين جدًّا في الخارج الذين يصيحون بأعلى صوتهم. أنتِ إحدى بنات الربّ؛ وقد وضعَ الربُّ يدَه عليكِ. ودَعاكِ، دَعاكِ للخِدمة باسمه".

على *لوائح كولز الأكاديميَّة للتطوُّر الأخلاقيّ، تظهَرُ محبَّة الأعداء السامية* في أعلاه، وهو مستوًى حقَّقه أشخاصٌ مثل يسوع وغاندي وقلَّةٌ من القدِّيسين الرائعين. إنَّه لم يتوقَّعْ أن تُطبَّقَ فلسفةٌ كهذه يوميًّا من قِبَل فتياتٍ في السادسة من عمرهنّ، ومن قِبَل عائلاتهنّ "المحرومة ثقافيًّا".

قال الروائيُّ ووكر بيرسي عن إحدى شخصيَّاته في كتاب "**المجيء الثاني**": "كان متفوِّقًا في دراسته، وراسبًا في حياته". ابتدأ روبرت كولز يتساءلُ عمَّا إذا كان هذا الوصفُ ينطبقُ عليه أيضًا.

صوتٌ من أحَدِ كُتُبِ كولز:

"ذهَبْنا السنةَ الماضيةَ إلى كنيسةٍ صغيرةٍ في نيوجرسي... كان جميعُ أولادنا معنا، بِمَن فيهم الطفلة الصغيرة. كان القسُّ جاكسون هناك، لا أستَطيعُ أن أنسى اسمه، وطلب منّا أن نلزمَ الهدوء، وقال لنا كم ينبغي أن نكونَ سعداء لوُجودنا في هذا البلد؛ لأنَّه بلدٌ مسيحيٌّ وليس "مُلحدًا". تابعَ الكلامَ بشأن الدُّول الأخرى، لكنّي نسيتُ أيُّها كانت "مُلحدة". ثُمَّ فقدَ زَوجي أعصابَه، حدَثَ شيءٌ ما لأعصابه على ما أعتقد. نهضَ وبدأ يصرخ، نعم يا سيِّدي. اتَّجَهَ نحو القس جاكسون وطلب منه أن يخرسَ وألَّا يتحدَّثَ ثانيةً- ليس إلينا، نحن المهاجرين. طلبَ منه أن يعودَ إلى كنيسته حيثما هي وأن يتركَنا وحدَنا، وألَّا يقفَ هناك وكأنَّه

على درجةٍ من اللطف بأن يُسديَ لنا بمعروف. ثُمَّ فعلَ أسوأ شيءٍ يمكن أن يفعله: أخذَ الطفلةَ آني ورفعَها أمام وجه القسّ، وصرخَ في وجهه بطريقةٍ لم أعهَدْها من قبل. لا أذكر كلماته بحذافيرها، لكنَّه قال له، ها هي طفلتُنا آني المريضة، وهي لم تذهَبْ إلى عيادة طبيبٍ قطّ، وهو يعرفُ هذا وأنا أعرفُه لأنَّها لا تستطيعُ إبقاء الطعام في معدتها وتُصيبها نَوباتُ تشنُّج، أخشى أنَّها ستموت، لكن شكرًا لله لأنَّها ستَنجو من كلِّ هذا، وليس لدينا المال، لا لأني أو للآخرين أو لأنفسنا.

ثُمَّ رفعَ آني بحيث أصبحت أعلى من القسِّ وقال، لماذا لا يذهَبُ ويُصلِّي لأجل آني ولكي يُعاقَب المزارعون بسبب ما يفعلونه لنا جميعًا، لجميع المهاجرين. لم يُجبْه القسّ، لأنَّه، على ما أعتقد، كان خائفًا. ثُمَّ بدأ زَوجي يصرخُ ثانيةً متحدِّثًا بشأن الله وإهماله لنا في حين كان يرعى الآخرين في كلِّ مكانٍ رعايةً جيِّدة ... ثُمَّ رفعَ آني إلى أعلى مكانٍ يستطيعُ رفعَها إليه، تمامًا قربَ الصليب وقال لله إنَّه من الأفضل له أن يوقِفَ القُسُسَ عن التحدُّث نيابةً عنه، وإنَّ عليه أن يأتي ليَرانا بنفسه وألَّا يسمَحَ "للوُعَّاظ"- استَمرَّ في دعوتهم "وُعَّاظًا"- بأن يتحدَّثوا باسمه".

(المهاجرون والمزارعون المستأجِرون ومتسلِّقو الجبال)
(*Migrants, Sharecroppers, Mountaineers*)

بشهاداتٍ من ثماني جامعات تُشكِّل ما يُعرَف "آيڤي ليغ" (Ivy League)[٤]، ورخصة

---

٤) هو تجمُّعٌ لثماني مؤسَّساتٍ أكاديميَّةٍ مَرموقةٍ في الشمال الشرقيِّ للولايات المتَّحدة منها جامِعَتا هارڤرد (Harvard) وييل (Yale). يتضمَّن هذا المصطلحُ أيضًا التميُّزَ الأكاديميَّ، والشروطَ الصارمةَ في اختيار الطلَّاب، كما يعكسُ كَونَ خرِّيجيها من النُّخَبِ الاجتماعيَّة (الناشر).

لممارسة الطبِّ محفوظةٍ في بيته في ماساشوسِتس، باشرَ روبرت كولز أسلوبَه الفريدَ في العمل الذي لم يتغيَّر منذ أربعين عامًا. إنَّ الاتِّصالات القليلةَ مع أشخاصٍ مثل روبي وتيسي قد ألهمته. بدأ يزورُ الأحياءَ وبيوتَ المقطورات والحقول الزراعيَّة في الجنوب الريفيّ. تعرَّف هو وزوجته جين المدرِّسة إلى الأولاد، وزارا صفوفَهم وقالا للأهل وللأولاد إنَّهما يريدان أن يتعرَّفا أسلوبَ حياتِهم ويتَعلَّما منه.

كانت المقابلاتُ الأولى مُحرِجةً وغير مريحة لأنَّ الأُسَرَ كانت تنظرُ إلى الغرباء بعَين الريبة. خلال الزيارات القليلة الأولى، لم يقدِّمْ إلى روبرت أو جين كولز كوبُ ماء. شرحَ أحَدُ المعارف السُّود الأمر قائلًا: "لم يأتِ إلى هنا أيُّ رَجلٍ أبيضَ إلَّا ليأخُذَ معه شيئًا". في البداية كان كولز يستمعُ فقط؛ بعد فترةٍ بدأ يُسجِّل بعضَ الملاحظات؛ وعندما اعتقدَ في النهاية أنَّه كَسبَ ثقتَهم، أخرجَ آلةَ تسجيل. بالتَّدريج، بدأت العائلة بأكملها، بما في ذلك زوجة المزارع المستأجِر التي نُقِلَ كلامُها للتوّ، تتحدَّث بحرِّيَّة.

لم يستَطِعْ كولز دائمًا، ولا هو حاوَلَ، مُراعاة التَّمييز بين المراقب والمشارك. بينما كان يدرسُ أوضاعَ عشرة مراهقين من العرق الأسوَد بهدف دَمج السود والبيض في مدارس المدينة العامَّة في أتلانتا، سمع عن لجنة التنسيق الطلَّابيَّة السِّلميَّة التي كان يرأسُها جيمس فورمان (James Foreman) وستوكلي كارمايكل (Stokely Carmichael). عرضَ عليهما خدماتِه بصفته طبيبَ صحَّةٍ وطبيبًا نفسانيًا، وطلبَ إذنًا لإجراء مقابلة مع العاملين مع الطلَّاب. رفَضوا طلبَه رَفْضًا قاطعًا. بنَفْسٍ منسحقة، سألَ عمَّا إذا كان هناك أيُّ شيءٍ يمكنُ أن يفعَلَه لمساعدة القضيَّة. أجابَه فورمان، "نعم، تستطيعُ أن تُساعِدَنا بأن تجعلَ هذا المكان نظيفًا".

في الأسابيع والأشهر التالية، ولمدَّة سنة، كان يخدمُ بصفته بوَّابًا مُقيمًا، يمسَحُ الأرضَ ويُزيلَ الغبار وينظِّفُ بالمكنسة الكهربائيَّة ويغسلُ الأطباق ويُزيل أوساخ الحمَّامات. أدركَ في أثناء قيامه بهذا العمل الوضيع أنَّ نصفَ الأهالي السُّود الذين عرفهم كانوا يقومون بالعمل نفسه بصفته مهنةً بدوامٍ كامل. خلال هذه العمليَّة،

كسبَ احترامَ الطلّاب وثقتهم على مَضَض، وسمعَ قِصَصهم صدفةً، والتَحق بالحركة في أدنى مستَوياتِها. حتّى إنَّه أمضى وقتًا في السجن عندما أُلقِيَت القنابل على بيت الحرِّيَّة التابع للَجنة التَّنسيق الطلّابيَّة السلميَّة في مسيسيپي، وبحسب منطق "كافكا"٥ في ذلك الوقت، اعتُقِلَ الساكنون فيه بسبب إخلالهم بالسِّلم. وفي عام ١٩٦٤م وفي اللحظة الأخيرة، غيَّر خُطَطه التي كانت تقضي بمرافقة ثلاثة عاملين في مجال الحقوق المدنيَّة كانوا متَّجهين لتسجيل الناخبين في مسيسيپي، وهم الثلاثة الذين وُجِدوا في ما بعد مقتولين ومدفونين في سدٍّ ترابيّ.

من وسط هذه الخبرات والتجارب، بدأ تدفُّقُ الكلمات كالشلّال. نقَّح كولز وزوجتُه ما دوَّناه من شريط التَّسجيل، وأعطيا المادَّة ترتيبًا منطقيًّا وتوصَّلا إلى نتائج تتعلَّقُ بما تعلَّماه. وهكذا صارَ هناك كتابٌ عن الجنوبيِّين بعنوان "**أولادُ الأزمة: دراسةٌ عن الشجاعة والخوف**" *(Children of Crisis: A Study of Courage and Fear)* المجلَّد الأوَّل في سلسلةٍ شملت المهاجرين والمزارعين المستأجِرين ومتسلِّقي الجبال (المجلَّد الثاني)؛ وأهالي جبال الأبالاش والفقراء في المدن الشماليَّة (المجلَّد الثالث)؛ والإسكيمو والمكسيكيِّين الفقراء والهنود الحُمر (المجلَّد الرابع)؛ وأطفال الأغنياء (المجلَّد الخامس). باعتماده على محادثاتٍ حقيقيَّة مع الأطفال، كان كولز يحاولُ أن يقومَ بعملٍ فريدٍ من نَوعه، من ناحية، بصفته مدوِّنًا مثل ستَدس تَركل (Studs Terkel)، ومن ناحيةٍ أُخرى بصفته مترجمًا، مثل برونو بيتيلهايم (Bruno Bettelheim). أخيرًا وجدَ طريقَه ليجمَعَ حبَّه للأدب مع تدريبه العلميّ.

وفَّر عملُ كولز مع الأشخاص العاديِّين تعليمًا ثانيًا له. بدأ يتعرَّفُ إلى الناس بصفتهم أفرادًا لا أعضاء في مجموعةٍ اجتماعيَّة. وجدَ في الكثير من "المحرومين" مخزونًا من القوَّة الداخليَّة لم يلقاه في ضواحي الطبقة الوُسطى أو في مدارس أبناء

٥) "منطق كافكا" (Kafkaesque Logic) نسبة إلى المؤلِّف الألمانيِّ فرانتس كافكا (Franz Kafka)، وهو مصطلحٌ أُدرِجَ في الإنكليزيَّة، ويتضمَّنُ معنى القسوة والتعقيد في التعامُل، إضافةً إلى الإزعاج والتَّهديد والوعيد (الناشر).

الذَّوات. مثلًا، عاملٌ مُهاجرٌ أمِّيٌّ يُنقَلُ بالشَّاحنة من مزرعةٍ إلى أُخرى في كلِّ أنحاء الجنوب، ويُحتَجَز في مخازن الحبوب أو في أقفاص الدجاج في الليل، ويتلقَّى دولارًا في الساعة للقيام بعملٍ يقصمُ الظَّهر- من أين يحصلُ شخصٌ كهذا على قدرة الاحتمال؟ بحسب النظريَّة السلوكيَّة التي درسَها كولز، كان ينبغي أن يتحطَّمَ هؤلاء الأشخاص الفقراء بفعل أوضاعهم أو أن يستمرُّوا في الشُّعور بالمرارة بشكلٍ دائم. بدلًا من هذا، مثلُهم مثل مرضى الجذام الذين عالجهم الدكتور براند في الهند، أظهرَ الأميركيُّون الفقراء أيضًا لحظاتٍ من التَّعالي والنعمة تحدَّتِ التَّفسير.

إنَّ كُتُب كولز حافلةٌ باللَّقطات اللفظيَّة لأشخاصٍ كانوا يرتَفعون فوق بؤس حياتهم، تدعمُهم النِّعمة وتبثُّ فيهم الشجاعة. ولأنَّهم تحدَّثوا إليه في أحيانٍ كثيرة بشأن الله، بدأ كولز يواظبُ على حضور الكنيسة مع الفقراء. في البداية، وجدَ حرِّيَّةَ العبادة والتعبيرَ القويَّ عن المشاعر فيها أمرًا مخيفًا لأنَّه اعتادَ أنَّ الكنيسة هي خبرةٌ مَهيبةٌ وفكريَّة، إلى حدٍّ ما، تستمرُّ بالضَّبط ساعةً واحدة. كان يجلسُ في أثناء خدمة الصلاة يستمعُ إلى الترنيم ويراقبُ القسَّ والرعيَّةَ بعينَين باردتَين دون إظهارٍ للعَواطف، متيقِّظًا للحصول على علاماتٍ دالَّةٍ على القوى النفسيَّة الاجتماعيَّة الفاعلة في دين الفقراء.

كان يرى مرَّةً تلوَ الأُخرى المهاجرين والفقراء السُّود، ورأى أيضًا أفرادًا من الطبقة العاملة البيضاء، وهم يتغيَّرون بعُمقٍ بسبب ما كان يحدُثُ داخل كنائسهم. كان نَوعٌ من القوَّة العظيمة يُطلَقُ في هذه الخدمات- كما اضطُرَّ إلى الاعتراف بنفسه- نَوعٌ لم يكن من السَّهل تفسيرُه وفقَ المصطلحات الغريبة التي تعلَّمَها في كلِّيَّة الطِّبّ. كان المصابون بالتَّعب يخرجون وقد تجدَّدتْ قواهم، وبدا الألم المرهِق يَقِلّ، وذابَتِ الكَراهِيَة بعضَ الشيء. لم تكن لديه أيَّةُ فئاتٍ من دراسته تفسِّر ما رآه:

> لكنِّي سأحاول أن أَلمِّحَ إلى ذلك- ربَّما هذه هي الطريقة للتَّعبير عن الأمر- إلى الحياة في الروح القدس، كما حدثَ أنْ رأى شخصٌ

> مثلي وسمعَ وشعر بأنَّ الروحَ القدس صارَ ناشطًا، صارَ حدثًا. إنَّه حدثٌ: شيءٌ ما حدث، شيءٌ ما حصل؛ يشعرُ المتعبِّدُ بأنَّ شيئًا سيطرَ عليه ولا يشعرُ بأنَّه شخصٌ يتحدَّث بشأن الروح القدس فقط أو يستخدم هذه الكلمة فقط، بل هو بالأحرى شخصٌ في طريقه أخيرًا إلى الوصول، أخيرًا صمَّم أن **يفعلَ** شيئًا ما، بل أقولُ **يذهب** إلى مكانٍ ما. في كنائس المناطق الريفيَّة يتأثَّر المرء ويُنقَل؛ يُرفَع ويُستَدعى؛ يَستخدِم الأذرع والأيدي والأرجل؛ ينحني ويقفُ منتصبًا؛ يتلوَّى ويدور، وأخيرًا، نعم أخيرًا، يصلُ إلى هناك.
>
> "المهاجرون والمزارعون المستأجِرون ومتسلِّقو الجبال"

لا يملك الفقراء أجوبةً على ظلم الحياة. هل حكمَتْ عليهم مجرَّد حادثةِ مَولدهم بدَورةٍ من المعاناة والفقر؟ لم يكن لديهم سوى قليلٍ من الوقت، أو وقت فراغ قليل للتَّفكير في أسئلةٍ كهذه. لكن عندما كانوا يُسألون عن مصدر القوَّة في حياتهم، كانوا يُشيرون إلى يسوع. كان الدِّين بالنسبة إليهم ليس سَنَدًا بل مصدرُ إلهام. وجدوا في يسوع وصورة الصليب بصيصَ أملٍ أقنعَهم بأنَّ الله يعرفُ مُعاناتَهم. كما كانت فاني لو هامر تُرنِّمُ في حقول القطن في مسيسيبي، ولاحقًا في السجن، "يا ربّ، أنت تعلمُ تمامًا ما أشعر به".

عبَّرت إحدى النساء عن حالتها على هذا النحو، بعبارات كيركيغارد تقريبًا:

> ليست إرادتي هي المهمَّة، لكن إرادته. إذا كان الله يريدُني أن أُعاني هكذا، أعتقدُ أنَّ لديه أسبابَه الخاصَّة. أنت هنا لإثبات ثقتك به. لو عرضَ عليَّ شخصٌ ما مليونَ دولار وقال لي إنَّه يمكنُ أن يكونَ لي كلُّ ما أريدُ كي آكلَ أنا وأولادي، لكنْ عليَّ أن أتوقَّف عن التفكير في الله، وأبدأ أفكِّر في نفسي فقط، عندئذٍ سأعرف أنِّي سأواجه المتاعب. سأبدأ أقلقُ على نفسي. هذا هو

"رجائي" أن أتذكَّرَ يسوع. هو حذَّرنا من التفكير في أنفسنا وليس فيه. طلب منَّا الكثير.

(المهاجرون والمزارعون المستأجِرون ومتسلِّقو الجبال)

بدأ كولز يفكِّر في أحوال الحياة الغريبة التي اختارَها الله في مجيئه إلى الأرض: كان نجَّارًا يخالطُ الفلَّاحين والصيَّادين، وليس طبيبًا أو محاميًا أو أستاذًا جامعيًّا، كما كانت والدتُه تذكِّره. إنَّ الله، بكلمات والد آني المزارع المستأجِر، "أتى ونظر بنفسه".

قال أحَدُ المهاجرين في إحدى المقابلات: "لدينا فكرُ يسوع في رؤوسنا". في ذلك الوقت، تساءلَ كولز، الذي كان يفكِّر بصفته طبيبًا، عمَّا إذا كان الرجلُ ثملًا أو معتوهًا أو مُصابًا بالهذيان أو أنَّه بطيء التفكير. لم يستطع كولز إلَّا لاحقًا، عندما أمضى وقتًا يفكِّر من خلال فكر يسوع المسيح كما كان يُطبِّق عمليًّا في الحياة- في المنفى وفي التَّرحال، في الألم والاحتقار والعزلة والوحدة، "فِكر" إخلاء النفس- أن يرى عمق ما قاله الرجل. قالت إحدى الفتياتُ الصغيراتُ عن يسوع: "أتعرفُ أنَّه لم يكن مُضطرًّا إلى المجيء إلى هنا؟".

في عمله مع الفقراء، حاولَ كولز أن يتجنَّبَ فخَّ تفسير الفقر بشكلٍ رومانسيٍّ والنظر إلى الدِّين على أنَّه تَعزِيةٌ ليُبقي الفقراء هادئين. اتَّصلَ بمجموعاتِ الضغط في مجلس الشيوخ وكتبَ في الدوريَّات المتحرِّرة دَعمًا للبَرامج الاجتماعيَّة والحرب على الفقر. ومع ذلك لم يستطع أن يُنكِرَ حقيقةَ حياة الإيمان وسط الناس الذين عاشَ معهم. لكنْ عندما كتبَ عن تأثير الدِّين في الفقراء، حيَّاه النُّقَّاد بصمتٍ مؤدَّب. أَثْنوا على بحوثه الميدانيَّة وتصويره الدقيق لخبرة الفَقر. وكانوا غالبًا ما ينقلون عنه. لكنَّهم تجاهَلوا باستمرار الجانب الذي كان يبدو لكولز أنَّه الأهمُّ بالنِّسبة إلى الفقراء أنفسهم، ألا وهو الدِّين.

بدأ كولز يؤمن بأنَّ ما تعلَّمه في المدرسة عن الدِّين- بأنَّه "أفيون الشعوب" يجعلُ الإحساسَ بالسَّخَط الأخلاقيِّ متبلِّدًا- كان خرافةً من صُنْع علماء اجتماعيِّين مُلحِدين لم يكونوا إلَّا على اتِّصالٍ قليلٍ بالفقراء. في وسط الفقراء الذين زارهم، سواء

في جنوب أفريقيا أو البرازيل أو إيرلندا الشماليَّة أو الولايات المتَّحدة، كان الإيمانُ الدينيُّ عادةً يشحذُ الإحساسَ بالسَّخَط والغضب الشديد بدلًا من أن يبلِّدَه. قرأ ثانيةً إعلانات الأنبياء العبرانيِّين وإعلانات يسوع. ثُمَّ رأى شخصيًّا عملَ تلك الرسالة بين أفراد المجموعات الدينيَّة الروحيَّة في أميركا اللَّاتينيَّة، والسُّود في جنوب أفريقيا، والقساوسة المتَّقدين حماسةً الذين قادوا حركة الحقوق المدنيَّة في جنوب أفريقيا.

قال له أحَدُ المتَظاهِرين من برمنغهام في ولاية ألاباما في عام ١٩٦٥م: "لا أدري لماذا قلتُ لا للفَصْل العنصريّ. أنا مجرَّدُ شخصٍ أبيضَ من الجنوب، ولم أنشأ على حبِّ الدَّمْج. لكنِّي نشأتُ على محبَّة يسوع المسيح، وعندما رأيتُ رجال الشَّرطة يستخدمون الكلابَ لمهاجمة الناس، سألتُ نفسي ماذا كان يسوع ليَفعل- وهذا كلُّ ما أعرفه عن سبب مجيئي إلى هنا على خطِّ النار".

على مرِّ السنين، عندما قرأتُ كتابات روبرت كولز واستوعبتُها، أثَّرت فيَّ تأثيرًا خاصًّا. يسمحُ كولز للَّذين يُجري مقابلاتٍ معهم بأن يتكلَّموا بشؤون حياتهم، الأمر الذي يؤدِّي إلى شكوى بعض القرَّاء من أنَّ تَراكُمَ الأصوات يمكن أن يكونَ له تأثيرُ المخدِّر. لكنْ بالنِّسبة إليَّ، كانت تلك الأصوات ترافقني وتقودني في زيارة العودة إلى ماضيَّ، لكن هذه المرَّة مع الغشاوة وقد زالت عن عينيَّ.

نشأتُ في بعض الأمكنة ذاتها التي كان كولز يعملُ فيها. بينما كان يقدِّم المشورة إلى المراهقين السُّود العشرة الذين جرى دمجُهم في مدارس أتلانتا العامَّة، كنتُ أنا ملتحقًا بمدرسةٍ ثانويَّة في مقاطعة دي كالب المجاورة في منطقة تكثُرُ فيها جماعة "كلان" حتَّى إنَّه لم يتجرَّأ أيُّ شخصٍ أسود على كَسْرِ حاجز اللَّون.

كنتُ أسمعُ في الكنيسة الاتِّهام يوجَّه إلى جيمس فورمان وستوكلي كارمايكل ومتطوِّعي لجنة التنسيق الطلَّابيَّة السِّلميَّة على أنَّهم محرِّضون خارجيُّون وأعوان الشيوعيَّة الذين أُرسِلوا لإشعال الثَّورة. بعد سنوات، ومن خلال عينَيْ كولز، رأيتُهم

كما كانوا في الواقع: شبابًا مثاليِّين، غالبًا ما كان إيمانُهم يحفزُهم. هم من أدرج كلمة "سلميّ" في اسم منظَّمتهم كما في رسالتهم. تدرَّبوا كما يتدرَّبُ الجنود، لكنْ بأساليب المواجَهة السلميَّة التي طبَّقها غاندي والدكتور كِنغ. وأظهر أفرادُ "ركَّاب الحرِّيَّة" (Freedom Riders)، البعض منهم في سنِّ المراهَقة، شجاعةً لا تُصدَّق عندما ركبوا إحدى الحافلات التابعة لخطوط نَقْل غرايهاوند (Greyhound) وهم مصمِّمون على دَمْج غُرَفِ الانتظار في ألاباما ومسيسيبي. في كلِّ مَوقفٍ محدَّدٍ سَلَفًا، كان يواجِهُهم حشدٌ من البِيض حاملين الزُّجاجات والطُّوب والأنابيب الحديديَّة. في بعض الأحيان، كانت الحافلة تتابعُ سَيرها مُسرعةً مرورًا بالحشد إلى الموقف التالي. وفي بعض الأحيان، كانت تقفُ فينزل المتطوِّعون ليُواجِهوا العنف وهم غير مسلَّحين. ثُمَّ كانوا يركبون الحافلة ثانيةً والضِّمادات تغطِّي رؤوسَهم الدَّامية وأضلعُهم المحطَّمة ويُتابعون الرِّحلة- إلى أن تتحطَّم الحافلةُ بفعلِ تعرُّضها لقنبلةٍ حارقةٍ على جانب الطريق السريع.

قابلتُ ليس فقط العاملين في مجال الحقوق المدنيَّة في كتب كولز، بل أيضًا أفرادَ الطبقة العاملة البيضاء المتعصِّبين والمتحاملين، كالأشخاص الذي نشأتُ بينهم. حاولتُ أن أهربَ منهم وأترفَّع وأنأى عنهم وأُخرجَهم من تفكيري؛ ونجحتُ إلى حدٍّ ما في تحصيل الشهادات العُليا والانتقال إلى شيكاغو. لدى استماعي أصوات كولز، كان أشخاصٌ من أيَّام طفولتي يَظهَرون أمام عينَيَّ، لا سيَّما الجيران من حدائق البيوت المقطورة التي كنتُ أقيمُ فيها. صديقي نيل (Neal) الذي التجأ إلى بيتنا يطلبُ ملاذًا عندما لاحَقَ والدُه الثَّمِلُ أمَّه بزُجاجةِ جُعَّة محطِّمًا نوافذَ سيَّارةٍ مُقفَلة بينما هي تضغطُ على بوق السيَّارة وتصرخُ طالبةً النَّجدة. وجيبسي جو (Gypsy Joe) المصارعُ المحترفُ ذو المظهر الدُّهنيِّ والشعر الشبيه بذَيل الفرس، الذي كان يملكُ قطعةَ أرضٍ جميلةً للبيوت المقطورة بجانب الطريق السريع، والذي كان يتظاهرُ مخادِعًا بأنَّه خسرَ بالضَّربة القاضية لكنَّه لا يزال يشارك كلَّ أسبوع في مبارياتٍ خطيرة في وسط مدينة أتلانتا. رفقائي ذوو الاثنتي عشرة سنة الذين كنتُ ألعبُ معهم والذين كانوا يدخِّنون السجائر في الغابة، ويلعبون ألعابًا حربيَّة قرب مصنع معالجة مياه المجاري المجاور، والذين اقتحموا

مقطورةً حيث تُوفِّيَ رجلٌ بسبب تعاطي الكحول، وبقِيَتْ جثَّتُه هناك مدَّة أسبوع حتَّى انتشرت الرائحةُ الكريهةُ في جميع أرجاء مَوقف البيوت المقطورة.

إنَّ أشخاصًا كهؤلاء كانوا يَظهَرون في كتب روبرت كولز. أدركتُ في أثناء رحلة "إعادة الأفكار" التي قادَني فيها، أنِّي استبدلتُ بالنَّوع القديم من الأصوليَّة نوعًا جديدًا- أصوليَّةً نابعةً من الكبرياء والعَجرفة بدلًا من الجهل. كم كنتُ أُشير بلا مُبالاةٍ إلى خطايا كنائس طفولتي وإخفاقاتها! وكم أنِّي كنتُ نادرًا ما أركِّزُ على الصَّلاح الذي وجدتُه هناك! كنتُ أنظرُ نظرةً دونيَّةً إلى السُّود؛ وأنا الآن أنظرُ كذلك إلى الأشخاص العنصريِّين. كنتُ أتجنَّبُ الأغنياء؛ وأنا الآن أتجنَّبُ الفقراء. إذًا، يميلُ التاريخ في معظمه إلى المتناقضات: الفقراء مقابل الأغنياء؛ البيض مقابل السود؛ الكاثوليك مقابل البروتستانت؛ المسلمون مقابل الهندوس؛ الإسرائيليُّون مقابل العرب- والدِّين يُقيمُ حاجزًا آخر. حاولَ كولز، بطريقةٍ فريدةٍ إلى حدٍّ ما، أن يسبرَ وجودَ الكرامة في كلا الجانبَين من خلال السماح لهما بالتحدُّث وعبر تقديم الكائنات البشريَّة بصفتهم أفرادًا بكلِّ ما لديهم من تعقيدات مركَّزة.

يروي كولز قصَّةَ عِظةٍ ارتجاليَّة ألقاها مارتن لوثر كِنغ الابن في أحَد الأيَّام على "الإخوة والأخوات في الحركة" في مكتب لجنة التنسيق الطلَّابيَّة السِّلميَّة. كان المتطوِّعون يشعرون بالتَّعب من المعارَضة الصَّارمة، ولم يحقِّقوا سوى انتصاراتٍ قليلة يُظهرونَها لقاءَ جميع جهودهم في تسجيل النَّاخبين ونَقْض قوانين الدَّمج. شعرَ كِنغ بالتَّجربة التي يواجِهها الطلَّاب: الشعور بالمرارة ومواجهة الخصوم بالرُّوح العدائيَّة نفسِها التي كانوا يتلقَّونها. وكما قال لهم كِنغ:

> الخطرُ الكبيرُ بالنِّسبة إلينا هو الإغراءُ بالسَّير على خُطى الأشخاص الذين نعارضُهم. يُطلقون علينا ألقابًا بذيئة، فنُطلقُ عليهم ألقابًا بذيئة. قد لا تكون أسماؤنا "الأمريكيَّ الأحمر" أو "الأبيض الفقير"؛ قد تكون أسماءً لها مظهرٌ اجتماعيٌّ أو نفسيٌّ

خادع؛ لكنَّها مع ذلك تبقى أسماء- "جاهل" أو "مغسول الدِّماغ" أو "مغفَّل" أو "هستيريّ" أو "أبيض بائس" أو "ملتهبٌ بالكَراهِيَة". أنا أعلمُ أنَّكم جميعًا ستُقدِّمون إليَّ الكثير من الأدلَّة دعمًا لتلك الفئات. لكنِّي أحثُّكم على التفكير فيها على هذا النحو: أنَّها فئاتٌ؛ وأذكِّركم بأنَّه في حياة كثيرٍ من الناس، كثيرٍ من الناس الذين يُطلق عليهم دُعاة الفصل العنصريّ، تجري أشياءُ كثيرةٌ أُخرى: هذا الشخص أو ذاك، الواقف هنا أو هناك، قد يكون شيئًا آخر- لطيفٌ مع جيرانه وعائلته، ومُفيدٌ ومساعدٌ وذو روحٍ طيِّبة في العمل.

بحسب اعتقادي، أنتم جميعًا تعرفون ما أحاولُ قَولَه: يجبُ أن نحاول ألَّا تنتهيَ بنا الحالُ على شاكلة الذين نعارضُهم، حتَّى لو وَضَعونا جميعًا في صُوَرِهم النمطيَّة. وَمَن نحنُ؟ فلا نفعلْ بأنفسنا كما يفعلُ خصومُنا بنا، أيْ أنَّنا نحاولُ أن نضعَ أنفسَنا في فئةٍ واحدة شاملة- الأفاضل مقابل الأشرار، أو المثقَّفون مقابل الجهَّال- وهكذا يمكنُني أن أستمرَّ في الكلام- وهنا يكمن الخطر: تسيطرُ علينا عقليَّة "نحن" أو "هم"، ونبدأ بالفعل نخاطرُ بالوُقوف مع الناس الذين نعارضُهم. أنا أشعرُ بالقلق الشديد من هذا الأمر في هذه الأيَّام.

(من "الدعوة إلى الخدمة" [The Call to Service])

عندما قرأتُ كلمات كِنغ وردَّ فعل كولز، أدركتُ أنَّ كولز نفسَه قد سلَّط الضَّوءَ بالنِّسبة إليَّ على تلك التَّجربة عَينها. لقد صرتُ المراقبَ الثقافيَّ المستنيرَ ذا التفكير الصائب والمثقَّف- الموقف الخطير الذي حاربَ كولز طوال حياته ضدَّه، موقف "الفرِّيسيِّين". كنتُ أحتاجُ إلى إعادةِ اكتشاف حقيقة إنجيل يسوع بشكلٍ كامل، الذي يؤيِّد الابن

الضالَّ أكثرَ من تأييده لأخيه المسؤول والناجح. كنتُ أحتاجُ إلى تغييرٍ في القلب مثلما احتجتُ إلى تغييرٍ في الفكر. تمامًا كما سعى كِنغ إلى مسامحة هؤلاء الذين جَرَحوه، كنتُ أحتاجُ أنا لأنْ أسامحَ الكنيسة التي جرحَتْني، وإلَّا سيَبقى معي إنجيلُ الناموس لا إنجيل النعمة، والتفرقة لا المصالحة. في عمله الميدانيّ، كشفَ كولز عن غير قصدٍ عن يسوع الثَّوريِّ (الراديكاليِّ) الذي كشفَ بِدَوره عن احتياجاتي الخاصَّة المقنَّعة.

يتذكَّرُ كولز رحلةً برِّيَّةً في طريق العودة إلى بوسطن بعدما أمضى وقتًا بين العمَّال المهاجِرين في فلوريدا. لشهورٍ عديدة، كان هو النموذج المثاليَّ للرَّأفة والإحساس المرهَف، يدخلُ أكواخَ المهاجرين ويكسبُ صداقتَهم ويعاملُهم باحترام، يُقنعهم بكلماتٍ لطيفة ويقدِّم إليهم المشورةَ الطبِّيَّة. لكنْ عندما عبر حدود الولاية وتوقَّفَ لتَناوُل بعض الطعام في مقهى على جانب الطريق في جورجيا، لاحظَ أنَّه بدأ يوجِّه كلماتٍ لاذعة إلى النادلة التي استغرقت وقتًا طويلًا لتملأَ فنجانَه بالقهوة. وكأنَّه عادَ مسرعًا إلى استغلال "امتيازاته" الأولى. سيَعودُ إلى حيثُ يُقيم، إلى بيته الأصفر الكبير في كامبردج حيث تقفُ سيَّارته من طراز بي. أم. دبليو (BMW) في المرأب.

إنِّي أنتمي، مع روبرت كولز، إلى أقلِّيَّةٍ تتمتَّعُ بامتيازات. إنَّ كلَّ شخصٍ يقرأ هذه الجملة ينتمي في الحقيقة إلى هذه الأقلِّيَّة، حيث إنَّ نسبةً صغيرةً فقط من سكَّان العالم لديها القدرة على القراءة ووقت الفراغ لتفعَلَ ذلك، ولديها الموارد الماليَّة لشراء كتاب. كيف نتصرَّفُ نحن "أصحابَ الامتيازات" لنكونَ وكلاءَ على النعمة التي حصلنا عليها؟ يقول لنا كولز إنَّنا نستطيعُ البدءَ في إلغاء التَّسميات التي أطلَقْناها دون تفكيرٍ نحو الآخرين الذين يختَلفون عنَّا. نستطيعُ البدء في البحث عن مجتمعٍ يولِّدُ الرأفةَ والتَّعاطُفَ نحو الضعفاء، وهذه غريزةٌ يميلُ الامتيازُ إلى قَمْعِها. يمكنُنا أن نبدأ في أن نكونَ متواضعين وشاكرين ومُبجِّلين، ومن ثَمَّ ننتقلُ إلى الصلاة دون انقطاع لأجل أعظم عطيَّة وهي المحبَّة.

وكما قال مارتن لوثر كِنغ الابن لكولز في سياق مقابلةٍ شخصيَّة:

بدأتُ أدركُ كم هو صعبٌ بالنِّسبة إلى كثيرٍ من الناس التفكير في العَيش دون أن يكونَ هناك شخصٌ ينظرون إليه نظرةً دونيَّة- ينظرون إليه حقًّا بازدراء. ليس فقط لأنَّهم سيَشعرون بأنَّ شخصًا ما قد خدعَهم فيَكرهونه؛ لكنَّ الأمرَ أنَّهم سيُضطرُّون إلى النَّظر من قُربٍ إلى أنفسهم، إلى ما لا يحبُّونه في أنفسهم. أشعرُ بالشَّفقة على الناس الذين أسمعُهم وهم يدعونهم بالعاملين البيض غير المتعلِّمين؛ ليس لديهم إلَّا القليل، هذا إذا كان لديهم شيءٌ أصلًا، والكراهية شيءٌ يملكونه ويستَطيعون الاعتمادَ عليه، وهي تُلائمُهم. لديَّ مشاعرُ محبَّةٍ في قلبي أقلَّ نحو الأغنياء والمثقَّفين- بسبب تعليقاتهم الساخرة التي يعلِّلونها بذكاء، وبسبب الطريقة التي يحشدون بها تَبريراتِهم السياسيَّة وحتَّى الأخلاقيَّة لتَتَناسَبَ مع مقاصدهم. لا أحَدَ يحاسبُهم. جماعة الكلان هي كبش الفداء بالنِّسبة إليهم. يومًا ما سنرى جميعنا أنَّه عندما نبدأ في السَّعي وراء العِرقِ أو الدِّين أو النَّوع أو الإقليم أو جزءٍ من مجتمع الرَّبِّ- فإنَّنا نمزِّق قلبَه وننزفُ بشدَّة نحن أيضًا.

("رحلةُ الحجِّ الحديث" [A Modern Pilgrimage]
لسيمون ويل بقلم كولز)

بعد مجلَّداتِ "**أولاد الأزمة**" الأربعة التي تركِّزُ على المحرومين من الامتيازات، بدأ كولز يعملُ على مجلَّده الأخير: " **أصحاب الامتيازات: الأغنياء والأثرياء في أميركا**" *(The Privileged Ones: The Well-off and the Rich in America)*. ومع أنَّه استَخدمَ الأسلوبَ ذاته الذي استَخدَمَه في عمله مع الفقراء، وجدَ أنَّ الوُصولَ إلى الأغنياء هو أكثرُ صعوبةً؛ حجبَتْ حواجزُ الشَّكِّ عنه بشكلٍ فعَّال الأعمالَ الداخليَّة في حياتهم.

كان كولز قد سمعَ الفقراءَ مدَّةَ خمسَ عشرةَ سنة وهم يتحدَّثون "بشؤون

أولئك": أصحاب الامتيازات/المنعَم عليهم، الذين عندهم طعامٌ على موائدهم، وأطبَّاء يتَّصلون بهم، وبضعُ سيَّارات وبيتٌ يملكونه دون إزعاج صاحب مُلك. لكن ماذا أنتجت هذه الراحة؟ هل الأغنياء أكثر سعادة؟ أكثر شكرًا؟ مرَّةً ثانية واجَهَ الطبيبُ كولز تناقُضاتٍ في الطبيعة البشريَّة التي بدَتْ كأنَّها تتحدَّى المعادلات السلوكيَّة الدقيقة التي تعلَّمها- التَّناقُضات ذاتها التي استَكشَفَها كُتَّاب روايات مثل تولستوي وديكنز ببراعة. كان قد توقَّعَ أن يجدَ الهزيمة واليأس بين الفقراء؛ أجل وجدَ بعضَ هذه لكنَّه وجدَ أيضًا القوَّة والرَّجاء والشَّجاعة. وتوقَّع الرِّضا والقناعة بين الأثرياء لكنَّه بدلًا من هذا وجدَ الضَّجَرَ والانعزال والانحطاط.

شرحَ كولز سُخريةَ عنوان كتابه، "**أصحاب الامتيازات**"، لأحَدِ الصحفيِّين:

> هناك نظرة كونيَّة تقولُ إنَّ القلقَ والألمَ والخوفَ جزءٌ ممَّا ينبغي أن تكونَ الحياة عليه، وإنَّ الله بذاته افترضَ هذه الحياة، وعاش تحت القلق والألم والخوف المتواصل وانتهى به الأمر مثل مجرمٍ عاديٍّ معلَّقٍ على الصليب ومقتول. الآن إذا اعتبرتَ هذا النوع من الوُجود مهمًّا جدًّا ونموذجًا لأنواعٍ أُخرى، فإنَّك ستُواجِهُ صعوبةً في أن تصيرَ "ناجحًا" كما قيل لكَ ما يجبُ أن تكونَ عليه إذا كنتَ من عائلةٍ من الطبقة الوُسطى. لديك مُعضلةٌ أخلاقيَّة.
>
> ("مقيمون مؤقَّتون" [*Sejourners*])

كان كثيرون من العاملين في مجال الحقوق المدنيَّة في ستِّينيَّات القرن الماضي ممَّن قدَّم كولز المشورة إليهم، ينتمون إلى عائلاتٍ كهذه من الطبقة الوُسطى. كان أهلُهم يُضايقونَهم بالإلحاح عليهم ليَجِدوا وظيفةً حقيقيَّةً ويَبنوا حياتَهم بطريقةٍ أو بأخرى. وقد تَجاوَبَ أحَدُهم مع صلوات والدته التي عبَّرت عن قلقها بشأنه قائلًا: "أتساءلُ عمَّا قالَه يسوع وهو يستمعُ إلى صلواتها! شعرتُ بأنِّي أريدُ أن أكتبَ لها وأسألها إذا كان يسوعُ قد حصَلَ على "عملٍ عاديّ" في يومٍ ما- أو إذا كان "قد بنى نفسَه بطريقة

ما". يسوعُ الواعظُ المهاجِرُ الذي صارَ مَكروهًا ومُزعِجًا لكلِّ شخصٍ كبيرٍ ومهمّ، حتَّى إنَّه صُلِب أخيرًا".

بسبب عمله مع الفقراء والمضطهَدين، كان كولز يَعجَبُ من مقدار ما كانت حياتُهم تُشبِهُ حياةَ الأنبياء وحياة يسوع نفسه. ربَّما وجَدوا لهذا السبب مُواساةً في الدِّين، لذا كان النقَّاد المطَّلعون يتَجاهلون عامدين ما كانوا يريدون قولَه بشأنه. كانت كنائسُ الطبقة الوُسطى تميلُ لأنْ تكونَ حُلوةً ومُهدِّئةً ومُسالِمة، وخِدْمات العبادة فيها متوقَّعةٌ ومُنضَبطة. بدأ كولز نفسُه، الذي هو نتاجُ الأقلِّيَّة ذات الامتيازات، يتَساءلُ عن سبب مُقاوَمته لقوَّةِ إنجيلٍ راديكاليّ. لم يستَطِعْ أن يتَجاهَلَ التَّبايُنَ ما بين تعليم الكتاب المقدَّس عن العدالة والإنصاف، والحياة التي يميلُ المتمتِّعون بالامتيازات لأنْ يَعيشوها والتي كانت تتَّسم بالجشع والمنافَسة والهيبة الاجتماعيَّة (المكانة). ماذا كان فحوى رسالة الإنجيل للأغنياء؟ ماذا كانت رسالةُ الإنجيل له؟ عندما استكشَفَ كولز عقولَ أصحاب الامتيازات، أدركَ أنَّه كان يستَكشفُ عقلَه هو. ويا لَلعار! وجدَ في داخله الكثيرَ من الميول المزعِجة ذاتها.

لاحظَ أنَّ لدى الأشخاص المتمتِّعين بالراحة شعورًا غير اعتياديٍّ بالرَّأفة والتَّعاطُف، وأنَّهم ميَّالون أكثر إلى محبَّة البشريَّة بشكلٍ عامّ، ويميلون على نحوٍ أقلَّ إلى محبَّة شخصٍ واحد على وجهِ التَّحديد. هل أظهَرَ تَعاطُفًا ورأفة؟ عندما كان يدرسُ في جامعة هارڤرد، تذكَّرَ بألم شديد كيف عاملَ الخادمة في القسم الداخليّ بوصفها خادمةً وضيعة، حتَّى عندما كان ينالُ تقدير امتياز في مادَّة الأخلاقيَّات.

وماذا بشأن الغَطْرَسة؟ بصفته طبيبًا، كان يحاربُ التَّجربةَ كلَّ يوم؛ فهو الخبيرُ الشافي الذي أتى ليُساعد المحرومين. الكبرياء؟ أهي التي حفَّزته ودفعَته حقًّا لينالَ شهاداته، ويكسبَ الجوائزَ، ويكتبَ كلَّ الكتب؟ الأنانيَّة؟ كان سخيًّا بكلِّ تأكيد، لكنَّه كان يملكُ وَسائل الرَّخاء التي تسمح له بأن يكونَ سخيًّا. لم يوجَدِ البتَّة في حالةٍ يَعتمدُ فيها على الآخرين بصورةٍ مُطلَقة، وهي الحالة اليوميَّة لكثيرٍ من الفقراء.

فكَّرَ كولز مليًّا في هذه القضايا في المجلد الخامس ذاك، الكتاب الذي يُعدُّ بالنِّسبة إليه أفضل كُتُب السلسلة، لكنَّه الأكثر تجاهُلًا من قبل المُقيِّمين. في نهاية المطاف، توصَّلَ إلى الاعتقاد أنَّ التجرِبة الأكثرَ خُطورةً هي الوَفرة. وفي الوقت نفسه، فإنَّ الغِنى يلعنُ ما يُباركه. توصَّل كولز إلى استنتاج بأنَّ كَون الإنسان ذي امتيازات يميلُ إلى خَنْقِ الشعور بالرَّحمة وتَقليص المجتمع وتغذية الطموح.

إنَّ الأولادَ الأغنياء الذين حاوَلوا الخروجَ من أجوائهم المحميَّة والاستجابة لدَعوة الضمير شكَّلوا تهديدًا للآخرين. أجرى كولز مُقابلةً مع شابٍّ من عائلةٍ ثريَّةٍ في فلوريدا كان قد تعرَّضَ لتَعاليم يسوع وعرفَها في سنِّ العاشرة تقريبًا. بدأ يكرِّرُ بعضَ عبارات يسوع في المدرسة- مثل كيف أنَّه من الصعب أن يدخلَ الأغنياءُ السَّماء وكيف سيَرثُ الفقراءُ ملكوتَ الله. صارت أسئلتُه شَوكةً بالنِّسبة إلى والدَيه ومُعلِّميه وطبيب العائلة. في نهاية المطاف، توقَّفَ والداه عن اصطحابه إلى الكنيسة ووضعوه تحت العلاج النفسيِّ لحلِّ "مشكلته".

عند استعراضه للأغنياء والفقراء الذين تعرَّف إليهم، فوجئ كولز بسُخريةِ الوَضع. صحيحٌ أنَّ الفُقَراء كانوا مَلعونين: عالجَ عمَّالَ المناجم المصابين بمرض تغبُّر الرئة (Black Lung Disease)، والأولادَ المصابين بسوء التغذية، مثل آني الصغيرة التي رفعَها والدُها أمام الصليب (تُوفِّيت في سنِّ الثالثة). لكنْ بطريقةٍ غريبةٍ لا يمكن إنكارها، كان الفقراءُ مُبارَكين أيضًا، لسبب أو لآخر، بصفاتٍ مثل الشجاعة والمحبَّة والاتِّكال الإراديِّ على الله. المفارقة هي أنَّ العاملين في مجال الحالات الإنسانيَّة عملوا طوال حياتهم على تحسين أوضاع المحرومين، لكن لأيِّ هدف؟ هل ليَرفَعوهم إلى مستوى الطبقات العُليا لكي يختبروا هم أيضًا الضَّجَرَ والانعزال والانحطاط؟

في الوقت الذي نشرَ فيه روبرت آخرَ مجلَّدٍ من سلسلة أولاد الأزمة، كان قد وصلَ ليس إلى مكانٍ جديد بل إلى آخر قديم جدًّا. سافرَ آلاف الكيلومترات، وسجَّل عددًا هائلًا من الأشرطة وكتبَ أكثر من مليون كلمة، أشارَت جميعُها مباشرةً إلى

الموعظة على الجبل. اكتشفَ أنَّ الفقراءَ يكتَسبون البركاتِ بصورةٍ غامضة والأغنياءَ يعيشون في خطر. وتعلَّمَ أنَّ الأمورَ المهمَّة لا تأتي من الخارج- أحوال الحياة- بل من الداخل، داخل قلب الرَّجل الفرد أو المرأة أو الطفل. بدأ بحوثَه برأسٍ يمتَلئ بعباراتٍ مثل "عقدة الذَّنْب"، و"اضطراب الشخصيَّة"، و"الاستجابة لمنبِّه". لكنَّه خرجَ بكلماتٍ ذات طرازٍ عتيقٍ مثل الضمير والخطيَّة والإرادة الحرَّة.

ما الذي كان عليه أن يستَنتجَه من هذا كلِّه؟ إنَّه لا يجرؤ على تمجيد الفقر لأنَّ بحوثَه الميدانيَّةَ قد علَّمته حماقةَ تلك الرومانسيَّة. ولا يجرؤ أيضًا على تمجيد الغنى الذي رآه في ذلك الوقت عاملًا مشتِّتًا أو عائقًا حقيقيًّا للأمور المهمَّة. عند ذلك التَفتَ إلى بِضع رجالٍ ونساء مختارين جعلوا من القضايا الروحيَّة محورَ حياتهم بأكملها. استمرَّ الدكتور روبرت كولز، العالم الاجتماعيُّ، بمتابعة عمله باجتهاد حتَّى عندما أُتيح له القيام بدَورٍ جديد: أُستاذ الأدب الروحيِّ في جامعة هارڤرد.

بعد سنواتٍ من التأثُّر بروبرت كولز بطريقةٍ غير مباشرة، طلبتُ منه إجراءَ مُقابَلةٍ وجهًا لوَجه، فوافقَ بلباقةٍ ولُطْف. قال لي إنَّه يحبُّ أن يقابلَ الزائرين في مطعمٍ صغيرٍ ورخيص عند زاوية مكتبه بعيدًا عن المشتِّتات، فتقابَلْنا في مطعم بارتلي (Bartlee) المشهور للهامبورغر. في الداخل، كان المكانُ مصمَّمًا مثل مَوقعٍ في فيلمٍ هوليوديٍّ لتجمُّع طلاب هارڤرد: ألواحٌ خشبيَّة، كراسيُّ بلاستيكيَّةٌ حمراء، قائمةُ طعامٍ مكتوبةٌ بطريقة غير مرتَّبة على اللَّوح الأسود، وكمانٌ مَكسورٌ معلَّقٌ على الجدار، بالإضافة إلى مُلصَقات. وقد كُتِبَ على أحَدِ الملصقات التحذيرُ التالي: "لا تنتقد القَهوة- قد تصيرُ أنت كبيرًا في السنِّ وضعيفًا ذات يوم". ومُلصقٌ آخر يعودُ إلى أربعين عامًا يَظهرُ فيه رولاند ريغان الممثِّل، وهو يكتبُ اسمَه على علب سجائر تشيسترفيلد (Chesterfield)، موصِيًا بها لتكونَ هدايا عيد الميلاد لجميع الأصدقاء.

كولز نفسُه كان يبدو مثل طالبٍ أكثرَ منه أستاذًا مميَّزًا في هارڤرد: يدخل وهو يرتدي قميصًا قطنيًّا أزرقَ متجعِّدًا، وبنطالًا من قماش الكاكي، وشعرُه أشعَثُ يبدو كأنَّه كان يمرِّر يدَه فيه طوال اليوم. وهو يتحدَّث بلكنةٍ شماليَّةٍ شرقيَّةٍ ويضحكُ بصوتٍ مرتَفع على أيِّ شيءٍ يوحي قليلًا بالفُكاهة.

في العادة، كان يتَناوَلُ كأسًا من الشاي المبرَّد عند الغذاء قبل الرُّجوع إلى مكتبه الواقع على بُعد شارعٍ من ساحة هارڤرد. كان مكتبُه في الجامعة ضمن رُكنٍ واسعٍ في مبنًى تاريخيٍّ من القِرميد. وتوجَدُ لوحةٌ على الجدار تشيرُ إلى أنَّ فرانكلين روزفلت (Franklin Roosevelt) استخدمَ الغرفةَ عندما كان في القسم الداخليِّ من عام ١٩٠٠ إلى ١٩٠٤م. وأيضًا توجَدُ على الجدار مجموعةٌ من الأشياء الجديرة بالذِّكر: ملصقٌ عن سيمون ويل، وصُوَر بونهويفر (Bonhoeffer) وأيضًا ووكر پيرسي، ودوروثي داي، وإيريك إريكسون، وجيمس آجي. المكتب مكانٌ هادئٌ ومنظَّمٌ على نحوٍ جيِّد، قاعدةٌ يخطِّطُ فيها كولز بحوثَه الميدانيَّة ويُعِدُّ المحاضرات للكلِّيَّات المتعدِّدة المرتبطة بهارڤرد.

يدرِّسُ كولز في جامعة ديوك (Duke) بالإضافة إلى جامعة هارڤرد، لكنَّه لا يدرِّسُ مساقًا في حَقْل اختصاصه في أيِّ مكان- لا شيء عن طبِّ الأطفال أو الطبِّ النفسيِّ للأطفال أو علم الاجتماع أو حتَّى أساليب إجراء المقابلات. بدلًا من هذا فهو يدرِّسُ الروائيِّين العُظَماء والمفكِّرين المسيحيِّين. قائمةُ قراءاته تتضمَّنُ تولستوي ودوستويڤسكي وپاسكال وويل وميرتون ويوحنَّا الصليبيّ (John of the Cross). إضافةً إلى ديكنز وفلانري أوكونور، وروبرت فروست (Robert Frost)، وإيميلي ديكنسون (Emily Dickinson) وتوماس الكيمپيسيّ (Thomas à Kempis)، وتريزا الأڤيليَّة (Teresa of Avila)، وكير كيغارد وبيرنانوس وسيلون (Silone)، وآجي ووليم كارلوس وليَمز، وأوروِيل (Orwell)، وجورج إيليوت، وصديق كول لفترةٍ طويلةٍ ووكر پيرسي. من هذه القائمة، يصمِّمُ كولز مساقاتٍ أدبيَّةً بحسب حاجات الاختصاصات: مساقُ "أدب التأمُّل المسيحيّ"، ومساقٌ عن "الأدب والطبّ" لكلِّيَّة الطبّ، ومساقٌ آخرُ يُسمَّى "بحثٌ أخلاقيٌّ واجتماعيٌّ من خلال الخيال" لكلِّيَّة الأعمال، ومساقٌ عن "ديكنز والقانون" لكلِّيَّة الحقوق.

ما الذي غيَّر طبيبًا وعالمًا اجتماعيًا ليَصيرَ نصيرًا للأدب؟ كولز يجيب بالقَول: "إنَّ رجلًا مثل تولستوي كان يعرفُ عن علم النفس أكثر ممَّا يمكنُ أن يَعرفَه مشهدُ علم الاجتماع في القرن العشرين كلِّه. كلُّ هذا الحديث بشأن مراحل الموت يظهرُ الآن- لماذا لا ترجعُ وتقرأ "**مَوت إيڤان إليتش**" *(The Death of Ivan Ilyich)*؟ ذكرَ هذا الكتابُ كلَّ شيء. ومَن أضافَ أيَّة حكمةٍ على صعيد المشكلات الزَّوجيَّة منذ كتاب "**آنا كارنينا**" *(Anna Karenina)*؟ وكم كان ديكنز يعرفُ عن الطبيعة البشريَّة! إنِّي أجولُ بكلِّ بساطةٍ من مكانٍ إلى آخر أدرِّس هذه الروايات وأحاولُ بطريقةٍ ما أن أعطِّل عملَ الشيطان في كلِّيَّة الطبِّ وكلِّيَّة الحقوق وكلِّيَّة إدارة الأعمال".

لماذا يدعونه للمَجيء؟ "لا أدري، ربَّما لأسبابٍ تتعلَّق بالإخلاص الأعمى. اسمٌ مَذكورٌ في نشرةٍ ما، شيء من هذا القبيل. بعضُ الطلَّاب يفهَمون ما يقرأونَه. إنَّهم يتَّصلون بي، وأعلمُ أنَّهم تأثَّروا بما قد قرأوه. لكنَّ الوضعَ صعبٌ هنا. إنَّها قلعةُ "الفلسفة الإنسانيَّة العَلمانيَّة".

"لكنَّ للأدب قوَّته المسيطرة. كتبَت فلانري أوكونور كتابًا جميلًا من المقالات يُدعى "**الغموض وطبائع السُّلوك**" *(Mystery and Manners)*، والعنوان وحده يتَعامَلُ مع جميع العلوم الاجتماعيَّة: تبجِّلُ الروايات غُموضَ الكائنات البشريَّة الفرديَّة وسلوكها. لماذا لا نتعلَّمُ هذا بدلًا من الكلمات المنمَّقة والنظريَّات المعقَّدة والتَّبسيطات السخيفة والتي هي جميعها ميِّتة ننالُها من الخبراء؟ الروائيُّون ليسوا مُهتمِّين بالنَّظريَّة أو بتَحويل عقولهم إلى أعضاءٍ فخمةٍ شبيهةٍ بالآلهة. بدلًا من هذا، هم يَستَدعون التَّعقيد والسُّخرِيَة والغموضَ والتَّناقُضَ ويقدِّمونها. يكتَشفون أنَّ كلَّ شخصٍ هو غموضٌ منفصلٌ ومحدود، وليس شيئًا يمكنُ احتواؤه في صنفٍ أو آخر، ويعتَرفون بذلك".

يمكنُ أن نرى روبرت كولز متَّكئًا على أريكةٍ من الجلد الداكن اللَّون، وأشعَّة الشمس تنسابُ إلى الداخل والستائر تتمايَلُ مع النسيم. كما نراه يجلسُ على مِنَصَّة أو وراء منبر الوعظ، أو منبر أحَد صفوفه في هارڤرد. فهو يتعامَلُ معهم جميعًا الآن:

الطلَّاب وعلامات امتحان دخول الجامعة، وثياب الركض الثمينة؛ وزملاء التدريس مع سِيَرهم الشخصيَّة ومواعيد لجانهم ونظريَّاتهم المحْكَمة التي تشرحُ الاقتصادَ والسلوكَ البشريَّ وكلَّ شيءٍ في الكَون. أمَّا نفسُه- يعودُ كولز إلى نفسه ويشيرُ إلى إعجابه المفرطِ وكبريائه واعتماده على نفسه، حيث إنَّ هذه الأمور هي التي غذَّت حياتَه الخاصَّة.

يحاولُ الطَّلبةُ أن يجعَلوا منه بَطَلًا. ويُشيدون به لأجل السنوات التي أمضاها مع عمَّال المزارع المهاجرين. لكنَّه يذكِّرُهم في صفوفه قائلًا: "ماذا سيَحدثُ في نهاية اليوم؟ سيَعودون إلى أكواخهم وبيوتهم المقطورة وأذهبُ أنا لأبيتَ في فندق الهوليداي إن. شعرتُ بالذَّنب بالتأكيد، وربَّما كان ينبغي أن أشعرَ به. أستَطيعُ أن أتخيَّلَ ما سيَقولُه بعضُنا ممَّن يُعانون من خَوفٍ مَرَضيٍّ من الذَّنب ليَسوع. "يا صاحبي، تمهَّل لا تقلقْ بشأن هؤلاء الناس الذين يحتاجون إلى الخبز! ولماذا تزور السجون؟ ألديك كَبتٌ نفسيّ؟ قد يكونُ هناك طبيبٌ نفسيٌّ في منطقة الجليل يمكنُكَ أن تتحدَّثَ معه"".

يتحدَّثُ كولز كثيرًا بشأن إخفاقاته وأوجه قصوره. يشعرُ بأنَّ عليه أن يفعلَ هذا ليُحاصرَ خطايا الكبرياء والاحتيال التي تطوفُ في مكان مثل هارڤرد. وهو يقول: "يرغبُ كلُّ شخصٍ في أن يجدَ طريقةً لحلِّ مشكلةٍ أو لإسكات سؤال. يتَظاهَرُ الطَّلبة لهذا الهدف أو ذاك. هؤلاء الطلبة أنفسهم لن يتَجوَّلوا في المدينة ويتحدَّثوا مع أناسٍ يعيشون في أوضاعٍ مُشابِهةٍ لأوضاع الذين يتَظاهَرون نيابةً عنهم.

"مثلنا مثل الفريسيِّين، نريدُ أن نبرهنَ أنَّنا أنقياء وأبرار. لكنَّ يسوع والأنبياء يستَمرُّون في طَرْح الأسئلة. حسنًا، أنت لا تقتل. هل تكرَه؟ أنت لا ترتكبُ الزنا، هل تشتهي؟ نحبُّ أن نحلِّل "مشكلة الفقراء". لكنْ ماذا نفعَلُ من أجل شخصٍ فقيرٍ واحد؟ ذهبتُ إلى مسيسيپي في وقت الأزمة متوقِّعًا معرفةَ المزيد عن "مشكلة مسيسيپي". أدركتُ أنَّ هناك قليلًا من المسيسيپي في كلِّ واحدٍ منَّا- وقليلًا من ماساشوسِتس وجنوب أفريقيا وإيرلندا الشماليَّة أيضًا".

لا يزالُ كولز يحاولُ أن يُمطِرَ الأسئلةَ على طلّاب هارڤرد والقرّاء الكثيرين الذين يشتَرون كتبَه والملايين الذين قرأوا عنه في المجلّات والصُّحف. قال لأحَدِ مراسِلي صحيفة واشنطن پوست (Washington Post) في قصّة على الصفحة الأولى: "من الواضح أنّي شخصٌ متحمّس دينيًّا. ماذا تفعلُ عندما تصيرُ كبيرًا في السنّ وتتوقّف لتفكّرَ في معنى هذه الحياة؟" وبسبب مؤهّلاته، على الناس أن يتَوقّفوا ويُصغوا إليه.

قال مساعدُ كولز "فيليپ پولاسكي" (Phillip Pulaski) للمراسل الصحفيّ: "في نواحٍ كثيرة، كان روبرت قسًّا. إنّه على الأرجح الأستاذُ الأكثرُ تأثيرًا في هارڤرد من جهةِ تأثيره في حياة الناس". لو كان كولز في الغرفة لما سمحَ لپولاسكي أن يتحدَّثَ بشأن سيرة حياته وكأنّها سيرة حياةِ قدّيسٍ على هذا النحو. كان سيَبدأ يتهجَّمُ بشكلٍ لاذعٍ على مخاطر الكبرياء وعبادة الأصنام الحديثة. لكنْ في خِزانة الملفّات تقبَعُ رسائلُ من طلبة سابقين أخبروه بأنّه الوحيد الذي طلبَ منهم أن يفكّروا في أسئلةِ الحياة الأهمّ عندما كانوا في هارڤرد.

يحبُّ كولز أن يقتبسَ من كيركيغارد: "قال إنَّ هيغل شرحَ كلَّ شيءٍ في الحياة ما عدا كيف يمرُّ بك يومٌ عاديّ". لهذا السبب الأهمّ من الأسباب الأُخرى، يدرِّس روبرت كولز الأدبَ للمختَصّين في مجال الأعمال بدلًا من تدريس الطبّ النفسيّ لطلبة الطِّبّ. "لدينا هنا أنظمةٌ تشرحُ كلَّ شيء- ما عدا كيف تعيش. ولدينا فئاتٌ لكلّ شخصٍ على وَجهِ الأرض، لكنْ مَن يستَطيعُ أن يشرحَ شخصًا واحدًا فقط؟".

هل يستطيعُ روبرت كولز أن يشرح شخصًا واحدًا؟ بعد مهنة أمضاها في الإصغاء وإجراء المقابَلات، ماذا تعلَّم عن الكائنات البشريّة؟ هل يستطيعُ استخلاص ذلك كلّه في ملخّصٍ واحدٍ كبير؟ إنّه يفكّرُ لِلَحظةٍ ثُمّ يشيرُ إلى الكتاب المقدَّس على مكتبه. "لا شيء اكتشفتُه عن تكوين الكائنات البشريّة يناقِضُ بأيّةِ طريقةٍ ما أتعلّمه من الأنبياء العبرانيّين مثل إشعياء وإرميا وعاموس، ومن سفر الجامعة ومن يسوع وحياة الذين أثّر فيهم. إنّ أيَّ شيءٍ أستطيعُ أن أقولَه ليكونَ نتيجةَ بُحوثي عن السلوك

البشريّ ما هو إلّا حاشيةٌ لحياة أولئك الأشخاص في العهدَين القديم والجديد.

"لقد عرفتُ أشخاصًا استطاعوا أن ينهضوا من جديدٍ وبنُبلٍ شديد في مواجَهة الضُّغوطات اليوميَّة التي لا تُحتَمَل. وعرفتُ آخرين يعيشون في بيئةٍ مريحة مُترَفة، لكن يبدو أنَّهم ضائعون. لدينا كِلا الجانبَين في كلِّ واحدٍ منَّا، وهذا ما يقولُه الكتاب المقدَّس، أليس كذلك؟ الكتابُ المقدَّس يُبيِّن لنا الرَّجاء والهلاكَ معًا، الإمكانيَّة والخيانة. في قصصه، في بعض الأحيان يصيرُ المفضَّل مجرَّبًا بطريقةٍ مُميتةٍ، وفي بعض الأحيان يصيرُ الشخصُ المتواضعُ والمغمورُ أداةً للرَّجاء إنْ لم يكُنْ للخَلاص. أعتقدُ أنَّ هذه القصص هي جزءٌ من كلِّ واحدٍ فينا. نسيرُ على حبلٍ مشدودٍ نتَمايلُ بين الكآبة أو فقدان الإيمان، وتجربة تعظيم الذات ومدحها من جهةٍ أُخرى. يؤدِّي كلا النقيضَين إلى الخطيَّة.

"ينتقدُني بعضُ المُقيِّمين لأنّي أقولُ الأشياءَ القديمة ذاتَها عن الكائنات البشريَّة: إنَّنا مَزيجٌ من الصَّلاح والشَّرّ، من النُّور والظُّلمة، من الإمكانات المؤدِّية نحو الهلاك أو الفداء. إنَّهم يريدون نظريَّةً جديدةً على ما أعتقد. لكنَّ بحوثي تتحقَّقُ ممَّا قاله الكتاب المقدَّس طوال الوقت عن الكائنات البشريَّة.

"إذا استطعتُ أن أجدَ طالبَ طبٍّ يُجرَّبُ بخطيَّة الكبرياء بسبب التحاقه بكليَّة مشهورة- إذا استطعتُ أن أجعلَه يفكِّرُ في نفسه وقريبه (جاره) كما علَّمنا يسوع، فإنّي أكونُ عندئذٍ قد حقَّقتُ هدفًا ما هناك. قد أكون عاطفيًّا على نحوٍ مبالَغٍ فيه، لكنّي لا أعتقدُ أنَّ يسوعَ يمانعُ في المجيء إلى طالبِ الطِّبِّ ذاك من خلال وساطة إحدى قصص فلانري أوكونور. هكذا أنقلُ تقليدَ الكتاب المقدَّس إلى هذه الجامعة لأنَّه ينتمي إلى هذا المكان، وهو امتيازٌ لنا أن ندعوه ليَكونَ أستاذًا".

في كلِّ سنةٍ عندما يبدأ كولز صفوفَ الأدب التي يدرِّسها، يقرأ اقتباسًا من جيمس آجي: "أقف حالًا وأقرأ من إنجيل لوقا، لكنَّ ذلك قد لا يُناسبُ الموقف، ولذلك ألجأُ إلى ذلك الأدب العظيم الذي ينقلُ الرسالة نفسَها مثل الاقتباس التالي

من آجي: "إنَّ كلَّ ما يكونُ عليه الفردُ ويختبره وما سيَختبرُه في الجسد والعقل- هو تعبيراتٌ مختلفةٌ عن نفسه ولها جذرٌ واحد وهي متطابقة. ولا يمكنُ نسخُ أو استبدالُ أيٍّ من هذه الأمور أو هؤلاء الأشخاص، فالكلُّ لا مثيلَ ولا سابق له. غير أنَّ كلَّ واحدٍ هو حياةٌ جديدةٌ ورقيقةٌ لا يمكن نقلُها إلى الآخرين، وهو مجروحٌ في كلِّ نَفَسٍ ويُقتل تقريبًا بالسُّهولة نفسها التي يُجرَح بها، ويستمرُّ دون دفاعٍ لفترةٍ قصيرةٍ أمامَ هجماتِ الكَون الضخمة"".

إنَّ كلَّ ما كان روبرت كولز يتحدَّثُ بشأنه خلال هذه السنوات جميعها هو كرامة الإنسان الجوهريَّة، صورة الله التي تحيا فينا جميعًا، سواء كنَّا سودًا أم بيضًا، متعلِّمين أم أُمِّيِّين، أغنياء أم فقراء، أصحَّاء أم مرضى- الشرارة التي تجعَلُ المخلوقات البشريَّة خالدة. لم يبدأ بالإيمان بها. لكنَّها ما علَّمَه إيَّاه الأولادُ ثُمَّ كُتَّاب الروايات لتأتي بحوثُه وتؤكِّدُها. وهذا ما يحاولُ أن يخبرنا به الآن:

"في بعض الأحيان عندما أجلسُ وأراقبُ طفلًا يُحاولُ جاهدًا أن يقومَ بالعمل الصحيح في تمثيل وجه الله، وملامحه وشكل رأسه ونوع ملامح وجهه، أُفكِّر في الأيَّام التي كنتُ أعملُ فيها في مطبخ حساء دوروثي داي للعامل الكاثوليكيّ. في بعد ظهر أحَد الأيَّام، بعدما كان بعضُنا يصارع "سكِّيرًا" "متَسوِّلًا" غاضبًا ميَّالًا إلى العنف شتَّامًا في الخمسين من عمره، بشَعرٍ رماديٍّ طويل ولحية كاملة بشعرٍ أشعثَ، وعلامةٍ فارقةٍ كبيرةٍ على خدِّه الأيمن، وفمٍ تكاد أن تنعدمَ فيه الأسنان، وعينَين محتقنتَين بالدَّم في إحداها تشنُّجٌ مخيف، قالت لنا: "إنَّ كلَّ ما نعرفُه أنَّه ربَّما يكونُ الله ذاته قد أتى إلى هنا ليَمتحنَنا، لذا فلنُعامِلْه كأنَّه ضيفٌ مكرَّم ولنَنْظُرْ إلى وجهه وكأنَّه أجملُ وجهٍ يمكنُ أن نتخيَّله"".

(''حياة الأطفال الروحيَّة'' [*The Spiritual Life of Children*])

لنبدأ مع روبرت كولز

تبيّنُ سلسلة "**أولاد الأزمة**" ذات المجلَّدات الخمسة أسلوبَ حياة روبرت كولز- مقابلات، تأمُّلات، تفسيرات- وحصلَ المجلَّدان الثاني والثالث على جائزة پوليتزر. قد يفضِّلُ القرَّاء الذين يجدونَ المجلَّداتِ صعبةَ القراءة تلخيصًا حديثًا يجمُعُها معًا: "**حياة الأطفال الأخلاقيّة**" *(The Moral Life of Children)* و"**حياة الأطفال السياسيَّة**" *(The Political Life of Children)*، و"**حياة الأطفال الروحيَّة**" *(The Spiritual Life of Children)*. أيضًا "**دعوة الخدمة**" *(The Call of Service)*، و"**دعوة القصص**" *(The Call of stories)* يجمَعان معًا تلخيصات أفكاره وأسلوبه.

انظر أيضًا "**جَغرافية الإيمان**" *(Geography of Faith)*، وهو كتابُ المحادَثات مع دانييل بَريغان (Daniel Berrigan). أو كتابه لعام ١٩٩٩م "**العقل العَلماني**" *(The Secular Mind)*، حيث يتجرَّأ كولز على التَّشكيك في أقدَسِ افتراضٍ للحَداثة، أيْ أنّنا نَجِدُ معنًى في أنفسنا بدلَ أن نجدَه في مكانٍ ما "هناك في الخارج".

وللذي لا يملكُ وقتًا للتَّصفُّح، فإنَّ كتاب "**مقتطفات أدبيَّة مختارة لروبرت كولز**" *(A Robert Coles Omnibus)* يعرِضُ نماذجَ من كتاباتٍ متَعدِّدة، معظمُها مقالاتٌ أدبيَّة.

الفصل السادس

ليو تولستوي و فيودور دوستويڤسكي

(Leo Tolstroy and Feodor Dostoevsky)

ملاحَقةُ النعمة

إنَّ أعمقَ شكوكي المتعلِّقة بالإيمان يمكنُ تلخيصُها بسؤالٍ واحد: "**لماذا لا يُطبَّق في الواقع؟**" عندما أسافرُ حول العالم، أرى أنَّ المسيحيَّةَ تجلبُ تحسيناتٍ عديدةً للثَّقافة. التربية، والعلم، والأدوية، وحقوق الإنسان، والديمقراطية، والفَنّ، وعمل الخير- نَمَتْ هذه جميعها وبلغَتْ أقصى قوَّتِها وحيويَّتِها من جذورٍ مسيحيَّة، لكنَّ نموَّها تأخَّرَ في بعض الدُّوَل غير المسيحيَّة التي أزورُها. ومع ذلك، عندما أتحدَّثُ مع مسلمين أو هندوس وَرِعين، فإنَّهم يتطرَّقون إلى الحروب الكثيرة التي ضايقَتْ أوروبا في أثناء حقبتها المسيحيَّة العُظمى، وإلى الجريمة والانحطاط وتفسُّخ العائلة التي يتَّصفُ بها الغربُ المسيحيُّ اليوم. لا يوجَدُ لديَّ دفاعٌ ما ضدَّ حُجَجهم.

لم يسبق لي أن قابلتُ شخصًا رصينًا ينتمي إلى أيَّة ديانةٍ من الديانات لا يحملُ تقديرًا ليَسوع، لكن ماذا بشأن الكنيسة؟ كما قال لي أحَدُ أصدقائي اليهود: "كرز يسوع بإنجيلٍ جميل. نحن اليهودَ نزدادُ إعجابًا بيسوع. لكن أرني ملكوتَ الله الموعود به. انظر إلى التاريخ وإلى اضطهاد المسيحيِّين لبني عِرقي. هل يبدو هذا حقًّا عالمًا قد تَمَّ افتداؤه؟" ينظرُ اليهوديُّ إلى العالم ويسأل لماذا لم يأتِ المسيَّا بعدُ، ويتساءل عن الشَّرِّ الذي يستمرُّ في الازدياد.

في سيرته الذاتيَّة الرُّوحيَّة، "**اعتراف**" *(A Confession)*، يذكرُ تولستوي بأنَّ المسيحيِّين في بعض الأحيان يُعامِلون بعضُهم بعضًا أسوأ من معاملتهم للَّذين يتبَعون دياناتٍ أُخرى. نشأ وهو على علاقةِ صداقةٍ بالكاثوليك والپروتستانت والمؤمنين القُدامى والحركات الإصلاحيَّة، لكنَّ الكنيسةَ الروسيَّةَ الأُرثوذكسيَّة قالت له: "...إنَّ هؤلاء الناس واقِعون في شرك الكذب، والذي منحَهم قوَّتَهم الحيويَّة كان تجربةَ إبليس، ونحن فقط الذين نملكُ الحقيقةَ الممكنةَ الوحيدة. ورأيتُ أنَّ جميعَ مَن لا يملكون إيمانًا مماثلًا يُعدُّون هَراطقةً من وجهة نظر الأُرثوذكس- مثلما يحسبُ الكاثوليكُ والكنائس الأُخرى الأُرثوذكس أنفسَهم هراطقة".

عندما أفكِّرُ في الأشخاص المسيحيِّين الذين أعرفهم، أرى أنَّ بعضَ الناس صاروا بما لا يُقاس أفضلَ بسبب إيمان هؤلاء، وبعضُهم صارَ أسوأ بشكلٍ ملموس. مقابلَ كلِّ مسيحيٍّ لطيفٍ ومتسامح ورقيقِ الرُّوح، أستَطيعُ أن أُشيرَ إلى مسيحيٍّ متكبِّر وأنانيٍّ يَدينُ الآخرين. وخبرتي تقولُ إنَّ الذين يجاهِدون بشدَّةٍ ويؤمنون بحرارةٍ هم في بعض الأحيان الأشخاصُ الأقلُّ جاذبيَّةً، مثلُهم مثلُ الفرِّيسيِّين في أيَّام يسوعَ يتورَّطون في المنافسة وينتهون في البرِّ الذاتيِّ بدلًا من أن يكونوا أبرارًا. يقول لي السياسيُّون إنَّ الرسائلَ الأكثرَ قذارةً تأتيهم من أشخاصٍ يَستَشهِدون بما جاء في الكتاب المقدَّس، ويدَّعون أنَّهم يتحدَّثون نيابة عن الله- وهذا ما أُصدِّقه بسهولةٍ ما دامَ صندوقُ بريدي يُظهرُ النموذجَ ذاتَه. كيف يمكنُ أن أحلَّ التوتُّرَ القائم ما بين المُثُل العُليا للإنجيل وواقع الذين يعترفون به؟

أرى اليومَ مُراهِقين يلبسون السوار الذي كُتِبَ عليه "WWJD" [الأحرف الأولى للكلمات What Would Jesus Do] ليذكِّروا أنفسهم بالسؤال المزعج التالي: "ماذا كان يسوع لِيَفعَلَ؟" ظهرَ هذا السؤال أوَّلَ مرَّةٍ في قصَّة تشارلز شيلدون (Charles Sheldon) بعنوان "**على خطاه**" *(In His Steps)* التي تسردُ قصَّةَ أشخاصٍ عاديِّين في الكنيسة يتَعهَّدون بشكلٍ رسميٍّ بأن يسلكوا سلوكَ يسوعَ ويرجِعوا إلى متَّى والأصحاحات ٥-٧ طلبًا للإرشاد. وحين كنتُ مراهقًا في ستِّينيَّات القرن الماضي، قبل وقتٍ طويل من اكتشاف المسوِّقين إمكانيَّةَ بَيْع سوار "WWJD"، قرأتُ كتاب شيلدون وكنتُ أطرحُ

ذلك السؤال على نفسي كلَّ يوم. أُصبتُ تقريبًا بالجنون. لو أعطيتُ نقودًا إلى كلِّ مَن كان يطلبُ منِّي، لنَفدَ المالُ منِّي بسرعة، وفي ومضة غضب، كنتُ أدعو أخي "أحمقَ" أو أسوأ من ذلك، ثُمَّ أقلقُ وأخاف لأنِّي وضعتُ نفسي في خطر نار جهنم. وإذا ما نظرتُ خلسةً إلى مجلَّات جاري الخاصَّة بالفتيات، هل سيَستَوجِبُ أن أقلعَ عيني؟ وعندما هاجمَني الأولادُ فجأةً عند مَوقفِ الباص بعد المدرسة، هل كان عليَّ ألَّا أُدافعَ عن نفسي؟ جرَّبتُ ذلك الأسلوبَ حتَّى تعبتُ من القُدوم إلى البيت بأنفٍ دامٍ.

كان في الكنيسة التي نشأت فيها امرأة كاملة. على الأقلّ، هذا ما كانت تدَّعيه وتصرُّ على أنَّها لم تُخطئ خلال اثنتي عشرة سنة. أتذكَّرُ عندما كنتُ طفلًا، وأنا مدركٌ لخطاياي الشخصيَّة، كيف كنتُ أتعجَّبُ من حالة كمالها. لم أشكَّ قطُّ في إخلاصها، لأنَّه لا يمكنُ لشخصٍ كامل أن يكذب. في أثناء خِدْمات العبادة في الكنيسة كنتُ أحدِّق فيها لفترة طويلة متمنِّيًا لو أنِّي عرفتُ سرَّها. لكنِّي الآن أنظرُ بشفقةٍ إلى هذه المرأة. لا يمكن للرَّسول يوحنَّا أن يكونَ أكثر وضوحًا ومباشرةً: "إنْ قُلنا إنَّه ليس لنا خطيَّة، نضلُّ أنفسَنا وليس الحقُّ فينا". مع أنَّ هذه المرأةَ نجحَتْ في تجنُّبِ الخطايا العلنيَّة والتي يمكنُ ملاحَظتُها، أشكُّ في أنَّها كانت باستمرار تُطيعُ ما قال يسوع إنَّه الوصيَّة الأُولى والعظمى: "تحبُّ الربَّ إلهك من كلِّ قلبك ونفسك وعقلك". كما أنَّ موقفَها المتكبِّرَ والمتعالي كان يَشي بأنَّها على الأرجح وقعَتْ ضحيَّةَ خطيَّة الكبرياء.

إنَّ فِقرات الكتاب المقدَّس، وأبرزُها الموعظة على الجبل، توضحُ المُثُل الأخلاقيَّة النبيلة- أعطِ كلَّ مَن يطلبُ منك، أحبُّوا أعداءكم، لا تشتَهِ، لا تكرَه، اغفرْ دائمًا، رحِّبوا بالاضطهاد- التي تتحطَّم حَتمًا على صخرة الواقع المظلم للسُّلوك البشريِّ الحقيقيّ. كنتُ أشعرُ بتَوتُّرٍ مستمرٍّ لا يمكنُ تفسيره بسبب مجالاتِ الفشل المسيحيَّة. بصفتي صحافيًّا، راقبتُ من كثب العيوبَ المذهلة والتافهة للقادة الروحيِّين البارزين التي لم ينكشف الكثير منها عَلَنًا. وعندما أقرِّرُ أن أكتبَ عن نفسي بدلًا من الكتابة عن الآخرين، سرعان ما أكتشفُ أنِّي أكتبُ عن القواعد الروحيَّة أفضل بكثيرٍ من ممارستي لها. هل نحن مدعوُّون للسعي إلى مُثُلٍ عُليا لا يمكنُ الوُصولُ إليها البتَّة؟

لم أجد طريقةً أعالجُ بها التَّنافُرَ في المعرفة الذي أبقاني في حالةٍ من التَّململ الروحيِّ إلى أن وقعتُ صِدفة على كتاباتِ روائيَّين روسيَّين من القرن التاسع عشر. إنَّ فهمي للتوتُّر ما بين المُثُل المسيحيَّة والواقع، مردُّه جزئيًّا إلى تولستوي.

في أوائل سبعينيَّات القرن الماضي، سمعَ مالكولم ماغريدج (Malcolm Muggeridge) لدهشته أنَّ أعضاءَ من النخبة الفكريَّة في الاتِّحاد السوفييتيّ، الذي كان ما يزال تحت الحكم الشيوعيّ، يختَبرون نهضةً روحيَّة. أخبرَه أحَدُ المنشقِّين الرُّوس الذي كان يُقيم في إنكلترا بأنَّ كلَّ كاتبٍ أو فنَّانٍ أو موسيقيٍّ تقريبًا في اتِّحاد الجمهوريَّات السوفييتيَّة الاشتراكيَّة كان يستَكشفُ القضايا الروحيَّة. كتب ماغريدج قائلًا: "سألتُه كيف يمكنُ أن يحدُثَ ذلك إذا ما أخذنا بالحسبان عمليَّة غَسْل الدِّماغ الضخمة ضدَّ الدِّين التي كانت تُمارَسُ على المواطِنين، وغِيابَ أيَّة مطبوعاتٍ أدبيَّةٍ مسيحيَّة بما فيها الأناجيل. كان جوابُه جديرًا بالذِّكر؛ إذ قال إنَّ السُّلطات نسيت أن تحظرَ أعمال تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠م) ودوستويفسكي (١٨٢١- ١٨٨١م)، وهي التَّفسيراتُ الأكثرُ كمالًا للإيمان المسيحيِّ في الأزمنة الحديثة".

في الوقت نفسه تمامًا، كنتُ أُقيم في الغرب محاطًا بالمسيحيِّين ومُشبَعًا بالكُتُب الدِّينيَّة، وبصراحة، دون أن أتمكَّن من فَهْم مُعظَمِها. إنَّ هذين الروائيَّين الروسيَّين اللَّذين لا يمكنُ لأحَدٍ أن يتَّهمَهما بالتَّوازن أو حتَّى بأنَّهما سليمان من الناحية النفسيَّة ساعَداني على استعادة الشُّعور بالتَّوازن. وكما اكتشفَ روبرت كولز أنَّ الرِّوائيِّين يعرفون عن السلوك البشريِّ أكثر من جميع مدرِّسيه في علم النفس، اكتشفتُ أنا أنَّهم يعرفون أيضًا عن اللَّاهوت أكثر من معظم اللَّاهوتيِّين. في مرحلةٍ حَرِجةٍ من رحلة حَجِّي، صارا مُرشديَّ الروحيَّين للتَّوصُّل إلى فَهْم مشكلةٍ تحيِّر كلَّ مسيحيٍّ مُفكِّر- أو تابع لأيِّ دِينٍ من الأديان، في ما يتعلَّقُ بذلك- ألا وهي الفجوة الكبيرة بين الحياة كما ينبغي أن تكونَ والحياة كما هي عليه بالفعل؛ بين نظريَّة الإيمان وممارسته.

في تاريخ الأدب الطويل لم يتفوَّق أحَدٌ على قدرة ليو تولستوي على وَصْفِ

جَوهرِ الحياة الكامل، وكما عبَّرت عنه ڤرجينيا وولف (Virginia Woolf):

"يبدو أنْ لا شيءَ كان يفوتُه. لا شيءَ يمرُّ أمام ناظرَيه دون أن يُسجَّل... كلُّ برعم صغير، كلُّ ريشة كانت تنجذبُ إليه. إنَّه يلاحظُ الأزرق أو الأحمر في مريلة طفل؛ والطريقة التي يحرِّك فيها الحصان ذَيله، وصَوتَ السُّعال، وحركةَ رَجُلٍ يحاوُلُ أن يضَعَ يدَيه في جيوبٍ لا تزال مخيَّطة. وما تسجِّلُه عيناه اللتان لا تُخطئان سعلةً أو حيلةً ما من يدَيه، فإنَّ دماغَه الذي لا يُخطئ يشيرُ إلى شيءٍ مستورٍ في الشخصيَّة، حتَّى يمكنَنا أن نتعرَّفَ إلى أُناسه، ليس فقط بالطَّريقة التي يعبِّرون فيها عن حبِّهم؛ ولا فقط بآرائهم في السياسة وخلود النفس، بل أيضًا بالطَّريقة التي يسعلون فيها وتُقطَعُ رؤوسُهم. نشعرُ وكأنَّنا وُضعنا على قمَّة جبلٍ ووُضعَ في أيدينا منظار. كلُّ شيءٍ واضحٌ وثاقبٌ بشكلٍ مُدهشٍ".

لاحظَ أحَدُ كُتَّاب سيرة تولستوي أنَّه عندما وضعَ جانبًا كتاب "**الحرب والسلام**" *(War and Peace)* وعاد إلى "الحياة الحقيقيَّة"، أحسَّ أنَّه عادَ إلى شيءٍ باهتٍ وأقلَّ واقعيَّةً من فنِّ تولستوي ذاته. مررتُ أنا بالتَّجربة ذاتها تمامًا. دبَّتِ الحياةُ في عالمي من خلال قصص هذا الكاتب الذي تفصلُه عنِّي نصفُ الكرة الأرضيَّة، ونحو قرنٍ من الزَّمان تقريبًا. عندما وصفَ تولستوي الربيع بوصفه أعجوبةَ الزُّهور الصغيرة التي تظهرُ في المنطقة الخالية من الأشجار، فإنَّ هذا استثمارٌ للحيويَّة الوافرة والأهمِّيَّة ذاتها التي أعطاها لوَصْفِ المشاعر الدينيَّة. في عمله هذا، علَّمَني كيف أنتقلُ إلى أبعدِ من نفسي.

عندما أعودُ بنَظري الآن إلى رِواق الأصوليَّة الجنوبيَّة التي نشأتُ فيها، أتساءلُ عمَّا إذا كنتُ أعاني خَللَ حبِّ الذات (الذي قد يُعانيه جميعُ المراهقين) كنتُ أرى العالم من خلال نوافذ الكنيسة والعائلة المغلقة دون أن تكونَ لديَّ القدرةُ على الخروج من نفسي وفَهْمِ وجهة نظر مزارعٍ مستأجِر، مثلًا، في ريف ألاباما، أو مهاجرٍ

بولنديٍّ في البرونكس، أو أقلُّها- فَهْمُ أحَدِ أفراد الطبقة الأرستقراطيَّة أو فلَّاح في روسيا القرن التاسع عشر. فتحَ تولستوي النوافذَ وجذبني إلى عالمٍ لم أعرفْ عنه أيَّ شيء. واستَدعى فيَّ خاصَّةً شعورًا بالرَّأفة نحو الفقراء.

في الوقت الذي كان يكتبُ فيه، كان يوجَدُ في روسيا خمسون مليون من الأقنان (عبيد الأراضي) يعمَلون في أراضٍ إقطاعيَّة؛ وعاش نصفُ السكَّان تقريبًا بوصفهم عبيدًا فعليِّين يملكُهم سادتُهم. بالإضافة إلى عِزبة الأجداد حيثُ كان سيُقيم ويكتبُ، ورثَ تولستوي مئات من هؤلاء الفلَّاحين، وهو عددٌ كان تَذبذَبَ بقوَّةٍ عندما كان يخسرُ ويستَعيدُ هذه "النفوس" في نَوباتٍ من لعب القمار. لكنَّه بخلاف معظم مالكي الأراضي، كان يتنقَّل بين الفلَّاحين ويتعرَّفُ إليهم. في نهاية المطاف، قرَّر أنَّ الفلَّاحين يعيشون حياةً أكثرَ قيمةً وإثارةً للاهتمام من حياته في الطبقة الأرستقراطيَّة:

> "حياة الرجل العامل، بأشكالها المتنوِّعة اللَّامتناهية من العمل والمخاطر المرتبطة بهذا العمل، في البحر وتحت الأرض؛ ونزوحُه وتفاعلاتُه مع أرباب عمله، ما وراء البحار، ومع رفقائه من دياناتٍ وجنسيَّاتٍ أُخرى؛ صراعُه مع الطبيعة والوحوش المفترِسة، وارتباطُه بالحيوانات الأليفة، عملُه في الغابة والسهل والحقل والحديقة والبستان... جميع هذه بالنِّسبة إلينا نحن الذين ليس لدينا هذه الاهتمامات ولا نملك إدراكًا دينيًّا، تبدو رَتيبةً ومملَّة مقارنةً بهذه المتَع الصغيرة وباهتمامات حياتنا الثانويَّة، ليس حياة العمل أو الإنتاج، بل حياة استهلاك ما قد أنتجَه الآخرون لنا. نعتقدُ أنَّ المشاعرَ التي يعيشُها الناسُ الذين ينتمون إلى طبقتنا الاجتماعيَّة في أيَّامنا هذه مُهمَّةٌ ومتنوِّعة جدًّا؛ لكنْ في واقع الأمر، جميعُ مشاعر الناس من طبقتنا الاجتماعيَّة، هي ثلاثةُ أنواعٍ بسيطةٍ وغير مُهمَّة: شعورُ الكبرياء والشعور بالرَّغبة الجنسيَّة وشعورُ الضَّجر

والإرهاق من الحياة. هذه المشاعر الثلاث وما يتفرَّع منها تشكِّلُ الموضوعَ الوحيدَ تقريبًا لفَنِّ الطبقات الغنيَّة".

(ما الفنّ؟ [*What is Art?*])

إنَّ الفروقات بين حياة الفلّاحين العاديَّة وحياة الأغنياء المنغمسة في الملذَّات مثل حياته بدأت تنخرُ في نفس تولستوي وتشلُّ قدرته على الكتابة. يبدو أنَّ فلّاحيه كانوا يعرفون معنى *الحياة والعمل*، وكيف *يصبرون على المعاناة*، *ويعرفون مكانة الموت*، بينما هي أمورٌ غامضةٌ محيِّرة بالنِّسبة إليه. درسَ فلسفات بوذا (Buddha) وشوپنهاور (Schopenhauer)[٦] ويسوع بحثًا عن أجوبته عن هذه الأمور الغامضة، لكنَّه لم يجدْ أيَّة راحةٍ أو عون. في نهاية المطاف، قرَّرَ أنَّ المشكلةَ الرئيسةَ لا تعودُ إلى كَونه لم يفكِّر بشكلٍ صحيحٍ بقَدْر ما كانت في عيشه حياةً سيِّئة. وهو مثل طُفَيليٍّ محمولٍ على ظُهور عمَّاله، بالكاد كان يعيشُ حياةً حقيقيَّةً ذات مصداقيَّة. كتبَ قائلًا: "قلبي مقهورٌ بشعورٍ مؤلم لا أستطيعُ وصفَه إلَّا بأنَّه البحثُ عن الله. كان شعورَ خوفٍ ويُتْمٍ وانعزالٍ في أرضٍ غريبة، وشعورَ رجاءٍ بالمساعدة من شخصٍ ما".

أصبح البحثُ عن الحقيقة شديدًا حتَّى إنَّ تولستوي ابتعدَ عن مَهمَّته الفنِّيَّة، وبدلًا منها كان يسعى فقط إلى إيجاد حلولٍ لأسئلة المعنى المهمَّة. وأمام خَوفِ نُقَّاد الأدب والقرَّاء الذين كانوا يتوقون إلى المزيد من القصص العظيمة، كرَّس أفضلَ سنوات حياته للتأمُّلات الدِّينيَّة. وبصفته كاتبًا ورحَّالة، كان في صراع مع التوتُّر بين العالم كما هو وكما يجبُ أن يكون. ملأ مئاتِ الصَّفحات في دفاتر مُلاحظاته بمذكِّراته الروحيَّة، وألَّفَ كتابًا أخلاقيًّا وجماليًّا جدًّا بعنوان "**ما الفنُّ؟**"، وكتبَ كُتُبًا يشرحُ فيها معتقداته الدينيَّة.

---

٦) فيلسوفٌ ألمانيٌّ عاش ما بين عامي ١٧٨٨ و١٨٦٠م. عُرِفَ بطروحاته الفلسفيَّة الواضحة والتشاؤميَّة، كما ركَّزَ في أشهر مؤلَّفاته، وهو كتاب "**العالم بصفته إرادةً وتمثيلًا**" (*The World as Will and Representation*)، على موضوع الإرادة البشريَّة. أثَّرَت كتاباته وأقواله في عددٍ كبير من الفلاسفة والروائيِّين من أمثال نيتشه وكارل يونغ وفرويد، إضافةً إلى إحدى شخصيَّتَي هذا الفصل: ليو تولستوي (الناشر).

وكما كانت لتولستوي القدرةُ الفريدة على وَصْف العالم وكأنَّه أوَّل من رأى محراثًا يقلبُ كُتَلَ تراب قاسيةً، أو أوَّل مَن سمعَ الجليدَ وهو يتصدَّعُ على نهرٍ متجمِّد، فقد كان يتصرَّفُ وكأنَّه أوَّل من أخذَ الأناجيلَ على مَحمِل الجدّ. قرأ وصايا يسوع الصريحة والمباشرة وحاوَلَ أن يمارسها عمليًّا. قال يسوع للشابِّ الغَنِيّ، "بِع كلَّ مالك وأعطِ الفقراء فيكون لك كنزٌ في السماء". بعد أن قرأ هذه الآية، حرَّرَ جميعَ عبيده، وتخلَّى عن حقوق الطَّبع التي له، وبدأ يتخلَّصُ من أرضه وممتلكاته الضخمة. ولكي يعلنَ انتماءه إلى النَّاس العاديِّين، كان يرتدي ثيابَ الفلَّاحين ويصنعُ أحذِيَتَه بنفسه، وابتدأ يعمَلُ في الحقول.

إنَّ كتابات تولستوي الروحيَّة، بخلاف قصص الخيال، تثيرُ الجدلَ من كلِّ الجوانب. من ناحية، وجدَها المهاتما غاندي مؤثِّرةً بعُمق، ونَسَبَ الفضلَ إلى كتاب تولستوي "**ملكوت الله في داخلكم**" *(The Kingdom of God Is Within You)* بأنَّه ينبوعُ الإلهام لمبادئه الإرشاديَّة حول المقاوَمة السلميَّة والبساطة والفقر المتعمَّد. في أيَّام تولستوي، كان موكبٌ من المناصرين للمبادئ الفلسفيَّة المثاليَّة والثوَّار والساعين إلى القداسة والمنادين بالفَوضَويَّة يقصدون بيتَه للاستماع إلى كلماته القويَّة عن العدالة والكرامة البشريَّة. لكنْ مقابل كلِّ غاندي أثارَتْ حماستَه مُثُلُ تولستوي السامية، كان هناك قارئٌ آخرُ ينفرُ من فشله الذَّريع في تحقيق هذه المُثُل العُليا. إنَّ ما وجدَه تولستوي في الأناجيل جذَبَه مثل اللَّهب؛ واستنفده في نهاية المطاف فشلُه في تحقيقه.

كان تولستوي يتعذَّبُ من التوتُّر ذاته الذي يشعرُ به جميع المسيحيِّين إلى درجة ... التوتُّر الذي ضايَقَني بقوَّةٍ في أثناء مراهَقَتي، عندما كان يكتبُ عن إيمانه الديني ... يحاولُ أن يعيشَ ذلك الإيمان. كانت العداوةُ بين المُثُل العُليا والواقع تستَحوذُ عليه مثلما تسيطرُ روحُ مَيْتٍ على جسم إنسان. يُبيِّنُ الروائيُّ جون أبدايك (John Updike) الجانبَ الآخَرَ في هذه الملاحَظة حول مذكِّرات تولستوي التي تتألَّفُ من ثلاثة عشر مجلَّدًا: "إنَّ أشعَّةَ شمسِ فنِّ تولستوي، نادرًا ما تخترقُ صَومعةَ الراهب من خلال نزعته الأخلاقيَّة وازدراء الذَّات المتواصِلَين".

إنَّ محاوَلاتِ تولستوي تطبيقَ النَّزاهة والإصلاحات سبَّبتْ مشكلاتٍ لا نهايةَ لها في عائلته. عندما كان ضابطًا شابًّا في الجيش، جمعَ حَولَه مجموعةً من العشيقات، وكان يتردَّدُ على بيوت الدَّعارة، ويشاركُ في السُّكر والعَربَدة، وقد أُصيبَ عدَّةَ مرَّاتٍ بأمراضٍ منقولةٍ جنسيًّا. سجَّلَ بإخلاصٍ وأمانةٍ جميعَ هذه البلايا في مذكّراته، وقبل أربعة أيَّام من زواجه، أصرَّ على أن تقرأ خطيبتُه، وهي فتاةٌ مهذَّبةٌ في الثامنة عشرة من عمرها، السجلَّات الرهيبة. لم تتعافَ قطُّ بعدَ ذلك.

كتبَتْ سونيا تولستوي (Sonya Tolstoy) في مذكّراتها الخاصَّة: "عندما يقبِّلُني أفكِّرُ دائمًا في أنّي لستُ المرأة الأولى التي أحبَّها". كان باستطاعتها أن تغفرَ له انغماسَه في الملذَّات عندما كان في الجيش، لكن ليس علاقته بالفلَّاحة أكسينيا (Axinya) وهي امرأة كانت لا تزالُ تخدمُ في عِزبة تولستوي. في كلِّ مرَّةٍ كانت تنظرُ فيها إلى ابن أكسينيا، كانت ترى ملامحَ زوجِها مصغَّرة. وعندما أعلنَ أنَّه سيتخلَّى عن امتيازات نَشْرِ كُتُبه، اشتكَتْ من أنَّه كان سيَمنحُ ثروةً لأشخاص غريبي الطِّباع بينما "سيَبقى الخبز الأسود لأولاده وأحفاده". إنَّ عدم اهتمامه بالعِزبة دمَّر دَخْلَ العائلة، كما أنَّ تخلِّيه عن حقوق الطبع حرمَ ورثَتَه. إنَّ ما حسبَه ليو خطوات نحو القداسة، نظرتْ إليه سونيا على أنَّه حماقةٌ وإساءة للعائلة.

وبينما كنتُ أقرأ مذكّرات تولستوي، كنتُ أرى صُوَرًا من الماضي لاندفاعي غير الاعتياديِّ نحو الكمال. تُشيرُ يوميَّات تولستوي إلى العديد من الصراعات بينه وبين عائلته، لكنْ أكثر من ذلك بكثير، بين تولستوي ونفسه. إنَّ رغبتَه في الوُصول إلى الكمال قادَتْه لأنْ يبتكرَ لوائحَ جديدةً من القواعد غير مسبوقة. تخلَّى عن الصيد والتَّبغ والكحول واللحوم. وقرَّرَ أن يبيعَ أو يتخلَّى عن كلِّ ما هو ليس ضروريًّا- البيانو، والأثاث، والمركَبات- وأن يُعاملَ الناسَ بطريقةٍ واحدة، من الحكَّام إلى المتسوِّلين. صاغَ قواعدَ لتَنمية الإرادة العاطفيَّة، وقواعد لتَنمية المشاعر النبيلة ولإزالة المشاعر غير المحتشمة، وقواعدَ لإخضاع الإرادة لعاطفة المحبَّة.

لكنَّه لم يستطع مُطلَقًا أن يحقِّقَ انضباطَ الذات الضروريَّ للتَّقيُّد بقواعده. فقد احتفظَ بالبيانو والأثاث. تخلَّى عن العِزبة لزَوجته لكنَّه استمرَّ في العَيش فيها، وكان خادمٌ يلبسُ قفَّازاتٍ بيضاءَ يقدِّم إليه وجباته النباتيَّة. وأكثر من مرَّةٍ تعهَّد عَلَنًا بالتزام العفَّة (ألم يُوصِ الربُّ يسوع بها؟) وطلبَ أن تُفرَدُ له غرفةُ نَومٍ مُنفصِلة. لم يستطع أن يحافظَ على ذلك التعهُّد لمدَّةٍ طويلةٍ أيضًا ممَّا ألحقَ العارَ به. أُذيعَتْ إلى العالم الستَّ عشرة مرَّةً التي حبلت فيها سونيا. كتبَ في يوميَّاته أنَّ زَوجتَه كانت تمنعُه من تحقيق اكتفائه الروحيِّ بإصرارها على نمط حياةٍ "عاديّ". وبعد الاستسلام لغرائزه الجنسيَّة، كان يضيفُ عبارةً كهذه: "كان الأمرُ مثيرًا للاشمئزاز وكأنَّه بعدَ ارتكاب جريمة". استمرَّت سونيا في قراءة تلك اليوميَّات طوال حياته، الأمرُ الذي طالما آلَمَها.

في بعض الأحيان كان تولستوي ينجحُ في إنجاز الخير العظيم. عندما ضربت المجاعةُ منطقتَه، أمضى سنتَين وهو ينظِّمُ عملَ الإغاثة، ويَبني مستشفياتٍ بديلةً، ويقدِّمُ الرِّعاية إلى المحتاجين. وبعد انقطاع طويل عن الأدب كتب رواية أخيرة: "**القيامة**" *(Resurrection)*، وقد كان في سنِّ الحادية والسبعين دَعمًا لجماعة دوخوبورز (Dukhobors)– التي تنتمي إلى حركةٍ إصلاحيَّةٍ دينيَّةٍ من اثني عشر ألف شخصٍ، وقد عانت اضطهاد القيصر لها– متبرِّعًا بكلِّ دَخْله لتَمويل هجرتِهم إلى كندا. وكان لفَلسفة تولستوي السلميَّة المأخوذة مباشرةً من الموعظة على الجبل، تأثيرٌ كبيرٌ دامَ بعد وفاته في أحفادٍ أيديولوجيِّين مثل غاندي ومارتن لوثر كِنغ الابن.

لكنْ بكلِّ المقاييس، انتهى سعيُ تولستوي نحو القداسة بخَيبة أمل. باختصارٍ، فشلَ في ممارسة ما كان يَعِظُ به. عبَّرت زوجتُه بصورةٍ جيِّدة عن هذا الأمر (في سجلٍّ بدا واضحًا أنَّه مُتَحيِّز):

> "هناك القليلُ من الدِّفء الحقيقيِّ لديه؛ ولُطفُه لا ينبعُ من قلبه، لكنْ من مبادئه. ستَسردُ سِيَره الحياتيَّة كيفَ ساعَدَ العُمَّال

> على حَمْل أوعِية المياه، لكنْ لا أحَدَ سيعرفُ أنَّه لم يمنَحْ زوجتَه استراحة، ولم يعطِ ابنه قَطُّ- في هذه السنوات الاثنتَين والثلاثين كلِّها- شربةَ ماء، وهو لم يُمضِ خمسَ دقائقَ بجانب سريره ليَمنحَني فرصةً لأستريحَ قليلًا من كلِّ أعمالي".
>
> ("مذكِّرات سونيا" [Sonya's diary])

تساءلَتْ بعد مباراةِ صُراخ عنيفة: "أين محبَّته؟ فلسفته عن عدم المقاومة؟ مسيحيَّته؟" لم يُظهِرْ عاطفةً تُجاهَ الأولاد الذي استَهلَكوا الكثيرَ من حياتها. إنَّ الشخصَ الذي يجاهرُ بهذه المحبَّة للإنسانيَّة كان يَجِدُ صعوبةً في محبَّةِ فردٍ واحد، حتَّى أفراد عائلته.

إنَّ خطواته الحماسيَّة نحو الكمال لم تؤدِّ إلى أيِّ مظهرٍ من مظاهر السَّلام أو السَّكينة. وحتَّى لحظة وفاته استمرَّتِ المذكِّرات والرسائل تدورُ حول موضوع الفشل المسبِّب لمشاعر الأسف والألم، وتكشفُ عن الفجوة بين مُثُل الإنجيل العُليا وتناقُضاتِ حياته. لأنَّه كان صادقًا تُجاهَ خداع النفس، لم يستَطِعْ أن يُسكِتَ الضَّميرَ الذي أدانه. دعاه البعضُ مُرائيًا. لكنَّ المرائيَ يتَظاهَرُ عكسَ ما هو عليه؛ غير أنَّ تولستوي كان يعلَمُ أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخر كم كان مقصِّرًا.

كان ليو تولستوي رجلًا تَعِسًا جدًّا. كان الغضبُ يعتَمِلُ في صدره من الكنيسة الأرثوذكسيَّة الروسيَّة في أيَّامه، فاستَحقَّ الحرمان[٧] من الكنيسة. وانهارت خُطُطه نحو التحسين الذاتيّ. كان يُضطرُّ في بعض الأحيان إلى تخبئة الحبال في عِزبته وإبعاد بندقيَّاته لكي يقاومَ إغراءَ الانتحار. في النهاية، هربَ تولستوي من شهرته وعائلته وعِزبته وهُويَّته؛ تُوفِّيَ مُشرَّدًا في محطَّةٍ ريفيَّةٍ للسِّكَك الحديديَّة محاطًا بقرويِّين وصحفيِّين فضوليِّين من أنحاء العالم. لا تزالُ هناك صورةٌ مؤثِّرةٌ ماثِلةٌ للعِيان لسونيا

---

٧) في عام ٢٠٠١م، رفضَتِ الكنيسة الأرثوذكسيَّة الروسيَّة طلبًا من حفيد حفيد تولستوي لمراجعة كتاباته، لتكونَ خطوةً نحو إعادة النَّظر في مسألة حرمانه من الكنيسة.

وهي تنظرُ بقَلقٍ من خلال نافذةٍ قَذِرةٍ لتُلقي نظرةً على زوجها الذي كان مرتَمِيًا مَيْتًا في الداخل. رفض تلاميذُه أن يسمحوا لها بالدُّخول لئلَّا يزعجَه حضورُها.

في ضَوءِ هذه الإخفاقات، ما الذي يمكن أن أتعلَّمه من حياة تولستوي المأساويَّة؟ لقد قرأتُ الكثيرَ من كتاباته الدينيَّة، ومن المؤكَّد أنِّي أشعرُ نتيجةً لذلك بالإلهام بسبب تبجيله لمفهوم الله المطلق. يذكِّرُنا تولستوي بأنَّه خلافًا للَّذين يقولون إنَّ الإنجيلَ يحلُّ مشكلاتنا، فإنَّه في مجالاتٍ عديدة- قضايا العدالة، والمال، والعِرْق، والكبرياء والطموح الشخصيّ- يضيفُ الإنجيل في الواقع إلى أعبائنا.

في الأزمنة الحديثة، قد يكونُ من السَّهل الخَلْط ما بين الإنجيل و"الحلم الأميركيّ" عن القناعة والازدهار والوُجود الخالي من المتاعب. وجدَ تولستوي أنَّ يسوعَ يدعونا إلى ما هو أكثر من وجود بيتٍ جميلٍ وجيرانٍ لُطفاء. لقد تذوَّقَ الغنى والموهبة والتَّعليم والشُّهرةَ العالميَّة: "كنتُ أقولُ لنفسي، حسنًا ستَصيرُ أكثرَ شهرةً من غوغول (Gogol) أو پوشكين (Pushkin) أو شكسپير (Shakespeare) أو مولِيير (Molière)، أو أكثر من جميع الكُتَّاب في العالم- ولماذا؟ لم أستطع أن أجِدَ جَوابًا على الإطلاق". نظرَ تولستوي إلى سؤال يسوع التالي بجدِّيَّةٍ قُصوى: "ماذا ينتفعُ الإنسان لو ربح العالم كلَّه وخسر نفسه؟".

ليس من السهل صرف النظر عن رجلٍ كان راغبًا في تحرير عبيده والتخلِّي عن ممتلكاته لمجرَّد إطاعة وصيَّة يسوع. كان النُّبلاء الروس يشتَرون عبيدهم ويتاجرون بهم مثل الماشية، ويضربون بشراسةٍ الذين كانوا يعصونَهم- هذا في أمَّةٍ كانت تحسبُ نفسَها مَوطن كنيسةِ السيِّد المسيح النقيَّة. حرَّرَ تولستوي عبيدَه طَوعًا. لو اقتَدى الآخرون بتولستوي في ما يتعلَّقُ بقضايا العدالة، ربَّما ما كانت ثورةُ الكابوس[8] عام ١٩١٧م لتَحدُثَ أبدًا.

لو أنَّ تولستوي استَطاعَ فقط أن يَرقى إلى مستوى مُثُله العُليا، ولو كان بإمكاني

٨) المقصود هنا هو الثورة البلشفيَّة التي كرَّست حُكمَ الحزب الشيوعيّ، وقيام ما كان يُعرفُ بالاتِّحاد السوڤييتيّ ما بين عامَي ١٩٢٢ و١٩٩١م. وكان العام ١٩٩١م بداية تفكُّك الاتِّحاد السوڤييتيّ، والكتلة الشرقيَّة، وما كان يُعرفُ بحلف وارسو (الناشر).

فقط أنا أن أعيشَ بموجبها. ومع أنَّه وضعَ قواعدَ كثيرةً لنفسه، فإنَّه لم يستَسلم قَطُّ للتَّقيُّد الحرفيِّ الأجوف بالنَّاموس. إنَّ عنوان كتابه "**ملكوت الله في داخلكم**" يعبِّر عن ذلك بشكلٍ جيِّد جدًّا، حيث إنَّه سعى إلى استيعاب الناموس الأخلاقيِّ المثاليِّ في داخله.

قال تولستوي إنَّ النُّظُمَ الدِّينيَّة تميلُ إلى تعزيز القواعد الخارجيَّة: اليهوديَّة فعلت هذا، وكذلك البوذيَّة والهندوسيَّة والإسلام. لكنَّ يسوع وضع أسلوبًا مختلفًا برَفضه تحديدَ مجموعةٍ من القواعد الخارجيَّة يستطيعُ أتباعُه التقيُّد بها بشعورٍ من البرِّ الذَّاتيّ.

في فِقرةٍ محوريَّة، وضعَ تولستوي هذا التمييز بين أسلوب يسوع وأسلوب جميع الديانات الأُخرى:

> "إنَّ امتحان الالتزام بالتعاليم الدينيَّة الخارجيَّة هو ما إذا كان سلوكُنا يتَطابقُ مع أحكامها أم لا [احفَظْ يومَ السبت. اختَتِن. أعطِ عشورَك]. إنَّ هذا التَّطابُقَ هو في الواقع ممكنٌ.
>
> إنَّ امتحان الالتزام بتَعاليم يسوع هو إدراكنا الواعي لفشلنا في الوصول إلى الكمال المثاليّ. لا يمكنُنا أن نرى درجةَ اقترابنا من هذا الكمال؛ إذ إنَّ كلَّ ما نراه هو مَدى انحرافنا عنه.
>
> الرجلُ الذي يُجاهرُ بالنَّاموس الخارجيِّ يُشبهُ شخصًا واقفًا في ضَوء مصباحٍ مثبَّتٍ على عمود. يُنيرُ الضَّوءُ ما حوله من الجهات كلِّها، لكنَّه لا يستطيعُ السَّيرَ أبعدَ من ذلك. أمَّا الرَّجُلُ الذي يُجاهرُ بتعاليم السيِّد المسيح فهو يُشبِهُ رجُلًا يحملُ مصباحًا أمامَه على عمودٍ طويل، أو قصير: لكنَّ النُّورَ أمامَه دائمًا، ويحثُّه على المُضِيِّ قُدُمًا".

على الرُّغم من شَذَراتٍ من الحكمة في فِقراتٍ متفرِّقة، تبدو كتابات تولستوي الدينيَّة بشكلٍ رئيسيٍّ غير منتظمة وغير ثابتة. كان يرى مدى انحرافه والقليل فقط من سواه. عندما شخَّص أعمالَه الداخليَّة، ما رآه ملأه بالاشمئزاز: فشلٌ أخلاقيّ، نِفاق، عدم أمانة. ربّما لهذا السبب تقرأ قلّةٌ من الناس في أيّامنا هذه تأمُّلاته الروحيَّة. وبصفته مرشدًا، فإنَّه يقدِّم الإحباطَ والفشلَ أكثرَ ممَّا يُقدِّمُ الرَّجاء. إذا كان تولستوي قد تمكَّن بالكاد أن يساعدَ نفسَه، كيف نتوقَّع منه أن يُساعدنا نحن؟

ردًّا على هذا الانتقاد، أجاب تولستوي: "لا تحكُموا على مُثُل الله العليا المقدَّسة استنادًا إلى عدم قدرتي على تلبيتها. لا تحكموا على السيِّد المسيح من خلالنا نحن الذين نحملُ اسمَه بصورةٍ شائنة". تُبيِّن إحدى الفِقرات المأخوذة من رسالة شخصيَّة، بشكلٍ خاصّ، كيف ردَّ تولستوي على هؤلاء النُّقَّاد في أواخر حياته. إنَّها أشبَهُ ما تكونُ بتلخيصٍ لحَجِّه الرُّوحيّ، وفي آنٍ واحد، تأكيدٌ رنَّانٌ على الحقيقة التي آمن بها من كلِّ قلبه، وتوسُّلٌ مُدَوٍّ طلبًا للنِّعمة التي لم يستَوعِبْها تمامًا قَطّ.

> "وماذا بشأنك يا ليف نيكولايفتش (Lev Nikolayevich)، أنت تعظُ جيِّدًا لكنَّك لا تطبِّقُ ما تعظُ به؟ هذا سؤالٌ طبيعيٌّ أكثر من غَيره، وهو سؤالٌ يُطرحُ عليَّ دائمًا؛ وعادةً ما يُسأل بنبرةِ انتصارٍ وكأنَّه طريقةٌ لإقفال فمي. "أنت تعظُ، لكن كيف تعيش؟" فأُجيبُ بأنِّي لا أعظُ، ولستُ قادرًا على تقديم المواعظ، مع أنِّي أتمنَّى هذا من كلِّ قلبي. أستطيعُ أن أكرزَ من خلال أعمالي فقط، وأعمالي بغيضة... وأجيبُ بأنِّي مُذنبٌ وبغيضٌ وأستحقُّ الازدراءَ بسبب فشلي في تطبيق مُثُلي العُليا.

في الوقت ذاته، أقول، ليس لأبرِّر لكن لمجرَّد أن أشرحَ عدم ثباتي على المبدأ: "انظُرْ إلى حياتي الحاضرة ثُمَّ إلى حياتي السابقة، لتَرى أنِّي أحاولُ أن أطبِّقَ هذه المبادئ. صحيحٌ أنِّي لم

أحقِّقْ جزءًا من ألفٍ منها (المبادئ المسيحيَّة)، وأنا خَجِلٌ من هذا، لكنِّي فشلتُ في تحقيقها ليس لأنِّي لم أرغَبْ في ذلك، بل لأنِّي لم أستَطِعْ أن أحقِّقها. علِّمني كيف أهربُ من مشكلة التجارب التي تحيط بي، ساعِدْني فأحقِّقَها؛ حتَّى دون مساعدةٍ أتمنَّى وأرجو أن أحقِّقها.

"انتقدني، أنا أفعل هذا بنفسي، ولكنْ انتقدني أنا بدلًا من انتقاد الطريق الذي أتَّبعُه والذي أشيرُ إليه عندما يسألني أيُّ إنسانٍ عن مكان وجودك بحسب اعتقادي. إذا كنتُ أعرفُ طريقَ الوُصول إلى البيت وأنا أسيرُ فيه في حالةِ سُكرٍ، هل يصيرُ الطريقُ صحيحًا بدرجةٍ أقلَّ لمجرَّد أنِّي أترنَّحُ من جانب إلى آخر! إنْ لم يكن هو الطريقَ الصحيح، إذًا أرني طريقًا آخر. لكنْ إذا ترنَّحتُ وأضعتُ الطريق، عليك أن تساعدَني، يجبُ أن تُبقيَني على الطريق الصحيح، كما أنِّي على استعدادٍ لمؤازرتك. لا تجعَلْني أتوه، ولا تفرحْ لأنِّي أضعتُ الطريق، لا تصرخ بفرحٍ: "أنْظُرْ إليه! قال إنَّه ذاهبٌ إلى البيت، لكنْ ها هو يزحفُ في مستنقع!" كلَّا، لا تشعرْ بِالرِّضا والسُّرور، لكن قدِّم لي مساعدتَكَ ومؤازرتَك"".

أشعرُ بحزنٍ عندما أقرأ كتابات تولستوي الدينيَّة. إنَّ رؤيا الأشعَّة فوق البنفسجيَّة داخل القلب البشريِّ التي جعلَتْ منه كاتبًا روائيًّا عظيمًا جعلَتْه أيضًا مسيحيًّا مُعذَّبًا. مثلُه مثلُ سمكِ السلمون عند التَّكاثر، يجاهِدُ عكسَ التيَّار طوال حياته، وفي النهاية ينهارُ من الإرهاق المعنويّ. مثل ولدٍ صغيرٍ آمنَ "بعصا خضراء" سحريَّة حُفِرت عليها كلماتٌ ستُحطِّمُ كلَّ الشرِّ في قلوب الرجال والنساء وتمنحُهم الصلاح. لم يجد تلك العصا الخضراء قطّ، ولم يتوصَّلْ بتاتًا إلى قبول سقوط الإنسانيَّة، بما فيها نفسه. اعتقدَ أنَّ إرادتَه كافيةٌ لطَرْد الشَّرّ، لكنَّها خذلَتْه. في روايته الأخيرة، "**القيامة**"، يدركُ

أحَدُ أبطاله "بكلِّ وضوح أنَّ الوسيلةَ الوحيدة للخَلاص من الأخطاء الرهيبة التي تقاسي منها البشريَّة هي اعترافُ كلِّ إنسانٍ أمام الله بأنَّه خاطئ، فهو يكون بذلك غير مؤهَّلٍ لمعاقبة الآخرين أو إصلاحهم".

لكنِّي أشعرُ بالعرفان لتولستوي لأنَّ سَعيَه الدؤوبَ وراء الإيمان الحقيقي أثَّر فيَّ تأثيرًا لا يُمحى. عرفتُ رواياته أوَّلَ مرَّة في فترةٍ كنت أعاني فيها التأثيرات المتأخِّرة "لإساءة الكنيسة". تحتوي الكنائسُ التي نشأتُ فيها على الكثير من الخداع، أو على الأقلِّ هكذا رأيتُها في غرور الشباب. عندما لاحظتُ الصَّدعَ ما بين المُثُل العُليا للإنجيل وعيوب أتباعه، مِلتُ بشدَّةٍ لأنْ أتخلَّى عن هذه المُثُل غير القابلة للتَّحقيق بصورةٍ تدعو إلى اليأس. ثُمَّ اكتشفتُ تولستوي. كان الكاتبَ الأوَّلَ، بالنِّسبة إليَّ، الذي أنجزَ أكثرَ المهامِّ صعوبةً: جَعَلَ الخيرَ جاذبًا وقابلًا للتصديق مثل الشرِّ تمامًا. وجدتُ في رواياته وقصصه الخرافيَّة وقصصه القصيرة مصدرًا للقوَّة الأخلاقيَّة.

تبحثُ رواياتٌ حديثةٌ كثيرة في قضايا الفساد وأمورٍ أُخرى ثانويَّة. تابعَ تولستوي، الذي كان قد ارتوى من ذلك الفساد، ارتقاءَه إلى الأعلى، نحو رؤية ما يمكن أن نكونَ عليه وينبغي أن نكون عليه، نحو قاعدة المحبَّة التي كان دائمًا يتوقُ إليها لكنَّه لم يحقِّقْها قَطّ. إنَّ سَعيَه الباطلَ ساعَدَ على إقناعي بأن فشلي في تحقيق الحقيقة كاملةً لا يقلِّلُ من قيمة الحقيقة ذاتها، لكنَّه يُشير بدلًا من ذلك إلى حاجتي المستمرَّة إلى إلقاء نفسي على رحمة الله. إنَّ فكرةً ما لا يمكنُ أن تكونَ مسؤولةً عن الذين يُعلنون إيمانَهم بها. تعلَّمتُ مع تولستوي أن أقولَ للنُّقَّاد: "...انتقدوني بدلًا من انتقاد الطريق الذي أتبعُه". بفضل ماضيه الفاسق، عرفَ تولستوي أنَّ طُرُقًا أُخرى كانت تقودُ حتَّى إلى أبعد من الحقيقة.

قال مكسيم غوركي (Maxim Gorky)، وهو أحَدُ مُعاصري تولستوي الأكثر مَوهبة: "أنا لستُ يتيمًا على الأرض ما دام ذلك الرَّجلُ حيًّا". لقد رفعَ نظرَ أُمَّة بكاملها، ولا تزال كتاباته اليوم تحملُ تلك الرِّسالة إلى العالم. منذ بضع سنوات، تسلَّمَ أحَدُ أصدقائي، وهو أستاذٌ جامعيٌّ يدرِّس الأدب، صرخةً محمومةً طَلَبًا

للمُساعدة من تلميذةٍ سابقة كانت تخدمُ وقتها في مخيَّمٍ مُزرٍ للَّاجئين بتايلاند. كانت تُجري يوميًّا مُقابَلاتٍ مع أشخاصٍ كانوا قد فرّوا من كمبوديا وڤيتنام وتستمعُ إلى قصصهم عن وحشيَّة الإنسان وشرّه. قالت إنَّها بالكاد كانت تؤمنُ بصَلاح الإنسان. وبالكاد كانت تؤمن بالله. هل كان من الممكن أن يُرسلَ لها بعض الكُتُب التي تساعدُ على إنعاش إيمانها؟ اختارَ صديقي خمسةَ كُتُب، كان أوَّلها كتاب تولستوي "**القيامة**". تلك الرواية الأخيرة التي تتحدَّثُ بشأن حبٍّ جامحٍ لمومسٍ سابقةٍ قد تعرَّضَتْ للإساءة، وشعور الرجل الذي أساءَ إليها بالذَّنب، وهي روايةٌ تمثِّل أقربَ مدًى وصلَ إليه تولستوي في فهمه للنِّعمة.

تنتهي إحدى أروع روايات تولستوي، "**آنا كارنينا**"، بفِقرتَين تؤرِّخان يقظةَ ليڤن (Levin) الروحيَّة، وهو شخصيَّةٌ رئيسيَّة. يقولُ ليڤن: "إنَّ المعرفةَ التي لا يمكنُ الحصولُ عليها بالتَّفكير المنطقيِّ قد أُعلِنَت لي بصورةٍ واضحة وبما لا يدع مجالًا للشَّك، وأنا أحاولُ بكلِّ عنادٍ أن أُعبِّرَ عن تلك المعرفة بالكلمات وبمنطقي الخاصّ". عندما قرأتُ كلمات ليڤن الختاميَّة، لم أستطعْ إلَّا أن أرى فيها صورةَ تولستوي نفسه، رجاؤه اليائس وأحلامه غير المحقَّقة معًا:

> "هذا الشعورُ الجديد لم يغيِّرني ولم يجعَلْني سعيدًا ولا أنارني فجأةً كما حلمتُ أنَّه سيفعل- مثل شعوري نحو ابني. ولم أُصَب بالدَّهشة بشأنه أيضًا. لكنْ سواءٌ كان إيمانًا أم لم يكن- لا أعرف ما هو- فإنَّ ذلك الشعورَ قد دخلَ نفسي بصورةٍ غير مُدرَكة من خلال المعاناة، وأقامَ هناك بقوَّة.
>
> سأظلُّ أغضبُ من سائق عربتي إيڤان (Ivan)، وسأظلُّ أناقشُ أفكاري وأعبِّر عنها في وقتٍ غير مواتٍ؛ وسيَظلُّ هناك جدارٌ ما بين قدس أقداس نفسي والناس الآخرين، حتَّى زَوجَتي. وسأظلُّ ألومُها على مخاوفي وسأندم على ذلك؛ وسأظلُّ غير قادرٍ على

الإدراك بمنطقي السبب الذي من ورائه أنا أُصلّي وسأستمرُّ في الصلاة- لكنَّ حياتي، حياتي بكاملها، غيرُ مقيَّدة بأيِّ شيءٍ قد يحدُثُ لي، وكلُّ لحظة فيها لم تعُدْ بعدَ الآن دون معنًى؛ إذ إنَّ لها معنى الصلاح الذي لا يقبلُ الجَدَل، وأنا لديَّ القوّة لأستثمرَها".

استَطَعتُ أن أقبل لنفسي تلك العقيدة، التي تدركُ فورًا إصرار عدم كمالها وصلاحها الذي لا يقبل الجدل.

إنَّ قراءةَ تولستوي ودوستويفسكي غيَّرت نظرتي إلى ما يمكن إبلاغُه بالكلمات. قرأتُ عدَّةَ كُتُب عن اللّاهوت والدفاعيَّات، مع بعض الاستفادة والكثير من الإحباط. بدت بعضُ الحُجَج من الفلاسفة الملحدين، مُقنعةً بالدَّرجة نفسها على المستوى الفكريّ. لكنْ عندما قرأتُ أعمالَ هذين الروسيَّين، نفذَ إليَّ جوهرُ الحقيقة المسيحيَّة بصورة أكثرَ عمقًا. تعلَّمتُ قوَّةَ القصَّة، قوَّةَ الحقيقة التي يُعبَّرُ عنها في شكلٍ متجسِّدٍ دون مناقشةٍ ودون جَدَل. إنَّ مفاهيمَ مثل النِّعمة والغفران التي تشكِّلُ جَوهر الإنجيل، لا تُعالج إلَّا قليلًا في الكثير من كُتُب اللّاهوت. ابتدأتُ أُدركُ السبب الذي من أجله كان يسوع يعتمدُ بقوَّةٍ على القصَّة: تخبرُنا قصَّة الابن الضَّالِّ بمعظم ما نحتاج إلى معرفته عن الفداء، وتخبرنا قصَّة السامريِّ الصالح بمعظم ما نحتاج إلى معرفته عن الأخلاق. قارَنَ يسوعُ ما بين فَرِّيسيٍّ لديه لاهوتٌ نظاميٌّ دقيق، بخاطئٍ لا يستطيع أن يفعلَ شيئاً إلَّا أن يصرخَ طَلَبًا للمُساعدة- وبالتَّأكيد، سمعَ الله صرخةَ الخاطئ.

تؤكِّدُ كتاباتُ تولستوي المبدأ ذاتَه بينما تنتقلُ من نَوع أدبيٍّ إلى آخر. وتُناقضُ كتاباته الدينيَّة بعضُها بعضًا وتعتمدُ على العقلانيَّة الصارخة. لكنْ في أفضل قصصه، تتبخَّر رائحةُ الدِّعاية. لا تقدِّمُ رواياتُه العقيدةَ والأخلاقَ على أنَّها مُثُلٌ عُليا مجرَّدة، بل باعتبارها قُوى الحياة المتجسِّدة في شخصيَّاتٍ حقيقيَّة. إنَّ تصويرَه الخياليَّ للحياة، حقيقةَ الرِّجال والنساء التي تعلَّمها عبر ملاحَظَتهم بعَينه التصويريَّة- تضمَّنَ في داخله جوهرَ الإنجيل

الذي غابَ عن بحوثه العقلانيَّة. كان تصويرُ تولستوي للفِداء أفضلَ من شرحه له.

للأسف، لم يسمح تولستوي قَطُّ لذلك الإنجيل بأن يجلبَ الطُّمأنينة إلى حياته. لاحَظ إيه. أن. ولسون (A. N. Wilson)، وهو كاتبُ سيرة حياة تولستوي، أنَّ "ديانتَه كانت من الناموس وليس النعمة، وكانت مخطَّطًا لتَحسين حياة الإنسان بدلًا من رؤيةٍ لله تخترق عالمًا ساقطًا". استَطاعَ تولستوي بوُضوحٍ وشفافيَّة أن يرى عدمَ كفايته الشخصيَّة في ضَوء مثال الله الأعلى. لكنَّه لم يستَطعْ أن يتَّخذَ الخطوةَ التاليةَ في الثِّقة بنعمة الله للتَّغلُّب على عدم كفايَته.

بعد فترةٍ وجيزةٍ من قراءة أعمال تولستوي، اكتشفْتُ مواطنَه فيودور دوستويفسكي. عاش هذان الشخصان وعملا في الفترة نفسها من التاريخ، هما يُعدَّان أشهرَ الكُتَّاب الرُّوس وأكثرهم إنجازًا. ومع أنَّهما قرأا أعمال بعضهما بعضًا بإعجاب، فإنَّهما لم يلتَقيا قَطّ. مثل الكواكب التي تدور في أفلاكها، دارا حول المدن ذاتها، يجذبان الاهتمام ويحرِّران قوَّةً هائلة، لكنَّ مساراتِهما لم تتقاطَعْ قَطّ. ربَّما كان هذا أفضل- لقد كانا ضدَّين في كلِّ شيء.

في حين أنَّ تولستوي كتبَ روايات متفائلة ومشرقة، كتبَ دوستويفسكي رواياتٍ كئيبةً ومُبهَمة. وفي حين عالج تولستوي خُططًا جماليَّةً لتَحسين الذَّات، كان دوستويفسكي يبدِّدُ بشكلٍ دوريٍّ صحَّتَه وثروتَه على العلاقات الغراميَّة والكحول والقمار. كان لدى تولستوي برنامجُ عملٍ منضبط؛ في المقابل، كان دوستويفسكي يعملُ طوال الليل في كتابة قصصٍ كثيرةٍ غير مَدروسة بوتيرةٍ محمومة لكي يسدِّد ديون القمار. قصدَ الآلافُ بيتَ تولستوي طالبين الحكمة؛ ولم يكن أحدٌ ليفكِّرَ في الذَّهاب إلى دوستويفسكي طلبًا لها. لم يكن ناجحًا اجتماعيًّا، وكان يديرُ أموالَه بشكل سيِّئ حتَّى إنَّه لم يكن لديه في بعض الأحيان المال ليَدفعَ رسوم البريد لإرسال رواية كاملة إلى الناشر. كان يعاني حالات الصَّرع، وربَّما تدفعُه نَوبةُ صَرعٍ شديدةٌ إلى حالةٍ من اليأس تدومُ عدَّة أيَّام بعد ذلك.

ارتكبَ دوستويفسكي أخطاءً كثيرةً في حياته، لكنَّه أنجزَ عملًا بطوليًّا في الفنّ. تَنقُلُ رواياتُه إلى القرّاء النعمةَ والمغفرة، جوهرَ الإنجيل المسيحيِّ بقوّة تولستيَّة. علَّمني دوستويفسكي علاجَ نواحي الفشل المتواصلة التي كشفَها لي تولستوي.

في مرحلةٍ باكرةٍ من حياته، اختبرَ دوستويفسكي قيامةً ظاهريَّة. كان قد أُلقي القَبضُ عليه لانتمائه إلى مجموعةٍ حكمَ عليها القَيصر نيقولا الأول (Tsar Nicholas I) بأنَّها خائنة، ولكي يؤكِّدَ لهؤلاء الراديكاليِّين الشباب الذين أُخلي سبيلُهم بشروطٍ فَظاعةَ أخطائهم، نظَّمَ إعدامًا زائفًا. بعدَ تمضية ثمانية أشهر في السجن بانتظار الحكم، فجأة، وفي صباحٍ شديدِ البُرودة قبل ثلاثةِ أيّام من عيد الميلاد، صدرَ أمرٌ إلى المتآمرين بالخروج من زنزاناتهم ونُقلوا في عربةٍ إلى ساحة عامَّة حيثُ أُصيبوا بالرُّعب عندما قرأ مسؤولٌ رسميٌّ إدانتهم والحكم عليهم بالموت. لم يكن لديهم وقتٌ لاستيعاب الأخبار، ولم يكن هناك احتمالٌ بالاستئناف. وكانت فرقةُ الإعدام جاهزةً. ساروا في موكبٍ في الثلج أمام جمهورٍ يحدِّق فيهم بحماقة ورؤوسُهم مكشوفة، بينما يرتَدون أكفانًا بيضاءَ للدَّفن وأيديهم مقيَّدةٌ وراءَهم.

لفظَ كاتبُ المحكمة الكلمات "أجرة الخطيَّة مَوت" لكلِّ سجين ورفعَ صليبًا ليُقبِّله. حُكم على أوَّل ثلاثة بالموت، ثُمَّ رُبطوا على عمود. وفي اللحظة الأخيرة عند سماع الأمر "استعداد، تصويب"، وبينما كانت أصوات الطبول تهدرُ، وتُجهَّز البندقيَّاتُ لتُرفعَ إلى الأكتاف، جرى فارسٌ سريعًا ومعه رسالة أُعدَّت مسبَّقًا من قِبَل القيصر قال فيها: إنَّه رحمةً بهم، سيُخفِّفُ عقوبتَهم إلى الأشغال الشاقَّة. كان دوستويفسكي من عائلةٍ نبيلة وكان هناك سيفٌ مَكسورٌ فوق رأسه وهو علامةُ عار. سقطَ أحَدُ السُّجَناء على ركبتَيه وصرخ قائلًا: "القيصر الصالح! يعيشُ قَيصرنا". أُصيبَ سجينٌ آخر بانهيار عقليٍّ لم يتعافَ منه بتاتًا.

بطريقةٍ مختلفةٍ جدًّا، لم يتعافَ دوستويفسكي أيضًا من هذه التَّجرِبة. كان قد حدَّقَ في فوّهة الموت، ومنذ تلك اللحظة، صارت الحياةُ بالنسبة إليه ثمينةً أبعَدَ من كلِّ حساب. عندما عادَ إلى السجن، كان يسيرُ ذهابًا وإيابًا في زنزانته وهو يغنّي بفرح

هائلٍ لأنَّه استعادَ حياتَه. كتبَ إلى أخيه قائلًا: "لم تفِضْ في داخلي من قبل هذه الحياة الروحيَّة الوافرة وهذا السلام كما يحدُثُ الآن... حياتي الآن ستتغيَّر، وسأولَدُ ثانيةً بشكلٍ جديد". ثُمَّ طوى كفنَ الدَّفن ليحفظَه تذكارًا لهذه الواقعة.

كانت محنتَه التاليةَ نقلُه إلى سيبيريا. عندما دقَّت الساعةُ مُعلنةً منتصف الليل في يوم عيد الميلاد، قيَّدَ الحرَّاسُ قدمَيه بأصفاد تزنُ عشرة أرطال (نحو ٤,٥كغم) وقادوه سَيرًا إلى مزلجة مكشوفة تقودُها الأحصنة. ولمدَّة ثمانية عشر يومًا في البرد القارس الذي سبَّبَ له لسعةَ الصَّقيع، احتمل الرحلة بتلك المزلجة. توقَّفَتِ القافلةُ بضعةَ أيَّامٍ في سيبيريا قبل التوزيع الأخير للسُّجناء، وسمحَ الضابط الآمرُ بزيارةٍ قامت بها ثلاثُ نساء، زوجات سجناء سياسيِّين كنَّ قد ظَلَلْنَ هناك ليمكُثْنَ بجانب أزواجهنّ. جعلَتِ النسوةُ الثلاثُ مهمَّتهنَّ التَّرحيبَ بالسُّجناء الجُدُد ومحاولة جَعْل إقامتهم مريحة. كانت إحداهنَّ امرأةً تقيَّةً درسَتِ الفلسفةَ الألمانيَّة، وكانت تعرفُ الكتاب المقدَّس عن ظهر قلبٍ تقريبًا، وقد قدَّمت إلى دوستويفسكي العهدَ الجديد، الكتابَ الوحيدَ المسموح به في السجن. همسَتْ في أُذُنه أنَّه يجبُ أن يفتِّشَه بدقَّة، ووجد فيه عشر روبيات.

لأنَّ دوستويفسكي آمنَ بأنَّ الله أعطاه فرصةً ثانيةً ليُحقِّقَ دعوتَه، تأمَّلَ طويلًا في العهد الجديد في أثناء احتجازه. كتبَتِ ابنتُه إيمي (Aimee) بعد سنوات: "درسَ المجلَّدَ الثمينَ من الغلاف إلى الغلاف متأمِّلًا في كلِّ كلمة. وحفظَ معظمَه عن ظهر قلب، ولم ينسَه بتاتًا. أضحَتْ كلُّ أعماله مُشبعةً به، الأمرُ الذي جعلَها قويَّةً ومؤثِّرة".

وحتَّى بعد إخلاء سبيله، كان دوستويفسكي يأخذُ كتابَ العهد الجديد في أثناء سفراته ويحتفظ به في درج طاولةِ الكتابة الخاصَّة به، دائمًا في مُتَناوَلِ اليَد.

أمضى دوستويفسكي السنوات الأربع التالية في الأشغال الشاقَّة، ومن ثَمَّ ستَّ سنواتٍ أُخرى في المنفى. في نهاية ذلك العقد برزَ بقناعاتٍ مسيحيَّةٍ لا تتزعزع، كما عبَّر عن ذلك في رسالةٍ كتبَها إلى المرأة التي أعطَتْه العهدَ الجديد: "هذه العقيدةُ بسيطة، وهي: الإيمانُ بأنْ لا شيءَ أكثرُ جمالًا وعُمْقًا ورحمةً وعقلانيَّةً ورجولةً وكمالًا

من السيِّد المسيح، لا بل أكثر، إذا برهنَ لي شخصٌ ما بأنَّ السيِّد المسيح يخلو من الحقّ، فأنا أفضِّل أن أبقى مع السيِّد المسيح بدلًا من البقاء مع الحقّ".

عانى دوستويفسكي كثيرًا في أثناء وجوده في السجن. قادته أعصابُه المضطربة إلى نَوباتِ صَرَعٍ شديدةٍ كانت تَرميه أرضًا وهو يصرخُ ويزبدُ وأطرافه تتشنَّج. وغالبًا ما كان يستَلقي في مستَشفى السجن ليُعالَج من مرض الروماتيزم بالإضافة إلى الصَّرَع. وكان يفتقدُ بشدَّةٍ إلى الحصول على المؤلَّفات الأدبيَّة لقراءتِها، وينكمشُ خوفًا بسبب القتال المستمرِّ والشَّغبِ العامّ، ويُصابُ بالتقرُّحات من الأصفاد، ويتوق إلى لحظة من الوَحدة بعيدًا عن الضجيج- وهي حاجةٌ قرَّرَ أنَّها مُلحَّةٌ مثل الطعام والشراب. في أثناء السنوات التي أمضاها في السجن، لم يتسلَّمْ أيَّةَ رسالةٍ من عائلته.

كان ردُّ فعل بعض زملائه السجناء على عقوبتهم هو الكراهية والتعطُّش إلى الانتقام. بشكلٍ مدهش، عاد دوستويفسكي إلى الحضارة بفرحٍ في الحياة متجدِّد وبتفاؤلٍ حول طبيعة الإنسان. وأبعَدَ عن ذهنه ذكريات الوقوف لساعاتٍ عند فتحة في السياج ورأسه يستندُ إلى الأوتاد السِّياج بينما يراقبُ المروجَ الخضراء وزرقة السماء العميقة؛ كان أحَد مواقع العمل المحدودة وهو "المكان الوحيد الذي رأينا فيه عالم الله- أفق نقيٌّ ومشرق، وسهول الصحارى التي أثَّرَ جفافُها فيَّ تأثيرًا غريبًا".

تذكَّرَ لطفَ المرأة التي أعطَتْه العهدَ الجديد والفتاةَ الصغيرةَ التي أتت راكضة إليه بينما كان يسيرُ في الشارع مع حارس وهي تصرخ: "خُذْ هذا الكوپك (Kopek) أيُّها الرجل المسكين العاثر الحظِّ باسم السيِّد المسيح!" احتفظَ بالقطعة النقديَّة كما احتفظ بالعهد الجديد وبكفن الدفن كتذكار. تذكَّر فترةً في أثناء حبسه الانفرادي عندما كان يُفتحُ مصراع نافذةٍ في باب الزنزانة ويهمس صوتٌ مجهول: "تشجَّع يا أخي، نحن أيضًا نعاني". ورسائلُ النعمة القصيرةُ هذه التي أقحمَت نفسها في خِضَمّ المعاناة وجدَتْ مكانًا لها في رواياته التالية.

فوق كلِّ شيء، كان دوستويفسكي يفرحُ في سخاء الحياة. كتبَ قبل ساعات من الإعدام الزائف، "الحياة عطيَّة. الحياة سعادة، كلُّ ثانيةٍ يمكن أن تكونَ دَهرًا من السعادة... الحياة في كلِّ مكان، الحياة في داخلنا وليست في الخارج". عندما استعادَ حرِّيَّته، كتب:

"أحبِبْ كلَّ ورقةٍ وكلَّ شعاعٍ من النور.
أحبِبِ الحيوانات، أحبِبِ النباتات، أحبِبْ كلَّ شيءٍ على حِدة.
عندما تحبُّ كلَّ شيء؛ ستلمسُ سرَّ الله في الكلّ".

لم أتوقَّعْ هذه الموجة من الفرح من دوستويفسكي. قرأتُ رواياته في أثناء فترةٍ مُظلمةٍ من حياتي، بعد أن انغمستُ في روايات الوُجوديِّين. عشتُ في أرضٍ مُسطَّحةٍ عاطفيًّا. وقفتُ بعيدًا عن الناس وأصدرتُ الحكمَ عليهم، واقتربتُ من المعارف الجُدُد بشَكّ. أجل! كان باستطاعة الناس أن يُقنِعوني، لكنَّ الأمرَ كان مجرَّدَ إقناع. وجدتُ نوعَ شخصيَّتي فاقدة القدرة على الإحساس في رواية دوستويفسكي "**رجل تحت الأرض**" *(Undergound Man)*، ثُمَّ تابعتُ لأقابلَ شخصيَّاته الأُخرى التي تفيضُ بالخَير والصَّلاح ممَّا جعلَها تبرزُ في تَبايُنٍ حادّ. لم أستطع إلَّا أن ألحَظَ التَّناقُض: تولستوي الذي كان لديه كلُّ شيء، انتهى بوصفه شخصًا سريعَ الغضب وملآنًا بالمرارة، في حين انتهى الأمرُ بدوستويفسكي الذي فقد كلَّ شيء بأنْ صارَ شخصًا مُقرًّا بالجميل وملآنًا بحيويَّةٍ وحماس.

منحَ السجنُ دوستويفسكي فرصةً فريدةً بدَتْ أوَّل وهلةٍ لعنةً: أرغمَتْه هذه الفرصة على أن يعيشَ في أماكنَ قريبة من إقامة اللُّصوص والقَتَلة والفلَّاحين السكارى. لقد كان أسوأ ألم كابدَه في السجن، كما فكَّر في ما بعد، هو الكراهية المحضَة التي واجَهَها عند الفلَّاحين السُّجَناء الذين كانوا ينظرون إليه بوصفه واحدًا من الطبقة العُليا المحتقَرة. وجاء هذا الكَشْفُ ليكونَ أشبَهَ بصَدمةٍ كبرى له؛ حيثُ إنَّ أصدقاءَه الأرستُقراطيِّين كانوا يقودون حركةَ الإصلاح لتأمين حقوق الناس نفسهم الذين وجدَ

نفسَه الآن يحتقرُهم. إنَّ حياتَه المشتَرَكة مع هؤلاء السجناء أدَّت في وقتٍ لاحقٍ إلى تصويرِ شخصيَّاتٍ لا مثيل لها في رواياته، مثل شخصيَّة القاتل راسكولنيكوف (Raskolnikov) في رائعته "**الجريمة والعقاب**" *(Crime and Punishment)*.

إنَّ نظرةَ دوستويفسكي التحرُّريَّة للخَير المتأصِّل في البشريَّة لا يمكنُ أن تقلِّل من الشرِّ المحض الذي وجدَه في زملاء زنزانته، وكان على لاهوته أن يتكيَّفَ مع هذا الواقع الجديد. لكنْ بمرور الوقت، استَطاعَ أن يلمحَ صورةَ الله في أكثر هؤلاء السجناء انحطاطًا، ومثلُه مثلُ تولستوي، اكتشفَ أنَّ بقايا المسيحيَّة التقليديَّة ظلَّت حيَّة في الفلَّاحين، حيث وجدَ أنَّها الرجاءُ الوحيدُ لبَدايةٍ جديدة. ثُمَّ بدأ يؤمنُ بأنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أن يكونَ قادرًا على محبَّة الآخرين إلَّا من خلال شعوره بمحبَّة الآخرين له. رأى دوستويفسكي أنَّ جزءًا من مَهمَّته هو "رفعُ الوُضعاء". وفي الروايات المتألِّقة والمعقَّدة التي كان سيَتابعُ كتابتَها، حقَّقَ هذه المهمَّة وبرَّأ في أعين الروس المثقَّفين طبقةَ الفلَّاحين والمنبوذين المجرمين.

رأى نفسَه مثل الابن الضالِّ يُقيمُ في بلدٍ بعيدٍ وسط القشور والخنازير. خَلُصَ إلى أنَّ كلَّ محكوم يشعرُ مع الابن الضالِّ بأنَّه **ليس في بيته**، لكنَّه في زيارة. الرجاء، "هذا الرجاءُ الغريبُ والقويُّ وعديمُ الصبر"، بأنَّ شيئًا ما ينتظرُه خارج جدران السجن، هو ما يحفظُ السَّجين حيًّا، حرفيًا. بالنِّسبة إلى دوستويفسكي، صارَ الرَّجاءُ وراء القضبان رمزًا للرَّجاء الأبديِّ الذي شعرَ به مثل وَميضٍ عندما سمعَ الحكمَ بالموت في الساحة العامَّة. كان قد همسَ لصديقٍ بجانبه قائلًا: "سنكون مع السيِّد المسيح" (أجابَه صديقُه الملحد باقتضاب، "[سنكون] **حفنةً من تراب**") صارَ دوستويفسكي يؤمنُ به، يؤمن بالخلود باعتباره السبيلَ الوحيدَ لرؤية هذه الحياة على أنَّها أيُّ شيءٍ ما عدا أنْ لا معنى لها.

في ذلك الوقت، كان المفكِّرون الرُّوس يتَسلَّون بفلسفة العدميَّة (Nihilism) الجديدة والمثيرة التي تنكرُ الوُجود، وهي تقومُ على الاعتقاد أنْ لا شيءَ له أهمِّيَّة وأنَّ الأخلاقَ كلَّها هي اعتباطيَّة، والله المحبَّ لا يسيطرُ على العالم، وجميعَ تصرُّفات

محدَّدةٌ سَلَفًا بتَكويننا البيولوجيّ، كما اعتقدت أنَّ الحبَّ شعورٌ جسديٌّ لا ينفصلُ عن الشهوة الجسديَّة. بعد إخلاء سبيله من المنفى، ردَّ دوستويفسكي على كلِّ واحدٍ من هذه الادِّعاءات تباعًا في كتاباته. لم يجادل ضدَّها لكنَّه بيَّنَ العواقبَ المترتِّبة على الحياة وفقًا لتلك الأفكار. تسردُ روايته "**المسكون**" *(The Possessed)* مثلًا، قصَّةً مبنيَّةً على حادثة حقيقيَّة، وتحكي عن ثُوَّارٍ ملتزمين يقتُلون أحَدَ أفراد مجموعتهم بوصفها الوسيلةَ الأكثرَ ملاءَمةً لتَسوية الخلافات معه. وتُبيِّن رواية "**الجريمة والعقاب**" النتيجة النهائيَّة "لرجلٍ غير اعتياديّ" من أتباع نيتشِه يعيشُ فوق معايير الأعراف الأخلاقيَّة، ويرتكبُ جريمتَين فقط على سبيل التَّجرِبة.

ولكنْ، على الدوام، كانت أصواتُ النعمة واضحةً، حتَّى لم أفهَم النِّعمة إلَّا في روايات دوستويفسكي، ليس بوصفها مفهومًا لاهوتيًّا، بل واقعًا حيًّا يعمَلُ في عالم اللَّانعمة. ومع أنَّ رواية "**الجريمة والعقاب**" تصوِّرُ كائنًا بشريًّا محتقَرًا يرتكبُ جريمةً محتَقَرة، فإنَّ بلسمَ النعمة المُسكِّن يدخلُ حياة راسكولنيكوف من خلال شخصيَّة المومس سونيا التي تحوَّلت إلى الإيمان، والتي تبعَتْه كلَّ الطريق إلى سيبيريا وقادته إلى الخلاص. كتبَ دوستويفسكي، "**الحبُّ أحياهما من جديد. كان قلبُ أحَدِهما يضمُّ مواردَ حياةٍ لا محدودة لقلبِ الآخر**". وفي رواية "**الأبلَه**" *(The Idiot)*، يقدِّمُ دوستويفسكي شخصيَّةَ السيِّد المسيح في هيئة أميرٍ غريبٍ مُصابٍ بالصَّرع لا يمكنُ التَّكهُّن بتَصرُّفاته. يتنقل الأمير مايشكن (Myshkin) بهدوءٍ وغموضٍ بين دوائر الطبقة الروسيَّة العُليا ويكشفُ رياءَهم، في حين ينيرُ أيضًا حياتَهم بالخير والحقّ. يقدِّمُ المشهدُ الأخير من رواية "**الأبله**" صورةَ النِّعمة الأكثر إثارةً للمَشاعر في كُتُب الأدب كلِّها: الأمير "الأبله" يحتضنُ بحنانٍ الرجلَ الذي قتلَ لتَوِّه المرأةَ التي كان الأميرُ يحبُّها.

في عالمٍ يحكمُه القانون، تظهرُ النعمةُ بصفتها علامةً على التَّناقض. نريدُ الإنصاف؛ ويقدِّم إلينا الإنجيلُ رجلًا بريئًا مُسمَّرًا على صليبٍ وهو يصرخ، "اغفرْ لهم يا أبتاه". نريدُ قدرًا كبيرًا من الاحترام؛ لكنَّ الإنجيل يرفعُ من شأن العشَّارين والضالِّين والسامريِّين. نريدُ النجاح؛ لكنَّ الإنجيل يعكسُ الشروط وينقلُ الفقراءَ والمسحوقين إلى

المقدَّمة، والأغنياءَ والمعروفين إلى الوراء. وحيثُ إنَّه قَبِلَ السيِّدَ المسيحَ في سجنٍ قمعيٍّ لا يُطاق من سجون سيبيريا، بين رفقاءِ الزنزانة الذين استهزأوا بعيوبه واحتقروا ميِّزاته، فَهِمَ دوستويفسكي النعمةَ في أكثر تناقُضاتِها. في رواياته، تدخلُ النعمةُ بخفيَةٍ وسرِّيَّةٍ ودون إنذار، وتُسكِتُ المشكِّكين وتجرِّدُ المزدَرين بالفَضائل من سلاحهم. يعتقدون أنَّهم فَهِموا الحياةَ إلى أن تتركَهم مواجَهةُ النعمة النقيَّة مَقطوعي الأنفاس.

هذا ما حدث لدوستويفسكي نفسه. كانت الدُّيون قد تراكمَتْ عليه من القمار ومشروع مجلَّةٍ فاشل. وكان قد خدعَه ناشرٌ بلا مبادئ أرادَ الحصولَ على حقوق الطبع لكلِّ مؤلَّفاته السابقة في حال عدم نشره روايةً جديدةً بحلول تاريخ محدَّد. ماطلَ دوستويفسكي، حيث كان يعاني شحَّ الأفكار للكتابة (Writer's block)، حتَّى قبل ثلاثة أسابيع من الموعد النهائيّ. بدت المَهمَّةُ مستحيلةً، وأصابَه اليأسُ من الحياة إلى أن أتت آنا لتُساعدَه، وهي فتاةٌ في التاسعةَ عشرةَ من عمرها ماهرةٌ في طباعة الاختزال (Stenography). وإذ كان قد عانى نَوبةَ صَرَعٍ في اليوم السابق، أضحى مزاجُه غايةً في السوء. عامَلَها بقَسوة في البداية، وزجرَها، وكان يتذمَّر من سرعتها. كتَبتْ كلَّ كلمةٍ تفوَّه بها، وكانت تعملُ في أثناء الليل ثُمَّ تذهبُ إلى بيتها لتنسخَها وتعودَ إليه بمخطوطةٍ منقَّحة في اليوم التالي. بهذه الجهود الجبَّارة، كسبت ثقتَه وأقنعَتْه بأسلوبٍ لطيف بكتابة رواية "**المقامر**" *(The Gambler)* التي سُلِّمَتْ قبل يومَين من الموعد المحدَّد.

في غضون ذلك، عرفَ دوستويفسكي سِحرَ المُختزلة وجاذبيَّتَها، وعرضَ عليها الزَّواج. لم تشعرْ آنا بأيِّ انجذابٍ جسديٍّ نحوه، فهو أرملٌ غير مرتَّب يكبرُها بخمسٍ وعشرين سنةً اشتُهر بضعفه أمامَ الكحول والقمار. لكنَّها أشفقَت عليه وعرفت أنَّه كان في حاجةٍ إليها. وافقت بتَضحيةٍ شخصيَّةٍ كبيرةٍ على الزَّواج، وانتقلَتْ لتُقيمَ معه وتنظِّمَ مهنتَه وبيتَه، وأعطَتْه خمسَ عشرة سنةً من السعادة– "سنوات الأعجوبة" كما دعاها كاتب سيرته، حيث كتبَ دوستويفسكي في تلك الفترة روائعَ مؤلَّفاته كلِّها.

إن آخر رواية له، "**الإخوة كارامازوف**" *(The Brothers Karamazov)*، وهي إحدى أعظم الروايات التي كُتبَت، ترسمُ التَّناقضَ ما بين إيڤان اللّاأدريِّ اللّامع وأخيه الوَرِع أليوشا (Alyosha). يستَطيعُ إيڤان تحليلَ فَشَل الجنس البشريِّ وانتقادَ كلِّ نظام سياسيٍّ مُصمَّم للتَّعامل مع هذه الإخفاقات، لكنَّه لا يستطيعُ أن يقدِّمَ حلولًا. ليس لدى أليوشا أجوبةٌ عن المشكلات الفكريَّة التي يُثيرُها إيڤان، لكنَّ لديه حلًّا للبشريَّة: المحبَّة. قال أليوشا: "أنا لا أعرفُ الجواب عن مسألة الشَّرّ، لكنّي أعرفُ المحبَّة". يوضِحُ إيڤان الحُجَّةَ ضدَّ الله بالقوَّة نفسها التي يوضِحُها بها أيُّوب. ينهضُ أليوشا وهو غيرُ قادرٍ على الكلام يملأه العطفُ والحنان، ويذهبُ نحوه ويقبِّله بلُطف- كما قد فعلَ السيِّدُ المسيحُ لمعذِّبه في قصيدة إيڤان الرائعة "**المحقِّق العظيم**" *(The Grand Inquisitor)*.

تتضمَّن روايةُ الإخوة كارامازوف كلَّ عنصرٍ مهمٍّ في حياة دوستويفسكي المأساويَّة: قَتْلُ والدِه الوحشيُّ على أيدي العبيد الذين كانوا يعملون في أرضه؛ رَفْضُه من قِبَل المؤسَّسة الأدبيَّة، الاعتقالُ والإعدامُ الزائف، سنواتٌ في مخيَّم السجن، علاقاتٌ جنسيَّةٌ خارجَ إطار الزَّواج، عذابُ الحبِّ غير المتبادَل، الصَّرَع، انتفاخُ الرئة، زواجٌ صعب، موتُ الأطفال من المرض، عبءُ الديون الثقيلة، القمار. كان يدرسُ سفرَ أيُّوبَ في أثناء كتابته "**الإخوة كارامازوف**"، ولم يستَثنِ أيَّ جانبٍ من كَربه ومعاناته. بعد شهرَين من الانتهاء من الرواية، وكأنَّه لم يتبقَّ لديه شيءٌ ليَقولَه، تُوفِّيَ وهو مُفلِسٌ حسب الظاهر. وعند وفاته، كان في حضنه العهد الجديد الذي حصلَ عليه في طريقه إلى سيبيريا قبل سنواتٍ عديدة.

يلخِّصُ المؤلِّفُ فريدريك بوشنر (Frederick Buechner) رواية "**الإخوة كارامازوف**" بأنَّها "حساءُ سمكٍ يغلي. إنَّه كتابٌ استطراديٌّ ومترامي الأطراف، يحوي شخصيَّاتٍ كثيرةً وروايةً طويلةً جدًّا، ومع ذلك فهو كتابٌ، لأنَّ دوستويفسكي تركَ فيه مجالًا ليُدرجَ فيه كلَّ ما قد يطرأ، وهو يدخلُ هنا ليس أقلَّ من الروح القدس نفسه، وهكذا يصيرُ حسب اعتقادي روايةً تتحدَّثُ بشكلٍ أقلَّ بشأن الاختبار الدينيِّ من كَونِها روايةً تُعدُّ قراءَتُها بحدِّ ذاتها اختبارًا دينيًّا: عن الله في حضوره الخفيِّ وفي غيابه المروِّع".

عندما قرأتُ "**الإخوة كارامازوف**" للمرَّة الأولى، شعرتُ بأنِّي أقفُ إلى جانب إيڤان. كانت لديَّ قائمةٌ طويلةٌ من الشَّكاوى بشأن العالم، وكانت لديَّ حُجَجٌ سليمةٌ ضدَّ ظُلم الله وعدم إنصافه. كنتُ أشعرُ بالغضب والاستياء من الله. وكما قال دوستويفسكي: "**ألا يمكنُ أن أُتَّهَمَ دون أن يُتوقَّع منِّي أن أحمدَ الذي يلتهمُني؟**" على الرُّغم من أنِّي كنتُ معذَّبًا بسبب اختفاء المحبَّة في العالم، فإنِّي مع ذلك لم أكُنْ أفعَلُ شيئًا حيال ذلك. كنتُ أفتقرُ إلى غريزة أليوشا للخَير العامِّ والتجاوب الحاني.

عند ذلك بدأتُ أرى ما قد تعلَّمه دوستويفسكي في السجن: ينفذُ إنجيلُ النِّعمة إلى العالم ليس من خلال الكلمات والحُجَج العقلانيَّة في المقام الأوَّل، بل من خلال الأعمال، من خلال المحبَّة. الأشخاصُ الذين تعلَّمتُ أن أُعجَبَ بهم أعظمَ الإعجاب مثل پول براند وروبرت كولز كانوا يعبِّرون عن إيمانهم بالأعمال، بصورةٍ تجسيديَّة. وعندما كنتُ أسافرُ إلى دُوَلٍ أُخرى- البرازيل، ونيپال، والفلپين، وغينيا- كنتُ أجدُ أشخاصًا متواضِعين يواجِهون كلَّ يوم مشكلاتٍ بشريَّةً أكثرَ تطرُّفًا ممَّا أستطيعُ تخيُّلَه، ومع ذلك كانوا يستَجيبون ليس بالشكِّ أو الاستياء، بل بشفقةٍ ومحبَّة. لقد جعلَني دوستويفسكي أرى العواقبَ المنطقيَّة لحياةٍ مبنيَّةٍ على مَذهبِ الشَّكِّ وإنكار الوُجود؛ وجعلَني الخدَّامُ المسيحيُّون الأحياء أرى النتائجَ المنطقيَّة لحياةٍ مبنيَّة على الإيمان والمحبَّة. تعلَّمتُ أنَّ اتِّباعَ يسوع لا يعني إيجادَ حلٍّ لكلِّ مشكلةٍ بشريَّة- السيِّدُ المسيح نفسُه لم يحاولْ أن يفعلَ هذا- بل يعني الاستجابةَ كما فعلَ هو: منحَ النعمةَ مقابلَ كلِّ المنطق والمحبَّة للأشخاص الأقلِّ استحقاقًا لها.

على العموم، المفكِّرون في أيَّام دوستويفسكي لم يجدوه مُقنِعًا. إنَّ إيمانَه بالمسيحيَّة الكامنة في الطبقات الدُّنيا، ودعوتَه إلى الإحسان والرَّحمة، وانعدامَ ثقته بأحدث نظريَّات الهندسة الاجتماعيَّة- جميع هذه كشفته بوصفه أخلاقيًّا من الطراز القديم غير قادرٍ كلِّيًّا على معالجة مشكلات روسيا الحديثة. لقد اختاروا طريقًا آخر- طريقَ الأخلاق المبنيَّة على مبدأ المنفعة المتحرِّرة من التعالي. قال دوستويفسكي في "**الإخوة**

كارامازوف" محذِّرًا: "دون الله كلُّ شيء مسموح". يُبيِّنُ القرنُ العشرين كم كان دوستويفسكي يتمتَّعُ بسابقِ علمٍ وبصيرة. كتبَ دوستويفسكي أيضًا، "يجب أن ينحنيَ الإنسانُ لشيءٍ ما". في حالة روسيا في القرن العشرين، اختارَ البشرُ الانحناءَ بعضُهم لبعض، وقدَّسوا لينين (Lenin) في ضريحه وحسبوا ماركس (Marx) وستالين (Stalin) كالأنبياء. وسجدَ الملحِدون لآلهةِ الإنسان بدلًا من الإله الإنسان، فكانَتِ النتائجُ أكثرَ مَأساويَّةً من أيَّةِ عواقبَ رآها كوكبُنا من قبل.

في خطابه لعام ١٩٨٣م، بعد مرور ١٠٢ سنة على وفاة دوستويفسكي، استعرض ألكسندر سولزينتسين (Alexander Solzhenitsyn)[٩] تاريخَ روسيا المأساويَّ في القرن العشرين. وفي مكانٍ آخر، قال إنَّه من خلال قراءة أعمال دوستويفسكي بدأ يفهمُ للمرَّة الأولى تقدُّم الروحانيَّة على المادِّيَّة. وهذا ما فتحَ الطريقَ أمام تجرِبةِ التحوُّل إلى الإيمان، وأيضًا جرى ذلك (مثل دوستويفسكي) في معسكر السجن، مما غيَّر مجرى حياته، وفي نهاية المطاف أثَّر في مسار أُمَّته. هذا ما قالَه في خطابه:

> "منذ أكثر من نصف قرن، بينما كنتُ طفلًا، أذكُرُ سماعَ عددٍ من المسنِّين يقدِّمون التفسيرَ التَّالي للكوارث التي حلَّت بروسيا: "نَسِيَ الناسُ الله، لهذا السبب حدثَ كلُّ هذا". منذ ذلك الحين أمضيتُ خمسين سنةً تقريبًا وأنا أكتبُ تاريخَ ثَورتِنا، وخلال تلك العمليَّة قرأتُ مئات الكُتُب، وجمعتُ مئاتِ الشهاداتِ الشخصيَّة، وساهمتُ بثمانية مجلَّدات في سبيل الجهود لإزالة القِطَع المبعثَرة الباقية من ذلك الاضطراب العنيف. لكنْ لو سُئِلتُ اليومَ أن أصوغَ بأكبر دقَّةٍ ممكنة السببَ الرئيسيَّ للثَّورة التي تسبَّبت في الهدم، والتي ابتلعت ستِّين مليون نسمة تقريبًا

---

[٩] معارضٌ للنِّظام السوفييتيّ، عاش ما بين عامي ١٩١٨ و٢٠٠٨م (الناشر).

من شعبنا، لَمَا استطعتُ أن أعبِّر عنه بدقّةٍ أكبر من ترديد القول القديم: "نَسِيَ الناسُ الله، لهذا السبب حدثَ كلُّ هذا"''.

لماذا لم تطبَّقْ عمليًّا؟ بدأتُ بهذا السؤال عن الكنيسة المسيحيَّة، مَصدرِ الكثير من شكوكي الأساسيَّة. تستَدعي المُثلُ العُليا المسيحيَّةُ الإعجابَ حتَّى من غير المؤمنين، لكنْ ما فائدة هذه المُثل إن لم أتمكَّنْ من ممارستها عمليًّا؟ قدَّمَ مفكِّران روسيَّان عظيمان أجوبةً مختلفةً عن عثرة الإيمان هذه. أسَّس تولستوي فلسفتَه على الاعتقاد أنَّ الطبيعةَ البشريَّةَ يمكنُ أن تبلغَ الكمال. واستنتجَ أنَّ هذا لا يُطبَّق لأنَّنا لا نحاول أن نبذلَ جَهدًا كافيًا، على الرُّغم من أنَّه حاوَلَ جاهدًا أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخر، ولم ينجَحْ في حلِّ التَّناقُضات داخل نفسه، ناهيك بِتَناقُضات الآخرين. عشرُ سنوات في سيبيريا حرَّرتْ دوستويفسكي من هذا الوهم: "يوجد في كلِّ رَجُلٍ شيطانٌ مختبئ"، قال إيڤان كارامازوف وهو إحدى شخصيَّاته. لم يكن لديه خلافٌ مع تولستوي حول المثاليَّة التي ينبغي أن تكافحَ روسيا من أجل الوصول إليها، غير أنَّ هناك العديدَ من الاختلافات على الطريق المؤدِّية إلى هناك.

عندما كان دوستويفسكي في المنفى، وقبل زواجه من آنا، كان قد تزوَّج زواجًا متهوِّرًا بأرملةٍ لديها ابنٌ شابّ. عادا إلى سانت بطرسبرغ (St. Petersburg) معًا، لكنَّه لم يكن زواجًا أسعدَ من زواج تولستوي. إنَّ نَوباتِ الصَّرع التي كانت تُصيبُ فيودور، بالإضافة إلى قذارته وإهماله بشكلٍ عامّ، جعلت ماريا (Marya) تشعرُ بالنُّفور والاشمئزاز. كانت تُصابُ بنَوباتٍ من الغضب الهستيريّ، مما أدَّى إلى جَعْلِ نَوبات صَرَعه أسوأ. ذهبَ في رحلاتٍ طويلة إلى أوروپا، بحثًا عن علاجٍ لمرضه، وإلى حدٍّ ما، ليَبتعدَ عنها. لقد كان زواجُهما فاشلًا.

بعد سبع سنوات من الزَّواج، توفِّيت ماريا دوستويفسكي بداء التدرُّن الرئويّ (السلّ). وعلى نحوٍ يميِّزه إلى أبعد حدّ، كان زوجُها يُمضي معظمَ وقته في أثناء مرضها في رحلاتٍ إلى أوروپا مع عشيقة في العشرين من عمرها. والآن، بعد عودته بسبب

وفاتها، جلسَ في الغرفة بجانب جثمانها يغلبُ عليه الحنينُ إلى أوقاتِهما الأكثر سعادةً معًا، والحزن على وفاتها، والندم على سلوكه. بقي ساهرًا طوال الليل بجانب نعشها وهو يدوِّن باختصارٍ وعلى عجلٍ على ضَوء نور الشمعة. بدأ يكتب: "ماشا (Masha) مستلقية على الطاولة، هل سأرى ماشا ثانيةً يا ترى؟".

قادَتْه تأمُّلاتُه الكئيبة في تلك الليلة إلى مناقشةٍ غريبةٍ حول الخلود. عند الإجابة عن سؤالِ إنْ كان سيَرى زوجتَه مرَّةً أُخرى، تجاهَلَ دوستويفسكي الحُجَجَ التقليديَّة- مثلًا من قيامة يسوع أو من الحاجة إلى تحقيق التَّوازن في ميزان العدالة- وحوَّل الوثيقةَ إلى نوع من الاعتراف الشخصيّ. إنَّه يقرُّ بأنْ لا أحَدَ يستطيعُ أن يرتقيَ إلى مستوى المثال الأعلى. لا يستطيعُ أحَدٌ أن يحبَّ قريبَه كنفسه. ولا أحَدَ يستطيعُ أن يحقِّقَ ناموس السيِّد المسيح. لا يمكنُ لله أن يطلبَ الكثيرَ ويكون راضيًا بذلك القدر الضئيل. لقد صُنِعنا لشيءٍ كبيرٍ جدًّا لأجل ذلك الذي هو كبيرٌ جدًّا بالنِّسبة إلينا. ولهذا السبب يخلُصُ إلى أنَّه يجبُ أن يؤمنَ بالحياة بعد الموت. من دون هذا الإيمان، لن يكونَ لصراعنا الذي لا جدوى منه لتَحقيق ناموس السيِّد المسيح هدفٌ أو تأثير. إنَّ توقُّفَنا وفشلَنا وشعورَنا بعدم اكتمالنا يدفعُنا إلى إلقاء أنفسنا على رحمة الله. إنَّ عدمَ كمالنا في هذه الحياة يستَدعي وجودَ حياةٍ أُخرى، تكونُ تحقيقًا أكثرَ اكتمالًا لذلك المثال الأعلى.

وهكذا يضيفُ دوستويفسكي قدرًا من التَّوق والتمنِّي والنعمة، إلى المُثُل المسيحيَّة العُليا التي تَشاركَها مع تولستوي. أنا أوكِّدُ اليومَ أنَّ هذين الروسيَّين هما مرشداي الروحيَّان لأنَّهما يساعدان على الإجابة عن شكوكي الأساسيَّة بإلقاء الضَّوء على التَّناقُضِ المركزيِّ للحياة المسيحيَّة. من تولستوي، أتعلَّم الحاجةَ إلى النظر إلى الداخل، إلى ملكوت الله الذي في داخلي. من تلك النظرة، أرى مدى فشلي الذَّريع وعجزي عن تحقيق مُثُل الإنجيل العُليا. لكنِّي أتعلَّم من دوستويفسكي المدى الكامل للنِّعمة. ليس فقط ملكوت الله في داخلي؛ بل الله نفسه يسكنُ هناك أيضًا. "حيثُ كثُرَت الخطيَّة، كَثُرت النعمةُ أيضًا"، هكذا عبَّر عنها الرسول بولس في رسالة رومية.

توجَدُ طريقةٌ واحدةٌ لنا لحلِّ التَّنافُر بين مُثُل الإنجيل العُليا وواقعنا الكئيب: أنْ نَقبَل حقيقةَ أنَّنا لن نكونَ بمستوى هذه المُثُل العُليا، ولكنَّنا لسنا مضطرِّين لأنْ نكونَ في مستواها. اكتشفَ تولستوي نصفَ الحقيقة: أنَّ أيَّ شيءٍ يجعلُني أشعرُ براحة تُجاهَ معيار الله الأخلاقيّ، أيَّ شيءٍ يُشعرني بأنِّي "أخيرًا وصلت"، هو خداعٌ قاسٍ. واكتشفَ دوستويفسكي النصفَ الآخرَ للحقيقة: أنَّ أيَّ شيءٍ يجعلُني أشعرُ بعدم الارتياح تُجاهَ محبَّة الله الغفورة هو أيضًا خداعٌ قاسٍ. "لا دينونة على الذين هم في المسيح يسوع"، هكذا أكَّدَ بولس، ولم يستَوعبْ ليو تولستوي تمامًا هذه الرسالة.

المُثُلُ العُليا المطلَقة والنعمة المطلقة: بعد أن تعلَّمتُ هذه الرسالة من الرِّوائيَّين الروسيَّين، رجعتُ إلى يسوع ووجدتُ أنَّ تعاليمَه حافلةٌ بها. في ردِّه على الشابِّ الغنيِّ، وفي مثل السامريِّ الصالح، وفي ملاحَظاته حول الطلاق أو المال أو أيَّة مسألة أخلاقيَّة، لم يخفِّضْ يسوعُ قَطُّ من مثال الله الأعلى. قال: "كونوا كاملين كما أنَّ أباكم السماويَّ كامل"؛ "أحبِب الربَّ إلهك من كلِّ قلبك ومن كلِّ نفسك ومن كلِّ فكرك". لم يمتَثلْ أحَدٌ بشكلٍ كاملٍ لهذه الوصايا، لا تولستوي ولا فرنسيس الأسيزيّ ولا الأمّ تريزا.

ومع ذلك، فإنَّ السيِّدَ المسيح ذاتَه منحَ بكلِّ محبَّةٍ وحنانٍ نعمةً مُطلَقة، التي هي ربَّما أعظم ما يميِّزُ العقيدةَ المسيحيَّة. يحبُّنا الله ليس بسبب ما نحن عليه وما فعلناه لكن بسبب طبيعته. النِّعمة تتدفَّقُ إلى جميع الذين يقبَلونَها. غفرَ يسوعُ لزانيةٍ وللِصِّ على الصَّليب، ولتلميذٍ أنكرَه زاعمًا أنَّه لم يعرفْه البتَّة. النعمةُ مُطلَقةٌ وشاملة. إنَّها تُمنَح حتَّى لأشخاصٍ سمَّروا يسوعَ على الصَّليب: "اغفرْ لهم يا أبتاه لأنَّهم لا يعلَمون ماذا يفعلون"، كانت هذه من بين كلماته الأخيرة التي تفوَّه بها على الأرض.

قرأتُ العهدَ الجديد، لا سيَّما فِقراتٍ مثل الموعظة على الجبل، بروحٍ مختلفة الآن عمَّا كانت عليه في فترة مراهقتي. لم يُعلِنْ يسوعُ هذه الكلمات المجيدة لكي نقطِّبَ حاجبَينا، مثل تولستوي، في يأسٍ من فشلنا في تحقيق الكمال. لكنَّه أعلنَها

ليَمنحَنا مثالَ الله الأعلى الذي يجبُ ألَّا نتوقَّفَ عن السعي إليه، ولكي يُرينا أيضًا أنْ لا أحَدَ منَّا سيَصلُ إلى ذلك المثال. تُرغمُنا الموعظة على الجبل على إدراك المسافة الكبيرة بيننا وبين الله، وأنَّ أيَّة محاوَلةٍ لتَقليص تلك المسافة بتَخفيف مطالبها بطريقةٍ أو بأُخرى، تجعَلُنا ننحرفُ تمامًا عن الهدف. نحن جميعًا يائسون، وهذه هي في الواقع الحالةُ الوحيدةُ التي تُناسبُ الإنسانَ الذي يريدُ أن يعرفَ الله. ما دمنا قد قصَّرنا تجاهَ المثُل الأعلى، كما فعلَ تولستوي، لم يَعُدْ لدينا مكانٌ نحطُّ فيه إلَّا مع دوستويفسكي في شبكة أمانِ النِّعمة المطلَقة.

لنبدأ مع ليو تولستوي وفيودور دوستويفسكي

إنَّ أعظمَ روايات تولستوي هي "**الحرب والسلام**" و"**آنا كارنينا**". غير أنَّ كلتَي الروايتَين طويلتان، وقد يفضِّل القرَّاء الجُدُدُ أن يبدأوا برواياته القصيرة التي يمكنُ أن تكونَ جذَّابة وساحرة. أنا أُوصي برواية "**موت إيفان إليتش**"، "**السيِّد والرجل**" *(Master and Man)* و"**سوناتا كروتزر**" *(The Kreutzer Sonata)* بالإضافة إلى بعض قصصه الخياليَّة. ومن بين سِيَر تولستوي الحياتيَّة الكثيرة، تُعدُّ السِّيرةُ التي كتبَها هنري تروايا (Henri Troyat) كلاسيكيَّة، في حين أنَّ جهود أيه. أن. ويلسون (A. N. Wilson) الحديثة هي أكثرُ سلاسةً وأكثرُ ذاتيَّة. وكتاب وليَم أل. شيرر (William L. Shirer)، "**حبٌّ وكراهية**" *(Love and Hatred)* يركِّزُ على زواج تولستوي المؤلم، ويسردُ أمورًا أكثرُ ممَّا يحتاجُ إليها المرء. جمعَ ويلسون أيضًا مختاراتٍ من كتابات تولستوي الدينيَّة في مجلَّدٍ صغير، "**الأسد وشهد العسل**" *(The Lion and the Honeycomb)*، الذي اقتطعتُ منه مقتَطَفاتٍ في هذا الفصل.

أنتجَ دوستويفسكي رواياتٍ أطولَ من المعهود، ولا سيَّما "**الإخوة كارامازوف**"، و"**الأبله**"، و"**الجريمة والعقاب**"، و"**المسكون**". تُعطينا روايةُ "**بيت**

الأموات" *(The House of the Dead)* فكرةً عن أيّام سجنه؛ وكان لرواية "**ملاحظات من تحت الأرض**" *(Notes from the Underground)* تأثيرٌ كبيرٌ في الأدب الوجوديّ في ما بعد. نشرَ جوزيف فرانك (Joseph Frank) أربعةَ مجلّدات من أصل خمسة لاحقة لسيرة دوستويفسكي، وهي سجلٌّ ذو سيادةٍ عن حياته يقدّم الكثير في ما يتعلّق بالخلفيّة التاريخيّة والثقافيّة، ومن ثَمَّ فهو يُلقي الضَّوء على ما حدثَ بعدَ ذلك في روسيا. وهناك كتابٌ نُشِر من قِبَل "دار نشر پلاو" (Plough Publishing House) بعنوان "**الإنجيل في دوستويفسكي**" *(The Gospel in Dostoevsky)* يقتَطفُ صراحةً فِقراتٍ دينيَّةً من رواياته.

الفصل السابع

المهاتما غاندي

(Mahatma Gandhi)

أصداءٌ في أرضٍ غريبة

ماذا لو عرَفَ شابٌّ كلماتِ يسوع الصارمة في كتابات ليو تولستوي، وبدأ يأخذ منذ ذلك الحين هذا السؤال على مَحمِل الجِدّ "ماذا كان يسوع ليَفعلَ؟" ماذا لو قرَّر أن يتَعاملَ مع كلِّ شخصٍ يقابله- المتسوِّل المشرَّد في الشارع، أو المليونير، أو العُمدَة، أو المرأة التي تنظِّفُ مِرحاضَه- باهتمامٍ وكرامةٍ واحترام؟ ماذا لو وزَّع كلَّ ممتلكاته، ما عدا الضروريَّات القليلة ممَّا يُمكنُ حملُه في حقيبة الظَّهر؟ ماذا لو أصرَّ على تمضية فتراتٍ طويلةٍ في التأمُّل اليوميّ دون أن يسمحَ البتَّة لجدوَل أعمالٍ مزدحم أن يتداخَلَ مع وقته المخصَّص للصَّمت والعُزلة؟ ماذا لو تجنَّب كلَّ وسائل الراحة العصريَّة ونأى بنفسه عن التأنُّق وارتداء أحدث الأزياء، وكرَّس حياتَه لتَنمِيَة القوَّة الداخليَّة الروحيَّة؟

بالإضافة إلى هذا، ماذا لو صارت هذه الشخصيَّة المنعزلة، على الرُّغم من غرابة أطوارها، أحَدَ أكثر الأشخاص شهرةً في العالم، والقائدَ الروحيَّ للدَّولة الثانية في العالم من حيثُ عددُ السُّكَّان؟ ولتَعقيد الأمور بشكلٍ أكبر، ماذا لو قرَّر هذا الشخص الذي كانت حياتُه على غرار حياة يسوع، حينما كان بالغًا، أن يبقى عامدًا خارجَ الحظيرة المسيحيَّة؟ هذه هي حياة "موهاندَس كاي. غاندي" (Mohandas K. Gandhi)، والذي عاش ما بين عامَي ١٨٦٩ و١٩٤٨م، وعاشَ حياةً

ملفتةً للنَّظر. لم يوجَدْ إنسانٌ مثله. لم يوجَدْ شخصٌ أكثرُ انضباطًا أو عنادًا أو تَناقُضًا أو إبداعًا أو محبَّةً أو غضبًا مثله. إنَّ كثيرًا من المبادئ السياسيَّة التي نسلِّمُ جَدَلًا بصحَّتها اليوم نشأت في عقل هذا الرجل الذي قاد نحو خُمس البشريَّة إلى الاستقلال. كسرَ كلَّ قانونٍ في دليل الاستخدام السياسيّ، وفي أثناء هذه العمليَّة، ساعَدَ على تأسيس أكبر ديمقراطيَّةٍ في تاريخ العالم.

بعد مرور خمسين سنة على وفاته، نستطيعُ على الأقلّ أن نبدأ في تقييم غاندي بسؤالنا عن صلته بعالمنا المتسارع بمواقع الإنترنت وصواريخ كروز. في أثناء رحلاتي إلى الهند مع الدكتور براند، فوجئتُ بضآلة ما يعرفُه مواطنو غاندي العصريُّون عن هذا الرجل الاستثنائيّ. ولأنَّه دُعي قدِّيسًا- هندوسيًّا، بالتَّأكيد- تعرفُه المسيحيَّة من الناحية الاستراتيجيَّة، فعَلينا نحن أهلَ الغرب أن نتوقَّفَ للتَّفكير في كلِّ رسالةٍ من رسائله التي قد يقدِّمها إلينا. إنَّه يجلسُ مثل "الأنا العُليا" على أكتاف الكنيسة المسيحيَّة، يسألُنا جميعًا السؤالَ الذي يطرحُه تولستوي على نفسه: "لماذا لا نمارسُ ما نعظ به؟".

تُوفِّيَ غاندي بعد ثلاث سنوات من إلقاء الولايات المتَّحدة القنبلةَ النَّوَويَّة على اليابان، وهي حادثةٌ جعلَتْه أكثرَ اقتناعًا بأنَّه حتَّى يبقى كوكَبُنا مَوجودًا، على العالم أن يوجِّه نظرَه إلى الشرق لإيجاد الحلول. كان غاندي يعتقدُ أنَّ الغربَ قد تنازلَ عن قدرته على قيادة الجنس البشريِّ وصارَ يمثِّلُ مستَقبَلًا من الانحطاط والماديَّة والنزاع المسلَّح.[١٠] كان يتطلَّعُ إلى طريقٍ جديدةٍ مبنيَّةٍ على القوَّة الروحيَّة لا الماديَّة. قليلون، قليلون جدًّا، يكتَرِثون بهذه الدَّعوة اليوم. تقفُ الولايات المتَّحدة باعتبارها الدولة العُظمى الوحيدة في العالم، ولا تزالُ ثقافتُها المرتَبطة بالجنس والمال تنتشرُ حول العالم. الهندُ الحديثةُ تُكرِّم غاندي، لكنَّها بالكاد تتبعُ تعاليمَه. مَعاملُ النسيج

---

١٠) يتذكَّرُ الدكتور روبرت كولز مَشهدًا من أيَّام كلِّيَّة الطِّبِّ عندما كان يتطوَّعُ مع حركة العامل الكاثوليكيّ. رسمَ أحدُ زملائه العاملين معه هذا القول الساخر على جانب البناء الذي كان يسكنُ فيه الفقراء:

"أيُّها السيِّد غاندي، ما رأيك بالحضارة الغربيَّة؟"

غاندي: "أعتقدُ أنَّها ستكونُ فكرةً عظيمةً".

العملاقة حلَّت محلَّ دواليب الغزل الخشبيَّة. ومبانٍ بمكاتب ذات تكنولوجيا عالية تُصدِرُ برامجَ تُديرُ حواسيب العالم. وبعد ثلاثةِ حروب دمويَّة من غاندي، تلوِّحُ أمَّتُه مهدِّدة باستخدام القوَّة التي كانت قد أفزعته: الأسلحة النَّوَويَّة. ومع ذلك، لا تستطيعُ الهند أن تُخرِجَ هذا الرَّجلَ الصغير الغريبَ من ضميرها.

إذا نظَّم أحَدٌ ما مباراةً للجَمال لاختيار القائد العالميِّ الأقلِّ جمالًا، لفَازَ غاندي بسهولةٍ بهذا اللقب. بالكاد يبلغُ طولُه خمسة أقدام (١,٥م) ويزن ١١٤ رطلًا (نحو ٥٢كغم) فقط، وتبرزُ ذراعاه وقدماه النحيفتان من جسده مثل أطراف طفلٍ مصابٍ بسوء التَّغذية. وأُذُناه تتوهَّجان وتبرزان من رأسه الحليق؛ ويبدو أنفُه العريضُ ذو الحجم الأكبر من المعتاد زائفًا مثل الأنف المطَّاطيِّ الملتصق بالنظَّارات التي يضعُها الناسُ في الحفلات التنكُّريَّة. ونظَّاراتُه المصنوعةُ من الصُّلب تنزلقُ باستمرارٍ من على أنفه وتميلُ نحو الأسفل باتِّجاه فمه ذي الشكل الغريب بسبب عادةِ وضعه طقم الأسنان فقط في أثناء تناوُل الطعام. وتلتفُّ شفتاه فوق لثته الخالية من الأسنان. قال اللُّورد ماونتباتن (Lord Mountbatten)، آخرُ حاكم بريطانيٍّ للهِند: "إنَّه في الواقع مثل عصفورٍ صغير، نوعٌ من عصافير الدُّوري اللطيفة الحزينة يقفُ على ذراع الكرسيِّ الخاصِّ بي".

عندما كان غاندي يسير، كان يتَّكئ إمَّا على عصا من الخَيزران وإمَّا على أكتاف "عكازَيه"، كما كان يدعو حفيدتَي أخيه الشابَّتَين. كان يرتدي الثِّيابَ ذاتَها كلَّ يوم: مئزرًا هنديًّا رخوًا، وفي بعض الأحيان شالًا من القُطن، صُنِعا من مادَّةٍ خشنةٍ كان قد نسجَها بدولاب مِغزله. كان يحملُ كلَّ ما يملكُ في كيسٍ صغير ما عدا ساعةَ جَيبٍ من ماركة "إنغرسُل" (Ingersoll) كان يلبسُها بفَخرٍ معلَّقةً بسلسلة. كان غاندي يتَّبعُ برنامجًا دقيقًا لم يكن أحَدٌ يستطيعُ أن يغيِّرَه، لا ملك الإمبراطوريَّة البريطانيَّة، ولا أحَدَ قادة الهند، ولا أعزَّ أصدقائه. كان ينهضُ يوميًّا في الساعة الثانية صباحًا ليقرأ الأسفارَ المقدَّسةَ الهندوسيَّة أو المسيحيَّة، ثُمَّ يَتلو صلواتِه ويُمضي الساعات الهادئة التالية وهو يردُّ على المراسَلات، ثُمَّ يؤدِّي طقسَ الوضوء الذي يكتملُ بحقنةٍ

شرجيَّةٍ من الماء والملح. وعند الظهيرة، يتوقَّفُ ليَقومَ بإجراءٍ صحيٍّ آخر، فيضعُ كيسًا قطنيًّا ممتلئًا بالطِّين الذي يسيلُ على بطنه وجبينه.

إنَّ المؤرِّخين العصريِّين الذين يميلون إلى مضايَقة المشاهير، يخبرون بما يتطلَّبه غاندي من زملائه، وعاداته الشخصيَّة الشاذَّة وعناده الغريب. كان يمتحنُ نذرَ عفَّته بالنَّوم مع نساء شابَّاتٍ عاريات. الرجل الذي كان بإمكانه أن يحثَّ الملايين ويبثَّ الوَعي فيهم، فشلَ بصفته ربَّ أُسرته، وذلك بإساءة معاملة زوجته، وبتَربيَة ولدٍ تمرَّد عليه وصارَ مختَلسًا ومُقامِرًا ومفلِسًا ومُدمنًا على الخمر. وعندما تُوفِّيَت زوجتُه من الالتهاب الشعبيِّ المزمن (Acute Bronchitis)، وكان البريطانيُّون قد أرسلوا بالطائرة قارورةً من البِنسلين النادر، رفضَ غاندي استخدام الطبيب له في الوريد لئلَّا يدنِّسَ عُنفُ الحقنة جسدَها. وتُوفِّيَتْ نتيجةً لذلك.

ومع ذلك، بعد أن انتشرت الإشاعات، وأُتلفَت صُوَر غاندي، واستمرَّت أُمَّته بالتَّخلِّي عن كلِّ ما عاش ومات من أجله- لا تزالُ هناك صفةٌ فريدةٌ تُشعُّ من غاندي، صفةٌ لم تتوقَّفْ عن التأثير في الذين كانوا يعرفونه. لخَّصَ اللورد ماونتباتن، وهو قائد عسكريٌّ محنَّك، قوَّته الأخلاقيَّة بمعادلةٍ استراتيجيَّةٍ بسيطة، في الوقت الذي اندلعت فيه الحربُ الأهليَّة في الهند: "على جبهتي الغربيَّة، لديَّ ١٠٠,٠٠٠ من نخبة الجنود وسفكُ دِماء لا يتوقَّف. أمَّا على جبهتي الشرقيَّة فهنالك رجلٌ مسنٌّ واحد، دون سَفْك دِماء".

بطريقةٍ ما، جنَّدَ غاندي أتباعَه، الملايين منهم، للانضمام إلى حملةٍ لم يرَ العالَم مثيلًا لها. حذَّرَ أتباعه قائلًا: "إنَّ الذين يرافقونني يجب أن يكونوا مستعدِّين للنَّوم على الأرض الجرداء، وارتداء الملابس الخشنة، والاستيقاظ في ساعاتٍ خلاف المعتاد، والعَيش على طعام بسيطٍ غير شهيّ، وأن يكونوا أيضًا مستعدِّين لتَنظيف مراحيضهم". لقد حارَبوا بأسلحةِ الصلاة والصوم في السجن وأجسادٍ مرضوضةٍ من الضَّرب، وفي النهاية، ساعدَت وسائلهم غير التقليديَّة على تحرير نصف مليون شخص.

إنَّ الوسائلَ التي علَّمها غاندي، عمل مارتن لوثر كِنغ الابن على تكييفها لإعطاء نتائج مُشابَهة في الجنوب الأميركيّ. وطفَتْ على السطح من جديد في جنوب أفريقيا وأوروبا الشرقيَّة، حيثُ أنزلَ ألوفُ المتظاهرين الذين كانوا يحملون الشُّموع ويرنِّمون الترانيم، في إحدى الليالي- الستارَ الحديديَّ الذي ارتفع مدَّةَ أربعين سنة. وعندما خرجَ بينينيو أكينو (Benigno Aquino) من الطائرة في العاصمة الفيليبّينيَّة مانيلا ليُواجِهَ رصاصةَ القاتل، كان يحملُ في يده خطابًا يقتبس فيه من غاندي: "التضحيةُ الإراديَّة للبَريء هي أقوى جوابٍ على الاستبداد المتغطرس الذي تكوَّن حتَّى الآن بِفعل الله أو الإنسان". إنَّ قوَّةَ الشعب في الفلبين سرعان ما أكَّدت صحَّة أقوال غاندي مرَّةً أُخرى؛ إذ ترنَّحتْ دبَّاباتُ الجيش التي تَزِنُ خمسين طنًّا لتقفَ أمام أشخاصٍ عُزَّلٌ من السلاح يركَعون في الشارع.

لقد فُتِنْتُ بغاندي منذ زيارتي إلى الهند. من المسيحيِّين هناك ومن المسيحيِّين في الغرب، سمعتُ آراءً مختلفةً اختلافًا جذريًّا عن الرجل الصغير. تعلَّمتُ أنَّه حتَّى لو رفضتَه فإنَّك لا تستطيعُ أن تتوقَّفَ عن التفكير فيه. كانت البَصمةُ التي خلَّفَها في التاريخ واضحةً جدًّا لا يمكن تجاهُلُها. أنا لا أكتبُ عن غاندي لأنَّ لديه أجوبة لكَوكَبنا. على العكس من ذلك، أنا أتحدَّث بشأنه لأنَّه طرحَ الأسئلةَ بأسلوبٍ كثير الاستفزازيَّة. يمكنُنا أن نرفضَ أجوبته، بكلِّ تأكيد، لكنْ هل نستطيعُ أن نفعلَ هذا قبل النَّظر في أسئلته أوَّلًا؟

مع أنَّ غاندي لم يكُن مسيحيًا بالمعتقد أو بالممارسة، فإنَّه حاوَلَ إلى درجةٍ مثيرةٍ للإعجاب أن يعيشَ وَفقًا لمبادئ يسوع. إنَّ الكنيسةَ المسيحيَّةَ التي وُلدَتْ في الشَّرق لكنَّها تشكَّلت في الغرب، واجهَتِ الكثيرَ من أزمات الحضارة الغربيَّة كَكُلّ. ومع أنَّ بعضَ القادة المسيحيِّين عالَجوا هذه القضايا، فإنَّنا اعتَدْنا وجودَ أنبيائنا إلى درجةٍ لم نَعُدْ نسمَعُ معها رسالتَهم بوُضوح. عندما يكونُ الصَّوتُ مرتَفعًا جدًّا، نستطيعُ في بعض الأحيان، وبصورةٍ أفضل، تمييزَه من الصدى الناشئ عنه.

إنَّ مُساهَمة غاندي الأشهر، أسلوبَ العصيان المدنيّ، تطوَّرت بالتَّدريج. وُلِدَ في الهند وتدرَّب ليصيرَ محاميًا في لندن، ثُمَّ انتقلَ إلى جنوب أفريقيا. قادَ المظاهَرات ونالَ نصيبًا من الضَّرب وأمضى بضعَ مئاتٍ من الأيَّام في السجن، وتعلَّمَ نتائج الاحتجاج المثبِّطة للعزيمة تحت حكم نظامٍ قمعيّ. عندما عادَ إلى الهند، واجَهَ حالةً مختلفة: ليس مجتمعًا ذا أقلّيَّةٍ من الهنود الَّذين يعيشون في أرضٍ غريبة، لكن أكثريَّة، خمس مئة مليون مواطن من الأقوياء يعيشون في شبه قارَّةٍ يحكمُها البريطانيُّون. توقَّع الهنودُ أن يكافئَهم البريطانيُّون لقاءَ خِدْماتِهم المُخلِصة في الحرب العالميَّة الأولى بمنحهم المزيدَ من الاستقلال، لكنْ بدلًا من هذا، صارت القوَّةُ الاستعماريَّةُ أصلبَ بإصدارها سلسلةً من القوانين الصارمة لا تختلفُ عن القوانين التمييزيَّة في الجنوب الأميركيّ.

عندما أحكمَتِ الإمبراطوريَّةُ البريطانيَّةُ قَبضَتَها بشدَّة، أمضى غاندي فترةَ تأمُّلٍ دامَتْ ساعاتٍ طويلةً وهو يفكِّر في الردِّ الملائم. أتى الردُّ في صباح يومٍ باكر، في لحظات بزوغ الفجر بين النوم والوعي. قرَّرَ أن يدعوَ إلى يومٍ لا تُمارَسُ فيه أنشطةٌ على الإطلاق. ستتجاوَبُ الهند مع أسيادها بمجرَّد رَفْض التَّعاوُن. وستُقفَل الدَّكاكين وتتوقَّفُ حركةُ المرور ويتوقَّفُ العمل في البلاد مدَّةَ يومٍ واحد. نحن الذين نعيشُ بعد هذه اليقظة، وبعد العديد من التعديلات عليها حول العالم، يمكنُ أن تفوتَنا الطبيعةُ الاستثنائيَّة لذلك التحرُّك. لم يحاوِلْ أحَدُ قَطُّ القيامَ بمثل ذلك من قَبْلُ.

بعد ذلك، عالجَ غاندي النظامَ الاقتصاديَّ الاستعماريّ. كانت بريطانيا تزرعُ القطنَ الخام في الهند، وتنقلُه إلى بريطانيا لتَصنيعه آليًّا، ثُمَّ ترسلُ المنتَجات بحرًا إلى الهند لتَبيعَها بأسعارٍ مرتفعة. ولكي يكسرَ هذه السلسلة، حثَّ غاندي كلَّ هنديٍّ وقرويٍّ أو ساكنِ مدينة، على تمضية ساعةٍ يوميًّا على الأقلِّ وهو ينسجُ القطن. قدَّم لهم نفسَه قدوةً، فأَخرجَ دولابَ غَزْلٍ خشبيًّا قديمًا واستعمَلَه طَوال حياته.

وردًّا على سيطرة بريطانيا الاحتكاريَّة على الملح، المقوِّم الغذائيِّ المطلوب من الجميع، ردَّ غاندي بمسيرة الملح المشهورة، وهي مسيرةٌ بطيئةٌ وشاقَّةٌ طولُها ٢٤٠ ميلًا (نحو ٣٨٦ كم)

إلى البحر. وبينما كان المسؤولون في لندن يُتابعون بقلقٍ كلَّ خطوة، انضمَّ مليون فلَّاح إلى الحشد المرافق له على طول الطريق. عند الوصول إلى الشاطئ، اجتازَ غاندي بِرَكَ تجميع الملح الضحلة وغَرَف ملء قبضته من الملح ورفعها في الهواء مثل الصولجان لتكونَ رمزَ تحدٍّ للإمبراطوريَّة. لنَسمح للهند بمقاطعة البريطانيِّين وجَمْع ملحِها.

لتَقدير البصمة التي تركَها غاندي في التاريخ، قارِنْ مسيرة الملح بردِّ فعل سكَّان المستعمرات الأميركيِّين على ضريبة الطوابع البريطانيَّة: لقد خُضْنا حربًا بسببها. وعندما مَسَحَ غاندي تاريخَ أوروبا، أوروبا **المسيحيَّة**، شاهَدَ سلسلةً من الحروب التي شُنَّت بسبب الاختلافات العِرقيَّة، ونقاطٍ حسَّاسةٍ تتعلَّقُ بالعقيدة الدينيَّة، وحدود الأراضي، وأعمال تتعلَّقُ بالاعتداءات الاستعماريَّة. لكنَّ يسوعَ نفسَه كرزَ عن محبَّة الأعداء وأظهَرَ روحَ التَّضحِية لا العنف. سعى غاندي إلى طريقةٍ جديدةٍ للتَّغيير- طريقةٍ أقربَ إلى روح يسوع.

التصقَ غاندي كالشَّوكة في خاصرة البريطانيِّين؛ لأنَّ وسائلَ السيطرة المعتادة لم يكن لها أيُّ تأثير في احتجاجاته غير التقليديَّة. عندما حاوَلَ رجال الشرطة أن يوقِفوا المتَظاهِرين بِضَربِهم بالهراوات، اصطفَّ المحتجُّون في صفوفٍ منتظمةٍ لتَلقِّي الضَّربات. سرعان ما أغرقَ الهنودُ سجونَ الأمَّة بما يفوقُ طاقتَها، وهو ما قَصدوه. وعندما سحبَتِ السُّلطاتُ غاندي نفسَه إلى المحكمة وهدَّدته بالسجن، طلبَ بهدوء إنزال أقصى حكمٍ عليه. وبدلًا من أن يكونَ السَّجنُ عقوبةً له، وفَّر له تَرَفًا يفوقُ ما كان يسمَحُ به لنفسه وهو حرّ، وأعطاه السجنُ أيضًا فترات طويلةً للتَّأمُّل والكتابة. أمضى غاندي ما مجموعُه ٢٣٣٨ يومًا في السجون البريطانيَّة.

عندما حاوَلَ البريطانيُّون طُرقَ قَمْعٍ أقسى، مثل إطلاق النَّار على المتَظاهِرين، خلقوا شهداء، ودون أن يدركوا وحَّدوا الأمَّة ضدَّهم. في حادثةٍ مشهورةٍ في أمريتسار (Amritsar)، صوَّبتِ القوَّاتُ التي يقودُها البريطانيُّون البندقيَّات إلى تجمُّعٍ سلميٍّ إنَّما غير قانونيٍّ من رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ عُزَّل من السلاح، وأطلقوا ١٦٥٠ طلقةً في عشر

دقائق وتسبَّبوا في ١٥١٦ إصابة. لكنَّ حملةَ الاستقلال ازدادَتْ زَخَمًا.

في مرحلةٍ متأخِّرةٍ من حياته، ابتكرَ غاندي شكلًا من الاحتجاج برهَنَ على كَونه الأقوى: رفضَ بكلِّ بساطةٍ تَناوُلَ الطعام. كان يخطِّطُ لفتراتِ صَومه بعِنايةٍ مثلَما يخطِّطُ قائدٌ عسكريٌّ استراتيجيَّةً عسكريَّة، وكان في بعض الأحيان يعيِّنُ مَوعدَها لفتراتٍ محدَّدةٍ من الوقت، وفي أحيانٍ أُخرى كان يعلنُ الصَّوم حتَّى الموت ما لم تُلبَّى مَطالِبُ معيَّنة. سُخرِيةُ الأحداث تتحدَّى الفَهمَ والإدراك: مجاعةٌ طَوعيَّةٌ في أمَّةٍ من الجماهير الجائعة، تضحيةُ رجلٍ واحدٍ يعارِضُ الإمبراطوريَّة الأكثر امتدادًا في التاريخ.

بطريقةٍ غير متوقَّعة، نجَحَتْ هذه الوسائل. استَشاطَ تشرشل (Churchil)، رئيسُ وزراء بريطانيا حينها، غضبًا من "المشهد المُثير للاشمئزاز والمُذِلّ لهذا المحامي الذي انتمى مرَّة إلى إحدى أشهر النقابات المهنيَّة في لندن، والمسمَّاة "إنر تمپل" (Inner Temple)، لكنَّه الآن ناسكٌ هنديٌّ محرِّضٌ على العصيان يسيرُ بخطواتٍ واسعةٍ نصفَ عريان على درجاتِ قصر الحاكم لكي يتَفاوَضَ ويَعقِدَ محادثاتٍ بشروطٍ متعادلة مع ممثِّل الملك". في غضون ذلك، اكتسَبَ غاندي شهرةً في أُمَّته كَونه "مَهاتما- الروح العظيمة" (Mahatma-The Great Spirit). وعندما راهنَ بحياته عَلنًا على نتيجة المفاوضات، لم يرغَبْ أحَدٌ في المخاطَرة بتحمُّل مسؤوليَّة السَّماح للرُّوح العظيمة بأن تموت. واحدٌ تلو الآخر من جنرالات الجيش، والحكَّام، ورؤساء الوزارات، وأخيرًا الملك، استَسلَموا لذلك الناسك الهنديِّ الصائم نصف العريان.

تطوَّرَ التزامُ غاندي الحراكَ السِّلميَّ عندما كان يعملُ محاميًا في جنوب أفريقيا. لأنَّه كان يَتظاهَرُ دعمًا للحقوق المدنيَّة، كان يُلقى به من القطارات ويُطرَدُ من الفنادق والمطاعم ويُدان من قِبَل شرطة الخيَّالة ويُسجن. بدا أنَّ احتجاجاته لم يكن لها تأثيرٌ كبيرٌ في الأشخاص الذين سنُّوا القوانينَ ونفَّذوها. لم يقرِّر غاندي قبولَ المبادئ الحرفيَّة للمَوعظة على الجبل، لا سيَّما كلماتِها عن صنع السلام ومحبَّة الأعداء إلَّا بعد أن قرأ كتاب تولستوي، "**ملكوت الله في داخلكم**"، وراسَلَ مؤلِّفه الرُّوسيَّ.

يتضمَّن الفيلم بعنوان "**غاندي**" للمُخرج السينمائيِّ ريتشارد أتينبورو (Richard Attenborough) منظَرًا رائعًا يحاولُ فيه غاندي أن يشرحَ فلسفتَه الجديدةَ للمُرسَل المشيَخيِّ تشارلي أندروز (Charlie Andrews). بينما كانا يسيران معًا في إحدى المدن في جنوب أفريقيا، وجَدا طريقَهما مسدودًا من قِبل فتيانٍ بلطجيَّة. ألقى القسُّ أندروز نظرةً على رجال العصابة المتوعِّدين وقرَّر أن يهربَ وينجو بحياته. أوقفه غاندي. "ألا يقولُ العهدُ الجديد إنَّه إذا لطمك عدوٌّ على خدِّك الأيمن، عليك أن تديرَ له الأيسر؟" تمتمَ أندروز قائلًا إنَّه كان يعتقد أنَّ العبارةَ استُخدمَت على سبيل المجاز. أجابَ غاندي، "أنا لستُ متأكِّدًا من ذلك. أعتقد أنَّه كان يعني أنَّ عليك أن تُظهِر الشجاعة- أن تكونَ مستعدًّا لتَلقِّي ضَربة، ضرباتٍ عديدة، لكي تُبيِّن أنَّك لن تردَّ بالضَّرب ولن تنسحب. وعندما تفعَلُ ذلك، فإنَّ عملَك يستَدعي شيئًا في الطبيعة البشريَّة- شيئًا يجعَلُ كراهيتَه تتناقَصُ واحترامَه يتَزايَد. أعتقدُ أنَّ السيِّدَ المسيح أدركَ ذلك وأنا رأيتُ هذا يتحقَّقُ عمليًّا".

شعرَ غاندي في أعماق نفسه بأنَّ الإحساس بدأ يتشكَّلُ بالتَّدريج بوصفه عقيدةً راسخة. إنَّ العنفَ ضدَّ كائنٍ بشريّ- حتَّى ضدَّ جنديٍّ يُطلقُ النَّار على جمهورٍ أعزَل- كان يُناقِضُ كلَّ ما كان يؤمن به عن كرامة الإنسان في كلِّ العالَم. كان يؤمنُ بأنَّه لا يمكنُنا تغييرُ قناعةِ شخصٍ ما من خلال العنف. العنفُ يُفرِّقُ ويدفعُ الإنسانَ إلى التَّعامُل بوَحشيَّة- العنفُ لا يُصلح. إذا ما تحوَّلَ مؤيِّدوه إلى العنف خلال إحدى حملاته، كان غاندي يعمَدُ إلى إلغائها. لا توجَدُ قضيَّةٌ مَهما كانت عادلةً تستَحقُّ أن تُسفَك الدِّماء من أجلها. وختمَ قائلًا: "أنا مستعدٌّ لأنْ أموتَ من أجل قضيَّةٍ ما، لكن لا توجَدُ قضيَّةٌ أنا مستعدٌّ أن أقتُل من أجلها".[11]

(11) في السنوات اللَّاحقة، صارَ غاندي غير مَرِنٍ على الإطلاق بشأن هذه القضيَّة. في أثناء الحرب العالميَّة الأولى، أسدى النصح أوَّلًا للأحباش الذين غَزَتْهم الجيوشُ النازيَّة، ثُمَّ اليهود، ثُمَّ بريطانيا العُظمى، ودعاهم لأن يدعوا أعداءَهم ويَقِفوا أمام الذبح بِسَكينةٍ وضميرٍ صالح. قال لأتباعه إنَّه إذا ما أُلقِيت قنبلةٌ نُوَويَّةٌ على الهند، عليهم أن يرفعوا أنظارَهم إلى العلاء ويبقون دون خوفٍ ويُصلُّون من أجل قائد الطائرة".

منذ أيَّام غاندي، يتبنَّى قادةٌ سياسيُّون آخرون أساليبَه. فمارتن لوثر كِنغ الابن، الذي كان يحسبُ نفسَه خليفتَه روحيًّا، زارَ الهندَ واستَوردَ الأساليبَ للولايات المتَّحدة. برهَنَ هو وآخرون على أنَّ الحراكَ السلميَّ يمكنُ أن ينقلَ الجبالَ في مجتمعاتٍ مفتوحةٍ نسبيًّا، لكنْ ماذا عن أماكنَ مثل ألمانيا النازيَّة أو الصين الحديثة وميانمار/بورما، حيثُ تسحقُ النُّظم العسكريَّةُ كلَّ الاحتجاجات؟ (يا لَسُخرية القدر! اقترحَ عددٌ من القادة الهندوس، ورثة غاندي الدينيِّين، أنَّ هذا المبدأ نما من التأثيرات المسيحيَّة ولا مكان له في الهندوسيَّة). سيَبقى أصحابُ العقائد الأخلاقيَّة والسياسيُّون واللَّاهوتيُّون مختلفين حول ما إذا كان ينبغي تبريرُ القوَّة المسلَّحة ومتى ينبغي تَبريرها. لكنْ بعد غاندي، لا يستطيعُ أحَدٌ أن ينكرَ قوَّة الحراك السلميِّ في إحداث التَّغيير. لقد جلبَتْ، مع ذلك، الحرِّيَّة للأُمَّة الثانية من حيثُ الكثافةُ السكَّانيَّة.

عندما كان غاندي يعيشُ في الهند، بدا سُدسُ سكَّانها أقربَ إلى الحيوانات منهم إلى البشر. عاشوا في أحياءٍ فقيرةٍ وقَذِرة وسطَ المجاري التي تحتشدُ فيها الفئران وكلُّ العناصر الأُخرى التي تحملُ الأمراض. قدَّمتْ عقيدةُ الهندوس "**كارما**" (Karma) الأساسَ اللَّاهوتيَّ للنِّظام الدقيق المؤلَّف من خمسة آلاف طبقةٍ اجتماعيَّةٍ فرعيَّة، وهو ما جعلَ الناسَ يَظلُّون في أماكنهم. لقد قُبلَ نظامُ الطبقات، وهو تجمُّعٌ من الكائنات البشريَّة على نحوٍ أعمق من القبيلة أو العِرق، مدَّة خمسة آلاف سنة وقليلون شكَّكوا فيه. إنَّ أدنى طبقةٍ، المنبوذين، قدَّمت خدمةً قيِّمةً للمجتمع تمثَّلت في تنظيف الشوارع والمراحيض والمجاري- وهي أعمالٌ لا يؤدِّيها الهندوس من الطبقة الأعلى.

يمكنُك التعرُّفُ إلى المنبوذين من لَونهم الداكن ومن وَضْع أجسادهم، فَهُم ينكَمِشون مثل حيواناتٍ تعرَّضتْ للضَّرب. اسمُهم يعرِّفهم: إذا لمسَ أحَدُ الهندوس من طبقةٍ ما أحَدَ المنبوذين أو لمسَ قطرةَ ماءٍ كان قد لوَّثها، كان يتراجَعُ خَوفًا ويبدأ عمليَّةَ تطهيرٍ مستَفيضة. وكان على المنبوذين أن يرتَدُّوا عن طريق الأشخاص من طبقة الهندوس ليتجنَّبوا إلقاءَ ظلالهم عليهم، ومن ثَمَّ يدنِّسون رؤساءَهم الأرفع مقامًا. في

ثلاثينيَّات القرن العشرين، اكتشَفَ البريطانيُّون طبقةً فرعيَّةً جديدة، وهي طبقة غير المرئيِّين، لم يقابلوها في فترة وجودهم هناك والبالغة ٣ قرون: آمنَتْ هذه المخلوقاتُ التَّعِسةُ، التي خُصِّصت لها مَهمَّةُ غَسْلِ ثيابِ المنبوذين، بأنَّها ستلوِّثُ الطبقات العُليا بالنَّظر إليها، ولهذا كانوا يخرجون في الليل فقط ويتجنَّبون الاتِّصال بالآخرين.

تبنَّى المهاتما غاندي قضيَّة المنبوذين على الرُّغم من أنَّ كلَّ ما ربحَه كان رَفْضَ أقرانه له. أوَّلًا، منحَهم اسمًا جديدًا؛ لا يُدعَون بعدُ **منبوذين** بل "هاريجانز" (Harijans)، أي أولاد الله. في أوَّل مُعتَزَلٍ دينيٍّ له، مجتمع صغيرٍ روحيّ، في جنوب أفريقيا، أثارَ غاندي عاصفةً من الاحتجاجات بِدَعوَته أحَدَ المنبوذين لِيُقيمَ هناك. عندما سحبَ رئيسُ الداعمين الماليِّين لِتَجرِبة المجتمع الروحيِّ دعمَه، وضعَ غاندي خُطَطًا للانتقال إلى مكان إقامة "الهاريجانز". وأخيرًا، قام بالعمل الأكثر نجاسةً بالنِّسبة إلى الهندوس، وهو تنظيفُ مراحيض المنبوذين. وعندما عادَ إلى الهند، دعاهم إخوَتَه وكان يُقيم في بيوتهم كلَّما أُتيحَت له الفرصة.

بعد سنواتٍ من الاستقلال، عندما كان قادةٌ آخرون في الهند يُلِحُّون على اللُّورد ماونتباتن أن يقبلَ منصبَ الحاكم العامِّ الفخريّ، اقترحَ غاندي مرشَّحًا بديلًا: عاملةَ تنظيفٍ من المنبوذين "ذاتَ قلبٍ جريء، حيَّةَ الضمير، ومثلَ البلَّور في طهارتها". مع أنَّ مرشَّحتَه لم تَنَلِ اللَّقب، فإنَّ غاندي بأعمالٍ رمزيَّةٍ كهذه، ساعَدَ على تغيير النظرة إلى المنبوذين في أرجاء الهند. عُدِّلَتِ القوانين وأُزيلَتِ القيود. لا يزال نظامُ الطبقات اليوم في الهند مستمرًّا ضمن شكلٍ أكثرَ اعتدالًا وأقلَّ قَمْعًا. لكنَّ مئة مليون شخصٍ الآن يُسمُّون أنفسَهم ليس اسم اللعنة- المنبوذين- بل اسمَ البركة: أولاد الله.

كان غاندي يسعى جاهدًا إلى تقدير الكرامة المتأصِّلة في كلِّ إنسان. في معتزله الدينيِّ في الهند، تبنَّى مريضًا بالجُذام، أحَدَ المنبوذين الآخرين. كان يبدِّل ضمادات الرَّجل ويساعدُه على الاغتسال. قال إنَّه يريدُ أن يخصِّص العنايةَ ذاتَها التي يخصِّصها لمقابلة نائب الملك في الهند عند صُنْع حزمة من الطين لأحَد ضحايا

الجذام. وساعَدَ أيضًا على رَفْع شأن المرأة في الدَّولة بأنْ جمعَ حَوله نساءً على درجةٍ عاليةٍ من الكفاءة ليكنَّ من ضمن أتباعه.

لخَّص غاندي معتقداته بثلاث نقاط، ردَّها باستحقاق إلى المؤلِّف الڤيكتوريِّ جون رَسْكن (John Ruskin): (١) إنَّ صلاحَ الفرد مَوجودٌ داخل صلاح الجميع، (٢) إنَّ لعَمَلِ المحامي قيمةَ عَمَلِ الحلَّاق ذاتَها، فلدى جميع الأشخاص الحقُّ نفسُه في كَسْبِ معيشتهم من عملهم؛ (٣) إنَّ حياةَ العمل، مثل الحِرْفيِّ والفلَّاح، هي حياةٌ تستحقُّ العَيش لأجلها. كان غاندي يسعى إلى وَضْع هذه المبادئ مَوضعَ التطبيق العمليّ. وفي مدنٍ مثل بومباي (Bombay) وكلكوتا (Calcutta)، كان يفضِّلُ البقاءَ في سقيفةٍ مكشوفةٍ بمستعمرة عاملي النَّظافة، على البقاء في فندق. وكان يستخدمُ قلمَ الرَّصاص إلى أن يتقلَّص ويصيرَ عقبًا لا يمكنُ إمساكه، وذلك احترامًا للكائن البشريِّ الذي صَنَعَ القلم.

كان جون رَسْكن كاتبًا مسيحيًّا، واعترفَ غاندي أنَّه بصورةٍ ما، قادَتِ الكنيسةُ الطريقَ إلى احترام كرامة الإنسان. يَجِدُ الزَّائرُ إلى الهند مستَشفيات عامَّة وأُخرى متخصِّصة لمعالجة مرض الجُذام، ودُورًا للأيتام، ومدارسَ يديرُها مرسَلون لأجل المضطهدين. لكنَّنا نحن الغربيِّين لا نزالُ نتعلَّمُ الفَرْق ما بين أعمال الخير والعمل الأصعب، وهو تغيير نظرة الإنسان إلى نفسه. في معظم الأحيان، توحي دوافعُنا بالطريقة الأبويَّة في معاملة الناس (كما توحي كلمات مثل: مضطهدين ومحرومين). أنا المثقَّف الأميركيّ الغنيّ أمُدُّ يد المساعدة برأفة لأساعدَكَ على تحسين نفسك. نرى أنفسنا إلى جانب السيِّد المسيح بتقديم العون للمحتاجين. غير أنَّ العهدَ الجديدَ يوضِحُ أنَّ يسوعَ هو بجانب الفقراء، ونقدِّم نحن أفضلَ خدمةٍ عندما نرفعُ المضطهدين إلى حيثُ يسوع.

قالت الأمُّ تريزا بشأن الشحَّادين الذين كانوا على وشك الموت، والتي كانت تدعوهم إلى بيتها في كلكوتا: "أرى وجهَ يسوعَ متخفِّيًا، وفي بعض الأحيان كان هذا التخفِّي الأكثر إثارة للحزن والألم". مثلُها مثلُ غاندي، أدركَتْ أنَّ اتِّجاهَ أعمال الخير

لا يتمُّ بالتَّنازُل، بل بالارتقاء: عندما نخدمُ الضُّعفاء والفُقراء، يكونُ لنا امتيازُ خدمةِ يسوع نفسه.

عمل غاندي جاهدًا ليتوحَّد مع الفقراء ويشعُرَ معهم عبر إزالة أيَّة حواجز يمكنُ أن تُباعِدَ بينه وبينهم. لكلِّ مَن قصدَ الهند قبل ذلك، لستُ في حاجةٍ لأنْ أستَشهدَ إلَّا بمثلٍ واحدٍ فقط على اتِّصال غاندي بالنَّاس: إصراره على السفر في الدرجة الثالثة في القطارات. كان يجلسُ على مَقاعدَ صلبةٍ بين حشدٍ من الفلَّاحين لم يغتَسلوا جالسين مع حيوانات مزارعهم، وهي خبرةٌ في الازدحام والإزعاج والقذارة والروائح لا يتَخيَّلُها معظمُ الغربيِّين. وقد سُئلَ مرَّة عن سبب هذا العمل، فأجاب قائلًا: "لأنَّه لا توجَدُ درجةٌ رابعة" (أقارنُ هذا الموقف بشعوري بالحماس عندما أجمع نقاطًا من الأميال التي أقطعُها في الطيران، والتي تؤهِّلني لأنتقلَ إلى درجةِ رجال الأعمال في الرحلة المقبلة).

لا يملك غاندي حبًّا فطريًّا للمُعاناة والألم. وقد كان ميَّالًا إلى الإصرار والحزم في معاركه الأولى بشأن الحقوق الشخصيَّة في جنوب أفريقيا بعدما طُرد من مقصورة الدرجة الأولى بسبب لون جلده. لكنْ عندما انغمس في الأسفار المقدَّسة الهندوسيَّة والإسلام والبوذيَّة والمسيحيَّة، صارَ مُقتَنعًا بأنَّ تواضُعَ الخادم هو الموقف الوحيد الذي يطلبُه الله. عندئذٍ فقط خلعَ ثيابَه الأوروبيَّة، وتخلَّصَ من الأشياء المادِّيَّة، وسعى إلى صحبة الفقراء والمعذَّبين. قال مرَّةً: "القائد هو مجرَّدُ انعكاسٍ للشَّعب الذي يقوده".

لم يسمَحْ غاندي لأيَّة شخصيَّةٍ مُهمَّةٍ بأن تتدخَّل في أسلوبه المفضَّل. عندما عرضَ اللُّورد ماونتباتن أن يأخذَه إلى اجتماعٍ مهمٍّ في طائرته الخاصَّة، اختارَ غاندي بدلًا من ذلك السفر في درجته الثالثة في القطار. وسبَّب ما يُشبهُ الفضيحةَ في أثناء زيارةٍ له إلى إنكلترا لمقابلة مجلس النواب والملك جورج. وصلَ وسطَ عَرْضٍ جماهيريٍّ وتَغطيةٍ إعلاميَّة، وحبست الأمَّةُ أنفاسَها عندما نزل مُتَمايلًا على معبر السفينة البخاريَّة وهو يرتدي مئزرًا قطنيًّا ويقودُ بواسطة حبلٍ نعجةً هي زادُه من الحليب. رفضَ عروضًا من أفضل الفنادق، واختارَ بدلاً منها البقاء في أحياء شرق لندن الفقيرة. وعندما سأله

الجذام. وساعَدَ أيضًا على رَفْع شأن المرأة في الدَّولة بأنْ جمعَ حَوله نساءً على درجةٍ عاليةٍ من الكفاءة ليكنَّ من ضمن أتباعه.

لَخَّص غاندي معتقداته بثلاث نقاط، ردَّها باستحقاق إلى المؤلِّف الڤيكتوريِّ جون رَسْكن (John Ruskin): (١) إنَّ صلاحَ الفرد مَوجودٌ داخل صلاح الجميع، (٢) إنَّ لعَمَلِ المحامي قيمةَ عَمَلِ الحلّاق ذاتَها، فلدى جميع الأشخاص الحقُّ نفسُه في كَسْبِ معيشتهم من عملهم؛ (٣) إنَّ حياةَ العمل، مثل الحِرْفيِّ والفلّاح، هي حياةٌ تستحقُّ العَيش لأجلها. كان غاندي يسعى إلى وَضْع هذه المبادئ مَوضعَ التطبيقِ العمليّ. وفي مدنٍ مثل بومباي (Bombay) وكلكوتا (Calcutta)، كان يفضِّلُ البقاءَ في سقيفةٍ مكشوفةٍ بمستعمرة عاملي النَّظافة، على البقاء في فندق. وكان يستخدمُ قلمَ الرَّصاص إلى أن يتقلَّص ويصيرَ عقبًا لا يمكنُ إمساكه، وذلك احترامًا للكائنِ البشريِّ الذي صَنَعَ القلم.

كان جون رَسْكن كاتبًا مسيحيًا، واعترفَ غاندي أنَّه بصورةٍ ما، قادَتِ الكنيسةُ الطريقَ إلى احترام كرامة الإنسان. يَجِدُ الزّائرُ إلى الهند مستَشفيات عامَّة وأُخرى متخصِّصة لمعالجة مرض الجُذام، ودُورًا للأيتام، ومدارسَ يديرُها مرسَلون لأجلِ المضطهدين. لكنَّنا نحن الغربيِّين لا نزالُ نتعلَّمُ الفَرْق ما بين أعمال الخير والعملِ الأصعب، وهو تغيير نظرة الإنسان إلى نفسه. في معظم الأحيان، توحي دوافعُنا بالطريقةِ الأبويَّة في معاملة الناس (كما توحي كلمات مثل: مضطهدين ومحرومين). أنا المثقَّفُ الأميركيُّ الغنيُّ أمُدُّ يد المساعدة برأفة لأساعدَكَ على تحسين نفسك. نرى أنفسنا إلى جانب السيِّد المسيح بتقديم العون للمحتاجين. غير أنَّ العهدَ الجديدَ يوضِحُ أنَّ يسوعَ هو بجانب الفقراء، ونقدِّم نحن أفضلَ خدمةٍ عندما نرفعُ المضطهدين إلى حيثُ يسوعُ.

قالت الأمُّ تريزا بشأن الشحّادين الذين كانوا على وشك الموت، والتي كانت تدعوهم إلى بيتها في كلكوتا: "أرى وجهَ يسوعَ متخفِّيًا، وفي بعض الأحيان كان هذا التخفِّي الأكثر إثارة للحزن والألم". مثلُها مثلُ غاندي، أدركَتْ أنَّ اتِّجاهَ أعمال الخير

لا يتمُّ بالتَّنازُل، بل بالارتقاء: عندما نخدمُ الضُّعفاء والفُقراء، يكونُ لنا امتيازُ خدمةِ يسوع نفسه.

عمل غاندي جاهدًا ليتوحَّد مع الفقراء ويشعُرَ معهم عبر إزالة أيَّة حواجز يمكنُ أن تُباعِدَ بينه وبينهم. لكلِّ مَن قصدَ الهند قبل ذلك، لستُ في حاجةٍ لأنْ أستَشهدَ إلَّا بمثلٍ واحدٍ فقط على اتِّصال غاندي بالنَّاس: إصراره على السفر في الدرجة الثالثة في القطارات. كان يجلسُ على مَقاعدَ صلبةٍ بين حشدٍ من الفلَّاحين لم يغتَسلوا جالسين مع حيوانات مزارعهم، وهي خبرةٌ في الازدحام والإزعاج والقذارة والروائح لا يتَخيَّلُها معظمُ الغربيِّين. وقد سُئلَ مرَّة عن سبب هذا العمل، فأجاب قائلًا: "لأنَّه لا توجَدُ درجةٌ رابعة" (أقارنُ هذا الموقف بشعوري بالحماس عندما أجمع نقاطًا من الأميال التي أقطعُها في الطيران، والتي تؤهِّلُني لأنتقلَ إلى درجةِ رجال الأعمال في الرحلة المقبلة).

لا يملك غاندي حبًّا فطريًّا للمُعاناة والألم. وقد كان ميَّالًا إلى الإصرار والحزم في معاركه الأولى بشأن الحقوق الشخصيَّة في جنوب أفريقيا بعدما طُرد من مقصورة الدرجة الأولى بسبب لون جلده. لكنْ عندما انغمس في الأسفار المقدَّسة الهندوسيَّة والإسلام والبوذيَّة والمسيحيَّة، صارَ مُقتَنعًا بأنَّ تواضُعَ الخادم هو الموقف الوحيد الذي يطلبُه الله. عندئذٍ فقط خلعَ ثيابَه الأوروبيَّة، وتخلَّصَ من الأشياء المادِّيَّة، وسعى إلى صحبة الفقراء والمعذَّبين. قال مرَّةً: "القائد هو مجرَّدُ انعكاسٍ للشَّعب الذي يقوده".

لم يسمَحْ غاندي لأيَّة شخصيَّةٍ مُهمَّةٍ بأن تتدخَّل في أسلوبه المفضَّل. عندما عرضَ اللُّورد ماونتباتن أن يأخذَه إلى اجتماعٍ مهمٍّ في طائرته الخاصَّة، اختارَ غاندي بدلًا من ذلك السفر في درجته الثالثة في القطار. وسبَّب ما يُشبهُ الفضيحةَ في أثناء زيارةٍ له إلى إنكلترا لمقابلة مجلس النواب والملك جورج. وصلَ وسطَ عَرْضٍ جماهيريٍّ وتَغطيةٍ إعلاميَّة، وحبست الأمَّةُ أنفاسَها عندما نزل مُتَمايلًا على معبر السفينة البخاريَّة وهو يرتدي مئزرًا قطنيًّا ويقودُ بواسطة حبلٍ نعجةً هي زادُه من الحليب. رفضَ عروضًا من أفضل الفنادق، واختارَ بدلاً منها البقاء في أحياء شرق لندن الفقيرة. وعندما سأله

المراسلون أن يشرحَ لماذا تجرَّأ على مقابلة الملك وهو "نصف عريان"، أجابَ غاندي بابتسامة: "كان الملكُ يرتدي ما يكفي من الثياب لِكِلَينا".

لم يُصرَّ غاندي على الإطلاق أن يتَّبع القادةُ السياسيُّون طريقَه الصَّارم؛ كان طريقُه حملةً أخلاقيَّةً ودينيَّة، وليس مجرَّد سياسة. لكنَّه طلبَ فعلًا بعد الاستقلال، أن يعيشَ كلُّ وزيرٍ في منزلٍ بسيط دون خَدَمٍ أو سيَّارة، وأن يمارسَ عملًا يدويًّا مدَّة ساعةٍ كلَّ يوم، وينظِّفَ مرحاضَه. بعد مرور مدَّةٍ طويلةٍ على وفاته، استمرَّ قادةُ مجلس الشيوخ في ارتداء الزيِّ القطنيِّ المنسوج في البيت والذي تبنَّاه، وكان يديرُ اجتماعات الحزب وهو يغزلُ خيوطَ القطن.

تبدو فلسفةُ غاندي اليوم غريبةً وباليةً غيرَ مُتَداوَلة. في حين اقترحَ هو عاملةَ تنظيفٍ من المنبوذين لملء منصبٍ وطنيّ، وأمضى الوقتَ في الأحياء الفقيرة وعيادات الجُذام، فإنَّنا نحن الغربيِّين نرفعُ من شأن رجال الأعمال أصحاب البلايين على الإنترنت، وعارضات الأزياء المشهورات. ولمطاردة كرةٍ حول ملعبٍ ما، نكافئ رياضيِّينا المحترفين بمبالغَ ماليَّةٍ تفوقُ ما هو مطلوب لإدارة اثني عشر مشفًى في دولةٍ مثل الهند، وفي الوقت نفسه، يعيشُ كثيرٌ من سكَّان الأحياء الفقيرة في الغرب- ممَّن لديهم الكهرباء والماء وغيرهما من الكماليَّات التي ليست في متناول قريةٍ من قرى الهند- في حالةٍ من الجشع والاستياء والاضطراب. عندما نرفع من شأن الأغنياء والجميلات والأقوياء، ما الذي نكون قد فعلناه بكرامة الذين لا يرتَقون إلى هذا المستوى؟ وماذا نستَطيعُ أن نتعلَّمَ من غاندي الذي اختارَ طريقةً أُخرى؟

تتَّبعُ الرسالةُ المسيحيَّة المنتشرة على نطاقٍ واسعٍ في العالم الغربيِّ اليومَ الاتِّجاه الثقافيَّ السائد. إنَّها تنادي قائلةً: "يُريد الله الخيرَ لك"، وتقدِّم الوَعدَ بالاكتفاء الذاتيّ. إنَّ عباراتِ يسوع المتعلِّقة بأنَّ الإنسانَ يجدُ نفسَه عندما يخسرُها، يتغاضى عنها المعظمُ بسهولة. في الولايات المتَّحدة، قد يحقِّقُ اللَّاهوت القائم على النجاح (Success-based theology) نتيجةً معقولةً بشكلٍ جيِّد، وذلك بسبب ضخامة موارد

الأمَّة. لكنَّ هذا اللَّاهوت لا يقدِّمُ إلَّا القليلَ للمسيحيِّين في الصين أو إندونيسيا أو إيران حيث الإيمان المسيحيُّ والمعاناه يمتزجان معًا.

في دراسته للعهد الجديد، وجدَ غاندي إرشادًا للبَحث عن الحقيقة من كلِّ قلبه دون أن يتوقَّعَ شيئًا وبغضِّ النظر عن النتائج. اعتادَ أن يُدندنَ كلماتِ قصيدةٍ هنديَّة وهو يسير بين حقول الأرزّ، في وقتٍ كان مواطنوه يضطهدونه: "إذا لم يستَجيبوا لدعوتك، سِرْ وحدَك، سِرْ وحدَك". في دولٍ مثل الولايات المتَّحدة، ليس لهذه الرسالةِ أيُّ تأثير.

أثبتَتِ السنواتُ الأخيرةُ القوَّةَ الأخلاقيَّةَ للفَرْد الواحد. تولَّى نيلسون مانديلا (Nelson Mandela) قيادةَ أُمَّةٍ توقَّع كلُّ مراقبٍ أن تندلعَ فيها حربٌ أهليَّة، لكنَّ وتيرةَ المعالجة التي وضعَها، أثبتَتْ في نهاية المطاف أنَّ المتنبِّئين على خطأ. الروسيُّ ألكسندر سولزينتسين، والرئيس البولنديُّ الأسبق ليش ڤاليسا (Lech Walesa)، والرئيسةُ الفلبينيَّة كوري أكينو (Cory Aquino)، والرئيس التشيكيُّ ڤاكلاڤ هاڤل (Vaclav Havel)- وقفَ هؤلاء جميعًا بشجاعةٍ وساعَدوا على تغيير التاريخ بسُلطتهم الأخلاقيَّة. وفي دولٍ أُخرى- مثل السودان، ورواندا، ويوغسلافيا، والكونغو- حيثُ لم تكن هناك أيَّةُ قيادةٍ أخلاقيَّةٍ لِكَبْح جماح العنف، نتجَتْ مذابحُ فظيعة.

في عام ١٩٤٧م، عندما اجتاحَ الهندَ زَخَمُ الاستقلال، بدأتْ تطفو على السَّطح عداواتٌ دامَتْ قُرونًا. بدأ الهندوسُ والمسلمون يُهاجمون بعضُهم بعضًا بضَراوة. حرقَ المسلمون أكواخَ جيرانهم الهندوس، وأرغَموهم على تَناوُلِ لحوم البقر المقدَّس، واغتَصبوا النِّساءَ الهندوسيَّات وذبحوا أزواجهنَّ. ردَّ الهندوسُ الهجومَ بالمثل، ومات ألوفُ المسلمين أيضًا في الأشهر التي سبقَتِ الاستقلال. بدا أنَّ البلادَ كلَّها ستَشتَعلُ فيها النيران، بشكل مُضطرِد.

وبينما كان السياسيُّون يجلسون في غُرَفِ القَصر الأنيقة في نيودلهي ويُقايِضون من أجلِ السُّلطة والأرض، انطلَقَ غاندي بحملة "المرهم" (Ointment). قال: "دعوهم

يتَجادَلون"، وهو ذاهبٌ إلى الناس، إلى الحشود الغاضبة التي كانت يتعدَّى بعضُها على بعضٍ بطريقةٍ شَرِسة. في سنِّ السابعة والسبعين، اتّجه إلى المنطقة التي وقعَتْ فيها معظمُ أعمال العنف. قادَ مجموعةً من التلاميذ الهندوس ذوي الثياب الرثّة إلى قرى المسلمين المحروقة ليُواجَهوا بالسُّخرية والحجارةَ والزُّجاجات. وإذا طُرِد، كان يبحثُ عن شجرةٍ ليَنام تحتَها. وإذا قُبِلَ، كان يقرأ من كتاب الهندوس المسمَّى "باغَفاد غيتا" (Bhagavad Gita)، وكذلك من القرآن والعهد الجديد، ويعلِّم المبادئَ الأساسيَّة للصِّحَّة والنَّظافة العامَّة، ثُمَّ يسيرُ مسيرةً مُجهدة إلى القرية التالية. زار ما مجموعُه سبعًا وأربعين قريةً ماشيًا مسافة ١١٦ ميلًا (نحو ١٨٦كم) حافيَ القدمَين.

في كلِّ قريةٍ من هذه القرى، كان غاندي يحاولُ أن يُقنعَ زعيمًا هندوسيًّا وآخر مُسلمًا بأن ينتقلا معًا إلى بيتٍ واحدٍ ليكونا الضامنَين للسَّلام. وكان يطلبُ منهما أن يتعهَّدا بالصَّوم حتَّى الموت إذا ما هاجمَ شخصٌ من ديانتهم عدوًّا له. نجحَتِ الطريقةُ بصورةٍ لا تُصدَّق. بينما كانت المناقشات جاريةً في قصور دلهي، بدأ "مرهَم" غاندي الشخصيُّ يشفي الجروحَ في جميع أنحاء المنطقة. توقَّفَ القتلُ لفترةٍ من الوقت.

لكن عندما قرَّر السياسيُّون اقتطاع أمَّة باكستان الانفصاليَّة من الهند، كانت الدولةُ تحتاجُ إلى أكثر من مجرَّد مرهم- كانت تحتاج إلى لفافاتٍ ضخمة من الضمادات لوقف تدفُّق الدَّم الذي حوَّل، بالمعنى الحرفيِّ للكلمة، الأنهارَ إلى اللون القرمزيِّ، وملأ السماء بالطيور آكلة الجِيَف. وكما تنبَّأ غاندي في نداءاته المعارِضة للتَّقسيم، فقد أثارَ هذا التَّقسيمُ ردَّ فعلٍ لا سابقة له في التَّاريخ. وعندما أُعلِنَتْ خُطوط الحدود أخيرًا، وجدَ الهندوسُ أنفسَهم عالقين داخل حدود باكستان المعادية والتي تأسَّسَتْ حديثًا، ووجدَ المسلمون أنفسَهم في الهند الهندوسيَّة. وهكذا، بدأت أكبرُ هجرةٍ جماعيَّة عندما غادرَ عشرة ملايين نسمة بيوتَهم وحاوَلوا السَّير في مسيرةٍ محمومةٍ عبر الجبال والسهول الصحراويَّة إلى مَوطنٍ جديد.

عرفَ اللُّورد ماونتباتن، الحاكمُ البريطانيُّ الذي أشرف على الاستقلال، أنَّ

المنطقتَين كانتا مجالًا لحرائقَ كبيرةٍ مدمِّرةٍ محتملة. في الغرب، حيثُ تقعُ حدودُ الهند مع پاكستان الغربيَّة، كانت الأعمالُ العدائيَّة ستَندلعُ حتمًا. لكنَّ الأراضيَ الشرقيَّة على طول حدود المنطقة المقسَّمة لپاكستان الشرقيَّة (الآن بنغلادش)، كانت تشكِّل تهديدًا أعظم. على طول تلك الحدود كانت تقبعُ كلكوتا، المدينةُ الأكثرُ عُنفًا في آسِيا. لا توجَدُ في العالم مدينةٌ تماثلُ فَقْرَها- أكثر من أربع مئة ألف متسوِّل- وتعصُّبَها الدينيَّ وأهواءَها المنفَلِتة. كانت كلكوتا تعبدُ بتَحدٍّ آلهة الدَّمار الهندوسيَّة التي كانت تلبسُ إكليلًا من الجماجم حول خَصرِها. في عَرضٍ تمهيديٍّ ليوم واحدٍ لما كان سيَحدث، احتدمَ العنفُ في كلكوتا، وأُلقيت ستَّة آلاف جثَّة في النهر لتَسدَّ القنوات، أو تُركت لتتفسَّخَ في الشوارع، وقد تعرَّض معظمُها للضَّرب أو سُحِقت بالأقدام.

عندما تدفَّقت تقاريرُ الأعمال الوحشيَّة، أرسل ماونتباتن قوَّاته الحدوديَّة إلى الحدود الغربيَّة للتَّدقيق في العنف المتَصاعد (الذي كان سيَحصدُ في نهاية المطاف نصفَ مليون ضحيَّة). لم يترك له ذلك أيَّ احتياطيٍّ للجبهة الشرقيَّة. ناشد ماونتباتن، وهو في حالةِ يأسٍ، غاندي لكي يذهَبَ إلى كلكوتا وعليه أن يُجريَ هناك معجزةً بطريقةٍ ما بين المنبوذين الذين قَبِلَهم مثل إخوة. وافَقَ غاندي، فقط بعدما وافقَ قائدٌ مُسلمٌ، وهو أحَدُ أكثر السياسيِّين فَسادًا في كلكوتا، على السَّكن معه دون سلاح في إحدى مناطق كلكوتا الأكثر فَقرًا. تعهَّدَ غاندي أنَّه إذا تُوفِّيَ هندوسيٌّ واحدٌ على أيدي المسلمين، فإنَّه سيَصومُ حتَّى الموت.

وحدثَ أنَّه قبل يومَين من استقلال الهند، وصلَ غاندي إلى كيپلنغ (Kipling) "مدينة اللَّيلة المخيفة". كان بانتظاره كالمعتاد جمهورٌ كبير، لكنَّ هذا الجمهورَ حيَّاه هذه المرَّة ليس بالهتاف بل بصرخات الغضب. كانوا هندوسيِّين خارجين للانتقام، وبالنِّسبة إليهم، كان غاندي يمثِّل استِسلامًا لمظالم المسلمين. ألم يَرَوا أقرباءَ لهم قد ذُبحوا، وزوجاتٍ وبناتٍ نُجِّسوا من قِبَل حَشدٍ من المسلمين؟ خرجَ غاندي من سيَّارته وسط وابلٍ من الحجارة والزُّجاجات. رفعَ يدًا واحدةً في إشارةِ سلامٍ هشَّة، وسارَ الرجلُ العجوزُ وحيدًا نحو الجمهور. نادى قائلًا: "أنتم تريدون لي الشَّر، ولذا ها

أنا قادم إليكم". صمتَ الجمهور. "أتيتُ إلى هنا لأخدمَ الهندوس والمسلمين على حدٍّ سواء. سأضَعُ نفسي في حمايتكم. باستطاعتكم أن تنقلبوا ضدّي إذا ما رغبتم في ذلك. ها قد شارفَتْ على نهاية رحلة الحياة. لم يبقَ لديَّ الكثيرُ من الوقت بعد الآن. لكنْ إذا تصرَّفتم بغضبٍ وطَيشٍ مرَّة أُخرى، فلن أكونَ شاهدًا حيًّا على ذلك".

حلَّ السلامُ في كلكوتا في ذلك اليوم، وفي يوم استقلال الهند الرسميِّ واليوم التالي والذي يليه، ما مجموعه ستَّة عشر يومًا. في الزِّقاق خارج بيت غاندي في حيِّ الفقراء، كان الناسُ يتجمَّعون كلَّ ليلةٍ لحضور اجتماعات صلاة- ألف شخصٍ في البداية، ثُمَّ عشرة آلاف، وأخيرًا مليون شخص ازدحموا في شوارع الحيِّ الفقير ليستَمعوا إليه وهو يحاضر بواسطة مكبِّرات الصَّوت عن السَّلام والمحبَّة والأُخُوَّة. مرَّة أُخرى، كان غاندي يواجهُ أزمةً سياسيَّةً مع ما دعاه "قوَّة الرُّوح"، القوَّة الفطريَّة للرُّوحانيَّة البشريَّة. في الوقت الذي كانت فيه ولاياتٌ بأكملها في الهند تشتَعلُ، وملايين الناس يهرُبون من بيوتهم، ومئات الأُلوف يموتون، لم يحدُثْ عملُ عنفٍ واحدٌ في تلك المدينة الأَكثر عنفًا. دُعيَ ذلك عالميًّا "معجزة كلكوتا". أطلقَ اللورد ماونتباتن، الذي شعر بالارتياح، على غاندي "قوَّتي الحدوديَّة المكوَّنة من شخصٍ واحد".

لم تستمرَّ المعجزة؛ إذ في اليوم السابع عشر اغتيلَ مُسلِمان، وانتشرتْ إشاعةٌ عن ضحيَّةٍ هندوسيّ، ثُمَّ على بُعد مئات الأمتار من بيت غاندي، قذفَ أحَدُهم قنبلةً داخل حافلة تعجُّ بالمسلمين. كسرَ الناسُ تعهُّدَهم، فبدأ غاندي صَومًا حتَّى الموت، وقد كان موجَّهًا هذه المرَّة ليس ضدَّ البريطانيِّين، بل ضدَّ مواطنيه. لن يأكلَ الطعامَ ثانيةً حتَّى يتوبَ كلُّ الذين ارتكبوا أعمالَ العنف ويتعهَّدوا رسميًّا بوَقْفِه.

لم يكترثْ أحَدٌ في البداية. ما أهمِّيَّةُ حياةِ رجلٍ واحدٍ مسنٍّ واهن مقابل اعتداء على دينِ شخصٍ ما وعائلته وشرفه؟ كان يبدو أنَّ الانتقامَ أكثر ملاءمةً من الغفران. كان صدى أصوات إطلاق النار يُسمَع في شوارع كَلكوتا خلال اليوم الأوَّل من صيام غاندي. خلال أربع وعشرين ساعة، بدأ قلبُه الذي كان في الأصل ضعيفًا

يفقدُ نبضةً واحدةً من أربع نبضات، وهبطَ ضغطُ دمه سريعًا وبشكلٍ حادّ. في اليوم التالي، وفي الوقت الذي انخفضت فيه علاماتُه الحيويَّة، توقَّفَ المشاغبون واستمعوا إلى تقارير منقولة بالمذياع عن ضغط دم الرجل العجوز ومعدَّل نبضات قلبه. سرعان ما انصبَّ اهتمامُ كلّ مواطنٍ في كَلكوتا على فراش القشّ القاسي حيثُ كان يستَلقي ضعيفًا جدًّا غير قادرٍ على الكلام. توقَّفَ العنف. لم يرغبْ أيُّ شخصٍ في القيام بعملٍ قد يتسبَّب في موت "الروح العظيمة".

بعد يومٍ واحد، أتت العصابة المسؤولةُ عن أعمال القتل لتعترفَ لغاندي وتطلبَ المغفرةَ وتضعَ أسلحتَها عند قدمَيه. وصلت إلى بيته شاحنة ملآنةٌ بالبندقيّات والقنابل وأسلحةٍ أُخرى كان الناسُ قد سلَّموها طَوعًا. وقَّعَ قادةُ كلّ مجموعةٍ دينيَّة في المدينة على إعلانٍ يَضْمَنون فيه عدمَ حدوث أعمال قتلٍ بعد الآن. عندما اقتنعَ غاندي بما قاموا به، شربَ بضعَ رشفاتٍ من عصير البرتقال وتلا صلواته. ثبتَت المعجزة هذه المرَّة. كانت كَلكوتا في أمان.

أمَّا بالنِّسبة إلى غاندي، فقد وضعَ خُططًا للاتِّجاه غربًا حالما يستَعيدُ قوَّتَه، إلى قلب العنف الذي كان قد قتلَ نصف مليون شخص.

عندما أقرأ تاريخَ المهاتما غاندي وأقارنُه بتاريخ الكنيسة المسيحيَّة، فإنَّه لا يسعُني إلَّا أن أتساءل، أين يكمنُ الخطأ. ما الذي دفعَ هندوسيًّا إلى اعتناق مبادئ المصالحة والتواضع والتضحية البديلة التي جسَّدها يسوع بكلّ وضوح لتكونَ مثالًا لنا؟ نسبَ غاندي الفَضلَ إلى يَسوع بأنَّه مصدرُ مبادئ الحياة هذه، وعملَ مثل جنديٍّ منضبطٍ يُمارسُها عمليًّا. ما الذي منعَ المسيحيِّين من السَّير على خطى يسوع بالحماسة نفسها؟

نعم، لدينا مثالُ القدِّيس فرنسيس الأسيزيّ وهو يحاول أو يوقفَ الصليبيِّين، ولدينا رهبانٌ يتفوَّقون على غاندي في زُهدهم، ومرسَلون يخدمون المعذَّبين، وجماعة الكويكرز والحركة الإصلاحيَّة مَّن يعارضون كلَّ أشكال العنف. لكنَّ تاريخَ الكنيسة

الأوروبيَّة عمومًا، هو سجلُّ كنيسةٍ تعتمد على الغنى والسُّلطة والشُّهرة، وأيضًا على الإكراه والحرب لدفع قَضيَّتها إلى الأمام.

لقد تغيَّر العالم بالتَّأكيد. يعيشُ الآن أكثرُ من ثُلث مسيحيِّي العالَم في أوروبا وأميركا الشماليَّة، وأمَّا مركَزُ الكنيسة فانتقل إلى أفريقيا وآسِيا. بعد ألفي سنة من السَّيطرة الغربيَّة، هل حان الوقتُ للنَّظر إلى الشرق طَلَبًا للحكمة في ما يتعلَّق بالإيمان الذي مارَسْناه بطريقةٍ غير مُنضَبطةٍ؟

عندما أعودُ إلى سيرة غاندي الشخصيَّة، تهبُّ ريحٌ باردةٌ في روحي؛ لأنَّه ينقلُ الأضواءَ بعيدًا عن حركات التاريخ وقادته ويركِّزُها بدلًا من ذلك على نفسه. السؤالُ الحاسمُ بالنِّسبة إليه لم يكن كيف تصرَّف المسيحيُّون والهندوسُ والمسلمون في الماضي، لكن كيف يتصرَّف هو الآن في الوقت الحاضر. عندما واجَهْتُ غاندي، اضطُررتُ إلى الانتقال من المراجعة النظريَّة للتَّاريخ المسيحيِّ إلى نظرةٍ أكثر إيلامًا إلى نفسي بوصفي أحد أتباع يسوع. قد يركِّزُ علماءُ التاريخ على النتائج الخارجيَّة لأعمال غاندي؛ لكنَّه ينقبُ في الحياة الداخليَّة.

تقدِّم إلينا سيرةُ حياته أحداثًا بنسبةٍ غريبة. تُصوِّرُ سيرتُه الذاتيَّة، التي عنونَها بالاسم "**قصَّةُ تجاربي مع الحقيقة**" *(The Story of my Experiments with Truth)*، الأحداثَ الخارجيَّةَ على أنَّها مجرَّدُ مسرحٍ تُعرَضُ عليه الدراما الداخليَّة لتَطوُّر شخصيَّته. تشيرُ إحدى الفِقرات إلى مسيرة الملح العظيمة، وهي نقطةُ تحوُّلٍ في مسيرة غاندي وتاريخ الهند، لكنَّ أربعةَ فصولٍ متَتابعة تستكشفُ صراعَه الداخليَّ العنيفَ المتعلِّقَ في ما إذا كان يجب أن يُدرِجَ حليبَ الماعز في غذائه النباتيِّ أم لا. قدَّمَ غاندي حياتَه بوصفها تنقيةً تدريجيَّةً للنَّفس.

في سيرة حياته، يتتبَّعُ غاندي تطوُّرَ أسلوب حياته البسيط. لقد جرَّبَ الطرقَ الغربيَّة حينما كان طالبَ حقوقٍ في لندن يلبسُ بزَّةً مسائيَّةً وقبَّعةً يكسوها الحرير، وحذاءً جلديًّا لامعًا، وقفَّازاتٍ بيضاء، وعصا للسَّير برأسٍ من الفضَّة. بقيَ شخصًا

شديدَ التَّأنُّق في مَظهره عندما عادَ إلى الهند، ولم يبدأ في تغيير مَظهره إلَّا بعد ذَهابه إلى جنوب أفريقيا. في البداية، كان يكوي قمصانه، ممَّا كان يعرِّضه إلى كثيرٍ من السخرية من قِبَل زملائه في كلِّيَّة الحقوق. بعد ذلك، صارَ يقصُّ شعرَه بنفسه تاركًا بقعًا من الشعر غير متَساويةٍ ممَّا استَدعى مزيدًا من الضَّحك. ومع أنَّه كان يتَقاضى راتبًا جيِّدًا، فقد جرَّبَ تقليصَ النَّفَقات المنزليَّة إلى النصف ثُمَّ إلى نصفٍ آخر. في نهاية كلِّ يوم كان يُجري حساباتٍ دقيقةً جدًّا لكلِّ قرشٍ كان ينفقُه.

من هذه التَّجارب، اكتشفَ غاندي أنَّ عمليَّةَ صَرْفِ مالٍ أقلَّ وحيازةَ ممتلكاتٍ أقلّ، بسَّطت حياتَه ومنحَتْه سلامًا داخليًّا. كما أتاحَتْ له فرصةً للتَّعاطف مع الفقراء والتوحُّد معهم حيثُ غالبًا ما كان يمثِّلهم في المحكمة. بمرور الوقت غربَلَ ممتلكاته المادِّيَّة إلى أن صارت: نظَّارات، وساعة، وصندلًا، وكتابَ أغاني، وزبديَّة. وللردِّ على المراسَلات، كان يستخدمُ أوراقًا مَصنوعةً من قصاصات مغلَّفات الرَّسائل التي يجيبُ عليها. كان يأكلُ بملعقةٍ مكسورة أصلَحَها بقطعةِ خَيزُران مشدودةٍ إليها بخَيط.

عندما قرأتُ قصَّةَ حياته، تذكَّرتُ فجأةً بشعورٍ من الانقباض والألم عندما انتقلتُ من شيكاغو إلى كولورادو سبرينغ، وبحَسب الذين نَقَلوا ممتلكاتي تبيَّنَ أنَّها كانت تزِن ١٢ ألفَ رطل (نحو ٥٤٤٠كغم). حتَّى لو طرحْتَ نصفَ الوزن، الذي يمثِّل وزن الكتب، فإنَّ ذلك يتركُ نحو ثلاثة أطنان من تراكُم أغراضٍ مادِّيَّة. وبامتلاكي كلَّ هذه الأمتعة، هل تُعدُّ حياتي، قياسًا بحياة المهاتما غاندي، أغنى من حياته؟

توقَّفتُ يوم أمس عن كتابة هذا الفصل لأُمضي ساعةً على سطح سيَّارتي في محاوَلة إصلاح الآلة التي تفتحُ بابَ المرأب. واجهتُ معوِّقًا مُحبطًا آخرَ وأنا أعبثُ ببرنامج الحاسوب الذي يديرُ آلةَ الفاكس. وفرغَتْ بطاريَّة هاتفي الجوَّال. أدركتُ بدهشةٍ كم من حياتي تحكُمُه الأمور المادِّيَّة. أستَطيعُ أن أُبرِّر أو، على الأقلِّ، أن أفسِّرَ عقلانيًّا وُجودَ بعضِ هذه الممتلكات، لا سيَّما التي تُساعدُني في عملي. لكنْ، إلى أيِّ حدٍّ أنظرُ باهتمامٍ إلى تحذير يسوع عن مخاطر رِبْح العالم كلِّه وخسارة النفس؟ يجب

أن أعترفَ بأنَّ القواسمَ المشتَرَكة بين أسلوب حياة غاندي وأسلوب حياة يسوع هي أكثرُ بكثيرٍ من التي لديَّ.

تدعو أصواتٌ في الغرب إلى العَودة إلى البساطة. يدعمُ بعضُ المسيحيِّين فضائلَ نمط الحياة البسيطة، ويثيرون أسئلةً عن أخلاقيَّاتِ المعايير الغربيَّة في ضَوء مَظالم العالم (لكن، للإنصاف، إنَّ مستوى البساطة التي يوصون بها تُشبهُ ما بدأ به غاندي أكثرَ ممَّا وصلَ إليه في ما بعد). سأتركُ قضيَّةَ أخلاقيَّات نمط الحياة للآخرين الذين يمتلكون ثقةً أكثرَ منِّي. ما أتعلَّمُه من غاندي هو سببُ البساطة وليس مستَواها. لم يسعَ غاندي في طلبِ البساطة بدافع الشعور بالذَّنب، بل بدافع الضَّرورة، من أجل صحَّته الروحيَّة الشخصيَّة.

تناوَلَ غاندي الطعامَ مع قادةٍ عظماء. كان قد رأى إغراءَ القوَّة، والاعتمادَ على الخَدَم لتَنفيذ كلِّ نزوة، ورأى درجَ الفخامة الحلزونيَّ الذي لا نهاية له، والقلقَ المستَحوذَ على المرء بشأن الاستثمارات، وانهمارَ الرسائل والدَّعوات لإلقاء المحاضرات وتوقيع الشيكات، والمكالمات الهاتفيَّة الكثيرة. ولأنَّه عرفَ عبءَ الشُّهرة، عرفَ أيضًا أنَّ الطريقةَ الوحيدةَ للتَّصدِّي لها كان السَّعيَ إلى البساطة بكلِّ قلبه. لو لم يسعَ إليها، لنفذَتْ منه قوَّة روحِه، قوَّته الداخليَّة التي منها كان يحصلُ على الصَّبر والتحمُّل والشجاعة للمَواجهات الأخلاقيَّة.

كان لدى غاندي شكوكٌ حول التكنولوجيا الحديثة. آمنَ بأنَّ الناسَ الذين يملكون السيَّارات وأجهزة المذياع والثَّلاجات المكدَّسة بالموادِّ وخزانات الثياب، سيَشعرون بعدم الأمان نفسيًّا ويصيرون فاسدين أخلاقيًّا. كان يعرفُ ما يكفي عن مبادئ حفظ التربة الزراعيَّة ليُدركَ أنَّ أرضَ الهند لا تستطيعُ أن تتحمَّلَ عقودًا قليلةً من الإساءة إلى التربة بسبب الزراعة المعتمدة على التكنولوجيا العالية (في فترة ١٥٠ سنة، فقدت ولاية أيوا من سطح تربتها أكثر ممَّا فقدته الهند في خمسة آلاف سنة). وكانت لديه أسئلةٌ حول المدَّة التي ستَدوم خلالها مصادرُ الطاقة. وبالإضافة إلى هذا، قال غاندي إنَّه سيَستمرُّ في التَّوصية باستخدام الأبقار حتَّى يُخترعَ جرَّارٌ زراعيٌّ

(تركتور) يُنتج حليبًا ولبنًا وسمادًا. ولسُخرية القَدَر، جاءَ التَّحفيزُ لِمَيل غاندي نحو البساطة من كتابات الغربيِّين- تولستوي، ورَسْكن، وثورو (Thoreau)- الذين أقنَعوه بأنَّ الغنى عبء، وحياةَ العمل هي وحدها الجديرة بأن يحياها الإنسان. دعا غاندي أوَّلَ مجتمعٍ صغيرٍ له مزرعةَ تولستوي إكرامًا للكاتب.

تجاهَلَ الغربُ، والهندُ أيضًا، غاندي في ما يتعلَّق بذلك الأمر. تسيطرُ الرأسماليَّة عالميًّا، والمجتمعُ الذي يعتمدُ نسيجُه الاقتصاديُّ على النموِّ المستَمرّ، يتطلَّبُ أن يكونَ لمواطنيه حاجاتٌ ورغباتٌ تتوسَّعُ باستمرار.

إذا قرَّرَ فجأةً عشرةُ ملايين شخصٍ مثل غاندي في أوروبا، وَفقًا لأسمى الدَّوافع، أن يعيشوا حياةَ البساطة بالامتناع عن استخدام السيَّارات الجديدة، وارتداءِ الألبسة التي لا تتماشى مع الزيِّ الحديث، وإنتاج طعامِهم الخاصّ، وإزالة الأجهزة المنزليَّة، فستَعمُّ الفَوضى الاقتصاديَّة، وسيَفقدُ ألوفُ الناس وظائفَهم. هذه هي المعضلة التي أرادَ غاندي أن يتجنَّبها في الهند. في الغرب، سيتَطلَّبُ الأمرُ شخصًا يتمتَّعُ بمثل قوَّة روح غاندي لتَغيير العقيدة السائدة عن الناتج القوميِّ الإجماليِّ (GNP) المتزايد باستمرار. وقد نُضطرُّ إلى تغيير عاداتنا المسرِفة ذاتَ يوم عندما تُستَنزفُ التربة، وتجفُّ خَزَّانات المياه الجوفيَّة، وتنصهرُ القِممُ الجليديَّة، وتُضَخُّ جميعُ أبار النفط حتَّى تنضب. لكنَّ الأزمة ستنتظرُ نحو خمسين سنةً أُخرى؛ وسنتركُ هذه المشكلات إلى جيلٍ لم يولَد بعد.

أقرأُ في كلِّ شهرٍ عن اختراع جديد يسمَحُ لي بالاتِّصال ببقيَّة العالم. توجَدُ الآن في تلفازي ثلاثُ محطَّاتِ بثٍّ تقدِّمُ الأخبار على مدار الساعة. أستطيع، إذا أردتُ، أن أبعثَ برسالةٍ إلكترونيَّة عبر الإنترنت من خلال هاتفي الجوَّال. وأستَطيعُ الحصولَ على الأخبار والأنشطة الرياضيَّة وتقارير سوق المال بإرسال رسائل إلى أرقامٍ معيَّنة. كلَّما استَسلمتُ واشتَريتُ جهازًا كهذا، أشعرُ بأنِّي مهمٌّ وأُبرهنُ على إثبات الذات. لديَّ حياة حافلةٌ بالنَّشاط والعمل، لا سيَّما في عالم التَّواصُل. تُتيح لي هذه الأجهزة الوُصولَ إلى عددٍ أكبرَ من الناس بشكلٍ أكثرَ كفاءةً وفاعليَّة.

لكن بطريقةٍ ما، نجحَ المهاتما غاندي في أن يكون فعَّالًا تمامًا حتَّى دون هاتفٍ من الطراز البدائيّ. قال ثورو مرشِدُه: "اعتَدْنا أن تكونَ اختراعاتُنا ألعابًا جميلةً تحوِّل انتباهَنا عن الأمور الجِدِّيَّة. إنَّها مجرَّدُ وسائلَ محسَّنة للوُصول إلى غايةٍ غير محسَّنة- *غايةٍ من السَّهل جدًّا تحقيقُها... نحن في عجلةٍ من أمرنا لبناء تلغرافٍ مغناطيسيٍّ من* ولاية مين (Maine) إلى تكساس؛ لكن ربَّما لا يوجَدُ موضوعٌ مهمٌّ يستحقُّ أن نتناقلَه ما بين مين وتكساس" (بعد قرنٍ ونصف من كلام ثورو، لن يحتاجَ المرءُ إلَّا لأنْ يستخدمَ "غُرفَ الدردشة" عبر الإنترنت لفَهْم فكرته). حافظَ غاندي أيضًا على كلِّ يَومِ اثنين ليكونَ يومَ صمتٍ يُريحُ فيه حباله الصوتيَّة ويعزِّز التَّناغُمَ في كِيانه الداخليّ. التزمَ ذلك الصَّمتَ حتَّى عندما كان يُدعى إلى الاجتماعات في ذروةِ المفاوضات حول مستَقبَل الهند.

لقد راقبتُ من الداخل، بصفتي صحافيًّا، نمطًا مُزعِجًا لما نفعلُه للقادة الدينيِّين اليوم. نكافِئهم بالتَّصفيق والشُّهرة، ونُغريهم بعقودٍ جديدة، ونقدِّم إليهم طلباتٍ سريعةً كثيرة لإلقاء المحاضرات والظُّهور أمام وسائل الإعلام. نضغطُ على قُسوس كنائسنا ليَقوموا بعَمَلِ معالجين نفسيِّين وخُطَباء وكهنة ومديرين تنفيذيِّين. وعندما يُظهِرُ قائدٌ ما فِطنة غير عاديَّة، نُغريه بعرضٍ إذاعيٍّ أو برنامجٍ تلفزيونيٍّ، مع آلةِ جمع التبرُّعات لإنقاذ المنظَّمة. باختصار، نحن في الكنيسة نقلِّدُ بخُنوعٍ النموذجَ العَلمانيَّ للضَّجيج الإعلاميِّ ونموِّ الشركات. إنِّي أتساءلُ كم سيَكون قادتُنا الروحيُّون أكثرَ تأثيرًا وفاعليَّةً لو أنَّنا شجَّعناهم على تمضية يوم الاثنين للصَّمتِ والتأمُّل والتفكير والدراسة الشخصيَّة.

في عاداته الشخصيَّة، انتقَلَ غاندي إلى ما هو أبعَدُ من الانضباط الذاتيِّ إلى الامتناع. لم يُفسِح المجال للمتع الحسِّيَّة. وفي سيرته الذاتيَّة، لا نقرأ أيَّ شيءٍ عن تجربةٍ ممتعة مع الموسيقى أو الطبيعة أو ملذَّات الذَّوق والشَّمّ. كانت وجبتُه النموذجيَّة تتألَّف من قطعتَين من فاكهة الكريب فروت وخثارة حليب الماعز وحساء الليمون. وخاض أيضًا صراعًا مدى الحياة ضدَّ الرَّغبة الجنسيَّة. في سنِّ السابعة والثلاثين، ومع أنَّه كان

متزوِّجًا، قطعَ على نفسه عهدًا بالامتناع عن ممارسة الجنس. وبذلَ جَهدًا كبيرًا في التحقُّق من الأطعمة التي تحتوي على أدنى نوعيَّةٍ من مثيرات الشهوة الجنسيَّة، ثُمَّ ألغى الملحَ والبهارات والشاي والخُضَر والفاكهة الغريبة والجذَّابة من غذائه.

يبدو هذا التصلُّبُ أمرًا غريبًا بالنِّسبة إلى الغربيِّين العصريِّين، مع أنَّ التاريخَ المسيحيَّ، بالتَّأكيد، يحوي حصَّةً من الزُّهد. لدى الشرق تراثٌ غنيٌّ مستمرٌّ من "القدِّيسين" الذين يسعَون إلى ضَبْط الشَّهوات البشريَّة. شرحَ غاندي لنقَّاده قائلًا: "أنا أُصرُّ على هذه الممارسات الصارمة لمصلحتي. أنا هو مَنْ سيُعاني لو استَسلمتُ لطبيعتي الشهوانيَّة".

في مؤتمر ولاية كارولينا الجنوبيَّة، سمعتُ آرون غاندي (Arun Gandhi)، حفيدَ المهاتما غاندي يسردُ قصَّة السفر من جنوب أفريقيا إلى الهند في سنِّ الثانية عشرة لكي يقابلَ جدَّه. رتَّب والد آرون، وهو أحَدُ قادة حركة الحقوق المدنيَّة في جنوب أفريقيا، هذه الرحلة خَوفًا على آرون من أن يصيرَ طفلًا مدلَّلًا. لم يَجرِ الاجتماع الأوَّل مع الجدِّ المشهور على ما يرام.

كان المهاتما يحاولُ أن يعلِّمَ الصبيَّ الشابَّ أن يحتفظَ بمفكِّرةِ غضب. قال: "من الطبيعيِّ أن تشعرَ بالغضب. المهمُّ هو كيفيَّة تَوجيه ذلك الغضب". طلبَ من آرون أن يتوقَّفَ في كلِّ مرَّةٍ تتكوَّن لديه مشاعرُ الغضب ويكتبَ فَورًا في خِضَمِّ هذه اللحظة كلَّ أفكاره ومشاعره. ثُمَّ في اليوم التالي، بعدما تهدأ المشاعر، عليه أن يعودَ ويقرأ المفكِّرةَ ويفكِّرَ في كيفيَّة تَوجيه تلك القوَّة إلى الخير. قال جدُّه: "ابدأ وحاول. اكتُبْ كلَّ ما يجعلُك غاضبًا".

شعر آرون ذو الاثني عشر عامًا بغضبٍ كبيرٍ لأنَّه سيُهدرُ الوقتَ وهو يسجِّل غضبَه حتَّى إنَّه كسرَ قلمَه وقذفَ به من أعلى كتفه. أجلسَه جدُّه وألقى عليه محاضرةً برقَّةٍ لكنْ بحزم. قال له: "ذلك القلمُ كان مجرَّد قلم رصاص. لكن تخيَّلْ لو أنَّ عشرين مليون صبيٍّ حول العالم قَذَفوا أقلامَهم. فكِّر في الأشجار التي كانت ستُقطع. فكِّر

في العمَّال الذين وضَعوا الغرافيت (الرصاصة) داخل القلم. فكِّر في الهدر الذي لا ضرورة له". استعَارَ الرجلُ المسنُّ مصباحًا محمولًا، ثُمَّ أمضى مع الصبيِّ الساعة التالية يبحثان عن عقب القلم وهما على يدَيهما وركبتَيهما.

وفي الأسابيع القليلة التالية، درَّبَ المهاتما حفيدَه على السيطرة على التعبير عن مشاعره. تذكَّرَ آرون قائلًا: "علَّمني أن أكونَ سيِّد نفسي. احتاجَ الأمرُ إلى شهورٍ أُخرى كثيرة من الممارسة بعد عودتي إلى البيت. لكنْ بمرور الوقت رأيتُ أنَّ ذلك حرَّرني. كنتُ ضحيَّةً لا حيلةَ لها لشهواتي، لكنِّي أتعلَّمُ الآن أن أكونَ السيِّد". عندما عاد آرون إلى جنوب أفريقيا، سار على خطى والده بوصفه زعيمًا للحقوق المدنيَّة، وأخيرًا هاجرَ إلى الولايات المتَّحدة حيثُ يديرُ "معهد مهنداس كاي. غاندي السلميّ" (Mohandas K. Gandhi Institute of Nonviolence). "ما كنت لأستطيعَ أن أتحمَّلَ الإساءةَ والعنفَ الجسديَّ في تلك الحملة من أجل الحقوق المدنيَّة في جنوب أفريقيا لو لم أكُنْ قد تعلَّمتُ ذلك الدرسَ حينما كنتُ صبيًّا في الثانية عشرة من العمر".

في اليوم التالي، وفي المؤتمر ذاته، اشتركتُ في حلقة مناقشة لبَحث أسباب التوجُّه الثقافيِّ نحو البذاءة والغضب كما نراهما في موسيقى الراپ (RAP) يؤدِّيها أشخاصٌ مثل إمينِم (Eminem)، وفي برامج التلفاز مثل "ساوث پارك" (South Park) و"بيڤس آند بَتهِد" (Beavis and Butthead). استمعتُ للأهل الذين كانوا يُبدون قلقَهم بخصوص كلمات الأغاني التي تصفُ قتلَ الزوجة عَمدًا، وقَتْلَ رجال الشرطة، والكراهية العرقيَّة، ثُمَّ دافعَ المراهقون بشدَّة عن حقِّهم في التعبير عن مشاعرهم مهما كانت. قال أحَدُهم وهو في الثامنة عشرة من عمره: "إنَّ عروضًا كهذه، وموسيقى الراپ، هي وسائلنا لإخراج العداء الذي نشعر به. إذا أخذتُموها منَّا، سيَلجأ الأولاد على الأرجح إلى العنف". لم يبدُ يومًا الفرقُ بين نَهجَي التعامُل مع المشاعر الإنسانيَّة بمثل هذا الشكل الصارخ، وأعني هنا نهج الشرق ونهج الغرب.

عرفَ المهاتما غاندي أنَّ مَصدرَ قوّته الأخلاقيَّة الوحيد لأجل الآخرين كان صادرًا ممّا قد تعلَّمَ السيطرة عليه بنفسه. جلبتْ إحدى النساءُ ابنَها وطلبت من غاندي أن يقولَ للطفل أن يتوقَّفَ عن تناوُل السُّكَّر لأنّه مُضرٌ له. قالت إنَّ الطفلَ لن يستمعَ إليها بل سيَستمعُ إليه. قال غاندي: "اجلبي الولدَ ثانيةً إلى هنا بعد أسبوع وسأخبرُه بهذا". بعد أسبوع عادت المرأة مع ابنها. أخذَ غاندي الصبيَّ بين ذراعَيه وطلبَ منه ألّا يتناوَلَ السُّكَّر، ثُمَّ ودَّعَهما. تباطأت المرأة وراءَه وسألت، "يا بابو (Bapu)، لماذا كان عليك الانتظار مدَّة أسبوع؟ ألم يكن بإمكانك أن تقولَ له ذلك في الأسبوع الماضي؟" أجاب: "لا؛ إذ كنتُ أنا نفسي أتناولُ السُّكَّرَ في الأسبوع الفائت".

إنَّ هذا المبدأ، مبدأ الإقناع المعنويّ من خلال المثال الشخصيّ والمعاناة البديلة، هو ما كان غاندي يتوقُ إلى تطبيقه حتَّى الكمال في ممارسة الصَّوم. في بداية مهنته، سقطَ شابَّان تحت وصايته في الفجور، فتَعذَّب غاندي لأيَّامٍ وهو يفكِّرُ بردٍّ ملائم. دعا معظمُ أعضاء الطائفة إلى إنزال عقوبةٍ صارمةٍ بالشابَّين المذنبَين، لكنْ بدا لغاندي أنَّ الوَصيَّ أو المدرِّس كان أيضًا مسؤولًا جزئيًّا عن رسوب تلميذه أو مَن كان تحت وصايته. كان يشكُّ في أنَّ الطلَّابَ الآخرين سيُدركون عُمقَ حزنه وخطورة الخطيَّة إذا لم يَقُمْ بعملٍ يكفِّر به عن هذا الذَّنب. لذا، استجابةً لخَرْق الطالبَين القانون، بدأ فترةَ صَوم مدَّة سبعة أيَّام وتَناوَلَ وجبةً واحدةً يوميًّا مدَّةَ أربعة أشهر ونصف. وختمَ بالقَول: "تكفيري عن الذَّنب آلمَ الجميع. لكنَّه نظَّفَ الأجواء. بدأ الكلُّ يدركُ كم هو مروِّعٌ أن يكونَ المرءُ خاطئًا، وصارَ الرِّباط الذي رَبَطني بالأولاد والفتيات أقوى وأَصدَقَ".

في نهاية المطاف، صارَ الصَّوم أقوى أسلحةِ غاندي. كنتُ قد ذكرتُ صيامَه ضدَّ العنف في كَلكوتا. بعد ذلك، أعلنَ غاندي عن صوم آخر في نيودلهي، عاصمة الدولة الجديدة، المدينة التي كانت تقبعُ في أوائل عام ١٩٤٨م تحت غطاءٍ من الدُّخان. كان خمسةُ ملايين لاجئ قد فرُّوا من البنجاب من پاكستان باتِّجاه العاصمة، وكثيرون منهم عاشوا في مخيَّماتِ اللَّاجئين المؤقَّتة في دلهي. بعدما تعرَّضوا للسَّلب والاغتصاب والمعاملة الوحشيَّة من قِبَل المسلمين، صارَ هؤلاء الهندوس مُتَعطِّشين إلى الانتقام.

عندما وصل غاندي وشعرَ بأجواء الكراهية، أعلنَ صيامًا حتَّى الموت. اعترضَ أطبَّاؤه على هذا الأمر، حيثُ إنَّه لم يتَعافَ بعد من الصوم الذي شارفَ فيه على الموت في كَلكوتا. كانت الجموعُ قد شبعَتْ من الرَّجل المسنِّ وهَذَيانه عن السَّلام والأُخوَّة. في أوَّل يومَين، سخروا من الجسد المكوَّم على فراش القَشّ، وكانوا يسيرون بجانبه بأغنيةٍ جديدةٍ على شفاههم: "دعوا غاندي يموت! دعوا غاندي يموت!" ثُمَّ في اليوم الثالث توقَّفت كُليَتاه عن العمل، وتباطأت دقَّات قلبه وبدأ يتنفَّس بصعوبةٍ كبيرة. بدأت "إذاعة عموم الهند" (All India Radio) تبثُّ نشراتٍ إخباريَّة كلَّ ساعةٍ عن حالته الصحِّيَّة.

في اليوم الرابع، وفي حالة يأسٍ، أتى إلى غاندي أقوى زعماء الهند- الفاشيُّون، الشيوعيُّون وجميع الأحزاب بين الفئتَين- وأقسَموا بجدِّيَّة أن يحموا المسلمين ويَدينوا العنف. جُمعَت حمولةُ شاحناتٍ من الأسلحة وجرى تدميرُها. وضَمِنَ القادةُ المدنيُّون إعادةَ البيوت والمحالِّ والجوامع إلى مالكيها الحقيقيِّين من المسلمين. وصوَّتَ البرلمانُ الهنديُّ على أن يدفعَ إلى العدوِّ اللَّدود- أي پاكستان- خمسًا وخمسين مليونَ جنيهٍ إنكليزيّ. أخيرًا، بعدما جرت تلبيةُ كلِّ شرطٍ من شروط غاندي القاسية؛ وحينما عاد السلامُ إلى البلاد، وافقَ غاندي على أن يُنهيَ صيامه الذي دامَ ١٢١ ساعةً.

بعد أسبوعَين، كان جسدُه المُنهَك ممدَّدًا مرَّةً أُخرى على ذلك الفراش من القشّ، مقتولًا ليس بسبب الصوم بل بثلاثِ رصاصاتٍ تلقَّاها من متعصِّب هندوسيٍّ كان مستاءً ممَّا حسبَه خيانةَ غاندي لأُمَّته. في عمل الموت الأخير ذاك، أنجزَ غاندي أكثرَ ممَّا أنجزَه آلافٌ من رجال الشرطة والجنود الذين كانوا يقومون بدَوريَّاتٍ دون جدوى في البنجاب. عند وفاة غاندي، صمتت كلُّ الهند، وتوقَّفَ القتلُ في المجتمع الطائفيّ، وصُدِمت الأُمَّة الفتيَّة في صميم أحاسيسها. جالَ رجلٌ وَرِعٌ في بومباي وهو يصرخ: "المهاتما ميت. متى سيأتي آخرُ مثله؟".

إنَّ العديدَ من إنجازات غاندي رحلَتْ معه. اتَّخذَتْ أُمَّته التي كان يحبُّها طريقًا مختلفًا عمَّا دافَعَ عنه، وكذلك فعلَ العالَمُ الذي صارَ منذ وفاته أكثرَ عدائيَّةً وأقلّ

قبولًا لمعتقداته الأساسيَّة. لكنْ في فترةٍ ما، نجحَ هذا الرجلُ الغريبُ المحيِّرُ بطريقةٍ ما في تنشئة رجالٍ ونساءٍ آخرين ليَسْموا على مستوى ذواتهم المعتاد. لم يشغل غاندي أيَّ منصب، ومَن أطاعَه فعلَ ذلك طواعيَّةً. إنَّ حقَّه الوحيدَ في المطالَبة بالزَّعامة كان قوَّةَ روحه. قال غاندي: "إنَّ العملَ العاديَّ هو خطوةٌ كبيرةٌ ومساوَمةٌ جميلة. إنَّ جمالَه يكمنُ في مساوَمة اليوم بأن يكونَ المرءُ أقلَّ نجاسةً من الأمس؛ إنَّه يتمثَّلُ في أعيُننا حين تتَّجه في خطٍّ مستقيم نحو شيءٍ جميلٍ عندما ننظرُ ليس إلى الأعمال، بل إلى الاتِّجاه الذي تسيرُ فيه هذه الأعمال".

في عام ١٩٨٣م، بعد عَودتي مباشرةً من الهند وإطلاق فيلم "**غاندي**" للمُخرج ريتشارد أتنبورو، كتبتُ لمحةً شخصيَّةً عن الرجل لمجلَّة "**المسيحيَّة اليوم**". مع أنِّي تسلَّمتُ العديدَ من الرسائل الحاقدة على مرِّ السنين، فإنِّي لم أكن مستعدًّا لهذا الحجم من رسائل الكراهية الذي ولَّدته المقالة. أعلَمَني القُرَّاء بأنَّ غاندي يُشوى الآن في جهنَّم، وأنَّ الشيطانَ حتَّى يؤمنُ بالله ويقتبسُ من الكتاب المقدَّس. كتبَ أحَدُ القُرَّاء: "هكذا إذًا؟ غاندي على غلاف هذا الشهر. مَن سيَكون عليه الشهر القادم؟ آية الله؟" ودَعاه آخَرُ، "المحرِّضَ الوثنيَّ الذي فعلَ أكثر من أيِّ شخصٍ آخرَ لتَقويض تأثير الحضارة الغربيَّة". وانتقدَ المجلَّةَ بأسلوبٍ جارحٍ أحَدُ المتحدِّثين المسيحيِّين البارزين لأنَّها "استَبدلَتْ بيسوع المهاتما غاندي على غلافها".

تتلخَّصُ معظَمُ الشَّكاوى في سؤالٍ واحد: هل هناك ما يمكنُ للمسيحيِّين أن يتعلَّموه من شخص رفضَ عقيدتَهم؟ توصَّلتُ أنا إلى قرارٍ هو: "نعم". على الرُّغم من أنَّ غاندي لم يقبَلْ بتاتًا ادِّعاءات اللَّاهوت المسيحيّ، فإنَّه أسَّسَ فلسفةَ حياته على مبادئ تعلَّمها من يسوع. بطريقةٍ غريبةٍ نوعًا ما، ساعَدَ تأثيرُ حياته على إقناعي بصحَّة الإيمان المسيحيّ. بدأتُ أرى أنَّ يسوعَ أطلقَ نوعًا جديدًا من القوَّة على الأرض. إنَّه انقلابٌ قلَبَ افتراضاتِ التاريخ الأساسيَّة رأسًا على عَقِب. قال: "الآخرون يصيرون أوَّلين، والأوَّلون آخرين"، وانطلقَ يعيشُ عمليًّا بموجب ذلك المبدأ بالاتِّصال بالمنبوذين والفقراء والمتألِّمين. إنَّ يسوعَ الذي هو الأكثرُ تأثيرًا بين كلِّ البشر الذين عاشوا على

وجه الأرض، لم يشغلْ أيَّ منصب، وكان موقفُه يُبيِّنُ نوعًا ما الازدراءَ تُجاهَ السُّلطة السياسيَّة، ولم يترك أيَّة ممتلكاتٍ ماديَّةٍ ما عدا الرِّداء على ظهره.

منحَ يسوعُ مغفرةً للخُطاة ومحبَّةً للأعداء ورأفةً نبويَّةً للَّذين اختلفَ معهم في الرَّأي. اليوم، تستطيعُ كلُّ مجموعةٍ مهمَّشة- من الأقلِّيات، والنساء، وذوي الاحتياجات الخاصَّة، والسجناء، والمرضى- أن تنظرَ إلى يسوع بصفته مصدرَ إلهامٍ أخلاقيٍّ وأنموذجًا للعمل الفعَّال، سواء كانت تتبعُ تعاليمَه أم لا. من خلال غاندي، رأيتُ أنَّه بالإضافة إلى تأسيس كنيسة، أطلقَ يسوعُ تيَّارًا من السُّلطة الأخلاقيَّة تحرِّر المأسورين والمضطَهدين وتقوِّض عالمَ العنف والمنافَسة. يستمرُّ ذلك التيَّار بالتدفُّق، سواء انضمَّتِ الكنيسة إليه أمِ اختارَتْ أن تقفَ بجانبه. نظرًا إلى خلفيَّتي، كنتُ متسرِّعًا في اتِّهام الكنيسة بالوُقوف دون حِراكٍ بينما التيَّارُ يتدفَّق. علَّمَني غاندي أنَّ للإنجيل قوَّةً في ذاته وأنَّه يعملُ ببطءٍ وثباتٍ مهما حصل. مع أنَّه لم يقبَلْ يسوعَ بالطريقة التي كان المسيحيُّون يحثُّونه بها على قبوله، فإنَّه أثبتَ حقيقةَ تعاليم يسوع وصحَّتها بتَوصيل تيَّار الحقِّ ذاك إلى أمَّةٍ تتَّصفُ بالعاطفة والعنف.

كان لغاندي أصدقاءُ مسيحيُّون مقرَّبون، مثل المرسلَين تشارلي أندروز وإي. ستانلي جونز. وكما تُبيِّن كتاباته، فقدْ فهمَ تفاصيلَ العقيدة المسيحيَّة أفضلَ من معظم المسيحيِّين. لماذا إذًا رفضَها في نهاية المطاف؟

نشأ غاندي في الهند، فلم يكُنْ له إلَّا اتِّصالٌ قليلٌ مع المسيحيِّين في صغره. انتشرَتْ شائعاتٌ في بلدته مَفادُها أنَّه إذا صارَ هندوسيٌّ مسيحيًّا، فإنَّه سيُرغَم على تَناوُل اللحم وشُرب الكحول القويَّة وارتداء الثِّياب الأوروبيَّة. يتذكَّرُ غاندي أيضًا حَدَثًا غير سارٍّ بتاتًا لمرسَلٍ مسيحيٍّ في زاوية شارعٍ في بلدته وهو يسخرُ من الهنود وآلهتهم.

وإذ كان طالبَ قانونٍ في لندن، احتكَّ غاندي لوقتٍ طويل بالمسيحيَّة. بناءً على طلبِ صديق، قرأ الكتاب المقدَّس بأكمله. وهو يعترفُ بأنَّ العهد القديم يصيبُه بالنعاس ولا يلهمه، لكنَّ العهدَ الجديدَ تركَ فيه انطباعًا عميقًا. طوال حياته، كان غاندي يجدُ نفسَه

يعودُ إلى تعاليم يسوع، مثاله في نبذ العنف والعَيش البسيط. وقرأ أيضًا كتاب پيرسون (Pearson) "براهينُ كثيرةٌ مَعصومةٌ من الخطأ" *(Many Infallible Proofs)* وهو كتاب ("لم يكن له تأثيرٌ فيَّ" [كما قالَ غاندي]) وكتاب بَتلر (Butler) "**مقارنة الأديان**" *(The Analogy of Religion)* من بين مجموعة من الكتب والتَّفاسير المسيحيَّة الأُخرى. مع ذلك، لم يستَطع أن يفسِّرَ التَّفاوُتَ الذي رآه بين السيِّد المسيح والمسيحيِّين.

عاشَ غاندي في جنوب أفريقيا خلال معظم سنوات حياته الأولى، وقد تَغيَّرتْ فكرتُه قليلًا جدًّا عن المسيحيَّة بعد أحداثٍ بغيضةٍ عديدة شهدَها هناك. واجَهَ تمييزًا عنصريًّا صارخًا في ذلك المجتمع المسيحيِّ المزعوم: طُرد من القطارات، ولم يُرحَّبْ به في الفنادق والمطاعم، ومُنعَ من حضور بعض التَّجمُّعات المسيحيَّة.

وضَّحَتْ له إحدى النساء اللَّاتي كُنَّ يَدعون غاندي إلى تناول الطعام يوم الأحد أنَّه لم يَعُدْ مُرحَّبًا به، بعد أن لاحظَتْ تأثيرَ غذاء غاندي النباتيِّ في ابنها ذي الخمس سنوات. قبل ذلك، كان يداومُ على حضور خدمة الكنيسة الوسليَّة (Wesleyan) مع عائلتها كلَّ يَوم أحَد. تذكَّرَ قائلًا: "إنَّ الكنيسة لم تُعطني انطباعًا حسنًا" مُستشهِدًا بالعظات المملَّة والرَّعية التي "كانت تبدو دنيويَّةَ التَّفكير، حيث يذهب الناس إلى الكنيسة للتَّسلِية، ولأنَّهم اعتادوا ذلك".

في سيرته الذاتيَّة، يسجِّلُ غاندي عددًا من الأحداث حاوَلَ فيها المسيحيُّون إقناعَه بأن يصيرَ مسيحيًّا. أخذَه أحَدُ الرِّجال المتَعاطِفين معه إلى اجتماع لنَهضةٍ دينيَّةٍ لسماع القس أندرو موراي (Andrew Murray). تأثَّرَ غاندي بالقصص التي سردَها موراي عن إيمان جورج مولر (George Muller)، مؤسِّسِ دارِ أيتامٍ إنكليزيّ. وهكذا يتذكَّر غاندي هذا الاختبار:

> "سبَّبَ وُجودُ "رجل ملوَّن" مثلي مع السيِّد بيكر (Baker) صعوباتٍ فائقةً له. وكان عليه أن يُعانيَ أمورًا مزعجةً في عدَّة مناسبات، لأجلي. كان علينا أن نوقفَ رحلتَنا يومَ الأحد؛ لأنَّ

السيِّد بيكر وفريقه لا يسافرون في "يوم الرَّبّ"...

كان هذا المؤتمرُ عبارةً عن تجمُّع لمسيحيِّين وَرِعين. كنتُ مسرورًا من إيمانِهم. قابلتُ السيِّد موراي، ولاحظتُ أنَّ كثيرين كانوا يصلُّون لأجلي. أحببتُ بعضَ ترانيمهم، إذ كانت جميلة.

دامَ المؤتمرُ ثلاثةَ أيَّام. كنتُ أستطيعُ أن أفهمَ تَقوى هؤلاء الذين حضروا وأقدِّرها. لكنِّي لم أجد أيَّ سببٍ لتَغيير معتقدي أو ديني. كان من المستحيل بالنسبة إليَّ الايمانُ بأنَّ طريقي الوحيد للخلاص والسماء هي في اعتناقي المسيحيَّة. أدهشَ ذلك بعض أصدقائي المسيحيِّين، لكن لم يَكُنْ هناك خِيارٌ آخر.

كانت صعوباتي أعمق من ذلك. لم أستطع الإيمانَ بأنَّ يسوعَ كان ابنَ الله الوحيد المتجسِّد، وأنَّ كلَّ مَن يؤمن به سيَنالُ الحياةَ الأبديَّة. جميعنا أولادُ الله، لو كان له أولاد. ولو كان يسوعُ مثل الله أو الله ذاته، إذًا، كلُّ البشر هم مثل الله ويمكنهم أن يكونوا الله ذاته. لم يكن عقلي مستعدًّا ليؤمنَ حرفيًّا بأنَّ يسوعَ افتدى العالم من خطاياه بموته وبدمه.

مجازيًّا، يمكنُ أن يكونَ هناك بعضُ الحقيقة في ذلك. مرَّةً أُخرى، بحسب المسيحيَّة، الكائنات البشريَّة فقط تملكُ نفسًا، أمَّا الكائناتُ الحيَّة الأُخرى فالموتُ يعني لها الانقراضَ الكامل؛ كان إيماني مختلفًا تمامًا. كنتُ أستطيعُ أن أقبلَ يسوعَ بوصفه شهيدًا، وتجسيدًا للتَّضحية، ومعلِّمًا سماويًّا، لكنْ ليس باعتباره الرجل الأكثر كمالًا ممَّن وُلِدوا عبر التاريخ. إنَّ موتَه على الصليب كان مثالًا عظيمًا للعالم، لكنَّ قلبي لم يستَطع أن يقبلَ وجودَ أيَّة فضيلةٍ غامضة أو معجزيَّةٍ في *ذلك*. إنَّ *حياةَ المسيحيِّين الأتقياء*

لم تقدِّم إليَّ أيَّ شيءٍ لم تستَطِعْ حياةُ رجالٍ من أديانٍ أُخرى أن تقدِّمَه. لقد رأيتُ في حياة الآخرين الصلاح ذاتَه الذي سمعتُ عنه بين المسيحيِّين. فلسفيًّا، لا يوجدُ أيُّ شيء غير عاديٍّ في المبادئ المسيحيَّة. كان من المستحيل بالنسبة إليَّ أن أحسبَ المسيحيَّة دينًا كاملًا أو أنَّه أعظمُ الأديان.

شاركتُ هذا المخاضَ العقليَّ مع أصدقائي المسيحيِّين كلَّما سنحَتِ الفرصة، لكنَّ إجاباتِهم لم تُرضِني".

("غاندي: سيرة ذاتيَّة" [Gandhi: An Autobiography])

لقد لخَّص موقفَه: "لا أستطيع أن أمنحَ المسيحَ عرشًا متفرِّدًا".

للأسف، لا يَظهَرُ مفهوما النعمة والمغفرة من الله في كتابات غاندي. الهندوسيَّةُ تتعثَّرُ بالنِّعمة. قال غاندي: "إذا أرادَ المرءُ أن يجدَ الخلاص، يجب أن يكونَ لديه صبرٌ مثل رجلٍ جالسٍ بجانب البحر يلتقطُ قطرةَ ماءٍ بواسطة قشَّة ماصَّة ثُمَّ ينقلها، وهكذا يُفرَغ المحيط". في نهاية سيرته الذاتيَّة، لا يزالُ يشعرُ بالحزن لأنَّه لم يتحرَّر من العاطفة في فكره وكلامه وعمله. يُنهي كلامَه قائلًا: "يجب أن أختزلَ نفسي إلى قيمة الصِّفر".

يحذف غاندي بلباقةٍ من سيرتِه الذاتيَّة ذكرى مؤلِمةٍ أُخرى من جنوب أفريقيا. أُعجبَ المجتمعُ الهنديُّ بالمُرسل تشارلز أندروز، لقَّبوه "رسول المسيح الأمين". ولأنَّه سَمع الكثيرَ عن أندروز، أرادَ غاندي أن يقابلَه. لكنْ في أوَّل فرصةٍ سنحت له لسماع أندروز، طُرد غاندي من اجتماع الكنيسة لأنَّه لم يكن من العرق الأبيض. لكن فيما بعد، سرعان ما صار غاندي وأندروز صديقَين، غير أنَّ غاندي لم ينسَ البتَّة لسعةَ تلك الحادثة.

في تعليقه على خبرات غاندي في جنوب أفريقيا، يقول إي. ستانلي جونز: "تحملُ العنصريَّةُ خطايا كثيرة، لكنَّ أسوأ خطاياها أنَّها حجبَتِ السيِّدَ المسيح في ساعةٍ كان أحَدُ أعظم الرجال يتَّخذُ فيها قرارَه بشأنها".

في إحدى زياراتي إلى الهند، وجدتُ نفسي ضمن مجتمع مسيحيٍّ في نيودلهي، وهو نوعٌ من المعتَكفات المؤلَّفة من شبَّانٍ هنود يحاولون أن يفسِّروا مجتمعين دعوةَ يسوع الراديكاليَّة لأتباعه. ناقشنا لبعض الوقت أوجُهَ الشَّبه ما بين غاندي ويسوع المسيح. كما قلتُ سابقًا، نسبَ غاندي الفضلَ صراحةً إلى تعاليم يسوع بالنِّسبة إلى مبادئه الأهمّ. لكنْ بينما كان لغاندي تأثيرٌ عميقٌ في البلاد كلِّها، صنَعتِ المسيحيَّةُ إنجازًا لا يكادُ يُذكَرُ في الهند: أقل من ٣٪ من السكَّان يَدْعون أنفسَهم مسيحيِّين. اكتَشَفْنا معًا أنَّ ممثِّلي المسيحيَّة قد قدَّموها إلى الهند، لكنَّهم لم يقدِّموا السيِّدَ المسيح الحقيقيّ.

تحدَّثنا بمفهوم المسيحيَّة عند الهنديِّ المثقَّف العاديّ. كلُّ الذين كانوا في أميركا، عادوا متأثِّرين بجميع الكنائس. سردوا القصصَ عن القساوسة الذين كانوا يَظهَرون في التلفاز والأموال الضخمة التي جمعوها من الداعمين. وذكَروا القادةَ المسيحيِّين الذين كانوا يجتَمعون مع الرئيس، والسياسيِّين الذين يدَّعون بِدَورهم أنَّهم مَولودون ثانية. يميلُ القادةُ الروحيُّون الغربيُّون لأن يكونوا أنيقين ومن الطبقة الوُسطى، لا الرجالَ الأتقياء الصارمين البسطاء المتعارَف عليهم في الهند. ما من أحَدٍ يُدعى "النفس العظيمة" في الولايات المتَّحدة. عندما يفكِّرُ هؤلاء الهنود في المسيحيَّة، يتحدَّثون بشأن قوَّتها ونجاحها. نادرًا ما يتحدَّثون بشأن حياة السيِّد المسيح أو المبادئ التي وَضَعَها.

عندما أردتُ أن أشجِّعَ زملائي المسيحيِّين في نيودلهي، ذكَّرتُهم بعبارة غاندي: أنَّ النظرةَ الثاقبةَ إلى مشكلات العالم يجب أن تأتي من الشرق وليس من الغرب. قال غاندي: "يجب أن نكونَ نحن التغيير الذي نودُّ أن نراه". حثثتُهم أن يأخذوا أفضل ما تنتجُه قارَّتُهم، المتمثِّلة في بعض المثل العُليا ذاتها التي جذبَتْ غاندي، ويتتبَّعوا جذورَها المسيحيَّة. إنَّهم بذلك يستَطيعون أن يتحدَّوا أُمَّتي بطريقةٍ لا أستطيع أنا الأميركيَّ أن أقومَ بها، كما يتَّضحُ من حقيقة أنَّ الشباب الأميركيَّ سيَستَمع أحيانًا إلى غاندي قبل أن يستمعَ إلى يسوع. قلتُ إنَّ العالم لربَّما يتقبَّل هذه الرسالة

تحدَّثَ أحَدُ الشباب الهنود الذي جلسَ هادئًا في أثناء مناقشة هذا الموضوع، فقال: "أنا لا أفهم. يبدو أنّك تقولُ إنَّ الغربَ عمومًا يتقبَّلُ قدِّيسًا؛ شخصًا مثل غاندي الذي يقفُ بعيدًا عن جانب الثقافة. لكن هل تتقبَّل **الكنيسة** ذلك؟ لقد قلتَ إنَّ المسيحيَّةَ الأميركيَّة لم تقدِّم قطُّ قدِّيسًا على غرار غاندي. إنَّ جميعَ القادة المسيحيِّين مختَلِفون كليًّا عن غاندي. أسمعُك تُلمِّحُ إلى أنَّه إذا ما ظهرَ غاندي آخر في الكنيسة الأميركيَّة اليوم فلن يُنظرَ إليه نظرةً جِدِّيَّة، وربَّما يُستَهزأ به ويُرفَض. لكن مع ذلك، يقولُ هؤلاء المسيحيُّون إنَّهم يعبدون يسوع المسيح. لماذا لا يرفضونه؟ لقد عاشَ حياةً بسيطة، وكرزَ بالمحبَّة والسِّلم، ورفضَ المساوَمة مع سلطات هذا العالم. دعا أتباعَه إلى "حَمْل الصليب" واحتمال آلام العالم. لماذا لا يرفضُه المسيحيُّون الأميركيُّون؟"

كان سؤالًا جيِّدًا- سؤالًا لم أستطع الإجابة عنه حتَّى الآن.

> **"إنَّ رَجْمَ الأنبياء وتشييد الكنائس في ذكراهم بعد ذلك، كان ولا يزال طريقةَ العالم عبر العصور. اليوم نحن نعبدُ المسيح، أمَّا المسيح الذي جاءَ في الجسد فقد صلَبْناه".**
>
> المهاتما غاندي

لنبدأ مع المهاتما غاندي

حاولَ المؤلِّفون كتابةَ سيرة حياة غاندي من وجهاتِ نظرٍ سياسيَّةٍ ونفسيَّةٍ واجتماعيَّة. إنَّ كتاب "**حقيقة غاندي**" *(Gandhi's Truth)* للمؤلِّف إريك إريكسون هو واحدٌ من الكتب الأكثر فائدةً. وكتاب "**حرِّيَّة منتصف الليل**" *(Freedom at Midnight)* للمؤلِّفَين المشهورَين لاري كولنز (Larry Collins) ودومينيك لاپيير (Dominique Lapierre) يَصِفُ روحَ العصر في الفترة التي نالَتْ فيها الهند استقلالَها بأسلوبِ النَّثر المُستَخدَم في المجلَّات. تقدِّم "**السيرة الذاتيَّة**" لغاندي لمحةً عن الإنسان المعقَّد،

ويصفُ كتاب إي. ستانلي جونز "**غاندي**"، صداقةَ المهاتما غير المتوقَّعة مع المرسَل الميثوديِّ جونز.

أمَّا على شبكة الإنترنت، فإنَّ آرون غاندي يُديرُ مَوقعًا شاملًا في الولايات المتَّحدة www.gandhiinstitute.org، يشتَملُ على الكثير من الموادِّ عن جدِّه، إضافةً إلى محرِّك بحثٍ جيِّدٍ يستَطيعُ أن يُبيِّنَ بسرعةٍ مجموعةً أُخرى من هذه المواقع التي مقرُّها الهند.

الفصل الثامن

الدكتور سي. إيڤرت كوپ

(C. Everette Koop)

أفاعي وحمائم في الساحة العامَّة

في أثناء فترة نموِّي، كانت السياسةُ كلمةً قذرة. كنَّا نحن المسيحيِّين نرى أنفسَنا أقلِّيَّةً محاصَرة بالصعوبات- نحن نشعر بالعرفان لأجل الحرِّيَّة الدينيَّة في أُمَّتنا، أجل، لكنَّنا استَسلَمنا للعَيش لنكونَ ثقافةً مُضادَّةً سقيمةً في مجتمع يسيطرُ عليه العَلمانيُّون الدُّنيَويُّون أصحابُ النزعة الإنسانيَّة. في مدرسة الأحد، تعهَّدنا بالولاء "للعَلَم المسيحيّ" بالإضافة إلى العلم الأميركيّ، ولم نشكَّ البتَّة في أيِّ ولاءٍ كانت له الأولويَّة. بكلِّ تأكيد، لم يتوقَّعْ أحَدٌ من واشنطن قيادةً أخلاقيَّة، وقليلون في كنيستي لعبوا دورًا نَشِطًا في الحملات السياسيَّة.

ساهم جون أف. كَنيدي في إيقاظنا من السُّبات واللَّامبالاة في عام ١٩٦٠م. وزَّع شمَّاسٌ مثيرٌ للمَخاوف كتابًا مخيفًا بعنوان: **"إذا انتخبَتْ أميركا رئيسًا كاثوليكيًّا"** *(If America Elects a Catholic President)*، وألمحَ القسُّ بغموضٍ إلى أنَّ رئيسًا كاثوليكيًّا سيَكونُ مُرغَمًا على تلقِّي الأوامر من البابا وليس من الناس. انتُخبَ كَنيدي ولم تتحقَّق أيَّة نبوءةٍ تشيرُ إلى يوم الدينونة. في عام ١٩٦٤م، كنتُ أعمَلُ موظَّفًا حكوميًّا في منظَّمة الجمهوريِّين الشباب (Young Republicans) في حملة باري غولدووتر (Barry Goldwater)، وهُزِم مرشَّحي هزيمةً نكراء. في عمليَّة الاقتراع التالية،

وهي الأولى التي استطعتُ أن أقترعَ فيها، انتقلَتْ مُيولي السياسيَّة كُلِّيًّا إلى المرشَّح الديمقراطيِّ الليبراليِّ، هيوبرت همفري (Hubert Humphrey)- في الحقيقة، كنتُ أفضِّلُ السيناتور الشاعر يوجين ماك كارثي (Eugene McCarthy)- لكنَّ ولايَتي صوَّتت بصورةٍ ساحقة لجورج والاس (George Wallace). لكنَّ ريتشارد نيكسون (Richard Nixon) فاز على صعيد البلاد كلِّها، وابتهج المسيحيُّون وارتفعَت مَعنَويَّاتهم عندما بدأ بيلي غراهام (Billy Graham) يُمضي وقتًا معه (عاشَ غراهام ليَندمَ على ذلك التَّقارُب بعدما اطَّلعَ على الشخصيَّة الحقيقيَّة للرَّجل بقراءته النُّصوصَ المدوَّنة لأشرطة فضيحة ووترغيت [Watergate]).

بعد ذلك، فاز في الانتخابات *ابن جورجيا الوطنيُّ* جيمي كارتر (Jimmy Carter)، وجذبَ اهتمامًا واسعَ النِّطاق بسبب انتمائه إلى عقيدة الولادة الثانية. أعلنت مجلَّة تايم "سنة الإنجيليِّين"، وعيَّن السياسيُّون في واشنطن مُساعدين ليَستكشفوا ما يستطيعون فعلَه بشأن مجموعةِ الناخبين الكبيرة التي بدا أنَّها برزت بين ليلةٍ وضُحاها. لم يقدِّر كثيرٌ من الإنجيليِّين جيمي كارتر التَّقيّ، ونقَلوا دعمَهم بدلًا منه إلى رونالد ريغان (Ronald Reagan) بعد أربع سنوات. بدا ذلك اختيارًا غيرَ متوقَّع: نادرًا ما كان ريغان يذهبُ إلى الكنيسة، ولم يقدِّم أيَّ شيءٍ تقريبًا لأعمال الخير، وعلى الرَّغم من "قِيَمه العائليَّة"، كان أوَّلَ رئيسٍ مطلَّقٍ وله أولادٌ مثليُّون وغريبون عنه. اعترفَ ريغان بأنَّه مَدينٌ للإنجيليِّين عبر تعزيز منصَّةٍ اجتماعيَّةٍ محافظة، وبتَعيين بعضهم في مراكز رئيسيَّة.

حصلَ خليفةُ ريغان، جورج بوش الأب، على تَرحيبٍ فاتر، واستمرَّت رئاستُه فترةً واحدةً فقط. الساكن التالي في البيت الأبيض، معمدانيٌّ جنوبيّ، كان يداومُ على حضور الكنيسة بأمانة، وكان يعرفُ الكتاب المقدَّس أفضلَ من أيِّ رئيسٍ منذ وودرو ولسن (Woodrow Wilson)، ووضع إنجيليِّين مثل توني كامپولو (Tony Campolo) وبِل هايبلز (Bill Hybels) وغوردون ماكدونالد (Gordon MacDonald) من بين أقرب مستَشاريه. لكن لم يُثِرْ أيُّ رئيسٍ في الأزمنة الحديثة هذا القدرَ من الاحتقار والازدراء من المجتمع المسيحيِّ كما فعل بِل كلينتون، حتَّى قبلَ أن يصيرَ

ضعفُه الأخلاقيُّ علنيًّا. إنَّ السياسةَ والدِّين يشكِّلان شريكَين غريبَين.

في بلدانٍ أُخرى، يبدو المشهدُ أكثرَ غرابةً. مالَ الإنجيليُّون في أمكنة مثل أوروپا وأستراليا ونيوزيلندا إلى اليسار في سياستهم، مثلما فعلَ القادةُ الكاثوليك في أميركا اللَّاتينيَّة. ولتَعقيد الأُمور، يُبيِّن التاريخُ أنَّه عندما يسيطرُ المسيحيُّون على زمام السلطة فإنَّهم يسنُّون قوانينَ مقيِّدة، ويشنُّون حملاتٍ ضدَّ الكافرين، ويضطهدون الهراطقة. لكنْ عندما تسيطرُ الحكوماتُ العَلمانيَّة وتبدأ تَقمَعُ المسيحيِّين، غالبًا ما تزدهرُ الكنيسة. في فترة حياتي، شَهدَتِ الصِّين أعظَمَ زيادةٍ عدديَّةٍ للمسيحيِّين في تاريخ العالم، وحدثَتْ نهضةٌ في ظلِّ حكومة تُقيِّد العبادةَ وتسجنُ القساوسة.

في الولايات المتَّحدة، استمرَّت قضايا الإيمان والسياسة في جذب الأضواء في السنوات الأخيرة. تحدَّث مرشَّحٌ يهوديٌّ لمنصب نائب الرئيس، وهو جوزيف ليبرمان (Joseph Lieberman) بصراحةٍ بشأن الله، فَنالَ انتقادَ المجموعات السياسيَّة اليهوديَّة. وخضعَ المدَّعي العامُّ الذي ينتمي إلى الطائفة الخمسينيَّة، جون آشكروفت (John Ashcroft)، للتَّدقيق والفَحص بسبب قناعاته بشأن الإجهاض والمثليَّة الجنسيَّة. وحوَّل الرئيس بوش الهِباتِ الماليَّةَ للجمعيَّات الخيريَّة الدينيَّة، وشجَّعَ استخدام القسائم في المدارس الدينيَّة.

هل يمكنُ لشَخصٍ متديِّن أن ينخرطَ في السياسة دون أن يقدِّم تَنازُلاتٍ حاسمة؟ لقد أشرتُ إلى شخصيَّاتٍ دينيَّةٍ مَشهورة- تولستوي، وغاندي، وكِنغ- ساهمَتْ في تغيير المشهد السياسيّ. ومع أنِّي أتعلَّمُ من هؤلاء العمالقة، فإنَّ لديَّ فضولًا أكبر حول دَور المواطن العاديّ. هل يستَطيعُ الشخصُ أن يخدمَ بفاعليَّةٍ كلًّا من "مدينة الله" و"مدينة الإنسان"، باستخدام مُصطلحات القدِّيس أُغسطينوس؟ ألن تُقصِيَ إحداهما الأُخرى؟

راقبتُ من كثب مثالًا واحدًا لمواطنٍ عاديّ، طبيب لا يملكُ خبرةً سياسيَّة بذلَ قُصارى جَهده لتَحقيق التَّوازن، والذي يقدِّمُ حالةً دراسيَّةً رائعة. عرفتُه منذ عام ١٩٧١م عندما كانت زَوجتي تعملُ في لجنةٍ كان يرأسُها، حيث كان يشرفُ على

التَّعيينات الدوليَّة للأطبَّاء المقيمين. خلال إدارة ريغان، صار هو الإنجيليَّ الأشهرَ في منصبٍ رفيع. كانت لديه قناعاتٌ عميقةٌ حول بعض القضايا الأخلاقيَّة الأهمِّ في عصرنا، وكان يتحدَّثُ ويعبِّر عنها بطريقةٍ مباشرة لم يسبِقْ لها مثيل. فاجَأتِ النتائجُ الجميعَ، وفوجئ هو بها أكثر من الجميع.

في ثلاثة عقودٍ من ممارسة الجراحة في مستشفى فيلادلفيا للأطفال، كان الدكتور سي. إيڤرت كوپ رائدًا في أساليب إنقاذ أطفال الخداج وغيرهم من الأطفال وإصلاح الضَّرر الذي لحقَ بهم. في أثناء ذلك، في قِسم آخرَ من المستَشفى نفسه، ظهرَتْ عيادةٌ للإجهاض قادرةٌ على التخلُّص من عشر إلى خمس عشرة حياة بشريَّة في الوقت الذي يستَغرقه هو لإنقاذ حياة وليدٍ أو اثنَين. بالنِّسبة إلى كوپ، بدا أنَّ الإجهاضَ قضيَّةٌ أخلاقيَّةٌ إمَّا بيضاء وإمَّا سَوداء، ولذا تكلَّم بحماسةٍ ضدَّ هذه الممارسة، ودعا الحكمَ الصادرَ بقَضيَّة رو في مواجهة ويد (Roe vs. Wade) الذي شرَّعَ الإجهاضَ "الحدثَ الأهمَّ في التاريخ الأميركيِّ منذ الحرب الأهليَّة". لفترةٍ من الوقت، علَّقَ كوپ مهنتَه اللَّامعة في جراحة الأطفال ليُشاركَ في حملة خطاباتٍ سياسيَّة مع المؤلِّف الإنجيليِّ فرنسيس شيفر (Francis Schaeffer) محذِّرًا الشعبَ الأميركيَّ بشأن قضايا حياة الإنسان. في مشهدٍ دراماتيكيٍّ من سلسلةِ أفلامٍ أنتجَها شيفر، "**ماذا حدثَ للجنس البشريّ؟**" *(Whatever Happened to the Human Race?)*، ينظرُ كوپ إلى ألف لعبةٍ عاريةٍ تتناثرُ فوق بقايا الملح في البحر الميِّت ويُنادي: "أنا أقف عند مَوقع سدوم، مكان الشرِّ والموت".

يميلُ كوپ أيضًا إلى النَّظر إلى اللَّاهوت في ظلالٍ سوداءَ أو بيضاء. صارَ مسيحيًّا ملتزمًا وهو شخصٌ بالغ بينما كان يحضرُ خدمةَ صلاةٍ في إحدى الكنائس المشيخيَّة، ويتركَّزُ إيمانُه على عقيدة سيادة الله وهَيمنته. وبصفته جرَّاحًا واثقًا بنفسه يحترمُ تسلسُلَ السُّلطة؛ ولأنَّه معتادٌ أن يُصدرَ الأوامر ويتَّخذَ القرارات بسرعة نصف ثانية حول الحياة والموت، يبدو كوپ عمليًّا منيعًا في مواجَهة نَوبات كيركيغارد من الخوف

والقلق. إذا كان الله كلّيَّ القدرة، إذًا- كلُّ ما يحدث- كلُّ شيء- يقعُ تحت سَيطرته الكاملة في كلِّ الأوقات.

امتُحنَ هذا الإيمانُ الهادئ في عام ١٩٦٨م عندما عانى كوپ المأساةَ الأكثر إيلامًا في حياته، وهي حادثةٌ غيَّرت تركيبتَه العاطفيَّة تغييرًا عميقًا. قبل ذلك، كان كوپ يعتقد أنَّ بكاءَ الطبيب مع أهلِ حزانى هو علامةُ ضَعف، بعد ذلك وجدَ من الصعوبة ألَّا يفعلَ ذلك. سقطَ ديڤيد، وهو طالبٌ في العشرين من عمره في كليَّة دارتموث (Dartmouth)، وتُوفِّيَ في حادثِ تسلُّق أحَد الجبال. بقيَ جسدُ ديڤيد ممدَّدًا على الصُّخور اثنتَين وخمسين ساعةً قبل أن يَصِلَ إليه المنقذون، محنةٌ طاحنةٌ لعائلة كوپ. لكنَّ مذكَّرات كوپ اليوميَّة في ذلك الوقت والتي نُشرت في كتابٍ بعنوان **"الجبال تتحرَّك أحيانًا"** *(Sometimes Mountains Move)*، لا يحتوي على أيِّ تلميحٍ لصراعٍ مع الله. ينتهي الكتابُ باقتباس من رسالة يهوذا في العهد الجديد، "والقادر أن يحفظكم غير عاثرين..." يتبعه إعلانُ إيمانِ كوپ الشخصيِّ، "كان الله قادرًا ، لكنْ في هَيمنته اختارَ ألَّا يفعلَ هذا".

وُضِعَ هذا الإيمان الجوهريُّ بهَيمنة الله في أعقابِ مكالمةٍ هاتفيَّةٍ غاية في الأهمِّيَّة في آب/أغسطس ١٩٨٠م تحت اختبارٍ من نوعٍ آخر. أراد رونالد ريغان، الذي كان قد قرأ اثنَين من كُتُبِ كوپ وأُعجِب بقناعاته المؤيِّدة للحياة، أن يصيرَ كوپ الجرَّاح العامَّ للأمَّة. كان هذا التَّعيينُ سيُساعدُ على تَقوية دَعم ريغان وتثبيته بين الناخبين المؤيِّدين للحياة، ولا سيَّما بين الإنجيليِّين، المجموعة التي كانت تعرفُ كوپ حقَّ المعرفة. بعدَ وقتٍ قصير من حفل تنصيبه، عيَّنه ريغان في منصب نائب مساعد وزير الصحَّة، ورشَّحه ليكونَ الجرَّاحَ العامّ. لكنَّ ذلك التَّعيين كان يحتاجُ إلى قرارٍ من مجلس الشيوخ لأنَّ كوپ الذي كان في الرابعة والستِّين من عمره، قد تجاوَزَ العمرَ المطلوبَ للوظيفة بمئة يوم. إنَّ ما كان يعتَقده الجميع- هو، وريغان، وكلُّ أعضاء الإدارة تقريبًا- إجراءً تشريعيًّا شكليًّا، هو ما فَجَّرَ عاصفةً سياسيَّة.

ارتدّت صراحةُ كوپ عليه لتُطاردَه، لا سيَّما بعد أن بثَّت مجموعة من الطائفة الخمسينيَّة، عن حسن نيَّة، سلسلة أفلام شيفر (Schaeffer) في إحدى المحطّات التلفزيونيَّة بواشنطن العاصمة. وقد قادَتْ هجومًا قويًّا عليه مجموعاتُ تنظيم الأُسرة (Planned Parenthood)، والمنظَّمة الأهليَّة للنِّساء (NOW) ومؤيِّدو خِيار الإجهاض، ملوِّحين بكلِّ عبارةٍ متَطرِّفةٍ تَفوَّه بها كوپ يومًا عن الإجهاض وحقوق المرأة والمثليَّة الجنسيَّة. وفي قَضيَّةٍ مُعاكِسةٍ لطريقة مكارثي (McCarthyism) في تَوجيه الاتّهامات، شَكَّكوا ليس فقط في معتقداته، بل في كفاءاته وقدرته بصفته طبيبًا، وفي استقرار حالته العاطفيَّة، بل أيضًا في سلامة عقله. كتبت صحيفة "**نيويورك تايمز**" الرصينة مَقالةً افتتاحيَّةً بعنوان "الطبيب غير مؤهَّل" وابتكرَتْ صحافة واشنطن لقبًا غير ملائمٍ بصورةٍ أكبر وهو الدكتور كوك (Kook). ووصمَه عضوُ مجلس الشيوخ هنري واكسمان (Henry Waxman) بالمخيف وغير المتسامح. ودَعاه آخرون بالرَّجل غريب الأطوار من الحزب اليمينيّ، وبالشَّخص المجنون الحاقد والمتحمِّس دينيًّا. للمرَّة الأولى في تاريخها على امتداد مئة عام، سجَّلت منظَّمة الصحَّة الأميركيَّة مَوقفَها ضدَّ مرشَّح؛ قال مديرُها التنفيذيّ: "الأفضل لنا أن نبقى دون جرَّاحٍ عامٍّ على أن يكونَ لدينا كوپ".

وصلت عائلة كوپ إلى واشنطن مثل سائحين أبرياء وجدوا أنفسَهم صِدفةً في منطقةِ حرب. في فيلادلفيا، كانت انتصاراتُ كوپ الجراحيَّة- فصل توأم سياميّ، وإصلاح تشوُّهات في الوجه، وإعادة وَضْع قلبٍ خارجيٍّ في مكانه لدى أحَد الأطفال- قد جذبَتْ دعايةً كُبرى. ولأنَّه نالَ جوائزَ كثيرةً، بما فيها وسام جوقة الشرف الفرنسيّ (Legion d' honneur)، كان يُعرَف في الصحف باسم "ابن فيلادلفيا المفضَّل". انضمَّت الآن صحافة بلدته إلى جَوقة مناهضيه، وطُبِعت له صورةٌ هَزْليَّةٌ قاسية تظهرُه مثل وحشٍ برأسَين. في كلِّ صباح، كان ابن كوپ الذي يعملُ في مدينةٍ أُخرى يجدُ صحيفةً تحت باب مكتبه فيها مَقالاتٌ تشهيريَّةٌ بوالده مُحاطةٌ بدائرةٍ بقلم أحمر.

كان كوپ وزوجته بَتي (Betty) يقطنان في مساكنَ مؤقَّتةٍ محاطَين بصناديق لم تُخرَج محتوياتها بعد. في كلِّ يوم، كان كوپ يذهبُ إلى مكتبٍ واسعٍ يستَطيعُ أن يرى منه، إذا

استندَ إلى الخلف في كرسيِّه، قبَّة الكونغرس وعلمُها الأميركيُّ الضخم. على الرُّغم من قربه من مركَز السُّلطة، لم يكُنْ له منها شيء؛ كلُّ ما نالَه كان احتقارَ المدينة له. بعد أربعة عقود من العمل مدَّة اثنتَي عشرة ساعةً في اليوم، ها هو الآن يواجهُ حالةَ عدم وصولِ أيَّة رسائل إلكترونيَّة له، وهاتفُه صامتٌ ومفكِّرته فارغة- أجواءٌ بدَتْ له مثل سجن انفراديّ.
قال لي الدكتور پول براند الذي زارَه في تلك الفترة: "كان هذا الجرَّاحُ الباهرُ يتصدَّرُ لسنوات الأخبار الطبِّيَّة. كان شخصًا شديدَ الفاعليَّة، رجلًا لديه رسالة. غير أنَّ لديَّ الآن انطباعًا بأنَّه أسدٌ في قفص، ممتلئ بقوَّة هائلة. كان يسيرُ في الغرفة ذهابًا وإيابًا دون أن يكونَ لديه ما يفعلُه. ولديَّ أيضًا انطباعٌ بأنَّه رجلٌ مجروح يحتاجُ إلى تعزية".

يتذكَّر كوپ بنفسه قائلًا: "لم أستطع أن أفهمَ السبب الذي من أجله عطَّلَ الله حياةً مسالِمةً مُثمرةً كهذه. لم أسعَ البتَّة في طَلبِ منصب عامّ، لذلك آمنتُ بأنَّ الله اقتَلعَني من فيلادلفيا وألقى بي في واشنطن. كنت معتادًا أن أطرحَ على الله أسئلةً كثيرةً عن هذا الوضع. في أثناء هذه الشهور التسعة المؤلمة لعمليَّة التَّسمية، كنتُ أحدِّقُ في الكتاب المقدَّس على مكتبي محاوِلًا أن أفهَمَ ما حدث. كان أسوأ يوم عندما ذهبتُ إلى البيت بعد ظهر أحَد الأيَّام- كانت أشعَّة الشمس تتسلَّلُ من خلال الستارة المعدنيَّة نصف المفتوحة في شقَّتنا المؤلَّفة من غرفةٍ واحدةٍ في جورج تاون- وفتحتُ البابَ ورأيت "بَتي" واقفةً تقرأ صحيفة "**واشنطن پوست**" والدُّموع تنهمرُ من عينَيها".

قال كوپ غاضبًا: "أنا لا أحتاج إلى هذا. لم أُعامَل بهذه الطريقة البتَّة من قبل، ومن الخطأ أن أجعلَ عائلتي تعاني هذا الوَضع". هذه المرَّة كانت بَتي هي من ذكَّرته بأنَّ الله المهيمنَ لا شكَّ لديه هدفٌ، بطريقةٍ ما، من تعطيل حياتهم. قالت: "إذا توقَّفت الآن، ستبقى دائمًا تتساءل. ولا تَنْسَ أنَّه لم يَعُدْ لديك عملٌ في فيلادلفيا بعد الآن".

كما يعرفُ الجميع- كلُّ مَن شاهدَ التلفازَ وقرأ الصُّحف واستمع إلى المذياع في ثمانينيَّات القرن الماضي- نالَ سي. إيڤرت كوپ أخيرًا وظيفةَ الجرَّاح العامّ، وخلافًا لكلِّ الاحتمالات، برزَ بصفته أحَدَ الموظَّفين العامِّين الأكثر حضورًا وحيويَّةً وإثارةً

للإعجاب في الأُمَّة، عندما أعلنَ استقالتَه في عام ١٩٨٩م، أبدى مُنتَقدوه حماسًا مُفرطًا في كَيل المديح للرَّجل الذي شوَّهوا سمعتَه في ما مضى. أعلنَ مذيع الأخبار دان راذر (Dan Rather) أنَّ كوپ "أفضل جرَّاح عامٍّ في التاريخ". ووافقَ معه عضوُ مجلس الشيوخ واكسمان الذي صارَ أحَدَ أعظم مُعجَبيه: "إنَّه رجلٌ لديه نزاهةٌ عظيمة. فعل كلَّ شيءٍ يَستَطيعُ الجرَّاحُ العامُّ أن يفعَلَه وأكثر". وهيئة الصحَّة العامَّة، وهي المجموعةُ ذاتُها التي حاربت تسمِيَتَه، أكرمَتْه بأرفع جائزة للتَّميُّز. شاركَ الجميعُ تقريبًا في مديحه إلَّا- بصورةٍ غريبة- حلفاءُ كوپ الأصليُّون: الإنجيليُّون.

ما الذي سبَّبَ هذا التحوُّلَ الدراماتيكيَّ في صورة كوپ؟ يكمنُ جزءٌ من الجواب في سوء فهم وسائل الإعلام الأساسيِّ لكوپ، وجزءٌ آخر في مهارة كوپ في استخدام المنصب ليتناسَبَ مع مَواطِن قوَّته، وجزءٌ في الشهور التسعة العاصفة عندما كان يجلس في مكتبٍ فارغ دون أن يكونَ لديه ما يفعَلُه. أمَّا بالنِّسبة إلى منتقديه الإنجيليِّين، فإنَّ كوپ يعتقدُ أنَّهم أساءوا فَهْمَ كلِّ ما فعلَه تقريبًا بصفته جرَّاحًا عامًّا حاولَ أن يخدمَ مثل النبيِّ الحاذق دانيال في إدارةٍ عَلمانيَّة؛ كانوا هم يتوقَّعون شخصًا أقربَ إلى النبيِّ عاموس أو إرميا.

لو أمعنَ منتقدو كوپ العَلمانيُّون في النظر في خلفيَّته، لكانوا رأوا أنَّه ليس مُناصرًا لمعتقدٍ إيديولوجيٍّ يتأقلَم مع الأحوال السائدة. لم يلطِّف التعاطفُ الإنسانيُّ فقط من معتقداته الثابتة، بل هو ما شَكَّلها. حتَّى في سنواته المحمومة الأولى بصفته جرَّاحًا اقتطعَ الوقتَ ليُعالج من لا مأوى له في إحدى إرساليَّات الإنقاذ في وسط البلد. شرحَ أحَدُ أكثر مساعِديه المقرَّبين منه قائلًا: "إنَّ ما لم يفهَمْه الناسُ عن الدكتور كوپ هو أنَّه مؤيِّدٌ للحياة في أنقى معاني هذه الكلمة- أنَّه ليس ضدَّ الموت، لكنَّه مؤيِّدٌ للحياة. لقد رأيتُه مع ألوف الناس- أطفالٍ مُصابين بسوء التغذية، أو اشتراكيِّين في واشنطن أو مرضى الإيدز المشرفين على الموت، وزوجاتٍ أُسيئت مُعامَلتهنَّ، أو نُشطاء حقوق الإجهاض- وكان يعاملُ كلَّ واحدٍ منهم وكأنَّه يؤمنُ- وهو ما يؤمنُ به حقًّا- بأنه

مخلوقون على صورة الله. وكان يُقاطعُ برنامجَه المزدحمَ ليُقابلَ شخصًا مُضطربًا يُصرُّ على التحدُّث إلى طبيبٍ في أعلى مرتبة. إنَّه في الحقيقة يحترمُ قيمةَ حياة جميع الناس".

مع ذلك، اتَّخذَ كوپ مَوقفًا قويًّا بشأن الإجهاض بسبب خبرته مع أكثر من مئة ألف طفلٍ مريض، معظمهم صغار حتَّى إنَّه يمكنُ حَمْلُهم في يدٍ واحدة، وكثيرون منهم مشوَّهون حتَّى إنَّه لا يوجَدُ جرَّاحٌ غيره يَقبَلُ أن يلمسَهم. بمرور السنين، كان كوپ يرى هؤلاء الأطفال ينمون ليَصيروا أشخاصًا بالغين يقومون بأعمالهم بشكلٍ كامل، لديهم أسماءٌ وشخصيَّاتٌ وتواريخُ فرديَّة: پول، الذي أُجريَتْ له سبعٌ وثلاثون جراحةً في الوجه والبطن، والآن هو خريج جامعة وست تشيستَر (West Chester)؛ كريس، الذي احتاج إلى خمسَ عشرة عمليَّةً لإعادة قلبه الخارجيّ إلى مكانه ولتفعيل رئتيه بصورةٍ كافية؛ ماريا، التي اقتطعَ لها كوپ مريئًا من جزءٍ من القولون، ونالَتْ درجةَ الدكتوراه وصارت هي بِدَورها جرَّاحةَ أطفال. كان كوپ يعرفُ أنَّ كلَّ طفلٍ كان يموتُ نتيجةَ الإجهاض أو الإهمال، هو أشبه بحالِ پول أو كريس أو ماريا.

إنَّ شيئًا ما يتعلَّق بعجز الكائنات البشريَّة الصغيرة جدًّا، هو ما جذبَ كوپ إلى حقل جراحة الأطفال في وقتٍ لم يكن فيه في البلاد كلِّها إلَّا عددٌ قليلٌ جدًّا من هؤلاء الجرَّاحين. كانت لديه نقطةُ ضعفٍ تُجاه الضعفاء والمحرومين. وعندما كان يجلسُ في مكتبه في واشنطن في أثناء جلسات الاستماع بخصوص التَّسمية، كان يشعرُ هو أيضًا للمرَّة الأولى في حياته بأنَّه ضعيفٌ ومحروم. رجلٌ فخورٌ معتادٌ أن ينجحَ وجدَ نفسَه فجأةً مهزومًا ومعزولًا في آنٍ معًا. وبمرور الأسابيع، كانت مجموعةٌ تلو الأُخرى من مجموعات الاهتمام الخاصَّة المتعدِّدة تتَّصلُ به لإجراء تحقيقٍ مع المرشَّح الذي كان من المحتمل أن تتعاملَ معه. لم يعرفْ معظمُهم إلَّا القليلَ عنه، في ما عدا التقارير المبالَغ فيها التي قرأوها في الصُّحُف. لقد وجدوا أنَّ الجرَّاح العامَّ المتوقَّع تعيينه، والذي لا يملك سلطةً، وليس لديه سوى القليل من الرجاء، كانت لديه سلعةٌ واحدةٌ متوافرة بكمِّيَّةٍ كبيرة: الوقت- الوقت للإصغاء إلى مخاوفهم.

خلال فترة الشهور التسعة تلك، سمعَ كوب أصواتًا متنوِّعةً صادرةً من كلِّ أرجاء البلاد. بعض أصحاب هذه الأصوات، مثل المدافعين عن حقوق المثليِّين والمؤيِّدين لخِيار الإجهاض، عارَضوا مواقفَه بشراسة. غير أنَّهم هم أيضًا كانوا جزءًا من الأمَّة التي كان سيُشرفُ على تلبية احتياجاتها الطبِّيَّة. ينظرُ كوب الآن إلى تلك الفترة وكأنَّها عطيَّةٌ رائعة: "لقد أُتيحت لي الفرصة للاطِّلاع على مشكلات الأمَّة الصحِّيَّة، وأن أتساءلَ عمَّا يمكنني فِعلُه بشأنها عندما أتحرَّر في نهاية المطاف. قرَّرتُ أن أستخدمَ مركَزي لمناصرة قضيَّة المحرومين: الأطفال المعاقين، والمسنِّين، والأشخاص الذين يحتاجون إلى زراعةِ أعضاء، والنساء والأطفال الذين كانوا يتعرَّضون للضَّرب وسوء المعاملة. خلال تلك الشهور التسعة وضعتُ برنامجًا مفصَّلًا، وهو شيءٌ لم يكن لدى أيِّ جرَّاح عامٍّ من قبل. في النهاية، جعلتْ تلك الفترةُ من الإحباط الحادِّ كلَّ شيءٍ كنتُ قادرًا على إنجازه وأنا في منصبي ممكنًا. هذا هو عملُ هَيمنة الله".

باختصار، استخدمَ كوب الوقتَ ليَحلمَ بالتَّأثير الذي يمكنُ للجرَّاح العامِّ أن يمارسَه. وضَمِنَ سوءُ سمعته بعد تعيينه- الذي تَمَّ أخيرًا بعد جلسةِ استماع حاقدةٍ لمجلس الشيوخ- أن يجذب كلَّ ما قاله أو كتبه الكثيرَ من الاهتمام من قِبل وسائل الإعلام. إنَّ منتَقديه الذين كانوا يهدفون إلى إلحاق الضَّرر به، ساعَدوا بصورةٍ متَناقضة في إيصاله إلى المنبر الشعبيِّ الذي كان يحتاجُ إليه لإنجاز أهدافه.

بعد تعيينه، وجدَ كوب كأنَّ لديه رتبةَ أميرال بحريّ، لكنْ دون أن تكونَ لديه سفينةٌ يقودُها. كانت منصبُ الجرَّاح العامّ، الذي كان تعريفُه غامضًا منذ البداية، قد أُهمِلَ بشدَّة (لم يجد الرئيس نيكسون المناسبة لتَعيين جرَّاح عامّ). كان كوب يملكُ القليلَ من السُّلطة في اتِّخاذ القرارات، ولم تكن لديه السُّلطة لوَضْع موازنة، وكان لديه عددٌ قليلٌ جدًّا من الموظَّفين. كانت المعنَويَّات ما بين أعضاء فريق التَّفويض في دائرة خدمات الصحَّة العامَّة قد انخفضت إلى أدنى مستَوياتها. في محاولةٍ منه لرَفْع تلك المعنويَّات، حثَّ كوب أفرادَ الفريق على ارتداء الزِّيِّ الذي لم يَعُدْ رائجًا منذ زمنٍ طويل. كان هو مثالًا حيثُ كان يرتدي بزَّةً مزيَّنة بخطوطٍ وكتَّافيَّات وأشرطةٍ وجدائل

ذهبيَّة. تطلَّبت هذه الممارسة بعضَ الوقت لتَنتَشر. أخطأ ركَّاب الطائرة أكثرَ من مرَّة معتَقدين أنَّ كوپ هو أحد المُضيفين وطلبوا مساعدتَه بخصوص حقائبهم. كما صارَ لدى رسَّامي الصُّوَر الهزليَّة السياسيَّة مركَزًا مرئيًّا لسُخريَتهم. مَن كان هذا الطبيبُ ذو اللحية التي تُشبه لحيةَ الكابتن أخاب (Ahab) والزيِّ الذي يشبه زيَّ بحَّارة السفن؟ مَن هذا الرجلُ الذي كان يحملُ جرابًا من قماش في مدينة مصمِّمي الحقائب؟

لكنَّ أسلوبَ كوپ المتميِّز جذبَ انتباهَ وسائل الإعلام. بطول ستة أقدام وبوصة واحدة (نحو ١٨٥سم)، وبوزن مئتَي وعشرة أرطال (نحو ٩٥كغم)، كان شكلُه مرتَّبًا يفرضُ نفسَه، وعندما بدأ يقدِّمُ إعلاناته عن الصحَّة في الأُمَّة بصَوته القويِّ بلهجة أهل بروكلين، حلَّ الافتتان سريعًا محلَّ السُّخريَة. وكما كتبَ أحَدُ المراسلين: "يمكننا أن نشاهدَ على التلفاز لحيةً صلبة وكتَّافيَّات ذهبيَّة لزيٍّ مسؤول دائرة خدمات الصحَّة العامَّة، والتي تعكسُ صورةَ عمٍّ هولنديِّ الأصل بينما يهاجمُ بعنفٍ شرور الانغماس". عادَ هؤلاء المراسلون أنفسهم شخصيًّا وهم متأثِّرون بعمقٍ بمودَّة الجرَّاح العامِّ الجديد وانفتاحه. خلال فترةٍ قصيرة، صارَ هو الشخصيَّةَ الأهمَّ التي يسعون إلى إجراء المقابلات معها في المدينة. وضعَتِ المجلَّاتُ وجهَه الرَّزين على أغلفتها، وسمح له مقدِّم البرامج جوني كارسون (Johnny Carson) بالتحدُّث منفردًا؛ وأرسلَتْ إليه الممثِّلةُ إليزابيث تايلور (Elizabeth Taylor) قُبلاتٍ على الهواء؛ واقترح برنامجُ "الفتيات الذهبيَّات" (The Golden Girls) التلفزيونيُّ ظهورَه في إحدى الحلقات لمدَّةٍ قصيرة بشخصيَّته الحقيقيَّة بصفته شخصًا مشهورًا.

صارَ شعارُ واشنطن "حيثما يوجَدُ كوپ، فهناك جدل". هاجمَ بعنفٍ السائقين السكارى، ودعا إلى تكوين وحداتٍ لمهمَّة خاصَّةٍ تتعلَّقُ بإيذاء الأطفال والزوجات، وانتقدَ عاداتِ الأميركيِّين في تَناوُلِ الطَّعام. لم يعرفْ رؤساؤه ما ينبغي أن يفعَلوا، لا سيَّما أنَّه انتقدَهم وتحدَّى سياساتهم. فمثلًا، كان رونالد ريغان قد وعدَ أعضاءَ مجلس الشيوخ الجنوبيِّين مثل جيسي هيلمز (Jesse Helms) بأنَّه لن يستخدمَ مركَزَه العامَّ ضدَّ التَّدخين. وها هو الجرَّاح العامُّ لريغان يدعو مراكزَ القوى التي تدعمُ التَّبغ

بالهيئات "الفاسدة" وبمصطلح "الكاذبين المتخلِّفين عن اللحاق بالرَّكب" ويتَّهمُهم بتَصدير الموت إلى العالم الثالث. وحول اعتراض البيت الأبيض، أعلنَ كوب أنَّ النيكوتين يسبِّبُ الإدمان مثل الهيروين، واقترحَ حَظرًا على جميع دعايات التَّبغ، وحثَّ على خَلْقِ أمكنةِ عملٍ خاليةٍ من التدخين، حتَّى إنَّه دعا إلى مجتمعٍ خالٍ من التدخين. أُصيبت الإدارةُ بالحرج؛ وأُصيبَ بالفزع عضوُ مجلس الشيوخ عن ولاية كارولينا الشمالية، جيسي هيلمز، الذي كان ذاتَ مرَّةٍ أحَدَ أقوى داعمي كوب.

على الرُّغم من الضغوط الهائلة، لم يتراجَعْ كوب. كان ألفُ أميركيٍّ يموتون كلَّ يَوم من أمراضٍ مرتَبطةٍ بالتَّدخين. ولأنَّه الطبيبُ ذو المركز الأعلى في الأمَّة، شعرَ بأنَّه مُلزَمٌ بأن يتكلَّم (وهو يشيرُ الآن إلى الانخفاض في تدخين السجائر باعتباره أعظمَ إنجازاته؛ إذ أقلعَ عشرون مليون أميركيٍّ عن التدخين خلال فترة ولايته). بالنِّسبة إلى تدخين السجائر، والثقافة الجنسيَّة، وتوزيع الإبر المجَّانيِّ على المدمنين، إضافةً إلى قضايا أُخرى- سارَ كوب في طريقه الخاصّ.

بالنسبة إلى جمهورٍ يتوقُ إلى النزاهة في قادته، صارَ كوب بطلًا شعبيًّا حقيقيًّا. إنَّ ما كان يبدو وظيفةً طريقُها مسدود، تطوَّرت بالتَّدريج إلى حلبةٍ مركَزيَّة لِما يَدعوه كوب "إقناعًا أخلاقيًّا". قال: "لديَّ حسٌّ بالصَّواب والخطأ. كثيرون في هذه البلاد لا يملكون ذلك". في الأساس، نجحَ كوب في تَلبِيَة ما يتوقَّعه الأميركيُّون من طبيب الأسرة. قد ينقُلُ طبيبُك أخبارًا غير مُشجِّعة، وقد يُلقي عليك في الواقع محاضرةً حول عاداتك السيِّئة، لكنَّك مع ذلك تُريدُ طبيبًا ينقلُ إليك الأخبارَ الصحيحةَ مباشَرةً دون أن يلطِّف الكلمات، ويجعلُ صحَّتَك القضيَّة الأساسيَّة. حقَّق كوب تلك الصورة على نطاقٍ كبيرٍ جدًّا.

بينما كان نُقَّاده السابقون يتعلَّمون احترامَ استقلاليَّته ونزاهتِه؛ وبينما كان أغلبُ الجمهور يبجِّله بوصفه بطلًا شعبيًّا خيِّرًا، كانت دائرة انتخابه الأصليَّة تنظرُ بجَزَعٍ إلى ما حَسبوه خيانةً لقضيَّتهم. ها هو تقرير كوب كما صُنِّف من قِبَل المحافظين:

- "كان كوب خيبةَ أملٍ كبرى في إدارة ريغان".

(ناشونال ريڤيو [National Review])

- "كان يجب على كوب أن يُبقي شفتَيه مُقفلتَين".

(فيليس شلافلاي [Phyllis Schlafly]، متحدِّثةٌ رسميَّة من المحافَظين)

- "أعتقد أنَّ هذا الشخصَ هو عارٌ... لقد باع المبادئَ التي جعلَتْ منه ذلك الجرَّاح العامّ".

(مايكل شوارتز [Michael Schwartz]، مؤسَّسة الكونغرس الحرَّة)

- "إنْ لم يتمكَّن من عمل الصواب بحسب اعتقاده، فقد وجب عليه أن يستَقيل. ولكنَّه بدا للجميع أنَّه يفضِّلُ الشهرةَ على صفاء الضمير".

(هاورد فيليپس [Howard Phillips]، مؤتمر حزب المحافظين "الحزب الجمهوريّ")

لقد شعر بعضُ الإنجيليِّين بخيبة الأمل، وهم الذين نظروا مرَّةً إلى كوب باعتباره الشخصَ الأبيضَ الذي يمثِّلُ أملَهم السياسيَّ الكبير. تذمَّر المعلِّق كال توماس (Cal Thomas) قائلًا: "يشعرُ داعمو الدكتور كوب الأُمناء بالمرارة والاكتئاب... إنَّ شخصًا مُلحِدًا يميلُ أداؤه إلى مصلحة اليسار سيَكون بالفاعليَّة نفسها". قال كوب في ذلك الوقت: "ذلك النوعُ من الانتقاد يؤثِّر فيَّ بطريقةٍ غريبة. لم أعُدْ أرغب في الذَّهاب إلى الكنيسة بعد الآن- مع ذلك، يذهبُ كال إلى الكنيسة ذاتها التي أرتادُها أنا".

جَسَّدَ اللَّاهوتيُّ هارولد أو. جاي. براون (Harold O. J. Brown) قلقَ الإنجيليِّين. كان هو، قبل أكثر من عقد، مَنْ أقنعَ كوب بأنَّ الإجهاضَ دائمًا هو أمرٌ خاطئ، حتَّى في الحالات الصعبة. في عام ١٩٧٥م، في منزل بيلي غراهام في مينياپوليس (Minneapolis)، ساهَمَ هو وكوب في تأسيس مجموعةِ الضَّغط البروتستانتيَّة المؤيِّدة للحياة. لقد عبَّرَ عن إعجابه بكوب صراحةً: "لم يسبقْ منذ وليمز جَنينغز برايَن (Williams Jennings Bryan) أن عُيِّن مسيحيٌّ إنجيليٌّ في مركزٍ رفيع مُشابِه بمستَوى

وُضوح الدكتور كوپ وصراحته وتصميمه على تطبيق القِيَم الروحيَّة في الحياة العامَّة". بدأ براون بعد وقتٍ قصيرٍ أيضًا يتساءلُ بصوتٍ مَسموع عمَّا إذا كان كوپ قد قوَّضَ قضيَّة تأييد الحياة.

تركَّزت شكوى المحافظين حول ثلاث أزماتٍ رئيسة: الطفلة دو (Baby Doe)، والإيدز (AIDS)، ورسالة تأثيرات الإجهاض. برزت قضيَّة الطفلة "دو" المثيرة للجدل ما بين عامَي (١٩٨٢-١٩٨٣م)، وهي تنطوي على حالةٍ اتَّفقَ فيها الطبيبُ والأُسرة على مَنْع التَّغذية عن طفلةٍ لديها خللٌ وِلاديّ. لا توجَدُ قضيَّةٌ أقرَبُ إلى قلب كوپ من هذه القضيَّة. لقد أجرى ٤٧٥ عمليَّةً جراحيَّةً تحديدًا لتَصحيح هذه المشكلة التي كانت تُعانيها الطفلةُ "دو"، وبدا له أنَّ حَجْبَ المعالجة عنها هو أشبَه ما يكونُ بقَتْلها، بكلِّ بساطةٍ ووضوح. بعد ستَّة أيَّام من عدم تَناوُل الطَّعام الضروريِّ والحصول على الرعاية، تُوفِّيَتِ الطفلة دو. بعد وفاة الطفلة دو؛ وبعد أن نُقِضت في المحكمة قوانينُ كوپ الصارمةُ لمنع حدوث هذا الأمر في المستقبل، اجتمعَ كوپ بالطَّرفَين (عارضَتِ المؤسَّسةُ الطبِّيَّة بكلِّ قوَّة القوانين) وتوصَّلوا إلى حلٍّ وسطٍ قائمٍ على "لجان مراجَعة رعاية المريض" داخل المستَشفَيات المحلِّيَّة.

في نهاية المطاف، ألغَتِ المحكمةُ العُليا هذه الاتِّفاقيَّة أيضًا، وناقشَتِ القضيَّةَ كلَّها صُوَريًّا. غير أنَّ عمليَّة التَّسوِية أو الحلَّ الوسط قد أوجدَتْ شَرْخًا بين الجرَّاح العامِّ والمتمسِّكين بجمود بتَأييد الحياة، الذين نظروا إلى قبول كوپ لِلجان المراجعة كأنَّه رُضوخٌ للمؤسَّسة الطبِّيَّة. إذا كانت مجموعاتُ الضَّغط المؤيِّدة للحياة قد خرجت من هذه القضيَّة متحرِّرة من أوهامها بخصوص كوپ، فقد خرجَ هو محبَطًا بسبب عقليَّتهم التي تريدُ إمَّا كلَّ شيءٍ وإمَّا لا شيء. على الرُّغم من آرائه الصارمة بشأن هذه القضايا، فإنَّه رأى فرصةً بل ضَرورةً للتوصُّل إلى تَسويةٍ تشريعيَّة.

حالما تبدَّدت حرارةُ قضيَّة الطفلة دو، سقطت قضيَّةٌ جديدةٌ في حضن كوپ مثل قنبلةٍ في الحقيقة. في أوائل عام ١٩٨١م، كشفَ موظَّفو الإدارة عن أصواتٍ عالية

تتحدَّث بشأن مرضٍ وبائيٍّ يتركَّز في جماعاتٍ تمارِسُ "سلوكيَّاتٍ شديدةَ الخطورة"، لا سيَّما المثليِّين جنسيًّا ومُتَعاطي المخدِّرات بالحَقْن الوريديّ. ووسط الصيحات العالية من جماعات المثليِّين، تجنَّب الرئيس مُتَجاهلًا أيَّ ذكرٍ للمَرض الذي صارَ يُعرَف بالإيدز. لمدَّة خمس سنوات، أُبقي كوپ بعيدًا عن تدفُّق المعلومات، ومُنع من التحدُّث بشأن الإيدز. لم تطلُبِ الإدارةُ من الجرَّاح العامِّ أن يُعِدَّ تقريرًا عن الموضوع حتَّى عام ١٩٨٦م عندما تأكَّدَ وُجودُ عشرة آلاف إصابة.

إنَّنا ننسى الآن أنَّ مُناخَ الهستيريا الذي أحاطَ بأزمة الإيدز صدرَ مُعظمُه عن اليمين الدينيّ. استَضافَ إنجيليُّون بارزون في برامجهم الإذاعيَّة أشخاصًا ادَّعوا أنَّه يمكنُ الإصابة بالإيدز من لسعاتِ البعوض وكراسيِّ المراحيض. بحسب أحَدِ العاملين في ذلك الوقت، انهالتْ خمسةُ آلاف رسالةٍ على وزارة الصحَّة والخدمات الإنسانيَّة من المحافظين الذين يتقدَّمون بدفوعاتٍ قضائيَّة ضدَّ البحوث وأموال التعليم: قالوا إنَّ "دينونةَ الله" يجب أن تأخُذَ مجراها. وبموجب المُناخ السياسيِّ السائد، توقَّعَ الجميعُ تقريبًا أن يقدِّمَ الجرَّاحُ العامُّ الإنجيليُّ تقريرَه الأخلاقيَّ التَّأنيبيّ. كان قادةُ المدافعين عن حقوق المثليِّين جنسيًّا ساخِرين عَلَنًا.

غير أنَّ كوپ نظرَ إلى مَهمَّته نظرةً جِدِّيَّة. رتَّبَ لقاءاتٍ غيرَ رسميَّةٍ مدَّة ساعتَين بخمسٍ وعشرين مجموعةً مختلفة، تتراوحُ ما بين التجمُّع الوطنيِّ للمثليِّين جنسيًّا من الجنسَين، والمعمدانيِّين الجنوبيِّين. وطلبَ أن يُمنَح السُّلطة لإعداد التقرير بنفسه، متجنِّبًا القنواتِ البيروقراطيَّة التي قد تُضعِفُه. راجعَ سبعًا وعشرين مسوَّدةً وهو يعملُ واقفًا في بيته عند مكتبه المرتفع. هذه الكلمات تحدِّد لهجةَ التقرير: "عند بداية وباء الإيدز، لم يكن لدى العديد من الأميركيِّين الكثيرُ من التَّعاطُف نحو المصابين به. كان الشعورُ السائدُ هو أنَّ الناسَ الذين ينتَمون إلى مجموعاتٍ معيَّنة "يستَحقُّون"، بطريقةٍ أو بأُخرى، الإصابةَ بالمرض. لنَدَع هذه المشاعر وراءنا. إنَّنا نحاربُ المرضَ وليس الناس".

كان تقريرُ الإيدز صريحًا بشكلٍ ملحوظ، موضِحًا المخاطرَ بتفصيلٍ تشريحيّ،

وداعيًا إلى نَشْرِ الثقافة الجنسيَّة "بدءًا بأدنى المراحل التعليميَّة الممكنة". مع أنَّه وضعَ الامتناعَ عن ممارسة الجنس خارج إطار الزَّواج بوصفه الطريقَ الأكثرَ أمانًا، فإنَّه أوصى أيضًا بالواقي الذكريِّ لكلِّ شخصٍ يمارسُ الجنسَ مع شركاء متعدِّدين، كالمثليِّين جنسيًّا. أعلنَ كوپ قائلًا: "يجبُ وضع نهايةٍ للصَّمت".

بالفعل، انتهى الصمت. استنكرَتْ أصواتٌ داخلَ إدارة ريغان موقفَ كوپ ضدَّ فَحْص الايدز الإلزامي ودعوته إلى نشر الثقافة الجنسيَّة في سنٍّ مبكِّرة. مدحَ سياسيُّون ليبراليُّون، مثل تيد كنيدي (Ted Kennedy) وهنري واكسمان (Henry Waxman)، التقريرَ لصراحته وتشديده على الجوانب الصحِّيَّة للمرض. وأعلنَ نُشطاءُ حقوقِ المثليِّين جنسيًّا كوپ "بطل الايدز المشهود له". وقفَ مجلس الشيوخ مع كوپ بإصدار أمرٍ رسميٍّ لم يسبقْ له مثيل: إرسال كُتيِّب تثقيفيٍّ عن المرض في البريد إلى كلِّ بيتٍ في أميركا، ما مجموعه ١٠٧ ملايين منزل، وهو أكبرُ بريدٍ جماهيريٍّ في تاريخ أميركا.

أُصيبَ بعضُ السياسيِّين المحافظين بنَوبةِ غضب شديدة. حشدَ پول ويريتش (Paul Weyrich)، مؤسِّس اليمين الدينيّ، والناطقُ الرسميُّ المحافظُ فيليس شلافلي-الجهودَ ضدَّ كوپ ونَظَّما مُقاطَعةَ مأدبة عشاء في واشنطن مقرَّرةٍ على شرفه. قالت رسالتُهما في جزءٍ منها: "ابتعَدَ كوپ علنًا ليس فقط عن مبادئ تأييد الحياة، بل صار كثيرون يعتقدون أيضًا أنَّ عباراته حول الإيدز ما هي إلَّا غطاءٌ لمجتمع المثليِّين جنسيًّا. كما أنَّ تقريرَه حول الإيدز الذي صدرَ في تشرين الثاني /نوڤمبر الماضي، بدا كأنَّه صادرٌ عن التجمُّع الوطنيِّ للمثليِّين جنسيًّا... إنَّ اقتراحاتِ الدكتور كوپ لوَقف الإيدز تمثِّلُ وجهات نظر المثليِّين جنسيًّا، وليس وجهات نظر حركة دَعْم الأسرة". استِسلامًا للضُّغوط، سحبَ ثلاثةُ مرشَّحين جمهوريِّين للرِّئاسة رعايَتَهم للعَشاء.

ولزيادة الأمر تعقيدًا، استيقَظَ كوپ من قَيلولته بعد ظهر أحَدِ الأيَّام، وسط الغضب الشديد حول تقرير الإيدز، ليَجِدَ نفسَه مُصابًا بشللٍ كاملٍ في أطرافه

الأربعة؛ لم يستَطِعْ تحريكَ يدَيه أو قدمَيه. إنَّ سنواتٍ كثيرةً أمضاها وهو ينحني ليُجريَ عمليَّاتٍ على الرُّضَّع، جعلَتْ إصابةَ تزلُّجٍ قديمةً تتفاقَمُ لديه، وعندما انزلقَ رأسُه من على وسادةٍ لدَعم العِظام في أثناء قَيلولته، تسبَّبَ الضَّغط في التَّضييق على أحَد الشرايين. مع أنَّ الأطبَّاء أصلَحوا مُعظمَ الضَّرر، فإنَّ فترةَ التَّعافي أرغَمَته على البقاء في الفراش خلال عدَّة أسابيع تالية.

ينظرُ كوپ الآن إلى تلك الفترة من عدم النشاط الذي فُرِضَ عليه على أنَّها عَطيَّةٌ من العناية الإلهيَّة، مثل عمليَّة التَّسمِية التي دامَتْ تسعةَ أشهر. ابتدأ يرى أنَّ الإيدز هو مرضٌ يمكنُ للعالم وللمتَمسِّك بالأخلاق أن يعمَلا يدًا بيد- في الواقع، هما في حاجةٍ إلى العمل يدًا بيَد- لاحتواء الوباء. "لمدَّة سبعة أسابيع، راقبتُ تأثيرَ ما قد حدثَ كما سجَّلَتْه الصحافة. قرَّرت أنَّ لديَّ التزامًا ومَهمَّةً شاقَّة، لذا قرَّرتُ أن أعملَ أمرًا ربَّما لم يفعَلْه أيُّ شخصٍ شغلَ وظيفةً عامَّة. في الأسابيع السبعة الأولى من عام ١٩٨٧م، خاطبتُ المجموعاتِ الدينيَّة فقط. بدأتُ من كنيسة جيري فالويل (Jerry Falwell) والكنيسة في جامعة ليبرتي (Liberty)، وذهبتُ إلى مؤتمر المذيعين الدينيِّين الوطنيّ، وتحدَّثتُ إلى المحافظين في الدِّيانة اليهوديَّة، كما تحدَّثتُ إلى الروم الكاثوليك، وانتهى بي الأمرُ بسلسلةٍ من البرامج الإذاعيَّة لشبكةِ مودي (Moody Broadcasting Network)".

في تلك الخطابات التي ألقاها ببزَّةٍ كاملة وجَبيرةِ رقبة، أكَّدَ كوپ على الحاجة إلى الامتناع عن ممارسة الجنس خارج الزواج، والزواج بشخصٍ واحدٍ فقط. لكنَّه أضافَ قائلًا: "الامتناع الكامل للجميع ليس واقعيًّا، وأنا لستُ مستعدًّا لأن أتخلَّى عن الجنس البشريِّ حتَّى هذه اللَّحظة... أنا الجرَّاح العامُّ للغيريِّين جنسيًّا وللمثليِّين جنسيًّا؛ للشَّباب وللمُسنِّين؛ للأخلاقيِّين ولغير الأخلاقيِّين". وإذ تحدَّثَ بلغةٍ مألوفة للزُّمَلاء المسيحيِّين، حذَّرهم قائلًا: "قد تكرَهون الخطيَّة، لكنْ عليكم أن تحبُّوا الخاطئ". في حين عبَّر كوپ عن اشمئزازه الشخصيِّ من الإباحيَّة الجنسيَّة- اعتادَ دائمًا استخدامَ كلمة "لواط" عند الإشارة إلى أفعالِ مثليِّي الجنس- فإنَّه أصرَّ أيضًا على القول: "أنا الجرَّاح العامّ، ولستُ القسَّ العامّ".

لشَرْح موقفه، كان يستخدمُ في معظم الأحيان تشبيهَ طبيبِ غرفة الطوارئ. إذا وصلَتْ سيَّارةُ الإسعاف وأَنزَلَتْ جريحَين: أَحَدهما لصُّ مَصارفَ كان قد أطلقَ النار على الحارس، وحارس المصرف الذي ردَّ على النار بالمثل، أيُّهما يُعالج الطبيبُ أوَّلًا؟ عليه أن يبدأ بالرَّجُل المصاب بالجروح الأكثر إلحاحًا وليس بالرَّجل الأكثر أخلاقيَّةً. كان كوپ قد رأى ما يكفي من مَرضى الإيدز، بأجسادهم الهزيلة النحيلة المغطَّاة بقروح أُرجوانيَّةِ اللَّون، فهو إذًا يَعلَمُ مَن كانت حاجته إلى العلاج أكثرَ إلحاحًا. كان قد أقسمَ أن يرعى الضُّعَفاء والمحرومين، ومن الواضح أنَّه لم تكن هناك مجموعةٌ في البلاد أكثر ضعفًا وحرمانًا من هؤلاء. على الرُّغم من التكلفة السياسيَّة، كان يدافعُ عن حقِّهم في العلاج والحاجة إلى تثقيفهم حول سبُل مَنْع هذا المرض الفتَّاك.

خسر الجرَّاح العامُّ الكثيرَ من الدَّعم بين صفوف المحافظين السياسيِّين حول قضيَّة الإيدز. لكنَّ كوپ ينظرُ الآن إلى الوراء بفخرٍ إلى موقف كنيسةِ المجتمع الواسع. يقول كوپ: "أعتقدُ أنَّنا غيَّرنا نظرةَ الناس إلى هذه القضيَّة. من المؤكَّد أنِّي تسلَّمتُ عشرين رسالةً داعمةً من القساوسة المعمدانيِّين الجنوبيِّين وحدَهم. كانت تلك الطائفةُ إحدى المجموعات التي أَجريْتُ معها مقابلةً قبل كتابة تقرير الإيدز. لم يسمعوا على الإطلاق بهذه الأنواع من الممارسات الجنسيَّة التي كنتُ أتحدَّثُ بشأنها. في أحَدِ الأيَّام، حاولتُ بكلِّ لُطْفٍ أن أشرحَ طبيعةَ المشكلات، أن أصِفَ لهم الجنسَ في الحمَّامات العامَّة مثلًا. لم يعرفوا إنْ كان عليهم أن يصرخوا ويهربوا، أم أن يبكوا، أم أن يدفنوا وجوهَهم في أيديهم. لكنَّهم غيَّروا أفكارَهم وبَرهَنوا أنَّهم داعمون لي. قلت: "إذا كنتُم قلقين بشأن حصول أطفالكم على الثقافة الجنسيَّة- وأنا أفهم دواعي قلقكم- لماذا لا تضعون، وأنتم طائفة تتألَّف من ستَّةٍ وعشرين مليون شخصٍ، منهاجكم الدراسيَّ الخاصّ؟" بعد تسعة أشهر، دَعوني لأذهبَ وأساعدَ على إطلاق ذلك المنهاج".

إنَّ هؤلاء المحافظين الذين وقَفوا مع كوپ في أثناء القضيَّتَين المثيرتَين للجدل: الطفلة دو والإيدز، اهتزُّوا ثانيةً في بداية عام ١٩٨٩م عندما نشرَتِ الصحافةُ رسالةً من كوپ

إلى الرئيس ريغان حول الإجهاض. في الخريف السابق، أقنعَ أحَدُ مستَشاري الرئيس المؤيِّدين للحياة- الرئيس ريغان بأنَّ الجرَّاح العامَّ يجب أن يُجري بحثًا حول تأثيرات الإجهاض الصحِّيَّة في النساء. توقَّعَ هذا المستَشارُ أنَّ "النتائج ستَكونُ مدمِّرة حتَّى إنَّها ستعكسُ قضيَّة رو في مواجَهة ويد. استعدَّ النشطاءُ المؤيِّدون لخِيار الإجهاض للأسوأ لمعرفتهم بآراء كوپ الحاسمة في الإجهاض. في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٩م، سلَّمَ كوپ نتائجَه إلى الرئيس في رسالةٍ كانت خاتمتُها ما يلي: "أنا آسفٌ سيِّدي الرئيس، على الرُّغم من المراجعة الجِدِّيَّة التي قام بها كثيرون في دائرة خدمات الصحَّة العامَّة وفي القطاع الخاصّ، فإنَّ الدِّراسات العلميَّة لا تقدِّم بياناتٍ قاطعةً حول التأثيرات الصحِّيَّة للإجهاض في النساء". هلَّلَ قادةُ حركة المؤيِّدين لاختيار الإجهاض لهذه الرسالة، وشوَّهوا مضمونَها بعضَ الشيء: "يقول كوپ إنَّ الإجهاضَ لا يؤذي النساء".

في اليوم التالي، كان العنوانُ الرئيسيُّ لصحيفة نيويورك تايمز "إنَّ مَوقفَ كوپ بخصوص تأثير الإجهاض يُدهشُ الأصدقاءَ والأعداءَ على حدٍّ سواء"، وهو عنوان كان بإمكانه الفوز بجائزة پوليتزر للتَّصريحات المكبوحة. وبالنِّسبة إلى بعض الإنجيليِّين، كانت رسالةُ كوپ القشَّةَ التي قصمَتْ ظهرَ البعير، حيث بدا أنَّ كوپ قد تخلَّى عن المبادئ ذاتها التي سمحَتْ بتَسميَته. تركت هذه القضيَّةُ المثيرةُ للجَدَل وصمةً دائمة على مهنة كوپ، وقد تكونُ أسهمَتْ في تقاعُدِه من الخدمة العامَّة.

شعرَ كوپ شخصيًّا بالخيانة بشأن هذه القضيَّة. كان قد راجعَ ٢٥٥ تقريرًا عن تأثيرات الإجهاض الصحِّيَّة. "أثبتَ" بعضُها أنَّ الإجهاضَ ضارٌّ، وبعضُها الآخرُ أنَّه غيرُ ضارّ. إذا ما تناوَلْناها جميعَها معًا، يبدو أنَّ فيها كلِّها خللًا في منهجيَّتها. بالإضافة إلى هذا، نصف النساء فقط ممَّن أُجريَت لهنَّ عمليَّاتُ إجهاضٍ يعترفنَ بها في الدراسة المسحيَّة. ولم تتطرَّق الدراساتُ الموجودةُ إلى تلك المجموعة على الإطلاق. على الرُّغم من أنَّه كانت لدى كوپ أدلَّةٌ قصصيَّة كثيرةٌ على التأثيرات النفسيَّة الضارَّة للإجهاض، فإنَّه لم تكن لديه البيانات العلميَّة الدقيقة جدًّا لدعمها. في الواقع، أوصَتْ رسالتُه إلى الرئيس بدراسةٍ كهذه- كانت ستحتاجُ إلى خمس سنوات، بكلفةٍ

تبلغُ مئة مليون دولار، كما قدَّر لاحقًا، كما أنَّها كانت ستُثبِّتُ على الأرجح ما كان الرئيس يريدُ تَثبيتَه- لكنَّه مضطرٌّ في الوقت الراهن إلى الاعتراف ببياناتٍ إحصائيَّةٍ غير كافية. لقد طُلبَ منه أن يُصدِرَ حُكْمًا علميًّا، لا أن يُدليَ برأيٍ شخصيّ.

سلَّم كوپ رسالتَه شخصيًّا إلى البيت الأبيض وحصلَ على وَعدٍ بألَّا يكشِفَ أحَدٌ محتوياتها إلى أن تسنحَ للرَّئيس فرصةٌ للرَّدِّ عليها. لكنْ عندما وصلَ كوپ إلى بيته بعد وقتٍ قصير، قابلَتْه زوجتُه في الممرِّ الذي يؤدِّي إلى البيت وهي في حالةِ رعب. كانت قد سمعت المذيعين، پيتر جَنينغز (Peter Jennings) وتوم بروكا (Tom Brokaw) ودان راذر، وهم يقتَبسون من الرسالة "السرِّيَّة". والأكثر من هذا، كانوا يُعلِنون بشكلٍ قاطع أنَّ "الجرَّاح العامَّ لم يستطع أن يجدَ أيَّ دليلٍ يؤكِّد أنَّ الإجهاضَ ضارٌّ نفسيًّا"، بقيَ كوپ يتحدَّثُ عبر الهاتف حتَّى الساعة الواحدة صباحًا محاولًا أن يوضحَ موقفَه، وظهرَ في صباح اليوم التالي في برنامج "صباح الخير أميركا" (Good Morning America) ليصحِّحَ الانطباعاتِ الخاطئة. لكنَّ الضَّررَ كان قد وقع. استمرَّ النُّشطاءُ المؤيِّدون لخيار الإجهاض في اقتباس نتائجه بشكلٍ خاطئ؛ ولم يزلِ المؤيِّدون للحياة يشعرون بأنَّه غُدِرَ بهم.

يتذكَّر كوپ الآن كيف "كان هناك سوءُ فَهْمٍ كبير حول تلك القضيَّة. أتذكَّرُ امرأةً ركضت نحوي وقالت: "آه يا دكتور كوپ، أنا مسرورةٌ جدًّا لأنَّك غيَّرت موقفَك من الإجهاض". فقلت لها: "يا سيِّدتي لقد أسأتِ فهمي كليًّا. لم أُغيِّر رأيي بشأن الإجهاض؛ أنا فقط أرفضُ أن أكونَ كاذبًا في ما يتعلَّق بالإحصائيَّات، هذا كلُّ ما في الأمر"؛ بالنَّظر إلى كلِّ ما قلتُه وكتبتُه بشأن الموضوع، كيف يمكنُ لأيِّ شخصٍ أن يشكِّكَ في آرائي بشأن الإجهاض؟ هناك أحاديثُ معيَّنةٌ أتوقَّعُ أن تجريَ أينما ذهبتُ. سيأتي إليَّ شخصٌ ويقولُ لي إنِّي أجريتُ له عمليَّةً جراحيَّةً عندما كان عمرُه ثلاثة أيَّام. وسيأتي شخصٌ آخرُ ويقول: "أنا مدينٌ لك بالشكر والعرفان- لم أكُنْ مهتمًّا على الإطلاق بقضايا حياة الإنسان إلى أن سمعتُك تتحدَّثُ مع فرنسيس شيفر". في ذلك الوقت قلتُ لمؤيِّدي الحياة: كنتم رائعين في حربكم على الإجهاض بأنْ جعلتُموه قضيَّةً أخلاقيَّة

وجعلتُم حياةَ الجنين الشاغلَ الرئيسيّ. لا تنقُلوا مواضيعَ المناقشة إلى الحديث بشأن صحَّة الأُمّ. إذا رأى الطَّرَفُ الآخرُ أنَّكم نقلتُم مَوضوعَ نقاشكم، تكونون قد خسرتم".

كانت أشهُرُ كوپ القليلة التالية في واشنطن بغيضةً كالأشهر الأولى تقريبًا. بدأتْ إدارةٌ جديدةٌ بقيادة جورج بوش الأب (George Bush) تمارسُ عملَها، واقترحَتْ اسمًا آخرَ لمنصب الوزارة الذي كان كوپ يريدُه. لم يَطلُبْ منه أحَدٌ أن يتركَ منصبَه، لكنْ لم يعرضوا عليه أيضًا إعادةَ تعيينه في منصب جرَّاح عامّ. ومن خلال سلسلةٍ من أساليب الضَّغط الصغيرة، جَعَلوا كوپ يشعرُ بأنَّه غيرُ مرحَّبٍ به. مُنعَ من دخول غرفة الطعام الخاصَّة بالموظَّفين التَّنفيذيِّين، واستُبعِدَ من خلوةٍ خاصَّة بالتَّنفيذيِّين أيضًا، وسُرِّحَ من العمل أكبرُ مُساعِديه. ولم يَعُدْ أعضاءُ هيئة موظَّفي البيت الأبيض يجيبون على مكالماته الهاتفيَّة.

سألَ أحَدُ المراسِلين الدكتور كوپ مرَّةً عن كيفيَّة حصوله على الأوسمة المعلَّقة على بزَّته، أجاب قائلًا: "الصفُّ الأعلى هو ما فعلَه الليبراليُّون لي، والصفُّ الأسفل هو ما فعلَه المحافظون لي". في النهاية، استَقالَ بهدوءٍ الرَّجُلُ الذي استَطاعَ في وجه مُعارَضةٍ مستمرَّة، التغلُّبَ على تحيُّزٍ هائلٍ من وسائل الإعلام، وحوَّل وظيفتَه لتَصيرَ واحدةً من أكثر الوظائف احترامًا في الحكومة.

لم تتوقَّفِ الحياة العامَّةُ بالنِّسبة إلى كوپ عندما خلعَ بزَّتَه الرسميَّة. على العكس من ذلك، ظلَّت الأضواءُ مُسلَّطةً عليه. استمرَّ في الإدلاء بشهادته أمام مجلس الشيوخ بخصوص قضايا مثل سياسات التَّبغ وإجهاض الولادة الجزئيَّة. فاز بجائزة إيمي (Emmy) عن السِّلسلة التلفزيونيَّة، "الطبيب، سي. إيڤرت كوپ" (C. Everret Koop, M.D). اتَّصل به الرئيسُ الجديد بيل كلينتون (Bill Clinton) طَلبًا لمساعَدَته. وعندما كانت هيلاري كلينتون (Hillary Clinton) تعقدُ اجتماعاتٍ في جميع أنحاء البلاد لجَمع الحقائق حول أزمةِ الرِّعاية الصحِّيَّة؛ هل كان كوپ سيُوافقُ على تقديمها إلى المؤسَّسة الطبِّيَّة؟ وافقَ وجلسَ بجانبها في الكثير من هذه الاجتماعات، مثيرًا غضبَ بعض المحافظين

مرَّةً أُخرى. ثُمَّ مارَسَ ضُغوطًا مُضنيةً أمام مجلس الشيوخ دفاعًا عن اتِّفاقية الحكومة مع شركات التَّبغ الكُبرى. وقعت هاتان المبادرتان ضحيَّةً لصراعٍ سياسيٍّ خفيّ.

عاد كوپ وزوجته، وهو يشعرُ بالاشمئزاز، إلى دارتموث التي تخرَّجَ في جامعتها، والتي كانت قد أسَّست معهد سي. إيڤرت كوپ لتدريب اختصاصيِّي الرِّعاية الصحِّيَّة. ومع أنَّه كان لا يزالُ يسافرُ في أرجاء العالم يُلقي المحاضَرات، فقد تباطأت سرعةُ الحياة بالتَّدريج إلى مُعدَّلٍ يناسبُ سنَّه، أيْ إلى حين وصلَتْه ثَورة الإنترنت في سنِّ الحادية والثمانين. أُعلِنَت شركة جديدة، وموقعُها على شبكة الإنترنت هو Drkoop.com، وبدأ العملُ فيها في عام ١٩٩٨م لتكونَ مدخلًا لتقديم المشورة بشأن الرِّعاية الصحِّيَّة، ووجدَ كوپ، المشاركُ في ملكيَّتها، نفسَه فجأةً من أصحاب الملايين. ومثل معظم الثَّروات المتحصِّلة من العمل في مجال المواقع الإلكترونيَّة، تبخَّرت أسهمُه في الشركة وخسرت في نهاية المطاف ٩٩٪ من قيمتها، لكنَّ الموقع لا يزالُ يجذبُ خمسةَ ملايين متصفِّح كلَّ شهر. لا يزالُ غالبيَّة الأميركيِّين يحصلون على المشورة من طبيب الأسرة الذي كان مرَّةً الجرَّاح العامّ. ولا يزال كوپ يجدُ نفسَه في خِضَمِّ الجدل، يردُّ على الانتقاد بأنَّ موقعَه على الإنترنت يخلطُ الآراءَ الطبِّيَّة والاهتمامات التجاريَّة.

ولَمَّا كنتُ قد عرفتُ كوپ مدَّة ثلاثين عامًا، تتبَّعتُ مهنته من كثب بوصفها حالةً دراسيَّةً لمواطنٍ مسيحيٍّ حقيقيٍّ زُجَّ به في الساحة السياسيَّة. لم يستَطع أحَدٌ أن يتَّهمَ الرَّجلَ الذي حملَ لقبَ "الجرَّاح العامّ" في عام ١٩٨١م بالمراوغة في القضايا الأخلاقيَّة. عارضَ كلَّ أنواع الإجهاض، حتَّى بعد الاغتصاب، وحتَّى في حالة التشوُّه الشديد للجنين. وعارضَ كلَّ أنواع الجنس خارج نطاق الزواج، وكلَّ ممارساتِ المثليِّين جنسيًّا. أثارت تسمِيَتُه مُعارَضةً كبيرةً من قِبَل الليبراليِّين، وصيحات الابتهاج والدَّعم من المحافظين، لا سيَّما الإنجيليِّين منهم. لكنْ في النهاية، كان الإنجيليُّون هم الذين شَعَروا بالخيانة، والليبراليُّون هم مَن ظلُّوا مبتَهِجين.

ما الأخطاء، وما الأمورُ الصائبة التي حصلت في السِّيرة البطوليَّة المتعرِّجة لمؤمنٍ

سعى إلى خدمة الله بصورةٍ متكافئة في ساحتَين متَضاربتين في آنٍ معًا؟ ناقشتُ هذه القضايا بالتَّفصيل مع الدكتور كوپ وتعلَّمت الكثيرَ من خبرته. لقد رأيتُ نماذجَ فعَّالةً قليلةً لمسيحيِّين يَختَرقون المجتمعَ الواسع، لا سيَّما في مجال السياسة. تعتمدُ السياسات الحزبيَّة على القوَّة والخصومة، وهي قوى تتضاربُ مباشَرةً مع مبادئ المحبَّة والمصالحة في الإنجيل. كنتُ أتساءل، هل تمكنُ ممارسة السلطة بطريقةٍ مُحِبَّة، أو معارَضةِ سلوكٍ ما دون معارَضةِ الشخص الذي مارسَه؟ وما أهمِّيَّةُ الإيمان الذي ليست له صلةٌ مباشَرةٌ بالمجتمع الواسع؟ حذَّرَ السيِّدُ المسيحُ تلاميذَه عندما أرسلَهم إلى العالم بالقول: "كونوا حكماء كالحيَّات وبسطاء كالحمام". لكنْ في أغلب الأحيان، يُظهِرُ المسيحيُّون في السياسة حكمةَ الحمام وبساطة الحيَّات.

في المقام الأوَّل، نجحَ كوپ في إقناع جمهورٍ متشكِّكٍ بنزاهته الأساسيَّة. حتَّى الذين لم يتَّفقوا معه، قَبِلوا صدقَه وجدارتَه بالثِّقة. يسردُ كوپ قصصًا عن مسيحيِّين آخرين في الإدارة كانوا مستَعدِّين للمُبالغة في الحقائق لخدمة أهدافهم السياسيَّة. مثلًا، عندما كتبَ تقريرَ الإيدز، حاولَ أحَدُ موظَّفي البيت الأبيض أن يغيِّر كلمات كوپ من "معظم الأميركيِّين يعارضون المثليَّة الجنسيَّة والإباحيَّة من أيِّ نوعٍ كان، وهم أيضًا يعارضون الدعارة"، إلى "جميع الأميركيِّين...". إنَّ حقيقةَ أنَّ العبارةَ المعدَّلةَ كانت غير صحيحةٍ بتاتًا، لم تُزعج الموظَّفَ على الإطلاق. وبالمثل، عندما ختمَ كوپ تقريرَه بأنَّ البحثَ المتعلِّقَ بتأثيرات الإجهاض يتضمَّنُ خللًا، تولَّدَ ردُّ فعلٍ غاضبٌ من المحافظين لأنَّه لم يصدِّقْ على أنَّ الحقائقَ كانت تدعمُ موقفَهم، وذلك بغضِّ النظر عن الخلل الإحصائيِّ الذي كشفَه. كما رأى كوپ الوضع، أخذَ برنامجُهم الأسبقيَّةَ على الحقيقة.

سألتُ كوپ عن النصيحة التي يُسديها إلى مواطنين معنيِّين مثلي، يريدون التأثيرَ في قوانين البلاد. كيف يمكنُنا أن نفعل هذا على نحوٍ أكثر فعَّاليَّة؟ أجاب قائلًا: "إنَّ ما أزعجَني أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، عندما أفكِّر في الأمر، هو نَقص المعرفة لدى المسيحيِّين- وكأنَّهم كانوا يشعرون بأنَّهم باعتمادهم على مبدأ لاهوتيّ، لن يتحتَّمَ عليهم أن يكونوا

دقيقين جدًّا بشأن الحقائق. يتحدَّث الناس بشأن ليبراليِّين يستَجيبون بطريقةٍ متوقَّعة دون تفكير. ليس لليبراليِّين أيُّ مكانٍ في تلك السوق؛ وعلمتُ أنَّ هناك محافظين يتَجاوَبون بطريقةٍ متوقَّعة دون تفكيرٍ أيضًا. يجب أن يشاركَ المسيحيُّون في السياسة ويستَخدِموا مبادئهم وفضائلهم وأخلاقيَّاتهم المسيحيَّة في تلك العمليَّة. لكن يجب ألَّا يقفزوا فوق العمليَّة ويعبِّروا عن معتقداتهم بصفتها النتيجةَ الوحيدةَ المحتمَلة".

يُصرُّ كوپ على أنَّ آراءَه الأخلاقيَّة الأساسيَّة لم تتغيَّر خلال ممارسة وظيفته العامَّة، وأنَّ معتقداته الأساسيَّة وفَّرَتِ الأساسَ لكلِّ أعماله الرئيسيَّة. لكنَّه بعد تنحِّيه، تلقَّى دعمًا وإطراءً مذهلَين: شهاداتٍ فخريَّة من جامعات؛ تصفيقًا حماسيًّا مستمرًّا في ولائمَ أقيمت لوداعه؛ اعتذاراتٍ عامَّةً في افتتاحيَّات الصُّحف، إضافة إلى أرفَع جائزةٍ مدنيَّةٍ في البلاد، كما نالَ وسامَ الحرِّيَّة الرئاسيّ. أُعجِبَ البعضُ بحقيقةِ أنَّ قراراته، بغضِّ النظر عن الدوافع من ورائها، حقَّقتْ أهدافَها السياسيَّة. لكنَّ كوپ قدَّم إلى كثيرين ممَّن لا يؤمنون بالفَضائل في واشنطن- أنموذجًا منعشًا جديدًا للنَّزاهة من مسيحيٍّ إنجيليّ- كان ذلك في وقتٍ جذبَ فيه إنجيليُّون معروفون آخرون الاهتمامَ بسبب عدم نزاهتهم. وبكلماتٍ مجلَّة تايم: "إنَّ المدينةَ التي تقدِّمُ السجودَ عند مذبح الغموض الرماديّ، وجدَتْ هناك مكانًا لرَجلٍ يؤمنُ فقط بوجود الأبيض أو الأسود".

كان كوپ يؤكِّد دائمًا على أنَّه في القضايا المتعلِّقة بالصِّحَّة، ينبغي أن يسيرَ العالِم والمؤمنُ بالأخلاقيَّات معًا. عارضَتِ الكنيسةُ الأذى الذي يتسبَّب فيه التبغُ والخمرُ قبل وقتٍ طويل من تأكيد العلماء صحَّة شكوكهم. وفي المعركة ضدَّ الأمراض المنقولة جنسيًّا، كما يعترفُ كوپ، فإنَّ الأخلاقيَّات القائمة على التزامٍ دينيّ- وليس على المزيد من الثقافة الجنسيَّة- تُقدِّم أفضلَ فرصةٍ لتَغييرِ سلوك المراهقين المنحلّ. وإذ باتَ الآن خارجَ الوظيفة الرسميَّة، فهو يشعرُ بحرِّيَّةٍ أكبرَ في التحدُّث بشأن الأمانة الزوجيَّة والامتناع عن ممارسة الجنس. يستمعُ إليه الناسُ بسبب الثقة المتراكمة التي اكتسبَها عندما كان يخدمُ بصفته جرَّاحًا عامًّا.

قد تقدِّمُ خبرةُ كوب بالفعل أنموذجًا للمسيحيِّين المهتمِّين بالاتِّجاهات الثقافيَّة. لا فائدة من اقتباس آياتٍ من الكتاب المقدَّس لأشخاصٍ لا يبجِّلون آيات الكتاب، أو من التهديد بدَينونةِ الله لأشخاصٍ لا يؤمنون بالله. هناك طريقةٌ أفضلُ للتَّواصُل معهم كما بيَّن كوب. إنَّ كثيرًا من المخاوف الصحِّيَّة الرئيسة في هذا البلد يرتبطُ بالخيارات السلوكيَّة: تتفاقَمُ أمراضُ القلب وارتفاعُ ضغط الدَّم بسبب الإجهاد، وتحدُثُ الإصابة بانتفاخ الرئة وسرطانها بسبب تدخين السجائر، وتلحقُ الأضرارُ بالجنين نتيجةَ تعاطي الأمِّ الكحول والمخدِّرات، ويرتبط مرضُ السكَّريِّ واضطراباتٌ أُخرى بالتَّغذية، ناهيك بارتكاب الجرائم العنيفة، والإصابة بالإيدز، وانتشار الأمراض المنقولة جنسيًّا، ووقوع حوادث المركَبات المرتبطة بشُرْبِ الكحول. هذه آفاتٌ متوطِّنة، حتَّى إنَّها مجالاتُ قلقٍ وبائيَّةٌ بالنِّسبة إلى خبراء الصحَّة في مجتمعنا.

بعد أن تغلَّبنا بشجاعةٍ على معظم الأمراض المعدِيَة، استبدَلْنا الآن مشكلاتٍ صحِّيَّةً جديدةً بأُخرى قديمة، وينشأ كثيرٌ منها من خِياراتٍ أخلاقيَّة. يؤمنُ المسيحيُّون بأنَّ الوصايا التي أعطانا إيَّاها الله ليست عشوائيَّة، بل هي لخيرنا، والنتائج الصحِّيَّة في مجتمعنا الحديث تُثبِتُ صحَّة ذلك المبدأ. إذا استَطعْنا أن ننقلَ قَدْرًا أكبرَ من روح طبيبٍ مختصٍّ بالأسرة ومهتمٍّ حقًّا، وبشكلٍ أقلَّ من تبرُّم الشخص الأخلاقيّ، فإنَّنا ربَّما نستطيعُ أن نجذبَ انتباهَ مجتمعٍ يتَّجهُ نزولًا في طريق الدَّمار الذاتيّ.

مع أنَّ معظم الناس سيتذكَّرون فترةَ خدمته في المنصب الرسميّ، في الدرجة الأولى بسبب القضايا الرئيسة المثيرة للجدل، فإنَّ كوب يرى الأمرَ بصورةٍ مختلفة. حيثما يذهب، يأتي إليه المواطنون العاديُّون بكلماتِ شُكرٍ صادرةٍ من القلب. "أنا في مجموعة دعم للزَّوجات المتضرِّرات"، "احتفظتُ بطفلي بسببك"، "ابني مصابٌ بالإيدز- ليُباركِ الله حياتك على كلِّ ما فعلتَ"، "منحْتَني الشجاعةَ لأقلع عن التدخين". بسبب هؤلاء، ينظر كوب إلى الوراء، إلى السنوات الثماني التي أمضاها في الخدمة العامَّة بقليلٍ من الأسف وبالكثير من الرِّضا، على الرُّغم من حالات

الاضطراب فيها. أصغى إليه الناس لأنَّهم تعلَّموا أن يثقوا به، ومن ثَمَّ اتَّخذَ كثيرون منهم خطواتٍ لتَغيير سلوكهم.

في دوره الجديد بوصفه طبيبَ الأسرة في أميركا على شبكة الإنترنت، بدأت الشكوكُ تُثار حول تلك النزاهة. اكتشفَ المراسلون أنَّ قائمةَ مستَشفياتٍ موصًى بها على موقعه على الشبكة قد دفعَتْ أربعين ألف دولارٍ مقابلَ الحصول على هذا الامتياز، كما اكتُشِفَ أيضًا أنَّ كوپ كان يُدلي بشهادته بصفته عالمًا لمصلحة مصنِّعين كيمياويِّين كانوا قد دَفعوا له بصفته مستَشارًا. يدافعُ كوپ عن تصرُّفاته بشدَّة، لكنَّ القضيَّة مَثارَ الجدل إنَّما تؤكِّد فقط على النقطة التي تقول إنَّ الأخلاقيِّين والعلماء، على حدٍّ سواء، لديهم منصَّةٌ واحدةٌ يتكلَّمون منها، وهي النَّزاهة.

عندما تسلَّمَ كوپ منصبَه الرسميَّ العامّ، كان عليه أن يتعلَّمَ التَّمييزَ ما بين التصرُّف اللّاأخلاقيّ والتصرُّف غير القانونيّ. ليس كلُّ ما كان يعتقد أنَّه لاأخلاقيٌّ يمكن أن يكونَ غير قانونيّ. وقد فشلَ محافِظون آخرون في القيام بهذا التَّمييز. "لا تشتَهِ" هي قضيَّةٌ أخلاقيَّةٌ من الخطورة بحيث إنَّها تعدُّ واحدةً من الوصايا العشر. أيُّ بلديَّةٍ أو حكومةٍ تستطيعُ أن تنفِّذَ القانونَ ضدَّ الاشتهاء؟ الكبرياءُ خطيَّةٌ أخلاقيَّة، ربما أسوأ خطيَّة، لكن هل نستطيعُ أن نجعلَ الكبرياءَ عملًا غير قانونيٍّ يُجرِّمُ مَن يرتكبه؟ لخَّص يسوع شريعةَ العهد القديم في الوصيَّة، "تحبُّ الربَّ إلهك من كلِّ قلبك ومن كلِّ نفسك ومن كلِّ عقلك"؛ أيُّ سلطةٍ بشريَّةٍ باستطاعتها أن تضبطَ هذه الوصيَّة بصفة قانونيَّة؟ مع أنَّ المسيحيِّين ملتزمون أن يُطيعوا وصايا الله، فهذا لا يعني تلقائيًا أنَّ علينا أن نسنَّ هذه الوصايا الأخلاقيَّة على صورة قوانين تنفَّذُ من قِبَل الدولة. حتّى مقترحات جون كالڤن للإصلاح في جنيف (John Calvin's Geneva) لا تتجرَّأ على اعتماد المدوَّنة القانونيَّة للمَوعظة على الجبل.

مثلًا، يناقشُ المسيحيُّون الآن الجوانبَ الإيجابيَّةَ والسلبيَّةَ لحقوق المثليِّين جنسيًّا، وهي قضيَّةٌ أخلاقيَّة، كما سيتَّفقُ على ذلك كلا الطرفَين. إذا كنَّا نؤمن بأنَّ ممارسة

المثليّين جنسيًّا هي ممارسةٌ لاأخلاقيّة، فهل ينبغي أن نجعلَها غير قانونيَّة؟ منذ فترةٍ ليست ببعيدة، ناقَشَتْ كنيسةُ بريطانيا قضيَّةً مشابهةً جدًّا: الطلاق. يذكرُ الكتابُ المقدَّس أمورًا بشأن قُدسيَّة الزواج وخطأ الطلاق أكثرَ ممَّا يذكرُه عن المثليَّة الجنسيَّة. صدمَ سي. أس. لِويس العديدَ من الناس في زمانه عندما أعلنَ أنَّه يدعمُ جَعْلَ الطلاق قانونيًّا، على أساس أنَّه ليس لدينا نحن المسيحيِّين الحقُّ في فَرْضِ أخلاقيَّاتنا على المجتمع كلِّه. على الرُّغم من أنَّه كان يَعِظُ ضدَّ الطَّلاق ويعارضُه على أُسُسٍ أخلاقيَّة، فإنَّه كان يعرفُ الفرقَ بين أخلاقيَّةِ شيءٍ ما وقانونيَّته.

بالتَّأكيد، علينا أن نمارسَ مَهارةَ الجرَّاحين الأخلاقيِّين عندما نقرِّر أيَّةَ مبادئَ أخلاقيَّةٍ تنطبقُ على المجتمع بشكلٍ عامّ. إذا فشلنا في ممارسة تلك المهارة، سنُخاطرُ مرَّةً أُخرى في الخَلْط ما بين المملكتَين: ملكوت الله ومملكة العالم. استخدمَ أنبياءُ العهد القديم معيارًا مزدَوجًا في إصدار أحكامهم. كانوا يحاسبون أُمَّتَهم إسرائيلَ بناءً على إطاعتها لكلِّ جزءٍ من عهدِ الله (الميثاق المُبرَم)، بما في ذلك حِفظُ يوم السبت وطقوس ذبائح المعبد، لكنَّهم كانوا ينتقدون الشعوبَ التي حولهم بشكلٍ أكبر على أُسس "القانون العامّ"، مثل جرائم الحرب والظُّلم والانحطاط. وفي العهد الجديد، يسألُ بولس: "لأنَّه ماذا لي أن أَدينَ الذين من خارج؟ ألستُم تَدينون الذين من داخل؟ أمَّا الذين من خارج فاللهُ يَدينهم".

عندما كان كوب في منصبه الرسميّ، اجتذبَ مُعارَضةً كبيرةً من المحافظين الذين كان لديهم أسلوبٌ أخلاقيٌّ يقول: كلُّ شيء أو لا شيء. هاجَموه لأنَّه وافقَ على تَسويةٍ حول قضيَّة الطفلة دو، رغم أنَّ المحاكمَ كانت قد أسقطَتْ مبادئه التوجيهيَّة الأولى الصارمة. لقد عارَضوا أيَّة مساوَمةٍ حول الإجهاض. يقولُ كوب: "إنَّ إحدى المشكلات التي تواجِهُها حركةُ تأييد الحياة هي أنَّ آراءَها صحيحةٌ ١٠٠٪. تاريخيًّا، من الصواب أن نقولَ، إنَّه لو جلسَتْ حركةُ تأييد الحياة في عام ١٩٧٠ أو ١٩٧٢م مثلًا مع المُنادين بخِيار الإجهاض، لكنَّا قد توصَّلنا إلى اتِّفاقٍ حول الإجهاض من أجل إنقاذ حياة الأمّ، والطفل المشوَّه، والاغتصاب، وزنى المحارم، ولا شيء غير

ذلك. كان ذلك سينقذُ ٩٧٪ من حالات الإجهاض منذ ذلك الوقت. إنَّ ٩٧٪ من خمسةٍ وعشرين مليونًا هو عددٌ كبيرٌ من الأطفال".

ولأنَّ كوپ شخصٌ لديه حكمٌ مُطلَقٌ حول قضايا مثل الإجهاض والمثليَّة الجنسيَّة، فقد تعلَّمَ رُغمَ ذلك بصفته جرَّاحًا عامًّا أنَّ الأمورَ المسيحيَّةَ المُطلَقة لا يمكنُ فرضُها على الذين ليست لديهم معتقداتٌ مسيحيَّة. تعلَّمَ بدلًا من هذا الرأفةَ والرحمةَ نحو المنسحقين، والمحبَّة نحو الأعداء، فلاحَظَ العالَم ذلك. مثلًا، استهلَّت مجلَّة "مادموزيل" (Mademoiselle) مقالةً عنه بقولها: "نادرًا ما يوجَدُ في الحياة اليوميَّة ذلك الصلاحُ واضح التعبير- إنَّه نادرٌ كنُدرةِ بيضة النعام الذهبيَّة في عالم السياسة". ثُمَّ تابعَتِ المقالةُ في مَدْح كوپ من أجل المثال الذي يقدِّمه عن الأمانة الفكريَّة والمعنويَّة والأخلاقيَّة، وختمَتْ بالقَول: "إنَّ كوپ، بإظهاره رأفةً وتعاطُفًا نحو الفقراء والمنسحقين والمحرومين، قد دمجَ بنجاحٍ وبشكلٍ مُذهلٍ حياتَه الدينيَّة والمهنيَّة معًا: كان مسيحيًّا، لكنَّه لم يكن طائفيًّا".

أثبتَ كوپ لي أنَّه بالإمكان فعلًا فصل الخطيَّة عن الخاطئ، وهو يعارضُ الأوَّلَ في حين يقبلُ الثاني. في محادَثاتنا بعد استقالَته، استمرَّ في العودة إلى أزمة الإيدز وردِّ فِعل الكثيرين المُقلق في الكنيسة. "عندما ظهرَ مثل الإيدز، بدا التزامي واضحًا. نظرتُ إلى نمط الحياة بشيءٍ من الاشمئزاز، لكنْ بصفتي مسؤولًا في مجال الصحَّة، كان عليَّ أن أنظرَ إلى مرضى الإيدز بصفتهم مَرْضى. وبناءً على المبدأ ذاته، إذا دخلَتِ امرأةٌ المستشفى وهي مُصابةٌ بنوبةِ ألَمٍ في المرارة، لا يمكنكَ أن ترفضَ تقديم المعالجة لها بناءً على عدم انضباطها في تناوُلِ الطعام. أجلسُ أنا على الفراش بجانب مرضى الإيدز الذين يشارفون على الموت. إنَّهم يذكِّرونني بالهُرَيرات (القطط الوليدة): إنَّهم ضُعَفاء ومرضى يفتَحون أفواهَهم ليَبكوا، لكن ما من صَوتٍ يخرج منها. كيف يمكنُكَ ألَّا تضعَ ذراعَيك حول ذلك النَّوع من الأشخاص وتقدِّم إليهم الدَّعم؟ بدلًا من قَول: "إنَّ الله يُعاقِبُهم. أنا أؤيِّدُ هذه العقوبة"- هذا الموقف هو ما يجعلُني غاضبًا جدًّا.

"كما ذكرتُ مرارًا، إنَّ القسمَ الأكبرَ من هذه الأمَّة يحسبُ أنَّ اللواطَ هو عملٌ خاطئ من الناحيتَين القانونيَّة والروحيَّة. وأنا أحسبَه كذلك أيضًا، لكنِّي أعرفُ أنَّ بعضَ الأشخاص الذين يُصرُّون على قيادة قَطيعهم على نحوٍ مُضلٍّ بخصوص قضيَّة الإيدز، إنَّما يفعلون هذا بسبب رُهاب المثليِّين (Homophobia). إنَّنا نحتاجُ حقًّا إلى مصطلح جديد. إنَّ مصطلحَ "رُهاب المثليِّين" ليس بتاتًا مثل رُهاب الثقافة الفرنسيَّة (Francophobia). هؤلاء الناس يجمَعون ما بين الخوف والكراهية التي لا تُصدَّق نحو المثليِّين جنسيًّا. أجريْتُ محادثاتٍ مع أشخاصٍ لو أمكنَهم لكانوا ضَغَطوا زرًّا وتخلَّصوا من المثليِّين جنسيًّا بأيَّةِ وسيلةٍ، مهما كانت".

عندما كان كوپ الجرَّاح العامّ، استمَرَّ في تسمية ممارسات المثليِّين جنسيًّا "لواطًا"، واستمرَّ في التَّحذير من مخاطرهم الصحِّيَّة. لكنْ عندما تحدَّثَ إلى اثني عشر شخصًا من المثليِّين جنسيًّا في بوسطن، هَتَفوا بحماسٍ: "كوپ! كوپ! كوپ!" إنَّ مجتمعَ المثليِّين جنسيًّا الذي كان يعارِضُ بقوَّةٍ معتقدات كوپ الخاصَّة، تعلَّم أن يثقَ به عندما كان يقولُ إنَّه الجرَّاحُ العامُّ لجميع الناس، حتَّى للَّذين يعارضُ نمطَ حياتهم. لقد ربحَهم إلى جانبه بدَعوته إلى إظهار الشَّفقة نحو المرضى من بينهم، وتشجيع المتطوِّعين لرعايَتهم. كما قال كوپ، كان ببساطةٍ يتبعُ تُراثَ المسيحيِّين في الرعاية الصحِّيَّة. إنَّه يذكِّرُ منتَقِديه بأنَّ المستَشفيات كانت مَدعومةً من الكنائس، وكذلك كانت مستشفيات المرضى الموشكين على الموت ودور الأيتام أيضًا.

يقدِّم الإنجيلُ مُثُلًا عُليا ونعمةً تشملُ الجميع. لكنَّ الكنيسةَ في كثير من الأحيان تميلُ إلى جهةٍ أو إلى أُخرى. إمَّا أنَّها تخفِّضُ المُثُلَ العُليا، وتعدِّل المعاييرَ الرُّوحيَّة نزولًا، وتلطِّفُ وصايا يسوع القويَّة وتبرِّر السلوك؛ وإمَّا أنَّها تُضيِّقُ حدودَ النعمة، وتعلنُ أنَّ بعضَ الخطايا أسوأ من الأُخرى، وأنَّ بعضَ الخطاة هم خارج حدود السلوك المقبول. كنائسُ قليلةٌ ظلَّتْ أمينةً لمُثُل الإنجيل العُليا ونعمته اللَّامحدودة. إنَّ حياةَ الدكتور سي. إيڤرت كوپ تحت الأضواء، تُظهِرُ صعوبةَ إجراء التوازن بينهما. غير أنِّي مقتَنعٌ بأنَّنا ما لم نَتَبنَّ الرسالتَين معًا، فإنَّنا سنَخون البشارة السارَّة التي أتى بها السيِّدُ المسيح إلى الأرض.

قال لي أحَدُ الرِّجال، وهو يديرُ منظَّمةً تقدِّمُ الخدمات للأشخاص المصابين بالإيدز: "لاحظتُ أنَّ المسيحيِّين يغضبون بشدَّةٍ من أولئك الذين يقترفون الخطيَّة بطريقةٍ تختلفُ عن ممارستهم هم للخطيَّة". وأنا لاحظتُ هذا الأسلوبَ أيضًا. بعدما كتبتُ في أحَدِ الكتُب عن الصداقة التي تربطُني بالمدعوِّ مَل وايت (Mel White)، الذي كان سابقًا يكتبُ لمسيحيِّين مشهورين ويعطيهم حقوقَ التأليف، وهو الآن ناشطٌ بارزٌ مثليٌّ جنسيًّا، تسلَّمتُ عددًا من الرسائل تَدينُني لاستمراري في صداقته. ألحَّ كاتبو الرسائل بالقول: "كيف يمكنُكَ أن تبقى صديقًا لشخصٍ خاطئٍ كهذا؟" فكَّرتُ كثيرًا ولمدَّةٍ طويلة في هذا السؤال، ووضعتُ أجوبةً عديدةً أعتقدُ أنَّها بحسب الإنجيل. لكنَّ أكثرَ الأجوبة اختصارًا هو عبارةٌ عن سؤالٍ آخر: "كيف يمكنُ لِوايت أن يبقى صديقًا لخاطئٍ مثلي؟" إنَّ أيَّ رجاءٍ لواحدٍ منَّا، بغضِّ النظر عن خطايانا المحدَّدة، مَوجودٌ في ثقةٍ صارمةٍ بالله الذي يحبُّ الخُطاة بطريقةٍ لا يمكنُ تفسيرُها، بِمَن فيهم أولئك الذين يخطئون بطريقةٍ تختلفُ عنَّا".

لنبدأ مع سي. إيڤرت كوپ

سرد الدكتور كوپ قصَّتَه في مذكَّراته "**كوپ**". مركِّزًا على الوقت الذي أمضاه في المنصب الرسميِّ العامّ، يدافعُ كوپ عن كلِّ قرارٍ جعلَه يصيرُ مثيرًا للجَدَل، كما يقدِّم أفكارًا غنيَّةً حول القضايا الأخلاقيَّة التي تناوَلَها. وهناك كتاب أقصرُ بكثير "**أحيانًا تنتقلُ الجبال**" *(Sometimes Mountains Move)*، يروي عذابَه الشخصيَّ الذي أحاطَ بِوَفاة ابنه. يقدِّم موقعه على شبكة الإنترنت، www.drkoop.com الكثيرَ من النصائح والمعلومات الطبِّيَّة. ولهؤلاء القرَّاء المهتَمِّين بتَقاطُع الإيمان والسياسة، أُوصي بكُتُبٍ من تأليف إتش. ريتشارد نيبور (H.Richard Niebuhr) وستيفن كارتر (Stephen Carter) وجيمس ديڤيسون هَنتر (James Davison Hunter) وريتشارد جون نيوهاوس (Richard John Neuhaus).

الفصل التاسع

جون دون

(John Donne)

بينما هو مستَلقٍ على فراشِ الموت

في نهاية ثمانينيَّات القرن الماضي، بينما كان الإيدزُ يَقضي على أعدادٍ كبيرةٍ من جماعة المثليِّين جنسيًّا؛ وكان الانتقادُ يوجَّه إلى الجرَّاح العامِّ كوپ بسبب مَوقفه العطوف نحوهم، أُصيبَ أحَدُ أصدقائي بالمرض. تعرَّفتُ إلى ديڤيد أوَّل مرَّةً من خلال الموسيقى الكلاسيكيَّة. كان عضوًا في مجلسِ إدارةِ سيمفونيَّة شيكاغو (Chicago Symphony)، ودعاني أنا وجانيت إلى عدَّة حفلاتٍ موسيقيَّةٍ وعرَّفنا إلى موسيقيِّين في الأوركسترا.

عندما بدأنا نتعرَّفُ بعضنا إلى بعض، أخبرَنا ديڤيد بشأن رحلةِ حجِّه. كان قد نشأ في بيتٍ مسيحيٍّ والتحقَ بكليَّةٍ مسيحيَّةٍ محافِظة. في الواقع، هناك أجرى اتِّصالاته الأولى بالجنسيَّة المثليَّة. وقد كشفَ لاحقًا عن أنَّه مثليٌّ جنسيًّا في مجتمع المثليِّين واختار شريكَ حياةٍ له. قال مرَّة: "لا أزال أحسبُ نفسي مسيحيًّا إنجيليًّا. أنا أومنُ بكلِّ ما جاءَ في الكتاب المقدَّس تقريبًا. لكنِّي لا أعرفُ ماذا أفعلُ بخصوص هاتَين الآيتَين أو الثلاث التي تتحدَّث بشأن الاتِّصال الجنسيِّ المثليّ. ربَّما أرتكبُ خطيَّةً في نمط حياتي، وربَّما تتحدَّثُ هذه الآيات بشأن شيءٍ آخر. لا أعرفُ كيف أفسِّر هذه الأمور. لكنِّي أُحبُّ يسوعَ، وأريدُ أن أخدمَه".

أنا أيضًا لا أعرفُ كيف أفسِّر هذا. كان ديڤيد يشهدُ عن إيمانه للآخرين ويعطي مبالغَ

كبيرةً من المال للقضايا المسيحيَّة، بما في ذلك البرامج التي تقيمُها الكنيسةُ للوصول إلى سكَّان المدينة التي تقعُ فيها الكنيسة. هو يرتادُ الآن كنيسة "مودي ميموريال" (Moody Memorial) دون أن يلفتَ الأنظار إليه كثيرًا، ويجفلُ كلَّما أدانَ القسُّ المثليَّةَ الجنسيَّة من على المنبر. غير أنَّه كان يُحبُّ الموسيقى، ومن بين جميع الكنائس التي ارتادَها، كانت كنيسة "مودي ميموريال" هي التي عكسَتْ معتقداته اللَّاهوتيَّة إلى أقرب درجة. شرحَ قائلًا: "إنَّ معظمَ المسيحيِّين المثليِّين جنسيًّا هم محافظون من الناحية اللَّاهوتيَّة. تُصيبُنا الكنيسة بإساءةٍ كبيرة، بحيثُ إنَّنا لن نكلِّفَ أنفسَنا عناءَ الذَّهاب إليها ما لم نؤمن حقًّا بأنَّها صادقة".

حاولتُ أنا وجانيت أن نكونَ أصدقاء أوفياء لديڤيد على الرُّغم من فروقاتنا. ألحقَ المرضُ ضررًا بطيئًا ورهيبًا في جسده. أمضى آخِرَ عدَّة أسابيعَ له في المستَشفى، وقد زرناه مرَّاتٍ عديدة حسب استطاعتنا. في بعض الأحيان، كنَّا نجدُه متأمِّلًا وصافي التفكير. وفي أحيانٍ أُخرى كان يهذي ويتخيَّل أنَّنا أقرباؤه أو أشخاصٌ من ماضيه. عند نهاية حياته، انتشرَتِ القروحُ الأُرجوانيَّة على جسده، وانتفخَ لسانُه، وامتلأ فمُه بفطريَّات مرض القُلاع (Thrush) فلم يستطع أن يتكلَّم.

عندما تُوفِّيَ ديڤيد أخيرًا، طلبَ منِّي شريكُه الشديد الاضطراب أن أُلقيَ كلمةً في جنازته. قال لي: "يمكنك أن تقولَ أيَّ شيءٍ تريدُه. لكنْ عندي طلبٌ واحدٌ: رجاءً لا تَعِظْ بشأن الدينونة. معظم الذين سيَحضرون لم يذهَبوا إلى الكنيسة منذ سنوات. لم يسمعوا من الكنيسة إلَّا الكلامَ بشأن الدينونة. إنَّهم يحتاجون لأنْ يسمَعوا عن إلهِ النِّعمة والرَّحمة- الإلهِ الذي كان ديڤيد يعبدُه. إنَّهم يحتاجون إلى الرجاء".

في اليومَين التاليَين، لم أُنجزْ إلَّا القليلَ من العمل. كتبتُ العديدَ من مسوَّدات ومزَّقتُها، مزَّقتُ ما كنتُ سأقوله. في اليوم السابق للجنازة، وفي لحظة إلهام مفاجئة، فتَّشتُ في رفِّ الكتب وسحبتُ كتابًا صغيرًا لم ألمسه منذ سنواتٍ عديدة: "**صلواتٌ للمناسبات الطارئة**" *(Devotions Upon Emergent Occasions)* للمؤلِّف جون دون.

كانت زوايا الكتاب مَثنيَّةً وبالية، وكان تحت بعض كلماته خطّ، كما كانت هناك ملاحظاتٌ كثيرةٌ موجودةٌ في الهامش. عندما تصفَّحتُ الكتابَ مرَّةً أُخرى، أدركتُ أنّي لن أستطيعَ أن أجدَ رسالةً أكثرَ "حداثة" ومُلاءَمةً من الرسالة المكتوبة من قِبَل شاعرٍ من عصر الملكة إليزابيث قبل أربع مئة سنة تقريبًا.

نظرتُ إلى الحضور عندما وقفتُ على المنصَّة في مساء يوم جنازة ديڤيد. كان يُمضي أوقاتًا مع جمهورٍ رفيع الثقافة يحبُّ المرحَ واللَّهو، واجتمعَ كثيرون لتَكريم حياته. بعضُ الموسيقيِّين في فرقة سيمفونيَّة شيكاغو كانوا قد غادَروا الحفلَ الموسيقيَّ المسائيَّ باكرًا وأسرعوا إلى الكنيسة ليَعزفوا موسيقى التكريم والعرفان بالجميل. راقبتُهم بينما كنَّا نرنِّمُ بعضَ الترانيم، وبدا كثيرون منهم غير مطمئنِّين لاستخدام كتاب الترانيم، وبالتَّأكيد غير مطمئنِّين للتَّرنيم نفسه. بالفعل، لم يكن جمهورُ الموجودين من روَّاد الكنيسة، لكنَّه كان جمهورًا حزينًا: بدَوا مثل طيورٍ صغيرةٍ عاجزة، متعطِّشة إلى كلماتِ العزاء والرجاء. كان معظمُهم قد فقدَ أصدقاء مقرَّبين بسبب الإيدز في السنوات القليلة الماضية. شعَروا بالذَّنب والارتباك، إضافةً إلى شعورهم بالحزن. خيَّمَ الحزنُ علينا مثل ضبابٍ في مكانٍ مقدَّس.

بدأتُ أسردُ قصَّة جون دون (١٥٧٢-١٦٣١م)، وهو رجلٌ عانى الحزنَ كثيرًا. في أثناء فترة عمله بصفته كبيرَ أساقفة كاتدرائيَّة القدِّيس بولس، وهي أكبرُ كنائس لندن، اكتسحَتِ المدينةَ ثلاثُ مَوجاتٍ من الطاعون الكبير، حيثُ قتلَ آخرُ وباءٍ أربعين ألفَ شخص. تُوفِّيَ ما مجموعُه ثلثُ سُكَّان لندن وهرب ثلثٌ آخر إلى الريف، مما حوَّل أحياءً بكاملها إلى مُدنٍ أشباح. نما العشبُ بين حصى الأرصفة. وطافَ متنبِّئون مُصابون بالجَرَب نصفَ مَهووسين في الشوارع الخالية ينادون بالدَّينونة، وفي الحقيقة أنَّ الجميعَ تقريبًا كانوا يؤمنون بأنَّ الله قد أرسلَ الطاعونَ ليُصيبَ لندن بكارثة بسبب خطاياها. في أوقات الأزمة تلك، أسرعَ الناسُ إلى جون دون طلبًا للتَّفسير، أو على الأقلّ لكلمة تَعزِية. ثُمَّ ظهرَتْ أوَّلُ بُقَع المرض على جسد جون دون نفسه.

قال له الأطبّاءُ إنّه الطاعون ولم يبقَ لديه إلّا القليلُ من الوقت. بقي مدّةَ ستّة أسابيع راقدًا على حافّة الموت. كان العلاجُ الذي وُصِفَ له كريهًا مثل المرض: الفصد (سحب الدم بالعَلَق)، كمّادات سامّة، استخدام أفاعيَ سامّةٍ وحَمامٍ لطَرْد "الأبخرة الشرّيرة". في أثناء تلك الفترة المظلمة، ألّف دون كتاب "**تأمُّلات**" *(Devotions)* مع أنّه كان ممنوعًا من القراءة أو الدراسة، لكنْ كان مسموحًا له بالكتابة. وبينما هو مستَلقٍ في فِراشه، مُقتَنِعًا بأنّه على وشك الموت، أجرى مباراةَ مُصارعةٍ دون أيّةِ قيودٍ مع الله القدير وسجّلها للأجيال التالية.

أفادني ذلك الكتاب القديم بوصفه دليلًا لا غنى عنه في التفكير في الألم. التجأ إليه طلبًا للبَصيرة، ليس عندما يموت صديقٌ ما فحسب، بل أيضًا كلّما شعرَ المرءُ بطُغيان المعاناة. إنَّ أسلوبَ جون دون لاذعٌ دون أن يكونَ مجدِّفًا، وعميقٌ دون أن يكونَ مجرَّدًا أو غير شخصيّ. لقد غيَّر إلى الأبد طريقةَ تفكيري في الموت وطريقةَ مواجهة إيماني لهذه الأزمات التي لا مفرَّ منها ومعالجة تلك الأزمات.

كيف يأتون إليك الذين سمَّرتَهم إلى الفراش؟

حيثما أبدأ، ينتهي بي المطاف عادةً بالكتابة عن الألم. اقترحَ أصدقائي أسبابًا مختلفةً لهذا الميل: أثرَ جرحٍ من الطفولة، أو ربّما جرعةً بيوكيميائيّةً زائدةً من الحزن. لا أعلم. كلُّ ما أعرفُه هو أنّي بدأتُ أكتب عن شيءٍ محبَّبٍ مثل جناح ذبابة الربيع الشفّاف، وبعد فترةٍ قصيرة، أجدُ نفسي في الظّلال أكتبُ عن حياةِ ذبابةِ الربيع القصيرة والمأساويّة.

"كيف يمكنني أن أكتب عن أيِّ شيءٍ آخر؟" هو أفضل تفسيرٍ أستطيعُ أن أعطيَه. هل هناك حقيقةٌ أساسيّة عن وجود الإنسان أكثرَ أهمّيّةً؟ وُلِدتُ في الألم، وأُخرِجْتُ بالضَّغط عبر أنسجةٍ ممزَّقةٍ ودَمَويّة، وقدَّمتُ نحيبًا وعويلًا ليكونَ أوّلَ دليلٍ على الحياة. ومن المحتمل أنّي سأموت في الألم أيضًا. بين قوسَيِ الألم، أعيشُ حياتي وأنا أعرجُ من قَوس إلى قوس. وكما عبَّر عن هذا الأمر أحَدُ معاصري جون دون، وهو جورج هربرت (George Herbert)، "بكيتُ عندما وُلِدت، وكلُّ يومٍ يبيِّنُ السبب".

لم يكن مرضُ جون دون إلّا المواجَهة الأخيرة في حياةٍ تميَّزت بالمعاناة. تُوفِّيَ والدُه عندما كان في سنِّ الرابعة، وظهرَ أنَّ إيمانَ العائلة الكاثوليكيِّ كانَ عجزًا معطِّلًا في تلك الأيَّام حيثُ سادَ الاضطهاد البروتستانتيّ. لم يستَطع الكاثوليك أن يلتحقوا بأيَّة وظيفةٍ رسميَّة، وكانت تُفرَض عليهم الغراماتُ بسبب حضورهم القدَّاس الدِّينيّ، وكثيرون عُذِّبوا بسبب معتقداتهم (إنَّ كلمة "مُضطَهَد" أو "مقموع" (Oppressed) في الإنكليزيَّة مشتقَّة من أسلوب تعذيبٍ شعبيّ آنذاك: كان الكاثوليك غير التائبين يوضَعون تحت لوحٍ خشبيٍّ تُكوَّم عليه صخورٌ ثقيلةٌ حيثُ **تعصُرُ** (Press) الحياةُ حرفيًّا وتَستخرَجُ من الشهداء). بعد تَفَوُّقِه في جامعتَي أكسفورد وكامبردج، رُفِضَ طلبُه لنَيل الشهادة بسبب انتمائه الدينيّ. تُوفِّيَ أخوه في السجن وهو يُمضي عقوبةً لأنَّه وفَّر حمايةً لكاهن.

استَجابَ دون في البداية لهذه الصعوبات بالتَّمرُّد على كلِّ أنواع المذاهب. احتفلَ الدون جوان (Don Juan) السيِّئ السُّمعة بمآثره الجنسيَّة في بعض أكثر القصائد إثارةً للشَّهوة في الأدب الإنكليزيِّ كلِّه. وأخيرًا، بينما هو ممزَّقٌ بالشُّعور بالذَّنْب، تخلَّى عن طرقه اللّاأخلاقيَّة في سبيل الزَّواج. لقد وقعَ تحت سِحرِ فتاةٍ جميلةٍ في السابعة عشرة من عمرها نابضة بالحياة ومُشرقة، فذكَّرته بضَوء الشَّمس.

في مفارَقةٍ مريرة، عندما قرَّر دون أن يستقرَّ، اتَّخذَتْ حياتُه منحًى مُفجِعًا. قرَّرَ والد آن مور (Ann More) أن يُعاقبَ صِهْرَه لأنَّه اعتقد أنَّه صهرٌ غيرُ مناسب. عمل على طَرْد دون من وظيفته بوصفه أمينَ سرٍّ لرجلٍ نبيل، كما عمل على إلقائه في السجن بمشاركة الكاهن الذي قامَ بالمراسم. وبينما كان حزينًا ومفطورَ القلب، كتبَ دون قصيدتَه الأقوى والأكثر بلاغةً: "جون دون، آن دون، غير مرتبطان" (John Donne, Ann Donne, Undone).

عندما خرجَ دون من السجن صار شخصًا منبوذًا وقتها، ولم يستَطع أن يجِدَ وظيفةً أُخرى. لقد فَقَدَ كلَّ فرصةٍ لتَحقيق طموحه للعمل في بلاط الملك جيمس (King James). عاش هو وزَوجتُه في الفَقْر لعَقدٍ من الزمن تقريبًا في منزلٍ ضيِّقٍ امتلأ بذرِّيَّتهما بمعدَّل طفلٍ واحدٍ كلَّ عام. كانت آن عُرضةً لاكتئابٍ دَوريّ، وأكثر من مرَّةٍ

شارفَتْ على الموت عند وقت الولادة. كان جون، على الأرجح بسبب سوء التغذية، يعاني صداعًا حادًّا، وانقباضاتٍ مِعَويَّةً، إضافةً إلى داء النُّقرس. كانت أطولَ مؤلَّفاتِه خلال هذه الفترة مقالةٌ طويلةٌ حول مزايا الانتحار.

في وقتٍ ما من ذلك العقد الكئيب، انضمَّ جون إلى كنيسة إنكلترا. لم ينجَحْ في الحصول على وظيفةٍ في أيِّ مجال، فقرَّر في سنِّ الثانية والأربعين أن يسعى ليُرسَمَ بوصفه كاهنًا أنغليكانيًّا. نشرَ مُعاصِروه إشاعاتٍ بشأن "تحوُّله لملائمة أوضاعه"، وسخروا منه لأنَّه "كان يريدُ حقًّا أن يكونَ سفيرًا إلى مدينة البندقيَّة وليس سفيرًا لله". لكن دون حسبَ ذلك دعوةً حقيقيَّة. حصلَ على شهادة الدكتوراه في اللَّاهوت من جامعة كامبردج، ووَعد أن يضع نَظْمَ الشعر جانبًا من أجل الكهنوت، وكرَّس نفسه حصرًا للعمل الرعويّ.

بعد مُضِيِّ عامٍ على تسلُّم دون كنيستَه الأولى، تُوفِّيَت آن وقد أنجبَتْ له اثنَي عشر طفلًا، تُوفِّيَ خمسةٌ منهم في مرحلة الطفولة المبكِّرة. ألقى جون العِظَةَ في جَنازةِ زَوجته واختارَ كلماتِ نصٍّ مثيرةً للعاطفة تمثِّل سيرتَه الشخصيَّة من سفر مراثي إرميا: "أنا هو الرجل الذي رأى مذلَّةً". وقطعَ عَهْدًا ألَّا يتزوَّجَ ثانيةً لئلَّا تزيدَ زوجةُ الأب من حزن أولاده، ممَّا كان يعني، أنَّ عليه أن يتحمَّلَ واجباتٍ منزليَّةً كثيرة، وأنَّ عليه أن يستخدمَ أموالًا كثيرةً جُمِعَتْ من المساعدة الخارجيَّة.

هذا هو الكاهنُ الذي عُيِّن في كاتدرائية القديس بولس في عام ١٦٢١م: حزينٌ وكئيبٌ طوال حياته، مُعذَّبٌ بالذَّنب من جرَّاء خطايا ماضيه، فاشلٌ في جميع طموحاته (ما عدا الشِّعر الذي قطعَ عهدًا ألَّا يعودَ إليه)، مُشوَّه السمعة بسبب الاتِّهامات بالخيانة. بالكاد كان يبدو مُرشَّحًا محتَملًا لرَفْع مَعنَويات الأمَّة في أزمنة الوباء. مع ذلك، انهمَكَ دون في عمله الجديد بنشاطٍ وحماس. رفضَ أن ينضمَّ إلى الكثيرين الذين كانوا ينزحون عن لندن، وبدلًا من هذا، بقيَ مع رعيَّة أبرشيَّته المحاصَرين. كان ينهضُ كلَّ يومٍ في الساعة الرابعة صباحًا ويدرسُ حتَّى العاشرة. في حقبة الكتاب المقدَّس طبعة الملك جيمس وحقبة وليم شكسبير (William Shakespeare)، كان المثقَّفون في لندن

يكرِّمون البَلاغةَ وفنَّ الخطابة، وفي هاتين لم يكن لجون دون نظير. كان يُلقي عظاتٍ هي من القوَّة بحيث كانت الكاتدرائيَّةُ الواسعةُ تزدَحمُ بسرعةٍ بالمتعبِّدين على الرُّغم من تَضاؤل عددِ سكَّان لندن. ثمَّ حلَّ به المرضُ وصَدَرَ حُكْمُ الموت.

يعلنُ بعضُ الكُتَّاب أنَّه حينما يعرفُ المرءُ أنَّ الموتَ وشيكٌ، فإنَّ حالةً من تزايُد التركيز تتولَّدُ لديه، مثل نَوبة الصَّرع إلى حدٍّ ما؛ ربَّما كان دون يشعرُ بهذا بينما كان يكتبُ يوميَّات مَرَضه. كانت كتاباته تفتقرُ إلى سَيطرته الوثيقة المعهودة. كانت الجُمَلُ الكثيفة، التي يرتبط بعضها ببعض بعلاقةٍ حرَّةٍ ملآنة بالمفاهيم، تعكسُ حالةَ عقله المحمومة. كان يكتبُ وكأنَّ عليه أن يصبَّ في الكلمات كلَّ فكرٍ وعاطفةٍ مهمَّةٍ خطرَتْ له.

يبدأ الكتابُ بهذه الكلمات: "حالةُ الإنسان المتغيِّرة ومن ثَمَّ البائسة! كنتُ في حالٍ جيِّدة في هذه اللحظة، وأنا مريضٌ في هذه اللحظة". إنَّ أيَّ شخصٍ مُجبَرٌ على البقاء في الفراش لأكثر من بضعة أيَّامٍ يمكنُه أن يتفهَّمَ الأحوالَ العاديَّة لكنِ القاهِرة التي يتابعُ دون وصفها: ليلةٌ دون نوم، ضَجَر، الأطبَّاءُ يَتَشاوَرون همسًا، أملٌ زائف بتَراجُع أعراضِ المرض يتبعُه الواقع المخيف للانتكاس.

تتغيَّرُ أجواءُ الكتابة بسرعةٍ وحِدَّة عندما تزدادُ شدَّة المرض. يبدأ هناك الخوفُ والشعورُ بالذَّنب وحُزنُ القلب المحطَّم- كلُّ واحدٍ من هذا بِدَوره يطردُ السلامَ الداخليَّ بعيدًا. يشعرُ دون بالقَلق من ماضيه: هل "سمَّره الله على الفراش" ليكونَ عقابًا ساخرًا على خطاياه الجنسيَّة السابقة؟ إنَّه يحاولُ في صلواته أن يحشدَ الحمدَ والشكرَ على قَدْرِ استطاعته، أو على الأقلِّ العرفان، لكنْ غالبًا ما كان يفشل. فمثلًا، يبدأ أحَدُ التأمُّلات بشجاعةٍ في حين يستَحوذُ عليه الفكرُ الملآن بالرَّجاء بأنَّ الله أعطانا في النوم وسيلةً لنَعتادَ فكرةَ الموت. نفقدُ الوَعي، لكنَّنا ننهضُ ثانيةً في الصباح التالي منتَعِشين وفي حالةٍ جيِّدة: أليست هذه صورةَ ما سيَحدُثُ لنا بعد الموت؟ ثُمَّ يدركُ جافلًا بأنَّ المرض قد أخذَ منه حتَّى رمزَ الرَّجاء هذا: "لا أنام في النهار ولا في الليل... لماذا لا تتوزَّعُ بعضُ أثقال قلبي إلى جفون عينَيَّ؟" لم يترك له الأرقُ أيَّة فرصةٍ يستريحُ

فيها من القلق بشأن الموت، ولا استراحة لتُجدِّدَه في مواجَهة ذلك القلق.

يُصوِّرُ دون نفسَه كبحَّارٍ تتقاذَفُه الأمواجُ العميقةُ المرتفعةُ في عاصفة المحيط. إنَّه يلمَحُ بنظرةٍ خاطفةٍ على نحوٍ عَرَضيٍّ الأرضَ البعيدة، لكنْ سرعان ما تختفي من أمام ناظريه عند مجيء الموجة العملاقة التالية. وصفَ كُتَّابٌ آخرون تَقَلُّباتِ المرض بقوَّةٍ مشابهة. إنَّ ما يميِّز عمل دون هو الجمهورُ الذي يستَهدفه: الله بذاته. اتِّباعًا لتقليد أيُّوب وإرميا وناظمي المزامير، يستخدمُ دون ميدانَ تجاربه الشخصيَّة لتكونَ نقطةَ انطلاقٍ لمباراة مصارعته العظيمة مع الله القدير. بعدما أمضى حياتَه كلَّها في تجوالٍ حائر، وصلَ إلى مرحلةٍ يستطيعُ فيها تقديمَ خدمةٍ إلى الله، والآن في تلك اللحظة المحدَّدة أُصيب بمرضٍ قاتل. لا يظهَرُ أيُّ شيءٍ في الأفق إلَّا الحُمَّى والألم والموت. كيف يفسِّرُ هذا؟

في كتاب "**تأمُّلات**" يؤنِّب دون الله بالقول: "ليس لي برُّ أيُّوب، لكنْ عندي رغبةُ أيُّوب. أودُّ أن أتحدَّثَ مع القدير وأجادلَ الله". في بعض الأحيان يسخرُ من الله، وأحيانًا يتذلَّلُ ويلتمسُ الغفران، وفي أحيانٍ أُخرى يجادل الله بشَراسة. لكن على الرُّغم من ذلك، لا يتركُ دون- ولا مرَّة واحدة- الله خارجَ العمليَّة. يلوحُ مديرُ المسرح غيرُ المنظور في الأفق مثل الظِّلِّ من وراء كلِّ فكرةٍ وكلِّ جملة.

"أعطني يا ربُّ خَوفًا لا أخافُ منه".

لقد تحدَّثتُ مع أشخاصٍ كثيرين اتَّصفَتْ حياتُهم بالمعاناة. في كلِّ حالةٍ من الحالات، يَصِفون لي أزَمةَ خَوفٍ، أزَمةَ معنى، وأزَمةَ مَوت. إنَّ السببَ الرئيسيَّ الذي من أجله أعودُ باستمرار إلى كتاب دون، كما حدثَ معي في ليلة جنازة ديڤيد، هو أنَّ الكتابَ يسردُ كلَّ أزمةٍ بالتَّفصيل، ويستمرُّ في تقديم أفكارٍ ثاقبةٍ جديدةٍ لهذه المواجَهات الأساسيَّة مع سرِّ المعاناة.

حتَّى لو كنتُ زائرًا، أشعرُ بالخوف في كلِّ مرَّةٍ أفتحُ فيها الأبواب وأستَنشقُ رائحةَ المعقَّم المألوفة في المستشفى. أخبرَني صديقي ديڤيد بما يشعرُ به الإنسانُ وهو مستَلقٍ في غرفةٍ خاصَّة طوال اليوم من دون أن يركِّزَ على أيِّ شيءٍ باستثناء البؤس. استعرضَ

كلَّ ما كان سيَفتقدُه عندما يموت، وكلَّ ما كان قد فقدَه وهو حيّ. في الخارج في البَهو، كان يسمَعُ الممرِّضات والأطبَّاء وهم يناقشون حالتَه بأصواتٍ خافتة. كانوا يغرزون الإبرَ فيه وينخسونه كلَّ يوم، ويُجرون اختباراتٍ على جسده كان بالكاد يفهَمُها.

وصف جون دون بطريقةٍ مشابهةٍ الإحساسَ بالانفصال الذي ينتابُ المريضَ عندما يحومُ الأطبَّاء فَوقَه. عندما كان يشعرُ بأنَّ الطبيبَ خائف، كانت مخاوفُه تطفو إلى السطح: "كنتُ أسبقُه وأتجاوَزُه في خَوفه". كان يشعرُ بأنَّه شيءٌ ماديٌّ حينما كان مريضًا، مثل خريطة منشورة فوق طاولةٍ يستغرقُ عالمٌ في دراستها بدقَّة. تخيَّلَ نفسَه منفصلًا عن جسده وهو يطوفُ فوقَه، ومن ذلك الموقع كان بإمكانه أن يراقبَ ذلك الشكلَ المتفكِّكَ المستَلقيَ على الفراش. وعندما كان المرضُ يشتَدّ، كان يرى نفسَه كأنَّه تمثالٌ من الفَخَّار تذوب أطرافه وجسده كلُّه ليصيرَ حفنةً من الرمال. قريبًا لن يبقى أيُّ شيءٍ، سوى كومةٍ من العِظام.

كان دون يحاربُ هذه المخاوفَ وحدَه معظمَ الوقت؛ لأنَّ الأطبَّاء في تلك الأيَّام كانوا يعزلون المرضى الذين يعانون أمراضًا مُعدِيةً ويُلصِقون ملاحظاتِ تحذيرٍ على أبوابهم. كان بعضُ الأشخاص في العصر الحديث يَدعون إلى تقديم العلاج نفسه إلى مرضى الإيدز مثل ديڤيد. كان دون يتساءلُ وهو يقبعُ في الداخل عمَّا إذا كان الله أيضًا يشاركُ في الحجر الصحِّيّ. كان يبكي ويصرخ، لكنَّه لم يحصُلْ على جواب. أين كان حضورُ الله الذي وَعَد به؟ وأين تعزِيَتُه؟ في كلِّ تأمُّلٍ من التأمُّلات الثلاثة والعشرين، يعودُ دون إلى القضيَّة الرئيسة التي كانت سببَ معاناته. لم يكن خَوفُه الحقيقيُّ من صَخَبِ خلايا الألم في كلِّ أنحاء جسده، لقد كان يخافُ الله.

طرحَ دون السؤالَ الذي يطرحُه كلُّ مَن يعاني: "لماذا أنا؟" كانت العقيدةُ الكالڤينيَّة (Calvinism) بتَركيزها على هَيمنة الله المطلَقة لا تزالُ جديدةً في ذلك الوقت، وحسبَ دون فكرةَ الأوبئة والحروب وكأنَّها "ملائكة الله". لكنَّه سرعان ما تراجَعَ قائلًا: "بكلِّ تأكيدٍ، لستَ أنت، ليسَتْ يدك. السيفُ الملتَهم، النارُ الآكلة، الرِّياحُ الآتية من

البرِّيَّة، أمراض الجسد، كلُّ ما ابتُليَ به أيُّوب- هذه كلُّها لم تكنْ من يدك، بل من يدِ إبليس". لكنَّه لم يكن متيقِّنًا، وعدم معرفته سبَّبتْ له عذابًا داخليًّا كبيرًا. كان الشعورُ بالذَّنب من ماضيه الملطَّخ يتربَّصُ قريبًا منه وكأنَّه شيطانٌ ينظرُ إليه بخُبث. ربَّما كان يعاني بالفعل نتيجةَ الخطيَّة. وإذا كان الأمرُ كذلك، أكان من الأفضل أن يُصاب بالأذى من قِبَل الله أم أنَّ الله لا يتعامَلُ معه بتاتًا؟ كيف يمكنُه أن يَعبدَ إلهًا كهذا، ناهيك بأن يُحبَّه؟

اقتبسْتُ بعضَ هذه الفِقرات في جنازة ديڤيد لأنَّ مرضى الإيدز في ذلك الوقت كانوا يسمَعون سَيلًا ثابتًا عن الدَّينونة من الكنيسة. مثلي مثلُ دون، أجِدُ تعزيةً في حقيقة أنَّ يسوعَ لم يواجِهْ ولا مرَّة واحدة شخصًا يعاني واتَّهمَه قائلًا: "أنت تستحقُّ هذا". لقد قدَّم يسوعُ بدلًا من هذا الغفرانَ والشفاء.

لا يُجيب كتابُ دون بتاتًا عن الأسئلة المتعلِّقة بسؤاله "لماذا أنا؟"، وبعد سنواتٍ من التحقيق في قضيَّة الألم، أنا مقتنعٌ بأنْ لا أحَدَ منَّا يستطيعُ أن يجيبَ عن هذه الأسئلة. لا يُعطي الكتابُ المقدَّسُ بالتَّأكيد جوابًا واضحًا. لقد درستُ بتَمعُّنٍ كلَّ فِقرةٍ حول المعاناة والألم، وحتَّى في الجزء الختاميِّ لخطاب الله إلى أيُّوب، في لحظةٍ كانت تتطلَّبُ جوابًا كهذا، امتَنَعَ الله عن إعطاء جواب. ناقَضَ يسوع نظريَّات الفَرِّيسيِّين المُحكَمَة التي تقولُ إنَّ الأذى يَلحَقُ بالذين يستَحقُّونه، لكنَّه تجنَّبَ الإجابةَ مباشرةً عن السؤال الذي يتعلَّق بالسبب. إنَّ الإجابةَ عن أسئلة "لماذا؟" ليست في مُتَناوَلِ البشريَّة- ألم تكن هذه رسالةَ الله الرئيسةَ لأيُّوب؟

على الرُّغم من أنَّ كتابَ "**تأمُّلات**" لا يُجيبُ عن الأسئلة الفلسفيَّة، فإنَّه يسجِّلُ قرارَ دون العاطفيَّ بالانتقال التدريجيِّ نحو السلام. في البداية- مقيَّدًا بالفراش، يتلو صلواتٍ دون إجاباتٍ لها، يفكِّر في الموت، يستعيدُ الشُّعور بالذَّنْب- لا يجدُ أيَّ تحرُّرٍ من الخوف. وبينما تنتابُه الهواجس، استعرضَ كلَّ تكرارٍ لكلمةِ خوفٍ في الكتاب المقدَّس. وبينما هو يقومُ بذلك، خطرَ له فجأةً أنَّ الحياةَ تتضمَّن دائمًا أحوالًا تُثيرُ الخَوف: إنْ لم يكن المرض فستَكونُ الضائقةُ الماليَّة، وإنْ لم يكن الفَقْر فسيَكونُ

الرَّفض، وإنْ لم تكن الوحدة، فسيَكون الفشل. في هذا العالم، لدى دون خِيار: أن يخافَ الله أو يخافَ كلَّ شيءٍ آخر.

وفي فِقرةٍ تُذَكِّرُ بصلاة بولس ذات الطلبات المتكرِّرة في رومية ٨ ("فإني متيقِّنٌ أنَّه لا موت ولا حياة... تقدر أن تفصلنا عن محبَّة الله...") يفحصُ دون مخاوِفه المحتَمَلة. لا يشكِّلُ الأعداءُ الشخصيُّون أيَّ تهديدٍ جوهريّ؛ لأنَّ الله قادرٌ على التغلُّب على أيِّ عدوٍّ. المجاعة؟ كلَّا؛ لأنَّ الله قادر على تزويده بما يحتاجُ إليه. الموت؟ حتَّى هذا، أسوأ مخاوف الإنسان، لا يشكِّل حاجزًا أمام محبَّة الله. ختمَ دون بقوله إنَّ أفضلَ طريقٍ هو زَرْعُ خَوفٍ صحيح من الرَّبّ- الخوف الذي يمكنُه أن يحلَّ مكانَ المخاوف الأُخرى: "كما أنَّك أعطَيتَني تَوبةً لا أتوبُ عنها، أعطني يا ربُّ خَوفًا لا أخاف منه". تعلَّمتُ من دون أنَّه عند مواجَهة الشكوك، عليَّ أن أراجعَ بدائلي. إذا رفضتُ لأيِّ سببٍ كان أن أثقَ بالله، فبماذا إذًا أستَطيعُ أن أثِقَ؟

في جداله مع الله، بدَّل دون الأسئلة. بدأ بالسؤال المتعلِّق بالسبب- "مَن سبَّبَ هذا الألم، هذا الوباء؟ ولماذا؟"- ولم يَجِدْ جَوابًا عنه. بدأت التأمُّلاتُ تنتقلُ بالتَّدريج نحو السؤال المتعلِّق بالاستجابة، القضيَّة المحدَّدة التي تواجِهُ كلَّ شخصٍ يعاني. هل سأثقُ بالله بشأن أزمتي والخوف الذي تُثيرُه؟ أو هل أبتَعدُ عن الله بمرارةٍ وغضب؟ قرَّر دون أنَّه ليس مهمًّا في هذا السياق الأهمّ، إنْ كان مرضُه تأديبًا أو حَدَثًا طبيعيًّا. في كلتا الحالتَين، سيَثِقُ بالله؛ حيث إنَّ الثِّقةَ في النهاية تمثِّلُ خَوفَ الله الصحيح.

شبَّه دون العمليَّة بموقفه المتغيِّر تُجاه الأطبَّاء. في البداية، عندما كانوا يتفحَّصون جسدَه لرؤية أعراضٍ جديدة ويناقشون نتائجَهم بأصواتٍ خافتةٍ خارج غرفته، لم يستَطع إلَّا أن يخاف. لكنْ بمرور الوقت، عندما شعرَ باهتمامهم الذي يتَّصفُ بالرَّأفة، اقتنعَ بأنَّهم يستَحقُّون ثقته. النَّموذج ذاته ينطبقُ على الله. في كثيرٍ من الأحيان، لا نفهمُ طُرُقَ الله أو الأسبابَ الكامنةَ وراءَها. لكنَّ السؤالَ الأهمَّ هو ما إذا كان الله "طبيبًا" جديرًا بالثقة أم لا. وقد استنتجَ دون بأنَّه جديرٌ بالثِّقة.

إنَّ كثيرًا من الناس، مثل الذين خاطَبْتُهم في جنازة ديڤيد، لا يتصوَّرون أنَّ الله جديرٌ بالثِّقة. لا يسمَعون إلَّا عن الدينونة من الكنيسة. ولهذا السبب، باتِّباع أسلوب دون، وللحصول على منظورٍ صحيح، التفَتُّ إلى السبب الرئيسيِّ للثِّقة بالله: ابنِه يسوع. كيف يشعرُ الله تُجاهَ الذين يموتون، حتَّى نتيجةً لآثامهم؟ هل يعبس الله؟ كما حذَّر أنبياء الشارع في زمن دون، وكما يُصرُّ البعضُ في يومنا هذا؟ هل يهتمُّ الله حتَّى بمشاعر الخسارة والغضب والخوف التي نشعر بها؟ يجب ألَّا نتساءلَ كيف يشعرُ الله لأنَّه في يسوع كشفَ لنا عن وجهه.

لكي نعرفَ كيف ينظرُ الله إلى المعاناة على هذا الكوكب، علينا فقط أن ننظرَ إلى وجه يسوع وهو يتنقَّل بين المفلوجين والأرامل والمصابين بالجذام. وعلى النَّقيض من آخرين في زمانه، أبدى يسوع رِقَّةً غيرَ عاديَّة نحو أولئك الذين يملكون تاريخًا من الخطايا الجنسيَّة- شاهدوا أسلوبَه الذي اتَّبعَه مع المرأة السامريَّة عند البئر، والمرأة ذات السمعة السيِّئة التي غسلَتْ قدمَيه بشعرها، والمرأة التي قُبِض عليها بفعل الزِّنا. قال دون إنَّ لدينا في يسوع **طبيبًا عظيمًا** "يعلَمُ أسقامَنا الطبيعيَّة لأنَّها أصابته، ويعلَمُ ثقلَ خطايانا لأنَّه دفعَ ثمنًا باهظًا في مقابلها".

كيف يمكنُنا أن نقتربَ من إلهٍ نخافُ منه؟ وفي إجابته عن ذلك، يقدِّمُ دون عبارةً من إنجيل متَّى من قصَّة النساء اللواتي وجدْنَ القبرَ الفارغ بعد قيامة يسوع. لقد هرعنَ بعيدًا عن المشهد "بخوفٍ وفرحٍ عظيم" ورأى دون في "أرجلهنَّ الخوفَ والفرح" نموذجًا لنفسه. لقد رأتْ أولئك النساء بأعينهنَّ المسافةَ الشاسعةَ ما بين الله الخالد والإنسان المعرَّض للموت، لكنْ فجأةً غدَتْ مسافةً تبعَثُ على الفرح. لقد استخدمَ الله قوَّته العظيمةَ ليَغلبَ آخر عدوٍّ: الموت. لهذا السبب، شعرَتِ النساءُ بالخوف والفرح العظيم معًا. ولهذا السبب، وجدَ جون دون أخيرًا خوفًا لا يخافُ منه.

"اجْعَل هذا... الانكسار وضعفَ القلب، دواءً يبعَثُ على الراحة".

عبَّر ڤيكتور فرانكل (Viktor Frankl)، وهو أحَدَ الناجين من معسكر الاعتقال النَّازيِّ،

بشكلٍ جيِّد عن الأزمة الثانية التي تواجهُ الذين يعانون: أزمة المعنى. قال: "اليأسُ هو المعاناة دون معنى". لقد لاحظَ أنَّ زملاءَه المساجين يمكنُهم أن يتحمَّلوا معاناةً شديدةً إنْ كان لديهم فقط بعضُ الأمل في قيمتها التَّعويضيَّة. في مجتمع مختلفٍ مثل مجتمعنا المشبَع بالرَّاحة والرَّفاهية، أيُّ معنًى مُحتَمَل يمكن أن نعطي للمتَطفِّل الكبير، وأعني به الألم؟

ما معنى وجودُ مرضٍ كالإيدز؟ بحثتُ أنا وديڤيد تلك المسألةَ بالذَّات. في ذلك الوقت، كان نقاشٌ عامٌّ يستَعرُ بصوتٍ عالٍ؛ حيثُ أبعدَتْ كنيستُه الأطفالَ المصابين بالإيدز من مدرسة الأحَد. اعترفَ ديڤيد صراحةً بمرضه الذي يعود إلى الاختيارات السلوكيَّة التي مارَسَها، وتاب عنها، لكنْ ماذا نقولُ بشأن الأطفال المولودين وهم مصابون بالإيدز؟ ماذا بشأن أولئك المصابين بمرض الناعور الذين أُصيبوا بڤيروسه في أثناء عمليَّة نَقْلِ الدَّم؟ ما الخِيار الذي كان لديهم؟

في زمن جون دون، بدا أنَّ غضبَ الله المنصهرَ كان ينهمرُ على الكوكب كلِّه. كان جُرمان سماويَّان لامعان يَظهران في السماء كلَّ ليلة- وبعضُهم قال إنَّ هذه علاماتٌ أكيدةٌ على يدِ الله التي سبَّبت الوباء. طافَ الأنبياءُ في الشوارع، أحَدُهم يردِّد صراخَ يونان، "بعد أربعين يومًا ستُدَمَّر لندن!" لدينا نسختُنا الحديثةُ من هؤلاء الأنبياء المسارعين إلى تفسير الأوبئة والكوارث بوصفها علاماتٍ محدَّدةً لدينونة الله. يجب أن يعلِّمَنا الماضي الحذر: ناقشَ اللَّاهوتيُّون في أوروبا مدَّةَ أربعة قرونٍ رسالةَ الله بشأن الوباء العظيم، لكنْ في النهاية أسكتَتْ كمِّيَّةٌ قليلةٌ من سمِّ جُرذٍ تكهُّناتِهم كلَّها.

وماذا تعني الشَّيخوخة المبكِّرة لدى الأطفال، الحالة غير الطبيعيَّة المأساويَّة التي تسرِّعُ عمليَّة تقدُّم العمر وتجعَلُ طفلًا في السادسة من العمر يبدو كأنَّ عمرَه ثمانين عامًا، كما أنَّه يشعرُ بذلك؟ أو ما معنى الشَّلل الدماغيِّ أو تليُّف البنكرياس الحُوَيصِليّ؟ ما معنى الزلزال الذي يضربُ الهند، أو الموجة المدِّية غير الطبيعيَّة التي تقتلُ مئة ألف شخصٍ في بنغلادش؟ هل يحجبُ الله الأمطار عن أفريقيا لتكونَ علامةً على عدم رضاه؟

لا يرى معظمُنا إلّا المعنى السلبيَّ للمعاناة، مثل تدنّي الصحّة، أو مثل فَرامل غير مرحَّبٍ بها توقفُ سَعيَنا نحو الحياة والحرّيّة والسعادة. إنَّ أيَّ متجرٍ للبطاقات ينقل تلك الرسالة بطريقةٍ لا تدَعُ مجالًا للشّكّ. بالنِّسبة إلى الذين يعانون، لا يمكننا إلّا أن نتمنّى لهم "الشفاء العاجل". كما قالت لي امرأةٌ مُصابةٌ بسرطانٍ في مراحله الأخيرة: "لا تنطبقُ أيّة بطاقة من هذه البطاقات على الأشخاص في مستَشفاي للمُشرفين على الموت. لن تتحسَّنَ حالةُ أيٍّ منّا. قريبًا سنموت جميعًا. بالنِّسبة إلى بقيَّة العالم، يجعَلُنا هذا الوضع عاجزين. فكِّر في هذه الكلمة: انتهت صلاحِيَّته".

ما معنى سرطان مُميت؟

عندما كان جون دون يظنُّ أنَّه مريضٌ مُشرفٌ على الموت، طرحَ أسئلةً كهذه، وأشارَ كتابُه إلى احتمال وُجود جواب. جاءته القرائنُ الأولى من خلال نافذةٍ مفتوحةٍ في غرفةِ نَومه عندما سمعَ أجراسَ الكنيسة تقرعُ إعلانًا حزينًا بالموت. تساءلَ دون للَحظةٍ ما إذا كان أصدقاؤه الذين عندما عرفوا أنَّ حالتَه أكثرُ خطورةً ممّا كُشِف عنه، هم مَن أمروا بقَرْعها بمناسبة مَوته هو. لكنَّه سرعانَ ما أدركَ أنَّ الأجراسَ كانت تعلنُ مَوتَ شخصٍ آخر، ضحيَّةٍ أُخرى للوَباء.

بعد وقتٍ قصير، تدفَّقَتْ أصواتٌ من مراسم الجنازة ما بين أصوات الشارع. أخرجَ دون صوتًا أجشَّ مُصاحِبًا بشكلٍ ضعيفٍ ترنيمَ الحاضرين للمزامير في الكنيسة، وبعد ذلك كتبَ التأمُّلَ السابعَ عشرَ حول معنى أجراس الكنيسة- الجزء الأكثر شهرةً من كتابه "**تأمُّلات**"، وأحَدُ المقاطع الأكثر شهرةً في الأدب الإنكليزيّ "لا يمكنُ للمرء أن يحيا منفردًا معزولًا..." (No man is an island). بلغةٍ فَخمةٍ وأسلوبٍ خلّاب، يُعرِّفُ ذلك التأمُّلُ الخسارةَ التي نشعرُ بها عند أيِّ موتٍ كان: "إذا جَرفَ البحرُ كتلةَ تراب، فإنَّ أوروبا تقلّ... إنَّ مَوتَ أيِّ إنسانٍ يُضعِفُني لأنّي جزءٌ من البشريَّة، ولذلك لا ترسلْ خَبرًا لتَعرفَ لِمَن تُقرَعُ الأجراس، إنَّها تُقرَعُ لك". إنَّنا نحزنُ عند وفاةِ شخصٍ آخر لأنَّنا نحن أنفسنا نتضاءَل. في الحدث نفسه، نشعرُ بوحدةٍ

عميقةٍ مع الآخرين، وأيضًا بما تُسبِّبه من الألم والحزن.

للمعاناة قدرةٌ فريدةٌ على اختراق الدِّفاعات والأمور الروتينيَّة اليوميَّة، وهي قادرةٌ أيضًا على تذكيرنا بأنَّنا معرَّضون للمَوت. رافقْتُ صديقًا لي فترةً من الوقت إلى مقرِّ مجموعةِ دَعْم المصابين بأمراضٍ تهدِّدُ الحياة، وكانت تجتمعُ كلَّ شَهرٍ في غرفةِ الانتظار في المستَشفى. لا أستَطيعُ أن أقولَ إنِّي "تمتَّعتُ" بهذه الاجتماعات، لكنْ في كلِّ شهر، بينما أسيرُ إلى البيت، كنتُ أشعرُ بأنَّ تلك الأمسيَّةَ كانت إحدى أكثر الأمسيَّات الهادفة التي أمضَيتُها. كنَّا نتركُ الأمورَ التافهةَ ونعالج القضايا الأكثر إلحاحًا بالنِّسبة إلى كلِّ شخصٍ في الغرفة- الموت والحياة- وكيف نُمضي الوقت المتبقِّي بأفضل طريقة.

كما قال دون: "أحتاجُ إلى رعدك يا إلهي؛ موسيقاك لن تنفعَك". كان قَرعُ الجرس بالنِّسبة إليه صَدًى يسبقُ موتَه. بالنِّسبة إلى الرجل الميْت، كان ذلك مرحلةً ما، نهايةَ حياة؛ بالنِّسبة إلى دون المتمسِّك بالحياة، كان الموتُ علامةَ استِفْهام. هل كان مستَعدًّا لمقابلة الله؟

عندما سألَ الناسُ يسوعَ عن مأساةٍ مُعاصِرة، أجابَ بالطريقة التالية:

> "أتظنُّون أنَّ هؤلاء الجليليِّين كانوا خُطاةً أكثر من كلِّ الجليليِّين لأنَّهم كابدوا مثل هذا؟ كلَّا أقول لكم. بل إنْ لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون. أو أولئك الثمانية عشر الذين سقطَ عليهم البرج في سلوام وقَتَلهم. أتظنُّون أنَّ هؤلاء كانوا مُذنِبين أكثرَ من جميع الناس الساكنين في أورشليم؟ كلَّا أقول لكم. بل إنْ لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون".
>
> (لوقا ١٣: ٢-٥)

ثُمَّ أتبَعَ يسوع تلك الملاحظات بمثَلٍ عن رحمة الله المقيِّدة. يبدو أنَّه يعني ضِمنًا أنَّنا نحن الموجودين في أثناء الكارثة، لدينا ما نتعلَّمُه من هذه الحادثة بقَدْر ما للضَّحايا. ما الذي ينبغي لوَباءٍ أو لكارثةٍ مُعاصِرةٍ أن يُعلِّماني؟ التواضع، بصفته الدرسَ الأوَّل،

والشكر والعرفان للحياة التي لا أزالَ أتمتَّع بها، والرأفة- الرأفة التي أظهرَها يسوعُ نحو كلِّ الحزانى والمتألِّمين. أخيرًا، النَّكبة تجمَعُ الضَّحيَّة والموجود خلالها في دعوةٍ مشترَكةٍ للتَّوبة، حيث إنَّها تُذكِّرُنا فجأةً بقِصَر الحياة.

إنَّ قَرْعَ ذلك الجرس أحدَثَ تغييرًا غريبًا في تفكير دون. كان حتَّى ذلك الوقت يتساءلُ عن معنى المرض والدروس التي عليه أن يتعلَّمَها منه. لكنَّه الآن بدأ يفكِّرُ ويتأمَّلُ في معنى الصحَّة. طرحَ قَرْعُ الجرس مسألةَ كيفيَّةِ تمضِيَةِ حياته كلِّها. هل كان يبجِّلُ عَطيَّةَ الصحَّة عبر خدمة الآخرين والله؟ هل كان ينظرُ إلى الحياة بوصفها استعدادًا، أو موقع تدريبٍ لحياةٍ آتيةٍ أهمَّ هي أطول بكثير- أم بوصفها نهايةً في حدِّ ذاتها؟

عندما بدأ دون يُعيدُ النَّظرَ في حياته، بدأتِ المفاجآتُ تَظهَرُ للنُّور. قال دون لجمهور الحاضرين في جنازة زَوجته: "أنا هو الرجل الذي رأى المِحَنَ والمصائب". لكنْ بدا واضحًا الآن أنَّ أوقات البلاء والكرب تلك، أي الأحوالَ التي أستاءَ منها في ذلك الوقت، تبيَّن أنَّها مُناسَباتُ النموِّ الروحيِّ نفسها. حرَّرَتِ التَّجاربُ الخطيَّة وطوَّرَتِ الشَّخصيَّة؛ وعلَّمَه الفقرُ الاتِّكالَ على الله ونقَّاه من الطمع؛ وساعَدَه الفَشَلُ والعارُ العلنيُّ على الشفاء من الكبرياء والطموح. ربَّما كانت يدُ الله ذاتها هي التي أوقفَتْ مسيرةَ مهنته- خيبة أملٍ مدمِّرة في ذلك الوقت- لكي تُعِدَّه للخدمة؟ ظهرَ نموذجٌ محدَّد: بالإمكان تغييرُ الألم، وحتَّى افتداؤه، وينتجُ عن الشرِّ الظاهر في بعض الأحيان خيرٌ أكيد. بإمكانِ المعاناة التي لم تَنتهِ أن تكونَ أداةَ الله.

إنَّ مراجَعةَ دون المنهجيَّةَ قادته إلى أحواله الحاليَّة. أيمكنُ حتَّى أن يُفتدى هذا الألم؟ لقد حَدَّ مرضُه بالتَّأكيدمن قدراته، لكنْ من المؤكَّد أنَّ عدمَ قدرته الجسديَّة لم تمنَعْ نموَّه الروحيَّ كلَّه. كان لديه وقتٌ طويلٌ للصَّلاة: ذَكَّره الجرسُ بجاره الأقلِّ حظًّا، وبكثيرين غيرِهم من المبتَلين في لندن. كان يستَطيعُ أن يتعلَّمَ التواضُعَ والثِّقة والعرفان والإيمان. جعلَ دون من كلِّ هذه الأمور لعبةً: كان يتخيَّلُ روحَه تنمو قويَّة، تنهضُ من الفراش، تتجوَّلُ في الغرفة، حتَّى عندما يستَلقي جسدُه منبسِطًا.

باختصار، أدركَ دون أنَّه ليس "عاجزًا". وجَّه طاقتَه نحو القواعد الروحيَّة: الصلاة، الاعتراف بالخطايا، الاحتفاظ بدفتر مذكِّرات (الذي صارَ كتابَ "**تأمُّلات**"). حوَّل تفكيرَه عن نفسه إلى الآخرين. يسجِّل كتاب "**تأمُّلات**" تغييرًا حاسمًا في موقف دون من نحو الألم. بدأ يتلو الصلواتِ لكي يزولَ الألم؛ وأنهى صلواتِه بأن يُفتَدى الألم، أي أن "يتعلَّم المبادئ المسيحيَّة من خلال البلوى". قد يأخُذُ هذا الافتداءُ شكلَ مُعجزةِ شفاء- كان لا يزال يأمل بذلك- لكن حتَّى إن لم يُشْفَ، فالله قادرٌ أن يأخُذَ كتلةَ خامٍ، ومن خلال نار المعاناة يجعَلُها ذهبًا صافيًا.

"مع أنِّي عبدٌ غيرُ طائعٍ أخافُ من الموت، لكنِّي لا أخاف أن آتي إلى سيِّدٍ رحيمٍ مثلك".

نتجت أزَمَتان عظيمتان من مرض دون: أزمة الخوف وأزمة المعنى، ثُمَّ اجتَمَعتا في أزمةٍ ثالثةٍ وأخيرة: الموت. آمنَ الشاعرُ بأنَّه سيَموتُ من جرَّاء مَرَضه، وأنَّ غيمةً سوداءَ تحومُ فوق كلِّ صفحةٍ من كتاب "**تأمُّلات**". كتب قائلًا: "أُذُوْزِنُ آلتي هنا عند الباب"- باب الموت.

نحن العصريِّين قد أبدَعْنا في وَضْع أساليبَ للتَّعاملُ مع هذه الأزمة- أساليبَ ستُسبِّبُ دونَ شكٍّ حَيرةً عظيمةً لجون دون. يبني مُعظَمُنا وسائلَ متطوِّرةً لتَجنُّب الموت كلِّيًّا. النوادي الصحِّيَّة صارت صناعةً مُزدَهرة، كما هي الحال بالنِّسبة إلى التغذية ومتاجر الأطعمة الصحِّيَّة. نعاملُ الصحَّة الجسديَّة مثل الدِّين، في حين نبني في الوقت نفسه جدرانًا لئلَّا نرى الأمورَ الفَظَّة التي تذكِّرنا بالموت- أمكنة دَفْنِ الجُثَث، وحدات العناية المركَّزة، المقابر. كَونه عاشَ في زمن الطاعون، لم يكُنْ دون يملكُ تَرَفَ الإنكار. كانت العرباتُ التي تجرُّها الأحصنة تُصدِرُ صَوتًا عاليًا وهي تسيرُ في الشوارع لتَجمَعَ أجسادَ ضحايا ذلك اليوم؛ كانت أسماؤهم- أكثرَ من ألف اسم يوميًّا في ذروة الوباء- تظهَرُ في أعمدةٍ طويلةٍ في صحيفةِ اليوم التالي. لم يستَطِعْ أحَدٌ أن يعيشَ كما لو أنَّ الموتَ لم يوجَد. مثلُه مثلُ الآخرين في عَصْره، احتفَظَ دون

بجمجمةٍ على مكتبه لتكونَ مُذكِّرًا له- لتكونَ **تِذكار الموت** (Momento mori).

من ناحيةٍ أُخرى، اتَّخذَ بعضُ العاملين ذوي الآراء العصريَّة في مجال الصحَّة مَوقفًا معاكِسًا، وأوصوا بالقبول بدل الإنكار، ليكونَ الموقفَ المثاليَّ من الموت. بعدما صنَّفت إليزابيث كوبلر-رُس (Elisabeth Kübler-Ross) القبولَ على أنَّه المرحلةُ الأخيرةُ في عمليَّة الحزن، نشأتْ أعدادٌ كبيرةٌ من مجموعات المساعدة الذاتيَّة، لمساعَدة المصابين بأمراضٍ مُميتةٍ على الوُصول إلى تلك المرحلة. لا يحتاجُ المرءُ إلى وقتٍ طويلٍ لقراءة مؤلَّفات جون دون لكي يدركَ كم بدَتْ تلك الفكرةُ ضَعيفةً وغريبةً بالنِّسبة إليه. اتَّهمَ البعضُ دون بأنَّ هاجسَ الموت يستَحوذُ عليه (تركِّز اثنتَان وثلاثون أغنيةً وقصيدةً، من أصل خمسٍ وأربعين، على هذا الموضوع)، لكنْ بالنِّسبة إلى دون، لاحَ الموتُ بوصفه عدوًّا كبيرًا ينبغي مُقاوَمته، وليس بوصفه صديقًا يُرحَّب به على أنَّه جزءٌ طبيعيٌّ من دَورة الحياة. في كلِّ الأوقات التي كنتُ أراقبُ فيها- أسبوعًا بعد أسبوع- صحَّةَ صديقٍ أو شخصٍ حبيبٍ تَتَدَهور، كنتُ أنا أيضًا أحسبُ الموتَ عدوًّا لدودًا.

يسجِّل كتابُ "**تأمُّلات**" صراعَ دون القَويَّ مع فكرة قبول الموت. على الرُّغم من أفضل ما بذلَه من جهود، فإنَّه لم يستَطعْ أن يتخيَّلَ في الحقيقة حياةً بعد الموت. إنَّ المسرَّات التي يعرفُها جيِّدًا، والتي ملأتْ كتاباته، اعتمدَتْ كلُّها على جسدٍ ماديٍّ وعلى قدرة هذا الجسد على الشمِّ والرؤية والسَّمع والتذوُّق.

حصلَ دون على تعزية من مثال يسوع، "معلِّمي في علم الموت"؛ حيث إنَّ حادثة بستان جثسَيماني بالكاد تقدِّمُ مشهدًا يشيرُ إلى قبولٍ هادئ أيضًا. هناك نزلَتْ قطرات دمٍ بدل العرق، وهناك تضرَّع يسوعُ إلى أبيه من أجلِ إيجاد وسيلةٍ أُخرى. شعرَ هو أيضًا بالوَحدة والخَوف اللَّذَين يلازمان فراشَ مَوتِ دون. ولماذا اختارَ ذلك الموت؟ جلبَ هدفُ مَوت يسوع بعض العزاء لدون في النهاية: لقد تُوفِّيَ لكي يوفِّرَ شفاءً.

حدثَتْ نقطةُ تحوُّلٍ بالنِّسبة إلى دون عندما بدأ ينظرُ إلى الموت ليس بوَصْفِه مرضًا يكدِّرُ الحياة، بل بوصفه العلاجَ الوحيدَ لمرض الحياة، المرحلة الأخيرة التي تقودُنا إلى

الله. الشرُّ يصيبُ بالعَدوى كلَّ الحياة على هذا الكوكب الساقط، ومن خلال الموت فقط- موت السيِّد المسيح وموتنا- يمكنُنا أن نحقّق حالةَ الشِّفاء. استَكشَفَ دون هذه الفكرة في "ترنيمة إلى الله الآب" (A Hymn to God the Father) السِّجلِّ المكتوب الآخَر الوحيد الذي بقيَ من وَقتِ مَرَضه:

"هل لك أن تغفر تلك الخطيَّة حيثُ بدأتُ،
التي كانت خطيَّتي، مع أنها ارتُكبَت سابقًا؟
هل لك أن تغفرَ تلك الخطيَّة التي أنا منغمسٌ فيها،
ولا أزال منغمسًا فيها مع أنِّي أشجبُها؟
عندما تكون قد فعلت ذلك، فلن تكونَ قد أنهَيتَ عمَلَك؛
لأنَّ لديَّ المزيد.

هل لك أن تغفرَ تلك الخطيَّة التي بها جذبْتُ
الآخرين إلى ارتكاب الخطيَّة؟ وجعلتُ خطيَّتي بابًا لهم؟
هل لك أن تغفرَ تلك الخطيَّة التي تجنَّبتُها
منذ سنة أو سنتين، لكنِّي انخرطْتُ فيها لسنوات؟
عندما تكون قد فعلت ذلك، فلن تكونَ قد أنهَيتَ عَمَلَك؛
لأنَّ لديَّ المزيد.

لديَّ خطيَّةُ الخَوف من أنِّي عندما أكونُ قد نسجت
الخيطَ الأخير، سأَهلكُ على الشاطئ؛
لكنْ أَقسِم بذاتك إنّه عند مماتي سيلمعُ
ابنك كما يلمع الآن، وحتَّى الآن؛
وعندما تفعلُ ذلك ، تكونُ قد أتممتَ العمل (Thou hast done)،
لا أخافُ بعد الآن".

إنَّ التَّلاعب اللفظيّ بكنية الشاعر في السطر قبل الأخير "Thou hast done") Donne)، يكشفُ لنا نوعًا من القبول أخيرًا: ليس قبولَ الموتِ بوصفه نهايةً طبيعيَّة، بل بالرَّغبة في الثِّقة بالله لأجل المستقبل، مهما يكنْ ما سيَحدُثُ فيه. "ذلك الصوتُ الذي يقولُ إنِّي يجبُ أن أموتَ الآن هو ليس صَوتَ ديَّانٍ يتحدَّث بلهجة الإدانة، بل صوتُ طبيبٍ يقدِّم الصحَّة".

لكن كما حدثَ، وسط دهشةِ الجميع، لم يمُتْ جون دون من المرض في عام ١٦٢٣م. ظهرَ أنَّ مرضَه الذي أُسيء تَشخيصُه هو الحمَّى المبقَّعة الشبيهة بالتيفوس، وليس الطاعون الدُّبليّ. لقد نجا من علاجاتِ الأطبَّاء الشاذَّة، وشُفِي، وعُيِّن مدَّةَ ثماني سنواتٍ أُخرى بصفته رئيسَ أساقفةِ كاتدرائيَّة القدِّيس بولس.

كانت عِظاتُ دون وكتاباته اللَّاحقة تعودُ غالبًا لتَكتبَ عن المواضيع التي تَطرَّق إليها في كتاب "**تأمُّلات**"، لا سيَّما موضوع الموت، لكنَّها لم تعبِّر ثانيةً قطُّ عن نَوع الاضطراب الداخليِّ نفسِه. في أثناء أَزَمته، نجحَ دون في تحقيق "عدم اكتراثٍ مقدَّس" بالموت: ليس بالتَّقليل من رهبة الموت- تحتوي عِظاته الأخيرة على أوصافٍ واضحة لهذه المخاوف المرعبة- بل بثِقةٍ متجدِّدةٍ في القيامة. الموت، الذي يبدو أنَّه يقطعُ الحياة، يفتحُ في الواقع بابًا إلى حياةٍ جديدة. "أين شوكتكَ يا موت؟ أين غلبتكِ يا هاوية؟".

لو استطاعَ دون بطريقةٍ ما أن ينتقلَ عبر الوقت إلى الأزمنة الحديثة، فلا شكَّ في أنَّه سيكونُ مَذعورًا للاهتمام القليل الذي نُعيرُه للآخرة. يشعرُ الناسُ في هذه الأيَّام بالحَرَج عندما يتحدَّثون بهذا الاعتقاد. نخافُ من السماء كما خافَ أسلافُنا من جهنَّم. تبدو الفكرةُ غَريبةً من طرازٍ قديم، وعلامةَ جُبنٍ وهروبٍ من مشكلاتِ هذا العالم. إنِّي أتساءل عن انعكاسِ القِيَم الذي قادَنا لأنْ نُثنيَ على الاعتقاد في الفناء باعتبار ذلك شجاعة، في حين لا نقبلُ برَجاء الأبديَّة السعيدة باعتباره عملًا جَبانًا. تُقدِّم لنا السَّماءُ وَعدًا بوقتٍ أطوَلَ بكثير، وأكثر واقعيَّة من هذا الوقت على الأرض، وعدًا

بالكمال والعدالة والمسرَّة والسلام. إذا كنَّا لا نؤمن بهذا، إذًا، كما قال الرسول بولس في ١كورنثوس ١٥، هناك سببٌ ضئيلٌ يدعو إلى الاعتقاد أنَّ الشَّخصَ مسيحيٌّ في المقام الأوَّل. وإذا كنَّا نؤمنُ بهذه العقيدة فإنَّها ستُغيِّرُ حياتَنا كما غيَّرت حياةَ جون دون.

قال دون في إحدى العظات إنَّ الله يعرفُ أثقال العالم وأعباءه ومخاطرَه كلَّها؛ "وإنْ لم يكُنْ هناك ثقلُ مجدٍ أبديٍّ يُعادلها، فإنَّنا جميعًا سنَغرقُ في العدم".

"لا تفخَرْ أيُّها الموت مع أنَّ البعضَ دَعاك
جبَّارًا و مَهوبًا، لكنَّك لستَ كذلك...
...وعندما تمرُّ فترةُ نَوم قصيرةٌ، نستيقظُ إلى الأبد،
ولن يكون هناك مَوتٌ، أيُّها الموتُ: ستموت".

بعد سبع سنواتٍ من المرض الذي ألهمَه وَضْع كتاب "**تأمُّلات**"، عانى دون مرضًا آخر كان سيَمتحنُ كلَّ ما تعلَّمه عن الألم. أمضى معظمَ شتاء عام ١٦٣٠م بعيدًا عن المنبر، مُجبَرًا على الإقامة في منزلٍ في منطقة إسيكس (Essex). لكنْ عندما اقتربَتْ فترةُ آلام السيِّد المسيح في تقويم الكنيسة، أصرَّ دون على السفر إلى لندن ليُلقيَ عِظةً في الجمعة الأولى من الصَّوم الكبير. رأى الأصدقاء الذين استَقبَلوه بالتَّرحيب هناك رجلًا هزيلًا، يبدو أكبرَ سنًّا بكثير من سنواته الثماني والخمسين. أثَّرت فيه المعاناة طوال حياته. على الرُّغم من إلحاح الأصدقاء على دون أن يُلغيَ العِظةَ المقرَّرة، فإنَّه رفضَ ذلك.

ويَصِفُ كاتبُ سيرة دون الأوَّل، معاصره آيزاك وولتون (Izaac Walton)، المشهَدَ في قصر وايت هول (Whitehall Palace) في اليوم الذي ألقى فيه دون عِظَتَه الأخيرة:

"لا شكَّ أنَّ الكثيرين طَرَحوا ذلك السؤال سرًّا في حزقيال، "أتحيا هذه العظام؟" أو هل تستطيع تلك النفس أن تضبطَ ذلك اللِّسان؟... دون شكٍّ هي لا تستطيع. ومع ذلك، بعد فتراتِ صمتٍ

خفيفة في صلواته الغيورة، مكّنت رغباتُه القويَّةُ جسدَه الضعيفَ من تحرير ذاكرته من تأمُّلاتِه المسبَّقة حول الموت؛ حيثُ كان النصُّ "قضايا الموت هي للربِّ الإله". رأى كثيرون عندئذٍ دموعَه، وسمعوا صوتَه الضعيف والخافت، واعتَرَفوا باعتقادهم أنَّ النصَّ قد اختيرَ بروح النُّبوَّة، وأنَّ الدكتور دون قد ألقى عِظَةَ جنازته".

("**حياة الدكتور جون دون**" [*The Life of Dr.John Donne*])

كان دون غالبًا ما يعبِّر عن رغبته في الموت على المنبر، وهكذا كاد تقريبًا أن يموت. إنَّ تلك العِظة وعنوانُها "**مبارزة الموت**" (*Death's Duel*) هي إحدى أفضل عِظاته، ولم يتَلاشَ تأثيرُها عند الذين سمعوها. بالنِّسبة إلى جون دون، كان الموتُ عدوًّا سيُحاربُه ما دامت في عِظامه قوَّة. لقد حاربَ بإيمانٍ واثقٍ بأنَّ العدوَّ سيُهزمُ في نهاية المطاف.

نُقِلَ دون إلى منزله وأمضى الأسابيع الخمسة التالية يستعدُّ للموت. أملى رسائلَ إلى أصدقائه، وكتب بعض القصائد، وألَّفَ كلماتٍ تأبينيَّة. كان معارفُه يزورونَه، وكان يسترجعُ ذكرَياته. قال لأحَد أصدقائه: "لا أستطيعُ أن أدَّعيَ براءةَ الحياة، لا سيَّما في فترة شبابي، لكنِّي سأُدان من قِبَل إلهٍ رحيمٍ غير راغبٍ في أن يرى ما فعلتُه من أمورٍ خاطئة. وعلى الرُّغم من عدم امتلاكي شيءٍ أقدِّمه إليه إلَّا الذُّنوب والبؤس، لكنِّي أعرفُ أنَّه ينظرُ إليَّ ليس كما أنا في ذاتي، لكن كما أنا في مخلِّصي... لذلك أنا ملآنٌ بفَرحٍ لا يُعبَّرُ عنه، وسأموت بسلام".

قارَنَ آيزاك وولتون صورةَ جون دون في تلك الأيَّام الأخيرة- جسدُه هزيلٌ ومَهدور، لكنَّ روحَه آمنةٌ مطمئنَّة- بصورةٍ كان قد رآها لدون في سنِّ الثامنة عشرة يوم كان فارسًا شابًّا مُفعَمًا بالحياة، مُرتَدِيًا ملابسَ مُبهرَجة وشاهرًا سيفَه. ويلاحظ وولتون بأنَّ من المفارقات أنَّه قد ثبتَت صحَّةُ نبوَّة الكتابة المنقوشة بحياة دون الصعبة: "كم ينبغي أن أتغيَّر قبل أن أتغيَّر!".

أتى أحَدُ النحَّاتين خلال تلك الأسابيع الأخيرة، بناءً على أوامر من الكنيسة لتصميم نُصُبٍ تذكاريّ. اتَّخذَ دون أمامه وضعيَّة الموت، بينما لفَّ نفسَه بملاءة، ويداه مطويَّتان على معدته، وعيناه مغلَقَتان. استُخدِمَت قطعةٌ واحدةٌ من الرخام الأبيض في نَحْتِ التمثال، وبعد وفاة دون، وضعَه العمَّال فوقَ الجرَّة الجنائزيَّة في كاتدرائيَّة القدِّيس بولس.

إنَّه لا يزال هناك، نُصُبُ جون التذكاريّ. لقد شاهدتُه. إنَّه في الواقع الشيءُ الوحيدُ في كنيسة القديس بولس الذي نجا من الحريق الكبير في عام ١٦٦٦م، ويمكن أن يُشاهَد في الممشى المسقوف في الكاتدرائية التي أعادَ بناءَها كريستوفر رِن (Christopher Wren) وراءَ مقعدِ جوقة التَّرنيم. إنَّه نُصُبٌ تذكاريٌّ بلَون العاج وضِعَ في كُوَّةٍ في الحجر الرَّماديّ. يُشيرُ المرشِدون السياحيُّون إلى علامةِ حَرْقٍ بُنِّيَّةٍ على الجرَّة المعدنيَّة يعود تاريخُها إلى فترة اندلاع الحريق. تحملُ ملامحُ وجه دون تعبيرًا عن الصفاء والهدوء، كما لو أنَّه حقَّق في الموتِ أو نالَ فيه أخيرًا السلامَ الذي استَعصى عليه تحقيقه في الكثير من أيَّام حياته.

> "يومنا الأخير هو يومنا الأوَّل؛ يوم السبت هو يوم الأحد بالنِّسبة إلينا؛ أمسيَّتُنا هي نهارنا المقدَّس؛ غروب شمسنا هو صباحنا؛ يومُ وفاتنا هو أوَّلُ يومٍ من حياتنا الأبديَّة. اليوم التالي بعد ذلك... هو ذلك اليوم الذي سيُريني نفسي كما هي. هنا لم أرَ نفسي على الإطلاق إلَّا مُتنكِّرًا، أمَّا هناك فسأرى نفسي، وسأرى الله أيضًا... هنا لديَّ مَلَكةٌ عقليَّةٌ واحدةٌ مستَنيرة، وأُخرى باقيةٌ في الظَّلام؛ فَهْمي يكونُ واضحًا في بعض الأحيان، وإرادتي في الوقت ذاته مشوَّهة. هناك سأكون نورًا دونَ ظلٍّ فَوقي؛ حياتي اكتسَتْ في نور الفرح، وجسدي في نورِ المجد".
>
> (من عظات دون)

هناك نُصُبٌ تذكاريٌّ آخرُ يعيشُ في كتابات دون. قرأتُ كلماتٍ كثيرةً عن مشكلة الألم، وكتبتُ بعضَها بنفسي. لكنّي لم أجِدْ في أيِّ مكانٍ آخرَ مثل هذه التأمُّلات المركّزة والحكيمة في حالة الإنسان كتلك الموجودة في مذكّرات جون دون التي حفظَها في أثناء أسابيع مرضه وهو مستلقٍ يستَعدُّ للموت. على الرُّغم من أنَّه أعدَّ نفسَه لمصارعة الله، فإنَّه وجدَ نفسَه بدلًا من هذا بين ذراعَيْ طبيبٍ رحيمٍ قادَه برِفْقٍ في أثناء الأزَمة لكي يخرجَ منها ويمنحَ التَّعزِية والرَّجاء للآخرين.

في أثناء جنازة ديڤيد، اقتربَ منّي سمسارُ بورصة من شيكاغو وسألني ما إذا كان بالإمكان أن يرى الكتابَ الذي كنتُ أقتبسُ منه. تصفَّح نسختي الممزَّقة وقال: "لم تكنْ لديَّ أدنى فكرةٍ عن وجود مسيحيِّين مثل هذا".

لنبدأ مع جون دون

بقيَ كتابُ "**صلواتٌ للمناسَبات الطارئة**" يُطبَعُ لأربعة قرونٍ تقريبًا، وهذه علامةٌ على مكانَته بوَصفِه كتابًا كلاسيكيًّا. ويمكنُ لمستخدمي الإنترنت أن يَجِدوا النصَّ الكاملَ في الموقع التالي: http://www.ccel.org/d/donne/devotions/

يمكنُ الحصولُ على قصائد دون وكتاباته النثريَّة في مجموعاتٍ متَعدِّدةٍ من قسم الآداب في المكتبات. لسوء الحظّ، نفدَتْ مجموعاتٌ من عظاته، بالإضافة إلى سيرة حياة دون الأكثر مَوثوقيَّة، والتي لا يمكن الحصولُ عليها إلَّا في المكتبات أو محالِّ بَيع الكُتُب المستعمَلة. إذا أُتيحَتْ لكَ الفرصة، عليك أن تشاهدَ بالتَّأكيد مسرحيَّة "**الفِطْنة**" (Wit) التي نالَت جائزةَ پوليتزر للمؤلِّفة مرغريت إدسون (Margaret Edson)، التي تصوِّرُ آخرَ أيَّام عالمةٍ لغويَّةٍ تدرِّس قصائدَ جون دون، وهي تموتُ بسرطان المبيَض. أنتجَ تلفزيون "إتش بي أو" (HBO) أيضًا نسخةً من بطولة إيما ثومبسون (Emma Thompson).

لا أستطيع مقاومة تجربة سرد قصَّة مغامرتي الأولى في كتابة الكتب. في عام

١٩٧٣م، عندما كنتُ محرِّر مجلَّة "كامپَس لايف"، حاولتُ أن أُعيدَ صياغة نصّ "**تأمُّلات**". كنتُ قد أعطيتُ الكتابَ لأصدقاء، لكنَّ كثيرين وجدوا لغةَ الملك جيمس صعبة. وكما كان آخرون يُعيدون صياغةَ نسخةِ الكتاب المقدَّس التي تُرجِمَتْ في تلك الحقبة، قرَّرتُ أنا أن أُعدَّ نسخةً مُحدَثة من ذلك الكتاب الكلاسيكيِّ حول المعاناة: جون دون إعادة، إذا أرَدْنا ذلك. أعدتُ صياغةَ ستَّة أجزاءٍ من أجزائه الثلاثة والعشرين وأرسلتُها بالبريد إلى أحَدِ الناشرين مع عرض. بعد عدَّة أسابيع تسلَّمتُ ردًّا من ثلاث فِقرات: الفِقرةُ الأولى، أعلمَتْني أنَّ قسم التسويق يأسفُ لأنَّه قرَّر أنَّ المبيعات المتوقَّعَة لا تبرِّر نشرَ المادَّة على الرَّغم من أنَّ الناشرين أحبُّوها. الفقرة الثانية كانت، "الرجاء أن تجعَلَها تبدو كأنَّها مؤلِمةٌ وشخصيَّة؛ لأنَّ هذا مصدرٌ مُهمٌّ للمجلَّة". وطلَبَتْ منّي الفِقرة الثالثة الاحتفاظَ بالمادَّة لأيَّة مشاريعَ مستقبليَّة. قرأتُ الفِقرةَ الثانية عدَّة مرَّاتٍ محاولًا أن أفهمَ ما تقولُ قبل أن أدركَ ما حدث. عندما أملى الناشرُ الرسالة، كان يقصدُ بتلك الجملة أن تكونَ موجَّهةً لأُذُنَي الطابع الذي كان يُفتَرَض به أن يجعلَ رَفضي يبدو مؤلمًا وشخصيًّا. بدلًا من هذا، طُبِعَت ملاحظاتُه حرفيًّا! بعد عشر سنوات، عرضتُ الرسالة على الناشر الذي أملاها. أتخيَّل أنَّه لم يستطع النوم لبضعة أسابيع متسائلًا ما الذي يمكن أن يكونَ قد قالَه من تعليقاتٍ جانبيَّةٍ وصلَتْ دون قصدٍ في رسائلَ موجَّهةٍ إلى الكُتَّاب.

الفصل العاشر

آني ديلارد

(Annie Dillard)

عظَمةُ الأمور العاديَّة

تغيَّرَتِ الصورةُ التي رسمتُها في ذهني لآني ديلارد إلى الأبد عندما قابلتُها أوَّلَ مرَّةٍ في عام ١٩٧٧م. لأنِّي كنتُ أعرفُها من خلال كتاباتها فقط، توقَّعتُ أن أرى شاعرةً خياليَّةً عُصابيَّة مثل إيميلي ديكنسون، أو صوفيَّة هزيلة مثل سيمون ويل. اتَّفقنا أن نجتمعَ في مكتبها الذي تُصوَّرتُ أن يكونَ غرفةً واحدةً تقع في بستانٍ من الأشجار الدائمة الخضرة.

تبيَّن أنَّ المكتبَ هو غرفةٌ صغيرةٌ مُبهرَجةٌ في مبنى صفوفٍ مدرسيَّةٍ قليل الارتفاع، دون أيَّة زخرفةٍ تُزيِّن الجدران، وكان أحَدُ الجدران مَطليًّا باللَّون البرتقاليّ، وجدارٌ آخرُ باللَّون الأزرق. كانت ديلارد، التي بالكاد تبلغ الثلاثين عامًا، ترتدي بنطالَ جينز وقميصًا مطرَّزًا. كانت مُسَلِّيةً واستخدمَتِ اللُّغة المحكيَّة. كانت تدخِّن دون انقطاع، كما كانت تحبُّ الرَّقص وكرة الطاولة وركوب الطَّوف في مياهٍ شديدة الانحدار. كانت تستمتعُ بالفُكاهات. لم تكن مثل ديكنسون أو مثل أستاذٍ جامعيّ، بل كانت ذلك النَّوعَ من الأشخاص الذين تَوَدُّ إدراجَ أسمائهم في قائمة الضيوف لتُضفِيَ حيويَّةً على حفلِ عشاء.

كان لدى ديلارد أيضًا توقُّعات. قالت عندما دخلتُ مكتبها: "أنا مسرورةٌ لأنَّك أنت هو الزائر. لم أكُنْ أعرفُ ما أتوقَّعُه من مجلَّةٍ

تُدعى "**المسيحيَّة اليوم**". عندما رأيتُ رجلًا أصلعَ في الستِّين من عمره يسيرُ عبر الحرم الجامعيّ، فكَّرتُ قائلةً: "أوه، على أيِّ شيءٍ وافقت؟"'' في ذلك الوقت، كان عمري يبلغ نصف عمر رجلٍ أصلع، وكان شعري الغزير يبرزُ إلى الأمام مثل "الليف المعدنيّ المستخدم في تنظيف الأطباق". كانت قد وافقَتْ على مقابلةٍ طويلةٍ مع تلك المجلَّة.

كنتُ قد درستُ لتَوِّي مؤلَّفات جون دون، ونشرتُ كتاب "**أين الله عندما أتألَّم؟**" وبدأتُ أكتُبُ مع الدكتور پول براند. كان لديَّ دفترُ مُلاحظاتٍ ملآنٌ بالأسئلة لأطرَحها عليها: عن مشكلة الألم، والطبيعة، والحُجَّة اللّاهوتيَّة المنطلقة من التصميم، وحياة الكتابة. تحدَّثنا أكثر بكثير من الوقت الذي كُنَّا قد اتَّفقْنا عليه، وفي النهاية تنهَّدَتْ بعمقٍ وقالت: "كم هو سارٌّ أن أتحدَّث بشأن هذه الأفكار، لا سيَّما مع شخصٍ يعملُ في الحقل نفسه! يريدُ معظمُ المراسلين معرفة حسابي المصرفيِّ وحياتي الجنسيَّة". بالتَّأكيد، فتحَ ذلك مجالًا جديدًا كاملًا من الاستجواب.

حيث إنِّي كنتُ أعملُ صحافيًّا لإحدى المجلَّات في تلك الفترة، فقد نظرتُ إلى الكتابة بوصفها مهنةً وهِواية، أنظرُ إليها على أنَّها شيءٌ تفعلُه بأفضل ما باستطاعتك بموجب مواعيدِ تسليم صارمة. لكنَّ ديلارد وصفتْها بأنَّها دعوةٌ مقدَّسة، كما نراها في كتابها "**الشركة المقدَّسة**" *(Holy the Firm)*:

> "سألتُ مَن كانوا في صفِّي: "كم واحدًا منكم يريدُ أن يهبَ حياتَه ويصيرَ كاتبًا؟" كنتُ أرتجفُ من تأثير القهوة أو السجائر، أو من قُرْب الوجوه من حولي... ارتفعَتْ جميعُ الأيادي جوابًا عن السؤال. ثمَّ حاولتُ أن أخبرَهم بما يجب أن يَعنيه هذا الاختيار: لا يمكنُك أن تكونَ أيَّ شيءٍ آخر. يجب أن تُزيلَ العَقَبات لكي تنجحَ... لم تكن لديهم أيَّة فكرةٍ بما كنتُ أحدِّثُهم (...سأكتبُ في الأمسيَّات، أو بعد التزلج، أو في أثناء عودتي إلى البيت من

المصرف، أو بعد أن ينامَ الأطفال...)، اعتَقدوا أنِّي كنتُ أهذي مرَّةً أُخرى. ربَّما يكونُ الأمرُ كذلك".

مع أنِّي التَقيتُ آني ديلارد مرَّةً واحدةً فقط منذ ذلك الوقت، فإنَّنا كنَّا نتراسَلُ بين حينٍ وآخر، وكنتُ أتابعُ مؤلَّفاتها من كتب. كلَّا، هذه ملاحَظةٌ مبالَغٌ فيها. إنَّها نورٌ يُرشدُ الكُتَّاب الذين يهتمُّون بالكلمات والجمل والفِقرات والأفكار، وهي مَنارةٌ فريدةٌ للكُتَّاب الذين يكتُبون بشأن الإيمان. بعد تلك المحادثة، لم أنظُرْ ثانيةً قَطُّ إلى الكتابة بوصفها هِواية. علَّمتْني أن أرى براعةَ المهنة، بل أن أرى العالم أيضًا، بعينَين جديدتَين.

إنَّ مذكَّرات ديلارد "**طفولة أميركيَّة**" (An American Childhood) تَضعُ بعضَ الخطوط العامَّة لحياتها. نشأت في بيتٍ من الطَّبَقة العُليا المتوسِّطة في پيتسبرغ بولاية پنسلڤانيا، حيثُ دلَّلها والداها المحبَّان بأنْ وفَّرا لها حياةً مريحةً في مدرسةٍ خاصَّةٍ للفتيات، وفي نادٍ ريفيّ. كانوا يناقشون الأفكارَ وهم جالسون إلى مائدة العشاء، وكانا يصحَبان آني إلى كنيسةٍ مشيخيَّةٍ تتردَّدُ عليها الطَّبقةُ الاجتماعيَّة العُليا، وأطلقا العِنان لفُضولها الفكريّ. كانت آني تشعرُ بحَرَجٍ وارتباكٍ في أثناء فترة المراهَقة في أوائل ستِّينيَّات القرن الماضي: طُرِدَتْ من المدرسة بسبب التدخين، وانتهى بها الأمر في المستشفى بعد حادثةِ سباقٍ بين سيَّارتَين. وصحيحٌ أنَّها أَظهرَتْ وَلَعًا بالطبيعة، لكنَّها أظهرتْه أيضًا بلعبة البيسبول وبالحربَين الفرنسيَّة والهنديَّة. ووبَّخها أحَدُ مدرِّسي المدرسة الثانويَّة بالقول: إنَّها "لا تعملُ إلَّا ما يُثيرُ اهتمامها"، عندما أرسَلَها والدُها إلى كلِّيَّة هولنز (Hollins) في ڤيرجينيا، تزوَّجت مدرِّسَ مادَّة الكتابة الإبداعيَّة في أثناء سنتها الجامعيَّة الثانية.

حتَّى يومنا هذا، تستطيعُ ديلارد أن تتلوَ أوَّل قصيدةٍ حاولَتْ تأليفَها، وهي نتاج تلك المراهَقة المتَّقدة عندما وقعَتْ تحت تأثير سحرِ الشاعر الرمزيّ آرثر رمبو (Arthur Rimbaud):

"ذات مرَّة، إذا كنتُ أتذكَّر جيِّدًا،
كان جسدي ملقًى مقيَّدًا في جَهنَّم.
زنزانةٌ مُظلمةٌ في سجنٍ رَطب،
زنزانة تحتاجُ إلى نارٍ ومصباح.
سقطَتْ يدي وسقطَ جسدي
وفي قذارتي استلقيتُ ساكنة".

لا شيءَ في تلك القصيدة أو في حياة ديلارد في مرحلتها المبكِّرة، قدَّم دليلًا على أنَّها ستَفوزُ بجائزة پوليتزر قبل بلوغ الثلاثين، وأنَّها ستبرزُ كأحَدِ كُتَّاب الطبيعة الرئيسيِّين في الأزمنة الحديثة. لكنَّها تنسبُ الفضلَ إلى مراهقَتِها في إيقاظ روحانيَّتها وفَتْح شهيَّتها على المواضيع المجرَّدة التي ملأت مؤلَّفاتها الأخيرة. تبدأ مذكَّراتُها بهذه الكلمات المقتَبَسة من مزمور ٢٦: "يا ربّ، أحببتُ محلَّ بيتك ومَوضعَ مسكن مجدك".

قدَّمَتِ الكنيسةُ كلَّ يوم أحد بصورةٍ رئيسيَّةٍ الأجواءَ الاجتماعيَّة للعائلات التي كانت ترتدي الملابس الأنيقة "لتزيدَ مهابةً إلى مهابةِ تلك العائلات عندما يراها الآخرون". لكنْ في أثناء فصول الصيف، كانت آني تُسارعُ مع أختها في الذهاب إلى مخيَّمٍ دينيٍّ يقعُ بين أشجار الصنوبر. تسترجعُ ذكرياتها وتقول: "لو عرفَ والدانا كم كان هذا المخيَّم وَرِعًا وتابعًا لكنيسةٍ غير تقليديَّة بسيطة، لانتَزَعانا منه بسرعة. كنَّا نحفظُ فصولًا من الكتاب المقدَّس ونرنِّم ترانيمَ صاخبةً مَرِحةً على مدار الساعة، ونعقدُ الصَّلَوات، بما في ذلك التأمُّلات الليليَّة، وكنَّا نسيرُ في طوابيرَ خارج الغابة إلى الكنيسة الصغيرة مرَّتين أيَّام الآحاد مرتدين سراويل قصيرة بيضاء. اللَّاهوت الملآن بالإيمان كان هناك على بُعْدِ نصفِ خطوةٍ خارجَ الخيمة؛ كان باستطاعة المرء أن يشمَّ رائحة نشارة الخشب".

عندما قارنَّا خلفيَّاتنا، أدركتُ كم يكونُ الأمرُ مختلفًا عندما يدخلُ المرءُ في ثقافة أُخرى خلال الصيف بالمقارنة بالشعور بأنَّك مقيَّدٌ داخل خيمةٍ حيثُ تنبعثُ من

الهواء دائمًا رائحةُ نشارة الخشب. عَمِلَتْ فصولُ الصيف التي أمضيتُها أنا في مخيَّمٍ تابع لكنيسةٍ غير تقليديَّة بسيطة على تَقوِيَتي ضدَّ غَرْسٍ آخرَ للأفكار والعقائد. بالمقارنة، شعرَتْ ديلارد بأنَّها منجذِبةٌ إلى الأفكار الدينيَّة، التي "جعلَتِ الأفكارَ الأُخرى تبدو رديئة" بالنِّسبة إليها. حفظَتْ فِقراتٍ طويلةً من الكتاب المقدَّس، ترجمة الملك جيمس، وكتبَتْ قصائدَ في تقليدٍ مَقْصودٍ لإيقاعاتها. وعند عودتها إلى بيتها في كنيسة بيتسبرغ الرَّصينة، كانت تشعرُ في بعض الأحيان "على الرُّغم منها، بتيَّارٍ ضعيفٍ ورقيق من الرُّوح ينساب إلى الأمام من مقاعد الكنيسة".

أخبرَتْني آني بأنَّه كانت لديها محاوَلةُ تمرُّدٍ قصيرةٌ ضدَّ الله. بعدَ أربعة أسابيع متتالية في مخيَّم الكنيسة، لم تَعُدْ تُطيقُ نفاقَ الأشخاص الذين يأتون إلى الكنيسة ليَعرضوا ملابسَهم، ولأنَّها أرادَتْ أن تتحدَّث بأمرٍ أساسيٍّ ومهمّ، قرَّرَتْ أن تواجهَ القَساوسةَ وجهًا لوَجه. أرعبَها القسُّ الأعلى مَقامًا ("كان يُشبهُ تمامًا الممثِّل جيمس مايسون [James Mason] في فيلم "مولد نجم" [A Star is Born]، وكانت فكرتُه عن العِظة أنَّها قراءةٌ في كتابٍ ما")، فدخلَتْ مُسرعةً إلى مكتبِ مساعد القسّ وعرضَتْ بعباراتٍ فصيحةٍ ومُسهِبةٍ رأيَها حول الرِّياء.

حقَّق الرجلُ الحكيمُ بانقضاضةٍ سريعةٍ ما كانت تريده، وما احتَجتُ أنا إلى سنواتٍ كثيرةٍ لتَحقيقه: لقد فصلَ الكنيسةَ عن الله، وقام بذلك بطريقةٍ رفعَتْ من مقام منتقدَته المراهِقة بدلًا من الحطِّ من قدرها. "كان رجلًا هادئًا وذا خبرة، يرتدي بذلةً من ثلاث قطع؛ ولديه شاربٌ ويَضَعُ نظَّارات. وكنتُ أنا تلك الفتاة في المدرسة الثانويَّة التي اعتقَدَت أنَّها الشخصُ الوحيدُ في العالم الذي لديه شَكاوى ضدَّ الكنيسة. لقد استمعَ إليَّ ثُمَّ قال: "أنتِ على صوابٍ يا حبيبتي، هناك الكثير من الرياء"". شعرَتْ آني بأنَّ حُجَجَها قد تبدَّدت. ثُمَّ أخذَ القسُّ يُحمِّلها كُتبًا بقلم سي. أس. لِويس، وقال لها إنَّها ربَّما تجدُها مُفيدةً لكتابة موضوعٍ في الصفِّ الأعلى. قال مُعلِّقًا بينما كان يسلِّم عليها لتَوديعها: "من المبكِّر إلى حدٍّ ما أن تتركي الكنيسةَ الآنَ. أعتقدُ أنَّك ستَعودين سريعًا".

أصابَ الهلعُ آني لأنَّه كان محقًّا. بعدما قرأتْ بكَدٍّ أربعةَ مجلَّداتٍ بقلم سي. أس. لويس، سقطَتْ حالًا بين ذراعَي المسيحيَّة. دامَ تمرُّدُها شهرًا واحدًا.

يحملُ اثنا عشر كتابًا اسمَ آني ديلارد، تتضمَّن قصائدَ ومَقالاتٍ ومذكِّرات، وسجلًّا صحفيًّا لزيارةٍ إلى الصين، وروايةً تاريخيَّةً ونقدًا أدبيًّا. بعضُ الأشكال تنجحُ أكثرَ من أشكالٍ أُخرى، لكنَّ جميعَها تحملُ علامتَها: نظرةٌ ثاقبةٌ، جملٌ رائعة، قوَّةٌ صوفيَّة، اعتبارُ أنَّ حسَّ الكتابة هو دَعوة.

مهما يكُنْ ما تنجزُه ديلارد من أعمالٍ أُخرى، ستُضطرُّ دون شكٍّ لأنْ تعيشَ وهي تحملُ علامةَ "كاتبة عن الطبيعة". لقد وقعَ كتابُ "**حاجٌّ عند جدوَل مياه تِنْكر**" *(Pilgrim at Tinker Creek)* على جمهور القرَّاء في عام ١٩٧٤م وقوعَ كُوَيكب: نوعٌ أدبيٌّ جديد، انفجرَ في مكانٍ ما في الفضاء الخارجيِّ وتبعثرَتْ قطعُه من تلقاء نفسها في الجوّ. في تَسلسُلٍ سريع، قُدِّمَ إلى الجمهور من قِبَل نادي كتاب الشهر، وفاز بجائزة پوليتزر، واختير ليكونَ أفضل كتابٍ أجنبيٍّ في فرنسا، ثُمَّ صارَ الكتابَ الأكثرَ مبيعًا (نصف مليون نسخة تقريبًا). كانت ديلارد هي المحبوبةَ الجديدةَ في المؤسَّسة الأدبيَّة. قارنَ النُّقَّاد مؤلَّفاتِها بمؤلَّفات ڤيرجينيا وولف، وجيرالد مانلي هوپكنز (Gerard Manley Hopkins) ووليَم بليك (William Blake) وهنري ديڤيد تورو (Henry David Thoreau). ولكَونها امرأةً شابَّةً نحيفةً بشعرٍ أشقرَ وعينَين زرقاوَين ومَيلٍ إلى ارتداء قبَّعات اللِّباد، فإنَّها تُناسبُ الدَّورَ بصورةٍ جذَّابة.

يبدأ كتابُ "**حاجٌّ عند جدول مياه تِنكر**" بمَلَكة النَّظَر. في كتابٍ آخر، تسترجعُ ديلارد قصَّة نوح ڤَري (Noah Very)، وهو ناسكٌ في السبعين من عمره يعيشُ في بيتٍ صغيرٍ في أپالاشيا (Appalachia). قال لها نوح: "ذاتَ مرَّة عندما كان أولادي صغارًا،

> ...كنَّا نُقيم حيثُ أسكنُ الآن، نظرتُ من النافذة ورأيتُ الأولادَ
> يلعبون بجانب النهر. توجَدُ بقعةٌ من الرِّمال على الضفَّة هناك.
> كان الأولادُ جميعُهم صغارًا في السنِّ والحجم، يلعبون بالدِّلاء

ويصبُّون المياهَ ويكوِّمون الرِّمال على أقدام بعضهم بعضًا... قلت لنفسي: "يا نوح، الآن تذكَّرْ هذا المنظر، الأولاد الصغار يلعبون معًا بجانب النَّهر في هذا الصباح المحدَّد. تذكَّر هذا"، وأنا أتذكَّره كما لو أنَّه حدثَ هذا الصباح. لابدَّ أنَّ الوقتَ كان صَيفًا. هناك عشرون سنةً أُخرى لا أتذكَّرها على الإطلاق".

(كتاب "**تعليمُ حَجَرٍ كيف يتحدَّث**" [*Teaching a Stone to Talk*])

اعتمدت ديلارد الكاتبةُ فعلَ التذكُّر بوصفه نوعًا من رسالةٍ مقدَّسة. بإمكان المرء أن يتخيَّلَ آني وهي تقولُ لنَفسها مِرارًا وتَكرارًا: **آني، تذكَّري هذا المنظر. تذكَّريه واكتُبيه للآخرين كما لو أنَّه حدثَ هذا الصباح.** إنَّها تتذكَّرُ بتَفصيلٍ واضح، في الواقع، حتَّى إنَّها تعلِّمُنا نحن أن ننظرَ ونرى. يعودُ القرَّاء إلى مؤلَّفاتها لأنَّها تَصِفُ ما لم يلحَظْه أحَدٌ سواها بحدَّة الذِّهن ذاتها: هبوطُ طائرٍ بسقوطٍ حرٍّ من مبنى من أربعة طوابق، غَوصُ طائرٍ بحريٍّ بارتداد إلى داخل عشٍّ فوق جرفٍ صخريّ، نسيجٌ من الظلِّ المندفع في كسوف الشمس، شجرةٌ مُضاءةٌ بفعل الأنوار في داخلها. تساعدُنا ديلارد على تخفيف سرعتنا والنَّظر بدقَّةٍ أكبرَ والتنفُّس بعمقٍ أكبر بينما نسيرُ بخطواتٍ عبرَ العالم الطبيعيّ. تقولُ إنَّ مثلَ هذه الخبرات لا يمكنُ أن تكونَ "مجرَّدَ "مشاهَدة"، بقدر ما هي "كينونة" لدى رؤيتها للمرَّة الأولى. نظرةٌ جبَّارةٌ تحبسُ الأنفاس".

كتبَتْ إيميلي ديكنسون ذاتَ مرَّةٍ إلى صديقٍ بأنَّ عبارةَ "انظروا زنابق الحقل" هي الوصيَّة الوحيدة التي لم تخالفْها على الإطلاق. تطلَّبُ الأمرُ أن تُعلِّمَني ديلارد كيف أُطيعُ هذه الوصيَّة. قرأت كتابَ "**حاجٌّ عند جدول مياه تِنكر**" أوَّل مرَّة بينما كنتُ أُقيمُ في مقطورةٍ من الألمنيوم على أرضٍ قاحلةٍ من أراضي ضواحي شيكاغو. كنتُ قد تزوَّجتُ حديثًا وأسدِّد ديونَ الدراسة، وعلى وشك أن استهلَّ مهنتي بصفتي صحفيًّا. افتقدتُ حياةَ الجنوب النابضة بالحياة: أشجار الصنوبر ذات الأوراق الإبريَّة، ومتسلِّقات "الياسمين العراقيّ" (Honeysuckle vine)، وأشجار القرانيا (Dogwood)

وأشجار السيرسس (Redbud) المبعثرة في الغابات. في ولاية إلينوي (Illinois)، نادرًا ما كنتُ أهتمُّ بالذَّهاب إلى الخارج لأرى ما هنالك- حقول الذرة؟ مسار العجلات في الثلج الوسخ؟ عندما قرأتُ وصفَها للطَّبيعة، وهو أكثرُ إثارة من قصص المغامرات، أذهَلَني أنَّ كلَّ شيءٍ كانت تَصِفُه حدثَ بجانب جدولِ ماءٍ موحِلٍ في حقلٍ لا شكلَ له في ڤيرجينيا. تقولُ آني: "إنَّها مسألةُ إبقاء عينَيَّ مفتوحتَين. الجمال والنعمة يؤدِّيان عمَلَهما، سواءٌ شعَرْنا بهما أم لم نشعر. أقلُّ ما يمكنُنا فعلُه هو محاوَلةُ أن نكونَ موجودين هناك... لئلَّا تستعرضَ الطبيعة نفسَها لبيتٍ يخلو من البشر".

بعد قراءة الكتاب، تعهَّدتُ بأن أسيرَ كلَّ يوم مدَّةَ نصف ساعة في الممرِّ العشبيِّ في إلينوي، وهو مسارٌ من الحَصى المسحوقة يتبعُ طريقَ سكَّةٍ حديديَّةٍ قديمةٍ عبر الأرض العشبيَّة التي تصيرُ مستَنقَعًا قُرْبَ بيتي. في بعض الأيَّام لا أرى أيَّ شيءٍ خاصّ. وفي أيَّامٍ أُخرى، يصيرُ المنظرُ الطبيعيُّ القاحلُ الذي كنتُ أُسرعُ دائمًا في اجتيازه، مُفعمًا بالحياة. في الشتاء، يجمعُ عشبُ ذيل الحصان (Horsetail grasses) طبقةً من الجليد تنعكسُ عليها أشعَّة الشمس كالألماس، ويحوِّلُ الثلجُ الأشجارَ العاديَّة إلى لوحاتٍ من الفنِّ التجريديّ. وفي الربيع، تعدو آلافُ العناكب تحت طبقةٍ من النباتات المرصوصة بِفِعل الشتاء. وفي الصَّيف، تصيرُ المستَنقَعات مُفعَمةً بالحياة بأصوات الطيور والحشرات، وابتدأتُ أتعلَّمُ نطاقَ المناطق التي تجولُ فيها طيورُ الشَّحرور ذات الأجنحة الحمراء. وفي الخريف، تتحوَّل شجرةُ قَيْقَبٍ (Maple) وحيدةٌ بجانب بركةٍ ذات رائحةٍ كريهة إلى لهبٍ من نار، "شجرة تُضيئُها الأنوار في داخلها". ابتدأتُ أتعلَّمُ فنَّ التَّصوير لكي أحتفظَ بسجلٍّ لكلِّ ما رأيتُه حديثًا.

تتعاملُ آني ديلارد مع الطبيعة، ليس فقط لتُلاحظَ ما فيها، بل لتتعلَّمَ أيضًا استخلاصَ المعنى من النصِّ الذي يقاومُ بعنادٍ كلَّ محاولاتٍ كهذه. إنَّها مثل الدَّليل الحريص، قادَتْني بيَدي في دربٍ معروفٍ سرتُ عليه مع آخرين مثل پول براند وجي. كاي. تشيسترتون، وحتَّى جون دون (الذي دعى الطبيعة "يوحنَّا المعمدان الخاضع للسيِّد المسيح"). تُقرُّ ديلارد أيضًا بأنَّ العالم هو عملُ الخالق، ومن ثمَّ تفكِّرُ في

النتائج. سألَتْ: "ما النكتةُ التي يقوم بها هذا الخالق معنا؟" أنثى الأخطبوط تضعُ ملايين البيوضَ ليخرجَ منها أُخطبوطٌ واحدٌ حيّ، والحيتان القاتلة تشقُّ طريقها عبر قطيع من أسود البحر، وفيما تلتهمُ أُنثى فرس النبيِّ الذَّكر يستمرُّ في امتطائها مع أنَّه فَقَدَ رأسَه- ما الدَّرسُ الذي يمكنُ أن نستخرجه من عملٍ كهذا؟

المشكلة هي دائمًا في كَون الطبيعة تُرسلُ إشاراتٍ مختَلَطة. مثل طفلٍ يصعُبُ ضَبْطُه، فإنَّ العالم الطبيعيَّ يُعلنُ الله ويحجبُه معًا؛ الطبيعةُ تَئِنُّ، بحسب تعبير الرسول بولس. تفتقرُ ديلارد إلى تفاؤلِ تشيسترتون الذي يرى ابتسامةَ الله بين الظلال، أو تفاؤلَ دون، الذي يتوقُ إلى بيتٍ جديدٍ في الحياة الآخرة. تقول: "يتراوح تفكيري حول كوكب الأرض بين وصفه بيتًا فيه حديقةٌ ومَوقِدٌ حجريّ، وكونه غربةً قاسيةً نقيمُ نحن فيها مؤقَّتًا". وتختمُ بالقَول: لا بدَّ أنَّ الله يفضِّل العملَ وإحدى يدَيه مربوطةٌ وراءَ ظهره.

بينما كانت تكتبُ كتابَ "**حاجٌّ عند جدول مياه تِنكر**"، فقدت ديلارد زوجَ أُختِها بمرض سرطان الدَّم. وصلَتْ نتائجُ الفحوصات إيجابيَّةً قبل يوم من زفافه، ثُمَّ تُوفِّيَ بعدَ ثلاث سنوات. على ضَوء هذه الخلفيَّة، تقول ديلارد: "لم أستَطِع أن أكتبَ هذا الكتاب المُفرِحَ الصغير عن الطبيعة، ولا أن أكتبَ نسخةً جديدةً من النَّقاش الذي ينطلق من التصميم. كان عليَّ أن أكتُبَ لأشخاصٍ على وشك الموت أو أفرادٍ حزانى- وأعني بذلك أن أكتبَ للجَميع. كانت صورةُ أُختي وزَوجها هناك أمامي في الغرفة بينما كنتُ أكتبُ. كيف يمكن أن أتحدَّثَ إلى أختي بشؤون الله وهي لا تؤمن بالله؟

لذلك، يتخلَّلُ المناظرَ المفرحةَ في كتاب "**حاجٌّ عند جدول مياه تِنكر**"، مناظرُ عُنفٍ، وفي بعض الأحيان تطغى مناظر العنف على المنظر المُفرِحة. إنَّها تُحدِّقُ بضفدعةٍ خضراءَ تطفو على سطح المياه حتَّى يتغيَّرَ شكلُها فجأةً أمامها، وينهارَ رأسُها إلى الداخل "مثل خيمةٍ ضُربَت بالقدم"، وجسدها "يتقلَّص أمامي مثل كرةِ قدم مُفرَغةٍ من الهواء". وترى الشرِّير على شكلِ خنفساءَ مائيَّةٍ ضخمة كانت قد ثقبَتِ الضفدعَ وسمَّمته وامتصَّت ما في داخله. وبينما هي تسيرُ على الطريق المطروق على طول جدول ماء

تنكر، لم يفارقْ ذهنَها التَّفكيرُ في زَوج أُختِها وهو يضمحلُّ بسبب سرطان الدَّم.

تلى كتابُ "**حاجٌّ عند جدول مياه تِنكر**"، كتاب "**الشركة المقدَّسة**". بدأت ديلارد هذا المشروع في أثناء إقامتها على جزيرة في پوغِت ساوند (Puget Sound) قرب مدينة سياتل (Seatle)، وعَمَلِها في غرفةٍ مفروشةٍ "بنافذةٍ ضخمةٍ واحدة، وقطّةٍ واحدة، وعنكبوتٍ واحدٍ، وشخصٍ واحد". إنَّ الضغوطَ التي تبعَتِ النجاحَ الكبيرَ لكتابها الأوَّل أثَّرت كثيرًا في تلك الغرفة المنفردة. تسترجع ذكرياتها قائلة: "كان شعوري بنفسي بغيضًا. عملتُ ستَّةَ عشرَ شهرًا بدوامٍ كامل، ثماني ساعاتٍ في اليوم. كلَّما كانت عندي الشجاعة حتَّى للاقتراب من كومة الأوراق، كنتُ أقرأ ما كتبتُه على آخر صفحتَين، وكنتُ لا أفهمُها. كنتُ أقرأ ٨٠٠ مرَّة تقريبًا حتَّى أتوصَّل إلى فَهْم ما يكفي لاستخراج بضع كلماتٍ أُخرى. في نهاية ذلك الوقت، كان عندي ثلاث وأربعين صفحة. كنتُ أحصلُ على ما حصلَ عليه بَكيت (Beckett): كلماتٍ أقلَّ وأقلَّ، وصمتٍ أكثرَ وأكثر".

يسجِّل كتاب "**الشركة المقدَّسة**" روتين حياة ديلارد اليوميَّة- التعليم، والتأمُّل، والسير إلى المتجر لشراء نبيذ المناوَلة (كسر الخبز)- ويتداخَلُ مع النصِّ تفكيرُها المتعلِّقُ بالغَيبيَّات. قرَّرتْ أن تكتبَ عن كلِّ ما حدثَ في حياتها خلال الأيَّام الثلاثة التالية. ما نَوعُ القداسة الخاصُّ الذي يجلبُه كلُّ يَوم؟ ما العلاقةُ بين الوقت والأبديَّة، بين الله والأحداث اليوميَّة؟ لكنْ في اليوم الثاني، سقطَتْ طائرة، ووجدت آني ديلارد أنَّ عليها تَغطِيَة الموضوع ذاته الذي عالجته في كتاب "**حاجٌّ عند جدول مياه تِنكر**". "عندما سقطَتِ الطائرة، فكَّرتُ، **آه كلَّا، إنَّ الله يجعلُني أكتبُ عن مشكلة الألم اللَّعينة ثانيةً**. أحسَستُ أنِّي صغيرةٌ جدًّا، ولا أعرفُ الجواب، ولا أرغب في القيام بذلك. لكنْ مرَّةً ثانية اضطررتُ إلى القيام به".

في كوخٍ مُستأجرٍ دون كهرباء، يُدفِّئه خشبُ الحور الذي قطعَته في ذلك الصباح، كتبَتْ عن الألم، وتجسُّد السيِّد المسيح، وطبيعة الوُجود المقدَّسة والألغاز النهائيَّة

للكَون. كيف نستطيع، بل كيف نتجرَّأ، أن نحبَّ الله الذي سمحَ لطفلٍ أن يحترقَ إلى حدِّ التشوُّه في حطام طائرة؟ كانت ديلارد قد كتبَتْ في "**حاجٌ عند جدوَل مياه تِنكر**": "هنالك نصٌّ قرآنيٌّ يقول: "وَما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وَما بَينَهمَا لاعِبين"، وهو سؤالٌ وجيه".

عندما تحدَّثتُ بهذه الأمور مع ديلارد شخصيًّا، ناقشنا فكرةَ سي. أس. لِويس التي تؤمنُ بعدم اللُّجوء إلى الطبيعة لبِناء اللّاهوت؛ لأنَّها ستُخيِّب أملَنا في كلِّ مرَّة. بدلًا من هذا، علينا اللُّجوءُ إلى الطبيعة عندما يكونُ لدينا لاهوتُنا، ونتركُ للطبيعة المجالَ لتَملأَ هذه الكلمات- الرهبة، المجد، الجمال، الرعب- بالمعنى. قالت: "أنا أحبُّ هذه الفكرة. لكنْ عليك أن تدرك أنِّي تدرَّبتُ لأكون ناقدةً أدبيَّةً، وأنا أنظرُ إلى كلِّ فَوضى الطبيعة كما لو أنَّها كانت كتابَ الله. بالنِّسبة إلى كثيرٍ من قرَّائي، هذا هو كتابُ الله الوحيد الذي سيقرأونه. لذا يجب أن أبدأ من هناك".

شعرتُ للمرَّة الأولى بالانجذاب إلى كتابات ديلارد؛ لأنَّ ما هو طبيعيٌّ في الأزمنة الحديثة، انفصلَ عمَّا هو خارقٌ للطَّبيعة، وهي تسعى بطريقةٍ ما لتَجمعَهما معًا ثانيةً. بشكلٍ عامّ، هجرَتِ الكنيسةُ مَوضوعَ الطبيعة وتركَتْه بين أيدي الفيزيائيِّين والجيولوجيِّين وعلماء الأحياء. يميلُ الكُتَّابُ الذين يكتبون عن الإيمان إلى التَّعامُل بحذرٍ في ما يتعلَّق بموضوع خليقة الله، ويحسبونه مجرَّدَ أمرٍ ماديٍّ لا يستحقُّ الاهتمامَ الذي يطلُبه العقلُ والرُّوح. عندما نفعلُ هذا، فإنَّنا نَتَنازَلُ عن أحَدِ نصوص الله الرئيسة. قال تِيار دي شاردا (Teilhard de Chardin): "انغمِسْ في المادَّة. بواسطة جميع الأشياء المخلوقة دون استثناء، تجتاحُنا الأمورُ الإلهيَّة وتخترقُنا وتُشكِّلنا. نتخيَّلُها بعيدةَ المنال، بينما نحن نعيش في الواقع غارقين في طبقاتها الملتَهِبة".

تُعيد ديلارد فَتْحَ النصِّ كأنَّه أسلوبُ كتابةِ الرُّوح. إنَّها تكتبُ عن الطبيعة بوصفها عملَ الله، في حين تعترفُ بأنَّ الطبيعةَ تُعطي إشاراتٍ مشوَّشة. وهي تقول: "أُجذِّفُ في زَورقي الطويل إلى حافَة الغموض حيث تفشلُ الكلماتُ ويعجزُ المنطق". إنَّ

أسلوبَها يُذكِّرُني مرَّةً أُخرى بأسلوبِ الله في سفر أيُّوب. بالنِّسبة إلى رجلٍ يُعاني، مُثقلٍ بأسئلةٍ وُجوديَّةٍ مُلِحَّة، أجابَ الله بمحاضرةٍ مُذهِلة حول العالم الطبيعيّ. قال الله لأيُّوب، انظُرْ إلى النَّعامة ووَعْل الصخور وهما يَضَعان صِغارَهما، والثيرانِ الوحشيَّة والنسور المحلِّقة؛ انظُرْ إلى حيوان البرِّ وإلى لوياثان. انظُرْ إلى النصّ؛ ماذا يقول لك؟ أمَّا بالنِّسبة إلى الفكرة المفهومة ضِمْنًا في النصّ، فهذا يتطلَّبُ الإيمان؛ يجب أن تكونَ لك عينان لتَرى وأذنان لتَسمع. حتَّى الله لم يقلِّلْ من رسالة الخليقة. هو فقط أشارَ إليها بصفتها بندًا في سيرته الذاتيَّة.

تبدأ آني ديلارد بالأخبار السيِّئة بشأن العالم لأنَّه بهذه الطريقة، كما تقول، عندما تعطي الأخبارَ السارَّة، تكونُ أكثرَ إقناعًا. يجب أن يثقَ القارئُ بأنَّ الكاتبَ يعرفُ كم يمكنُ أن يصيرَ الوَضعُ كئيبًا ومروِّعًا- ومع ذلك لا يزالُ على إيمانه. أثارَ أحدثُ كتابٍ لها، "**في الوقت الحاضر**" *(For the Time Being)* الموضوعَ ثانيةً. إنَّها تسجِّل عددَ حالات الانتحار التي تحدُثُ يوميًّا، والنسبة المئويَّة للسُّكَّان المعوَّقين عقليًّا. وتَصِفُ عيوبَ الولادة بتَفصيلٍ سريريّ، وتذكرُ بالتَّفصيل أساليبَ القتل التي يمارسُها الحكَّامُ المستَبِدُّون في أرجاء العالم. وتُشيرُ إلى أنَّ هناك تسعَ مجرَّاتٍ لكلِّ شخصٍ حيٍّ على وجه الأرض، وتُبدي اهتمامًا متساويًا تقريبًا بأسرار الغبار وأمواج المحيط وبحياة عالِم دراسةِ أشكال الحياة/ اللَّاهوتيّ الكاثوليكيّ تِيار دي شاردا.

بينما تتنقَّلُ ديلارد في منطقةٍ مجهولةِ المسالك بين الشكِّ والإيمان، تعودُ مرَّاتٍ عدَّة إلى لغةِ الطبيعة العاديَّة. وهي تُشيرُ إلى الممارسة اليهوديَّة لطائفة هَسيدي (Hasidic Practice)[١٢] لمراقبِ "يبجِّل" الخليقةَ بتعرُّف "شراراتٍ مقدَّسة" مخبَّأة داخلها. إنَّها مثل فنَّانة تُعيدُ تخيُّلَ عالمٍ يحتوي على أكثر بكثيرٍ ممَّا يمكن أن نرى-

---

١٢) جماعةٌ من اليهود الأرثوذكس تُروِّج إلى أنَّ الروحانيَّة والفرح يتحقَّقان باتِّباع الطقوس الباطنيَّة للصوفيَّة اليهوديَّة بوصفها الجوانب الأساسيَّة للإيمان اليهوديّ (الناشر).

عالمٍ مقدَّس. في حين يناقشُ اللّاهوتيُّون المعجزاتِ والظواهر الخارقة، تَصِفُ هي روعةَ الأمورِ العاديَّة.

تقول ديلارد: "ليسَتْ لديَّ مشكلاتٌ مع المعجزات. أنا بعيدةٌ جدًّا عن اللّاأدريَّة (Agnosticism)، حتَّى إنِّي لا أتذكَّرُ كيف كانت قضايا كثيرةٌ مشكلاتٍ بالنِّسبة إليَّ. لكن هذا ليس السؤالَ الذي يؤرِّقُني. بالنسبة إليَّ، السؤالُ الحقيقيُّ هو: كيف يمكننا أن نتذكَّر الله في العالم؟ أُحبُّ ذلك الجزءَ من الكتاب المقدَّس الذي يذكرُ الملوك باعتبارهم صالحين وسيِّئين. فجأةً يبرز هذا الملك، الملك يوشيَّا الذي أمرَ بتَطهير الهيكل واكتشفَ الشريعةَ من دون قَصْد. حدثَ هذا بعدَ أجيالٍ من الحكَّام، وبعدما تبعَ الشعبُ القديمُ الله من خلال الخروج من مصر. بطريقةٍ ما، نسوا الأمرَ كلَّه، كلَّ جزءٍ منه. أمَّةٌ بكاملها نَسِيَت الله. تلك الصلاة المشهورة "سأنساك في خضمِّ مشاغلي اليوميَّة؛ لكنْ لا تنسَني أنتَ" يُنظر إليها أحيانًا على أنَّها عبارةٌ على سبيل الدعابة. أنا لا أعتقد أنَّها كذلك. أعتقدُ أنَّ طلبَ عدم النسيان هو أمرٌ كبير". بصفتها عضوًا في المجتمع الأكاديميِّ الحديث، تدركُ بأنَّ حضارةً بكاملها هي في خطر نسيان الله؛ حيث إنَّ نظرتَها إلى العالم بعيدةٌ سنواتٍ ضَوئيَّةً عن نظرة طائفة الهسيدي.

إنَّ جزءًا من قدرة ديلارد على جَذبِ الآخرين يكمنُ في قدرتها على إثراء إيمانِ المسيحيِّين الجِدِّيِّين، في حين لا تزالُ لديها مصداقيَّةٌ بالنِّسبة إلى المثقَّفين المزدَرين بالدِّين. في الولايات المتَّحدة، يميل المسيحيُّون إلى خَلْقِ ثقافاتٍ فرعيَّة: يقرأون كُتُبَهم، ويستَمعون إلى موسيقاهم الخاصَّة، ويعلِّمون أولادَهم في مدارسهم الخاصَّة. لا يحدُثُ إلَّا تلاقٍ قليلٌ بين تلك الثقافة الفرعيَّة والثقافة العَلمانيَّة الكُبرى. بجَمْعِها ما بين الشَّكِّ العنيد والإصرار العنيد على الإيمان، تقومُ ديلارد بدَورِ الجسر ما بين عالمين: المؤسَّسة الأدبيَّة والمسيحيِّين المحافِظين.

تذكِّرني قراءة الكتب في بعض الأحيان بالسَّفر عبر نَفقٍ جبليٍّ طوله ميل (١,٦كم).

داخل النفق، توفِّر الأضواءُ الأماميَّة للمَركبات إضاءةً مصيريَّة؛ إذ من دونها قد أصطدمُ بجدران النفق. لكنْ بينما أقتربُ من مخرج النفق، تظهرُ بقعةٌ برَّاقةٌ من الضَّوء تحيطُ بالأضواء الأماميَّة وتجعَلُها دون فائدة حتَّى إنِّي عندما أخرجُ من النفق، تذكِّرني إشارةُ "افحص الأضواء الأماميَّة" بإطفائها. بالمقارنة بضَوء النَّهار، تبدو أضواءُ المركَبة خافتةً جدًّا حتَّى إنِّي لا أَعي وجودَها. عادةً ما تُكتَبُ الكُتُبُ المسيحيَّةُ من منظورٍ خارج النَّفق. ولأنَّ الأضواءَ ساطعة، ينسى الكاتبُ الظَّلامَ الفارغَ داخل النَّفق حيثُ يسافرُ العديدُ من القرَّاء. آني ديلارد تتذكَّر، وتوجِّه أضواءَها الأماميَّة بدقَّة.

إنَّها تكتبُ آخذةً في حسبانها اللَّاأدريَّ المثقَّف، آملةً في أن تجعلَه يُراعي "كَون الأشخاص الأغبياء ليسوا فقط من المسيحيِّين". إنَّها ترى أحَدَ أهدافها، وهو "محاولة التوسُّط بعض الشيء ما بين المسيحيِّين والإنسانيِّين- لا سيَّما ما بين المسيحيِّين الإنجيليِّين وزملائي في الأوساط الأكاديميَّة والفنِّيَّة الذين يعتقدون أنَّ المسيحيَّ هو شخصٌ مجنونٌ بملاءة بيضاء ومسدَّس...". وهي تتعاملُ مع الإنجيليِّين، وحتَّى الأصوليِّين، بصورةٍ فريدةٍ، باحترامٍ ولطف. عندما كانت تُدرِّس في كلِّيَّة هولنز في ڤيرجينيا في مرحلةٍ مبكِّرة من حياتها العمليَّة، كانت تمضي وقتًا تقرأُ فيه للعميان في "كلِّيَّة لاهوت شَناندوا" (Shenandoah Bible College)، حيث تعلَّمَتِ الجانبَ الأكثرَ رحمةً للأُصوليَّة. وهي تعملُ الآن متطوِّعةً في مطبخٍ لإعداد الحساء.

كتبتْ ديلارد في كتاب "**الشركة المقدَّسة**" قائلةً: "أعرفُ فقط ما يكفي عن الله لأعبدَه، بأيَّة وسيلةٍ في مُتناوَل اليَد". لا تخجلُ مُطلَقًا من التعريف بنفسها أنَّها مسيحيَّة، مع أنَّها تعترفُ بأنَّ خبرات التجلِّي الدينيَّة تحدُثُ بوتيرةٍ أقلّ الآن. منذ بضع سنوات، اتَّخذَت خطوةً علنيَّة جدًّا في تحوُّلها إلى الكاثوليكيَّة. وكما شرحَتِ الأمرَ لصحيفة نيويورك تايمز "ما أحبُّه في الكاثوليك هو أنَّ لديهم ذلك النوع من الطريقة البشريَّة الفوضَويَّة. إذا ذهبتَ إلى الكنيسة الأسقفيَّة، فإنَّك تجدُ الناسَ جميعًا مُتَشابِهين. إذا ذهبتَ إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة، فإنَّك تجدُ أشخاصًا من جميع

الألوان والأعمار، وتجدُ أطفالًا يزعقون. تجدُ نفسَك تدعمُ هؤلاء. لسانُ حالك يقول: "هأنذا. أحدُ الذين يحبُّون الله"''.

تمامًا كما تعلنُ الطبيعةُ الله وتحجبُه معًا، هكذا تفعل الكنيسة، وتكتب ديلارد المزيد والمزيد مباشَرةً عن إيمانها. قالت لتجمُّع من الفنَّانين المسيحيِّين: ''أشعرُ بأنِّي وُضِعتُ على الأرض لأصفَ خِدْمات الكنيسة، وهناك شيءٌ جوهريٌّ مضحكٌ جدًّا بشأنهم. في كثيرٍ من الأحيان، كدتُ أموتُ في الكنيسة في محاولةٍ منِّي لمنع نفسي من الضحك بصوتٍ مرتفع. كتبتُ عن هذا في مقالة "حملة إلى القطب" (An Expedition to the Pole). ما المضحكُ في الأمر؟ الفجوةُ بين ما نفعله وما نحاول أن نفعلَه. العلاقةُ ما بين عدم تناغُمنا، ومَن نحاولُ أن نحرِّكَه بصلواتنا. إنَّه نوعٌ من أنواع رَقْصِ الدببة[١٣]''.

المقالة التي تشير إليها تحتوي على هذه المرثاة:

> ''كنتُ أتردَّدُ على القدَّاس في الكنيسة الكاثوليكيَّة منذ عام واحد. قبل ذلك، كانت الكنيسةُ الأقربُ منِّي هي الكنيسةَ الطائفيَّة... كنتُ أتأثَّرُ أسبوعًا بعد أسبوع بمرأى غرفةِ المقدَّسات المثيرة للشَّفقة ذات الأرضيَّة العارية المصنوعة من المشمَّع حيثُ لا يمكنُ لأيَّة زهورٍ أن تنعشَها أو تزيِّنَها، كما كنتُ أتأثَّرُ بالتَّرنيم الفظيع الذي أحببتُه، وبقراءات الكتاب المقدَّس المرهقة، وبفراغ الطقوس الدينيَّة وضعفها، وبضَعف العِظة الهائل، وبضباب عدم المعنى الكئيب الذي يسود كلَّ شيء، الموجود جنبًا إلى جنب، وربَّما المتسبِّبَ في تعجُّبٍ من استمراريَّة حقيقة مجيئنا إلى هنا، أسبوعًا تلوَ أسبوع، ونحن نمرُّ بهذا الاختبار''.
>
> (كتاب ''تعليمُ حَجَرٍ كيف يتحدَّث'')

١٣) كما هو معلوم، تعيشُ الدببة في المناطق الباردة كمنطقة القطب (انظر عنوان المقالة). وإذ عُرِفَ عن آني ديلارد أنَّها كاتبةُ الطبيعة، فقد استخدمَت رقص الدببة لتَصِفَ محاولةَ البشرِ التقليديَّةَ الرتيبة في العبادة والصلاة (الناشر).

في أثناء إقامتها على جزيرةٍ في پوغِت ساوند، كانت تواظبُ على حضور الصلوات في كنيسةٍ صغيرةٍ حيث كانت في أغلب الأحيان الشخصَ الوحيدَ تحت سنِّ الستِّين هناك، وكانت تشعرُ كأنَّها في جولةٍ أثَريَّةٍ في روسيا السوڤييتيَّة. كانت الكنيسةُ الكاثوليكيَّةُ أكثرَ ابتكارًا. في إحدى المناسبات، اشتركَ أبناءُ الأبرشيَّة في سرِّ القربان المقدَّس بمصاحبة البيانو لألحان فيلم "صوت الموسيقى" (Sound of Music). تنهَّدت ديلارد وقالت: "أُفضِّل، على ما أعتقد، أن أتحمَّلَ تلك الليلةَ الحالكة لنفسي على أن أواجه حفلَ غناءٍ غير رسميٍّ في الكنيسة". ثمَّ تضيف: "على مدى ألفي عام لم نستطع إيجاد مكامن الخلل. بل إنَّنا ندعمها ونرفعُها إيجابيًّا. ونشهد المعجزةَ ذاتها أسبوعًا بعد أسبوع: أنَّ الله جبارٌ حتَّى إنَّه يستطيعُ أن يكبتَ ضحكته".

إنَّها تشتكي من الكنيسة، ليس الشكوى الموحشة لكثيرٍ من الكتَّاب العصريِّين- كَونَها لا تمتُّ لعصرنا بِصِلة- بل على العكس: إذا كانت المسيحيَّةُ حقيقيَّةً، فلماذا لا نتصرَّفُ بحسب تعاليمها؟ هل لدى أحَدٍ لو أدنى فكرةٍ عن نَوع القوَّة التي نستَدعيها بفَرَح؟ بالنسبة إلى ديلارد، الرهبانُ البنيديكتيُّون هم الأقرب. عندما تزورُ دَيرَهم، تؤدِّي الطقوسَ الدينيَّة وترنِّم الشعائر المقدَّسة سبعَ مرَّاتٍ في اليوم، وتجدُ أنَّ الرهبان يُمضون بين هذين الأمرَين فترةً مبالَغًا فيها بالضَّحك. إنَّهم يضحكون على أيِّ شيء، لا يتكلمون كثيرًا، لكنَّهم يضحكون.

بعضُ المسيحيِّين لا يعرفون تمامًا كيف يفهَمون آني ديلارد. عند كتابة مؤلَّفات الفنِّ وليس اللاهوت، تستخدمُ ديلارد مساراتٍ منحَرفةً لا اتِّجاه لها. تقول: "لو أردتُ أن أكتبَ عبارةً لاهوتيَّةً أو ما يُعبِّرُ عن فكر، لاستأجرتُ كاتبًا سماويًّا. ولكنِّي بدلًا من هذا أعملُ بجَهدٍ محاوِلةً أن أصنع فنًّا- ليس بالضرورة ذا جودةٍ عالية- لكن لأنَّه بطبيعته، لا يمكن أن يُختَزَل إلى نظامٍ صلب. إنَّه ليس محكمَ الإغلاق. سيقول الناس، "ما رأيكِ في هذا؟" وأنا سأقول: "لستُ أدري، إليكم ٢٧١ صفحةً وعليكم أن تقبَلوها كلَّها"".

وصفَ سورين كيركيغارد نفسَه كأنَّه جاسوس، رجلٌ غيرُ مقدَّسٍ يركِّزُ نظرَه على شخصيَّاتٍ مثيرةٍ للشُّكوك، بما في ذلك نفسه. يقول إنَّ رجالَ الشرطة يستخدمون الماكرين الذين يستطيعون حَشْرَ أنوفهم في أيِّ شيء، ويبحثون عن دليل ويكشفون الأمور. من ناحية، يعملُ كلُّ كاتبٍ عبر التجسُّس، ويكتبُ الملاحظاتِ وينتبهُ إلى التفاصيل التي يتَغاضى عنها الجميع، ويجوبُ العالَمَ بحثًا عن أدلَّةٍ على المعنى. بالنسبة إلى الكاتب الدينيّ، فإنَّ العمل في ثقافةٍ عَلمانيَّةٍ يعقِّد المهمَّة إلى حدٍّ كبير. إنَّ كتابةَ الكتب التي ستُعرَض في المكتبات المسيحيَّة لكي تُقرأ فقط من قِبَل أهل الكنيسة، يتطلَّبُ القليلَ من البراعة؛ أمَّا الكتابةُ الدينيَّة لجمهورِ قرَّاءٍ لديهم أعضاء إدراكٍ غير وظيفيَّة، فهذا يتطلَّبُ نوعًا معيَّنًا من النَّباهة والذَّكاء.

لا تُنكِرُ آني ديلارد هُويَّتها بتاتًا، لكنَّها لا تسردُ قصَّتها كاملةً أيضًا. إنَّها تعرفُ قرَّاءَها وتعرفُ نفسَها. فكَّرتُ في تَشبيه الجاسوسيَّة الذي وضَعَه كيركيغارد منذ وقتٍ ليس ببعيدٍ عندما عثرتُ على مقالة كتبَتْها ديلارد لمجلَّة "ذي يال ريڤيو" (The Yale Review) عام ١٩٨٥م. "الترنيمُ مع الأصوليِّين" (Singing with the Fundemantalists)، تستذكرُ الوقتَ التي درَّست فيه في جامعة بَلينغهام (Belligham) في واشنطن. في وقتٍ مبكِّرٍ من صباح أحَد الأيَّام، سمعتْ ترنيمًا ونظرَتْ من نافذتِها لتَرى مجموعةً من الطلَّاب مجتَمعين حولَ نافورةِ ماء.

> "أنا أعرف الطلَّاب الذين يُرنِّمون: هم الأصوليُّون. يوجَدُ الكثيرُ منهم في هذا الحرَم الجامعيّ. في الصباح يُرنِّمون عند الساحة؛ إنَّه نشاطُهم الوحيد الملموس. بغضِّ النظر عمَّا يُرنِّمون فإنِّي أودُّ أن أنضمَّ إليهم؛ لأنِّي أحبُّ أن أرنِّم. أودُّ أن أقفَ بجانبهم لأنِّي منجذبةٌ إلى عَبثِهم ولامُبالاتِهم البريئة بالنسبة إلى ما يراه الآخرون. زملائي وطلَّابي هنا، وأصدقائي في كلِّ مكانٍ لا يحبُّون الأصوليِّين المسيحيِّين ويخافونَهم. ربَّما لم يسبقْ لكَ قَطُّ أن قابلْتَ

أشخاصًا مثل هؤلاء، لكنَّكَ سمعتَ بما يفعلونه: يكوِّمون المال، ويُدلون بأصواتهم في كُتَل، وينتَخبون المجانين اليمينيِّين؛ يَضَعون رقابةً على الكُتُب، ويحملون مسدَّسات، ويحاربون الفلورايد في ماء الشرب والتطوُّر في المدارس؛ ربَّما كانوا سيُعدِمون الناس لو كان باستطاعتهم الإفلات من العقاب. لستُ متأكِّدةً من أنَّ أصدقائي على حقّ. أضعُ قلمي جانبًا وأنضمُّ إلى المرنِّمين في الساحة".

في تتمَّة المقالة، تسردُ ديلارد ما تعلَّمَتْه من الترنيم مع الأصوليِّين في الساعة التاسعة إلَّا رُبعًا من كلِّ صباحٍ خلال فصل الربيع. إنَّها تدرسُ المجلَّات التي يقرأُها هؤلاء الطلَّاب- "المسيحيَّة اليوم"، و"كامپس لايف"، و"الأبديَّة" (Eternity)- وتَصِفُ الطلَّابَ الذين تتعرَّف إليهم بالقول إنَّهم طلبةٌ أذكياءُ، ليسوا جُهَلاء؛ وهم يقرأون الكتابَ المقدَّس، لكنَّهم يقرأون أيضًا كُتُبَ النظريَّات الأدبيَّة. البعض يدعمُ الديمقراطيِّين المعتَدِلين؛ والبعض الجمهوريِّين المعتَدِلين.

في سياق المقالة، تُعيدُ ديلارد أيضًا كتابةَ كلمات الترانيم التي تُرنَّم، بما في ذلك الأبيات التالية:

قدِّم الحمدَ للملك
ورنِّم هللويا
إنَّه ملكُ الملوك...

أيضًا:

إنَّه سلامي
الذي حطَّم كلَّ جدارٍ
ألقوا عليه همومكم،
لأنَّه يعتني بكم.

وأيضًا:

تمجَّدْ يا ربُّ في حياتي،
تمجَّدِ اليوم.

وأيضًا:

سآكلُ من وفرةِ بيتك.
سأحلمُ بجانب جداول برِّك.
أنت مَلِكي.
ادخلوا أبوابَه
بالشكر في قلوبكم؛
ادخلوا حضرتَه بالحمد والترنُّم.

إنَّه ملكُ الملوك.

أنت هو الربّ.

تخبرنا ديلارد بسبب اختيارها الترنيمَ مع الأصوليِّين طوال الربيع: "...إنَّهم يأتون للأسباب ذاتِها التي آتي أنا من أجلها؛ لكلِّ واحدٍ علاقةٌ خاصَّةٌ "بالرَّبّ"، وهم يتحمَّلون الكثيرَ من الأمورَ التافِهةَ لأجلها".

حتَّى بالنِّسبة إلى جاسوس، يُعدُّ إنجازًا بطوليًّا العَمَلُ على وَضعِ نصِّ ترانيم حَمْدٍ مختلفة في مجلَّةٍ فكريَّةٍ تنشرُها جامعة يال. قالت لي ديلارد في ما بعد: "كاد أن يُغمى عليَّ عندما قَبِلوه"، ثُمَّ تابعَتْ تقول: "في الواقع، أنا أُعلِنُ عن نفسي أكثرَ فأكثرَ كلَّ سنة".

من الرَّسائل التي أتسلَّمُها ومن الملاحظات العابرة التي التَقطُها في الحفلات ومُناسَبات تَوقيع الكُتُب، استنتجتُ أنَّ لدى الناس صورةً لحياة الكاتب يُضْفون عليها الرَّوعة

والجمال. هؤلاء الناس لم يجلسوا لمراقبة كاتبٍ ما وهو يحدِّقُ في مَوسوعةِ المرادفات مدَّةَ خمسَ عشرةَ دقيقة بحثًا عن كلمةٍ واحدة. بالضَّرورة، حياة الكُتَّاب حياةٌ تمتازُ بالوَحدة. إنَّنا نعمَلُ وحدَنا، نصدُّ كلَّ المشتِّتات، ونخلق واقعَنا الخاصَّ بنا، نستكشفه ونكيِّفه حتَّى يحينَ الوقتُ لكي يُغريَ الناسَ الآخرين بالانضمام إلينا- بالتَّأكيد بحلول ذلك الوقت، نكونُ قد شكَّلنا بفرحٍ واقعًا مزيَّفًا آخر. في معظم الأوقات يكونُ العالمُ الذي خلَقْناه أكثر متعةً من الواقع المملِّ الذي نعيش فيه.

في بعض الأحيان، أشعرُ بأنَّ حياتي بوصفي كاتبًا قد سَيطرَتْ على حياتي الحقيقيَّة. لو لم أكُنْ كاتبًا، هل سأكونُ حتَّى مَوجودًا؟ كيف أعرفُ ما أفكِّر فيه أو ما أشعرُ به ما لم أفتَحْ دفترَ ملاحظاتي وأبدأ في الكتابة بشأنه؟ أتذكَّرُ أنِّي كنتُ أكتبُ قصَّةً قصيرةً في وقتٍ مبكِّرٍ من صبيحة أحَد الأيَّام. جلستُ مدَّةَ ثلاث ساعات، أرهَقْتُ نفسي لأطوِّرَ شخصيَّاتٍ ثلاثيَّةِ الأبعاد وأُزيلَ المصطلحاتِ المبتَذَلةَ من حوارهم. بوصفي مبتدئًا قليلَ الخبرة في كتابةِ الروايات الخياليَّة، كان يُصيبُني صُداعٌ رهيبٌ من المحاولة. دون شكّ، استخدَمْتُ العُذرَ لأتوقَّفَ عن الكتابة وأسيرَ عبر الشارع إلى أحَد المقاهي. تخيَّلْ دهشتي عندما اكتشفتُ أنَّ جميعَ الناس في المقهى كانوا شخصيَّاتٍ ثنائيَّةَ الأبعاد ويتكلَّمون بعباراتٍ مُبتَذَلة! لم يَبْدُ أيٌّ منهم مثيرًا للاهتمام بالنسبة إليَّ كالأشخاص الذين ملأوا قصَّتي. هربتُ عائدًا إلى أمان الواقع المزيَّف الذي كان ينتَظِرُني أنا (وأنا وحدي) في مكتبي في الطابَق السفليّ.

تعرفُ آني ديلارد هذه المتلازَمة جيِّدًا. إنَّها تفضِّلُ العملَ في مكاتبَ من الحجارة دون نوافذ- وهي تقول إنَّها مملَّةٌ حتَّى إنَّها تبدِّلُ في بعض الأحيان لونَ قلمها على سبيل التغيير والإثارة.

> "لا يخفى على أحَدٍ أنَّ حياةَ الكاتب هي دونَ لونٍ إلى درجة الحرمان الحسِّيّ. العديدُ من الكُتَّاب لا يفعلون شيئًا سوى الجلوس في غرفٍ صغيرةٍ يستَذكرون العالم الحقيقيّ. وهذا ما يفسِّرُ سببَ وَصْفِ كُتُبِ

كثيرةٍ جدًّا طفولةَ المؤلِّف. ربَّما تكونُ مرحلةُ طفولةِ الكاتب المناسبة الوحيدة لخبرته الأصليَّة. يقرأ الكُتَّاب السِّيَرَ الذاتيَّة الأدبيَّة ويحيطون بأنفسهم كُتَّابًا آخرين مُقنِعين أنفسَهم بالفكرة المضحكة أنَّ الخِيارَ المعقولَ لإشغال نفسك على هذا الكوكب حتَّى تؤدِّيَ حياتُكَ دَورَها، هو الجلوسُ في غرفةٍ صغيرة خلال تلك المدَّة بصحبة الأوراق".

(من كتاب "حياة الكتابة" [The Writing Life])

تُدركُ ديلارد أنَّ لدينا نحن الذين نكتبُ عن الحياة طاقةً قليلةً مُتبقِّيةً لنعيشَ في الواقع. معظمُنا، في الحقيقة، ليسَ مؤهَّلًا ليَحيا، وبكلِّ صدق، نفضِّلُ الجلوسَ في غرفٍ صغيرةٍ بصحبة الأوراق. لكن في سنٍّ مبكِّرة، خرجَتْ فجأةً من غرفتها لتَجِدَ أنَّ آلاتِ التَّسجيل تعملُ في كلِّ مرَّة كانت تفتحُ فيها فمَها، وكان القرَّاء من كلِّ أنحاء العالم يكتُبون ليَسألوها أن تسدي إليهم النُّصح. بالنسبة إلى ديلارد، غيَّر فوزُها بجائزة پوليتزر كلَّ شيءٍ بين عشيَّةٍ وضُحاها. "عندما كنتُ في العشرينيَّات من عمري نلتُ جائزة پوليتزر. لم أقصد ذلك، إنَّما تحدُثُ هذه الأمورُ لك من حيثُ لا تدري. كنتُ مُحرَجَةً بصورةٍ فظيعة، واختبأتُ قَدْرَ ما أستطيع". بينما كانت تسعى لأنْ تكونَ حاجَّةً، ظلَّ العالمُ يحاولُ أن يجعلَ منها قدِّيسةً.

كلُّ هذا الاهتمام كان مشوِّشًا بصورةٍ فظيعةٍ في البداية. أتَتْها العروضُ للتَّوقيع على الكُتُبِ والمنتجات، ولتَكتبَ نصوصَ هوليوود (Hollywood)، وقصصًا موسيقيَّة وأغاني. وامتلأ صندوقُ بريدها بالدَّعوات لإلقاء المحاضَرات والتَّدريس. في وقتٍ ما، هربتْ وانتقلتْ عبرَ البلاد كلِّها من ڤرجينيا شرقًا لتَعيشَ في بيتٍ من غرفةٍ واحدةٍ في ساوند پوغِت. أخذَتْ على نفسها عَهدًا، لا يزال قائمًا أن تُقدِّمَ قراءتَين علنيَّتَين فقط في السنة. سألتْ ديلارد ذات مرَّة: "هل كان يسوع يقبَلُ الظُّهورَ على التلفاز؟" رفضت عرضًا للظهور في برنامجٍ تلفزيونيٍّ "اليوم" (Today)، لكنَّها قرَّرت أن تمنحَ مُقابَلاتٍ انتقائيَّةً لمحرِّرين صحفيِّين.

كانَتِ المقابَلاتُ تزعجُها، لا سيَّما تلك التي تؤثِّرُ في حياتِها الشخصيَّة. عندما أمضى مراسلُ نيويورك تايمز عطلة نهاية الأسبوع مع ديلارد في كونكتيكت (Connecticut)، بقيت آني نصفَ الليل تَبكي دون أن تستطيعَ السَّيطرة على نفسها؛ لأنَّها كانت مُتَضايِقةً من أسئلةٍ طرحها عليها حول إيمانها. ومع ذلك تَعاوَنَتْ، حاسبةً نفسَها حاجَّة تخضَعُ لاستِشهادٍ عاطفيّ.

لا شكَّ أنَّ السنواتِ التي كانت فيها تحتَ الأضواء قد ألحقَتْ بها ضَرَرًا شخصيًّا. لقد تزوَّجَتْ ثلاثَ مرَّات. وينمُّ صوتُها عن عقودٍ من التدخين. بصفتها إنسانًا، تَبدو لي هَشَّةً بصورةٍ غريبة، وحاجباها الرفيعان وشعرُها الرقيقُ وبشرتُها الشَّاحبة، تُسهمُ جميعُها في إعطاء هذا الشُّعور بالهَشاشة. وفي جميع مراحِلِ مهنتِها، جعلَتْ ديلارد مجالاتِ صراعها الشخصيَّة شفَّافةً- مع الشُّهرة، ومتطلَّباتِ حياةِ الكتابة القاسية، ومع الشكِّ والإيمان. في وجه آلة الشُّهرة الأميركيَّة القاسية المتواصِلة، لا يكونُ للكاتب الرَّصين إلَّا خِياراتٌ قليلة: إمَّا أن يستَسلم، مثل ترومان كابوت (Truman Capote) ونورمان مايلَر (Norman Mailer) وغور ڤيدال (Gore Vidal)، وإمَّا أن يختَفيَ مثل جاي. دي. سالينغر (J. D. Salinger) وتوماس پينشون (Thomas Pynchon). اختارَتْ ديلارد طريقًا وَسَطًا. إنَّ كلمةَ حاجَّة في عنوان أوَّل كتابٍ رئيسيٍّ لها يقدِّم دليلًا على الكيفيَّة التي ترى بها نفسَها.

قابلتُ آني ديلارد آخرَ مرَّة في مؤتمرٍ في كانساس حيثُ تسلَّمَتْ جائزةَ مركز ميلتون (Milton) التي تبلغُ قيمَتُها عشرةَ آلافِ دولارٍ لتَميُّزها في الأدب المسيحيّ. كانت تُلقي النكات وتشاركُ الحاضرين في إعطاء إجاباتٍ سريعةٍ ذكيَّة، وأشغَلَتِ الجمهورَ مثلَ شخصيَّةٍ كوميديَّة تقدِّم عَرْضًا فرديًّا. كان المعجَبون بها، ومعظمُهم من الكُتَّاب الطامحين، يستَقبلونَها بحماس. الآن وهي في منتصف الخمسينيَّات، ولها أعمالٌ ناضجةٌ شكَّلتْ رصيدَها، صارَتْ ديلارد جزءًا من المؤسَّسة الأدبيَّة التي رحَّبت بها مرَّةً بوصفها وافدةً جديدةً مُبهِرة. بطريقةٍ ما، عاشتَ لتفي بوعدها؛ وبطريقةٍ أُخرى، لم تفعَلْ هذا بحسب تقييم النُّقَّاد. عندما يفوزُ كتابُك الأوَّلُ باستِحسانٍ عالميّ، ماذا تفعلُ بشأن الكتابة من جديد؟

يكتبُ الآلاف لديلارد. لقد نُشِر كتابُ "**حاجٌّ عند جدوَل ماء تِنكر**". وعلى الرُّغم ممَّا كان يُظَنُّ في وقتٍ لم يكُنْ للرُّوحانيَّة فيه مكانٌ في الأجواء الأدبيَّة، ووسط تلك الصحراء، فقد تلألأ هذا الكِتاب مثل واحةٍ للنَّفس. لقد أثَّرَ في بعض القرَّاء مثلَ تأثير أدبِ الخَيال في قرَّاءٍ آخرين، إذ أشارَ بصورةٍ مُقنعةٍ إلى عالمٍ آخر. بصورةٍ لاإراديَّة، صارت آني ديلارد قدِّيسةً عصريَّةً- صارت رمزًا.

كتبَ طالبٌ جامعيٌّ يسأل عن تعريف التفوُّق، وكيف يمكنُه أن يحصُلَ على المزيد منه في كتابَته. أرسَلَ لها أحَدُ الكهنة مغلَّفًا استَطاعَتْ أن ترى في داخله، عندما رفعته أمام الضوء، خيالَ صليب. عندما فتحت المغلَّف، "بدلًا من الصليب، سقطَ في راحة يدي شكلٌ صغيرٌ للسيِّد المسيح المتألِّم. قفزتُ قائلةً إنَّه لا شكَّ قد سقطَ من على صليبه في البريد". أرسَلَت لها الراهبات ميداليَّات وقطعَ قِماش من حجاب ڤيرونيكا. كتبَتْ لها امرأةٌ من جانب سرير حفيدها المحتَضَر وطلبت من ديلارد أن تُجيب عن تساؤلٍ واحد: هل كانت الولايات المتَّحدة على صوابٍ أم على خطأ عندما ألقَتِ القنبلةَ النَّوَويَّة على هيروشيما؟ وتساءَلَ أحَدُ الفنَّانين المعروفين: "لا أقصدُ أن أُضايقَكِ، لكن هل لكِ أن تخبريني ما إذا كان الله هنا يراقبُ خليقتَه، وما يزالُ يقرِّرُ مَن يعيشُ ومَن يموت، أم أنَّه اختفى؟" كان ابنُ الفنَّان قد غرقَ وهو يقودُ قاربًا شراعيًّا صغيرًا.

هل من عَجبٍ أنَّها انتقلَتْ مسافةَ ثلاثة آلاف ميل (نحو ٤٨٠٠ كم)؟ لقد انتقلَتْ إلى واشنطن دون أن تعرفَ أحَدًا في الولاية، وبالكاد تأقلمَت هناك: "كان لدى النساء هناك نوعٌ من الثقافة لم أتمكَّن من مشاركته. إنَّهنَّ يستخدمنَ مناشيرَ الخشب الآليَّة، ويتناولنَ أشياءَ معلَّبةً، ويُرضِعْنَ الأطفال رضاعةً طبيعيَّة. اعتقدتُ أنِّي كنتُ متمرِّدةً على العادات الاجتماعيَّة إلى أن ذهبت إلى هناك. وهناك، صرتُ فجأةً امرأةً مثقَّفة لها اهتماماتٌ أدبيَّة".

شعَرَتْ بأكثر من وخزة ذنبٍ تجاهَ نَوع الكتابة التي كانت تقوم بها والتي هي كما اعترفت، "منعزلة بشكلٍ مخيف عن القضايا السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة".

عندما يكتبُ شخصٌ بشكلٍ خاصٍّ عن الإيمان الدينيّ، تبرزُ التّعقيداتُ لأنَّ الكتابةَ تتطلَّبُ شعورًا بالذات يحطِّمُ الاستسلام الذاتيَّ الساميَ الذي يسعى إليه كلّ حاجّ. إنَّ كلَّ كاتبٍ يتَناوَلُ المواضيعَ الروحانيَّة في كتاباته يستطيعُ أن يشعرَ بهاجس توماس ميرتون بأنْ تكونَ كُتُبُه قد عبَّرت عن الحياة الروحيَّة بكلِّ ثقةٍ وكلِّ تأكيدٍ في حين كان هو مُصابًا بالقلق بسبب عدم الأمان والشكوك وحتّى المخاوف. أهناك مكانٌ للحاجّ- هكذا فقط، حاجٌّ وليس خبيرًا أو قدِّيسًا؟

في كتاب "**الشركة المقدَّسة**"، تُدرجُ ديلارد تنصُّلًا (إخلاء مسؤوليَّة): "لا أعيشُ بشكلٍ جيِّد، أنا أشيرُ فقط إلى الرؤية". شرحَتْ لي ذات مرَّة قائلةً: "يطلبُ منّي رجالُ الدِّين التحدُّث في أديرَتهم فأُجيبهم بالرَّفض، طالبةً أن يحتفِظوا برؤاهم. في كتاب "**ساحرُ أوز**" *(The Wizard of Oz)* هناك آلةٌ عملاقة، ووراءَ السِّتار رجلٌ صغيرٌ يُديرها ويكبسُ أزرارَها. عندما يزيحُ الكلبُ السّتار ليكشفَ عن الرجل الصغير، تقول الآلة: "لا تُبْدوا اهتمامًا بذلك الرجل خلف الستار! انظروا إلى عَرْض النور". لذلك أطلبُ من الرُّهبان أن يحتَفظوا برؤاهم عن القوَّة والقداسة والنقاوة. لدينا جميعًا لمحاتٌ من الرؤيا، لكنَّ الحقيقةَ هي أنْ لا أحَدَ منّا عاشَ الرؤيا".

منذ عشرين سنةً تقريبًا قلتُ لها إنّي سأصلّي من أجلها في يومٍ واحدٍ من أيّام الأسبوع؛ لأنّي تخيَّلتُ نَوعَ الضُّغوط التي كانت ستُواجِهُها. قالت لي منذ فترةٍ وجيزة: "لم يقُلْ لي أحَدٌ قطُّ إنَّه سيُصلّي من أجلي. نتيجةً لذلك، شعرتُ بأنَّ لزامًا عليَّ أن أستحقَّ صلواتِك، وذلك ببقائي كاتبةً مسيحيَّة، وأن أفعلَ هذا بأفضل ما أستطيع".

عندما لاقَتْ كاتبةٌ مكافحةٌ نجاحًا غير متوقَّع وكَتَبَتْ لديلارد طالبةً النُّصح، تلقَّتْ الجوابَ التالي: "لديَّ رسالةٌ مُلحَّة لكِ. يشعرُ الجميعُ كأنَّه قد خُدعَ... افصِلي نفسَكِ عن عملك. الكتابُ الذي كتبتِه ليس أنتِ بعد الآن، فهو كالكرسيِّ الذي صنعتِه أو الحساء الذي أعدَدْتِه. إنَّه شيءٌ صنعته مرَّةً واحدة. وإذا أردْتِ في أيِّ وقتٍ آخرَ أن تؤلِّفي كتابًا آخر، فهو سيَكون أيضًا مجرَّد تحدٍّ آخر، درهمَ أرملةٍ آخرَ،

تقدِمةً مُنسَحِقةً أُخرى أدركَ الله منذ زمنٍ طويلٍ أنَّها أفضلُ ما نستطيعُ نحن البشرَ أن نقدِّمه- لقد غُفِر لنا مُقدَّمًا".

تشهدُ أعمالُ ديلارد نفسُها عن صحَّة نصيحتها. في خيمياء[١٤] الكلمة المكتوبة، صارَتْ صراعاتُ الحاجِّ المخلِصة مصدرَ راحةٍ للآخرين، وعزَّزتْ شكوكُها إيمانَ الآخرين. بصفتي كاتبًا مُدركًا تمامًا مجالاتِ فشلي في الحياة، تمنحُ تلك الخيمياءُ الغامضةُ الرجاء. قال كيركيغارد متسائلًا: "ما تعريفُ الشاعر؟ الشاعرُ هو مخلوقٌ غيرُ سعيد، تمزِّقُ قلبَه مُعاناةٌ خفيَّة، لكنَّ شفتَيه صُنعَتا بطريقةٍ غريبةٍ فتَصدُرُ عنهما أصواتُ التنهُّد والبكاء مثل الموسيقى الجميلة...".

لنبدأ مع آني ديلارد

إنَّ كتاب "**حاجٌّ عند جدول ماء تِنكر**"، وهو من أوائل كُتُبِ ديلارد، لا يزال يُعطي أفضلَ عرضٍ لأسلوبِها وفِكرها. وبصفتها كاتبة، هي ترغبُ في محاوَلة الكتابة عن كلِّ شيءٍ تقريبًا. يقدِّمُ كتاب "**حياة الكتابة**" وكتاب "**العيش بأدب الخيال**" *(Living by Fiction)* مادَّةً غنيَّةً للذين يهتَمُّون بحِرفةِ الكتابة، أمَّا كتاب "**طفولة أميركيَّة**"، فهو يُرضي القرَّاء المهتَمِّين بآني ديلارد نفسها. وقد نشرَتْ أيضًا قصَّةً كاملة، "**الأحياء**" *(The Living)* التي تلقَّت ردودَ فعلٍ مُتَباينة، وعدَّة مجلَّداتٍ من الشعر. يجمعُ كتابُ "**كتاب آني ديلارد**" *(The Annie Dillard Reader)* مقتطفاتٍ من مؤلَّفاتٍ متعدِّدة- نماذج مختارة من قِبَل المؤلِّفة- يستَطيعُ القُرَّاء المخلِصون البحثَ عنها في مصادرها الأصليَّة أيضًا.

١٤) ننوِّه هنا إلى أنَّ الكاتبَ استخدمَ في الإنكليزيَّة كلمةَ (Alchemy) وتترجمُ الخيمياء وليس (Chemistry) ومعناها الكيمياء. و"الخيمياء" علمٌ أسطوريٌّ يختلفُ عن الكيمياء، إذ تُشرَحُ فيه أساليبُ تصيير المعادِن ذَهبًا. وربَّما استخدمَ المؤلِّف هذه الكلمة لإظهار أنَّ تأثيرَ كلمات ديلارد هو مثل تأثير الخيميائيِّ، العالم الأسطوريِّ الذي يجعَلُ المعادن تصيرُ ذهبًا (الناشر).

الفصل الحادي عشر

فريدريك بوشنر

(Fredrick Buechner)

همساتٌ من الكواليس

أذكرُ اليومَ الذي التقطتُ فيه كتابي الأوَّل بقلم فريدريك بوشنر. وصلَ الكتابُ ضمنَ مجموعةٍ من الكُتُب هديَّةً من أحَدِ الأصدقاء، وقد اخترتُه بشكلٍ رئيسيٍّ بسبب طابَعه الموجز (أقلُّ بقليل من مئة صفحة). كان كتابَ عظاتٍ مُقتَبَسًا من عظاتٍ فعليَّة كان بوشنر قد ألقاها عن الوعظ ضمن سلسلة المحاضرات المعروفة بِاسْم بيتشر (Beecher) في جامعة يال. لكنَّ هذه العظات كانت تُشبِهُ العِظةَ العاديَّة بقدر ما كانت مسرحيَّاتُ شكسپير تُشبِهُ عرضًا مسرحيًّا كنسيًّا عاديًّا في عيد الميلاد.

"كانت السيِّداتُ المسنَّاتُ الجالساتُ في الصفوف الأماميَّة يشغِّلن أجهزةَ السَّمع، وكانت سيِّدةٌ شابَّةٌ تُعطي خلسةً، حبَّةَ نعناعٍ وقلمَ تلوينٍ لابنها ذي الستِّ سنوات. عاد طالبٌ في السنة الجامعيَّة الثانية إلى بيته خلال العطلة، وهو هناك لأنَّه اضطُرَّ إلى الذَّهاب إلى هناك، يسيرُ مُتَثاقلًا مُمسِكًا ذقنَه بيَدِه. ونائب رئيس أحَدِ البنوك،

> كان قد فكَّر جِدِّيًّا مرَّتين في الانتحار في ذلك الأسبوع، يَضَعُ كتابَ الترانيم مكانَه. وتشعرُ فتاةٌ حاملٌ بالحياة تتحرَّك في داخلها. ومدرِّسُ مادَّة الرياضيَّات في مدرسةٍ ثانويَّة، تمكَّن مدَّةَ عشرين سنة في إبقاء ميوله الجنسيَّة المثليَّة سرًّا معظم الوقت، حتَّى عن نفسه، يكشطُ برنامجَ خدمةِ العبادة في الوسط بظفر إبهامه ويضعه تحت ركبته... ويشدُّ الواعظُ الحبلَ الصغيرَ الذي يُشعِلُ ضَوءَ منصَّةِ الوَعْظ ويرتِّب بطاقاتِ ملاحظاته مثل مُقامرٍ على قاربٍ نهريّ. لم تكن المخاطرُ قطُّ أكبرَ ممَّا هي عليه".

إنَّ قراءةَ الكتاب هي أقربُ إلى القصَّة منها إلى العِظَة، وهذا أمرٌ مفهومٌ لأنَّ بوشنر، كما علمتُ في ما بعد، كان روائيًّا بوقتٍ طويلٍ قبل أن يَصيرَ واعظًا. مهما كان ما يكتُبُه، فهو يعتمدُ على الأسلوب الروائيّ: تفاصيلُ حسِّيَّة، أسلوبُ القصَّة المثيرة للاهتمام، تشويقٌ يشدُّ القارئ. لكنْ في مُقابَلتي الأولى، لم أهتمَّ كثيرًا بأسلوبِ النَّثر، لكنِّي تأثَّرتُ جدًّا بالدراما المحضة أو الشفَّافة للقصَّة القديمة- القصَّة القديمة المرويَّة بأسلوبٍ جديد. ذلك الكتابُ الصغيرُ الحجم بعنوان "قولُ الحقيقة" *(Telling the Truth)*، يحملُ عنوانًا فرعيًّا هو "الإنجيل بوصفه مأساةً وكوميديا وقصَّةً خرافيَّة" (The Gospel as Tragedy, Comedy, and Fairy Tale)، ويتألَّفُ من ثلاثة أقسام يوجِزُ فيه بوشنر قصَّة المسيحيَّة كاملةً. وهو يقتبسُ من مسرحيَّة شيكسپير "الملك لير" (King Lear)، ومن قصَّة "ساحرُ أوز" بقَدْر ما يقتبسُ من إشعياء ومتَّى، ولسببٍ ما، وجدتُ أنَّ هذا هو ما يجعلُ الإنجيل أكثر قابليَّةً للتَّصديق.

كان ووكر پيرسي يقول إنَّ أدبَ الخيال الجيِّدَ يُخبرُنا بما نعرفُه، لكنَّه لا يعرفُ تمامًا ما نعرفُه. وكذلك هو اللَّاهوت الجيِّد. ذكَّرَني بوشنر بأنَّ الإنجيلَ ليس غطاءً منهجيًّا يُفرَضُ على الحياة، إنَّما هو خُلاصةُ كلِّ ما هو صحيحٌ بشأنها. الحياة مأساويَّة، مثلما كانت أيَّامُ الملك لير ويسوع الأخيرة الحزينة؛ وهي هَزليَّة مثل حيوان المدرَّع، أو مثل حَبَلِ المرأة المسنَّة، الأمّ

اليهوديَّة المدعوَّة سارة. إذا كانت قصَّةُ يسوعَ تحملُ لنا أيَّة وعودٍ على الإطلاق، فالحياةُ هي عبارةٌ عن قصَّةٍ خياليَّة بنهاية جيِّدة جدًّا حتَّى إنَّها لا يمكنُ أن تكونَ غير صحيحة، إنَّها نسمةُ "فَرَحٍ أبعَدُ من جدران العالم، وأكثر إثارةً للمَشاعر من الحزن".

صارَ بوشنر بالنسبة إليَّ مُرشِدًا في إعادة اكتشاف الإنجيل الذي صارَ مألوفًا جدًّا بالنِّسبة إليَّ. بخلافي، لم يُضطرَّ لأنْ يطرَحَ جانبًا ما تعلَّمه في الكنيسة، ما دامَ لم يتعلَّم الكثيرَ هناك. انطلقَ في حَجِّه طَوعًا عندما صار بالغًا، وهو رحلةٌ مشحونةٌ بالمجازَفات والمخاطر وليسَ جَولةَ مجموعةٍ ما بخطٍّ سَير مرتَّبٍ مُسبَّقًا. وهو نتيجةً لذلك، يجعَلُ الحقائقَ الأساسيَّةَ للإنجيل تتوهَّجُ كأنَّه اكتَشَفَها لتَوِّه في جَرَّة فخَّارٍ في الشرق الأوسط. إنَّ الإيمانَ المسيحيَّ يؤثِّر فيه كالأخبار السارَّة؛ لأنَّه يقدِّمُ حقائقَ العالم كما اختبرَها هو، ويعبِّرُ بالكلمات عن أعمق الأشياء التي شعرَ بها وهو يعيش على هذا الكوكب.

يقولُ بوشنر إنَّ لدى القسِّ قصَّتَين ليَسردَهما: قصَّة يسوع وقصَّة القسّ. في حالة بوشنر، تُنيرُ قصَّة القسِّ طريقةَ سَرْده للقصَّة الأُخرى؛ حيثُ إنَّ بعضَ الأحداث المحدَّدة في حياته تقدِّم خلفيَّةً مضيئةً لكلِّ شيءٍ تقريبًا كان بوشنر قد كتبَه. في سنِّ العاشرة، شاهدَ فريدريك وأخوه الأصغر جيمي من نافذة غرفة نَومهما في الطابَق العلويِّ والدتَهما وجدَّتَهما وهما حافِيَتا القدمَين وفي ملابس النَّوم، تُحاوِلان إنعاشَ جسدٍ دون حِراك يرتدي بنطالًا رماديًّا وسترةً كستنائيَّة وهو مستلقٍ ووجهه نحو الأعلى في الطريق الذي يصَلُ إلى البيت. كان ذلك والدَهما الذي تُوفِّيَ نتيجةَ التسمُّم بأوَّل أُكسيد الكربون الصادر من محرِّك سيَّارةٍ يَدورُ في مرأبٍ مغلَق. بعد بضع سنوات، قَتَلَ عمُّ فريدريك الأصغرُ نفسَه.

كان فريدريك، بكلماته الخاصَّة، "ولدًا مولعًا بالكُتُب يحبُّ المطر، وكان مُنْطَوِيًا على نفسه"، وقد أثارَ فيه موتُ والده وعمِّه شعورًا لم يفارقه بتاتًا بكَونه فانيًا. تساءلَ لبَعض الوقت عمَّا إذا كانت العائلةُ مُصابةً بنَوعٍ قاتلٍ من جينات الانتحار. وخلالَ

سنوات نشأته، ساعدَتْ مآسي العائلة أيضًا على إقناعه بأنَّ حياةَ معظمنا تشكِّلُها قوى الأصدقاء وأفرادِ العائلة الحميمة والأسرار المشتركة، أكثر ممَّا تُشكِّلُها القوى العالميَّة التي تَصفُها كلَّ ليلة نشرات الأخبار التلفزيونيَّة. لقد تعلَّم، مثل كلِّ كاتبٍ قصصيٍّ جيِّد، أنَّ السلوكَ البشريَّ لا يمكن تفسيرُه ولا توقُّعه، إنَّما هو أمرٌ يُعطى فقط.

حدثَ أمرٌ آخرُ من نوعٍ مختلفٍ قاطَعَ مجرى حياته عندما وصلَ إلى سنِّ السابعة والعشرين. بعدما أنجزَ كتابةَ روايتَين، مدح النُّقَّادُ إحداها بصورةٍ مبالغٍ فيها، وهي روايةُ "**موتُ يومٍ طويل**" *(A Long Day Dying)*، انتقلَ بوشنر إلى نيويورك ليجرِّبَ العملَ في الكتابة بدوام كامل. واجَهَ عدم القدرة النفسيَّة على الاستمرار، ووجَدَ نفسَه غير قادرٍ على كتابة أيِّ شيء، وأُصيبَ بالاكتئاب، وفكَّر في مِهنٍ أُخرى- ربَّما في مجال الإعلانات أو العمل مع وكالة الاستخبارات الأميركيَّة. بطريقةٍ غير معهودة، ولمجرَّد أنَّ المبنى المثيرَ للإعجاب كان يقعُ على بُعدِ شارعٍ من شقَّته، بدأ يداومُ على حضور خدمةِ الصَّلاة في الكنيسة المشيخيَّة في شارع ماديسون، وهي الكنيسةُ الأمُّ للواعظ الذائع الصيت جورج بَتريك (George Buttrick). في عام ١٩٥٣م، تقريبًا في فترة تتويج الملكة إليزابيث الثانية، سمعَ بوشنر عِظةً غيَّرتْ حياتَه. كان بَتريك يُقارِنُ ما بين تتويج إليزابيث وتتويج الربِّ يسوعَ في قلب المؤمن الذي، كما قال، يجبُ أن يحدُثَ بالاعتراف والدُّموع. إلى هنا كان الأمرُ جيِّدًا.

> "ثُمَّ أخذَ يهزُّ رأسَه إلى الأعلى والأسفل بحيث لَمعتْ نظَّارتُه، وقال بصَوته المتهدِّج الغريب، صوتِ ممرِّضٍ كبير السِّنّ: إنَّ تتويجَ يسوع جرى وسط الاعتراف والدموع، كذلك وسط الضحكات المدويَّة- والله كان ولا يزال شاهدًا على أقوالي. يُتوَّج يسوع بين الاعتراف والدموع من جهة، والضحك العظيم من جهةٍ أُخرى، وعندما ذكرَ عبارة الضَّحك العظيم، ولأسبابٍ لم أستطع أن أفهمها قَطُّ بصورةٍ مُرضِيَة، انهارَ جدارُ الصين العظيم وبرزَتْ قارَّة

أتلانتس الغارقة من البحر، وفي ماديسون في الشارع ٧٣، انهمرَتِ الدُّموعُ من عينيَّ كما لو أنّي تلقَّيتُ صَفعةً على وجهي".

(كتاب "ألفبائيَّة النعمة" [*The Alphabet of Grace*])

بعد أسبوع، سألَ الكاتبُ القصصيُّ الشابُّ بَتريك عن كلِّيَّة اللَّاهوت التي عليه أن يلتحقَ بها. قادَه بَتريك بسيَّارته إلى كلِّيَّة لاهوت يونيون (Union) حيث التحقَ بوشنر بوصفه طالبًا في السنة الدراسيَّة التالية ليتعلَّمَ من أمثال راينولد نيبور وجيمس مولينبرغ (James Muilenburg) وبول تيليك، وفي نهاية المطاف، طلبَ أن يُرسَمَ بصفةِ قسٍّ مشيَخيّ. اعتَقدَ أصدقاؤه وعائلتُه أنَّه غَبيّ؛ إذ كان من الواضح أنَّه تخلَّى عن مهنةٍ واعدةٍ بصفته كاتبًا. سألَتْ إحدى السيِّداتُ المتعاليات في إحدى حفلات الكوكتيل: "فريديك، هل اتَّخذتَ أنتَ ذلك القرار بنفسك، أم أنَّها نصيحةٌ سيِّئة أسداها أحَدهم لك؟".

كان بوشنر يتعرَّضُ في بعض الأحيان لإغراء تفسير خبرته في التحوُّل بموجب تعاليم فرويد، على أنَّها بحثٌ عن والدٍ مفقود، أو بحسب المذهب الوُجوديّ، قفزةُ إيمانٍ ناتجة عن ردِّ فعلٍ على القلق الذي سبَّبَه فشلُه في مهنته. وهو يقاوم التجربة وينظر إليها بصفتها نموذجًا "للنِّعمة المجنونة المقدَّسة"، التي تخرجُ من وقتٍ إلى آخر "من خلال نقائص القاعدة الصارمة للأشياء ومن شقوقها".

أجرى العديدُ من الكتَّاب العصريِّين بحوثًا في مَوضوع اليأس في العالم حيث يبدو الله غائبًا معظمَ الوقت، لكنَّ قليلين حاوَلوا معالجةَ واقع ما يعنيه حضورُ الله. لم ينسَ بوشنر البتَّة أنَّ السيِّدَ المسيحَ تُوِّج بروح الضَّحِك. إنَّه يكتبُ عن ملكوتٍ سحريّ، ونهايةٍ لرحلتنا الشاقَّة المُرهِقة، وبيتٍ سيَشفي أخيرًا الحنينَ إلى البيت الذي تتَّصفُ به أيَّامُنا. بصفته واعظًا وكاتبًا، حاوَل أن يُعيدَ إيقاظَ الطِّفل في الناس- الطفل الذي يثقُ بسَذاجة، والذي يذهبُ على الأقلّ ويبحث عن المكان السحريّ، الذي لا يخجل من عدم معرفته الأجوبة لأنَّ أحَدًا لا يتوقَّعُ منه أن يعرفَ الأجوبة. نظرًا إلى

حزني وكآبتي، وهاجس مشكلة الألم الذي يستحوذ عليَّ، وطفولتي المبتورة عاطفيًّا، فإنَّها كانت رسالةً بثّت فيَّ الحياة.

يقول بوشنر: "نجَوْتُ من النظرة الداخليَّة العميقة عبرَ الهاوية. ربَّما يُبقي الله حقًّا أعمقَ صمتٍ لديه لقدِّيسيه، وإذا كان الأمرُ كذلك، فأنا لا أستحقُّ ذلك الصمت. لديَّ حتمًا شكوكٌ عقليَّة. لكنْ كما يقول جون أپدايك، إذا لم يكُنِ الله مَوجودًا، فإنَّ الكَونَ هو عرضٌ مسرحيٌّ غريب، وأنا لا أختبرُه على هذا النحو. مع أنَّه كانت لديَّ رؤية لا مؤذِية أو لا مُبهِجة، فإنِّي سمعتُ همساتٍ من كواليس المسرح".

قابلْتُ بوشنر أوَّل مرَّةٍ في بداية الثمانينيَّات من القرن الماضي، تقريبًا في الوقت الذي قرَّرَ فيه أن يَهَبَ مراسَلاته ومسوَّدات نصوص كتبه الأصليَّة لكلِّيَّة ويتون، لتُحفَظَ في مجموعةِ "وايد" (Wade) في الكلِّيَّة جنبًا إلى جنبٍ مع مقالاتٍ للأديب سي. أس. لِويس وجي. كاي .تشيرستون وتشارلز وليَمز وجي. آر. آر. تولكين ودوروثي أل. سييرز. لم يعرفْ بوشنر أيَّ شيءٍ عن الكلِّيَّة- في محادثاتنا الهاتفيَّة، ظلَّ يدعوها "كلِّيَّة ويتلاند"- لكنَّ الجامعةَ التي تخرَّج فيها، وهي جامعة پرينستون (Princeton)، لم تبدِ سوى اهتمامٍ قليل، بينما كان المسؤولون عن مجموعة "وايد" متحمِّسين ومهتمِّين. بعد أن سافرَ إلى ويتون وجالَ في الحرم الجامعيّ، سُئِلَ عن رأيه في قراره. قال: "حسنًا، يبدو مكانًا جيِّدًا لتَتَفتَّتَ فيه بقاياي الأدبيَّة. مكانٌ آمن، حيثُ يمكنُ لتلك البقايا أن تَستَريحُ في صُحبة أشخاصٍ مميَّزين جدًّا".

عاد إلى الحرم الجامعيِّ بعد سنوات بصفة أستاذٍ زائر. كانَتِ المرَّةَ الأولى التي يقابلُ فيها مسيحيِّين إنجيليِّين، سلالةً لم يقابلْها من قَبْلُ بتاتًا. قال لي إنَّ البعضَ ذكَّره بالسَّائحين الأميركيِّين في أوروپا ممَّن كانوا ببساطةٍ، دون أن يعرِفوا لغةَ مستَمِعيهم، يرفَعون أصواتَهم. كان هؤلاء المسيحيُّون يتكلَّمون بثِقةٍ بشأن قضايا حسبَها بوشنر محجوبةً في السِّرّ، وقد سحرَه يقينُهم وأقلقَه أيضًا. "كنتُ مدهوشًا لسَماع الطلبة ينتقلون عَرَضيًّا من التكلُّم بأمورٍ صغيرةٍ عن الحالةِ الجوِّيَّة والأفلام السينمائيَّة، إلى

مناقشةِ عمَّا كان الله يفعلُه في حياتهم. يتحدَّثون بشأن "يوميَّاتٍ يكتبون فيها الصلاة" ويستخدمون عباراتٍ مثل "قال لي الله...". إذا تفوَّهَ شخصٌ ما بمثل هذا الكلام في وطني، لانهارَ السقف، والتهمَتِ النيران البيت، ودارت عيونُ الناس في رؤوسهم".

يقارنُ بوشنر تلك البيئة بما وجدَه عندما كان محاضرًا ضَيفًا في أمكنةٍ مثل كلِّيَّة اللَّاهوت في جامعة هارڤرد. "تُقابِلُ هناك طلَّابًا نشطاءَ مثليِّين جنسيًّا أو مُلحدين متكبِّرين، كما تُقابِلُ سحرةً يَعقِدون تجمُّعاتٍ للسَّحرة خارجَ الكنيسة الصغيرة. استهلَلْتُ ذاتَ مرَّة دَرْسًا عن الوعظ بصلاةٍ بسيطة، فسقطَ الطَّلبةُ من هَولِ الصَّدمة. من الواضح أنْ لا أحَدَ يصلِّي في كلِّيَّة اللَّاهوت بجامعة هارڤرد".

مع أنَّه تعلَّمَ أن يقدِّرَ غيرَ الإنجيليِّين، فإنَّ بوشنر يتحدَّث بصمتٍ بشأن إيمانه. إنَّه يؤمنُ إيمانًا عميقًا بأنَّ الله حيٌّ وموجودٌ في العالم، لكنَّه لا يُفاجَأ البتَّة بأنَّ الله يُعطينا فقط "لمحاتٍ مؤقَّتةً لسرٍّ بهذا العمق والقوَّة والجمال بحيثُ إنَّنا إنْ استَطَعْنا أن نراه وجهًا لوَجه، بأيِّ شكلٍ من الأشكال ما عدا أن نراه في لمحاتٍ، فإنِّي أظنُّ أنَّنا سنَفنى كلِّيًّا".

هناك طريقتان لتَصوير كيفيَّة تَفاعُلِ الله مع التاريخ. يُظهِرُ النموذجُ التقليديُّ الله في السماء وهو يُرسِلُ طلقاتٍ مضيئةً من التدخُّل: دعوة موسى من العليقة المحترقة، الضربات العشر، الأنبياء، ولادة يسوع. يصوِّرُ الكتابُ المقدَّس بالفعل تدخُّلاتٍ إلهيَّةً كهذه، مع أنَّها تأتي بعد سنواتٍ من الانتظار والشَّكّ. وهناك نموذجٌ آخرُ يُظهِرُ الله تحت التاريخ يُعزِّزُه باستمرار، وبين فترةٍ وأُخرى، يكسرُ السطحَ بعملٍ مَرئيٍّ يَبرُزُ للعِيان بِوُضوح، مثل رأس جبلٍ جليديّ. باستطاعة أيِّ شخصٍ أن يلحَظَ الدفعات العلويَّة الدراماتيكيَّة- لم يجد فِرْعَون مصرَ بكلِّ تأكيدٍ صعوبةً في ملاحَظة الضربات العشر- لكنَّ حياةَ الإيمان تتضمَّنُ بحثًا تحت السطح أيضًا، وأُذنًا ضُبِطَتْ جيِّدًا لسَماع شائعاتِ التفوُّق المعرفيّ.

كان بوشنر قد تحدَّثَ بشأن بحثه عن ذلك الحضور الخفيِّ للنِّعمة في العالم. وهو يكتبُ عن لحظةِ قلقٍ مرَّ بها في أحَدِ المطارات (وهو يصارعُ خوفَ الطيران) حين لاحَظَ

فجأةً على المنضدةِ دبُّوسَ ربطةِ عنقٍ حُفرَتْ عليه، على نحوٍ غير محتَمَل، الأحرفُ الأولى من اسمه "ف. ب"؛ ويكتبُ أيضًا عن صديقٍ مقرَّبٍ تُوفِّيَ في نَومه ثُمَّ يزورُ بوشنر في حُلم تاركًا وراءَه خَيطَ صوفٍ أزرقَ من كنزته يجدُه بوشنر على السجَّادة في صباح اليوم التالي؛ وعن فترة جلوسٍ بجانب الطريق في لحظةِ أزمةٍ شخصيَّة، عندما تنطلقُ سيَّارةٌ بسرعةٍ فائقةٍ على الطريق ولوحة الرُّخصة تحملُ الرسالة البسيطة "ثِقْ" (T-R-U-S-T).

إنَّ كلَّ واحدةٍ من هذه الأحداث، كما يعترف بوشنر، تسمحُ بتفسيرٍ أكثرَ تبسيطًا. ربَّما لم يتَعدَّ الأمرُ أكثرَ من قطَّةٍ تسحبُ خَيطًا صوفيًّا، أو مسافرٍ تركَ دبُّوسَ ربطة العنق على المنضدة، أو موظَّفِ ائتمانٍ في بنكٍ وهو يقودُ سيَّارته على الطريق السريع. لكنَّ بوشنر يفضِّل أن يرى في هذه الأحداث تلميحات- دَفعات علويَّة- للعناية الإلهيَّة. مثلًا، عندما مرَّت السيَّارة "من بين جميع مفردات القاموس كلِّها، كانت كلمةُ ثِقْ هي أكثرَ ما كنتُ أحتاجُ إلى سماعه. كان الأمرُ صِدفةً، لكنَّه كان أيضًا تجلِّيًا- إعلانًا- يقول لي أن "أثق بأولادي، وبنفسي، وبالله، وبالحياة؛ فقط ثِقْ"".

في طرقٍ غامضةٍ ومحيِّرةٍ وخاضعةٍ لتَفسيراتٍ متعدِّدةٍ كهذه، يتحرَّكُ الله بالتَّدريج داخلَ حياتنا. بالنِّسبة إلى بوشنر، هذه الأحداثُ العشوائيَّةُ هي أشبَهُ ما تكون بمقامرةٍ پاسكاليَّة: إمَّا إنَّه يستطيعُ أن يراهنَ بنَعَم على الله الذي يُعطي الحياةَ الغموضَ والمعنى، وإمَّا أن يُراهنَ بلا ليَستَنتجَ أنَّ ما يَحدُثُ إنَّما يحدُثُ دون أيِّ معنًى آخر له. في كلتا الحالتَين، تبقى الأدلَّةُ مجزَّأة وغير قاطعة، وتتطلَّبُ الإيمان. إنْ لم يكن هناك مجالٌ للشَّكّ، فلن يكونَ هناك مجالٌ للإيمان أيضًا.

> "الإيمان هو الحنينُ إلى الوطن، وهو كتلةٌ في الحَلْق. وهو مَوقفٌ من قضيَّةٍ ما أكثرُ ممَّا هو تحرُّكٌ نحو قضيَّةٍ ما، هو حسٌّ باطنيٌّ أكثر من كَونه أمرًا مؤكَّدًا. الإيمانُ هو انتظار، وهو القيام برحلةٍ عبر المكان والزمان.
>
> إذًا، إنْ أتى شخصٌ (وهذا غالبًا ما يحدُث) وسألني أن

أتحدَّث بشأن إيماني، فينبغي لي أن أتحدَّثَ بتلك الرحلة عبر المكان والزمان. تقلُّباتُ السنين، والأحلام، واللحظات الغريبة، والأحاسيس الداخليَّة. ويجب عليَّ أن أتحدَّثَ بشأن الإحساس غير الاعتياديِّ الذي يجعَلُني أشعرُ بأنَّ الحياةَ ليست مجرَّدَ سلسلةٍ من الأحداث التي تحصلُ بالصُّدفة مثل الضربة الأولى التي تجعلُ كرات البلياردو تتحرَّكُ في اتِّجاهاتٍ كثيرة، لكنَّ للحياة حبكةً كما للرِّواية حبكة- أي أنَّ الأحداثَ إنَّما تقودُ إلى مكانٍ ما بطريقةٍ ما".

(كتاب "**الاستمرار في الإيمان**" [*Going on Faith*])

أجدُ الرِّفقةَ في كتابات بوشنر لأنَّ الإيمانَ بالنسبة إليَّ أيضًا هو مُقامَرةٌ پاسكاليَّة. مع أنِّي أُمضي حياتي ساعيًا في طلب الله، فإنِّي أشعرُ في أغلب الأحيان أنَّ الله مَوجودٌ حول المنعطف التالي في الدَّرب، أو وراء الشجرة التالية في الغابة. أستمرُّ في السير لأنِّي أُحبُّ المكانَ الذي قادَتْني إليه الرِّحلة حتَّى الآن، ولأنَّ الدُّروبَ الأُخرى تبدو أكثرَ تعقيدًا من دربي، ولأنِّي أتوقُ إلى إيجاد حلٍّ للحبكة. أعرفُ القليلَ عن مأساة الحياة. لقد تذوَّقتُ أعمالَها الهزليَّة. أستمرُّ في السَّير لأنِّي أومنُ في القصَّة الخرافيَّة بأنَّ إلهًا قويًّا وحكيمًا حتَّى إنَّه خلقَ عالمًا مَطبوعًا بمثل هذا الجمال والصلاح، سيكونُ أمينًا في إعادته إلى تصميمه الأصليّ. أنا مثل بوشنر، أَضَعُ رهاني على وعدِ الله الثابت بأنَّ كلَّ شيءٍ سيكونُ حَسَنًا في النهاية.

في أثناء إحدى زيارات بوشنر إلى ويتون، أقنعْتُه بالتحدُّث في كنيستي وسط البلد في شيكاغو. بدأتُ أشعرُ بعدم الراحة كلَّما اقترَبَ ذلك اليوم. كانت خِدْماتُ العبادة بكلِّ تأكيدٍ تتعلَّقُ بقضايا إنجيليَّة تُخطِّطُ لها لجنةٌ من العَلمانيِّين (الأعضاء غير المرسومين)، وكانت الألحانُ الموسيقيَّة تتراوحُ ما بين ترانيم الجوقات التقليديَّة، وموسيقى الكمان الكلاسيكيَّة، وصولًا إلى موسيقى الرُّوك الصاخبة- أو ربَّما

الأنواع الثلاثة معًا في الخدمة ذاتها. أمَّا بالنِّسبة إلى قراءات الشَّعائر الدينية، فكانت اللَّجنةُ تراجِعُها وتكتبُها بلُغةٍ مُعاصرة، مع طلبات لأجل الذين بلا مأوى ولأجل مدارس شيكاغو العامَّة يُعبَّر عنها بأسلوبٍ نثريٍّ رفيع من ''**كتاب الصلوات العامَّة**'' *(Book of Common Prayer)*. في كثيرٍ من الأحيان، كان بعضُ أهل الشارع يدخلون إلى الكنيسة، ولأنَّهم يقدِّرون الدِّفءَ الذي يجدونه في الداخل، كانوا يفتَرِشون مقاعدَ الكنيسة ليأخذوا غَفوة. كنتُ أشكُّ في أنَّ مجتمعَ بوشنر في ريف ڤيرمونت كان يقدِّم أيَّ شيءٍ مماثلٍ لمشهد كنيستنا الحضريَّة.

بالتَّأكيد، قامت لجنةُ العبادة بأفضل ما يمكنُها تكريمًا لبوشنر. كانت راياتٌ جديدةٌ تتدلَّى من السقف. وقادت امرأةٌ بدينةٌ بثيابٍ غير مرتَّبةٍ القراءات والصلوات والترانيم بمصاحَبة موسيقى الجاز. وفي أثناء عَزْف موسيقى تقديم العطايا، رقصت فتاةٌ شابَّةٌ ترتدي ثَوبًا مشدودًا إلى جسدها، رقصةً مقدَّسة. بعد أن راقبَ بوشنر كلَّ هذا من كرسيِّه على المنبر كما يراقب زائرٌ إلى الهند تفاصيلَ طقسٍ دينيٍّ في المعبد، وقف وألقى عِظةً بليغة. بعد ذلك قدَّمَ ملاحظتَين. قال عن المرأة التي قادت العبادة: ''كيف يمكن لأحَدٍ أن يسمحَ لنفسه بأن يصيرَ بدينًا هكذا!'' وقال بشأن الرقصة: ''كان من المُفتَرَض أن تقوِّي عبادتي. ولكنِّي بدلاً من ذلك، أمضَيتُ طوال الوقت أتساءل عمَّا إذا كانت مرتديةً ثيابًا داخليَّة''. ومنذ ذلك الحين، عرفتُ أنِّي أُحبُّ هذا الرجل الذي لم يتردَّد في قَول ما كان الجميعُ يفكِّرون فيه.

سرعان ما أدركتُ أنَّه كانت لدى بوشنر أفكارٌ وآراءٌ محدَّدةٌ حول كلِّ شيءٍ تقريبًا- حول السياسة، والأفلام، والكُتَّاب الآخرين، ومهنته بصفته قسًّا كاتبًا- ويعبِّر عنها بحرِّيَّة. قال ذات مرَّةٍ للشخص الذي يُجري معه مقابلة: ''لقد سئمت من اللغة الدينيَّة. مللتُ من العظات''. ولأنَّه استمرَّ بالموافقة على إلقاء العظات على الرُّغم من المرض، فقد سعى إلى إيجاد عواملَ جديدةٍ لمعتقداته. كان يَستَشهدُ بأقوال دوستويڤسكي وهنري جيمس (Henry James) ليعبِّر عن آرائه، كما اقتَبَسَ من رسائل الرسولَين بولس ويعقوب. والأهمُّ من ذلك كلِّه، التزمَ في نثره غير الخيالي

دَرسًا تعلَّمَه عند كتابة الخيال: لا شيء يُبعِدُ الجمهور أسرع من ملاحظةٍ صغيرةٍ من الكذب أو عدم الواقعيَّة. إنْ أرادَ شخصٌ أن يكتبَ أو يتحدَّث بشأن الإيمان المسيحيّ، فعليه أن يفعلَ هذا بنزاهةٍ كاملة.

ترعرَعَ بوشنر في بيتٍ غير دينيّ، واعتَمَدَ بالماء "ليس لأيِّ دافع دينيّ، على ما أعتقد، بل لمجرَّد شعورٍ يُشبهُ أخذَ جرعات اللقاح، والذهاب إلى المدرسة. إنَّه مجرَّدُ أمرٍ تفعَلُه". كان للمعموديَّة تأثيرٌ متناقض؛ إذ إنَّها لقَّحَته ضدَّ مسيحيَّة الرَّمز دون الجوهر، ضدَّ صورة الزجاج الملوَّن الدافئة والتماثيل، ضدَّ زخارف الكنيسة لمصلحة الكنيسة، ضدَّ تكرار العبارات البالية الخالية من المعنى منذ وقتٍ طويل. عندما نالَ أخيرًا إيمانًا خاصًّا به، كان عليه أن يجدَ المفرداتِ الجديدةَ ليُعبِّر عنه.

هذا الأسلوبُ العذبُ هو ما أنضَجَ كتابات بوشنر. عندما يكتبُ عن شخصيَّات الكتاب المقدَّس أو عن اللاهوت المجرَّد، فإنَّه يُناضلُ للتَّخلُّص من مشكلة التقاليد البالية والوَرَع الزائد. لكي تجعل القارئَ يقفُ وينتبه، يتطلَّبُ الأمرُ صورةً مشرقةً وقويَّة، أو تحايُلًا وبراعةً في استخدام الكلمات، أو عبارةً معلَّقة في الهواء. هذه بعض الأمثلة:

- المسيحيُّ هو شخصٌ على الطريق، لكنَّه لم يقطَعْ بالضَّرورة مسافةً طويلة، ولديه فكرةٌ لم تتَّضحْ بعد بشأن الشخص الذي عليه أن يقدِّمَ الشُّكرَ إليه.

- الشهوةُ الجنسيَّةُ هي تَوقٌ شديدٌ إلى الملح لرَجلٍ يموتُ من العطش.

- الله لا يفسِّر. إنَّه يفجِّر. إنَّه يسألُ أيُّوب عمَّن يعتقد نفسَه. هو يقولُ إنَّ محاوَلةَ شَرْح نَوع الأشياء التي يريدُ أيُّوب شَرْحًا لها، سيكونُ كمُحاوَلة شَرْح نظريَّاتِ أينشتاين لسمك البطلينوس الصدفيِّ الصغير.

- أمَّا بالنِّسبة إلى مَلِك الملكوت نفسه، مَن يمكن أن يتعرَّف إليه؟ ليس له شكلٌ أو جمالٌ. وثيابه هي التي اشتَراها من سوق النثريَّات. ولم يحلقْ ذقنَه لأسابيع. وتفوح منه رائحةُ الفَناء. وقد أضفَينا صفةَ الرُّومانسيَّة على

رثاثته لمدَّةٍ طويلة بحيثُ نستطيعُ أن نلتقطَ فقط أصداءَ الطريقة التي لا بدَّ أنَّها صدمَتِ الناس في عصره من خلال السؤال المرعب الذي طرحَه تلاميذ يوحنًّا المعمدان: "هل أنت هو الآتي؟" وفي سؤال بيلاطُس: "هل أنت ملك اليهود؟" أنت مَنْ يلبسُ سروالًا لا يلائمك، وشفتك مشقوقة؛ وفي الكوميديا السوداء للَّافتةِ التي سمَّروها فوق رأسه حيث كُتِبت المزحة في ثلاثِ لغات لكي لا تفوتَ الضحكة أحَدًا.

بنى بوشنر الروائيُّ من نواحٍ عديدة نمطًا أدبيًّا معيَّنًا بكتاباته القصصيَّة. إنَّ الكتابةَ الروائيَّة التي يقوم بها المسيحيُّون تميلُ لأنْ تتوزَّعَ على فئاتٍ محدَّدةٍ على نحوٍ جيِّد، مع بعض الاستثناءات الملحوظة. إنَّ أدبَ الإقناع، سواءٌ كان عظاتٍ أم رثاءً، أم مقالاتٍ أم دفاعيَّاتٍ منطقيَّة، هو نَوعٌ من الأدب المتميِّز الذي يمارسُه جيِّدًا رفقاء بوشنر الذين يحظون بالاحترام في مجموعة "وايد" في ويتون. يكتبُ آخرون سِيَرًا ذاتيَّة أو اختباراتٍ شخصيَّةً غالبًا ما تكونُ مُقنِعةً، لكنَّ إحدى نقائصها هي أنَّ لها حبكةً يمكنُ توقُّعها: الخُطاةُ يخلُصون. يجمعُ أسلوبُ بوشنر المهاراتِ التي تعلَّمَها بصفته روائيًّا، والقاعدة المسيحيَّة التي تقومُ على التأمُّل الداخليّ.

واختتَمَ بوشنر بالقول إنَّ الروايةَ وحياة الإيمان كلتَيهما، لديهما الكثيرُ من القواسم المشتَرَكة. الإيمانُ والخيال يعتَمدان على الأمور الملموسة والمحدَّدة أكثرَ من اعتمادهما على الأمور المجرَّدة والعقليَّة، وكلاهما يعالجان ما يبدو أنَّه تناقُضات، ويشترك كلاهما في عمليَّة مستمرَّة من إعادة ترتيب تلك التفاصيل والتَّناقُضات في مضمونٍ من نمطٍ ما. إنَّ إيجادَ صَوتٍ ملائم استَغرقَ بعضَ الوقت. حتَّى بعد رسامته، وجدَ بوشنر صعوبةً في الكتابة بشأن إيمانه الشخصيّ. نظرًا إلى نشأته في بيتٍ غير متديِّن وعيشه في جزءٍ غير دينيٍّ من البلاد، شعرَ بالتحفُّظ والإحراج، كما لو أنَّ الإيمانَ يجب أن يبقى داخل خزانة، أو مثل أحَدِ أسرار العائلة لا يذكُرُه أحَدٌ علنًا. لكنَّ التغييرَ حدثَ على نحوٍ ملائم من خلال صِدفةٍ غريبة.

كان بوشنر يجتازُ فترةً مُظلِمةً، شيئًا ما يُشبهُ الانهيارَ العصبيّ. كان قد نقلَ عائلتَه إلى مزرعةٍ منعزلةٍ في ڤيرمونت، تاركًا وظيفةً مريحةً في مدرسةٍ خاصَّة لكي يعملَ في الكتابة بدوامٍ كامل. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى وجدَ نفسَه في مأزقٍ ومحشورًا في زاوية وهو يواجهُ الجدرانَ العارية في كلِّ يوم. لم تَظهَرْ مَصادرُ الإلهام في موعدها. كان كلُّ ما كتبَه يجعلُه كئيبًا بحيثُ إنَّه لم يستَطع الاستمرار. ثُمَّ أتَتْه رسالةٌ من هارڤرد يدعونه فيها لإلقاء محاضراتِ الكلِّيَّة في علم اللّاهوت. اقترحَ رجلُ الدِّين أنَّ بوشنر ربَّما يتمكَّنُ من أن يقدِّمَ شيئًا حول "الدِّين والرسائل".

لا شكَّ أنَّ رجلَ الدين كان يعني بهذه العبارة الأدبَ أو التعلُّم. لكنْ عندما حدَّقَ بوشنر في الدَّعوة، رأى الكلمةَ بحَرفيَّتها أو بأبسط معانيها: الحروف الألفبائيَّة، والعناصر الأساسيَّة لكلِّ لغة. كلَّما فكَّر في هذا الأمر، رأى أنَّ الإيمانَ يتألَّف من استخدام الله للأحداث الروتينيَّة في حياتنا لتكونَ نَوعًا من الحروف الألفبائيَّة، بقايا اللغة التي إنْ استَمَعْنا إليها بشكلٍ صحيحٍ، يمكنُها أن تنقلَ لنا ذات الله. بدأتْ عيناه تنظران إلى الداخل. من مصادر الإلهام هذه، صدرَ كتابُ "**ألفبائيَّة النعمة**"، وهو تكييفٌ لمحاضَراتٍ يعالج فيها بوشنر كلَّ عملٍ بمفرده من خلال أجزاء يومٍ واحد: الحلاقة، وارتداء الملابس، والتحديق في المرآة، وتشغيل آلة القهوة، وإلباس الأولاد، والمماطلة لتجنُّب الكتابة، ومقابلة صديقٍ لتَناوُل الغداء، ومشاهدة الأخبار، والشعور بالنُّعاس، وإطفاء الأضواء في ذلك اليوم.

أخيرًا، وجدَ بوشنر صَوتًا لكتاباته الخالية من الخيال. لم يكن يحتاجُ لأنْ يكونَ لاهوتيًّا كأساتذته في يونيون. ولم يكن يحتاجُ لأنْ يصيرَ واعظًا يُلقي العِظات. إنَّه يستطيعُ بكلِّ بساطةٍ أن يبتدعَ القصصَ والمعنى من موادِّ حياته، كما فعلَ في كتاباته القصصيَّة. بدأ يُنتج "أحرف" إيمانه الأكثر هدوءًا وخِفْية ("**ألفبائيَّة النعمة**"، و"**قول الحقيقة**"، و"**غرفةٌ اسمُها تَذَكَّر**" [*A Room Called Remember*])، فَضلًا عن سلسلةٍ من المذكِّرات. وكان يجرِّبُ أحيانًا أشكالًا أُخرى، مثل جَمْع العِظات أو كتب "**ألف باء اللّاهوت**" (*Theological ABC*)، و"**كنوزٌ عجيبة**" (*Peculiar Treasures*)، "**تفكيرٌ**

توّاق" *(Wishful Thinking)*، و"**الصفير في الظّلام**" *(Whistling in the Dark)*. وهي جميعُها تنقُلُ صَوتَ بوشنر الشخصيّ، تنقيبَه المقصودَ عن الطبقات الجوفيَّة لرسالة الله المخبَّأة. مثلُه مثلُ المتسكّع على الشاطئ، هو يسيرُ مرارًا فوقَ بقعةِ الرِّمال ذاتِها، ساعيًا إلى الحصول على كَنزٍ مدفون.

قال جيمس جويس (James Joyce): "الأدبُ يعالج ما هو عاديّ، لكنَّ غيرَ العاديّ والاستثنائيَّ فيَنتَميان إلى الصحافة". بموجب ذلك التَّعريف، فإنَّ مؤلَّفات بوشنر تلائمُ فئةَ الأدب. اختارَتْ آني ديلارد عالَمَ الطبيعة لتكونَ نصًّا لها؛ واختار بوشنر حياتَه. بالنِّسبة إليه، الكتابةُ هي شكلٌ من أشكال اكتشافٍ ذاتيّ، "تذكُّرٍ واعٍ" كما دعاها مرَّة. إنَّه لا يكتبُ عن العراق أو الصين أو عن أزمةِ ما بعد الحداثة، لكنَّه يكتبُ عن ذكرى باهتةٍ لجَدَّته، أو عن الطاحونة القديمة في آخر الطريق، أو عن طَرَفَي شجرة تفّاح يطَقْطِقان معًا في الفِناء الخلفيّ.

يعود أسلوبه إلى الوراء، إلى القرون الوسطى، إلى الصوفيِّين الذين كانوا يجلسون في الصوامع كلَّ يوم يحدِّقون إلى الداخل ويستَكشفون أعماقَ النفس الداخليَّة. يسيرُ بوشنر على الأقلّ في الخارج، ويُجري الأحاديث، وله عائلةٌ يقلقُ بشأنها، ويقوم برحلةٍ بين حينٍ وآخر. من هذه المادَّة الخام، يصوغُ عمليَّةَ كتابةِ مذكّراته. لا يعرفُ القارئ البتَّة إلى أين تتَّجه الكلمات، وفي بعض الأحيان، يشعرُ بأنَّ بوشنر أيضًا لا يعرفُ ذلك. إنَّه يتَّخذُ دَورَ مُراقبٍ غيرَ بارزٍ يُمعنُ في النَّظر في العالم- أحيانًا، ينهمك في التفكير، وأحيانًا أُخرى يشعرُ بالارتباك والحَيرة، وهو دائمًا يشعرُ بالعَجَب والدَّهشة- بدلًا من دَورِ مديرِ المسرح الذي يتحكَّمُ ببراعةٍ في أدوات المسرح لتُلائمَ وجهةَ نظره.

يؤكِّدُ بوشنر أنَّ أُسلوبَ المراقب الصامت ذاتَه يُعطي الدافعَ لخياله. ""كفّوا واعلموا أنّي أنا الله"، هي نصيحةُ كاتب المزامير، وأنا أحسبُها دائمًا نصيحةً أدبيَّة جيِّدة أيضًا. كُنْ صامتًا كصَمتِ تولستوي، أو كما مثل صمت أنتوني ترولوب (Anthony Trollope)، لكي تستطيعَ شخصيَّاتك أن تتكلَّم عن نفسها وتَظهَرَ مُفعمة

بالحياة بطريقتها الخالدة. إذا كنتَ كاتبًا مثلي، فإنَّك تبذلُ محاوَلةً أقلَّ لتَفرضَ شكلًا على المزيج بدلًا من أن ترى الشكلَ الذي يبرزُ منه أو الذي يختبئ فيه. إذا أبدَتِ الشخصيَّاتُ الثانويَّة علاماتٍ على أنّها الشخصيَّاتُ الرئيسةُ، فأعطِها على الأقلِّ المجال، لأنَّ الأمرَ قد يحتاجُ في عالم الخيال إلى عدَّةِ صفحاتٍ قبل أن تعرفَ الشخصيَّاتِ الرئيسةَ في الواقع، كما أنَّ الأمرَ قد يحتاجُ إلى سنواتٍ عديدةٍ في العالم الحقيقيِّ لتَكتشفَ أنَّ الغريبَ الذي تحدَّثتَ معه مدَّة نصف ساعة ذاتَ مرَّةٍ في محطَّة سكَّة الحديد، قد يكونُ فعلَ أكثرَ ممَّا فعلَه أقربُ أصدقائك أو طبيبُك النفسيُّ ليوجِّهَكَ إلى حيثُ يَقَعُ موطنُك الحقيقيّ".

في آخر مجلَّدٍ له، "**الحنين إلى الوطن**" *(The Longing for Home)*، يقارنُ بوشنر ما بين الأخبار التي تُذاع في التلفاز كلَّ ليلة- الحروب، والانتخابات، والكوارث الطبيعيَّة- والأخبار اليوميَّة التي تصدرُ عن عالمنا الخاصّ. إنَّ بعضَ الأشياء التي تحدُثُ هناك صغيرةٌ جدًّا حتَّى إنَّنا لا نكادُ نلاحظُها، لكنَّها تساعدُ على تأليف القصَّة التي تجري يومًا بعدَ يوم، والتي تتحدَّث بشأن الشخصيَّة التي سنكونُها. إنَّه يقول: "أخبارُهم هي أخبارٌ عمَّا سنصيرُ عليه أو نفشل في أن نصيرَ عليه"، التي يمكن أن تكونَ الأخبارُ الأهمُّ على الإطلاق.

في الاتِّجاه نفسه، يؤمنُ بوشنر بأنَّه إنْ كان الله يتحدَّثُ بأيَّة حالٍ في هذا العالم، فإنَّه يتحدَّثُ داخلَ الحياة الشخصيَّة اليوميَّة. عند البحث عن الله، يميلُ كثيرٌ من الناس إلى البحث عن الخوارق والمعجزات. بدلًا من هذا، يجب أن نصغيَ إلى الأمور العاديَّة: السَّير والنوم، وفوق كلِّ شيءٍ، ما نحلم به، ما نتذكَّره وما ننساه، ما يجعلنا نبتسمُ وما يجعلُنا نبكي، ما يمتِّعُنا وما يُكئبُنا. إنَّ الله يتكلَّم في أحداث اليوم الأكثر عموميَّة، ويوضحُ بوشنر من خلال كتاباته كيف نصغي.

يُوصي بوشنَر بمراجعة هذه الأخبار الأكثر حميميَّة في أثناء الفاصل الزمنيِّ ليلًا، مباشرةً بعد أن تُطفئ النورَ وتستَلقي في الظلام منتَظرًا أن يوافيك النُّعاس. في ذلك

الوقت، تلمحُ في أحداث اليوم- رسالةً لم تُجب عليها، محادثةً هاتفيَّة، نبرةَ صوتٍ معيَّنة، لقاءً جرى صِدفةً في مكتب البريد، كتلةً غير متوقَّعة في الحَلْق- معانيَ أُخرى تحت السطح.

"إذا طُلِبَ منّي أن أعبِّرَ في كلماتٍ قليلةٍ عن جَوهر كلِّ شيءٍ كنتُ أحاولُ أن أقولَه بصفتي روائيًّا واعظًا، فسيكونُ كما يلي: أصغِ إلى حياتك. انظُرْ إليها على أنَّها سرٌّ لا يمكنُ سَبرُ غَوره. في ضَجَرِها وألمِها كما في حماسها وفرحها: المس، تَذوَّق، واستَشفَّ طريقَك إلى قلبها المقدَّس المخفيّ؛ لأنَّه في التحليل الأخير، جميع اللحظات هي لحظاتٌ حاسمة، والحياة ذاتها نعمة".

(كتاب "بين الحين والآخر" [Now and Then])

إنَّ فكرةَ بوشنر تلك دفعَتْني إلى الانتقال نصف المسافة عبر البلاد. عشتُ سعيدًا مدَّةَ ثلاثَ عشرة سنةً في وسط شيكاغو، وهي مدينةٌ حيويَّةٌ جرى التَّقليلُ من شأنها. كنتُ أذهبُ إلى حضور الحفلات الموسيقيَّة والأفلام السينمائيَّة والمسرحيَّات، وكنتُ أستَطيعُ أن أختارَ مَطعمًا من بين أربعٍ وعشرين مطعمًا عِرْقيًّا على مسافةٍ قريبة. كنتُ أكتبُ في المقاهي وعلى المقاعد في حديقة لنكولن. تعرَّفتُ إلى الجيران وأصحاب المحالِّ التجاريَّة، وحتَّى إلى المتسوِّلين. كانت الحياة غنيَّةً- غنيَّةً جدًّا بحيثُ إنَّها أغرقَتْ في نهاية المطاف كلَّ صوتٍ داخليّ. في تَنافُرِ أصواتِ آلات إنذار السيَّارات وأبواق الحافلات وأصوات مشجِّعي فريق كرة السلة السكارى، لم يَعُدْ يمكنُني الاستماع إلى حياتي بالمعنى الذي يدعو إليه بوشنر. أعطَتْني شيكاغو الكثيرَ لأكتُبَ عنه، لا أحتاج إلَّا لأنْ أسيرَ قليلًا لأقابلَ المتسوِّل الذي دعا نفسه "توت أنكومن" (Tut Uncommon)، وصاحبة المتجر في آخر الشارع التي اكتشفتُ أنَّها كانت المذيعة اليابانيَّة السيِّئةَ السمعة في أثناء الحرب العالميَّة الثانية- لكن أكتبُ دائمًا عن قصص الناس الآخرين، وليس عن قصَّتي.

انتقلتُ إلى كولورادو لأكتشف، كما اقترح بوشنر، الحياةَ العاديَّة المخبَّأة في داخل كلِّ واحدٍ منَّا. في وسط الضَجَر والملل والألم هناك يكمُنُ السِّرُّ والنِّعمة لاستخراجها. أردتُ أن أجدَ صَوتي وأحدِّقَ في الداخل وليس الخارج، ولكي أفعلَ هذا، كنتُ أحتاجُ إلى بيئةٍ أكثرَ رعاية- إلى مكانٍ منعزلٍ وهادئ.

في اليوم العاديِّ الآن، أرى حيواناتٍ بريَّةً أكثرَ ممَّا أرى الناس. عندما تتوقَّفُ الكتابة، أخرجُ لأسير، لكنْ بدلًا من الاندفاع إلى شارع كلارك بمادِّيَّته المفرِطة، أسيرُ الآن على سجادةٍ ناعمةٍ من إبر الصنوبر المتساقطة، أو على ثلجٍ لم يَسِر عليه أحَد. إنِّي أدركُ التَّغييرَ الذي يَصِفُه بوشنر بعد انتقاله من نيويورك إلى ڤيرمونت. بعد ثماني سنوات، بدأتُ لتَوِّي تعلُّمَ الإصغاء.

إنَّ نَشْرَ أسرارك الخاصَّة هو أمرٌ مختلفٌ عن نَشْر أسرارِ شخصٍ آخر. ناقَشْنا أنا وبوشنر عدَّة مرَّاتٍ مخاطرَ الكتابة المهنيَّة، ولا سيَّما الجروح التي لا يمكنُ تجنُّبُها والتي تُصيبُ الناسَ القريبين منَّا.

لهذا السبب، لم يكشفْ بوشنر عن بعض أسرار العائلة إلَّا في مرحلةٍ متأخِّرةٍ من مهنته. بدأ يكتبُ عن اكتئاب أفراد العائلة الآخرين واكتئابه هو؛ وكتب عن معركةِ ابنةٍ مع فقدان الشهيَّة على نحوٍ يهدِّدُ الحياة. ومراعاةً لوالدته التي كانت تحرصُ حرصًا غيورًا على حماية أسرار العائلة، لم يكتُبْ بوشنر مباشرةً عن انتحار والده لعدَّة عقود، مع أنَّ مَشاهِدَ الانتحار تتردَّدُ كثيرًا في رواياته. كان ردُّ فعل والدته غاضبًا جدًّا على أحَدِ هذه المشاهد، وبالكاد كانت تستطيعُ التحدُّث معه لأيَّام. أخيرًا قرَّر بوشنر أنَّ لديه الحقَّ في سَرْد قصَّةِ والده بِقَدر ما كان لوالدته الحقُّ في عدم سَرْد قصَّة زَوجها، وبدأتْ ذكرياتُه تحقِّقُ في مأساة العائلة. وممَّا أصاب فريدريك بالحَيرة أنَّ والدتَه رفضَتْ بكلِّ بساطةٍ أن تقرأَ السجلَّات التي ظلَّ خائفًا من كتابتها مدَّةً طويلة.

كتبت جانيت مالكوم (Janet Malcolm) في مجلّة "ذا نيويوركر" مشيرةً إلى أنَّ الكاتبَ يعمل في البداية كأمٍّ مغذّية وداعمة. إنَّنا نحصلُ على أسرار الشخص بالإقناع والملاطَفة، ونهزُّ رؤوسنا بالموافَقة بتَعاطفٍ، ونضغطُ بلُطْفٍ للحصول على تفاصيلَ إضافيَّة. نقولُ ضمنًا: "تستطيعُ أن تثقَ بي. أخبرني بكلِّ شيء". لكنْ عندما ننتقلُ إلى مرحلةِ الكتابة، نبدِّلُ الأدوارَ ونصيرُ الأبَ المتسلِّط الموضوعيّ. نُصدرُ الأحكام ونغربلُ مادَّتنا حتَّى تصيرَ لدينا فكرةٌ كاملةٌ عن الموضوع لنقدِّمها. هذه العمليَّة تُشوِّهُ الوضعَ لا محالة، وغالبًا ما تجرَح.

شعرتُ أنا بهذا التبدُّل في الواقع، عندما قرَّرتُ أن أكتبَ عن فريدريك بوشنر. كنَّا أصدقاءَ لأكثر من عقدَين، نتراسَلُ ونتحدَّثُ أحيانًا عبر الهاتف، ونزورُ بعضُنا بعضًا زياراتٍ شخصيَّةً عندما تتلاقى مسارات سفرنا. فجأةً خرجتُ من تلك الصَّداقة وبدأت أقيِّمُه بصفتي كاتبًا، باحثًا في حياته عن مواضيع ونماذج. قيَّمتُه بشكلٍ موضوعيّ، واعترضَ هو بشكلٍ طبيعيٍّ جدًّا على بعض أحكامي. بقِيَتْ صداقتُنا سليمة، لكنَّ هذه التَّجرِبةَ ذكَّرَتْني بالقوَّة غير المنصِفة التي يمارسُها الكُتَّاب.

لماذا نفعل هذا نحن الكُتَّاب؟ "لأنَّه ليست ثمَّة نهايةٌ لإصدار الكتب"، تنهَّد معلِّمُ سفر الجامعة منذ ثلاثة آلاف سنة تقريبًا، وسيَصْدُر هذه السنة وحدها خمسون ألف كتابٍ جديد. ومع ذلك نستمرُّ في الكتابة ونُصدِرُ المزيدَ والمزيدَ من الكلمات، مع القدرة على إلحاق الأذى أو تقديم العَون والسَّلوى. أعتقدُ أنّنا نفعَلُ هذا لأنْ ليس لدى أيِّ واحدٍ منَّا شيئًا آخرَ يُقدِّمُه سوى وجهةِ نظرٍ حيَّة تميِّزُنا عن كلِّ شخصٍ آخرَ على هذا الكوكب. إنَّنا نُضطرُّ لأنْ نَروِيَ قِصصَنا لشخصٍ ما.

إنَّ الأشخاص المشرفين على الموت- راكبٌ في طائرةٍ يابانيَّة سقطَ من السماء في عام ١٩٨٥م، أو أحَدُ أفراد طاقَم غوَّاصةٍ روسيَّةٍ غرقَتْ في عام ٢٠٠٠م، أو سجناءُ يهودُ في معسكرات الإبادة، أو سُجناء في معسكرات الأشغال الشاقَّة السوفييتيَّة (Gulag)- يكتُبون كما لو بالغَريزة ليسجِّلوا شيئًا ما عن حياتهم لذُرِّيَّتهم. أمَّا نحن الذين نكسبُ

رزقنا من الكتابة، فإنَّنا نُنمِّي تلك الغريزةَ كلَّ يوم. نحن مدعوُّون لنَكونَ وكلاءَ على وجهة نظرنا المنفردة، وعلى قوَّةِ الكلمات الغريبة التي نعبِّر من خلالها عن وجهة نظرنا تلك.

على كلِّ كاتبٍ أن يتغلَّبَ على نَوع من الحياء، طاردًا من فكره الخوفَ من كَوننا متكبِّرين، بإلقاء أنفسنا عليكَ، أنت أيُّها القارئ، وبأنانيَّة، نفترضُ أنَّ كلماتِنا مُهمَّةٌ تستحقُّ وقتَك. لماذا تهتمُّ بما لديَّ لأقوله؟ بأيِّ حقٍّ أفرضُ نفسي عليك؟ في سياقٍ آخر، تقدَّم سيمون ويل جوابًا ما: "لا أستطيعُ أن أستوعبَ ضرورةَ محبَّة الله لي، عندما يبدو لي جليًّا أنَّه حتَّى محبَّة البشر لي يمكن أن تكونَ خطأً. لكنِّي أستطيعُ أن أتخيَّلَ بسهولةٍ أنَّه يحبُّ منظورَ الخلق ذاك، الذي لا يمكنُ أن يُرى إلَّا من زاويَتي. هذا كلُّ ما يستطيعُ أيُّ كاتبٍ أن يقدِّمَه، لا سيَّما الكاتب الذي يتطرَّقُ لموضوع الإيمان: منظورٌ فريدٌ عن الخليقة، وجهةُ نظرٍ مرئيَّةٌ فقط من زاويَتي".

إنَّ كلَّ ما أكتبُه ملوَّنٌ بالاختلال الوظيفيِّ العائليّ، نشأتي في الأصوليَّة الجنوبية، ورحلة حَجِّي المتعثِّرة- في الواقع، كلُّ كاتبٍ وردَ اسمُه في هذا الكتاب يرى العالَمَ من خلال عينَين فريدتَين. لا نستَطيعُ أن نكتبَ إلَّا بشغفٍ عن خبراتنا الخاصَّة وليس عن خبرات أيِّ شخصٍ آخر. أجدُ أنَّ القرَّاء لا يتَجاوَبون مع واقع خبرتي، بل مع ما يستَدعونه. تؤثِّر الكلماتُ في القارئ بصورةٍ مختلفةٍ عن تأثيرها فيَّ عندما أكتبُها. أكتبُ أنا عن الأصوليَّة: يتَجاوَبُ القرَّاء بسَرْدِ قصصٍ عن نشأةٍ كاثوليكيَّةٍ صارمةٍ أو تربيةِ أخويَّة بلايموث (Plymouth Brethren) الإنجيليَّة المتطرِّفة. بطريقةٍ ما، إنَّ وصفي للكنيسة والعائلة، وخطواتي المبدئيَّة نحو الإيمان، تضربُ على وترٍ عاطفيٍّ حسَّاس: إنَّها تُثيرُ شيئًا ما.

عندما أقارنُ خلفيَّتي بخلفيَّة فريدريك بوشنر، أجدُ ظاهريًّا القليلَ من الأمور المشتركة. إنَّ جذورَه كانت متأصِّلةً في الطَّبقة العُلْيا، وفقدَ والدَه نتيجةَ الانتحار، وأمضى فصلَ الشتاء في برمودا، ودرس في مدرسةٍ خاصَّة، ولاقى نجاحًا فوريًّا بصفته روائيًّا، وانتقلَ إلى عزبة حرجيَّة في ريف نيو إنغلاند (New England). لكنَّ قوَّتَه في استثارة الذكريات كبيرةٌ حتَّى إنَّه عندما يَصِفُ حياتَه، فكأنَّه يَصِفُ حياتي أيضًا.

لكنْ جاء وقتٌ شعرَ فيه بوشنر بالحاجة إلى تغيير كتاباته. كفى تأمُّلًا في الذات، كما فكَّر. كفى أشخاصًا عصريِّين ذوي عيوب هم معرَّضون للخطيَّة مثله. ودون أيِّ فكرٍ واعٍ لما سيكتبُ عنه بعد ذلك، التقطَ "**قاموسَ پنغوين للقدِّيسين**" (Penguin Dictionary of Saints)، آملًا في الحصول على قدِّيسٍ تاريخيٍّ ما من الماضي، ربَّما كان شخصًا قدِّيسًا حقًّا. فتح الكتاب عند غودريك (Godric)، وهو قدِّيسٌ إنكليزيٌّ من القرن الحادي عشر، وشخصيَّةٍ غيرِ معروفةٍ لديه. عندما قرأ عنه، فوجئ بأنَّ غودريك كان ليو بَب (Leo Bebb) وهو أحَدُ شخصيَّات بوشنر الخياليَّة الأرضيَّة الغريبة الأطوار، في تجسُّدٍ سابق: رجلٌ قدِّيس، مُرسَل، زاهدٌ يعذِّب جسدَه ويحتفظُ باثنتَين من الأفاعي معه، رجلٌ خشنٌ صار ربَّما أوَّلَ شاعرٍ غنائيٍّ عظيم في إنكلترا، لكنَّه رجلٌ نامَ مع أخته، وشنَّ حربًا استمرَّت مدى الحياة ضدَّ الشهوة الجنسيَّة، وكما وصفه بوشنر في ما بعد، "القرد يثرثرُ في حقَوَيه".

خرج بوشنر من هذا الكتاب بتعريفٍ جديدٍ للقدِّيس: "واهبُ الحياة" يبعث الحيويَّة في الآخرين بطريقةٍ جديدة، كائنٌ بشريٌّ عاديٌّ تُعلَن من خلال حياته قوَّةُ الله ومجدَه، مع أنَّ القدِّيسَ نفسَه قد يكونُ في الرَّوث حتَّى ركبتيه. هذا التعريف، بالتأكيد، ينطبقُ علينا جميعًا- ولهذا السبب بالتَّحديد- يحثُّنا بوشنر على النظر إلى الأمور العاديَّة وعلى الإصغاء إلى حياتنا، والبحث عن الله في أكثر الأماكن غير المتوقَّعة؛ لأنَّه يوجَدُ احتمالٌ كبيرٌ أن يُعثَر عليه هناك.

عثَر بوشنر على شخصيَّةٍ مُشابهة في قدِّيسٍ إيرلنديٍّ من القرن السادس عشر يُعرف بِاسْم بريندان الملَّاح (Brendan the Navigator)، وكتبَ كتابًا عنه أيضًا. "كان رجلًا مضطَربًا كما تصوَّرتُه في طرقٍ عديدة تمامًا كاضطرابي. رجلٌ هائمٌ ذو رأسٍ أحمر، مكبوتٌ وذو لسانٍ حادٍّ ويصنعُ المعجزات". وعندما اختارَ بعد ذلك أن يكتُبَ عن شخصيَّةٍ من الكتاب المقدَّس "ابن الضحك" (Son of Laughter)، استقرَّ به الأمر على يعقوب المتآمر العنيد الذي تحدَّى الله بالنزول في مباراةِ مُصارَعةٍ وحصل على اسم جديدٍ في صباح اليوم التالي. فهل من قبيل الصَّدفة أنْ عَيَّن الله الشعبَ العبرانيَّ ليكُونَ شعبَه

"أولاد المصارع"، نسل الشخص الذي اشتبكَ بشراسةٍ في مصارعةٍ طوال الليل؟

اكتشفَ بوشنر أنَّه حتَّى القدِّيسون المشهورون بقداستهم لم يكونوا مختلفين عن شخصيَّاته الخياليَّة، وليسوا مختَلفين عن الأشخاص الحقيقيِّين من لحمٍ ودمٍ حوله، أو عن نفسه. استمرَّت كُتُبُ الذِّكريات تتدفَّق بينما كان هو ينقِّبُ في ماضيه وحاضره يستَجلبُ النِّعمة.

> "إذا قلتَ لي إنَّ الالتزامَ المسيحيَّ هو ذلك الشيءُ الذي حصلَ معك ذاتَ مرَّة، وإنَّه مثلُ نوعٍ من الجراحة التجميليَّة الروحيّة، أقولُ لك: اذهَب! إمَّا أنَّك تُغطِّي عينَيك بالصُّوف، وإمَّا أنَّك تحاولُ أن تُغطِّي عينَيَّ. يجب أن تستيقظَ كلَّ صباحٍ في فراشك وتسأل نفسك، "هل أستطيعُ أن أصدِّقَ هذا ثانيةً اليوم؟" كلَّا، الأفضل هو ألَّا تسألَ هذا إلَّا بعدَ أن تكونَ قد قرأتَ صحيفة نيويورك تايمز، أو أن تكونَ قد درستَ ذلك السجلَّ اليوميَّ لانكسار العالم وفساده، والذي يجب أن يبقى دائمًا بجانب كتابك المقدَّس. ثُمَّ اسألْ نفسَك إذا كان بإمكانك أن تؤمنَ بإنجيل يسوع المسيح ثانيةً من أجل ذلك اليوم المحدَّد. إذا كان جوابُكَ بالإيجاب دائمًا، من المحتمل إذًا أنَّك لا تعرفُ ما يَعنيه الإيمان. على الأقلِّ خمسَ مرَّاتٍ من عشر، يجب أن يكونَ الجواب بالنفي؛ لأنَّ النفيَ هو بأهمِّيَّة الإيجاب، وربَّما أكثر. إنَّ النفي يبرهنُ على أنَّك بشريّ، في حال أنَّك شكَكتَ في ذلك. ومن ثَمَّ، إذا كان الجوابُ حقًّا بالإيجاب في صباح أحَد الأيَّام، فيجب أن يكونَ جوابًا حافلًا بالاعتراف والدموع... والضحك الكثير".
>
> (كتاب "عودة أنسل جيبس" [The Return of Ansel Gibbs])

مضى ثلاثون عامًا على انتقال عائلة بوشنر إلى البيت في ريف ڤيرمونت واستقرار فريدريك هناك في روتين كتاباته. انتقلَتِ الممتلكاتُ إلى زوجة فريدريك التي جعلَتِ البيت أليفًا بأشياءَ خارجيَّة: زهور، وحديقة خُضَرٍ كبيرة تُطعمُ الغزلانَ والعائلة، وأحصنة، ودجاج وخنزير، وهذا الأخير "نما إلى أن صارَ بحجم ثلَّاجة كبيرة"، وماعز وبعض الماشية. ساهمَ فريدريك بمجموعةٍ من الكتب وقدَّمها إلى أهل بيته "وهي مجموعةٌ بخلاف الناس، يمكنُ الاعتمادُ عليها دائمًا لتَسردَ القصصَ ذاتَها بالطريقة ذاتها، وهي دائمًا مَوجودةٌ عندما تحتاجُ إليها، ويمكنُ أن تضعَها جانبًا عندما لا تحتاج إليها بتاتًا". ثُمَّ حوَّلَ جزءًا من الحظيرة إلى مكتبةٍ من نوعٍ ما لتَحويَ مجلَّداته العديدة، وعلى مدى سنواتٍ، كانت تلك الحظيرةُ أشبَه ما تكون بملجأ للكاتب يعودُ إليها ليَقولِب كُتُبَه.

في ما بعد، أضافَ بوشنر غرفةً للدِّراسة خلفَ البيت، مضيئةً جيِّدةَ التهوِية تُطلُّ على بركةٍ وصفٍّ من الأسوار الحجريَّة الخشنة، وحامل شجرِ القضبان، ووادٍ، ومحميَّة بمساحة ثلاثة آلاف فدان (نحو ١٢ ألف دونم) من الغابات. يقولُ: "أدعوها مملكتي السحريَّة"، ولا عجبَ في ذلك. وهنا تُعرَضُ كُتُبُ بوشنر الأكثرُ قيمة، التي أُعيدَ تجليدُ الكثير منها بجلدٍ زَيتي وغلافٍ ذهبيّ: النُّسَخُ الأولى من عظات جون دون وكتاب الشهداء لفوكس (Foxe)، ونسخة أصليَّة من رواية "**ترنيمة الميلاد**" *(Christmas Carol)* للأديب البريطانيّ تشارلز ديكينز (Charles Dickens)، ومجلَّدات أُخرى للكاتب بن جونسون (Ben Jonson)، وجوزيف كونراد (Joseph Conrad) وأف. سكوت فيتزجيرالد (F. Scott Fitzgerald)، وأوسكار وايلد (Oscar Wilde). تحتاجُ النُّسَخُ الأولى الكثيرةُ إلى العديد من الرفوف لتَحملَها، وهي بلغاتٍ متعدِّدة، وهي نُسخُ بوشنر المفضَّلة لمجموعة أوز (Oz Collection). وتحملُ الرُّفوفُ بجانب النوافذ أشياءَ أُخرى مفرحةً وغريبة: المشكال (Kaleidoscope)، زوجًا من المغناطيس معلَّقًا في الهواء، شبشبَ دوروثي الأحمر الداكن، ونموذجًا من البيضة "همتي دمتي" (Humpty Dumpty)، ومرزابًا أيضًا (كائن أسطوريّ حادُّ الملامح).

في هذه الغرفة، يجلسُ على كرسيٍّ منجَّدٍ بالقُرب من الموقد وقدماه مستَندَتان إلى الأريكة، ويكتبُ على أوراق دفترٍ غير مسطَّرة بقلمٍ طرفُه مصنوعٌ من اللبّاد. وهو يقول: "إذا صوَّرتَ فيلمًا عن حياة كاتبٍ ما، فإنَّه سيكونُ مملًّا إلى درجة اليأس. أجلسُ على هذا الكرسيِّ وأضعُ علاماتٍ على إحدى الصفحات. هذا كلُّ ما تستطيعُ أن تراه. أنا أغوصُ داخلَ نفسي، إلى المكان الذي تخرجُ منه الأحلام والأحاسيس الداخليَّة. إنَّه مكانٌ مقدَّس. لكنْ بالنِّسبة إلى مَن يراقب، فأنا لا أفعلُ شيئًا على الإطلاق".

لا يوجَدُ ولا مسكنٌ واحدٌ مرئيٌّ من غرفة دراسة بوشنر: متَّكئًا على منبرٍ غير مرئيّ، يوجِّهُ كلمةً إلى جمهورٍ غير مرئيّ. بطريقةٍ مُماثِلة، تبقى نتائجُ أعمال بوشنر في معظمها مخفيَّةً. إنَّه يبيعُ آلافَ الكُتُب، لكنَّه لا يستقبلُ رسائلَ إلَّا من عيِّنةٍ صغيرةٍ من القُرَّاء. بعضُهم يقول له إنَّ كتبَه أنقذَتْ إيمانَهم، أو إنَّه أوَّلُ كاتبٍ مسيحيٍّ بدا جديرًا بالتَّصديق. كنتُ حاضرًا في كلِّيَّة ويتون عندما وقفَ طالبٌ شابٌّ في قاعةٍ كبيرةٍ وقال عبر مكبِّر الصوت: "يا سيِّد بوشنر، أودُّ أن أقولَ إنَّ كتُبَكَ تَعني لي أكثرَ من صليبِ السيِّد المسيح ذاته". ارتبكَ بوشنر وأُصيبَ بالإحراج- كيف يمكن لأحَدٍ أن يُجيبَ عن ملاحظةٍ كهذه؟ ربَّما كان ما عناه الطالبُ هو أنَّ روايات بوشنر قدَّمَتِ الحقيقة بطريقةٍ أكثرَ نفاذًا ممَّا قد سمعَه في أيِّ وقتٍ مضى، لا سيَّما في الكنيسة.

ذات مرَّة، عند عودة بوشنر إلى ڤيرمونت بعد عطلة الشتاء، وجدَ هذه الرسالة على آلة التَّسجيل: "أنت لا تعرفُني، لكنِّي أحَدُ المعجَبين بك. ما أودُّ قولَه لك هو إنِّي فكَّرتُ في الانتحار مرَّتَين في الأسابيع الستَّة الماضية، ولكنْ لم أُقدِمْ على ذلك بسبب كُتُبك". نظرًا إلى تاريخ عائلة بوشنر، سقطَتْ تلك الرِّسالةُ سقوطَ السَّهم: عندما سمع الرسالةَ قال: "عَنَت بالنسبة إليَّ أكثرَ من الفوز بجائزة نوبل".

بسبب ردود فعلٍ مُبعثَرةٍ كهذه، لا يُقلِّلُ بوشنر من شأن دَوره الرَّعويِّ عبر إعلاء شأن "فنِّ" رواياته التي تقومُ على الخيال وصرف النظر عن مؤلَّفاته الخالية من الخيال على

أنَّها أقلُّ قيمة. الكتابة هي خدمته: بالإنابة، أو بالوساطة ربَّما، أو بطريقةٍ غير مباشرة، لكنَّها مع ذلك تبقى خدمة. "كنتُ أرفعُ رأسي عند سماع ردودِ الفعل هذه وأقول: "يا إلهي، أتمنَّى لو عرفتُ مَن أكونُ أنا"؛ الآن أميلُ أكثرَ إلى القول: "نعم، أنا غبيّ، ومُرائيّ، وغريبُ الأطوار، لكنَّ الله برحمته اختارَني ليقدِّمَ نفسَه لك". لدينا هذا الكنزُ في أوانٍ خزفيَّة... خدمتي ليسَتْ منظَّمةً ودون هيكليَّةٍ واضحة، لكنَّها كما أرجو خدمةٌ مشروعة".

مع ذلك، فباستِثناء هذه الرسائل القليلة من القرَّاء، لا يزالُ الاتِّصال مُنقَطعًا بين بوشنر والناس الذين يقدِّم خدمةً إليهم. لم يجدْ كنيسةً مُرضِيَةً قريبةً منه. ويقول في هذا الشأن: "وجدت أنَّ ما يعظُ به غالبيَّة القساوسة سطحيٌّ أكثرَ ممَّا هو قلبيّ. أنا نادرًا ما أذهبُ لأستمعَ إليهم، وعندما أفعل، أشعرُ بالذَّنب بشأن ردِّ فعلي السلبيّ. يذكِّرُني العديدُ من الكنائس بالأُسَرِ المفكَّكة، التي يملأُها الألم المدفون والوَحدة، ويُسيطرُ عليها شخصٌ متسلِّط. باستثناء الكنيسة الأسقفيَّة الرائعة التي كنتُ أذهبُ إليها قُربَ ويتون، لم أجِدْ ولا كنيسة ترعى حاجاتي. إنَّ مجموعات الدعم والمسانَدة هي الأقرب إلى ما أتمنَّى أن تكونَه الكنيسة".

إذًا، يحاربُ بوشنر معظمَ معارك الإيمان بمفرده. لا توجَدُ جماعةٌ من الأصدقاء المسيحيِّين قريبةٌ منه. إنَّ الكُتَّابَ ممَّن يكتُبون عن التعبُّد الذين يُعجَبُ بهم الآخرون- مثل كاثلين نورِس (Kathleen Norris)، وهنري نووين (Henri Nouwen)، وتوماس ميرتون- يفشَلون في أغلب الأحيان في التأثير فيه. إنَّه يَجِدُ غذاءً روحيًّا في شعراءَ مثل جون دون وجورج هَربرت، وجيرالد مانلي هوپكنز، لكن بصفتهم مصدرًا للإلهام الفنِّيّ، فهو يلجأ عادةً إلى روائيِّين آخرين: غراهام غرين (Graham Greene)، وولِيَم ماكسويل (William Maxwell)، فلانري أوكونور، بينما يُصارعُ على نحوٍ متَزايِد الكآبَةَ والحزن.

يقولُ أيضًا: "احتفَلْتُ بعيدِ مَولدي السبعين، وهو العيدُ الوحيد الذي أثَّر فيَّ بعُمق. مرَّتْ أعياد مَولدي الأربعون أو الخمسون أو الستون بسرعة. لكنَّ هذا العيدَ

جعلَني أشعرُ بالوَهن والحزن، إنَّه خاصٌ بكبار السِّنّ. تُوفِّيَ صديقي العظيم جيمس ميريل (James Merrill). كنَّا نعرفُ بعضُنا بعضًا منذ ٥٥ سنة. ألَّفنا كُتُبَنا الأولى معًا في أحَدِ فصول الصيف في منطقة ماين. مع ذلك، لا أريدُ أن أكتبَ عن الجزء الغامض من نفسي، بل عن الجزء الذي لا يزالُ شابًا وحافلًا بالفَرح. أفكِّرُ في المسرحيَّات التي تقدِّمُ الحكاياتِ الخرافيَّةَ المحبَّبةَ التي كتبَها شيكسبير في شيخوخته: "**حكاية الشتاء**" *(The Winter's Tale)*، و"**آثار العاصفة**" *(The Tempest)*. أفكِّرُ في لوحةِ رمبرانت (Rembrandt) الذاتيَّة الأخيرة مغمورةً بنورٍ ذهبيّ.

"أصابني أحَدُ المشاريع، وهو روايةٌ قائمةٌ على قصَّةِ مريَم المجدليَّة، بالكآبة إلى أبعَدِ حدٍّ بحيثُ إنّي تخلَّيتُ عنه. ثُمَّ أتَتْني في أحَدِ الأيَّام معجزةُ النِّعمة. كنتُ أقرأ في سفر طوبيا (أحدُ أسفار الأپوكريفا)، وهي روايةٌ عبريَّةٌ خياليَّةٌ حافلةٌ بالسِّحر حول كلبٍ ورحلةٍ وسمكة. فتدفَّقَ الفرحُ من داخلي. في تلك الليلة، أو في الصباح التالي الساعة ٤،٤٥ صباحًا تقريبًا، نهضتُ من الفراش وبدأتُ إعادةَ سَرْدِ قصَّةِ طوبيَّا وابنه. لم أكتبْ أيَّ شيء في السابق منَحَني فَرَحًا كهذا، وأنهيتُ القصَّةَ خلال شهرٍ ويومَين. إنَّ عنوانَ القصَّة هو "**على الطريق مع رئيس الملائكة**" *(On the Road with the Archangel)*.

"بين حينٍ وآخر، تأتيني فكرةُ كتابٍ كهذا، على شكل عطيَّة النعمة. إنَّها مثل بئرٍ إرتوازيَّة، كلُّ ما عليك فِعلُه هو أن تجعَلَها تتدفَّقُ تحت تأثير قوَّتها. وعلى الأقلِّ بالنِّسبة إليك بصفتك كاتبًا، فإنَّ الفكرةَ تغمرُك وتقلبُك رأسًا على عقب. عندما يحدُثُ هذا، أشعرُ بأنَّ الكتابَ صارَ في راحةِ يدي. إنَّه هناك، وأنا أحملُه. بالتَّأكيد، عليك أن تعملَ بجدٍّ لتكونَ اللُّغةُ والشكلُ صحيحَين، لكنَّ الشيءَ الوحيدَ الذي لستَ مضطرًّا إلى فعله هو النِّضالُ لكي تخرجَ به إلى الحياة. العطيَّة تأتي أوَّلًا ثُمَّ العمل".

إنَّ سجلَّ بوشنر للأحداث التاريخيَّة لرحلةٍ روحيَّةٍ قد حقَّق، مثل آني ديلارد، إنجازًا رائعًا في جَذب القرَّاء من عالَمَين مستَقطَبَين: النخبة الشرقيَّة والمسيحيِّين المحافظين. إنَّ مؤلَّفاته تنقسمُ بالتَّساوي بين الكتب الخياليَّة والكتب الأُخرى (خمسة عشر كتابًا

تقريبًا من كلِّ قسم) ويلاحظُ بوشنر أنَّ النوعَين الأدبيَّين يناسبان جمهورَ قرَّائه: يتحدَّث بشأن الخيال إلى "المثقَّفين المحتَقِرين" للدِّين، بينما تَجِدُ كتبُه الأُخرى، الأكثر علنيَّةً أو صراحةً، قرَّاءَها بين أولئك من ملتَزِمي الإيمان.

هذا الإنجازُ الرائعُ في كلا العالَمين قد كلَّفَه، وفي الحقيقة هو الغموضُ المركزيُّ في مهنته. ينتحبُ بوشنر قائلًا: "أنا متديِّنٌ جدًّا بالنسبة إلى القارئ العَلمانيّ، وعَلمانيٌّ جدًّا بالنِّسبة إلى القارئ المتديِّن". إنَّ مُقَيِّمي مؤلَّفاته من العَلمانيِّين، يحكُمون في بعض الأحيان مسبَّقًا على مؤلَّفاته، باعتباره قسًّا مشيخيًّا مرسومًا. يعترفُ بوشنر بأنَّ طَلَبَ الرِّسامة كان ربَّما أغبى قرارٍ اتَّخذه في ما يتعلَّق بمهنة الكتابة. "العالم حافلٌ بالناس- للأسف الكثير منهم مُقيِّمو كتب- الذين إن سَمِعوا أنَّ قسًّا كتبَ رواية، يشعرون بأنَّهم يعرفون، حتَّى دون قراءَتِها، أيَّ نوعٍ من الروايات ستكون. كما أنَّها يجب أن تكونَ بالضَّرورة عِظةً مع إيضاحاتٍ على شكلِ شخصيَّاتٍ وحِوار، لذلك يجب أن تكونَ نظرتُها إلى الحياة ذاتَ اتِّجاهٍ واحد، بسيطة وساذجة، وأنَّ كلَّ شيءٍ خاضعٌ للعمل المركزيِّ الواحد، وهو تحقيقُ نوعٍ من الملاحَظات الخاصَّة بالوعظ. أنا أعترض في حالتي، فالأمرُ بكلِّ بساطةٍ ليس كذلك".

من الناحية الأُخرى، يتساءلُ القُرَّاءُ الإنجيليُّون المحافظون عن سبب بقاء الرسالة المسيحيَّة مخفيَّةً هكذا في روايات بوشنر، ولماذا يصرُّ على تصوير الشخصيَّات على أنَّها بشريَّةٌ مكتَملةٌ بحياةٍ جنسيَّة ومَيلٍ كبير مزعج إلى الخطيَّة. يردُّ بوشنر بأنَّه يكتبُ عن أشخاصٍ بأقدامٍ من خَزَفٍ لأنَّهم كانوا ذلك النوعَ الوحيدَ من الناس الذين قابَلَهم، بمَن فيهم نفسه.

إنَّ الكُتَّاب، مثلُهم مثلُ المزارعين والصيَّادين، يميلون إلى التركيز على الجوانب المخيِّبة للآمال لأعمالهم. لم يحقِّق بوشنر إنجازًا باهرًا في المبيعات على مستوى سكوت بَك (Scott Peck) أو توماس مور (Thomas Moore). إنَّه يغرقُ في كآبةٍ فوريَّة عندما يزورُ "مكتبة ضخمة" لا تحتوي تقريبًا على أيَّة نسخةٍ من مؤلَّفاته الثلاثين

ويجفلُ عندما يقرأ في نيويورك تايمز ملاحَظةَ مُقيِّم يصفُه بأنَّه شخصٌ "لم أقرأ مؤلَّفاته؛ لأنِّي اعتقدت بالخطأ أنَّه مروِّج دعايات". ويتعب عند الردِّ على رسائل من طلَّابِ اللَّاهوت يسألونه فيها عن سبب شعوره بضرورة إدراج مشهدٍ لزنى المحارم في "**غودريك**"، أو لماذا جعلَ البطل- الكارز في رواياته- واسمه ليو بَب، شخصًا يعاني مشكلات الجنس الاستعراضيّ (Exhibitionist). بالإضافة إلى هذا، يعترضُ بوشنر على لقب "روائيٌّ مسيحيّ" الذي غالبًا ما يُفرَض عليه، ويُصِرُّ على أنَّه ينطبقُ عليه فقط بالمعنى نفسه الذي ينطبق فيه على فيزيائيٍّ كتب رواية: بالتَّأكيد، ستَغمرُ وجهة نظر الكاتب الرواية، وقد تلامسُ محتوياتها حقلَ الفيزياء، لكنَّ من الصعب أن يجعلها هذا "رواية فيزياء" أكثر ممَّا يجعلَ روايةً كتبَتْها امرأةٌ بالضَّرورة "رواية امرأة".

لكنَّ بوشنر نجحَ بالفعل في التأثير في عالَمين بطرقٍ تتجاوَزُ ما هو ميَّالٌ إلى الاعتراف به. لقد حافَظَ على صداقاتٍ وثيقةٍ مع عمالقة الأدب، مثل الشاعر جيمس ميريل (المتوفَّى الآن)، وتلميذه السابق جون إيرڤينغ (John Irving) الذي اعترف بدَيْنِه لبوشنر في مقدِّمة كتاب "**صلاة من أجل أوين ميني**" *(A Prayer For Owen Meany)*. يقدِّمُ بوشنر قراءات في المكتبة العامَّة في نيويورك. وقد رُشِّحتْ رواية "**غورديك**" لجائزة بوليتزر. في هذه الأثناء، صار فريدريك بوشنر والمسيحيُّون المحافظون أكثرَ معرفةً بعضهم ببعض. تُكيِّف كلِّيَّاتٌ مسيحيَّةٌ رواياته لتَصيرَ تمثيليَّات، وتدعوه إلى حَرَمها الجامعيِّ لتَقديمِ القراءات. ويقتبسُ القساوسة من على المنبر من مؤلَّفاته، ويدرسُ الكُتَّاب الجددُ أسلوبَ نثره. لديَّ حَدْسٌ في الواقع بأنَّ بوشنر صارَ الكاتبَ الأكثرَ اقتباسًا بين المسيحيِّين ذوي التأثير. ويستمرُّ تقديرُ براعته في الازدياد- مَن غيرُه ينالُ مديحًا نقديًّا مماثلًا في مجلَّة "**المسيحيَّة اليوم**"، و"**القرن المسيحيّ**" (The Christian Century)، بالإضافة إلى تقييم كتابِ نيويورك تايمز (The New York Times Book Review).

بالنسبة إلينا نحن الذين نعملُ في الحقل ذاته، الذين يكسبون رزقَهم مثله عبر خَلْط الكلمات على الورق، يقدِّم بوشنر نموذجًا من الكتابة بوصفها شكلًا من أشكال التعبير عن الإيمان. توجَدُ لديَّ رفوفٌ كثيرةٌ ملآنةٌ بكتبٍ ألَّفها أشخاصٌ

مسيحيُّون. معظمُها- ويؤسفني أن أقولَ هذا- لا يتمتَّع بجاذبيَّةٍ كبيرة بالنِّسبة إلى أيِّ شخصٍ لا يلتزمُ العقيدةَ التي يعتنقونها هم. يصادفُ أهلُ الإيمان اللهَ في كلِّ مكان: في الطبيعة، والكتاب المقدَّس، وأعمال العناية الإلهيَّة اليوميَّة، حيثُ يبدو الله واضحًا وظاهرًا إلى حدٍّ كبير. لكنَّ العقلَ العَلمانيَّ لا يرى هذا الدَّليل، ويتَساءلُ كيف يمكنُ حتَّى العثور على الله في متاهةٍ من هذه الادِّعاءات المتنافسة. ما لم نفهَمْ وجهةَ النظر تلك؛ ونتحدَّثَ بعباراتٍ يفهمُها الشخصُ الذي لا يؤمن، فإنَّه سيكونُ لكلماتِنا رنينٌ غريبٌ وغيرُ مُجْدٍ لِلُغةٍ أجنبيَّة.

تعلَّمت من بوشنر ميزةَ قَول القليل جدًّا بدلًا من الكثير جدًّا. وكما كتبَ في "**عيون القلب**" *(The Eyes of the Heart)*: "رأيتُ بعينَيْ قلبي الرَّجاءَ العظيم الذي دعانا إليه، لكنْ بسبب بعض الخجل أو الخوف، فإنِّي نادرًا ما أتحدَّث بشأنه. وفي كتبي، مِلتُ إلى الكتابة عنه فقط بشكلٍ غير مباشر وبتردُّدٍ وغموض في أغلب الأجزاء، وذلك خوفًا من أن أخسرَ آذان القرَّاء، وأستنفدَ جَهدَ تصديقهم لي، وهم الذين يبدو هذا الرجاء بالنِّسبة إليهم مجرَّد أُمنيات. وبسبب خَوفي من المبالَغة في التعبير، مِلتُ بشكلٍ خاصٍّ في كُتُبي غير الخياليَّة إلى التعبير بتحفُّظ؛ لأنَّ ذلك بدا طريقةً أكثرَ استراتيجيَّة للوصول إلى الناس الذين أرغبُ في الوصول إليهم أكثر من غيرهم، الذين لا يُعيرون الدِّين أيَّ انتباه".

تنبعثُ من المؤلَّفات المسيحيَّة غالبًا رائحةُ العقلَنة والتَّبرير. يبدأ المؤلِّف بخاتمةٍ راسخةٍ لا تتزعزع، ثُمَّ ينطلقُ ليتَّخذَ أيَّ مسارٍ منطقيٍّ يمكن أن يدعمَ تلك الخاتمة. إنَّ الكثيرَ ممَّا قرأته عن الكآبة والشكِّ والانتحار والمعاناة والجنسيَّة المثليَّة يبدو أنَّه كُتبَ من قِبَل أشخاصٍ يبدأون بخاتمةٍ مسيحيَّة، ولم يواجهوا قَطُّ المراحلَ المؤلمة المألوفةَ للشَّخص الذي يكافحُ الاكتئاب أو الشكَّ أو الانتحار أو الألم أو المثليَّة الجنسيَّة. لا يمكنُ لأيِّ قرارٍ أن يكونَ أمرًا واقعًا بالنِّسبة إلى شخصٍ قد نجا من رحلةٍ كهذه.

عندما بدأتُ أكتبُ صراحةً عن إيماني، استنتجتُ أنَّه كان لديَّ شيءٌ واحدٌ فقط

لأمنحَه: الصدق. لقد سمعتُ ما يكفي عن الدِّعاية للكنيسة وأنا صغير. كنتُ أتمسَّكُ بموقَف الحاجِّ وليس صاحبَ الدعاية عند وَصْفِ الحياة مع الله كما هي في الواقع، وليس كما يُفترض أن تكون. لا يتَّفق الجميع معي. طلبَ منّي أحَدُ الناشرين أن أفكِّر في تغيير عنوان كتاب، من "خيبةُ الأملِ بالله" *(Disappointment with God)* [١٥] إلى عنوانٍ أكثرَ بشاشةً، مثل "التغلُّب على خيبة الأمل بالله" (Overcoming Disappointment with God). فكَّرت في الأمر، وقرَّرتُ أن أُبقي على العنوان؛ لأنَّ الأشخاصَ خائبي الأمل هم أكثرُ مَن كنتُ أودُّ توجيه كلامي إليهم.

أُصبتُ باليأس تقريبًا في ما يتعلَّقُ بفائدة كتابةِ أيِّ شيءٍ عن الإيمان، إلى أن اكتشفتُ بوشنر. كان يبدو لي في ذلك الوقت أنَّ المسيحيِّين كانوا يقرأون بشكلٍ رئيسيٍّ لمجرَّد خبرةِ أن يومئوا بالموافقة، وبقولهم: "أجل، هذا صحيح"، بينما الأدب العظيم يجعلُنا نقفُ ونفكِّر قائلين: "لم أتخيَّل الأمرَ بهذه الطريقة سابقًا". بالنِّسبة إلى بوشنر، كان الإيمانُ عملَ اكتشافٍ وليس رزمةً من العقائد الصحيحة تُوزَّع من الأعلى. جعلَني أُبطئ سَيري وأعير انتباهي أوَّلًا للكلمات، ثُمَّ للأفكار الكامنة وراءَها. لم يَستَخدمِ الحياةَ لتكونَ مثالًا توضيحيًّا لفكرته؛ بل إنَّ فكرته كانت تُسمِّي ما كان قد وصفَه عن الحياة. كما كتبَ وليم جيمس في "**أنواع الخبرة الدينيَّة**" *(The Varieties of Religious Experience)*: "الحقيقة هي أنَّه في المجال الميتافيزيقيِّ والدينيّ، تكونُ الأسبابُ المنطوقةُ مُقنعةً بالنِّسبة إلينا، فقط عندما يكونُ إحساسُنا غير المنطوق بالحقيقة قد صدرَ فعلًا باتِّجاه النتيجة ذاتها".

إنَّ الكتابة عن مشاعر القارئ غير المنطوق بها هي أكبرُ تحدٍّ للكاتب. إنَّنا نحن الكُتَّابَ نعيشُ حياةً غريبة. نجلس في غرفةٍ صغيرةٍ مع القليل من المدخَلات الحسِّيَّة، نفكِّر في الكلمات التي أمامنا عند تلك اللحظة. في الواقع، نحن نختلقُ في هذه الكلمات مَظهرَ الوقت والصيغة المادِّيَّة، بينما نحن غير مرتَبطين بهما. الكتابةُ هي

---

١٥) هذا الكتابُ مترجَمٌ إلى العربيَّة بعنوان "عندما لا تمطر السماء"، وهو من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

العمل الأكثر تحمُّلًا لمشاعر الآخرين. أكتبُ عن التزلُّج على الماء في حين لا أتزلَّجُ على الماء، وعن تناوُل الطعام في حين لا أتناوَلُه، وعن الحبِّ في حين أنِّي لا أحبّ، وعن العبادة بينما لا أمارسها.

إنَّ أوَّلَ كتابٍ قرأتُه لبوشنر "قول الحقيقة" منحني الأملَ بأنَّه حتَّى في الإنابة عن مشاعر الآخرين في عمليَّة الكتابة، يمكن أن نقولَ الحقيقة. إنَّ العمليَّة الرتيبةَ لترتيب الكلمات وإعادة ترتيبها على الصفحة- ألفبائيَّة النعمة- يمكن أن تخلقَ للقارئ واقعًا مفاجئًا، مثلُها مثلُ المحفِّز في التفاعل الكيميائيّ. من خلال قلم بوشنر، تصيرُ قصَّةُ هوشع وجومر قصَّةً لاذعةً تخدعُ فيها المرأةُ زَوجَها بخيانته وتكون سهلةَ الانخداع، ومن ثَمَّ تصيرَ مثلًا لا يُنسى لنعمة الله. وتصيرُ شخصيَّة ليو بَب الغريبة والمتعذِّر اختصارُها، تذكيرًا لنا بأنَّ الله يمكنُ أن يعملَ من خلال الخَونة وأصحاب السلوكيَّات الجنسيَّة الغريبة، ومن ناحيةٍ أُخرى، لا يعملُ إلَّا من خلال الخَونة وأصحاب السلوكيَّات الجنسيَّة الغريبة. إنَّ نظرةَ بوشنر الباطنيَّة إلى حياة الكاتب المملَّة جدًّا، تكشفُ أنَّ المللَ يتناسَبُ مثل قناع خادع على سرٍّ لا يُسبرُ غورُه. بالإصغاء إلى حياته، أنتَبهُ إلى حياتي- عندئذٍ يكتملُ عملُ تحمُّلِ مشاعر الآخرين.

لنبدأ مع فريدريك بوشنر

بوجود ثلاثين كتابًا يمكنُ الاختيار من بينها، يحتاجُ قارئ كُتُبِ بوشنر الجديد إلى خريطةِ طريق. لا أزال أحبُّ كتابَ "قول الحقيقة" ليكونَ مقدِّمةً موجَزةً لفكره وأسلوبه. ويقدِّم كتابُ "كنوزٌ غريبة" مثلًا رائعًا إلى أسلوبه في النَّثر. ويجمَعُ كتابُ "الإصغاء إلى حياتك" *(Listening to your Life)* مُقتَطَفاتٍ من العديد من مؤلَّفاته على شكل تأمُّلاتٍ يوميَّة. يُعبِّرُ بوشنر عن حياته الخاصَّة بشكلٍ شخصيٍّ جدًّا في كُتُب السيرة الذاتيَّة: "الرحلة المقدَّسة" *(The Sacred Journey)*، و"بين الحين

والآخر"، و"**كشفُ الأسرار**" *(Telling Secrets)* و"**عيون القلب**". وفي مجال الخيال، أكثرُ ما عُرِفَ به هو رواياته التي تقومُ على شخصيَّة ليو بَب التي جُمعَتْ بشكلٍ ملائم في مجلَّدٍ واحدٍ بعنوان "**كتاب بَب**" *(The Book of Bebb)*. لكنْ لا يمكنُ تجاهُلُ روايَتي "**بريندان**" و"**غودريك**" اللتين تَعرِضان قدرةَ بوشنر الإنشائيَّة في أفضل صَوَرِها، أو آخرَ رواية له "**العاصفة**" *(The Storm)* التي لاقَتْ أصداءَ قصَّة شكسپير "**آثار العاصفة**".

الفصل الثاني عشر

شوساكو إندو

(Shusaku Endo)

مكانٌ للخَونة

أشكُّ في أنَّ أيَّ شخصٍ وُلد في السنوات الثلاثين الأخيرة يمكنُه أن يتخيَّلَ الخوفَ الذي عشنا في ظلِّه، نحن الذين كنَّا نمرُّ في مرحلة المراهَقة في ذروة الحرب الباردة. كنَّا نصنعُ ملاجئ ضدَّ القنابل لمشاريع مدرستنا العلميَّة، ونحفرُ حفرًا عميقةً في الفِناء الخلفيِّ من منازلنا ونكدِّسُها بكتبنا المصوَّرة المفضَّلة والأطعمة الخفيفة. وكنَّا نشاهدُ أفلامًا تثقيفيَّةً عن تأثيرات الحرب النُّوَويَّة الحراريَّة، وتعلَّمنا- بمرافقة الموسيقى التصويريَّة- أسلوبَ الحماية "انحنِ وغطِّ رأسَك"، وذلك بالزَّحف تحت مقاعد مدرستنا للتَّقليل من التعرُّض لتَداعِيات النشاط الإشعاعيّ. كنتُ أقطنُ في أتلانتا بولاية جورجيا، على مسافةٍ قريبةٍ من كوبا (Cuba). وفي أثناء أزمة الصواريخ الكوبيَّة، كانت كلُّ حصَّةٍ من حصص اجتماع الطلبة في غرفةٍ واحدةٍ تبدأ بتمرين "انحنِ وغطِّ رأسَك".

كنَّا، أنا وأخي، نقرأ بعضُنا لبعضٍ قصصًا مُرعبةً عمَّا كان يفعلُه الشيوعيُّون بأعدائهم. كانوا ينتزعون أظافر اليدَين وأظافر القدمين، أو يحشرون شظيَّة خيزران تحت الأظافر. كانوا أيضًا يربطون الشخصَ ويسكبون الماءَ على رأسه قطرةً بعد قطرة إلى أن يُصاب بالجنون. وكانوا يُطلقون العناكبَ والفئران والأفاعي السامَّة على جسد الشخص العاري. وكانوا يقطعون الأصابع،

إصبعًا تلو الأُخرى. كما كانوا يدفنون الشخص حيًّا. وعندما كانوا يحتلُّون إحدى المدن، كانوا يوقِفون القاطنين فيها في صفوف ويفحصون الأيدي. إذا كانت أصابعُك متصلِّبة، فهذا يعني أنَّك تنتمي إلى طبقة العمَّال، من ثَمَّ قد يسمَحون لك بالبقاء حيًّا. وإذا كنتَ تجيدُ تكلُّمَ اللُّغة الروسيَّة أو الصينيَّة، فربَّما يسمَحون لك أيضًا بالبقاء حيًّا. وإلَّا فإنَّهم سيُعذِّبونك لبضعة أيَّامٍ ثُمَّ يقتُلونك.

في جهودٍ حثيثة للبقاء على قَيد الحياة، اتَّخذنا نحن الاثنَين إجراءاتٍ مُضادَّة. كنَّا نستكشفُ الغابةَ القريبةَ للبحث عن مخابئ لا يستطيعُ العدوُّ أن يجدَها. ألَم يَنْجُ بعضُ الجنوبيِّين من هجوم الجنرال شيرمان (Sherman) بالاختباء هكذا لعدَّة أشهرٍ في ذلك الوقت؟ كنَّا نمشِّطُ أوراقَ الشجر بحماسٍ وبقوَّةٍ أيدينا العارية لكي تنموَ التقرُّحاتُ والأنسجة الصلبَة على أيادينا نحن طلبةَ المدارس. ولأنَّنا كنَّا لا نزال خائفين، قرَّرنا أن ندرسَ لغاتِ الشيوعيِّين. سجَّلَ أخي في إحدى دورات اللغة الروسيَّة، وأنا لدراسة اللغة الصينيَّة، بحيثُ إنَّه مهما كانت الجهة التي سيأتي منها المهاجمون، تكونُ لنا فرصةٌ لكي نُقنعَهم بعدم قَتْلنا. لم تفعَلِ القصصُ التي سردَها أستاذي الصينيُّ- وهو لاجئٌ من الطَّبقة العُليا هرب من فترة الرُّعب في أثناء حكم الرئيس ماو تسي تونغ (Mao Tse Tung)- شيئًا يُذكَرُ لتَهدئة مخاوفي.

عزَّزَتِ الكنيسةُ مخاوفَنا بشكلٍ أكبر، وأضافت رواياتٍ شنيعةً عمَّا فعله ستالين (Stalin) وماو تسي تونغ بالمسيحيِّين. كان الجنودُ يدخلون الكنيسةَ في أثناء القدَّاس ويَضَعون المؤمنين في صفوف ويأمرونهم بإنكار المسيح. كان الذين يقبَلون يُكافَأون بالهدايا والأطعمة، وكانوا يقتُلون ببطءٍ ووحشيَّةٍ الذين يرفضون ذلك أمام الرعيَّة المرتَعبة.

كان قسيس كنيستنا يُلحُّ علينا قائلًا: "ماذا كنتم لتقولوا؟ هل ستَثبتون في إيمانكم أم تُنكرون الذي ماتَ من أجلكم؟" كان ذلك سؤالًا رهيبًا ليفكِّرَ فيه أيُّ شخص، فكم بالأحرى شابٌّ في الرابعةَ عشرةَ من عمره لديه الكثير من الأسئلة

حول إيمانه. تدرَّبتُ على الكتابة الصينيَّة وجمع أوراق الأشجار وكأنَّ حياتي تتوقَّف على ذلك... لأنِّي كنتُ أعتقدُ بكلِّ تأكيد أنَّها كذلك."[١٦]

وبعد أن كبرْتُ ونسيتُ لغتي الصينيَّة؛ وبعد أن انحسرَ تهديدُ الحرب النَّوويَّة، وجدتُ سجلَّاتٍ تاريخيَّةً لاضطهادٍ مُشابِهٍ حدثَ منذ عدَّة قرون. في مرحلةٍ ما من التاريخ، كانت اليابان تبدو الحقلَ الأكثرَ إثمارًا في مجال الإرساليَّات التبشيريَّة في آسِيا. وصل فرنسيس خاڤيير (Francis Xavier)، وهو أحَدُ رجال الدِّين اليسوعيِّين الأصليِّين السبعة، في عام ١٥٤٩م وأمضى سنتَين يؤسِّس فيهما كنيسة. وخلال جيلٍ واحدٍ ارتفعَ عدد المسيحيِّين إلى ثلاث مئة ألف. دعا خاڤيير اليابان "فرحة قلبي... الدولة الأكثر ملاءَمةً للمسيحيَّة في الشرق".

لكن عندما اقتربت نهاية ذلك القرن، أدَّى ارتيابُ العسكريِّين اليابانيِّين من الغرباء إلى تغييرٍ في السياسة، وقد كانوا يُدعَونَ الشوغَن (Shogun). وقد تفاقَمَ هذا الارتيابُ بسبب الانقسامات بين المسيحيِّين. طردَ الشوغَنُ اليسوعيِّين وطالبوا جميعَ المسيحيِّين بالتَّخلِّي عن إيمانهم وبتَسجيل أنفسهم بصفة بوذيِّين. بعد ذلك، صُلِبَ ستٌّ وعشرون شخصًا، مُؤذنين بعصر الشهداء المسيحيِّين اليابانيِّين.

صارتْ لوحةُ "فومي" (fumie)- وهي لوحةٌ برونزيَّةٌ للرَّبِّ يَسوع أو المطوَّبة السيِّدة العذراء والطفل، الموضوعة في إطارٍ خشبيٍّ صغير- الامتحانَ النهائيَّ للإيمان. كان يُطلَقُ على اليابانيِّين الذين كانوا يوافِقون على الدَّوس على لوحة "فومي"، المسيحيِّين المرتَدِّين ويُطلَقُ سراحُهم. والذين كانوا يرفضون، كان الشوغَن يلاحقونَهم ويقتُلونَهم، في أنجَحِ محاولةِ إبادةٍ في تاريخ الكنيسة. كان بعضُ المسيحيِّين يُربَطون على أعمدةٍ

١٦) يطرحُ القساوسةُ اليومَ السؤالَ ذاتَه على المراهقين، رافعين شهيدةَ المدرسة الثانويَّة الفتاة الكولومبيَّة، كاسي بيرنول (Cassie Bernall) بوصفها أنموذجًا للإيمان الشجاع. لكن يأتي الآن تهديدُ العدوِّ من الداخل بدلًا من مجيئه من أعالي البحار.

في البحر لينتظروا ارتفاع المياه في أثناء المدِّ والجَزْر فيغرقون ببُطء، بينما كان آخرون يُربَطون ويُرمَون من الأطواف، كان بعضهم يُحرَق بمياه الينابيع بدرجة الغليان، حتَّى إنَّ بعضَهم كانوا يُعلَّقون رأسًا على عقبٍ فوق حفرةٍ ملآنةٍ بالأجساد الميتة والفَضَلات البشريَّة. نشأتُ على خلفيَّةِ القصص الملهِمة للشُّهداء الذين يدفَعون بالقضيَّة إلى الأمام: "دمُ المسيحيِّين هو بذرة الكنيسة" كما قال ترتوليان (Tertullian). لكنَّ الأمرَ لم يكُنْ هكذا في اليابان، حيث كان دمُ الشهداء إبادةً للكنيسة تقريبًا.

تقريبًا، لكن ليس كليًّا. في أواخر القرن التاسع عشر، عندما سمحت اليابان أخيرًا لكنيسةٍ كاثوليكيَّةٍ في ناكازاكي (Nagasaki) بأن تخدمَ الزائرين الغربيِّين، أُصيبَ الكهنةُ بالدَّهشة لرؤية المسيحيِّين اليابانيِّين يتدفَّقون نزولًا من التلال. إنَّهم "كاكوري كِريشيتانز" (Kakure Kirishitans)، أو المسيحيُّون المخفيُّون، وكانوا يجتمعون سرًّا لمدَّة مئتَين وأربعين سنة. لكنَّ العبادة من دون الاستفادة من الكتاب المقدَّس أو كتاب القدَّاس كانت ضارَّة: نحا إيمانُهم ليصيرَ مزيجًا من الكاثوليكيَّة والبوذيَّة والأرواحيَّة والشنتويَّة (Shintoism). بمرور السنين، انحدرَتْ كلماتُ القدَّاس اللَّاتينيَّة إلى نَوعٍ من لغةٍ خليطة. الكلمات التالية:

> "آفي ماريا غراتيا پلينا دومينوس تيكوم بَنيديكتا" صارت: "آمي ماريا كاراسا بينو دوميسو تَريكوبينتسو"، ولم يكُنْ أحَدٌ يعرفُ البتَّة ما تَعنيه هذه الأصوات. وكان المؤمنون يبجِّلون "إله الخزانة"، وهو عبارةٌ عن رُزَم من الملابس ملفوفةٌ حول ميداليَّاتٍ وتماثيلَ مسيحيَّةٍ كانت مخبَّأة في خزانةٍ على شكل مزارٍ بوذيٍّ كاذب.[١٧]

١٧) لا يزال ثلاثون ألفًا تقريبًا من مسيحيّي "كاكوري" هؤلاء يمارسون العبادةَ اليوم، وتمارسُ ثمانون كنيسةً تقليدَ "إله الخِزانة". حاوَلَ الكاثوليك أن يضمُّوهم ويجلبوهم إلى التيَّار الرئيسيّ للإيمان، لكنَّهم قاوَموا. قال أحَدُ قادتِهم بعد زيارة قام بها البابا يوحنا بولس الثاني (John Paul II): "ليس لدينا اهتمامٌ بالانضمام إلى الكنيسة. نحن، وليس أحَدٌ آخر، هم المسيحيُّون الحقيقيُّون".

في واحدةٍ من مُفارَقات التاريخ الرَّهيبة، انفجرَتِ القنبلةُ النُّوَويَّة الثانية مباشرةً فوق أكبر تجمُّعٍ مسيحيٍّ في اليابان ودمَّرتْ كاتدرائيَّة ناكازاكي. كانت الغيوم قد حجبَتِ المدينةَ المقصودةَ ممَّا اضطُرَّ طاقمُ الطائرة المسؤول عن إلقاء القنبلة إلى التحوُّل إلى هدفٍ ثانويّ. يتتبَّعُ مُتحفٌ في المدينة بعد إعادة بنائها تاريخَ المسيحيَّة في اليابان، ويعرضُ بقايا عَصْرِ الشهداء اليابانيِّين المسيحيِّين.

في خمسينيَّات القرن الماضي، في الفترة ذاتِها التي كبرتُ فيها وأنا في خَوفٍ من محرقةٍ نُوَويَّة، اعتادَ كاتبٌ شابٌّ يُدعى شوساكو إندو أن يزورَ هذا المتحفَ في واحدةٍ من المدينتَين اللتَين اختبرَتا مَصيرًا كهذا. وبسبب انجذابه إلى قصَّة الشهداء، كان يقفُ ويحدِّقُ في خِزانةٍ زجاجيَّةٍ معيَّنة كانت تعرضُ لوحة "فومي" من القرن السابع عشر. شوَّهتْ علاماتٌ سوداءُ الصورةَ البرونزيَّة التي كانت باليةً حتَّى إنَّه كان بالكاد يستطيعُ أن يتعرَّفَ صورةَ المطوَّبة مريَمَ وهي تحملُ يسوع- عَلِم إندو أنَّ تلك العلامات كانت نتيجةَ أصابع أقدام بشريَّة، الطبعات التي تركَها على تلك اللوحة ألوفُ المسيحيِّين المرتَدِّين.

استَحوذَ على إندو هاجسُ لوحة "فومي". تساءل عمَّا إذا كان سيَدوسُ هو عليها. كيف شعرَ هؤلاء الناس وهم يرتدُّون عن الإيمان؟ أيُّ نَوعٍ من الناس كانوا؟ سجَّلَتْ كتبُ التاريخ الكاثوليكيَّة أسماءَ الشهداء الشجعان الممجَّدين فقط، وليس الجبناء الذين تخلَّوا عن الإيمان. كانوا ملعونين مرَّتين: أوَّلًا، من صمت الله عند التعذيب، وفي ما بعد، من صمت التاريخ. أقسَمَ إندو إنَّه سيَسردُ قصَّةَ المرتدِّين- وحافظَ على قَسَمه من خلال رواياتٍ مثل "**الصمت**" *(Silence)* و"**الساموراي**" *(The Samurai)*.

عندما اكتشفتُ شوساكو إندو أوَّل مرَّة، أحسستُ برباطٍ فوريّ، لأنَّه نشأ وقد تملَّكه الخوفُ والشكُّ الذاتيُّ نفسُه الذي أقضَّ مضجعي في أيَّام شبابي. عندما وقفَ في وادي جَهنَّم (Hell Valley)، وهو الموقع حيثُ استُشهدَ كثيرٌ من اليابانيِّين المسيحيِّين، قرَّر أنَّه هو أيضًا كان سيُنكرُ إيمانَه بدلًا من احتمال ألَمٍ كهذا.

عندما فكَّر إندو مطوَّلًا، أدركَ ما جذبَه بقوَّةٍ إلى قضيَّة عَرْض المتحف. كان لقصَّة المسيحيِّين اليابانيِّين في القرن السابع عشر أصداءٌ مُقلقةٌ في حياته في القرن العشرين. ومع أنَّه لم يواجِهْ بتاتًا غضبَ الشوغَن، فإنَّه منذ طفولته وهو يشعرُ بتَوتُّرٍ دائمٍ لا يهدأ بشأن إيمانه. من الخارج، كان مسيحيًّا؛ لكن ماذا كان تحت الظاهر؟

في سنِّ العاشرة، عادَ إندو إلى اليابان من منشوريا مع والدته التي كانت هاربةً من زواجٍ فاشل. ونظرًا إلى أنَّها كانت تعاني ألَمَ الطَّلاق- وهو أمرٌ نادرٌ في اليابان- والرَّفض الاجتماعيَّ المرافق له، وجدَتْ والدتُه المواساة في إيمان أختها الوَرِع، فتحوَّلت إلى الكاثوليكيَّة. كانت تُداومُ على حضور القدَّاس كلَّ يوم. ولكي يُرضي والدتَه، تعمَّدَ شوساكو أيضًا. لكن هل كان يعني ما فعله؟ هل كان هو في الحقيقة الصورةَ المعكوسةَ لجماعة "كاكوري"، المسيحيَّ الذي يمارسُ الطقوسَ الخارجيَّة بينما يُنكِر السيِّدَ المسيحَ سرًّا؟

قرَّر في ما بعد: "**صرتُ كاثوليكيًّا ضدَّ إرادتي**"، وشبَّه إيمانَه بالزَّواج المرتَّب مُسبَّقًا، اتحادٌ قسريٌّ بزوجةٍ اختارَتْها والدتُه. حاولَ أن يهجرَ تلك الزَّوجة- إلى الماركسيَّة، أو الإلحاد، حتَّى إنَّه فكَّرَ لبعض الوقت في الانتحار- لكنَّ محاوَلاته للهُروب كانت تَبوءُ دائمًا بالفَشَل. لم يستطع أن يعيشَ مع هذه الزَّوجة المرتَّبة مسبَّقًا، ولم يستطع أن يعيشَ دونها. في غضون ذلك، استمرَّتْ في إظهار المحبَّة له، ولدهشته، بدأ في نهاية المطاف يبادلُها مشاعرَ المحبَّة.

ميَّزتُ في تلمُّس إندو طريقَه نحو الإيمان تشابُهًا غريبًا مع سَعيي، لكن في سياقٍ مختلفٍ جدًّا. في أثناء سنوات الدراسة الثانويَّة، كنتُ أواظبُ على حضور الخدمة في كنيسةٍ أصوليَّة أراها الآن طائفةً متطرِّفة. كنتُ أتلو الصَّلَوات، وأتقدَّم إلى الأمام استجابةً لدَعوات المذبح، وأتلو الشهادات، لكنْ داخليًّا لم أستَطعْ أن أتوقَّفَ عن الشَّكّ. هل كنتُ أومنُ حقًّا، أم كنتُ فقط أقلِّدُ سلوكَ الذين مَن هم حولي؟ تعلَّمتُ إتقانَ مثل هذا السلوك، وقد جلبَ إليَّ عمومًا الرَّفضَ والعار.

حتَّى الآن، تبرزُ مَشاهدُ العار الساخنة هذه باندفاع. كنتُ أقفُ أمام صفٍّ الخطابة في المدرسة الثانويَّة لأشرحَ لماذا لا أستطيعُ أن أرافقَهم في رحلة الصفِّ لمشاهَدة نسخةٍ من فيلم "لورنس أوليڤييه" (Laurence Olivier) أو "عُطَيل" (Othello) [أمرٌ "دنيويٌّ" جدًّا]. كنتُ أطلبُ إذنًا من المدرِّب الذي كان ينظرُ إليَّ نظرةً ماكرةً لأتغيَّبَ عن دروس الرقص التي تضمُّ أربعةَ أزواجٍ في ساحةٍ مربَّعة في مادَّة التربية البدنيَّة لأسبابٍ دينيَّة (دروسٌ "دنيويَّة" جدًّا أيضًا). وكنتُ أحملُ كتابًا مقدَّسًا أحمرَ سميكًا في أعلى كُتُبي المدرسيَّة، لعلَّ أحَدَهم يسألُني عن إيماني. وكنتُ أجلسُ في حافلةٍ بألوانٍ حمراءَ وبيضاءَ مُبَهرَجة وفي داخلها بيانو، وقد كُتِبَ عليها بأحرفٍ كبيرة "نادي شبابٌ للمسيح للكتاب المقدَّس"، بينما هي تدورُ بتَكاسُلٍ حول موقف السيَّارات مثيرةً الازدراء. وكنتُ أستمعُ إلى مدرِّس الأحياء وهو يشرحُ باستهزاءٍ لطُلَّاب الصفِّ لماذا فشلَ مَوضوعي المؤلِّف من عشرين صفحةً في هَدْم كتاب تشارلز داروين (Charles Darwin) "**أصلُ الأنواع**" *(Origin of the Species)* المؤلَّف من ٥٩٢ صفحة. اتَّصفَتْ فترة مُراهَقَتي بالعار والانعزال والشعور بالدُّونيَّة. ومثلي مثل إندو، نشأتُ وأنا أشعرُ بأنِّي منبوذ.

عندما أدركتُ في وقتٍ لاحقٍ أنَّ الكنيسةَ عَلَّمتْني الأكاذيبَ بالإضافة إلى الحقيقة، شعرتُ بأنِّي ضائعٌ ومشرَّدٌ أسيرُ على غَير هُدى. لأيِّ شيءٍ قد ضحَّيت بكبريائي وأعددتُ لموتي بوصفي شهيدًا؟ لأجل دينِ العنصريِّين ومُكافحي المثقَّفين وغير الأسوياء اجتماعيًّا؟ ولاقتباسِ تَشابُهٍ آخر، يشبِّه إندو حجَّ الإيمان بشابٍّ صغير يتلوَّى داخلَ حلَّة من الثياب. يبحثُ دون جدوى عن بذلةٍ أُخرى تناسبُه أو ربَّما عن ثوبٍ يابانيٍّ فضفاض. قال إندو إنَّه كان باستمرار "يُعيدُ بيَديه خياطةَ البذلة الأوروپيَّة التي ألبسَتْه إيَّاها والدتُه ويغيِّرها إلى لباسٍ يابانيٍّ يناسبُ جسدَه اليابانيّ". أنا أيضًا جرَّبتُ بذلاتٍ مختلفةً من الثياب، ولم أستَطِعْ أن أجِدَ واحدةً لتَحلَّ محلَّ البذلة المسيحيَّة التي كنتُ ألبسُها مُذْ كنتُ طفلًا.

إنَّ قصَّةَ حياة إندو تُشبِهُ حبكةَ إحدى رواياته. عاشَ عندما كان طفلًا في منشوريا أجنبيًّا غريبًا، ومحتلًّا يابانيًّا مُزدرى به. عندما عادَ إلى اليابان حيث كانت الكنيسةُ

المسيحيَّة تشكِّل أقلَّ من ١٪ من السكَّان، عانى مرَّةً أُخرى عذابَ كَونه أجنبيًّا غريبًا. عاملَه رفقاءُ صفِّه باستبدادٍ بسبب ارتباطه بدينٍ غربيّ. وعملَتِ الحرب العالميَّة الثانية على تَقوِية الشُّعور بالغُربة. كان إندو ينظرُ دائمًا إلى الغرب على أنَّه موطنُه الروحيّ، لكنَّهم كانوا هم الأشخاص الذين يحوِّلون الآن مُدنَ اليابان إلى بُخار.

سافرَ إلى فرنسا بعد الحرب لدراسة الروائيِّين الكاثوليك الفرنسيِّين، مثل فرنسوا موريِاك (Francois Mauriac)، وجورج برنانوس. لكنَّ فرنسا أيضًا جعلَتْه بالكاد يشعرُ بالتَّرحاب: بوصفه أحَدَ طلَّاب التبادُل الثقافيِّ اليابانيِّين الأوائل من أعالي البحار، والطالبَ اليابانيَّ الوحيد في مدينة ليون (Lyons)، رُفِض بازدراءٍ هذه المرَّة بسبب العِرق وليس الدِّين. كان الحلفاءُ قد أوجَدوا تيَّارًا مستمرًّا من الدِّعاية المعادِية لليابانيِّين، فوجدَ إندو نفسَه هدفًا للإساءة العرقيَّة من قِبَل زملائه المسيحيِّين. دعاه البعض "شرقيٌّ بعينَين منحرفتَين". لقد تعلَّمَ، كما تعلَّمتُ أنا، أنَّ للمسيحيِّين طُرُقًا متنوِّعةً لإنكار إيمانهم. فبعضُهم يتخلَّى عنه عَلَنًا، وبعضُهم الآخر يعيشُ بشكلٍ خفيٍّ بطرقٍ تتعارَضُ معه.

في أثناء سنواته الثلاث في فرنسا، أُصيب إندو بالاكتئاب. والأسوأ من ذلك، أُصيبَ بالتدرُّن الرئويّ (السُّلّ) واضطُرَّ إلى إزالة إحدى رئتَيه، وأمضى شهورًا كثيرةً وهو مستَلقٍ في المستَشفيات. خَلُصَ إلى أنَّ المسيحيَّة في الواقع جعلَتْه مريضًا؛ حيث إنَّه كان مَرفوضًا في وطنه ومَرفوضًا في مَوطنه الروحيّ، لذا واجَهَ أزمةَ إيمانٍ خطيرة.

قبل عودته إلى اليابان من دراساته في أوروپا، زارَ إندو فلسطين لكي يُجريَ بحوثًا حول حياة يسوع. وعندما كان هناك وقعَ على اكتشافٍ غيَّر نظرته: يسوع أيضًا عرفَ معنى الرَّفض. والأكثر من هذا، كانت حياةُ يسوعَ تتَّصف بالرَّفض: طردَه أقرباؤه من المدينة، وشكَّكت عائلتُه بسلامة عقله، وخانَه أقربُ أصدقائه، وتاجَرَ أهلُ بلده بحياته لاستعادة مجرم معروف. طوال فترة خدمته، كان يسوع يتنقَّلُ عن قصدٍ بين الفقراء والمرفوضين: لمسَ البُرصَ، وتناوَلَ الطعام مع النَّجسين، وغَفرَ للُّصوص والزُّناة والعاهرات.

صدمَ هذا التبصُّر في حياة يسوع إندو بقوَّةٍ وكأنَّه إعلانٌ ما. من نظرته الشاملة البعيدة في اليابان كان ينظرُ إلى المسيحيَّة بصفتها إيمانًا قسطنطينيًّا منتصرًا. كان قد درسَ تاريخَ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدَّسة وتألُّق الحروب الصليبيَّة، وأُعجب بكاتدرائيَّات أوروپا الفخمة، وكان يحلمُ بالعَيش في دولةٍ حيثُ يستطيعُ المرءُ أن يكون مسيحيًّا دون الشعور بالعار. والآن، بينما كان يدرسُ الكتاب المقدَّس في مَوطن الكتاب، رأى أنَّ يسوعَ لم يتجنَّب العار. إنَّ كثيرًا من رسومات يسوع في الثقافة الغربيَّة كانت مجرَّد إسقاطات لصُورِ مجدِ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة وقوَّتها. أتى يسوعُ نفسُه بصفةِ عبدٍ متألِّم وصفَه إشعياء النبيّ: "محتَقَرٌ ومخذولٌ من الناس، رجل أوجاعٍ ومُختَبِر الحزن. وكمُستَّر عنه وجوهنا...". بكلِّ تأكيد، يسوعُ هذا، أكثرُ من أيِّ شخصٍ آخر، يستطيعُ أن يفهمَ الرفض الذي كان يعانيه إندو نفسُه.

لا بدَّ لي من القول إنِّي عندما قابلتُ يسوعَ هذا أوَّل مرَّة، أثَّر فيَّ أيضًا بقوَّة الإلهام. عندما درستُ الأناجيل، لاحظتُ نموذجًا منتظمًا بحيثُ يمكنُ اختزاله إلى معادلةٍ حسابيَّة. كلَّما كان الشخصُ فاجرًا وكريهًا وغير مرغوبٍ فيه، شعرَ هو بالتعلُّق بيسوع. وكلَّما كان الشخص بارًّا وواثقًا بنفسه ومرغوبًا فيه بصفته الشخصيَّة، شعرَ بأنَّه مُهدَّدٌ من قِبَل يسوع. هذا عكسُ ما يفترضُه الناسُ تمامًا. يقدِّمُ المسيحيُّون الإنجيليُّون مثالًا كاملًا على المواطن المتوازن والصلب الذي يؤمن بقِيَم الأُسرة ويُعاشرُ "النوعَ المناسبَ من الأشخاص". فكِّروا في الذين كان يسوع يعاشرُهم: عاهرة، رجلٌ نجسٌ مصابٌ بالبرص، شخصٌ منبوذٌ أخلاقيًّا، قائدُ مئةٍ رومانيٌّ، امرأةٌ من أعراقٍ مختَلَطة كانت قد طلَّقت خمسَ مرَّات. في حين أنَّ الفرِّيسيِّين- المواطنين ذوي المبادئ الأخلاقيَّة الذين دَرَسوا الكتابَ المقدَّس وأطاعوا الناموس بصورةٍ دقيقةٍ- والمؤسَّسة الحاكمة، وهي فئاتٌ تمثِّل أعمدة المجتمع- رأوا جميعًا تهديدًا لهم في يسوع.

اكتشفتُ انعكاسَ يسوع، من خلال إندو، في الوقت الذي كان فيه الإنجيليُّون يحظَون بالاهتمام الوطنيِّ والقوَّة السياسيَّة. خطرَ لي أنَّ عبارةَ الأكثريَّة التائبة أو الأكثريَّة المغفور لها قد تكونُ طريقةً أصحَّ لوَصْف المسيحيِّين بدلًا من الأكثريَّة الأخلاقيَّة. إنَّ علامةً كهذه

ستَنسبُ الفضلَ إلى الله لوُجود أيِّ أثرٍ للصَّلاح، وبذلك تؤكِّدُ لنا كلمات بولس "لا أحَدَ يفتخر". بدلًا من هذا، نحن ننقلُ إطراءً متملِّقًا يُبعِدُ الناسَ أنفسَهم الذين وجَّه إليهم يسوعُ نداءَه: "تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم".

فكَّرتُ: يا لها من مفارقة! رجلٌ يابانيٌّ رفضَه الغربُ المسيحيُّ يعرِّفُني إلى يسوع هذا. بدأتُ أقرأ لشوساكو إندو بحثًا عن العبد المتألِّم الذي اختبرَ الرفضَ وعرفَه كأيِّ شخصٍ عاشَ في أيِّ وقتٍ مضى. وإذ كنتُ شابًّا في كنيسةٍ أصوليَّة، كنتُ قد عرفتُ معنى الرَّفض والعار من الثقافة الكبيرة. وبصفتي مسيحيًّا يصارع، نلتُ نصيبي من الرَّفض من الكنيسة ذاتها: أرادَتْني أن أتغيَّرَ لأكونَ مشابِهًا لها، لا أنْ أناقشَ وأعترِض، أن أومنَ لا أن أُشكِّك. والآنَ في يسوع، قابلتُ شخصًا تتركَّزُ رسالتُه على المنبوذين.

سردَ يسوع قصصًا عن الخراف الضائعة والأبناء الضالِّين، وعن الولائم الغريبة حيثُ لا يحضرُها إلَّا الفقراء والمرضى. في الواقع، كما كان العبيدُ الأميركيُّون ينشدون "لا يعرفُ أحَدٌ المتاعب التي رأيتُها- لا أحَدُ يعرفُ إلَّا يسوع". بدأتُ أُصدِّقُ أنَّ يسوعَ كان يرحِّبُ بأتباعٍ متردِّدين، حتىَّ الخونة. صدرَ كتابان لي هما "**يسوع الذي لم أكن أعرفه**" *(The Jesus I Never Knew)*، و"**ما أعجبَ النعمة**" *(What's So Amazing About Grace?)*– عندما فكَّرتُ في هذا الجانب من حياةِ يسوعَ وفي رَوعة نعمة الله المحضة.

بعد أن أجرى بحوثَه في فلسطين، عادَ إندو إلى وطنه الأمِّ وإيمانُه سليم، على الرُّغم من أنَّه كان يشعرُ بالحاجة إلى إعادة تشكيله، إلى تصميم ثيابٍ تُناسبُه بشكل أفضل. قرَّر قائلًا: "لكي تكونَ المسيحيَّة أكثر فاعليَّةً في اليابان، يجب أن تتغيَّر". صارَ روائيًّا بالفعل لكي يعالجَ هذه القضايا بالكلمة المطبوعة. كان رجلًا نحيفًا متوعِّكَ الصحَّة يلبسُ نظَّارةً غليظة، يعيش على هامش المجتمع، انزلق بسهولة إلى أن صارَ شخصًا تحيطُ الكتبُ بحياته. بدأ بإنتاج الكتب بمعدَّلِ كتابٍ كلَّ سنة، ولم تتباطأ سرعته حتَّى وفاته في عام ١٩٩٦م.

زرتُ اليابان أوّلَ مرّة عام ١٩٩٧م، فلم تسنح لي الفرصةُ لإجراء مقابلةٍ مع شوساكو إندو. وجدتُ أنَّ تناقُضَ حياته يستمرُّ إلى هذا اليوم. بشكلٍ عامّ، لا يعترفُ به المجتمع المسيحيُّ بصفته أحَدَ أفراده. كانت لديه شكوكٌ حول عقائدَ رئيسةٍ ممّا جعلَ مسيحيِّين آخرين يشكُّون فيه. في كلّ مرّة كنتُ أذكُره في محاضراتي، كان يأتي مسيحيٌّ يابانيٌّ بعدَ المحاضَرة وينصحُني برزانة قائلًا إنَّه ربّما لا يكون إندو أفضلَ الأمثلةِ لاستِخْدامه.

في مُفارقةٍ أُخرى، رسوخُ إندو مدى حياته في الرَّفض والاغتراب، جلبَ إليه النَّجاحَ والإشادةَ على النِّطاق الثقافيِّ الأوسع. صارَ الكاتبَ اليابانيَّ الحيَّ الأكثرَ شهرةً، وتُرجمَتْ كتبُه إلى خمس وعشرين لغة، وصارَ اسمُه على لائحةِ المرشَّحين الأخيرة لجائزة نوبل للآداب. دعاه غراهام غرين (Graham Green) "أحَدَ أكثر الروائيِّين الأحياء براعةً ورُقِيًّا"، وانضمَّ أشخاصٌ بارزون، مثل جون أپدايك وآني ديلارد إلى جَوقة مديحه. في سنواته الأخيرة، استُخدِمَ إندو بوصفه رمزًا ثقافيًّا في اليابان، وشخصًا بارزًا في الصُّحُف والمجلّات، ولفترةٍ من الوقت كان مضيفًا لبرنامجٍ تلفزيونيٍّ استعراضيّ. في بلادٍ لا يزيدُ عددُ السكّان المسيحيِّين فيها على ١٪، يبدو أمرًا لافتًا للنَّظر أن تصيرَ كُتُب إندو الرئيسةُ جميعُها على قوائم الكتب الأكثر مبيعًا، حيث لم يعالج أيُّ روائيٍّ حديثٍ مُهمٍّ بصورةٍ حصريَّةٍ جدًّا مواضيعَ مسيحيَّةً صريحة.

يتحدَّثُ إندو إلى الإنسان الداخليّ، حيثُ تقبعُ مدفونةً مشاعرُ العار والرفض التي يجب أن يحتملَها اليابانيُّ العاديُّ في ثقافةٍ تكرِّم السلوكَ المناسبَ والصحيح، المهذَّب والمتمدِّن بشكلٍ لا يخطئ خارجيًّا. اسأل أيَّ يابانيٍّ عن الفرق بين "هون" (honne)، الذي يحدُثُ في الداخل، و"تاتيمي" (tatemae)، الذي يراه الآخرون في الخارج، عندئذٍ سيومِئون برؤوسهم دلالةً على معرفتهم. واسأل أيضًا عن هذه المسألة أيَّ أميركيٍّ، أو أوروپيٍّ أو أفريقيّ. يستكشفُ إندو ثغراتِ الفشل والخيانة التي يعيشها كلُّ شخصٍ على الأرض، وغالبًا ما يسعى إلى الاختباء منها. في هذا العمل، يُلقي إندو ضَوءًا جديدًا على الإيمان المسيحيِّ بحزم- ضوءًا صارمًا يكشفُ الزوايا المخفيَّة منذ فترةٍ طويلة، وهو ضوءٌ رقيقٌ يزيلُ الخيالات.

منذ البداية، سعى إندو إلى استطلاع الفروقات بين وجهات النظر الشرقيَّة والغربيَّة للعالم. كان قد حصل على ثقافته من الأدب الكاثوليكيّ في الغرب والذي يَفترض وجودَ كائنٍ أعلى منفصلٍ عن الخليقة. لكنَّ معظمَ اليابانيِّين لا يؤمنون بكائنٍ أعلى كهذا، ونتيجةً لذلك ليست للمَواضيع العميقة عن الله والخطيَّة والذَّنب والأزمة الأخلاقيَّة التي تشكِّلُ أساسَ الكثير من الأدب الغربيّ- علاقةٌ تُذكَر بالقارئ اليابانيّ العاديّ.

في رواياته الأولى، يصوِّر إندو اليابان على أنَّها نوعٌ من الأرض السَّبخة (وفي بعض الأحيان كأنَّها مستنقَعٌ بالمعنى الحرفيّ) التي تبتلعُ كلَّ ما هو أجنبيّ، بما في ذلك المسيحيَّة. يقدِّم أحَدُ مؤلَّفاته الأولى، "**الرجل الأصفر**" *(The Yellow Man)* مرسَلًا فرنسيًّا يهجُرُ كهنوتَه ليَتزوَّج امرأةً يابانيَّة، ثُمَّ يقرِّرُ الانتحارَ بعد ذلك. يتساءلُ الكاهن عمَّا إذا كان إلهُه "يستطيع أن يمدَّ جذورًا في هذه التربة الرطبة- في هذا العِرق الأصفر [أي الآسيويّ]". وفي رواية "**البركان**" *(The Volcano)*، التي كُتبَتْ بعدَ عدَّة سنوات، فإنَّ الكاهنَ ليس فقط ينشقُّ عن إيمانه، بل يصيرُ شخصًا يُغري الآخرين بالتخلِّي عن إيمانهم. وراء هذه الشخصيَّات تظهرُ صورةٌ ظلِّيَّة لرجلٍ شابٍّ وحيدٍ يقفُ أمام خِزانةِ العرض في متحفٍ في ناكازاكي.

لكن بمرور الوقت، يبدو أنَّ الروائيَّ إندو وجدَ سبيلًا للخُروج من الأرض السَّبخة. لدى الكُتَّاب اليابانيِّين عادةُ كتابة مؤلَّفاتٍ خفيفةٍ مسلِّية تظهرُ بين الكُتُب الأكثر جدِّيَّة. في هذه المؤلَّفات المسلِّية، التي تُنشر بشكلٍ متسلسل في الدَّوريات، تبرزُ شخصيَّةٌ جديدةٌ من إندو: الغبيّ الطيِّب القلب، وهو النسخة اليابانيَّة الفكاهيَّة لشخصيَّة الأبلَه في رواية "**الأبله**" لدوستويفسكي. تقدِّمُ رواية إندو "**الغبيُّ الرائع**" *(The Wonderful Fool)* مرسَلًا مُتَلَعثِمًا يُشبهُ وجهَ الحصان، وربَّما كان سيَفوزُ بسهولةٍ بمسابقة "الأميركيّ الأبشع" لولا حقيقة أنَّه فرنسيّ، ويُدعى غاستون بونايَرت (Gaston Bonaparte)، وهو على وجه الدقَّة من سلالة الإمبراطور المشهور [أي نابليون]. يُسيء غاستون لمضيفيه ويرتكبُ أخطاءً سلوكيَّةً متعلِّقةً بالثَّقافة كلَّ خمس دقائق تقريبًا، ويبدو أنَّه ينجذبُ إلى النوع الخاطئ من

الأشخاص: كلب تائه، عاهرة، ناسك عجوز، قاتل. على الرُّغم من ذلك، تُعيد أفعالُه المتلعثمة المحِبَّة الحياةَ لكلِّ شخصٍ يلمسُه: يحدث المشهد الأخير في مستنقَعٍ حيث تدفعُ محبَّة غاستونُ القاتلَ- واسمه إندو- إلى التوبة.

في رواية "**الساموراي**" ورواية "**الصمت**"، يظهرُ صِدامُ الحضارات في شكل مأساةٍ وليسَتْ مَلهاة. تعكسُ كلتا الروايتَين أحداثًا وشخصيَّات واقعيَّة من بداية القرن السابع عشر، عندما كان الشوغَن يضيِّقون المجالَ على المجتمع المسيحيِّ في اليابان. تجري أحداثُ رواية "**الساموراي**" في الوقت الذي كان فيه الشوغَن يعيدون النظرَ في سياستهم الخاصَّة بالتَّبادل الحُرِّ مع الغرب. يقودُ أحَدُ الكهنة أربعةً من الساموراي في مَهمَّةٍ تجاريَّةٍ إلى المكسيك وأوروبا، حيث يصيرُ الأربعةُ مسيحيِّين بالاسم فقط أملًا في تعزيز نجاح مَهمَّتهم. لكن خلال فترة وجودهم في الخارج، تُغْلِق اليابانُ حدودَها، وعند عودتهم يُنفَّذُ فيهم حكمُ الإعدام بصفتهم خَوَنة. تزخرُ هذه الرواية بالإيحاءات من حياة إندو الخاصَّة: المعموديَّةُ بالاسم، الرحلةُ إلى خارج البلاد، رفضُه بسبب إيمانٍ بالكاد يصدِّقه.

لكنَّ واحدًا من الساموراي على الأقلِّ يتمكَّنُ من استيعاب المعنى الحقيقيِّ لموت شهيد. يتحدَّث خادمه يوزو (Yozo) إليه عن يسوع: ليس المسيحَ المنتصِرَ المقام من الموت، بل الشخصُ المرفوضُ الذي كان إندو قد تعرَّف إليه في أثناء زياراته إلى فلسطين:

> "أعتقدُ أنَّه في مكانٍ ما في قلوب الناس، هناك تَوقٌ إلى شخصٍ يكون معك طوال حياتك لن يخونَك على الإطلاق، ولن يهجرَك أبدًا، حتَّى لو كان ذلك الكائنُ مجرَّدَ كلبٍ مريضٍ أجربَ ومُحتَقَر. صارَ ذلك الرجل تمامًا مثل ذلك الكلب البائس لأجل الجنس البشريّ".

تُوفِّيَ الساموراي وهذه الكلمات من يوزو ترنُّ في أُذنَيه: "من الآن وصاعدًا سيكونُ إلى جانبك. من الآن وصاعدًا سيُلازمُك".

يحسبُ النُّقَّادُ الروايةَ الأُخرى "**الصمت**" تحفةَ مؤلَّفات إندو، والتي تجري أحداثُها في الفترة التاريخيَّة نفسها. نثرُها شحيحٌ ونظيف، وتتقدَّمُ الحبكةُ بعنادٍ نحو نهايةٍ مأسويَّة، وتبلغُ الشخصيَّات عُمقًا نادرًا في روايات إندو، والأجواءُ بكاملها تكونُ حقًّا مغمورةً بقوَّةِ الأُسطورة. تَتتبَّعُ روايةُ "**الصمت**" كاهنًا برتغاليًّا يُدعى رودريغز (Rodrigues) في رحلته الخطيرة إلى اليابان. تسرَّبَتِ الأخبارُ إلى المقرِّ الرئيسيِّ لليَسوعيِّين بأنَّ المرسَلَ الأكثرَ شهرةً في اليابان، الأب فيريرا (Ferreira) قد ارتدَّ عن الإيمان. لم يستطع رودريغز، الذي درسَ تحت إرشاد الأب فيريرا في كلِّيَّة اللّاهوت، أن يصدِّقَ أنَّ الرجُلَ العظيم، مرشدَه الخاصّ، قد تخلَّى عن إيمانه بعد عشرين سنةً من الخدمة الشجاعة. انطلقَ بحرًا ليَجِدَ فيريرا، مُدركًا أنَّه ربَّما لا يعودُ حيًّا (كلُّ هذه الأحداث تستندُ إلى شخصيَّاتٍ وأحداثٍ تاريخيَّةٍ حقيقيَّةٍ جرت في عام ١٦٣٥م).

عندما وصلَ إلى اليابان بعد رحلةٍ مؤلمة، يسمعُ رودريغز اعترافاتِ مسيحيِّين بالسرِّ- أعضاء كنيسة كاكوري السرِّيَّة- لم يرَوا كاهنًا منذ سنين. أحَدُهم صيَّادٌ سافلٌ وماكر، سلَّمَ رودريغز إلى الشوغَن لقاءَ مكافأة. يتمسَّك رودريغز بإيمانه تحت وطأة التعذيب، حتَّى عندما واجَهَ حالةً أخلاقيَّة لا تُحتَمل: مجموعاتٌ من المسيحيِّين تسيرُ في موكبٍ أمامه، فإذا داسَ على لوحة "فومي"، كما قيل له، سيُطلَق سراحُهم. لكنَّه رفض، فأُخِذوا وقُتِلوا أمام عينَيه. "لقد أتى إلى هذه البلاد ليَبذلَ حياتَه من أجل آخرين، لكن بدلًا من هذا كان اليابانيُّون يَبذلون حياتَهم واحدًا تلوَ الآخر لأجله". ومع ذلك، وعلى الرُّغم من الوسائل البربريَّة التي يستخدمُها الشوغَن، لم يتخلَّ رودريغز عن إيمانه.

كما يلمِّحُ عنوان الكتاب، مَوضوعُ "**الصمت**" يسودُ الرواية. يرى رودريغز وجهَ يسوع الذي لا يُنسى أكثر من مئة مرَّة- الوجهَ الذي يحبُّه ويخدمُه، لكنَّ الوجهَ لا يتحدَّث. يبقى صامتًا عندما يُربَطُ الكاهنُ بسلسلةٍ إلى شجرةٍ ليُشاهِدَ المسيحيِّين وهم يموتون، صامتًا عندما يَطلُبُ إرشادًا إنْ كان سيدوس على لوحة "فومي" أم لا ليُطلَقَ سراحُهم، وصامتًا عندما يصلِّي في زنزانته ليلًا.

يبدو في البداية أنَّ رواية "**الصمت**" ستُكرِّمُ ما قد دَفَعَ الكنيسةَ إلى الأمام عبر القرون: إيمانَ الشهداء الأبطال الشجعان. انطلق رودريغز، وهو كاهنٌ دون مَكْرٍ ودَهاء، طَوعًا في مَهمَّةٍ انتحاريَّة. لكنَّ محبَّة رودريغز وإيمانَه يتَجاوَزان في الصمت ما هو أبعَدُ من الموت بصفة شهيد: إنَّهما يمتدَّان حتَّى إلى مرحلة الارتداد عن الإيمان.

في إحدى الليالي، يسمع رودريغز صوتًا يُشبه الشَّخير. كان الصَّوتُ في الواقع تأوُّهاتٍ من الألم، وهو صادرٌ عن مسيحيِّين عُلِّقوا رأسًا على عقب فوق حُفَرٍ وآذانُهم قد شُقَّت لكي تسيل منها الدماء نقطةً تلو الأُخرى فيموتون موتًا بطيئًا مؤلمًا. هؤلاء أيضًا يمكنُ أن يُطلَق سراحَهم إذا تراجَعَ رودريغز عن إيمانه. كان قد حُذِّرَ رودريغز بشأن هذا العذاب من قِبَلَ فيريرا الذي زارَه في زنزانته. ولشدَّة رُعبه، علمَ في أثناء تلك الزيارة أنَّ المرسَلَ العظيمَ فيريرا قد تراجعَ عن إيمانه بعد خمس ساعات فقط من تعليقه فوق الحفرة. كان فيريرا أيضًا يحضُّ رودريغز على الدَّوس على لوحة "فومي". إنَّها مجرَّد رمز، فعلٌ خارجيّ. وهو ليس مضطرًّا لأنْ يقتنعَ حقًّا بما يفعله. وعملُه هذا سيخلِّص حياةَ كثيرين... وهكذا يتنازلُ الكاهن رودريغز في النهاية عن إيمانه محبَّةً بالآخرين.

اشتَكى إندو من أنَّ رواية "**الصمت**" قد أُسيءَ تفسيرُها بسبب عنوانها. قال: "يَفترَضُ الناسُ أنَّ الله صامت"، في حين أنَّ الله يتحدَّث في الرواية. ها هو المشهدُ الحاسم الذي كُسِرَ فيه حاجزُ الصَّمت، في اللحظة ذاتها التي كان رودريغز يفكِّر فيها بلوحة "فومي".

> "إنَّها عملٌ شكليٌّ فقط. ما أهمِّيَّةُ الشكليَّات؟ يحثُّه المترجم بحماس. "امضِ قُدُمًا في الشكل الخارجيِّ للوَطء بالأقدام فقط".
>
> يرفعُ الكاهنُ قدمَه. يشعرُ فيها بألم كبيرٍ ثقيل. هذا ليس مجرَّد إجراءٍ شكليّ، إنَّه يطأُ الآن ما كان يحسبُه أجملَ شيءٍ في حياته، وما كان يعتقدُ أنَّه أنقى الأشياء، وما هو ملآنٌ بِمُثُل

> الإنسان العُليا وأحلامه. كم تؤلمه قدمُه! ثُمَّ يتحدَّث السيِّدُ المسيح البرونزيُّ إلى الكاهن: "ضَعْ قدمَك عليه؛ ضَعْ قدمَك عليه! أنا أعرفُ الألم الذي تشعرُ به في قدمك أكثر من أيِّ شخصٍ آخر. ضع قدمَكَ عليه! وُلِدتُ أنا في هذا العالم لكي يدوسَني الناس. وحملتُ صليبي لأشاركَ آلامَ الناس".
>
> وضعَ الكاهن قدمَه على لوحة "فومي". انبثق الفجر. وهناك على بُعْدٍ صاحَ الدِّيك".

عندما صدرَتْ رواية "**الصمت**" للمرَّة الأولى في عام ١٩٦٦م، كان ردُّ فعل العديد من الكاثوليك اليابانيِّين غاضبًا وعنيفًا. لكي يحمُوا أجدادَهم الشهداء، اعترَضوا على إضفاء صفةِ الرومانسيَّة على المرتدِّين عن الإيمان، مثل فيريرا ورودريغز. كم ننسى بسهولةٍ أنَّ الكنيسةَ تأسَّسَتْ من قِبَل تلاميذ خانوا سيِّدهم! لم يكُنْ أحَدٌ على استعدادٍ للوُقوف إلى جانب يسوع عندما أدانَتْه السُّلطات الدينيَّة والسياسيَّة وحكمَتْ عليه بالموت. في اللحظة التي كان فيها في أمسِّ الحاجة إليهم، هربَ التلاميذُ في جُنح الظَّلام. كان بطرسُ وهو أكثرُهم جرأةً، هو الذي لعنَه وأنكرَه ثلاثَ مرَّاتٍ قبل صياح الديك. مات يسوعُ من أجل الخَوَنة.

في دفاعه عن نفسه، يحدِّد إندو مَوضوعَ الرواية في تغيير وجه يسوع وليس في تغيير الشخصيَّات، وهو يقول: "إنَّ أهمَّ ما في الرواية بالنسبة إليَّ هو التَّغييرُ في صورة البطل الذي هو السيِّد المسيح". آمنَ رودريغز سابقًا بيسوع ذي الجلال والقوَّة. إنَّ صورةَ يسوع التي كانت قد ظهرَتْ له أكثرَ من مئة مرَّة كانت صورةً سماويَّةً تتَّسم بالنَّقاء والصفاء. لكن بالتَّدريج، عندما فشلَتْ مَهمَّة رودريغز- وتسبَّبت بالفعل في مَوت العديد من اليابانيِّين- بدأ وجهُ يسوع يصيرُ وجهًا ترتسمُ عليه علاماتُ المعاناة البشريَّة. كيف كان الأمرُ سيَبدو ليسوع نفسِه، حيثُ إنَّه كان يعلَمُ أنَّ الإيمانَ الذي سيُطلقُه في العالم سيؤدِّي إلى اضطهادِ الكثيرين عبر التاريخ واستِشهادهم، بما في ذلك العديد من

اليابانيِّين؟ "وسيُسلِّمُ الأخُ أخاه إلى الموت والأب ولدَه... وتكونون مُبغَضين من الجميع من أجل اسمي...".

لمَحَ رودريغز انعكاسَ وجهه في بركةٍ من ماء المطر بينما كان مُنهَكًا ومُطارَدًا ويائسًا تقريبًا، هذه النظرة التي صارت أشبَهَ ما تكونُ بتَجلِّي كائنٍ سماويّ:

> "هناك في الماء، انعكَسَ وجهٌ مُتعَبٌ واهن. لا أدري لماذا، لكنّي في تلك اللحظة فكَّرتُ في وجه رجلٍ آخر... وجهِ رجلٍ مصلوب... مغطًّى بالوَحل والقشّ؛ كان نحيفًا وقَذِرًا؛ كان وجهَ رجلٍ مسكونٍ بالأشباح، ملآنٍ بالقَلَق والإرهاق".

من تلك النقطة فصاعدًا، تستخدمُ الروايةُ كلماتٍ مثل متألِّم، هزيل، مُرهَق، قبيح لتَصِفَ وجهَ يسوع. وينقطعُ حبلُ الصَّمت أخيرًا، عندما كان رودريغز على وشك أن يطأ لوحة "فومي". تكلَّمَ ذلك الوجه من وسط "فومي". يقول الوجه: "اسحَقْ بقدمَيك"، بينما هو "مرهقٌ وأجوَفُ من كثرة ما وطأته الأقدام".

إنَّ الخطَّة الكامنةَ وراء صورة يسوع المتحوِّلة التي رآها إندو، تظهَرُ بوُضوحٍ في كتابه غير الروائيّ "**حياة يسوع**" *(A Life of Jesus)*. بِيعَ منه ثلاث مئة ألف نسخة، وهو لا يزال بالنِّسبة إلى العديد من اليابانيِّين المدخلَ الرئيسيَّ لتعريفهم بالمسيحيَّة. يعتقد شوساكو إندو أنَّ المسيحيَّة فشلَتْ في أن يكونَ لها تأثيرٌ كبيرٌ في اليابان؛ لأنَّ اليابانيِّين سمعوا جانبًا واحدًا فقط من القصَّة- سمعوا عن الجمال والإجلال: يزور اليابانيُّون كاتدرائيَّة شارتر (Chartres)، وكنيسة وستمنستر (Westminster Abbey)، ويسجِّلون بآلاتِ تصويرهم الرقميَّة صوَر تلك الأمجاد؛ وتردِّدُ جَوقاتُ التَّرنيم اليابانيَّة، وتعزفُ فرقُهم الموسيقيَّة تحفَ المقطوعات الموسيقيَّة الدينيَّة لمشاهير الموسيقيِّين مثل هاندل (Handel) وباخ (Bach). إنَّما يبدو أنَّه بطريقةٍ ما، لم يسمع اليابانيُّون رسالةً أُخرى عن الله الذي "أخلى نفسَه آخذًا صورة عبد"؛ وابن الله الذي بكى- كما لو كان مغلوبًا على أمره- عند اقترابه من أورشليم.

يشرحُ إندو أنَّ نقطةَ اتِّصاله باليابانيِّين تتمركزُ حول خبرات الفشل والعار؛ لأنَّ هذه الخبراتِ تترُكُ في ثقافته التأثيرَ الأكثرَ ديمومةً في حياة الشخص. ويشعر إندو بأنَّ الناسَ الذين نشأوا في ظلِّ ثقافةٍ بوذيَّة، يمكنُهم أكثرُ من غيرهم أن يشعُروا مع الشخص الذي يعاني معنا ويقبَلُ ضعفاتنا. بالنِّسبة إلى إندو، كان إرث السيِّد المسيح الأكثر إثارةً للمشاعر هو محبَّته التي لا تموت، حتَّى للأشخاص، ولا سيَّما للأشخاص الذين أنكَروه. عندما قادَ يهوذا حشدًا غوغائيًّا إلى البستان، دعاه يسوع "يا صاحب". أُمَّته قَضَت بإعدامه؛ بينما كان متمدِّدًا عاريًا في وَضْعٍ هو غايةٌ في الخزي والعار، استجمَعَ يسوعُ قوَّته ليَصرُخَ "اغفر لهم يا أبتاه". وللذين صدمَهم الارتدادُ الظاهريُّ لشخصيَّتَي روايته، فيريرا وررودريغز، يُشير إندو إلى مؤسِّسي الكنيسة المسيحيَّة العظماء: أنكرَ بطرس السيِّدَ المسيح ثلاث مرَّات، وقاد بولسُ أوَّل اضطهادٍ ضدَّ المسيحيِّين. لو لم تغلِّفِ النعمةُ هذين الشخصَين، لَمَا كانَتِ الكنيسةُ قد برزَتْ إلى الوجود.

ما السببُ الذي جعلَ المسيحيَّة عمليًّا، الممارسةَ الغربيَّة الوحيدة التي فشلت في تثبيت أقدامها في اليابان، وهي البلادُ التي قَبِلَتْ بسرعةٍ رياضةَ البايسبول، وسلسلةَ مطاعم ماكدونالد وموسيقى الروك؟ باتِّباع مسارِ تفكيرٍ آخر، يُرجِعُ أسبابَ فَشَلِ المسيحيَّة إلى التَّشديد الغربيِّ على أبوَّة الله. يقولُ اختصاصيُّ المعالجة إيريك فروم (Erich Fromm): إنَّ الطفلَ في أُسرةٍ متَوازنة يحصُلُ على نوعَين من المحبَّة. تميلُ محبَّة الأمِّ لأنْ تكونَ غيرَ مشروطة، وتَقبَلُ الطفلَ مهما فعلَ بغضِّ النظر عن السلوك، فيما تميلُ محبَّة الأب لأنْ تكونَ مشروطة، إذ يمنحُ الرِّضا عندما يلبِّي الطفلُ بعضَ معايير السلوك الخاصَّة. يقولُ فروم إنَّ الطفلَ، من الناحية المثاليَّة، ينبغي أن يحصُلَ على نوعَي المحبَّة ويجعَلَهما جزءًا منه. بحسب إندو، اليابان أُمَّةُ آباءٍ متَسلِّطين، وقد فَهِمَتْ محبَّةَ الله الأبويَّة، لكن ليس محبَّة الأمّ.

يُعدِّدُ قَولٌ يابانيٌّ مأثورٌ قديم الأمورَ الأربعةَ الأكثرَ فَظاعةً على الأرض، وهي: "النيران والزلازل والبرق والآباء". في أثناء رحلاتي إلى اليابان، أخيرتي

الكثيرون بشأن آبائهم المتسلِّطين الذين لا يعتَذرون بتاتًا، ويظلُّون بعيدين عاطفيًّا، ولا يُظهرون أيَّ شيءٍ يماثلُ المحبَّة أو الرحمة، وينتقدون كثيرًا، ولا يُظهِرون إلَّا القليلَ من التَّشجيع. قالت لي إحدى النساء: إنَّها في الواقع دبَّرتْ مكيدةً لقَتْل والدها في سنِّ الثالثة عشرة بعد اعتدائه عليها جنسيًّا. لكنَّها خَوفًا من عقوبة الإعدام، ذهبت لتَدرسَ في أميركا بدلًا من ذلك. وعندما تُوفِّيتْ والدتُها، طالَبَ بعودتها لتَعتنيَ به، وبموجب العادات اليابانيَّة، شعرتْ بأنَّها مُلزَمة. قالت لي: "شكرَني والدي الشهر الماضي للمرَّة الأولى في حياتي على أمرٍ فعلتُه. أحسبُ ذلك انتصارًا حقيقيًّا".

يختمُ إندو قائلًا: إنَّه ليَكونَ للمسيحيَّة أيَّة جاذبيَّةٍ بالنِّسبة إلى اليابانيِّين، يجب أن تُشدِّدَ على محبَّة الله المتمثِّلة في الأُمومة- المحبَّة التي تَغفرُ الإساءةَ، وتَشفي الجراح، وتجذبُ الآخرين إليها بدلًا من إرغامهم على فعل ذلك ("يا أورشليم، يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسَلين إليها. كم مرَّةٍ أردْتُ أن أجمعَ أولادك كما تجمَعُ الدجاجة فراخَها تحت جناحَيها ولم تريدوا"). يقولُ إندو: "في الديانة التي تعتمدُ على الأُمومة، يقتربُ يسوع من العاهرات والمشوَّهين والذين لا قيمة لهم، ويغفرُ لهم". كما يرى الأمر، أتى يسوعُ برسالةِ محبَّةِ الأمِّ لتَحقيق التوازن مع محبَّة الأب في العهد القديم. إنَّ محبَّةَ الأمِّ لا تهجرُ حتَّى الولد الذي يرتكبُ جريمة؛ إنَّها تغفرُ أيَّ ضعفٍ كان. بالنِّسبة إلى إندو، ما أثَّر في التلاميذ كان إدراكَهم أنَّ يسوعَ ظلَّ يحبُّهم حتَّى بعد أن أنكروه. إنَّ إثباتَ خطأ شخصٍ ما ليس بالأمر الجديد؛ لكنْ أن تُثبتَ أنَّه خاطئ ولا يزال محبوبًا، فهذا أمرٌ جديدٌ.

يكمِّلُ كتابُ "**حياة يسوع**" صورةَ محبَّةِ يسوعَ المتمثِّلة في الأمومة:

> "كان نحيلاً؛ لم يكُنْ شخصًا مهمًّا. لكنَّ هناك شيئًا واحدًا يتَّصفُ به: لم يُعرَفْ عنه قَطُّ أنَّه كان يهجرُ الآخرين في صِعابهم. كان يجلسُ بجانب النساء عندما كنَّ يَذرِفْنَ الدُّموع. وعندما

كان الكبار في السنِّ وحيدين، كان يجلسُ معهم بهدوء. لم يكن الأمر إعجازًا؛ لكنَّ العينَين الغائرتَين كانتا تَفيضان بمحبَّةٍ أعمقَ من المعجزة. أمَّا بالنِّسبة إلى الذين هَجَروه، الذين أنكَروه، لم تخرج كلمةُ استياءٍ واحدة من شفتَيه. مهما حدث، كان هو رجلَ الأحزان، ولم يكُنْ يصلِّي إلَّا لأجل خلاصهم.

هذه حياةُ يسوعَ الكاملة. تبرزُ أمامَنا نقيَّةً وبسيطة، مثل رمزٍ كتابيٍّ صينيٍّ واحدٍ مرسومٍ على صفحةٍ بيضاء من الورق".

سيَجدُ المسيحيُّون التقليديُّون أنَّ صورةَ يسوع التي رسمَها إندو غيرُ كاملة. لا يذكُرُ أيَّ شيءٍ عن معجزات يسوع، وبصراحة، تبدو هذه المعجزات تقريبًا لا صلَة لها بأهدافه. إنَّه لا يذكرُ مَشاهدَ تُظهرُ سُلطان يسوع وقوَّته. إنَّه يقدِّمُ مسيحًا يمكنُ أن يفهمَه اليابانيُّون، وبالنسبة إليهم، جميعُ صفاتِ القوَّة جعلَتْ من يسوع شخصًا مخيفًا وصعبَ القبول. وبصورةٍ مشابهة، يقدِّم إندو وصفًا أعرجَ للقيامة التي تشكِّل بالنِّسبة إليه عائقًا أمام معتقدات اليابانيِّين. وللنُّقَّاد الذين يُصدرون أحكامًا صارمةً على لاهوته، يُجيب: "إنَّ طريقتي في تصوير يسوع تنبعُ من كَوني روائيًّا يابانيًّا. كتبتُ هذا الكتابَ لفائدة القرَّاء اليابانيِّين الذين ليس لهم تقليدٌ مسيحيٌّ خاصٌّ بهم، وهم لا يَعرِفون أيَّ شيء تقريبًا عن يسوع".

لكنْ نحن الذين نشأنا بينما كنَّا نسمَعُ عن يسوع، لدينا الكثيرُ لنتَعلَّمَه من إندو أيضًا. أذكُرُ أنِّي ألقيتُ كلمةً حول موضوع "الحروب الثقافيَّة" أمام جمعٍ كبيرٍ يميل نحو القناعة الديمقراطيَّة الليبراليَّة، وكان يضمُّ أقلِّيَّةً يهوديَّةً قويَّة. اختِرتُ بصفتي رمزًا للمسيحيِّ الإنجيليِّ في حلقة بحثٍ ضمَّت رؤساء قناة وورنر برذرز (Warner Brothers) وديزني، بالإضافة إلى رئيس كلِّيَّة وَلسلي (Wellesley) والمحامي الخاصِّ لأنيتا هِل (Anita Hill) التي شهدَتْ بقوَّة في مجلس الشيوخ ضدَّ قاضي صُلح المحكمة العليا كلارنس توماس (Clarence Thomas). شعرتُ وكأنِّي أرتدي قميصًا رياضيًّا يحمل

عليه هدفٌ في الوسط، حيث كانت لديهم جميعًا قصصٌ ليَسردوها عن جماعاتِ ضَغْطٍ مسيحيَّةٍ قويَّةٍ قد حاربَتْهم.

كان المعمدانيُّون الجنوبيُّون يقاطِعون ديزني، وكان الإنجيليُّون يعبِّرون عن الغضب الشديد بسبب عَرضٍ فنِّيٍّ تجديفيٍّ في كلِّيَّة وَلِسلي، وكانت أنيتا هِل لا تزالُ تتسلَّمُ رسائلَ غاضبةً من مسيحيِّين محافظين بعد سنوات من ظهورها أمام مجلس الشيوخ. كانت لوسيندا روب (Lucinda Robb) أصغرُ امرأةٍ في حلقةِ البحث، هي حفيدةَ الرئيس ليندون جونسون (Lyndon Johnson) وابنةَ عضو مجلس الشيوخ تشاك روب. وتحدَّثت لوسيندا بشأن حملةٍ مؤذية ضدَّ أوليفر نورث (Oliver North)، حيث رابطَ مسيحيُّون يمينيُّون أمام كلِّ ظهورٍ لهم. قالت لي لوسيندا: "كنتُ أعتقد أنَّنا فعلًا مسيحيُّون. نشأنا مع بيلي غراهام الذي كان يقوم بزياراتٍ متكرِّرة لنا، وكنَّا دائمًا نَشِطين في الكنيسة. كنَّا نؤمنُ حقًّا. لكنَّ هؤلاء المتَظاهِرين عامَلونا وكأنَّنا شياطينُ من جَهنَّم".

عندما حان دَوري لأتكلَّم، ذكرتُ أنِّي لكي أتحدَّثَ بمواضيع كهذه، أطلبُ الإرشادَ من حياة يهوديٍّ من القرن الأوَّل، كان هو أيضًا مشترِكًا في حربٍ ثقافيَّة. كانت مؤسَّسةٌ دينيَّةٌ جامدةٌ تطاردُه وتُضايقُه طَوال فترة وجوده على الأرض، حيث إنَّها كانت قلقةً من أن تزعجَ رسالتُه الثَّوريَّةُ السُّلطاتِ الحاكمة. ومن المؤكَّد أنَّ الإمبراطوريَّة الوثنيَّة التي عاش في ظلِّها أعطَتْه سببًا لموقف الهجوم. كانت لروما ممارساتٌ- من عبوديَّة، وإعداماتٍ جماعيَّة، ودفنِ الأجنَّة، وألعابِ المصارعين العامَّة- لا تتسامَحُ معها أيَّة دولةٍ حديثة. اعتمدَ يسوعُ على سلاحٍ واحدٍ رئيسيٍّ "ليُحاربَ" الحروب الثقافية: المحبَّة المضحِّية. من الكلمات التي تكلَّم بها قبل الموت كانت التالية: "يا أبتاه، اغفرْ لهم، لأنَّهم لا يعلَمون ماذا يفعلون".

بعدَ حلقة البحث، اقتربَ منِّي أحَدُ الأشخاص المشهورين في التلفاز يعرفُ اسمَه كلُّ قارئ. قال: "ينبغي أن أخبرَكَ بأنَّ كلامَكَ طعَنَني في الصَّميم. هيَّأتُ

نفسي أنْ أكرَهَكَ لأنّي لا أحبُّ جميعَ المسيحيِّين اليمينيِّين، وقد افترَضْتُ أنَّك أحَدُهم. لا يمكنك أن تتصوَّرَ مقدارَ الرسائل التي أتسلَّمُها من المنتمين إلى اليمين. أنا لا أتبعُ يسوع- أنا يهوديّ. لكنْ عندما ذكرْتَ أنَّ يسوعَ يغفرُ لأعدائه، أدركتُ كم أنّي بعيدٌ عن تلك الروح. أنا أحاربُ أعدائي ولا أغفرُ لهم، ولا سيَّما المنتَمين إلى اليمين. هناك الكثيرُ لأتعلَّمَه من روح يسوع". كانت قوَّةُ محبَّةِ يسوع المضحِّية تعمَلُ مرَّةً أُخرى أيضًا.

في نهاية مهنته، انتقلَ إندو إلى مَواضيعَ شخصيَّةٍ حتَّى عن سيرته الذاتيَّة. صدرَتْ روايتُه "**الفضيحة**" *(Scandal)* في عام ١٩٨٨م. وتقدِّم هذه الروايةُ بشكلٍ صادم شخصيَّةً مركزيَّةً هي كاتبٌ كاثوليكيٌّ مشهورٌ في اليابان، اتُّهم بارتياد المنطقة الحمراء[١٨] في طوكيو. لا يتأكَّدُ القارئ تمامًا ما إذا كان لهذا الكاتب جانبٌ مظلمٌ، في شبهه الواضح بإندو، وقد أوقعَ به متَّهِموه، أم أنَّه نسخةٌ أُخرى لإندو. يكشفُ إندو بالكامل خيانةَ روحه. إنَّه يقولُ للقرَّاء: "لا تبالغوا في تقديري. هذا كلُّ ما أستطيع أن أفعلَه لأتعامَلَ مع مشكلاتي. لا أستطيعُ أن أتحمَّل مسؤوليَّةَ حياتكم أيضًا".

بوصفي كاتبًا، أجدُ أنَّ روايةَ "**الفضيحة**" هي الأكثرُ جرأةً، ومن جوانب عديدة، الأكثرُ تأثيرًا بين روايات إندو كلِّها. إنَّ لدى الكُتَّاب الذين يكتُبون عن موضوع الإيمان ميلًا إلى جَعْلِ شخصيَّاتهم أكثرَ قبولًا، وتصوير تلك الشخصيَّات وعليها نوعٌ من التألُّق. يتَناقَضُ هذا الميلُ مباشَرةً مع مثال الكتاب المقدَّس، الذي يصوِّر عيوبَ الشخصيَّات العظيمة وأخطاءَها- إبراهيم، وموسى، وداود، وبطرس، وبولس- بواقعيَّة قاسية. بهذا المعنى، إندو هو أحَدُ الكُتَّاب الروائيِّين العصريِّين الأكثر شَبهًا بكُتَّاب الكتاب المقدَّس، حيثُ يظهرُ مَوضوعُ الخيانة في كلِّ كتابٍ

١٨) وتُسمَّى أيضًا منطقة الضوء الأحمر (Red-light district)، وهي منطقةٌ في أحَد أحياء العاصمة اليابانيَّة طوكيو تُشتهر بالنوادي الليليَّة والحانات والمسارح والفنادق، إضافةً إلى خدمات الجنس التجاريّ (الناشر).

رئيسيٍّ من كُتُبه. في رواية "**الفضيحة**"، إندو نفسُه هو الخائن.

يقول إندو: "لا يستطيعُ الروائيُّ أن يكتُبَ عمَّا هو مقدَّس. لا يستطيعُ أن يصوِّرَ السيِّدَ المسيحَ القدُّوس، لكنَّه يستطيعُ أن يكتبَ عن يسوع من خلال عيون الناس الذين داسوا لوحة "فومي"، أو عيون تلاميذ السيِّد المسيح والآخرين الذين أنكَروه". كان بإمكانه أن يُضيفَ ويقولَ إنَّ الروائيَّ لا يستَطيعُ أن يكتُبَ عن يسوع إلَّا من خلال عيون الروائيِّ نفسه؛ لأنَّ إندو في النهاية لم ينحرفْ بعيدًا عن سيرته الذاتيَّة. في داخل الكاتب المسنِّ المحتَرَم، كان هناك صبيٌّ صغيرٌ يكافحُ ليَجعَلَ لباسَه الأجنبيَّ يناسبُ الجسدَ اليابانيّ.

تذكُرُ إحدى قصص إندو القصيرة، "**الأمَّهات**" *(Mothers)*، رجلًا يزورُ مجموعةً من مسيحيِّي كاكوري على جزيرةٍ نائية بحثًا عن بعض الحقائق عن نفسه. انجذَبَ الزائرُ إلى هؤلاء المسيحيِّين في السرِّ المكرَّسين لمريَم بشعورٍ حادٍّ من الفشل التاريخيّ. شعرَ أنَّ فيهم نوعًا من الشَّوق الذي كان يشعرُ به كأنَّه طفلٌ غيرُ قادرٍ أن يتَواصَلَ جيِّدًا مع والدته. "في بعض الأحيان ألمحُ نفسي في هؤلاء الكاكوري، أشخاصٌ كان عليهم أن يعيشوا حياةَ نفاقٍ، يكذبون على العالم دون أن يكشفوا البتَّة عن مشاعرهم الحقيقيَّة لأحد".

في حُلُمٍ يتكرَّر، يستَلقي الراوي في المستشفى تحت تأثير المخدِّرات القويّ. وبينما هو يغيبُ عن الوعي ويستَعيدُه، يرى والدتَه الصبورةَ والمُحبَّة بعنادٍ تجلسُ إلى جانبه- ما من أحدٍ آخر سوى والدتِه. في لحظات صفاء التفكير، يفكِّرُ في إيمانها القويِّ وبتمرُّده. "كلَّما أرغَمَتْني على مشاركة إيمانها، قاومْتُ قوَّتَها المتسلِّطة، بالطريقة ذاتها التي يقاومُ فيها طفلٌ غريقٌ ضغطَ المياه".

بينما كانت هذه الأفكارُ تجولُ في ذهن الراوي وهو يستَمعُ إلى طنين الأجهزة الطبِّيَّة التي تدعَمُ الحياة، متنقِّلًا بطريقةٍ ضبابيَّةٍ بين الحاضر والماضي، ومستعدًّا لمستقبلٍ لا يستطيعُ أن يتخيَّله- تجلسُ والدتُه إلى جانبه تنتظرُ صامتة.

أنّها أقلُّ قيمة. الكتابة هي خدمته: بالإنابة، أو بالوساطة ربّما، أو بطريقةٍ غير مباشرة، لكنّها مع ذلك تبقى خدمة. "كنتُ أرفعُ رأسي عند سماع ردودِ الفعل هذه وأقول: "يا إلهي، أتمنّى لو عرفتُ مَن أكونُ أنا"؛ الآن أميلُ أكثرَ إلى القول: "نعم، أنا غبيّ، ومُرائيّ، وغريبُ الأطوار، لكنّ الله برحمته اختارَني ليقدِّمَ نفسَه لك". لدينا هذا الكنزُ في أوانٍ خزفيّة... خدمتي ليسَتْ منظَّمةً ودون هيكليّةٍ واضحة، لكنّها كما أرجو خدمةٌ مشروعة".

مع ذلك، فباستِثناء هذه الرسائل القليلة من القرّاء، لا يزالُ الاتّصال مُنقطعًا بين بوشنر والناس الذين يقدِّم خدمةً إليهم. لم يجدْ كنيسةً مُرضِيَةً قريبةً منه. ويقول في هذا الشأن: "وجدت أنَّ ما يعظُ به غالبيّة القساوسة سطحيٌّ أكثرَ ممّا هو قلبيّ. أنا نادرًا ما أذهبُ لأستمعَ إليهم، وعندما أفعل، أشعرُ بالذّنب بشأن ردِّ فعلي السلبيّ. يذكِّرُني العديدُ من الكنائس بالأُسَرِ المفكَّكة، التي يملأُها الألم المدفون والوَحدة، ويُسيطرُ عليها شخصٌ متسلِّط. باستثناء الكنيسة الأسقفيّة الرائعة التي كنتُ أذهبُ إليها قُربَ ويتون، لم أجِدْ ولا كنيسة ترعى حاجاتي. إنَّ مجموعات الدعم والمسانَدة هي الأقرب إلى ما أتمنّى أن تكونَه الكنيسة".

إذًا، يحاربُ بوشنر معظمَ معاركِ الإيمان بمفرده. لا توجَدُ جماعةٌ من الأصدقاء المسيحيِّين قريبةٌ منه. إنَّ الكُتّابَ ممَّن يكتُبون عن التعبُّد الذين يُعجَبُ بهم الآخرون- مثل كاثلين نورِس (Kathleen Norris)، وهنري نووين (Henri Nouwen)، وتوماس ميرتون- يفشَلون في أغلب الأحيان في التأثير فيه. إنّه يَجِدُ غذاءً روحيًّا في شعراءَ مثل جون دون وجورج هَربرت، وجيرالد مانلي هوپكنز، لكن بصفتهم مصدرًا للإلهام الفنِّيّ، فهو يلجأ عادةً إلى روائيِّين آخرين: غراهام غرين (Graham Greene)، ووليَم ماكسويل (William Maxwell)، فلانري أوكونور، بينما يُصارعُ على نحوٍ متَزايِد الكآبةَ والحزن.

يقولُ أيضًا: "احتفَلْتُ بعيدِ مَولدي السبعين، وهو العيدُ الوحيد الذي أثَّر فيَّ بعُمق. مرَّتْ أعياد مَولدي الأربعون أو الخمسون أو الستون بسرعة. لكنَّ هذا العيدَ

لنبدأ مع شوساكو إندو

ابْدَأْ برواية "**الصمت**"، وهي روايتُه الكلاسيكيَّةُ المُعتَرَف بها. أنا كذلك مُعجَبٌ جدًّا برواية "**الفضيحة**". إحدى رواياته الأخيرة، "**نهرٌ عميق**" *(Deep River)* تتطرَّقُ إلى مَواضيع رواياته الأولى- الرحلات خارج البلاد، إيمانٌ محطَّم، الغبيُّ المُتلَعثِم- لكنَّها تستكشفُ مجالًا جديدًا وهو مقارَنة الأديان من خلال عيون مجموعةٍ سياحيَّةٍ يابانيَّة تزورُ الهند. يجدُ العديدُ من القرَّاء أنَّ رواياتِ إندو مكرَّرة، أو أنَّ من الصَّعب التَّواصُل معها، ربَّما بسبب الفروقات الثقافيَّة. قد يفضِّلُ هؤلاء القصصَ القصيرةَ التي جُمِعَتْ في كتاب "**الشهداء الأخيرون**" *(The Final Martyrs)*. ويساعدُ كتابُه "**حياة يسوع**" على شَرْح وجهة النَّظر التي يُعبِّرُ عنها في الروايات.

الفصل الثالث عشر

هنري نووين

(Henri Nouwen)

الشافي المجروح

في عام ١٩٨٣م، قابَلَ الكاهنُ والأستاذُ الجامعيُّ هنري نووين للمرَّة الأولى لوحةَ رَمبرانت "عودة الابن الضالّ" (The Return of the Prodigal Son) في شكل مُلصَقٍ بمسمارٍ صغيرٍ وراءَ أحَد الأبواب. ربَّما لأنَّه كان قد أكملَ لتَوِّه رحلةً سياحيَّةً مُنهِكةً لإلقاء المحاضرات حول قضايا العدالة في أميركا الوسطى وقد قاربَ على الانهيار العاطفيّ، أثَّرت فيه اللَّوحة كما لم يؤثِّر فيه أيُّ شيءٍ آخر من قبل. لم يرغَبْ في شيءٍ كما رغبَ في أن يأخُذَ مكانَ الابن ذي الثياب الرثَّة الراكع أمام والده ليستحمَّ في النور الذهبيّ، وفي أن يشعرَ بثِقل يدَي الأب الرقيق على كَتفَيه. لم يرغَبْ في شيءٍ كما رغبَ في العودة إلى البيت- حيثُما كان ذلك البيت.

وُلِدَ نووين في هولندا، وكان يشعرُ بأُلفةٍ وانجذابٍ نحو اللَّوحات التي رسمَها أشخاصٌ من أبناء بلده، لا سيَّما رَمبرانت وڤان كوخ (Van Gogh). بعد ثلاث سنوات، عندما عُرِضَت عليه فرصةُ زيارة روسيا، وافَقَ بسرعة، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أنَّ الزيارةَ أتاحَتْ له الفرصةَ ليَرى لوحةَ رَمبرانت شخصيًّا. دخل مرَّتين خلال أسبوعٍ واحد إلى متحف الأرميتاج (Hermitage) في سان بطرسبرغ، وجلسَ لساعاتٍ أمام التُّحفة التي رسمَها رَمبرانت

على مقياس كبيرٍ أكبرَ من الحجم الأصليّ. شعرَ نووين بالتَّضاؤل أمامَ اللَّوحة وهو يشاهدُها تتغيَّرُ ساعةً تلوَ الأُخرى مع ضَوء أشعَّة الشمس، مستَوعِبًا كلَّ تفاصيل الشخصيَّات في وَضْعِهم بصفة شخصيَّاتٍ إضافيَّة.

بعد ذلك بوقتٍ قصير، وإذ استَقالَ من وظيفته بصفته أستاذًا جامعيًّا؛ وبعد أن أحدَثَ تغييرًا جذريًّا في حياته، كتبَ نووين الكتابَ الصغيرَ "**عودة الابن الضالّ: قصَّةُ العودة إلى البيت**" *(The Return of the Prodigal Son: A Story of Homecoming)*. بانتقاله إلى مجتمع المعوَّقين جسديًّا وعقليًّا في تورنتو بكندا، أملَ في أنَّه وجدَ بيتَه الحقيقيَّ أخيرًا. ظلَّت هذه اللوحةُ تأسرُه وتجذبُه، وبدأ نووين يرى قصَّته قياسًا بمثال يسوع عن الابن الضالّ. بعد عشر سنوات من انتقاله، انتهَتْ حياتُه بنوعٍ من الانسجام الشاعريّ؛ لأنَّه كان يعملُ على برنامج تلفزيونيٍّ خاصٍّ باللَّوحة في عام ١٩٩٦م، ويُجري الاستعدادات لزيارة مُتحف الأرميتاج مع طاقم تصويرٍ هولنديٍّ عندما أُصيب بنوبةٍ قلبيَّة قضت عليه في نهاية المطاف.

عندما فكَّرَ في مثل الابن الضالّ في أثناء حياته، وجدَ نووين تماثُلًا طبيعيًّا بينه وبين الأخ الأكبر المسؤول والمطيع. على الرُّغم من أنَّه كان في الخامسة من عمره، فقد قرَّر أن يكونَ كاهنًا، وكان يمثِّلُ الدَّورَ بوعاء القربان وثوبٍ طقسيٍّ على شكل لعبة. تلقَّى تدريبَه في هولندا في علم النفس وعلم اللَّاهوت، ثُمَّ جرتْ رسامته كاهنًا، وأمضى سنواتِ حياته المهنيَّة الأولى وهو يحقِّقُ طموحاته. درسَ في مستوصف مَنِنغر (Menninger Clinic)، ودرَّسَ في جامعتَي نوتردام (Notre Dame) ويال (Yale)، وسافرَ كثيرًا بصفة متحدِّثٍ في المؤتمرات. ولأنَّه كان شخصًا مسكونيًّا على نطاقٍ واسع، كان من الممكن أن يتحدَّث في اليوم نفسه أمام اللَّاهوتيين المتحرِّرين الكاثوليك اليساريِّين، وأمام أتباع الحركة الإنجيليَّة الكاريزميَّة الذين يتهرَّبون من النقاش (سلَّم روبرت شولر [Robert Schuller] القسُّ التلفزيونيُّ الشهير، منبر كاتدرائيته البلّوريَّة إلى نووين ليُسجِّلَ ثلاثَ برامجَ تلفزيونيَّة متَتالية). وتجاهَلَ قوانين روما حول حَصْر تَناوُل القربان المقدَّس بالأعضاء الكاثوليك، وشاركَ به يوميًّا أصدقاءَ وطلَّابًا وغرباءَ أينَما ذهب.

بعد أن درَّسَ في جامعاتِ النخبة وكتبَ ستةَ عشرَ كتابًا، كانت لدى نووين سيرةٌ ذاتيَّةٌ مهمَّةٌ ومرغوبٌ فيها- وهذه كانت المشكلة بالضَّبط. إنَّ البرنامجَ الحافلَ والمشحون، والمنافسةَ المستمرَّة، كانا يخنقان حياتَه الروحيَّة. أمضى فترتَين من العُزلة دامَتْ كلٌّ منهما ستَّة أشهرٍ في ديرٍ في شمال نيويورك، ثُمَّ انسحبَ إلى أميركا الجنوبيَّة يستكشفُ دورًا مُحتملًا له بصفة مُرسَلٍ إلى العالم النامي. في البيرو، عاشَ في أحَد أحياء الفقراء في شمال العاصمة ليما، وهي أبرشيَّةٌ من مئة ألف نسمة. لم تكن العائلة التي سكنَ معها تملكُ سوى القليل، لكنَّ نووين شعرَ بمحبَّتهم من خلال الأطفال الذين كانوا يدبُّون حوله من جميع الجهات يقَهقِهون ويتقلَّبون ويلعبون ألعابًا مع الكاهن الغريب، الذي كان يتحدَّثُ لغتَهم مثل طفل. بثَّ فيه الأولاد، حرفيًّا، الحياة ثانيةً كما قال في وقتٍ لاحقٍ. اكتشفَ ظاهرةً متَناقضة، وهي أنَّ لدى الفقراء والمضطَهَدين إحساسًا أكثرَ عمقًا بمحبَّةِ الله من الغربيِّين الذين يعيشون حياةً يتمتَّعون فيها بامتيازاتٍ من الناحية المادِّيَّة.

كتبَ نووين في أثناء إقامته المؤقَّتة في بيرو: "يا لمعرفتنا القليلة تلك التي نملكُها عن قوَّة اللَّمسة الجسديَّة!". كان قد زارَ لتوِّه دارًا للأيتام حيثُ تنافَسَ الأولادُ الذين كانوا في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى الحنان والمحبَّة، للحصول على امتياز لمسه. "لم يرغبْ هؤلاء الصبيان والفتيات إلَّا في شيءٍ واحد: أن يلمسَهم أحَدٌ ما ويضمَّهم ويعانقَهم ويدلِّلَهم. ربَّما لدى معظم البالغين الحاجات ذاتها، لكنَّهم لا يملكون البراءةَ والوعي بالذَّات للتَّعبير عنها. في بعض الأحيان، أرى الإنسانيَّة مثل بحرٍ من الناس الجائعين إلى الحنان والمحبَّة والرعاية والإطراء والقبول والغفران واللُّطف. يبدو أنَّ الجميعَ يصرخ: "أرجوك أن تحبَّني"".

نظرًا إلى إقامته في بيوت الفقراء، تعلَّمَ نووين أنَّنا نخدمُ المحتاجين ليس فقط لنَجلبَ يسوعَ إليهم، بل أيضًا لنَجدَ يسوعَ في داخلهم. قال يسوع: "طوبى للمساكين" وليس "طوبى للذين يعتَنون بالمساكين". ونَظَرًا إلى أنَّه أقامَ بينهم، نالَ نووين تلك البركة، وبدأ يُشفى من الأذى الذي أحدَثَه الإجهاد. على الرُّغم من ذلك، أقنعَه الوقتُ الذي أمضاه في أميركا الجنوبيَّة بأنَّ دعوتَه لم تكن إلى ذلك المكان. بعد ستَّة أشهرٍ قَبِلَ وظيفةً جديدةً في جامعة هارفْرد.

عندما كان يعيش في البيرو، وصلَتْه الأخبارُ من هولندا بأنَّ زوجةَ أخيه رُزِقت طفلةً منغوليَّة (مصابةً بمتلازمة داون). كتبَ إلى العائلة الكلمات التالية، دون أن يدرك أنَّ هذه الكلمات ستَبدو بعد بضع سنواتٍ بصيرةً نبويَّة:

> "ستكونُ لورا مهمَّةً بالنِّسبة إلينا جميعًا في العائلة. لم يوجَدْ شخصٌ "ضعيفٌ" بيننا قَطّ. نحن جميعًا نعملُ بجِدٍّ ولدينا طموحٌ وأشخاصٌ ناجحون نادرًا ما اختَبَروا الضَّعفَ والعجز. لكنَّ لورا انضمَّت إلينا الآن وأعلنَتْ لنا نوعًا جديدًا كلِّيًّا من الاعتماد على الغير. لورا التي ستَبقى دائمًا طفلة، ستُعلِّمنا طريقَ السيِّد المسيح الذي لن يكونَ أحَدٌ قادرًا أبدًا على أن يعلِّمنا إيَّاه".
>
> (كتاب "شكرًا!" [Gracias!])

إنَّ ضغوطَ الشهرة، وبرنامجَ تدريسه في هارڤرد، وقضايا شخصيَّة صارت عبئًا ثقيلًا عليه بشكلٍ مُتَزايد، اجتمعَتْ كلُّها لتَدفعَ نووين نحو مرحلةِ الانهيار الكامل في غضون ثلاث سنوات. أخيرًا وجدَ نفسَه بين أذرع جماعة "الفُلك" (L'Arche) الذي يعملُ أفرادُها مع المعوَّقين بشكلٍ خطير. زارَه مدير مركز "الفُلك"، يان ريس (Jan Risse)، مَبعوثًا في مَهمَّةٍ من مؤسِّس هذه الجماعة. زارَه يان لبضعة أيَّام وأعدَّ له وجباتِ الطعام، وساعدَه بطرقٍ عمليَّة جدًّا. ظلَّ نووين ينتظرُ الطَّلَبَ الذي لا مفرَّ منه ليُلقي محاضرةً أو يكتبَ مقالة، أو تُعرَض عليه فترةُ راحةٍ ونَقاهة. لكنَّ هذه الدعوةَ لم تأتِ. كانت جماعة "الفُلك" تمنحُ نووين النعمةَ النقيَّةَ والبسيطةَ دون أيَّة شروط.

أثَّرت زيارةُ يان فيه كثيرًا حتَّى إنَّ نووين طلبَ من أسقفه أن ينضمَّ إلى جماعة "الفُلك" في فرنسا. للمرَّة الأولى في حياته شعرَ بأنَّ الله يدعوه إلى القيام بعملٍ ما. أرادَ أن يتعلَّمَ "ما لم تُعلِّمْه إيَّاه كلِّيَّة اللَّاهوت أو اللَّاهوت نفسه: كيف أُحبُّ الله؟ وكيف أكتَشفُ حضورَ الله في قلبي؟" إنَّ الرِّعاية والتغذية اللَّتين حَظِيَ بهما من الجماعة في

فرنسا هما ما قاداه لأنْ يصيرَ كاهنًا مُقيمًا في "مركَز الفجر" (Daybreak Center)، وهو بيتٌ تابعٌ للجماعة في تورونتو.

في الظاهر، بدا انتقالُ نووين من وظيفةٍ جامعيَّة إلى بيتٍ للمعوَّقين عقليًّا عملًا نبيلًا، أقصى ما يمكن أن يفعلَه أخٌ فاضلٌ أكبر سنًّا. لكنْ كما وضَّح نووين في كتاباته، وصلَ إلى هذا القرار بدافع الفشل والظلام الروحيّ والجروح العميقة. ذهب إلى هناك لا ليُعطي بل ليأخذ؛ ليس بدافع وُجودِ فَيضٍ لديه، بل بسبب الحاجة. ذهبَ لكي يبقى حيًّا. نظرًا لأنَّه كان يلعَبُ دائمًا دورَ الأخ المسؤول الأكبر سنًّا، وقعَ فريسةَ الإغراءات ذاتِها التي ابتُليَ بها النموذج الأوَّليُّ في مَثَل يسوع. استنتجَ قائلًا: "إنَّ من الصعب جدًّا الوصولَ إلى مرحلةِ ضياع القدِّيس المستاء؛ لأنَّ الأمرَ مرتَبطٌ على نحوٍ وثيقٍ بالرَّغبة في أن يكون صالحًا وفاضلًا".

> "أعرفُ من حياتي الخاصَّة، كم حاولتُ جادًّا أن أكونَ صالحًا ومقبولًا وجديرًا بالحبِّ، ومثالًا جديرًا للآخرين. كانت جهودي الواعية حاضرةً دائمًا لتجنُّب مصائد الخطيَّة والخوف الدائم من الاستسلام للتَّجرِبة. لكنْ بالإضافة إلى جميع هذه الأمور شعرتُ بأمرٍ جِدِّيّ، بشدَّة الأخلاق- وحتَّى لمسةً من التعصُّب- ممَّا جعلَ من الصعب على نحوٍ مُتزايدٍ أن أشعرَ بأنِّي في بيتي عندما أكون في بيت "أبي". صرتُ أقلَّ حرِّيَّةً وأقلَّ عفويَّةً وأقلَّ مرحًا...
>
> كلَّما فكَّرتُ في الابن الأكبر في داخلي، أدركتُ أنَّ هذا الشكل من الضياع متأصلٌ بعمقٍ فيَّ، وكم هو صعبٌ أن أعودَ إلى البيت من هناك. إنَّ العودةَ إلى البيت بعد مغامرةٍ شهوانيَّةٍ تبدو أسهلَ بكثيرٍ من العودة إلى البيت بعد غضبٍ باردٍ ضربَ جذورَه في أعمق أعماق زوايا كياني".
>
> (كتاب "عودة الابن الضالّ")

في لوحة رَمبرانت، يقفُ الأخُ الأكبر على مسافةٍ من الأب يراقبُ ببرودة عناقَ الأخ النذل. عندما حدَّق نووين في شكل الرجل، تساءلَ عمَّا إذا كان ينبغي أن يُعطي رَمبرانت اللوحةَ عنوانَ عودة الابنَين الضالَّين؛ لأنَّ الأكبرَ كان من نواحٍ عديدةٍ أكثرَ ضلالًا من الابن الضالّ، وغيرَ قادرٍ على التغلُّب على كبريائه واستيائه والمشاركة باحتفال رجوع أخيه.

كتب نووين في دفتر مذكِّراته مسجِّلًا قرارَه بالعودة إلى "مركز الفجر"، وكتب فِقرةً بعنوان "أحبُّ يسوع، ولكن...": "أحبُّ يسوع لكنِّي أريدُ أن أتمسَّكَ باستقلاليَّتي حتَّى لو لم يجلبْ إليَّ ذلك الاستقلالُ حرِّيَّةً حقيقيَّة. أحبُّ يسوعَ لكنِّي لا أريدُ أن أخسرَ احترامَ زملاء مهنتي على الرُّغم من أنَّ ذلك لا يجعَلُني أنمو روحيًّا. أحبُّ يسوعَ لكنِّي لا أريدُ أن أتخلَّى عن خُططي للكتابة، والسَّفر وخُططِ إلقاء المحاضرات، حتَّى عندما تكونُ هذه الخُطَط لمجدي أكثرَ ممَّا هي لمجد الله".

في النهاية، حلَّ نووين سلاسلَ الاستقلال والاحترام والانشغال، وانتقلَ من مؤسَّسةٍ شهيرةٍ إلى مؤسَّسةٍ لم يسمَعْ بها إلَّا قليلون، وذلك ليَعمَلَ لا مع قادةِ الأمَّة بل مع المرفوضين في المجتمع. فعلَ هذا جزئيًّا بسبب أحَد التَّفاصيل التي جرى تغاضيها بسهولةٍ في قصَّة يسوع: يمدُّ الأبُ يدَه إلى ولدَيه. إنَّه يرحِّبُ ليس فقط بالابن المتمرِّد، بل إنَّه يخرجُ أيضًا من البيت ليُقابلَ الابنَ المسؤولَ الذي سمعَ أصواتَ الموسيقى والرَّقص. إنَّ اليدَين ذاتَهما اللتين ضمَّتا الابنَ الضالّ، انتظرَتا لتَضُمَّا بحرارةٍ أخاه المستاء. كان نووين يتوق إلى ذلك العناق.

تعرَّفت إلى هنري نووين للمرَّة الأولى وهو في مرحلة الأخ الأكبر. وجدتُ كتابَه الكلاسيكيَّ الصغير "**الشافي المجروح**" *(The Wounded Healer)* في بداية حياتي المهنيَّة عندما كنتُ أُجري البحوثَ بشأن مَوضوع المعاناة، ووجدْتُ أفكارَه الثاقبةَ لافتةً للنَّظر. قرأتُ كتبًا كثيرةً له على مرِّ السنوات قبل أن أقابلَه شخصيًّا. اتُّهِمَ نووين بأنْ ليسَتْ لديه أفكارٌ غير منشورة، وبالفعل، فإنَّ بعضَ أفكاره قد نُشر أكثرَ من مرَّة

بأشكالٍ مختلفة، وأحيانًا في كتيِّبات أُعدَّت لتَبدوَ مثل الكتب. لكنَّه كان بالنِّسبة إليَّ مثل أخٍ كبيرٍ حكيم، مثل رائدٍ كان يستكشفُ ببراعةٍ مساراتِ الأفكار التي كنتُ أجِدُ نفسي متلهِّفًا لاعتمادها.

كتبَ نووين ذاتَ مرَّة متحدِّثًا بشأن أحاسيسَ تُعبِّر عمَّا يشعرُ به كلُّ كاتب: "بطريقةٍ ما اعتقدتُ أنَّ الكتابةَ ما هي إلَّا وسيلةٌ ليَبرُزَ من حياتي الصغيرة العابرة شيءٌ ذو قيمة مستمرَّة". إنَّ الكتابةَ عملُ اكتشافٍ بالنِّسبة إليه كما بالنِّسبة إلى قُرَّائه:

> "يعتقدُ معظمُ الطلَّاب أنَّ الكتابةَ تعني تدوين الأفكار، ونفاذَ البصيرة والرؤى. يشعرون بأنَّه يجب أن يكونَ لديهم ما يقولونه قبل أن يدوِّنوه على الأوراق. بالنسبة إليهم، الكتابةُ هي شيءٌ أكثرُ بقليلٍ من تسجيلِ فكرةٍ سَبقَ وُجودُها. لكنْ بموجب هذا الأسلوب، الكتابةُ الحقيقيَّة مستَحيلة. الكتابةُ عمليَّةٌ نكتشفُ فيها ما يسكنُ في داخلنا. الكتابةُ نفسُها تكشفُ ما هو حيّ... إنَّ الرضا الذي تُحدثُه الكتابةُ فينا يأتي من أنَّها تفتحُ في داخلنا مجالاتٍ جديدةً لم نكن ندركها قبل البَدء في الكتابة. عندما نكتبُ فإنَّنا ننطلقُ في رحلةٍ لا نعلمُ وجهتَها الأخيرة".
>
> (كتاب "تأمُّلاتٌ حول أساليب التعليم اللَّاهوتيَّة" [*Reflections on Theological Educations*]).

أعرفُ جيِّدًا مسارَ رحلةِ الكتابة الداخليَّ النموذجيّ. إنَّ معظمَ الكُتَّاب انطوائيُّون ومنكفئون على أنفسهم، وليسوا ذلك النَّوعَ من الناس الذين تودُّ دعوتَهم لتُمضيَ معهم أمسيَّةً مرحةً ومُمتِعة. ويفضِّلُ معظمُهم التَّواصُلَ مع جهاز الحاسوب على التَّواصُل مع إنسان. لكنْ ليس الأمرُ كذلك بالنِّسبة إلى نووين. بينما كان يُصدرُ كتابًا أو أكثرَ كلَّ سنة، كان في الوقت نفسه يحافظُ على وتيرةٍ محمومةٍ بصفته متكلِّمًا

عالميًّا وأستاذًا جامعيًّا وكاهنًا، وكان يدعو الآخرين بحماسٍ للانضمام إليه في الرحلة.

في إحدى المرَّات، عندما كنتُ أتناوَلُ الطَّعام برفقة مجموعةٍ من الكُتَّاب، تحوَّلَ الحديثُ إلى الرسائل التي نتسلَّمها من القُرَّاء. ذكرَ ريتشارد فوستر (Richard Foster) ويوجين بيترسون (Eugene Peterson) رجلًا شابًّا شديد الانفعاليَّة كان قد طلبَ منهما إرشادًا روحيًّا. أجاباه بلُطفٍ ولباقة، وأجابا عن أسئلته بواسطة البريد، وأوصَيا بكُتُبٍ حول مواضيعَ روحانيَّة. عَلِم فوستر أنَّ المُستَفسِرَ نفسَه كان قد اتَّصل بهنري نووين. قال: "لن تصدِّقوا ما قاله نووين. دعا هذا الغريبَ ليَسكنَ مع جماعته مدَّة شهرٍ لكي يُرشدَه روحيًّا بنفسه".

عليك أن تكونَ كاتبًا لكي تقدِّرَ عمل نووين بشكلٍ كامل. نحن الكُتَّابَ نحمي برامجَنا وخصوصيَّتنا بغَيرة. انتقلتُ منذُ بضع سنوات من وسط شيكاغو إلى ريف كولورادو، بشكلٍ خاصٍّ لأضَعَ مسافةً بيني وبين العالم المجنون في الخارج. أجل، قد نقبَلُ دَعواتٍ لإلقاء المحاضرات، والإجابة عن الرسائل، وحتَّى الردِّ على المكالمات الهاتفيَّة من قرَّاءٍ شغوفين، لكنَّنا دائمًا نسعى إلى إيجاد مجالٍ خاصٍّ بنا لا يستطيعُ أيُّ شخصٍ أن يدخلَه. حطَّمَ هنري نووين هذه الحواجز المهنيَّة. كان يُجري مراسَلاتٍ نَشِطةً مع خمس مئة شخص، وشجَّعَ العديدَ منهم على زيارته شخصيًّا.

أعرفُ أشخاصًا كثيرين كانوا ينظرون إلى نووين بصفته مديرَهم الروحيَّ عن بُعد. كان يجيبُ مطوَّلًا عن أسئلتهم دون أن يُعطيَ البتَّة انطباعًا بأنَّهم يتداخَلون في حياتِه أو يمنعونَه من القيام بأمورٍ أهمّ. يتذكَّرُ أحَدُهم، وهو بوب بوفورد (Bob Buford)، "تعامَلَ معي، كما لو كنتُ أكثر شخصٍ مثيرٍ للانتباه قابلَه في حياته. هكذا كان يعاملُ كلَّ مَن تقابَلَ معه". كانت لديه موهبةُ الإصغاء بكلِّ كِيانه إلى كلِّ مَن كان معه.

عندما أسمعُ الآنَ الأشخاصَ الآخرين يتذكَّرون نووين، تُصيبُني طعنةُ تبكيتِ الضَّمير. عندما يتَّصلُ بي أحَدُهم ويتكلَّم لوقتٍ طويل، ألتفتُ إلى حاسوبي وأُغطّي جزءَ الهاتف الذي أتكلَّمُ من خلاله لكي لا تُسمَعَ الأصواتُ الشبيهة بنَقرات

الحشرات، وأبدأ بتغير البنود في برنامج التقويم على الحاسوب. تَروي لي زَوجتي قصَّةً وقتَ العشاء، فأسألها عن أحَد التفاصيل فتذكِّرني بلُطفٍ بأنَّها قد ذَكَرتْه منذ دقيقتَين. كم أجدُ صعوبةً في الانتقال من الحياة الداخليَّة، حيثُ تجري معظمُ حياة الكاتب، إلى عالم الأشخاص الآخرين. في المقابل، كان نووين يُعاملُ الأشخاصَ الآخرين بتَحيُّز. قد تكون كتاباتُه عانَتْ نتيجةَ ذلك، لكنَّ أفرادًا كثيرين استَفادوا من ذلك.

عرَّف نووين مرَّة عملَ المدير الروحيِّ على هذا النحو: "أنت في غرفةٍ كبيرة وفي وسطها عارضةٌ للتَّوازنُ بسماكة بضعةِ سنتيمترات. ترتفعُ هذه العارضة نحو رُبع متر فقط عن سطح الأرض المغطَّاة بالسجَّاد. يتصرَّفُ معظمُنا وكأنَّنا مَعصوبو العينَين نحاولُ أن نسيرَ على هذه العارضة؛ نخافُ من أن نسقطَ عنها. لكنَّنا لا ندركُ أنَّنا على ارتفاع نحو ربع متر فقط من الأرض. المديرُ الروحيُّ هو شخصٌ يستطيعُ أن يدفعَكَ من على عارضة التوازن هذه ويقول: "أرأيتَ؟ لا تَخَفْ. الله لا يزالُ يحبُّك"".

فعلَ نووين هذا الأمرَ لأجلي من نواحٍ عديدة. لقد بدأتُ أجازف في كتاباتي لأنَّه كان يقودُني على الطريق كاشفًا عن اضطرابه العصبيِّ ومجالات فشله أمام العالم ليَراها. بدأتُ أنظرُ إلى الناس ليس على أنَّهم أشخاصٌ يتَقاطعون مع عملي، بل باعتبارهم السببَ الكامنَ وراء عملي. وبدأتُ أرى نفسي مع نووين كالأخ الأكبر واقفًا على هامش حفلة، شاعرًا بالاستياء من الضيوف الذين لم يدفعوا مستحقَّاتهم. وبتَشجيعٍ منه، رأيتُ يدَي الأبِ وهما تمتَدَّان نحوي.

في مرحلةٍ متأخِّرةٍ من حياته، كتبَ نووين عن مدى الصعوبة التي واجَهَها للعَودة إلى عائلته في هولندا. كان أفرادُ عائلته من الكاثوليك المتديِّنين خلال فترة نشأته، وفرحوا لقراره أن يصيرَ كاهنًا. لكنِ الآن، فقدَ معظمُ أفراد العائلة اهتمامَهم الرُّوحيَّ. وإذا عمَّدَ ابنة أخيه أو ابن أخيه في أثناء إحدى زياراته، كان البالغون يُعاملونه بتَسامحٍ قائلين: "هذا حسنٌ بالنِّسبة إليك، لكنْ بالتَّأكيد نحن لا نؤمنُ به". شعرَ وكأنَّه يؤدِّي دَورًا لا يُسلِّي أحَدًا.

عندما قرأتُ هذه السجلّات، أدركتُ لماذا لم يقدِّم نووين إلّا عددًا قليلًا جدًّا من الشَّكاوى ضدَّ الكنيسة التي أزعَجَتْه وأثارَتْ سَخَطَه بالكثير من سياساتها. بالنِّسبة إليه، كانت الكنيسةُ تمثِّل، مع كلِّ أخطائها، ملاذًا للرَّجاء والرَّاحة. لقد رأى نتائجَ عدم وُجود الإيمان في عائلته التي كانت غنيَّةً ماديًّا وفارغةً روحيًّا، وفي الطلّاب في جامعات النُّخبة الذين يتخبَّطون لعَدم وجود أجوبة عن أسئلتهم حول المعنى. لم يَصِرْ نووين قَطُّ داعيةً للكنيسة، لكنَّه أشارَ إلى الطريق المؤدِّية إلى الشركة المباشَرة مع الله. كان الإيمانُ حبلَ نجاةٍ بالنِّسبة إليه، النقطة الثابتة الوحيدة في عالمه المتحرِّك.

لم يعرفِ الآخرونُ القصَّةَ الكاملةَ عن الاضطراب الذي كان يعتَملُ في صَدر نووين إلّا بعدَ وفاته. تحتوي كتاباتُه على العديد من القرائن، وهذه وحدها قد تفسِّرُ القبولَ الاستثنائيَّ لِمَا كتبَه بين الكاثوليك والپروتستانت، ناهيك بقبوله بين غَير المؤمنين: أعطى الانطباعَ بأنَّه فتحَ قلبَه دون أن يُخفيَ أيَّ شيء. نجحَ في تَنميَة إيمان الآخرين في حين كان يتعامَلُ مع اضطرابه الشخصيِّ؛ لأنَّه كتبَ بشكلٍ صريحٍ إلى حدٍّ بعيدٍ عن ذلك الاضطراب.

مقتبسًا من غوردن ألپورت (Gorden Allport)، وصفَ نووين مرَّة "الإيمان التجريبيّ" أو الإيمانَ الذي يتمسَّكُ به الفردُ مبدئيًّا إلى أن يثبت. قدَّم نووين إليَّ مثلًا عن الإيمان التجريبيّ. لقد تمسَّك بما كان يؤمنُ به عندما كانت أحوالُ حياته تقاومه، ووضعَ ثقتَه في صفات الله حتَّى عندما أظلمَتْ حياتُه وبدَتْ يدُ الله غير مرئيَّة. استمرَّ في العمل مثل أخٍ كبيرٍ مسؤول، حتَّى عندما كان ينظرُ إلى أعماقه ويعرفُ أنَّه الابنُ الضالّ.

> "إذًا أنا أصلِّي بينما لا أعرفُ كيف أصلِّي. أنا أستريحُ بينما أشعر بالتَّملمُل، وبالسَّلام بينما أتعرَّضُ للتَّجرِبة، وبالأمان مع أنِّي لا أزالُ قَلقًا، مُحاطًا بغيمةٍ من النُّور بينما لا أزالُ في الظَّلام، بالمحبَّة بينما لا أزالُ أشكّ".

(كتاب "الطريق إلى مركَز الفجر" [*The Road to Daybreak*])

قال أحَدُ أعضاء جماعة "مركَز الفجر" سابقًا: "عندما أفكّر في هنري، يحضرُني كتابان: الأوّل هو الكتاب الذي كتبَه هنري أربعين مرّة لكنْ لم يستَطع أن يعيشَه؛ والآخر هو الكتابُ الذي عاشَه هنري مدَّة خمسٍ وستّين سنة تقريبًا لكنْ لم يستَطعْ أن يكتبَه. الكتابُ الثاني لا يزالُ ينتظرُ مَن يكتُبُه حيث ظهَرَت حياةُ هنري وحكمتُه الآن بكلِّ وضوح بعد وفاته". رثى نووين نفسَه قائلًا: "الناسُ الذين يقرأون أفكارَك، يميلون إلى التفكير في أنَّ كتاباتك تعكس حياتَك".

أجرى كاتبُ سيرةِ نووين، مايكل فورد (Michael Ford)، مقابَلاتٍ مع أكثر من مئة شخص من الذين كانوا يعرفون نووين جيّدًا. كان كثيرون منهم يعودون إلى موضوع التّنافُر في حياته، لا سيّما التّعارُض ما بين المكتوب وما قيل على المسرح، وبين سلوكَه بصفته إنسانًا. كان يُلقي محاضراتٍ مُلهِمةً عن الحياة الروحيّة، ثُمَّ تَنْهارُ أعصابُه ويصيرُ مكتئبَ المزاج. يتحدَّث بشأن القوّة التي اكتَسبَها من جرّاء عَيشه مع الجماعة، وبعد ذلك يقودُ سيّارتَه إلى بيتِ أحَدِ أصدقائه ويوقظُه الساعة الثانية صباحًا، ثُمَّ يَبكي ويشهقُ ويطلبُ من صديقه أن يُمسكَه. كانت فواتيرُ هاتفه عادةً تزيدُ على إيجار بيته، حيث إنَّه كان يُجري اتّصالاتٍ هاتفيَّةً بجميع أنحاء العالم، دون اعتبارٍ لفروق التوقيت بسبب حاجته الماسَّة إلى الصحبة. إذا فشلَ صديقٌ في إطرائه أو انتظر فترةً طويلةً للردِّ على رسالةٍ ما، أو تجنَّبَ دعوَتَه إلى احتساء القهوة بعد إحدى المحاضرات، فإنَّه كان ينطوي على نفسه لأيّام، ويُشَلُّ تقريبًا بسبب الرفض. باختصار، شعرَ بأنَّه مدعوٌّ لتَقديم رسالةِ السلام الداخليِّ والقبول التي لم يحقِّقْها هو على الإطلاق.

يختمُ فورد بقَوله إنَّ نووين كان "رجلًا متعدِّدَ المواهب وسخيًّا بلا حدود، له سحرٌ خاصٌّ ورؤيةٌ رعويَّة، لكنَّه كان أيضًا ذا شعورٍ عميقٍ بعدم الأمان- شخصًا يعاني الكرب والألم والحنين". تكشفُ سيرتُه الذاتيَّة عن سرٍّ أخفاه نووين عن الجميع سوى عددٍ قليلٍ من الناس خلال حياته: كان الكاهن مثليَّ الجنس عازبًا. ونتيجةً لذلك، كان يتوقُ إلى العلاقات الحميمة، لكنَّه كان يتَراجَعُ عنها خَوفًا ممَّا ستَقودُه إليه. يقول فورد: "صرتُ أدركُ تمامًا مدى أهمِّيَّة كَون نووين مثليًّا في حياته،

تلك المثليَّة المكبوتة لزمنٍ طويلٍ صارت الحافزَ الأساسيَّ لكتاباته القويَّة عن الوحدة والعلاقة الحميمة والتهميش والحبِّ والانتماء".

لقد عرفتُ عدَّةَ أشخاصٍ في مجال الخدمة المسيحيَّة يُعانون قضايا الهُويَّة الجنسيَّة، يعرفون أنَّهم مثليُّو الجنس ومقيَّدون دون أن تكونَ لديهم وسيلةٌ مقبولةٌ للاعتراف بذلك، ناهيك بالتعبير عنه. لا أعرفُ طريقًا أصعبَ من هذا يسيرُ عليه شخصٌ يتَّصفُ بالنَّزاهة. أعودُ الآن وأراجعُ كتاباتِ نووين وأشعر بالمعاناة العميقة التي لا يتفوَّه بها، والتي كانت أساسَ ما كتبَه عن الرفض، وجروح الوَحدة التي لا تُشفى، والصداقاتِ التي لا تروي غليلًا.

سعى نووين إلى الحصول على الإرشاد من مركزٍ كان يقدِّمُ الخدمةَ والمساعَدة للرِّجال والنساء المثليِّين جنسيًّا، واستمَعَ إلى أصدقاء مثليِّين جنسيًّا بينما كانوا يقتَرحون خِياراتٍ متعدِّدة. بإمكانه أن يبقى كاهنًا عازبًا ويُعلن عن نفسه بصفته مثليًّا جنسيًّا ممَّا يُحرِّر على الأقلِّ السرَّ الذي احتفظَ به بألمٍ كبير. وبإمكانه أن يُعلنَ أنَّه مثليٌّ جنسيًّا، ويترُكَ الكهنوتَ ويسعى لأن يكونَ لديه رفيقٌ مثليّ. أو بإمكانه أن يبقى كاهنًا عَلَنًا ويطوِّرَ علاقاتٍ سرِّيَّةً بالمثليِّين جنسيًّا. وازن نووين كلَّ مسارٍ من هذه المسارات ورفَضَها. كان يخاف من أنْ يُلحقَ الضررَ بخدمته أيُّ اعترافٍ علنيٍّ بِهُويَّته. بدا الخِياران الأخيران أمرًا مستَحيلًا لشَخصٍ كان قد أقسم أن يبقى عازبًا، وكان يتَّخذُ الكتابَ المقدَّس وروما مَصدرًا لإرشاده في ما يتعلَّقُ بالأخلاقيَّات الجنسيَّة. بدلًا من ذلك، قرَّرَ أن يستَمرَّ في العَيش مع هذا الجرح. قرَّر هذا مِرارًا وتَكرارًا.

يتعرَّضُ الكاهنُ أو القسُّ باستمرار إلى إغراءٍ يدفعُه لأنْ يَرى نفسَه بصفة مانحِ الأجوِبة وبأنَّه السُّلطةُ الروحيَّةُ وموزِّعُ النِّعمة، وليس مَن يحصُلُ عليها. لكي يحاربَ هذه التَّجرِبة- تجرِبةَ الأخ الأكبر- ركَّز نووين كتاباته على مجالات فشله وعدم كفايته وعدم قدرته. كان عادةً يعبِّرُ عن الجرح من حيثُ التَّململُ والضَّجَرُ والوحدة والرَّفض بدلًا من النَّشاط الجنسيّ. مخاطرًا بنَشْر الإشاعات، كان يكتبُ عن ارتباطاتٍ عاطفيَّة

بأصدقاءَ لم تمنَعه من إقامةِ علاقاتٍ جنسيَّةٍ بهم إلَّا عهودُه الكهنوتيَّة. تحدَّثَ بشأن العُزلة التي شعرَ بها عندما تركَ عائلتَه وبلدَه وانتقلَ إلى الولايات المتَّحدة، ثُمَّ إلى أميركا الجنوبيَّة، وبعد ذلك إلى كندا. ولأنَّه شخصٌ غيرُ مُنسَجمٍ مع عائلته العَلمانيَّة في هولندا، فقد كان يبحثُ باستمرار عن بيتٍ حقيقيّ.

وصفَ ذاتَ مرَّةٍ الجرحَ الناتجَ عن الوحدة بأنَّه يُشبهُ الوادي العظيم، أو الغراند كانيون (Grand Canyon): الشقَّ العميقَ في سطح الوجود الذي صارَ مَصدَرًا لا ينضبُ للجَمال وفَهْم الذَّات. تُجسِّدُ تلك الرؤية المتبصِّرة أسلوبَ نووين في الخدمة. لم يُعْطِ وعدًا بالخروج من الوحدة، لا لنفسه أو لغيره. بدلًا من ذلك، كان يعرضُ وعدَ الفداء من خلال الوحدة. بالنسبة إلى القرَّاء والمستمعين، ربَّما صارَ الجرحُ مصدرًا للجَمال والفهم. لكنْ بالنِّسبة إلى نووين نفسه، نادرًا ما كان يمثِّل أيَّ شيءٍ سوى الألم.

مع أنَّه لم يستطع أن يحلَّ مسألةَ التَّململُ والضَّجر، تعلَّم أن يُديرَها كما يتعلَّمُ الناسُ أن يُديروا ألمًا جسديًّا مُزمِنًا: "...لا تهرب منها بلِ اشعُر بتأثيرها، وواجِهْها وانظرْ إليها وجهًا لوَجْه". إنْ كان الأمرُ هكذا، ستَجِدُ في وسط الألم موهبةً مخفيَّة، مَصدرًا للرَّجاء. اعترفَ نووين بأنَّ المواهبَ الحقيقيَّةَ في حياته كانت تختبئُ في كثيرٍ من الأحيان في الأماكن الأكثر إيلامًا. دفعَه الألم إلى الله حيث اكتشفَ مَصدرَ القوَّة وأعادَ اكتشافه "من شخصٍ يُمسكني وأحبَّني قبل مدَّة طويلةٍ من مجيئي إلى هذه الحياة، من شخصٍ سيُحبُّني مدَّةً طويلةً بَعدَ مَوتي".

يسجِّل كتابُ "**الطريق إلى مركَز الفجر**" قرارَ نووين بالانتقال إلى "مركَز الفجر" بحثًا عن الراحة والمواساة، بحثًا عن بيتٍ حقيقيّ. كتبَ أحَدُ النُّقَّاد، وهو هارولد فيكيت (Harold Fickett)، أنَّه شعرَ بخَيبة أملٍ عندما قرأ أنَّ المشكلاتِ ذاتَها التي وُصِفَت قبل عقدٍ من الزَّمن في "**مذكِّرات جينسي**" (*Genesee Diary*)– الصداقاتِ المختَلَّة، والحبَّ غيرَ المُتبادَل، والازدراءَ الملموسَ الذي يتسبَّبُ في جَرْح المشاعر– لم تَزَلْ تُزعِجُ نووين. تابعَ فيكيت تفسيرَه قائلًا: "إنَّها خيبةٌ للأمل، تمامًا كما أنَّ حالنا مخيِّبةٌ للآمال– أن

يكونَ الشخصُ ذاتُه بالمشكلات نفسها، ومن ثَمَّ يُضطرُّ لأن يتعلَّمَ ثانيةً الدُّروسَ نفسها حول الإيمان والدين. إنَّها حقيقةٌ لا نهاية لها تُحرجُ نووين وتُحرجُنا".

وضعَ فيكيت إصبعَه على السِّمة المميِّزة لنووين: في الواقع، لم يجنِّبْ نووين نفسَه أو قُرَّاءَه الإحراجَ الناتجَ عن قَول الحقيقة، مهما جعلَتْه تلك الحقيقةُ يبدو سيِّئًا. يقولُ نووين إنَّ الكثيرَ من المعاناة ينبعُ من الذكريات المدفونة عميقًا في الداخل والتي تُطلِقُ شكلًا من أشكال السموم التي تهاجمُ مركَزَ كِيان الشخص. إنَّنا نعرضُ الذِّكرَيات الجيِّدةَ على شكل جوائزَ وشهاداتٍ ودفترٍ لِلَصْق الصُّوَر؛ لكنَّ الذِّكرَياتِ المؤلمةَ تبقى مختفِيةً عن الأنظار حيث لا تتعرَّضُ للشِّفاء، وتسبِّبُ الضَّرَرَ الدائم.

إنَّ ردَّ فعلنا الغريزيَّ على هذه الذِّكرَيات الجريحة هو أن نتصرَّفَ وكأنَّها لم تحدُثْ، وألّا نتحدَّثَ بشأنها، وبدلًا من ذلك فإنَّنا نفكِّرُ في أشياءَ أكثرَ فَرَحًا. لكنْ بتعمُّدنا عدمَ تَذَكُّرِها، نسمَحُ للذِّكرَيات المقموعة أن تكتسبَ قوَّةً وتعطِّلَ القيامَ بأعمالنا نحن الكائناتِ البشريَّة. لقد كانت لدى نووين الشجاعةُ لإلقاء الضَّوء على بعض هذه الأمكنة العميقة، والشجاعةُ للكَشْف عن الذكرياتِ الجريحة في داخله. قال في عبارةٍ لا تُنسى: "إنَّ الشافيَ الوحيدَ هو الشافي المجروح".

جاءَ حديثي المطوَّلُ الوحيدُ مع نووين، مباشرةً بعد أن عادَ من سان فرانسيسكو حيث كان قد خدمَ مدَّةَ أسبوع في مستَوصفٍ للإيدز. في ذلك الوقت، لم أكن أعرفُ أيَّ شيءٍ عن مشكلات نووين الشخصيَّة الجنسيَّة. أخبرَني بما رآه في مقاطعة كاسترو. بدا مصطلحُ "مثليٌّ جنسيًّا" في غير مكانه هناك في ذروة أزَمة الإيدز. كان الشبابُ يموتون كلَّ يوم، وكان ألوفٌ منهم يتجوَّلون والرعب يتملَّكُهم من احتمال حملهم فيروس الإيدز. حتَّى عندما كانت المحالُّ تعرضُ الملابسَ المبهرَجة والمنتجاتِ الجنسيَّةَ التي تتراوح ما بين المنتجات المرحة إلى البذيئة، فإنَّ الخوفَ كان يخيِّمُ كالضباب فوق الشوارع. قال لي نووين، ليس الخوفَ فحسب، بل مشاعرُ الذَّنب والغضب والرَّفض.

في المستَوصف، استمعَ نووين إلى قصصٍ شخصيَّة. "أنا كاهن- هذه وظيفتي. أنا أستمعُ إلى قصص الناس. وهم يعتَرفون لي". أخبرَني بشأن شبابٍ تنكَّرت لهم عائلاتُهم وأُرغموا على القيام بأعمالٍ غير مشروعة في الشوارع. كان لدى البعض منهم مئاتُ الشركاء الذين قابَلوهم في الحمَّامات العامَّة، ولم يعرفوا أسماءَهم قَطّ. ومن أحَد أولئك الشُّرَكاء، أُصيبوا بالڤيروس الذي راحَ يقتُلُهم الآن. نظرَ إليَّ نووين وعيناه الثاقبتان تلمَعان بالرَّأفة والألم. "يا فيليپ، هؤلاء الشباب يموتون- يموتون حرفيًّا- بسبب تعطُّشهم إلى الحبّ". ثُمَّ تابَعَ يروي لي قصصًا فرديَّةً كان قد سمعها. كان الشيءَ المشترَكَ بين جميع هذه القصص هو البحثُ عن مكانٍ آمن، وعلاقةٍ آمنة- البحثُ عن بيتٍ، والبحثُ عن القبول والمحبَّة غير المشروطة، والغفران- ذلك كان ما يَسعى إليه نووين نفسُه كما صرتُ أُدرِكُ الآن.

إنَّ ملاحَظةَ نووين عن العطش استقرَّت في داخلي، وبمرور الوقت، أحدثَتْ تغييرًا في روحي. بصفتي كاتبًا مرتَبطًا بمجلَّةٍ إنجيليَّة، "**المسيحيَّة اليوم**"، كنتُ على اتِّصالٍ منتَظم بأشخاصٍ يقودون اليمينَ المسيحيّ. كنتُ قد دُعيتُ إلى البيت الأبيض مع مجموعةٍ من اثنَي عشر إنجيليًّا للإجابة عن سؤال بيل كلينتون: "لماذا يكرَهُني المسيحيُّون؟" رأى بعضُ أصدقائي أنفسَهم مثل الصليبيِّين في حربٍ ثقافيَّةٍ عظيمة. وصَفوا بكلِّ وضوحِ التَّهديد الذي يشكِّلُه أشخاصٌ "لا أخلاقيُّون" و"آثِمون".

من خلال عينَيْ نووين، رأيتُ طريقةً جديدةً للنَّظر إلى هؤلاء الأشخاص: ليسوا أشخاصًا لاأخلاقيِّين أو آثِمين، بل أناسٌ عطاش- أشخاصٌ يموتون في طلبِ الحبّ. مثلُهم مثلُ المرأة السامريَّة عند البئر، كانوا قد شَربوا وارتَووا بالماء الذي لا يسدُّ الحاجات. كانوا يحتاجون إلى الماء الحيّ. بعد ذلك الحديث الذي دارَ بيني وبين نووين، في كلِّ مرَّةٍ أقابلُ فيها شخصًا كان سلوكُه يُضايِقُني أو يُثير اشمئزازي، كنتُ أُصلِّي قائلًا: "ساعِدْني يا الله لأرى هذا الشخصَ لا بصفةِ شخصٍ كريه، بل بصفة شخصٍ متعطِّش".

كلّما صلّيتُ هذه الصلاة، بدأتُ أرى نفسي في صفٍّ واحدٍ إلى جانب الشخص الذي رفضتُه لأنَّه أثارَ اشمئزازي. أنا أيضًا لا أملكُ شيئًا أقدِّمه إلى الله إلَّا عَطَشي. مثل الأخ الأكبر في مَثَل الابن الضالّ: لا يمكنُني البتَّة أن أختبرَ تدفُّقَ نعمة الله المطهِّرة، أو أدخل احتفالًا عائليًّا إذا وقفْتُ خارجَ قاعة الولائم وذراعايَ مطويَّتان في وضعيَّة التَّعالي الأخلاقيّ. تأتينا نعمةُ الله بصفةِ عطيَّةٍ مجَّانيَّة، لكنَّ الشخصَ ذا اليَدَين المفتوحتَين فقط يستطيعُ أن يتسلَّمَ العطيَّة.

في النهاية، فهمتُ مُساهَمةَ هنري نووين بصفته كاهنًا وكاتبًا. إنَّه لا يقدِّمُ رؤيةً فريدةً داخل الشخصيَّة الإنسانيَّة، ولا حكمةً لا يمكنُ الحصولُ عليها من مكانٍ آخر ومن سلطاتٍ أُخرى، بل يقدِّمُ الموقفَ المتواضعَ للابن الضالّ. إنَّ جرحَه العميقَ كشفَ رياء موقفه الطبيعيّ مثل الأخ الأكبر. الشعورُ بالوَحدة والتَّجربة والرَّفض والعُزلة- كلُّ هذه عملَتْ معًا لتُوَلِّدَ فيه عَطَشًا لا يمكنُ إنكارُه. كان عليه أن يقبَلَ نفسَه على أنَّه الابنُ الضالُّ في سَعيِه الحثيث نحو البيت.

> "الإيمانُ هو الثقةُ الجذريَّةُ بأنَّ البيتَ مَوجودٌ دائمًا وسيكون دائمًا هناك. إنَّ يدَيِ الأب الحازمتَين نوعًا ما تربتان كَتفَ الابن الضالِّ ببَرَكةٍ إلهيَّةٍ دائمة: "أنت ابني المحبوب، الذي أسكبُ فَضْلي عليه". مع ذلك، تركتُ البيتَ مرَّةً تلو الأُخرى. لقد هربتُ من بين يدي البَرَكة وابتعدتُ إلى أمكنةٍ بعيدةٍ أبحثُ عن الحبّ. هذه هي المأساةُ العظمى في حياتي وحياة الكثيرين الذين قابَلْتُهم في رحلتي. صرتُ مثل أصمَّ من جهة الصَّوت الذي يَدعوني "المحبوب"، وتركتُ المكانَ الوحيدَ الذي أستَطيعُ أن أسمعَ فيه ذلك الصَّوت، وهربتُ بيأسٍ آملًا في أن أجِدَ في مكانٍ آخرَ ما لم يعُدْ ممكنًا أن أجدَه في البيت".
>
> (كتاب "عودة الابن الضالّ")

منذ الطفولة وأنا أشعرُ بمقاوَمةٍ عنيفةٍ وغير مُنصِفة، دون شكٍّ، ضدَّ الكارزين المتجوِّلين والوعَّاظ والكُتَّاب الذين ينقلون إلينا أسلوبَ التَّعالِي الأخلاقيّ. لقد خَدَعوني مرَّاتٍ عديدةً جدًّا؛ ومرَّاتٍ كثيرةً جدًّا سَقَطوا من مَوضع التقدير الذي وضعتُهم فيه. لكنِّي أُصغي لشخصٍ يقدِّم نفسَه على أنَّه خاطئ يتحدَّثُ إلى خاطئ. أُصغي إلى شخصٍ يبدأ باعترافِ العطش وحنينٍ إلى البيت.

في كتاب "**خَلْقُ جميع الأشياء**" (Making All Things)، كتبَ نووين ما يمكنُ أن يوصَفَ بأنَّه كلمةُ تأبينٍ لرحلة حياته:

> "قد يكونُ الفقرُ والألم والصراعُ والقلقُ والمعاناة، وحتَّى الظُّلمةُ الداخليَّةُ جزءًا مستمرًّا من خبرتنا. وقد تكونُ هذه طريقةَ الله لتَنقِيَتِنا. لكنَّ الحياةَ مُضجِرةٌ وتسبِّبُ الاستياءَ والكآبةَ والشعورَ بالوحدة؛ لأنَّنا صِرْنا نعرفُ أنَّ كلَّ شيءٍ يحدُثُ معنا هو جزءٌ من طريقنا إلى بيت الآب".

في المرَّات التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى التي ظهرَ فيها نووين شخصيًّا، وفي أكثر من أربعين كتابًا، والأهمُّ من ذلك في حياته اليوميَّة، أوضَحَ أنَّ الهفواتِ والأمانةَ لا تحتلَّان مكانَ بعضهما بعضًا، بل تَتَعايَشان معًا. نحملُ جميعُنا الجروح. كانت جروحُه نتيجةَ القلق بشأن هُوِيَّته الجنسيَّة وحسَّاسيَّةٍ مُفرِطة تُجاهَ الرَّفض. أمَّا جروحي أنا فتأتي بشكلٍ رئيسيٍّ من العائلة والكنيسة. ويأتي بعضُها الآخرُ من مرضٍ مُزمِنٍ أو ألمٍ عميق. يمكنُنا أن نعيشَ بصفةِ ضحايا نلومَ الله أو شخصًا آخرَ بسبب سوء حظِّنا وتعاستنا، أو باتِّباع مثال نووين يمكنُنا أن نسمحَ لهذه الجروح بأن تدفعَنا نحو الله. بعد أن أمضى نووين نصف سنة بين رهبان ترابيين [نسبةً إلى دير ترابيه في فرنسا] في أحَدِ الأديرة في نيويورك، سألَ نفسَه عمَّا إذا كان الوقتُ المكثَّف الذي أمضاه مع الله قد حلَّ مشكلاته وجعلَه شخصًا مختلفًا أكثرَ روحانيَّة. كان عليه أن يُجيبَ بالنَّفي عن هذا السؤال. أدركَ أنَّ الدَّيرَ لم يُبْنَ ليَحلَّ المشكلات، بل لتَمجيد الله في وسط المشكلات.

في إحدى المرَّات، عندما كان يخدمُ بصفته رجلَ دين مع جماعة "الفُلك" في فرنسا، كان يستمعُ طوال اليوم إلى الناس الذين يعتَرفون بأسرار حياتهم في "سرِّ المصالحة". عندما كان يسمَعُ قصصَهم عن الشعور بالذَّنب والعار، كان يتأثَّرُ جدًّا بإحساس العزلة الذي يسيطرُ عليهم. كان يرغبُ في أن يجمَعَ معًا جميعَ الذين اعتَرفوا ويطلبَ منهم أن يتبادَلوا قصصَهم بعضُهم مع بعض لكي يكتَشفوا مقدارَ الأمور المشتَرَكة في ما بينهم. كان كلُّ واحدٍ منهم يعتقدُ أنَّه الوحيدُ الذي يُعاني ألمًا أو شكًّا معيَّنًا. في الواقع، كانوا يعتَرفون بإنسانيَّةٍ مشتَرَكة.

حيث إنَّ نووين الكاهنَ لم يكن لديه شريكٌ يشاركُه أسرارَه الداخليَّة، فقد خاطرَ بالكشف عنها- معظمها على الأقلّ- لنا جميعًا. كان يعلمُ أنَّنا عندما نُخفي ألَمنا، فإنَّنا نخفي أيضًا قدرتَنا على الشفاء. ذكَّرَ نفسَه في مذكِّراته اليوميَّة التي احتفظَ بها خلال سنوات توتُّره الجنسيِّ الأقوى: "لا يستَطيعُ شخصٌ واحدٌ مهما كان أن يلبِّيَ جميعَ احتياجاتك. عليك أن تنتقلَ بالتَّدريج من صراخك نحو الخارج- التوسُّل لأشخاص تعتقد أنَّهم قادرون على مساعدتك- إلى الصراخ نحو الداخل، إلى المكان الذي تُلقي فيه بنفسك على الله، الذي لبس بشريَّة أولئك الذين يحبُّونك في المجتمع".

صارَ "مركَزُ الفجر" حيث أمضى نووين العقدَ الأخيرَ من حياته، ذلك المجتمعَ بالنِّسبة إليه. كان انتقالًا مُربكًا في البداية. وحيث إنَّه كان معتادًا أن يُخاطبَ جماهيرَ كبيرةً من المعجَبين، وجدَ أنَّ الأمرَ يكونُ صارخًا متنافرًا عند التحدُّثِ إلى أشخاصٍ لا يَفهَمون الكلماتِ الكبرى، ويُصدِرون أصواتًا كأنَّهم يشخرون، ويتحمَّسون ويقومون بحركاتٍ تشنُّجيَّة في أثناء عِظاته الدينيَّة. إنْ لم تُعجبِ العظةُ أحَدَ المقيمين- ويُدعى بِل- كان يُقاطعُ القدَّاس ليُخبرَه بذلك. اكتَشَفَ نووين أنْ ليس لكلماتِه وحُججه الجميلةِ علاقةٌ تُذكَر بما كان المقيمون يعانونه. بالنِّسبة إلى هذه الأجساد والعقول المتَضرِّرة، لم تكن سيرتُه الذاتيَّة المرموقة تَعني شيئًا. لم يكونوا يستطيعون حتَّى قراءةَ كُتُبه. إنَّ كلَّ ما كان يهمُّ هو إنْ كان يحبُّهم.

بصفته كاهنًا لا يعرف شيئًا عن الواجبات المنزليَّة اليوميَّة- الطبخ، وكيُّ الملابس، والاعتناء بالأطفال- اكتشَفَ عدمَ براعته عندما طُلِبَ منه الاعتناء بالمقيمين المعوَّقين. لكنْ بمرور الوقت، صارَ يُحبُّ هؤلاء الأشخاص. وفي بَدْء تَعاطُفه مع الأجساد المحطَّمة من حوله، بدأ يحسُّ أخيرًا كيف يمكنُ أن يُحبَّ الله شخصًا محطَّمًا مثلَه.

> "احتَجتُ إلى وقتٍ طويلٍ لأشعرَ بالأمان في هذا المناخ الذي لا يمكن التنبُّؤ به، ولا تَزالُ هناك لحظاتٌ أصيرُ فيها شديدًا وأطلُبُ من الجميع أن يصمتوا ويصطفُّوا ويُصْغوا إليَّ ويصدِّقوا ما أقولُه. لكنِّي بدأتُ أيضًا أُدركُ السرَّ الذي يقولُ إنَّ القيادةَ، في معظمها، تعني أن تُقاد. أكتشفُ أنِّي أتعلَّمُ أشياءَ جديدةً كثيرة ليس فقط عن آلام الأشخاص المجروحين ومجالاتِ صراعهم، بل أيضًا عن مواهبهم الفريدة ومجالات النِّعمة لديهم. إنَّهم يعلِّمونني الفرحَ والسلامَ والمحبَّةَ والرِّعاية والصَّلاة- ما لم يكُنْ باستطاعة أيَّة أكاديميَّة أن تعلِّمَني إيَّاه. ويُعلِّمونني أيضًا ما لا يستطيعُ أيُّ شخصٍ آخرَ أن يعلِّمَني إيَّاه عن الحزن والعنف والخَوف واللَّامُبالاة. والأهمُّ من ذلك كلِّه، يمنَحونني لمحةً عن محبَّة الله الأولى، عندما أبدأ أشعرُ بالكآبة والفشل".
>
> (كتاب "بِاسْم يسوع" [*In the Name of Jesus*])

صارَ نووين مرتَبِطًا جدًّا بأهل بَيته، وبذلك صارَ معتَمِدًا عليهم حتَّى إنَّه بدأ يصطَحبُهم معه في رحلاته حيثُ كان يُلقي المحاضَرات. وفي حين أنَّ مُتكلِّمين معروفين كانوا يَطلُبون خمسةَ أو عشرةَ آلاف دولار لقاءَ تلك المحاضَرات، كان نووين يطلبُ خمس مئة دولار فقط (كان يُجيِّرُها إلى "مركَز الفجر") وتذكرة طائرةٍ لنفسه ولمرافقٍ له. يتذكَّرُ أحَدُ مراسلي صحيفة "**ذا وول ستريت جيرنال**" (The Wall Street Journal) أنَّه حضرَ إحدى المحاضَرات في كارولينا الشماليَّة. عندما دعا نووين صديقَه بِل-

الشخص نفسه الذي كان يقاطع القدّاس- ليقتربَ من الميكروفون ليتحدَّث، قال المراسِلُ لنَفسه إنَّ الناسَ قد أتوا من أمكنةٍ بعيدة ليَستَمعوا إلى نووين وليس إلى بِل.

ومن أجل تقديم الدَّعم إلى بِل، وقفَ نووين إلى جانبه على المنصَّة. نظرَ بل إلى جمهور المستَمعين ولم يتذكَّرْ أيَّة كلمةٍ من كلماته. لقد غُلِبَ على أمره. ألقى برأسه ببساطةٍ على كَتفِ نووين وبكى. نسي المستمعون من كارولينا الشماليَّة معظمَ ما قالَه نووين؛ لكنَّهم لم ينسوا منظرَ بِل وهو يُلقي برأسه على كتف الكاهن. قال يسوع: "الحقَّ أقول لكم: مَن لا يَقبَلْ ملكوت الله مثل ولدٍ فلن يدخلَه. فاحتَضنَهم ووضعَ يدَيه عليهم وبارَكَهم".

عيَّن "مركَزُ الفجر" شخصًا واحدًا بشكلٍ خاصٍّ لكي يعتنِيَ نووين به: آدم (يعرضُ كتابُ نووين "**آدم: محبوب الله**" [*Adam: God's Beloved*] علاقتَهما، وقد نُشِرَ بعدَ وفاته في عام ١٩٩٧م). كان آدمُ الأكثرَ ضَعْفًا وإعاقةً في تلك الجماعة. ومع أنَّه كان في العشرينيَّات من عمره، فإنَّه لم يكن يستَطيعُ التحدُّثَ أو ارتداءَ ثيابه أو خلعَها بنفسه، ولم يكُنْ قادرًا على السَّير بمفرده أو تناوُلِ الطَّعام دون مُساعَدة. بدلًا من تقديم الإرشاد لطلَّاب جامعات ما يُعرَف بِاسم "آيڤي ليغ"، والتَّلاعُب ببرنامجٍ مزدَحم، كان على نووين أن يتعلَّمَ مجموعةً جديدةً من المهارات: كيف يُطعِمُ آدم ويغيِّرُ ملابسَه ويساعدَه على الاستحمام، وكيف يسندُ كأسَه عندما يشرب، وكيف يدفَعُ كرسيَّه المتحرِّك على طريق ملآنٍ بالحُفَر. لم يكُنْ يخدمُ قادةً ومفكِّرين، بل شابًّا كان الكثيرون يحسبونَه بليدًا عقليًّا، عديمَ الجدوى ما كان ينبغي أن يولَد. لكنَّ نووين تعلَّمَ بالتَّدريج أنَّه هو وليس آدم، المستفيدَ الرئيسيَّ في هذه العلاقة الغريبة غير المتكافئة.

من الساعات التي أمضاها مع آدم، اكتسَبَ نووين سلامًا داخليًّا جعلَ مَهامَّه الأُخرى الأكثر رِفعةً تبدو مُضجِرةً وسَطحيَّة. عندما كان يجلسُ إلى جانب ذلك الرَّجُل الطِّفل الصامت، أدركَ كم كان دافعُه السابقُ نحو النَّجاح في المجال الأكاديميِّ يستَحوذُ عليه ويتَّصف بالمنافسة. تعلَّمَ من آدم أنَّ "ما يجعَلُنا بشرًا هو قلبُنا وليس عقلنا، ليسَ القُدرةَ على التفكير، بل القدرةُ على المحبَّة. إنَّ كلَّ من يَصِفُ آدم بصفته شخصًا بليدًا عقليًّا أو

مخلوقًا حَيوانيًّا، يتَجاهَلُ السرَّ المقدَّس بأنَّ آدمَ قادرٌ على استقبال المحبَّة ومنحها".

"أبقِ عينَيك على الشَّخص الذي رفضَ أن يحوِّلَ الحجارةَ إلى خبز، أو يقفزَ من الأعالي، أو يحكُمَ بقوَّةٍ كبيرةٍ زمنيَّة. أبقِ عينَيك على مَن قال: "طوبى للفقراء والودعاء، للحزانى والجياع والعطاش إلى البرّ؛ طوبى للرحماء وصانعي السلام والمطرودين من أجل البرّ..." أبقِ عينَيك على مَن هو فقيرٌ مع الفقراء، وضعيفٌ مع الضعفاء، ومَرفوضٌ مع المرفوضين. ذلك الشخصُ هو مصدرُ السَّلام".

(مجلَّة "وورلد ڤيجن" [World Vision])

عندما جلسَ نووين في متحف الأرميتاج في سان بطرسبرغ يتأمَّلُ لوحةَ رَمبرانت العظيمة، لم يجدْ صعوبةً في اعتبار نفسه الأخَ الأكبر، فهذا كان موقفَه الطبيعيَّ في الحياة؛ لأنَّه تدرَّبَ منذ حداثته ليكونَ كاهنًا فاضلًا. ولم يجدْ صعوبةً في اعتبار نفسه الابنَ الضالَّ أيضًا؛ لأنَّ الاضطرابَ الداخليَّ كان قد أرغَمَه على مواجَهة الذَّات الحقيقيَّة، نفسِه الحقيقيَّةِ المحتاجةِ حقًّا، ويُلقي بنفسه على رحمة الأب الذي أدارَ نووين ظهرَه له. لكنْ عندما تخيَّلَ نفسَه بشخصيَّة الأب، ارتدَّ متَراجِعًا جافلًا. بالنِّسبة إليه، كان الأبُ دائمًا شخصيَّةً قويَّةً بعيدةً تُثيرُ المخاوِف.

لكنْ ليس في لوحة رَمبرانت. اليَدُ اليُمنى الموضوعةُ على كَتفِ الابن الضالِّ كانت رقيقةً وناعمة- كانت يدًا أُنثويَّة. ينحني رأسُ الأب بلطفٍ جانبًا لكي يقرِّب المسافةَ بينه وبين الابن؛ بينما هو يفعل ذلك، ينتفخُ رداؤه الأحمرُ الدافئ مثل أجنحة طائرٍ يوفِّر الحماية. فكَّرَ نووين بصورةِ الله الأُنثويَّة التي ذكرَها إشعياء: "هل تنسى المرأةُ رضيعها فلا ترحَمُ ابنَ بطنها؟ حتَّى هؤلاء ينسَين وأنا لا أنساك"؛ وفكَّرَ بصرخةِ الأُمومة التي أطلَقَها يسوعُ وهو يتحدَّثُ بشأن الدَّجاجة التي تجمَعُ فراخَها تحت جناحَيها. أدركَ أنَّ الصورةَ التي لديه عن الله تحتاجُ إلى تَصحيحٍ حادّ.

بينما كان يواصِلُ تأمُّلَه، اكتَسبَ بصيرةً من هذا المثال- اكتَسبَ نظرةً جديدةً ثاقبةً لهذا المثل: السرُّ في أنَّ يسوعَ نفسَه صارَ نوعًا ما الابنَ الضالَّ من أجلنا. "تركَ بيتَ أبيه السماويّ، وأتى إلى أرضٍ غريبة، وتخلَّى عن كلِّ ما كان يملكُه وعادَ من خلال الصليب إلى بيت أبيه. فعلَ كلَّ هذا ليس بصفة ابنٍ متمرِّد، بل بصفته ابنًا مطيعًا أُرسِلَ ليُعيدَ جميعَ أبناء الله الضالِّين... يسوع هو الابنُ الضالُّ الذي تخلَّى عن كلِّ ما أودَعَه إيَّاه الآبُ لكي أصيرَ أنا مثلَه وأعودَ معه إلى بيت أبيه".

أخيرًا، وجدَ نووين طريقةً للاقتران بالأب في لوحة رَمبرانت. كان الناسُ يَدعونه "الأب" طوال الوقت، لا سيَّما عندما كان يرتَدي رداءً أو ياقةً كهنوتيَّة. كان بإمكانه أن يقبَلَ ذلك اللَّقبَ على النَّحو الذي صوَّره المثال، الأبُ هو الشخص الذي يشجِّع الأخَ الأكبرَ والابنَ الضالّ، ويجذبهما معًا ليَعودا إلى البيت. فكَّرَ نووين في أنَّه لن يستَطيعَ أن يبقى طفلًا إلى الأبد. الله يَدعوني لأصيرَ مثلَه وأن أُظهرَ للآخرين الرأفةَ ذاتَها التي يُظهرُها هو لي. إنَّه يَدعوني لأتَّصلَ بالمحطَّمين والمحتاجين وأُرحِّبَ بهم في عائلة الله. عجَّلَ ذلك الإدراكُ في اتِّخاذه القرارَ الصعبَ بمغادرة هارڤرد والانتقال إلى "مركَز الفجر".

لقد كان نووين هو أوَّلَ شخصٍ عرفتُه يستَخدمُ عبارةَ التحرُّك نحو الأسفل (Downward Mobility). في مقالةٍ صدرَتْ عام ١٩٨١ في مجلَّة "**سوجورنرز**"، كتَبَ ضدَّ دافع الحَظوة والشُّهرة والطموح غير المنضبط- بكلماتٍ أُخرى، التحرُّك نحو الأعلى- الذي تتَّصف به الثقافة الأميركيَّة. "إنَّ المفارَقةَ الكبيرة التي يكشفُها لنا الكتابُ المقدَّس هي أنَّ الحرِّيَّةَ الحقيقيَّةَ والكاملة لا يمكنُ اكتشافُها إلَّا من خلال التحرُّك نحو الأسفل. نزلَ إلينا كلمةُ الله وعاشَ بيننا آخذًا صورةَ عبد. الطريقُ الإلهيُّ هو بالفعل الطريق نزولًا".

بالانتقال إلى "مركَز الفجر"، نفَّذَ نووين أُنموذجَ الله للتَّحرُّك نحو الأسفل بشكلٍ عمليّ. كان ذلك ضدَّ جميعَ غرائزه، بحسب اعترافه. إنَّ التخلِّي عن وظيفةٍ دائمةٍ في جامعة للاستقرار بين جماعة من المعوَّقين عقليًّا ليس له أيَّ معنًى بكلِّ المقاييس

الحديثة للنَّجاح. عندما سمعتُ هذا الخبر، ابتسمتُ لاختيار نووين ليَعيشَ كأنَّه "أبلهُ قدِّيس". لكن كم كنتُ مخطئًا. لم يتوصَّلْ إلى ذلك القرارِ ليكونَ عملًا من أعمال التَّضحِية بالنَّفس، بل اختارَه من أجل مَصلَحتِه الخاصَّة.

في الواقع، ما رآه الآخرون أنموذجًا للتَّحرُّك نحو الأسفل في مسار حياته المهنيَّة، رآه نووين نوعًا من "التحرُّك نحو الداخل". انسحَبَ لكي ينظُرَ إلى الداخل، ليتعلَّمَ كيف يُحِبُّ اللهَ ويُحَبُّ من الله لكي يشجِّعَ ويجذبَ الآخرين إلى تلك المحبَّة. وصفَ قصدَه بالاستِشهاد بفِقرةٍ من كتاب روبرت پيرسغ (Robert Pirsig)، "زن وصيانة الدرَّاجة الناريَّة" *(Zen and the Art of Motorcycle Maintenance)*:

> "يَصِفُ پيرسغ نوعَين من متسلِّقي الجبال. كلاهما يضَعُ قدمًا أمام الأُخرى ويُطلِقان زفيرًا وشهيقًا بالمعدَّل ذاته، ويتوقَّفان عندما يشعران بالتَّعب، ويتابعان التسلُّقَ عندما يستَريحان. لكنَّ "المتسلِّقَ الذي يركِّزُ على الذات" تَغيبُ عنه الخبرةُ برمَّتها. فهو لا يلحَظُ مرورَ أشعَّة الشَّمس الجميلة من خلال الأشجار. إنَّه ينظرُ إلى أعلى المسار ليَرى ما ينتظرُه هناك على الرُّغم من أنَّه نظرَ قبل ثانيةٍ ليَرى الأمرَ ذاتَه. "حديثُه يدور حول مكانٍ آخر- شيءٍ آخر. إنَّه هنا لكنَّه ليس هنا. إنَّ ما يبحَثُ عنه وما يُريدُه مَوجودٌ في كلِّ مكانٍ حولَه، لكنَّه لا يُريدُ ذلك لأنَّ كلَّ شيءٍ مَوجودٌ حولَه".
>
> (كتاب "مذكِّرات جَنيسي")

كان نووين يعيشُ حياتَه الروحيَّة بأسلوبِ المتسلِّق الذي يركِّز على ذاته. كانت لديه كُتُبٌ ليَقرأَها، ومهاراتٌ ليتَعلَّمَها، ومحاضراتٌ ليُلقيَها، ورسائلُ ليُجيبَ عنها- شكَّلت كلُّ هذه الأمور ضُغوطًا عليه حتَّى إنَّه لم يستَطع أن يرى اللهَ في كلِّ مكانٍ حولَه. وفي غضون ذلك، كان يُجهِدُ نفسَه ليُمعنَ في النظر قدُمًا في ما هو أبعدُ أسفلَ الدَّرب. عندما طلبَ النُّصح والإرشاد من الأمّ تيريزا، قدَّمت إليه النَّصيحة التالية:

"أمضِ ساعةً كلَّ يوم في صلاةٍ تأمُّليَّة، ولا ترتَكبْ خطايا مَقصودة". وجدَ نووين صعوبةً في تخصيص ساعةٍ في اليوم، لكن في "مركَز الفجر" نجحَ في تخصيص نصف ساعة. بدأ ينظرُ إلى الصلاة بطريقةٍ مختلفة: ليس كأنّها وقتٌ للتّحدُّث بل للإصغاء، وقتٌ هادىءٌ ويَقِظ "للإصغاء إلى الصَّوت الذي يقولُ أشياءَ جيِّدةً بشأني". بالنِّسبة إلى شَخصٍ يشعرُ بعَدم الأمان ومُمزَّقٍ بالشُّكوك مثل نووين، كان ذلك انضباطًا صَعبًا.

عندما انتقَلَ إلى "مركَز الفجر"، تساءَلَ نووين عن التَّأثيرات السلبيَّة للانسحاب. هل سيُعاني العيشَ دون أن يكونَ على معرفةٍ بما يجري؟ بدلًا من هذا، مثلُه مثلُ توماس ميرتون، وجدَ أنَّ حياةَ الانسحاب لا تقودُ بالضَّرورة إلى الانعزال. يقارنُ أحَدُ الكُتَّاب الذين كتَبوا بكثرةٍ عن النُّسَّاك بينهم وبين العُلَماء الذين يعمَلون وحدَهم سَعيًا إلى إيجاد علاجٍ للأمراض، الأمرُ الذي سيُساعدُ كثيرين في نهاية المطاف. وجدَ معظمُ أتباع نووين أنَّه صارَتْ لعَملِه علاقةٌ أقوى بهم، وليس أقلّ، خلال وقته في "مركَز الفجر".

قابلتُ هنري نووين شخصيًّا مرَّةً واحدةً فقط في أثناء زيارةٍ قمتُ بها إلى "مركَز الفجر". تحدَّثنا أوّلًا في مكتَبه، وتَبادَلْنا قصصَ النَّشر، وقارَنَّا بعضَ المواضيع التي كُنَّا سنكتُبُ بشأنها. ذكرتُ وأنا مُحرَجٌ نَوعًا ما، أنّي كنتُ على وشك الانتهاء من كتاب بشأن خيبة أمل الناس بالله. بدلًا من أن يعبسَ بسبب فكرة الكتاب، صارَ أكثرَ حماسةً بصورةٍ إيجابيَّة، يومئ بيَدَيه دون توقُّف، ويخبرُني بشأن خبراته الخاصَّة المتعلِّقة بخَيبة الأمل. في مرحلةٍ ما، وقفَ على قدمَيه، واندفعَ نحو الجدار وأزالَ نسخةً من إحدى لوحاتِ ڤان كوخ وقال: "ها هي، هذا ما أَعنيه. إنَّها تصوِّر الأجواء. إنَّها لك. خَذْها هديَّةً منّي".

عندما حانَ وقتُ تَناوُل الغَداء، دَسَسْتُ العملَ الفنِّيَّ الذي حصلتُ عليه للتَّوّ تحتَ ذراعي وتبعتُه على ممرٍّ خشبيٍّ قادَنا إلى الغرفة التي كان يسكنُ فيها. كان فيها سريرٌ واحدٌ ورفٌّ للكُتُب وبعضُ قطع الأثاث من ماركة "شيكَر" (Shaker). لم تكُنِ الجدرانُ مزيَّنة، ما عدا وجود نسخةٍ لِلَوحةٍ أُخرى للفنَّان ڤان كوخ- ساهَم

نووين حديثًا في كتابٍ اسمُه "**ڤان كوخ والله**" *(Van Gogh and God)*- وبعضِ الرُّموز الدينيَّة. جلبَ أحَدُ العامِلين هناك وعاءً فيه سَلطةُ سيزر وقارورةُ نبيذٍ ورغيفُ خُبْز. لم يكن هناك على الجدار حاسوبٌ أو آلةُ فاكس أو تَقويمٌ يُشيرُ إلى التَّوقيت اليوميّ- في هذه الغرفة، على الأقلّ، وجدَ نووين السَّكينة. بدَتْ "مِهنة" الكنيسة بعيدةً جدًّا.

كتب ثورو أنَّ "معظمَ الكماليَّات، والعديدَ ممَّا يُسمَّى بوسائل الراحة في الحياة، ليس فقط لا لزوم لها، بل هي عقباتٌ حقيقيَّةٌ ومؤكَّدةٌ تحولُ دونَ ارتقاء البشريَّة. في ما يتعلَّقُ بالكماليَّات ووسائل الراحة، عاشَ الأكثرُ حكمةً حياةً أكثرَ بساطةً وأقلَّ مالًا... لا يمكنُ لأحَدٍ أن يكونَ مُراقِبًا محايِدًا وحكيمًا للحياة البشريَّة إلَّا من موقعٍ واحدٍ استراتيجيّ، وهو ما يُسمَّى الفقرَ الطَّوعيّ". عندما ألقَيتُ نظرةً عابرةً على ما حولي، وقارَنتُ في عقلي أجواءَ نووين بأجواء مكتبي الحافل بالآلات والكُتُب والأشياء، شعرتُ بوَخزةِ حَسَد. أجل، كانت لديه سكرتيرات للتَّعامُل مع المراسَلات، وراهبةٌ لإعداد وجباته. أجل، أزالَ نَذْرُ الفقر الهمومَ بشأن الدَّفعات الضريبيَّة لمصلحة ضَريبة الدَّخل وكشوفات العوائد، وبسَّطَ نَذرُ الطاعةِ عمليَّةَ اتِّخاذ قراراته. لكن ألم يكُنْ هذا هدفَه؟ لقد أزالَ هذه العوائقَ بدافع الالتزام بشيءٍ أسمى.

وماذا كان ذلك الشيءَ الأسمى؟ كان نووين يتحدَّث بشأن صديقه آدم طوال الصباح. قال لي بحماس: "أنتَ مَوجودٌ هنا لمناسبةٍ خاصَّةٍ جدًّا. اليوم هو عيد ميلاد آدم". (بلهجته الهولنديَّة، لفظَ كلمة "عيد ميلاد أو بيرثداي" [Birthday] وكأنَّها "بيرفداي" [Birfday]). "عمره ستَّةٌ وعشرون عامًا وسيَحضرُ والداه وإخوتُه إلى هنا لاحتفالٍ خاصٍّ جدًّا بالقربان المقدَّس".

قال لي نووين في ذلك اليوم إنَّه أمضى ساعتَين تقريبًا وهو يُعِدُّ آدم. كنتُ قد قرأتُ وَصْفَ نووين لهذه العمليَّة اليوميَّة:

> "أحتاجُ إلى ساعةٍ ونصف تقريبًا لأُوقظ آدمَ، وأُعطِيَه دواءَه، وأحملَه إلى الحمَّام، وأغسلَه وأحلقَ ذَقنَه، وأنظِّف أسنانَه، وأُلبِسَه

ثيابَه، وأساعدَه على السَّير إلى المطبخ وعلى تناوُل طعام الإفطار. من ثَمَّ أضعُه في كرسيِّه المتحرِّك وأجلبَه إلى المكان الذي يُمضي فيه معظمَ اليوم في ممارسة التمارين العلاجيَّة...

إنَّه لا يبكي ولا يضحك. ينظرُ إلى عينيَّ بين فترةٍ وأُخرى. ظهرُه مشوَّه. حركاتُ ذراعَيه ورجلَيه مُلتَوية. وهو يُعاني حالةَ صَرَعٍ شديدة، وعلى الرُّغم من الأدوية الكثيرة، فإنَّه لا يرى سوى بضعةِ أيَّام دون نَوباتِ الصَّرع. في بعض الأحيان، عندما يزدادُ جمودًا، يطلقُ أنينًا ممزوجًا بالحزن والألم. في مناسباتٍ قليلة، كنتُ أرى دمعةً كبيرةً تَسيلُ على خدِّه".

(مجلَّة "وورلد ڤيجن")

بعد الغداء، انتقَلْنا إلى كنيسةٍ صغيرةٍ للقِيام بالخدمة. بوَقار لكنْ بِوَمضةٍ من عَينه، قادَ نووين الطقوسَ الدينيَّةَ إكرامًا لعيد ميلاد آدم. لم يُعْطِ آدمَ أيَّة إشارةٍ على إدراك ما يحدُث، وهو غيرُ قادرٍ على الكلام، ومعوَّقٌ إعاقةً شديدة، مع أنَّه قد أدركَ أنَّ عائلتَه أتَتْ لتُشاركَه هذا الحدث. سالَ لعابُه في أثناء الاحتفال وزعقَ بصوتٍ مرتفعٍ عدَّةَ مرَّات.

يجب أن أعترفَ أنَّه كان لديَّ شكٌّ عابرٌ حول ما إذا كان هذا هو أفضلَ استخدامٍ لوَقتِ الكاهن المنشَغِل. كنتُ قدِ استمعْتُ إلى محاضراتِ هنري نووين، وقرأتُ الكثيرَ من كُتُبه، وتعرَّفت كلَّ ما كان لديه ليُقدِّمَه. ألا يمكنُ لشَخصٍ آخرَ تَوَلِّي المهامِّ اليَدويَّة المتعلِّقة برعاية آدم؟ عندما عُدْنا إلى المكتب وأَثرْتُ الموضوعَ بحَذرٍ مع نووين، أخبرني بأنِّي قد أسأتُ تفسيرَ ما حدثَ كليًّا. أصرَّ قائلًا: "إنِّي لم أتخلَّ عن شيء. مَنْ يستَفيدُ من صداقتنا هو أنا وليس آدم".

بقي نووين يدورُ حولَ سؤالي طوال فترة ما بعد الظهر، وكأنَّه كان لا يكادُ يصدِّقُ أنِّي أستَطيعُ طَرْحَ مثل هذا السؤال. واستمرَّ يُثيرُ مَوضوع الطرق المتعدِّدة

التي استَفادَ بها من علاقته بآدم. في الحقيقة، كان يتمتَّعُ بنَوعٍ جديدٍ من السلام الروحيِّ الذي حصلَ عليه ليس من داخل أبنيةِ جامعة يال أو هارڤرد الفخمة، بل من جانب فراشِ آدم الذي لا يستَطيعُ ضَبْطَ نفسه. عندما استمعتُ إليه، شعرْتُ بالذَّنب من فقري الروحيّ، أنا الذي أنظِّمُ بدِقَّةٍ حياتي بصفتي كاتبًا لتَكونَ مؤثِّرةً وفعَّالةً ومركِّزة على شيءٍ واحد.

أقرَّ نووين أنَّ الأمرَ كان صعبًا في البداية. إنَّ اللمسةَ الجسديَّة، والعاطفة، وفَوضى الاعتناء بشخصٍ غير مُتَناسق، لم تحدُثْ بسهولة. لكنَّه تعلَّمَ أن يحبَّ آدم، أن يحبَّه حقًّا. في أثناء هذه العمليَّة، تعلَّمَ كيفَ يشعُرُ الله عندما يُظهِرُ محبَّته لنا- نحن المعوَّقين وغير المتَناسقين روحيًّا- فإنَّنا نستطيع أن نتَجاوَبَ بطريقةٍ تبدو مثل أنينٍ وزعيقٍ غير واضحَين. بالفعل، إنَّ العملَ مع آدم علَّمَه التواضُعَ وشعورَ الفراغ اللَّذين يحقِّقُهما رُهبان الصحراء فقط بعد تضحيةٍ كبيرة. إنَّ الوقتَ الذي أمضاه في الاعتناء بآدم صارَ وقتَ تأمُّلٍ لا يقدَّر بثَمن.

قال نووين إنَّ صوتَين تَنافَسا في داخله في حياته كلِّها: أحَدُهما شجَّعَه على النَّجاح والإنجاز، بينما دعاه الآخرُ ببساطةٍ لأنْ يستَريحَ في عزاءِ أنَّه كان محبوبًا من الله. لم يستَمعْ إلى الصوت الثاني إلَّا في العقد الأخير من حياته. وخَلُصَ في النهاية إلى ”أنَّ هدفَ التَّعليم والتَّشكيل استعدادًا للخدمة هو دائمًا تعرُّفُ صَوت الله ووجهِه ولمستِه في كلِّ شخصٍ نُقابلُه“. عندما قرأتُ هذا الوَصفَ، فهمْتُ لماذا لم يعتَقدْ أنَّ دعوةَ طالبِ عَونٍ غريبٍ ليَسكنَ معه مدَّة شهرٍ هو مَضيَعةٌ للوقت، أو تكريسَ ساعاتِ كلِّ يَوم للعمل الوضيع في الاعتناء بآدم.

عندما كنتُ منذ فترةٍ قريبة أُقلِّبُ صفحات الكُتُب على رفِّ نووين، وجدتُ ثلاثةَ كُتُبٍ كَتَب عليها إهداءً لي بعد زيارتي له. كتبَ على أحَد الكتب ”أشكرُكَ لأنَّك منحتَني الشجاعةَ لأستمرَّ في الكتابة“. غادرتُ ”مركَزَ الفجر“ وأنا أشعرُ بتَبكيتِ الضَّمير والخَجَل كَوني صحافيًّا متطفِّلًا يُضيِّع وقتَ كاهنٍ مُنشَغل. لكنَّ نووين كان

يحملُ ذكرياتٍ أُخرى مختلفةً جدًّا باعتباري زميلًا يَسعى، محبوبًا من الله. ومثل أبٍ، رحَّب بي في جماعة الله. وحتَّى الآن بعد وَفاته، ما يزالُ يمنحُني تلك العطيَّة من جديد.

وكما يُشيرُ نووين: "يفرحُ الله. ليس لأنَّ مشكلاتِ العالَم قد وَجدَتْ لها حلًّا؛ وليس لأنَّ كلَّ آلام البشريَّة ومعاناتها قدِ انتهت، وليس لأنَّ آلافَ الناس قد تحوَّلوا إلى الإيمان وها هم الآن يقدِّمون إليه الحمدَ لأجل صلاحه. إنَّ الله يفرَحُ لأنَّ أحَدَ أولاده الذي كان ضالًّا قد وُجِد".

إنِّي أفتقدُ هنري نووين. بالنِّسبة إلى البعض، يكمنُ تُراثُه في كتبه الكثيرة، وإلى آخرين، في دَوره بصفته جسرًا ما بين الكاثوليك والپروتستانت، وإلى آخرين، في مسيرته المتميِّزة في مجموعة جامعات ما يُعرَف بِاسْم "آيڤي ليغ". أمَّا بالنِّسبة إليَّ، فإنَّ صورةً واحدةً تَصِفُه أفضلَ من غيرها: الكاهنُ النَّشِطُ الحيويّ، شعرُه في حالةٍ من الفَوضى، يستخدم يدَيه اللَّتين لا تهدأان كما لو أنَّه يحاوِلُ أن يُشكِّلَ عِظةً دينيَّةً من فراغ، ويحتفلُ احتفالًا بليغًا بالقربان المقدَّس في عيد ميلاد رَجُلٍ طفلٍ لا يتَجاوَب، ومشوَّهٍ حتَّى إنَّ معظمَ الآباء والأمَّهات كانوا ليَرغبوا في أن يجهِضوه. لا أستَطيعُ أن أتخيَّلَ رَمزًا أفضلَ للتَّجسُّد.

يستمرُّ إرث هنري نووين. بينما أنا في قلبِ عمليَّة تجميع هذه التأمُّلات، اكتشفْتُ تأمُّلَين آخرَين أدرجتُهما على شكل ملاحَظةٍ إضافيَّة على حياته.

تعرَّفتُ إلى نووين بينما كنتُ أتحدَّث بشأنه في معرضٍ دَوليٍّ للكُتُب في فرانكفورت بألمانيا. اقترَبَ منِّي ناشرٌ هولنديٌّ بعد المؤتمر وقال: "آه، لكنَّكَ لا تعلَمُ بقيَّة القصَّة. أنت ذكرتَ كيف أنَّ هنري شعرَ بأنَّه غير منسجم مع أفراد عائلته، وكيف أنَّ فراغَهم الروحيَّ أحزَنَه. الآن بعد وفاته، ذلك الوضع آخذٌ في التغيُّر. وقفَ أخوه، الذي ترأَّسَ لسنواتٍ عديدة أكبرَ هيئةٍ سياحيَّةٍ هولنديَّة، أمام اجتماعٍ للدُّبلوماسيِّين والسفراء وأعضاء مجلس النواب وأصحاب المناصب الرفيعة، وأخبرَهم كيف أنَّه كان جالسًا

في جنازة هنري يستمعُ إلى الناس من دولٍ كثيرة- كندا والولايات المتَّحدة وفرنسا وبلجيكا وهولندا- وهم يتحدَّثون بشأن تأثير هنري في حياتهم. قال: "أدركتُ أنّي لا أملكُ شيئًا مقارنةً بهنري. وبينما أنا جالسٌ أُصغي إليهم، صارَ الفَرقُ واضحًا: كان الله مع هنري. ذلك ما يجعلُ الأمرَ مختلفًا كليًّا". ثُمَّ تابعَ يتحدَّثُ بشأن وفاة زَوجته بسبب السرطان، ثُمَّ بوفاة والدِه الذي بالكاد صمدَ وظلَّ حيًّا بعد هنري. ثُمَّ سردَ بروحٍ متَواضِعةٍ التغييرات التي كان الآنَ يجريها في حياته لكي يستعدَّ بصورةٍ أفضلَ للمَوت، وليَستَعيدَ علاقته بالله الذي كان هنري يعرفُه جيِّدًا. وهكذا ترى أنَّ هنري ربَّما لم يكن غير منسجم مع عائلته في نهاية الأمر".

أمَّا الحادثةُ الثانيةُ التي سأرويها لكم فجَرَتْ في خدمةِ الكنيسة التي دخلتُها في إحدى المدن الساحليَّة بولاية كاليفورنيا. إنَّ مصطلح "الكنيسة غير التقليديَّة" يَصِفُ بشكلٍ ملائمٍ ثقافةَ عبادتهم: قائدٌ يرتَدي ملابسَ ركوب الأمواج (من أجل بعض الأمواج بعد الخدمة)، ويَضَعُ غيتاره على الأرض ويتَّكيء على منصَّةٍ عالية ويسأل: "هل هناك أحَدٌ يرغَبُ في مشاركةِ شيءٍ ما اليوم؟".

حدثَ في صبيحة ذلك اليوم بعَينه أنْ أتَتْ ثلاثُ نساء شابَّاتٍ مستَعدَّات لاسترجاع الذكريات مع هنري، وكُنَّ قد قرأنَ معًا في مجموعةٍ صغيرة كتابَه "**حياة المحبوب**" (*Life of the Beloved*).

كان لدى المتحدِّثة الأولى، إليزابيث، عددٌ من الملاحَظات التي قرأتْها بدقَّة. ذكرَتْ جهودَها المصمِّمة لتَصيرَ متفوِّقةً في الإنجاز. في المدرسة الثانويَّة، جاهدَتْ لتَكونَ علاماتُها كلُّها في التسعينيَّات، وناضَلَتْ لتَربحَ بطولة التنس، ولتترأَّسَ مجلسَ الطَّلبة، ولتَنضمَّ إلى كلِّ نادٍ ممكن. ربحَتْ جائزةَ مدرستها. عندما قرأتْ كتاب نووين، أدركَتْ أنَّها كانت في مرحلةِ إنجازه المتفوِّق. لقد كانت طوال الوقت، مثل نووين، عطشى إلى محبَّة الله، وتحاولُ بكلِّ ما أوتِيَت من قوَّةٍ أن تنالَها. حصلَتْ منه على لمحةٍ عمَّا قد يعني أن ترى نفسَها محبوبةَ الله- محبوبةً منذ بداية الأزل دون الحاجةِ إلى إثبات جدارتِها واستِحقاقِها.

حملَتِ المتكلِّمةُ الثانية كيت (Kate) حاسوبًا محمولًا إلى المنصَّة وبدأت تبحثُ لتجدَ إحدى وثائقها. في ذلك الصباح، رفضَتِ الطابعةُ التَّعاوُنَ معها. قالت: "هذا نَوعُ من أعراض حياتي. كلُّ شيءٍ يجري دائمًا بشكلٍ خاطئ". خلافًا لإليزابيث، لم تكنْ لديها سيرةٌ ذاتيَّةٌ عن إنجازاتٍ متفوِّقة. في الواقع، قال لها مرشدُها ذاتَ مرَّة: "كيت، أرى بعضَ الناس الذين لديهم عقدة المسيَّا، وهم يعتَقدون أنَّ باستطاعتهم تخليصَ العالم. أنتِ لديك عقدةُ الشيطان. تعتقدين أنَّك تستَطيعين تدميرَ العالَم بمفردك". اعتقدَتْ أنَّها حقًّا مَلعونةٌ وغيرُ قادرةٍ على فِعْل الخَير. تعلَّمَتْ من نووين أوَّل مرَّةٍ أن تتصوَّرَ نفسَها بصفة شخصٍ مبارَكٍ وليس ملعونًا.

ذكرت كيت بعض الملاحظات المتواضعة عن نفسها وأغلقت حاسوبَها الصغير وسط ضَحِكِ الجميع. ثُمَّ وقفَتْ كاثي. ارتجفَتْ شفتُها واغرورَقَتِ عيناه بالدُّموع. هدأ جمهورُ المصلِّين. "معظمُكم لا يعرفُ قصَّتي. تعرَّضتُ للتحرُّش الجنسيِّ عندما كنتُ طفلة. ثُمَّ خُدِّرتُ واغتُصبت في الجامعة. كنتُ أطرحُ هذا السؤالَ باستمرار: "لماذا أنا؟" حاولتُ أن أكونَ صالحة. كنتُ أذهب إلى الكنيسة كلَّ أسبوع وما يرافقَ ذلك من أعمال. لذلك استَسلمْت. أدمنت على الكحول لأُغطِّيَ الألم. بالتَّأكيد، زادَ ذلك من شعوري بالألم، فكنتُ أشربُ المزيدَ من الكحول. كنتُ في دوامةٍ لا تؤدِّي إلى أيِّ مكان، وشعرتُ بأنِّي طاعنةٌ في السنِّ قبل أن أُنهي فترةَ الشباب. ذاتَ يوم مررتُ بكنيستي القديمة فقط لأرى ما تغيَّرَ في الداخل. في البناء الفارغ، ودون أن أخطِّطَ لكلِّ ذلك، بدأتُ أصلِّي. بدأت أزعقُ مثل الطفل.

"بالتَّأكيد، لم يُسوَّى كلُّ شيءٍ في ذلك اليوم. لم يختَفِ الألم. كنتُ أواجهُ نفسي المحطَّمة في الكنيسة، وليس شفائي. لكنْ من خلال هنري نووين تعلَّمتُ أنَّ المعاناةَ والفرحَ يَسيران جنبًا إلى جنب، وأنَّ الله يستَطيعُ أن يستَخدمَ كلَّ شيء في حياتنا، حتَّى الألم الذي لا يزول البتَّة. تعلَّمتُ أنْ أُطالبَ بنَفسي المحطَّمة.

"أكنتُ سعيدةً لأنَّ هذه الأمور السيِّئة حدَثَتْ معي؟ كلَّا. لكنِّي أدركُ أنَّها

ساعدَتْني أن أصيرَ الشخصَ الذي أنا عليه اليوم. أستَطيعُ أن أكونَ صديقةً حقيقيَّةً للآخرين. أستَطيعُ أن أمنحَ مكانًا آمنًا للآخرين الذين يمرُّون بأوقاتٍ صعبة".

ختمت كاثي كلماتِها بتَلاوة لوقا ٤ مستخدمةً كلماتها الخاصَّة، في مشهد دراماتيكيٍّ حيثُ يدخلُ يسوع إلى المجمع ويُعلن: "روح الربِّ عليَّ لأنَّه مسحَني لأشفي المنكسري القلوب".

بعد أن جلستُ عدَّة دقائق، لم يتحرَّكْ أحَدٌ إلَّا لتَناوُل المناديل الورقيَّة. حركةُ السَّير في الخارج، اليوم المُشمس، خُطط الذَّهاب إلى الشاطئ يومَ الأحَد- لم تَعُدْ أيَّة واحدةٍ من هذه الأمور مهمَّةً بعد الآن. كان الله حاضرًا في ذلك المكان.

ثمَّ وقفَتِ النساءُ الثلاثُ اللواتي تحدَّثن وقدَّمنَ القربانَ المقدَّس بعضُهنَّ لبعض. قالت كيت وهي تقدِّم الخبزَ إلى اليزابيث: "هذا جسدُ السيِّد المسيح المكسور لأجلك". قالت إليزابيث: "دمُ السيِّد المسيح المسفوك لأجلك" بينما كانت تقدِّم الكأسَ إلى كاثي. وشكَّلنا نحن البقيَّة صَفَّين غير مُتقَنَين في الممرِّ الأوسط لنَتناوَلَ ونشرَبَ انكسار الله.

لنبدأ مع هنري نووين

يجمَعُ كتابُ "**بذور الرجاء**" *(Seeds of Hope)* في مجلَّدٍ واحدٍ مختاراتٍ من أعمال نووين، وهو مقدِّمةٌ جيِّدةٌ للذين لا يمانعون في قراءة هذه الفقرات خارجَ سياقها. أُوصي بكتاب "**عودة الابن الضالّ**"، و"**حياة المحبوب**" ليكونا مقدِّمةَ مؤلَّفاته التي تنظرُ إلى داخل نفسه، ومع ذلك فهي مؤلَّفات تجلبُ الراحة إلى النفس بصورةٍ غريبة. وتسجِّلُ الكُتُبُ التالية "**مذكَّرات جنيسي**"، و"**الطريق إلى مركَز الفجر**"، و"**رحلةٌ سبتيَّة**" *(Sabbatical Journey)*، تأمُّلاتٍ شخصيَّةً متعلِّقةً بالسِّيرة الذاتيَّة. من بين كتب نووين الكثيرة الأولى، أستمتعُ خاصَّة بكتاب "**شكرًا**"، و"**الحميميَّة**"

(Intimacy). ويُعطي كتابان هما "**نووين عند ذلك**" *(Nouwen Then)*، و"**النبيُّ المجروح**" *(Wounded Prophet)* أفكارًا تأمُّليَّةً عن نووين من الذين كانوا يعرفونه.

خاتمة

لدى الكُتَّاب حقُّ التَّركيز على شيءٍ واحدٍ لأشهر، حتَّى لسنوات في بعض الأحيان. فكَّرتُ مؤخَّرًا كثيرًا في الأشخاص الثلاثة عشر في هذا الكتاب وكيف أثَّروا فيَّ. كان ذلك أشبَهَ ما يكونُ بدواءٍ منشِّط، أوصي بجرعاتٍ صغيرةٍ منه لأيِّ شخصٍ كان. اكتُبْ قائمةً بالأشخاص الذين شكَّلوا حياتَك نحو الأفضل، وحاوِلْ أن تعرفَ السَّبب.

عندما أراجعُ القائمةَ بأكملها، أرى أشخاصًا بنَقائصَ لا أشخاصًا كاملين. سيُشخِّصُ طبيبٌ نفسيٌّ على الأرجح حالةَ العديد منهم على أنَّهم غير مستَقرِّين. كان لدى كلٍّ واحدٍ منهم أحلامٌ لم تدخل عالم الواقع، ورغباتٌ شديدةٌ لم تتحقَّق. أتعلَّمُ منهم كيف أتعامَلُ مع رغباتي وأشواقي. هل يَدفَعونني باتِّجاه الشَّخص الذي أريدُ أن أكونَه ولم أنجح في أن أكونه، وباتِّجاه الله الذي أريدُ أن أعرفَه؟ أم هل يصيبونَني بالكآبة ويجعَلونَني أشعُرُ بالتَّعب والسُّخرية؟ تعلَّمْتُ من هؤلاء المرشِدين أن أشعرَ بالرَّغبات والأشواق على أنَّها إنذارٌ بشيءٍ أكثرَ استِحقاقًا لسعيي المتواصل حتَّى لو كان دون جدوى، وأنْ أقاوم التجربة لأرضى بأقلَّ من هذا.

قال سورين كيركيغارد: "بمساعَدة الشَّوكة التي في قدمي، أستطيعُ أن أقفزَ أعلى من أيِّ شخصٍ بقدمٍ سليمة". إنَّ بعضَ الأشخاص الذين وصفتُهم في هذه المجموعة يُبرهِنون على صحَّة هذا

المثل. أودُّ أن أضيفَ أنّنا نحتاجُ إلى مساعَدةِ الذين يبيّنون لنا بأيِّ اتّجاهٍ نقفز. بالنّسبة إليّ، هؤلاء الأشخاص يضعون إرشادات الطريق.

تَعامَلتُ في المقام الأوَّل مع ماضيَّ في هذا الكتاب، حيثُ إنَّ هؤلاء المرشدين وَضَعوني في مسارِ حَجّي في وقتٍ حاسمٍ عندما كانت معتَقداتي آخذةً في التكوُّن. أمّا بالنِّسبة إلى الحاضر- حسنًا، ذلك مَوضوعُ معظم كُتُبي الأخرى...

التعافي من إساءة الكنيسة

يقول فيليب يانسي إنَّه "أمضى معظمَ حياته وهو يتَعافى من الكنيسة". وهو صريحٌ بخصوص وجهات النَّظر العرقيَّة التي اكتسبَها في مجتمعٍ وكنيسةٍ ينتشرُ فيهما التعصُّبُ والتمسُّكُ بالنَّاموس. تحدَّثوا بالأمور التي تجعَلُكم تبدأُون في التساؤل عن حقيقة الأشياء التي تعلَّمتُموها في الكنيسة- إن وُجِدَت تلك الأُمور. ما المشاعرُ والعواطفُ التي اتَّصفَ بها تساؤلُكم؟

أسئلةُ مجموعةِ الدِّراسة

هل اختبَرتُم في أيَّة مرحلةٍ من المراحل تَناقُضًا بين تعاليم الكنيسة وأعمالها؟

في أيَّة طائفةٍ نشأتُم؟ ما أسعَدُ ذكرياتِكُم عن الكنيسة؟ وما أكثرُ الذكريات حُزنًا وأَلمًا؟

يتحدَّثُ يانسي بشأن أشخاصٍ مثل المليونير ميلارد فولر الذي هجرَ حياةَ الرفاهية ليُؤسِّس منظَّمةً لبِناء بيوتٍ لأشخاص لا يمكنُهم دَفْعَ أثمانها. كيف يمكنُ لهذه الرَّغبة والاستعداد لتَطبيق المرء إيمانَه عمليًّا أن تُعاكسَ الميولَ الطبيعيَّة لحياة العالَم؟ ما الدَّورُ الذي تلعبُه الكنيسةُ في ما أنتَ عليه اليوم؟

مارتن لوثر كِنغ الابن

يصفُ يانسي نشأتَه في أجواء التَّمييز العنصريِّ في الجنوب في خمسينيَّات وستِّينيَّات القرن الماضي.

حتّى لو لم نكن قد كبرنا في مُناخ عرقيٍّ واضح كهذا، فإنَّ قلَّةً منّا نجَتْ من بعض أشكاله. ما الافتراضاتُ العرقيَّةُ التي نشأتُم عليها؟ ما الذي جعلَكُم تبدأون تُدركون أنَّها ليسَتْ "صحيحة" أو أنَّها "عاديَّة"؟

يُتَّهَمُ مارتن لوثر كِنغ الابن بوجود نقائصَ أخلاقيَّةٍ شخصيَّةٍ في حياته، غير أنَّه كان عاملًا قويًّا للمُساواة والتَّغيير. كيف يمكنُنا أن نوفِّقَ ما بين جانبَي شخصيَّته؟ هل ينفي جانبٌ واحَدٌ الجانب الآخر أو يقلِّلُ من شأنه؟

هل يمكنكم أن تفكِّروا في رجالٍ ونساء آخرين يبدو سلوكُهم الشخصيُّ مُتَناقِضًا إلى هذا الحدّ؟ ما الذي يجعَلُكم تَغفِرون أو تَقبَلون ازدواجيَّةً كهذه؟

هل قبولُ الممارسات الاخلاقيَّة المشكوكِ فيها لقائدٍ ما يُضعِفُ النَّسيجَ الأخلاقيَّ للمجتمع؟

ما الفرقُ بين السَّلبيَّة والسِّلمِيَّة؟ هل تَرَون مكانًا للتحرُّك السلميِّ في المجتمع المعاصِر؟ لماذا؟

جي. كاي. تشيسترتون

كتبَ سي. أس. لِويس قائلًا: "لا يمكنُ لرجلٍ شابٍّ يرغب في البقاء متَمسِّكًا بقوَّةٍ بإلحاده، أن يكون دقيقًا جدًّا في قراءته". ماذا تعني لكَ هذه العبارة؟ هل واجَهتُم سابقًا قراءةً تُغيِّرُ إلى هذا الحدّ؟

كان ردُّ فعل شقيق يانسي على نشأتهم المقيَّدة هو الانطلاقَ "في رحلةِ بحثٍ كبيرةٍ عن الحرِّيَّة". أظهرَ ليانسي فشلُ أخيه "القوَّةَ المدمِّرةَ لطَرْح الإيمان جانبًا دون أن يحلَّ مكانَه أيُّ شيءٍ". هل مررتُم بتَجرِبةِ بحثٍ كبيرةٍ كهذه عن الحرِّيَّة؟ تحدَّثوا بشأن العلاقة ما بين الإيمان والحرِّيَّة. لماذا تُعدُّ الحرِّيَّةُ مَفهومًا مخيفًا بالنِّسبة إلى بعض الناس؟

تحتوي الطبيعةُ على الجمال المهيب والقسوة التي لا توصَف. ماذا عنى تشيسترتون عندما قال: "الطبيعةُ ليسَت أمَّنا؛ الطبيعة هي أختُنا".

لماذا تعتقدُ أنَّنا نختارُ المتعة؟ ما الدَّور الذي تلعبُه في خليقةِ الله؟ لماذا تركِّزُ الكنيسةُ بقوَّةٍ على مخاطرِ المتعة؟

كان تشيسترتون يزن ثلاث مئة إلى أربع مئة رطل (نحو ١٣٥ إلى ١٨٠كغم)، ممَّا يُظهِرُ مثالًا واحدًا كيف يمكنُ أن تكونَ متعةٌ حسِّيَّةٌ مثل تَناوُلِ الطَّعام مُدمِّرةً في النهاية. كيف يمكنُنا أن نتذوَّق المتعةَ ونتجنَّبَ الانغماسَ المفرطَ المُدمِّر؟

طرحَ تشيسترتون للنِّقاش مَوضوعَ الإيمان مع خفَّة الظِّلّ. كيف يمكنُ أن يستَفيدَ المسيحيُّون اليومَ من روح الدُّعابة لدى تشيسترتون؟

الدكتور پول براند

تعلَّمَ فيليپ يانسي من پول براند أنَّ "من الممكن بالفعل أن نعيشَ في مجتمعٍ عصريٍّ ونحقِّقَ النَّجاح دون التخلِّي عنِ التواضع والتَّضحية في خدمة الآخرين، ومع ذلك نختبرُ الفرحَ والقناعة". هل تعتَقدون أنَّ هذا النَّوع من الحياة يمكن بلوغُه، وأنَّه نوعُ حياةٍ مرغوبٌ فيه؟ ما الذي يجعَلُ شخصًا يملكُ الشُّهرة والغنى والسُّمعةَ الجيِّدة أن يختارَ حياةَ التستُّر والقلَّة؟ هل يمكنُكم التَّفكير في نماذج كهذه؟ هل يُعدُّ هذا النموذج مُلهِمًا أو مُثيرًا للخَوف؟

يُقرُّ يانسي أنَّ مشكلةَ الألم كانت أحَد موضوعاتِ مؤلَّفاته. كيف يمكنُكم تعريفُ هذه المشكلة؟ كيف يمكنُنا أن نوفِّقَ ما بين فكرةِ الله المُحِبِّ ووجود الألم في العالم؟ هل يمكنُكُم التفكيرُ في أسبابٍ تُشعِرُكم بالعرفان على وُجودِ الألم؟ كيف يمكنُنا أن ننظرَ إلى الألم بوصفه عطيَّة؟

هل تؤمنون بأنَّه يمكنُ الثقة بالله؟ لماذا؟

تعلَّمَ پول براند من والدَيه "أنَّ المحبَّة لا يمكنُ تطبيقها إلَّا من شخصٍ إلى آخر". لماذا يبدو في أحيانٍ كثيرة أنَّ رعايةَ المجموعات هي أكثرُ سُهولةً من رعاية الأفراد؟

ماذا كان يسوعُ يعني عندما قال: "طوبى للَّذين يحتملون نصيبَهم من آلامِ العالم. في النهاية سيَعرفون سعادةً أكبر من أولئك الذين يتَجنَّبونها".

الدكتور روبرت كولز

كتبَ يانسي: "إنَّ تحمُّلَ تجربة الآخرين هو أيضًا جزءٌ من عَمَلِ الكاتب". كيف يعرفُ القارئ متى يَثِقُ بخبرةِ تحمُّلِ تجربةِ الآخرين التي يقدِّمُها الكاتب؟

كانت روبي بريدجز ذات الستِّ سنوات تُصطَحَبُ يوميًّا وسط حشدٍ غاضب، وكانت "تحضرُ إلى مدرسةٍ فارغةٍ لتَجلسَ وحدَها في غرفة الصفِّ طوال اليوم". تخيَّلوا أنفُسَكُم مكانَها، أو مكانَ والدَيها. ما الذي يُعطي الشخصَ قوَّةً ليَحتملَ محنةً قاسيةً كهذه؟ ماذا تقولون لوالدٍ أو والدةٍ سمحَ لطفله بأن يحتملَ خبرةً كهذه؟ هل كان عليكم أن تتصرَّفوا بشجاعةٍ من أجل قضيَّةٍ ما في أيِّ وقتٍ مضى؟

آمن روبرت كولز بأنَّ الدِّين بالنِّسبة إلى الفقراء "لم يكن سندًا بل مصدرَ إلهام". قال كارل ماركس: "الدِّين أفيون الشعوب". ما الذي يجعَلُ أحَد هذين الرأيَين أكثرَ إقناعًا من الآخر بالنِّسبة إليكم؟

ماذا نتعلَّمُ من مَثَل الابن الضالِّ الذي رواه يسوعُ حيثُ يحبُّ الأبُ الابنَ الضالَّ والابن الملتزم بالتَّساوي؟ ما النَّصيحةُ التي تقدِّمونها في حالةٍ مشابِهة، لوالدٍ لديه ابن "صالح" وابن "سيِّئ"؟ أين مكانُ مَفهوم "الحبَّ الحازم أو الصارم" في سيناريو كهذا؟

هل تعتقدون أنَّ الغنى يجعَلُ الناسَ أقلَّ تَعاطُفًا ورأفة؟ ماذا نربح/نخسر من غِنانا النِّسبيّ؟

ليو تولستوي وفيودور دوستويفسكي

من خلال تولستوي ودوستويفسكي، اكتسَبَ يانسي "فهمًا للتوتُّر القائم بين الواقع والمُثُل المسيحيَّة العُليا". هل يمكنُكم تحديدُ مُعتَقداتٍ وسلوكيَّاتٍ تخلقُ هذه الفجوة؟ مَن الأشخاص الذين ساعدوكم على التَّعامُل مع الحياة كما يقول المسيحيُّون إنَّها يجب أن تكون، والحياةُ كما هي الآن؟

إنَّ رغبةَ تولستوي في تطبيق إيمانه خلال حياته سبَّب الألم والمعاناةَ لعائلته. تحدَّثوا بشأن المخاطر والفضائل الخاصَّة بمُثُلكم العُليا، والتي لا تَستَطيعون تطبيقَها عمليًّا.

ماذا يعني أن يقولَ المرء "انتقدني أنا بدلًا من انتقاد الطريق الذي اتَّبعُه"؟

اختبر دوستويڤسكي عمليَّةَ إعدامٍ زائفة غيَّرت حياتَه. تحدَّثوا بخبراتٍ قريبة من الموت أو كوارث طبيعيَّة، أو بأيِّ حدثٍ مؤلم يمكنُ أن يكونَ قد غيَّرَك بطريقةٍ أو بأخرى.

من خلال دوستويڤسكي، بدأ يانسي "يفهمُ النعمة ليس بوصفها مفهومًا لاهوتيًّا، بل واقعًا حيًّا يعمَلُ في عالم اللَّانعمة". ماذا تعني لكم "النعمة" و"اللَّانعمة"؟

في بداية هذا الفصل وفي نهايته، يطرحُ يانسي سؤالًا أساسيًّا عن الإيمان: "لماذا لا يمكنُ تطبيقُه عمليًّا؟" كيف تجيبون عن هذا السؤال أو تفنِّدوه؟

المهاتما غاندي

قال غاندي إنَّ القائدَ "هو مجرَّدُ انعكاسٍ للشَّعب الذي يقودُه". فكِّروا في بعض القادة في حياتكم، ليس فقط القادة الوطنيِّين وقادة الدولة، بل قادة المجتمع. ماذا يعكسون من المجتمع؟

كيف لشخصٍ واحدٍ أن يُحدِثَ تأثيرًا كبيرًا في عالمٍ كَونيٍّ هائلٍ ومادِّيّ؟ ما الذي يمنعُ معظمَنا من أن نمارسَ قوَّةً مثل قوَّة غاندي؟

كيف يمكن أن تتجاوَبَ الولاياتُ المتَّحدة إذا ما أعلَنَتْ شخصيَّةٌ وطنيَّةٌ بأنَّها ستَصومُ لتَعزيز قضيَّة ما؟ لِنَقُلْ إنَّ عضوًا رائدًا في مجلس الشيوخ تعهَّد بأن يصومَ حتَّى الموت ما لم يسنَّ مجلس الشيوخ جملةَ إصلاحاتٍ ماليَّة؟ إذا تعهَّدتْ لورا بوش بأن تصومَ حتَّى الموت إلى أن يجري التَّأكيد على أنَّ جميعَ الأطفال سيَنالون تعليمًا كافيًا؟

كيف تتغيَّرُ حياتُك إذا ما تخلَّيتَ عن ممتلكاتٍ مادِّيَّةٍ أو مارستَ بشكلٍ جذريٍّ نمطَ حياةٍ أكثرَ بساطة؟ كيف تشكِّلُنا الحاجةُ إلى حيازة الأشياء بصفتنا أفرادًا ومجتمعات؟

ما الذي يجعَلُ شخصًا ما قدِّيسًا؟ ماذا يحدُثُ إذا ما ظهر قدِّيسٌ بيننا؟

ما أوجُهُ الشَّبه ما بين مارتن لوثر كِنغ الابن والمهاتما غاندي؟ وما أوجُهُ الاختلاف؟ هل يُعدُّ أحَدُهما أكثر جاذبيَّةً بالنِّسبة إليك من الآخر؟ لماذا؟

الدكتور سي. إيڤرت كوپ

عيَّن رونالد ريغان كوپ ليكونَ جرَّاحًا عامًّا بناءً على موقفه القويِّ المناهض للإجهاض. لكنَّ كوپ صارَ محورَ جَدَلٍ عندما أعلن أنَّ "الدِّراسات العلميَّة لا تقدِّم بياناتٍ قاطعةً حول التأثيرات الصحِّيَّة للإجهاض في النساء". كيف يمكنُ التَّوفيق ما بين هذه الجملة ومعارضته المستمرَّة والطويلة الأمد للإجهاض؟ كيف يكونُ تجاوُبُك عندما لا تدعَمُ الحقائقُ معتَقداتِك أو تعاليمَ كنيستك؟

يدعو المحافظون في أغلب الأحيان إلى سَيطرةٍ أقلَّ للحكومة على أمورٍ مثل البيئة ومجال الأعمال، لكنَّهم يُناصِرون سيطرةَ الحكومة على مجالاتٍ مثل الإجهاض والأنشطة الجنسيَّة. ما الدَّورُ الذي يمكنُ للإيمان أن يلعبَه في التَّوفيق ما بين هذين القطبَين المتَعاكسَين في الظاهر؟ كيف تتجاوَبُ عادةً مع أشخاصٍ لديهم مشاعرُ قويَّةٌ تُجاهَ مواقفَ تختلفُ عن مواقفك؟

تعلَّمَ كوپ أن يميِّزَ ما بين اللَّاأخلاقيِّ وغيرِ القانونيّ؟ هل الخطيَّة مفهومٌ لا يُجاري العصر؟

جون دون

عندما اعتقدَ جون دون أنَّه على وشك الموت، وقعَ في صراع مع معنى المعاناة في كتابه "**تأمُّلات**". لماذا تعتقدُ أنَّ الله يسمَحُ لنا بأن نعاني؟ ماذا نتعلَّمُ من حقيقة أنَّ الله صارَ إنسانًا واحتمَلَ ألم الصَّلب وإذلالَه؟

حتَّى أنِ اعتقَدْتَ أنَّ التجسُّدَ خرافة، لماذا ظلَّتْ هذه القصَّةُ تُسيطرُ سيطرةً قويَّةً

على مخيِّلة الإنسان مدَّة ألفي سنة؟ ولماذا نسلِّمُ جَدَلًا بوُجود الصحَّة ونبحث عن المعنى في المعاناة؟

نشأ العديدُ منَّا ولديهم أفكارٌ خاصَّةٌ عن الحياة بعد الموت. هل لديك رؤيةٌ عن الحياة بعد الموت؟ ماذا تُشبِهُ السَّماء؟ الجحيم؟ كيف تطوَّرَتْ وجهةُ نظرِكَ منذ طفولتك؟

آني ديلارد

نشأ فيليب يانسي في بيئةٍ أصوليَّةٍ متَشدِّدة، ونشأت آني ديلارد في بيئةٍ اجتماعيَّةٍ مَيسورة. غير أنَّ كلَيهما قاما برحلةِ بحثٍ روحيٍّ دامَت مدى حياتهما. كيف تُشكِّلُ خبرةُ الطفولة الإيمانَ في فترة البلوغ؟ تحدَّثوا بشأن خبرتكم المتعلِّقة بالطبيعة. ماذا تعلَّمتُم منها؟

ما الكتبُ التي كانت هاديًا لكم في رحلة إيمانكم؟ ما الذي تقدِّمه الكتبُ "العَلمانيَّة" ولا تقدِّمه الكتبُ "الدينيَّة" البحتة؟ أيضًا، ما الذي تقدِّمُه الكُتُبُ الدينيَّة ولا تقدِّمُه الكُتُبُ العَلمانيَّة؟

تستمتعُ آني ديلارد ببعض جوانب العبادة المسيحيَّة المحافِظة. ما نَوعُ الخدمات الدينيَّة التي تجذبُك؟ ما الذي يجعَلُكَ تشعرُ بعدم الراحة؟ ما الذي يمكنُ أن تتعلَّمَه من تجرِبة كلا النَّوعَين؟

فريدريك بوشنر

رفضَ بوشنر التَّفسيراتِ العقليَّةَ لخبرة التحوُّل الدينيّ، ونظرَ إليها بدلًا من هذا باعتبارها "نموذج النعمة المجنونة المقدَّسة التي تخرجُ من وقتٍ إلى آخر". كيف تنظرُ إلى تفاعُلِ الله مع التاريخ؟ ما هدفُ البحث عن الله في التاريخ؟

إنَّ عددًا من الأشخاص الذي كتبَ عنهم يانسي في هذا الكتاب، بمَن فيهم نفسه، أجروا محاولاتٍ مقصودةً لتَبسيط حياتِهم. ما التحدِّيات التي ينطوي عليها قرارٌ كهذا؟ ما المكتَسَبات؟ ما الخسائر؟

في مرحلةٍ حرجة- مَوتِ أحَد الأحبَّاء، فقدانِ وظيفة، مرضٍ مُنهِك- يعبِّرُ أحَدُ الأصدقاء عن ثقته بالله. ما ردُّ فعلك؟

شوساكو إندو

ما الذي تتذكَّرُه من مخاوفك خلال الحرب الباردة أو حرب الخليج؟ إذا كنتَ صغيرًا جدًّا لتتذكَّرها، كيف تتجاوَبُ مع قصصٍ عن الخوف من القنبلة الذرِّيَّة، وأزَمة الصواريخ الكوبيَّة، وتعذيب الشيوعيِّين لأعدائهم؟ ما الذي نخافُ منه اليوم؟ ما الذي تقولُه لنا مخاوفُنا بشأن العالم الذي نعيش فيه؟

جذبَتْ قصصُ الشهداء اليابانيِّين المسيحيِّين اهتمامَ إندو. كيف أثَّرَتْ فيك قصصُ الشهادة؟ وكيف تغَيَّر ردُّ فعلك بمرور الوقت؟

ما الذي يجعَلُ الشخصَ "إنسانًا من الخارج"؟ كيف يمكنُنا تحديدُ هُوِيَّة الأشخاص الذين "ليسوا منَّا"؟ كيف نعامِلُهم؟

أشارَ يانسي إلى أنَّ تشديدَ المسيحيَّة على محبَّة الأب منعَتِ اليابانيِّين من تقبُّلها بالحماس الذي تقبَّلوا به ظواهرَ غريبةً كثيرةً أُخرى. يعترضُ بعض اللَّاهوتيِّين المعاصرين على اللغة التي تنسبُ جنسانيَّةً إلى الله. كيف كان تأثيرُ فهمكَ لجنس الله- مذكَّرًا كان أم مؤنَّثًا- في فهمك للأُلوهيَّة؟

ما سببُ وُجود مَيلٍ لدى "الكُتَّاب الذي يكتبون عن موضوع الإيمان إلى جَعْلِ شخصيَّاتهم أكثرَ قبولًا"، في حين أنَّ لدى الكثير من شخصيَّاتِ الكتاب المقدَّس العظيمةِ عيوبًا ونقائصَ عميقة؟

هنري نووين

ما رأيُكَ في رجلٍ مثل نووين هجرَ حياةَ الشُّهرة والإطراء، ليتحمَّلَ مسؤوليَّة الاعتناء برجلٍ معوَّق جسديًّا على نحوٍ شديد؟

في حين يرى الكثيرون التحرُّك نحو الأسفل، يرى نووين "التحرُّك نحو الداخل". كيف يمكنُ اعتبارُ التخلِّي عن حياةٍ عامَّةٍ في التعليم لمصلحةِ حياةٍ أكثرَ خصوصيَّةً في مجتمعٍ صغيرٍ تقبُّلًا لمواهبِ الله بدلًا من التَّخلِّي عنها؟

لم يعتَرفْ نووين علنًا بميوله المثليَّة. معظمُ الكنائس المسيحيَّة منقسمة على نفسها بخصوص قضايا الزواج المثليّ، ورِسامة رجالِ دينٍ مثليِّين جنسيًّا. هل يجبُ على رجال الدِّين أن يقرُّوا عَلَنًا بمثليَّتهم الجنسيَّة؟ كيف سيَكونُ ردُّ فِعْل أعضاءِ كنيستك على وجود قسٍّ مثليٍّ جنسيًّا؟ ماذا عن ردِّ فعلهم بشأن الزَّواج المثليّ؟

نبذةٌ عن الكاتب

كتبَ فيليپ يانسي ستَّة عشرَ كتابًا، بما في ذلك الكتبُ الأكثر مبيعًا وشهرةً:

- **"محاولة اللقاء مع إله غير منظور"** *(Reaching for the Invisible God)*
- **"ما أعجب النعمة"** *(What's So Amazing About Grace)*
- **"يسوع الذي لم أكُن أعرفه"** *(The Jesus I never Knew)*
- **"عندما لا تمطر السماء"** *(Disappointment with God)*،

وهو من أوفير للطباعة والنشر.

بيعَتْ أكثرُ من خمسة ملايين نسخة من مؤلَّفاته وحصدَت جوائزَ عديدة، بما في ذلك جائزة كتاب السنة في مجلَّة "**المسيحيَّة اليوم**"، وجائزتَين لكتاب السنة من "جمعيَّة الناشرين المسيحيِّين الإنجيليِّين" (Evangelical Christian Publishers Association) واختصارها (ECPA). يعيشُ فيليپ يانسي مع زوجته جانيت في ولاية كولورادو.



تربّى فيليب يانسي في عائلةٍ محافظة من الجنوب الأميركيّ، وكان يميلُ إلى النظر إلى الله على أنَّه "شرطيٌّ ساخط يبحثُ عن أيِّ شخصٍ يحاول التمتُّع بحياته ليقبضَ عليه". هكذا يُعبِّر يانسي عن "تعافيه" من كنيسةٍ أدَّت ممارساتُها إلى ترسيخ هذه الصورة الخاطئة عن الله.

وينعكسُ هذا في ما قالَه مرَّةً: "أنا أؤلِّف كُتبًا لنفسي. أنا حاجٌّ أتعافى من التربية الكنسيَّة السيِّئة، وأبحثُ عن الإيمان الذي يجعلُ تابعيه أشخاصًا أكبر لا أصغر. أشعر بعرفانٍ غامرٍ لتَمكُّني من وَضْع كتاباتٍ حيَّة في ما يتعلَّق بالأسئلة التي لطالَما أثارت اهتمامي".

من أهمِّ كتبه: "عندما لا تمطر السماء"، و"يسوع الذي لم أكن أعرفه"، و"أين الله عندما أتألَّم؟"، و"ما أعجب النعمة".

Soul Survivor *by* Philip Yancey

يقولُ فيليپ يانسي في أثناء سرده رحلتَه الروحيَّة: "أمضيتُ معظمَ حياتي وأنا أتعافى من الكنيسة"، وهو صادقٌ في هذا على نحوٍ لاذع. يُعدُّ يانسي من الكُتَّاب المسيحيِّين الأكثر تأثيرًا اليوم، وقد نجحَ في رحلة إيمانه الشخصيِّ على الرُّغم من وجوده في فترةِ حياته الباكرة ضمن تديُّنٍ عنصريٍّ ناموسيّ، والذي قليلًا ما شابه أخبار الإنجيل السارَّة. في كتاب **بالكاد نجَوت**، والذي يُعدُّ أكثرَ كُتُبه التي تبحَثُ في داخل النفس البشريَّة، يسردُ قصَّة كفاحه في مشوار الإيمان، ويَصِفُ خبرتَه بين العديد من الشخصيَّات المرموقة ممَّن كانوا مرشدين له.

بالكاد نجَوت هو أشبَهُ ما يكونُ بتكريمٍ وعرفانٍ بالجميل لثلاث عشرة شخصيَّةً استثنائيَّة غيَّرتْ حياة يانسي وعملَه. بالإضافة إلى سَرْدِ تأثيرهم فيه، يقدِّم يانسي لمحاتٍ حديثةً عن حياةِ كلٍّ واحدٍ منهم ورحلة إيمانه. من الصحافيِّ المشتَّت الذِّهن، جي. كاي. تشيسترتون، إلى الروائيَّين المعذَّبَين، ليو تولستوي وفيودور دوستويڤسكي، إلى معاصرين مثل د. پول براند وآني ديلارد وفريدريك بوشنر- يقدِّم يانسي صورًا مُلهِمةً لهؤلاء الَّذين قدَّموا إليه نموذجًا لإيمانٍ حيٍّ وحياةٍ مشرقة.

ISBN 978-90-5950-134-8
9 789059 501348

أوفير
ophir